

# تَفسِيرُ القُـرآنِ العَظِيـمِ

## بالأَمثال والمَعاني المعُاصِرة

د. أحمد حسين الرفاعي

القدس

الجزء الأول



# تفسير القرآن العظيم

## بالأمثال والمعاني المعاصرة

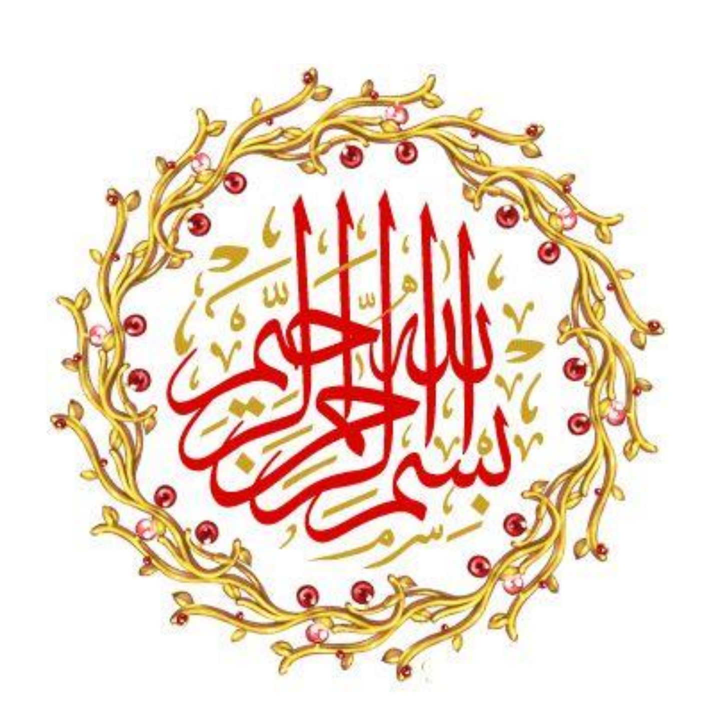


د. أحمد حسين الرفاعي



القدس

(الجزء الأول)


بسم الله الرحمن الرحيم




الحمد لله الذي نزّل القرآن ليكون للعالمين نذيراً، الحمد لله الذي علّم القرآن، خلق الإنسان، علّمه البيان، الحمد لله الذي علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، جعل القرآن هداية للناس، منه بدأ وإليه يعود، نزل به الروح الأمين على قلب محمد ﷺ بلسان عربي مبين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد، تكفّل الله بحفظه وتعبّدنا بتلاوته وتدبّر آياته ومعانيه، جمع الله فيه خيري الدنيا والآخرة، من تمسّك به نجا، ومن أعرض عنه ضلّ ووقع بالرّدى، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله النبيّ الأكرم، علم القرآن فكان خير معلم.

فالقرآن الكريم هو كلام الله تعالى، وهو كتاب الإسلام الخالد، ومعجزته الكبرى، وهداية للناس أجمعين، أنزله على نبيه محمد ﷺ باللفظ والمعنى، وقد تعبدنا الله بتلاوته آناء الليل وأطراف النهار، فيه تقويم للسلوك، وتنظيم للحياة، من استمسك به فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها، ومن طلب الهدى في غيره فقد ضل ضلالا بعيدا، وقد جعل الله تعالى القرآن الكريم كتاب هداية، ومنهاجاً للأمة؛ ليسير الناس على هداه، والواجب على المسلمين جميعا، أفرادا وجماعات، أن يُسخّروا كلّ ما يملكون من الإمكانات والطاقات

لخدمة هذا الدين العظيم، وإنّ من أعظم ما يُخدم به هذا الدين تفسير كلام الله ﷻ، وتوضيحه واستخراج معانيه، لأن فيه الأمر والنهي والمنهج، وقد ورد عن عمر[١] رضي الله عنه أنه قال: «عظِّموا القرآن»[٢]، وقال الإمام النووي[٣]: "أجمع المسلمون على وجوب صيانة المصحف واحترامه"[٤].

---

(١) عمر بن الخطاب بن نفيل القرشي العدوي، أبو حفص (٤٠ ق هـ - ٢٣ هـ)، ثاني الخلفاء الراشدين، وأول من لقب بأمير المؤمنين، الصحابي الجليل، الشجاع الحازم، صاحب الفتوحات، يضرب بعدله المثل، كان في الجاهلية من أبطال قريش وأشرافهم، أسلم قبل الهجرة بخمس سنين، وشهد الوقائع. [الذهبي، **سير أعلام النبلاء** تحقيق شعيب الأرناءوط، (راشدون/ ٧١)، مؤسسة الرسالة، ط٣، (د.م.ن)، ١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م].

(٢) القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد شمس الدين القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن،** تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش (١/ ٢٩)، دار الكتب المصرية،القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

(٣) الإمام الحافظ محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف بن مرِّي النووي الشافعي الدمشقي المشهور بـ "النووي" (٦٣١-٦٧٦هـ)، وهو أحد أشهر فقهاء السنة، واعتمد عليه الشافعية في ضبط مذهبهم. [**زركلي، الأعلام** (٨/ ١٤٩)].

(٤) النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، **التبيان في آداب حملة القرآن**، تحقيق: محمد الحجار (ص ١٠٨)، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

## أسباب اختيار الموضوع:

١. الرغبة في الكتابة حول تفسير معاصر، يتميّز بضرب الأمثال والمعاني المعاصرة، ودوره في تقريب تفسير القرآن وفهمه.

٢. التأثير الكبير لتفسير العلماء المعاصرين في نفوس الناس؛ بتوظيف أسلوب ضرب الأمثال والمعاني المعاصرة الذي تقرّب معنى الآيات والأحكام، وتسهّل فهمها للعامة والخاصة.

٣. أسلوب العلماء المعاصرين العلمي في دعوتهم؛ فهو يخاطب العقل الإنساني ويلبّي ما ينقصه عن طريق ضرب الأمثال بطريقة سلسة وسهلة.

٤. يمنح الفرصة لعامة الناس لفهم آيات الله تعالى بسهولة عن طريق ضرب الأمثال من واقع الحياة المعاصرة.

## أهمية الدراسة:

١. أنها تُبْرز الأمثال التي استحضرها الشيخان الشعراوي والنابلسي في تفسير القرآن الكريم، وتوظيفها لفهم الآيات وتقريب النصوص، وهي أمثلة واقعية أو وهمية مستوحاة من واقع الحال الذي نعيشه.

٢. أنها تبحث في أحدث أساليب التربية والتعليم الناجحة وأشهرها، والمؤثرة في تربية الناشئة، وهو أسلوب ضرب الأمثال لتقريب معنى القرآن إلى الأذهان، مستخدمة في ذلك قوة الإقناع العقلي والعاطفي.

**٣.** أنها تناقش دور الأمثال في تفسير الشيخين، والآراء الفقهية المتعلقة بها.

٤. أن له طابعا خاصّا في إيجاز اللفظ مع إصابة المعنى بدقة دون إطناب أو إسهاب، وتوضيح الغامض في مهارة عالية، وأسلوب حكيم في الدعوة إلى الله تعالى.

٥. أنها تُبرز أحد أهمّ أساليب التربية القديمة والحديثة لعرض قضيّة ما في قوالب أدبيّة وبلاغيّة تخاطب العقل والعاطفة، فإذا غابت هذه القضية عن الأذهان فقد تستحضرها العقول وتتصوّرها الأفهام وتجعلها أمرا ماثلا أمام القارئ.

٦. أنها تصوير متحرك لقضايا معينة، يظهر فيه بيان المشاعر النفسية الإنسانية.

٧. أن لهذه الدراسة تأثيرا فعّالا على النفس الإنسانية، بالتعلم وتغيير السلوك إلى الأفضل من خلال البراعة في التصوير والقدرة على التشخيص عن طريق ضرب الأمثال في تفسير القرآن.

٨. إضافة دراسة جديد ومعاصر حول أهمية ضرب الأمثال من واقع الحال ودورها في تقريب فهم القرآن الكريم.

٩. هذه الدراسة تلفت الانتباه باستخدام أسلوب التشويق الرائع، وتشدّ أذهان الجميع للقراءة والمتابعة بأسلوب ضرب الأمثال من واقع الحال.

١٠. تحديد معاني القرآن الكريم بدقة عن طريق ضرب الأمثال، بعيدا عن القول بالرأي من غير علم أو بتأويل غريب.

١١. اهتمام الأسرة المسلمة في وقتنا الحاضر بأسلوب ضرب الأمثال في تفسير الشيخين، والرغبة في متابعة قراءة أو سماع هذا النوع من التفسير.

## أهداف البحث:

١. إبراز الدَّور الوظيفي الهامِّ لأسلوب ضرب الأمثال من واقع الحال، في تقريب معاني القرآن إلى الأذهان في تفسير القرآن.

٢. الإسهام في تحقيق الأهداف التربوية الدينية في تقريب المعنى العام للقرآن بأسلوب ضرب المثل لفهم المعنى الدقيق للآيات، عن طريق تشبيه الأمور المجرّدة بالأمور الحسيّة.

٣. الإسهام في تحقيق الأهداف التربوية الدّينية في تغيير السلوك السلبي عند القارئ، عن طريق ضرب المثل الذي ينهجه الشيخان في تفسيرهما للقرآن.

٤. إظهار الحق والترغيب فيه، وتعرية الباطل والتحذير منه، في أسلوب الشيخين الشعراوي والنابلسي من ضرب الأمثال في تفسير القرآن.

٥. تحريك الدافعية وتفعيلها لدى القراء والمتعلمين، كالاندفاع بالحب تجاه أمور مرغوب فيها، أو بالكراهية تجاه أمور مكروهة، من خلال أسلوب ضرب الأمثال الذي سلكه الشيخان في تفسيرهما.

٦. تجسيد المعاني الذهنية في صورة محسوسة بهدف العلم والفهم.

٧. التوافق والانسجام التام بين واقع المسلمين في هذا العصر وتعاليم القرآن ومنهج الله تعالى، من خلال ضرب الأمثال.

٨. توفير مرجع نصّيّ في المكتبة الإسلامية لهذا الأسلوب، مكتوب وموثق ومنظم بالطرق العلمية لأول مرة فيما أعلم، لمن يرغب في استبدال القراءة النصيّة بالسماع الصوتي.

## منهجية البحث:

١. اعتمد الباحث على المنهج الاستقرائي؛ وذلك بجمع المواضع التي ورد فيها ضربٌ للأمثال بالقراءة والاستماع إلى جميع حلقات التفسير التي عقدها الشيخان من الموقع الرسمي لهما.

٢. اعتمد الباحث أيضاً على منهج تحليل المضمون، وهو أحد أشكال المنهج الوصفي، والعمل من خلاله بالتعليق والشرح والتوضيح والنقد لما ذكره الشيخان في أمثالهما بأسلوب معاصر مرتبط بواقع الحال.

## الخطوات الإجرائية للدراسة:

١. جمع المواضع التي فيها ضربٌ للأمثال في تفسير الشيخ الشعراوي والنابلسي، وتقسيمها بحسب موضوعها تحت عناوين فرعية مختصرة وموجزة.

٢. ذكر المثل الذي يذكره الشيخ، ثم التعليق والتعقيب عليه ونقده إن لزم الأمر.

٣. كتابة الآيات القرآنية بخط المصحف الشريف (الرسم العثماني) باللون الغامق، مع ذكر اسم السورة ورقم الآية في المتن بجانب نص الآية.

٤. تخريج الأحاديث النبوية الشريفة، والحكم على الأحاديث الواردة في غير الصحيحين، وتوثيق ذلك في الهامش.

٥. كتابة جميع الأمثال الواردة في هذه الدراسة، المقتبسة من الآيات والأحاديث والدروس باللون الغامق.

٦. اعتماد التسلسل الرقمي للأمثال التي ذكرها الشيخ النابلسي لسهولة ويسر المتابعة.

٧. توثيق المسائل الواردة في البحث من مصادرها مباشرة.

٨. تسجيل أهم النتائج التي توصل إليها الباحث من خلال هذه الدراسة.

**حدود الدراسة:**

هذه الدراسة محدودة بانتقاء شواهد وفوائد تتعلق بضرب الأمثال والمعاني المعاصرة في تفسير سورة الفاتحة وسورة البقرة وسورة آل عمران، مع تداخلات كثيرة من آيات من سور أخرى من القرآن، للشيخ محمد متولي الشعراوي والشيخ محمد راتب النابلسي، وغيرهما من العلماء المعاصرين والقدامى، باعتبار أن هذه السور الثلاث اشتملت على معاني القرآن كله، واشتملت على مواضيعه كلها.

**الخطة التفصيلية:**

اشتملت هذه الدراسة على تعريف ضرب المثل لغة واصطلاحا، وأنواع المثل، وفائدة ضرب المثل وأهميته، وصور من ضرب المثل في القرآن الكريم والحديث النبوي، ثم ضرب الأمثال لتقريب معنى الإيمان بالله، والإيمان بالرسل، والإيمان بالغيب، واليوم الآخر، والهدى والضلال، والبلاء، والنفاق، والموت، وفي مجال العبادات والمعاملات، كالصلاة، والمال والنفقات، والدعوة، وعرضِ الحقائق، وفي مجال الآفاق والأنفس، كالأرض والسماء، وعظيم خلق الله في



الإنسان والحيوان والنبات، ثم الخاتمة، وفيها أبرز النتائج والتوصيات التي توصل إليها الباحث.

وأختمُ المُقدّمة بأن أسأل الله تعالى أن يتقبّل منّي هذا العمل في الدنيا والآخرة، خالصاً لوجهه الكريم، وأن يجعله من الأعمال التي يجري نفعها في الدنيا والآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون.

**د.أحمد حسين الرفاعي**

**القدس**




تناول هذا الكتاب تفسير القرآن بالأمثال والمعاني المعاصرة، اشتمل على شواهد وفوائد وشروحات العلماء المعاصرين، أبرزهم العالم الداعية الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله، والشيخ الداعية محمد راتب النابلسي حفظه الله، وكان من أهم الدوافع لإعداد هذا الكتاب: الرغبة بالكتابة حول تفسير معاصر يلبّي رغبة الجيل الجديد يتميّز بالشرح المعاصر في وقتنا الحاضر، وتوظيف طرق جديدة في تعريف الناس على كتاب الله تعالى، وبيان حرامه وحلاله ببساطة ويُسر، والحرص على خدمة كتاب الله تعالى، وإحياء علومه في مجال التفسير شكلا ومضمونا للعامة والخاصة.

وتظهر أهمية هذه الدراسة من أهمية موضوعها؛ فهي تبحث في القرآن الكريم، الذي يشتمل على أرقى أساليب التعليم الناجحة والمؤثرة في تربية الناشئة، وقد قامت هذه الدراسة أصالة على المنهج الاستقرائي؛ وذلك بجمع الأمثال التي وظفها الشيخان في تفسيرهما، ثم تدوينها وشرحها والتعليق عليها، ومقارنتها ونقدها واستخلاص النتائج من كل ذلك، على طريقة منهج تحليل المضمون، وهو أحد أشكال المنهج الوصفي.

وقد جاءت هذه الدراسة في ثلاثة أجزاء متساوية، اشتمل الجزء الأول على مدخل وتعريفات يمهِّد لهذه الدراسة، تلاه تفسير الفاتحة والبقرة وآل عمران، بما فيه ضرب الأمثال والمعاني المعاصرة في مجال العقيدة والعبادات والمعاملات، ومجال الدعوة والمنهج، وفي مجال الآفاق والأنفس.

ثم كانت الخاتمة التي تناولت أبرز النتائج ومنها: أن أسلوب الشيخين في توظيف الأمثال لتقريب تفسير القرآن كان ناجحا ومؤثرا إلى درجة عالية، وقد امتاز بالبساطة في انتقاء الألفاظ، وسهولة تركيب الجُمل والمعاني ووضوحها، وأن الأمثال التي استخدموها شملت أغلب مجالات الحياة، ومن النتائج أيضا: أن مما يؤخذ على الشيخين كثرة الاعتماد على الأحاديث الضعيفة والموضوعة في دروسهما، والتكرار والإعادة للمثل الواحد.

ومن أبرز التوصيات: أنها توصي بضرورة الاهتمام بأسلوب ضرب المثل كأسلوب تربوي ديني واجتماعي جديد، يُضاف إلى أساليب التربية والتعليم الحديثة من أجل تغيير السلوك السلبي عند الطالب، وتوصي الدراسة أيضاً بأن يُستكمل موضوعُها؛ من خلال استخراج الأمثال التي ضربها الشيخ النابلسي في بقية تفسير سور القرآن الكريم.

# Using Examples in Explaining the Verses of Quran for Nabulsi and Shaarawi
## “Surat AL-Fateha, Al-Baqara and Surat Ali-Imran.”

**D.Ahmad Husien M. Al-Refaie**
**From Jerusalem**

## Abstract

The study has discusses the way of giving examples as an attempt to produce the best explanations to the veres of Quran.This has been adopted by the preacher Muhammad Ratib Alnabulsi.The examples that he uses are here presented from Surat Al-Baqara and Surat Ali-Imran.

One of the most important motives for doing this study is to write about a recent interpretation that satisfies this generation by showing various examples and using new approaches. By doing that people are expected to understand Quran better and its from and content interpretation which will benefit all people-public and special.

The importance of the study comes from the fact that it deals with the holy Quran that includes the most successful and effective educating approaches.

The study, depending on the inductive approach,has collected the examples that nabulsi used while explaining “Surat Al-Baqara” and “surat Ali-Imran”. they have been written down illustrated, commented on, compared and then results have been concluded. this has been done by using the approach of analyzing the content which is form of the descriptive approach.

The study starts with an introduction and then five chapters come after. The first one contains important definitions. The second gives the examples for ideology. The third shows examples for worships and dealings. The fourth includes examples for preaching and curriculum. The fifth gives the examples for human being and the coming times .

The researcher lists the most important results in the summary. One of them is that Nabulsi succeeds in using examples to convey the meanings of Quran verses, and this is highly effective. He is able to give simple. clear sentences whose structures are also simple. Moreover, the examples that Nabulsi uses cover most of the fields of life. However , he is blamed for depending on weak and lied sayings in his speeches. He also repeats the same examples.

The study recommends the necessity of adopting the approach of giving examples as a one that serves the goals of education , behavior, and religion. The study also recommends to complete its subject by finding out the examples that nabulsi uses in interpreting the other verses of Quran.



# تمهيد

## تعريف القرآن

ويُسَمَّى تكريمًا: القُرْآنُ الكَرِيمُ، وهو كتاب الله العظيم عند المسلمين، ويؤمنون أَنَّهُ كلام الله تعالى، وَأَنَّهُ قد أُنزِلَ على النبي محمد ﷺ بهدف التشريع أولًا، وفيه بيان وإعجاز للمناكفين له في جميع العصور، وأنه محفوظ في الصدور والسطور من كل مسٍّ أو تحريف، وبأنه منقول بالتواتر، والمتعبد بتلاوته، وأنه آخر الكتب السماوية بعد صحف إبراهيم والزبور والتوراة والإنجيل.

والقرآن هو أقدم الكتب العربية، تماسكت كلماته وحروفه من دون أي تغيير أو تبديل أو تحريف، مضى على ذلك أكثر من ألف وأربعمائة عام، ذلك بحفظ الله، بالرغم من محاولات طعن الطاعنين من الفلاسفة والمنكرين والملحدين، أو المشككين المستشرقين والمبشرين.

## توحيد اللغة العربية

والقرآن الأعلى قيمةً لغويًّا، لما يجمعه من البلاغة والبيان والفصاحة، وبالتالي فإن للقرآن أثرًا وفضلًا في توحيد اللغة العربية، وتطوير آدابها وعلومها

الصرفية والنحوية، وتثبيت اللّبنات الأساسية لقواعدها ونحوها وصرفها، إذ يُعدّ مرجعًا وأساسًا لكل مساهمات النوابغ اللغويين في تطوير اللغة العربية، بداية من الفراهيدي وتلميذه سيبويه، إلى علماء اللغة في العصر الحديث، من الذين كان لهم دور كبير في محاولة الدفع بإحياء اللغة والتراث العربي، والفضل في ذلك يعود إلى القرآن الكريم، حيث لم تكن موحَّدة قبل هذا العهد على الرغم من أنها كانت ذات ثراء ومرونة، فقد وحّد القرآن الكريم اللغة العربية توحيدًا كاملًا وحفظها من التلاشي والانقراض، كما حدث مع العديد من اللغات السّامية الأخرى، واللغة اللاتينية التي تفككت وأضحت لغات متفرقة أو بائدة اندثرت مع الزمن، أو إلى لغات بديلة مستحدثة انفصلت عن ماضيها وانقطعت عنه، ومنها ما طالها الضعف والانحطاط، وبالتالي عدم القدرة على مسايرة التغييرات والتجاذبات التي تعرفها الحضارة وشعوب العالم الحديث اليوم.

## كم عدد سور القرآن؟

اتفق المسلمون قديما وحديثا أن القرآن اشتمل على (١١٤) سورة، تصنف إلى مكّية ومدنية، وفقًا لمكان وزمان نزول الوحي بها، وقد يختلف طول وحجم السورة من واحدة إلى أخرى، فسورة البقرة مثلا تُعدّ أطول السور القرآنية، والتي تتكون من (٢٨٧) آية مع حساب البسملة أنّها الآية الأولى، بينما نجد أن أقصر

سورة في القرآن الكريم من جهة عدد الآيات والكلمات سورة الكوثر، والتي لم يتجاوز عدد آياتها الأربعة مع حساب أنّ البسملة هي الآية الأولى.

## نظرة الشيعة حول القرآن؟

تختلف وجهة النظر الشيعية حول القرآن عن نظرة أهل السنة والجماعة، حيث يفسر علماء الشيعة بعض آيات القرآن بشكل يتوافق مع عقيدة الإمامة والولاية، كما زعم بعض علماء الشيعة وجود تحريف بالقرآن، وادعى البعض وجود سورتين تدعمان عقيدة إمامة أهل البيت! لكن يرفض الأئمة الشيعة دائمًا فكرة وجود تغيير في نص القرآن، وينكر أغلب علماء الشيعة هذه الادعاءات.

## أنزله الله كلامًا مسموعًا

ونحن نؤمن بأن القرآن أنزله الله كلامًا مسموعًا على لسان الملَك جبريل إلى النبي محمد ﷺ على مدى (٢٣) سنة، بعد أن بلغ النبي ﷺ سن الأربعين، وحتى وفاته في العام (١١هـ/ ٦٣٢م)، حسب الحوادث التي كانت تطرأ في المجتمع الإسلامي، كما أننا نؤمن بأن القرآن حُفظ بدقة على يد الصحابة، بعد أن نزل الوحي على النبي محمد ﷺ، فحفظه وقرأه على صحابته بالتواتر، ونؤمن أن آياته محكمات مفصّلات، وأنه يخاطب الأجيال كافة في كل الأماكن والعصور، ويتضمن كل المناسبات، ويحيط بكل الأحوال.

## اشتمل على كافة الأحكام

أما تشريعات القرآن، فقد اشتملت على كافة الأحكام، كأحكام العبادات والمعاملات والحدود والكفارات والأحوال الشخصية وغير ذلك، كما أن هذه التشريعات تشمل الأحكام المتعلقة بالفرد والمجتمع في المجالات كافة، وإثبات صدق النبي ﷺ في تبليغه الرسالة، وكذلك إثبات أن القرآن الكريم وحي من عند الله على قلب نبيه الكريم. ولعل من أبرز ما يميز التشريع القرآني أيضًا، أنه تشريع يوافق الفطرة ولا يناقضها أبدًا، بل إنه يعمل على إحياء الفطرة وإرجاعها إلى طريقها إن خرجت عن أصلها، وبيان ذلك أننا نجد القرآن الكريم قد جاء بالتشريعات التي تتوافق مع طبيعة الناس ورفع الحرج عنهم، وأسقط بعض التكاليف عند عدم القدرة على إتيانها.

## ما عدد آيات القرآن؟

ذكر ابن كثير في مقدمة تفسيره: فَأَمَّا عَدَدُ آيَاتِ الْقُرْآنِ فَسِتَّةُ آلَافِ آيَةٍ، ثُمَّ اخْتُلِفَ فِيمَا زَادَ عَلَى ذَلِكَ عَلَى أَقْوَالٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ يَزِدْ عَلَى ذَلِكَ، وَمِنْهُمْ مَنْ قَالَ: وَمِائَتَا آيَةٍ وَأَرْبَعُ آيَاتٍ، وَقِيلَ: وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ آيَةً، وَقِيلَ: وَمِائَتَانِ وَتِسْعَ عَشْرَةَ، وَقِيلَ: وَمِائَتَانِ وَخَمْسٌ وَعِشْرُونَ آيَةً، وَسِتٌّ وَعِشْرُونَ آيَةً، وَقِيلَ: وَمِائَتَا آيَةٍ، وَسِتٌّ وَثَلَاثُونَ آيَةً. حَكَى ذَلِكَ أَبُو عَمْرٍو الدَّانِيُّ فِي كِتَابِ الْبَيَانِ.

## وما عدد كلماته؟

وَأَمَّا كَلِمَاتُهُ، عَنْ عطاءِ بْنِ يَسَارٍ قال: سَبْعٌ وَسَبْعُونَ أَلْفَ كَلِمَةٍ وَأَرْبَعُمِائَةٍ وَتِسْعٌ وَثَلَاثُونَ كَلِمَةً. وهذه السور والآيات والكلمات مُترابطة مُتراصّة وِفق ميزانٍ رقميٍ دقيق، بحيث لا يمكن تبديل كلمة بدل أخرى، أو حرف بدل آخر، لأن لكل حرف وكلمة تفسير خاص لا يحتمل التغيير أو التبديل.

## وكم عدد حروفه؟

إِنَّ الْحَجَّاجَ جَمَعَ الْقُرَّاءَ وَالْحُفَّاظَ والكُتَّاب فَقَالَ: أَخْبِرُونِي عَنِ الْقُرْآنِ كُلِّه كَمْ مِنْ حرفٍ هُوَ؟ قَالَ: فَحَسَبْنَاهُ فَأَجْمَعُوا أَنَّهُ ثلاثُمائة ألفِ حَرْف وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا وَسَبْعُمِائَةٍ وَأَرْبَعُونَ حَرْفًا. قَالَ: فَأَخْبِرُونِي عَنْ نِصْفِهِ؟ فَإِذَا هُوَ إِلَى الْفَاءِ مِنْ قَوْلِهِ فِي الْكَهْفِ: ﴿وَلْيَتَلَطَّفْ﴾[1].

## ما معنى آية؟

وَأَمَّا الْآيَةُ: فَمِنَ العلامَةِ عَلَى انْقِطَاعِ الْكَلَامِ الَّذِي قَبْلَهَا عَنِ الَّذِي بَعْدَهَا وَانْفِصَالِهِ، أَيْ: هِيَ بَائِنَةٌ مِنْ أُخْتِهَا. وَقِيلَ: لِأَنَّهَا جماعةُ حروفٍ مِنَ الْقُرْآنِ وَطَائِفَةٌ مِنْهُ، كَمَا يُقَالُ: خَرَجَ الْقَوْمُ بِآيَتِهِمْ، أَيْ: بِجَمَاعَتِهِمْ. وَقِيلَ: سُمِّيت آيَةً لِأَنَّهَا عَجَبٌ يَعْجِزِ الْبَشَرُ عَنِ التَّكَلُّمِ بِمِثْلِهَا.

---

(١) [الْكَهْفِ: ١٩].

## الكلمة في القرآن؟

الْكَلِمَةُ هيَ اللَّفْظُ الْوَاحِدُ، وَقَدْ تكُونُ عَلَى حَرْفَيْنِ مِثْلُ: (مَا) وَ(لَا) وَ(لَهُ) وَ(لَكَ)، وَقَدْ يَكُونُ أَكْثَرَ. وَأَكْثَرُ مَا يَكُونُ عَشْرَةَ أَحْرُفٍ مثل: ﴿لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ﴾[١]، وَ﴿أَنُلْزِمُكُمُوهَا﴾[٢]، ﴿فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ﴾[٣]، وَقَدْ تَكُونُ الْكَلِمَةُ آيَةً، مثل: و﴿وَالْفَجْرِ ①﴾، و﴿وَالضُّحَىٰ ①﴾، و﴿وَالْعَصْرِ ①﴾، وكذلك: ﴿الم﴾، و﴿طه ①﴾، و﴿يس ①﴾، و﴿حم ①﴾ وتسمّى: فَوَاتِحُ السُّوَرِ. و﴿مُدْهَامَّتَانِ ⑥٤﴾[٤] فِي سُورَةِ الرَّحْمَنِ.،

## الاستعاذة

مَن منّا لا يُحِبّ أن يعيشَ حياةً سَعيدة فيهَا سَلام؟ وفيها رضا؟ وفيها طمأنينة؟ وفيها ثقة بالله؟ مَن منّا لا يحبّ أن ينجُو منَ الخوف؟ وأن ينجُو من القلَق؟ أن ينجُو من القَهر؟ وأن ينجُو منَ الألمِ؟ إذن، الشّيطانُ قد يكون سَبَبَ ذلك كلّه أو أكثره، ذلكَ المَخلوق الذي خَرَج عن المَنهج الإلهي، وكلّ مَخلوق خرج عن المَنهج الإلهي فهو شَيطان، هُناك شَياطين الإنس، وهُناك شَياطين الجنّ،

---

(١) [النُّورِ: ٥٥].

(٢) [هُودٍ: ٢٨].

(٣) [الْحِجْرِ: ٢٢].

(٤) [الرَّحْمَنِ: ٦٤] .

الشيطان يخوّفكم، الشيطان يأمُرُكم بالفَحشاء، يُغريك بالمعاصي، يعدُك بالفقر، يُوسوس لك إذا أنفقت مالك تبقى فقيراً، يوسوس لك أن تنظر إلى جارتك بشهوة، ثم تقع بعد ذلك في المعصية، يوسوس لك بالأوهام، يقول الإنسان: خلقنا الله ليعذبنا، هذا كلام الشيطان، ذكر ابن كثير: اللهَّ يَأْمُرُ بِمُصَانَعَةِ الْعَدُوِّ الْإِنْسِيِّ وَالْإِحْسَانِ إِلَيْهِ لِيَرُدَّهُ عَنْه، وَيَأْمُرُه بِالِاسْتِعَاذَةِ مِنَ الْعَدُوِّ الشَّيْطَانِيِّ لَا مَحَالَةَ؛ إِذْ لَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةً وَلَا إِحْسَانًا، لِشِدَّةِ الْعَدَاوَةِ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِيهِ آدَمَ مِنْ قَبْلُ؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ لَكُمۡ عَدُوّٞ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ﴾[1].

## إما أن تطبّق التعليمات، وإما أن تستعدّ للبلاء!

كم ممن لا مأوى له؟ في أكثر دول شرقي آسيا ينام الناس على الأرصفة، يتخذون بيوتاً قوارب في الأنهار، في بعض الدول الفقيرة تشاهد الآلاف ينامون هم وزوجاتهم وأولادهم على الرصيف، وصار ذلك منظراً مألوفاً جداً في بلادهم، ملخص الكلام أن لله في الأرض منهجاً، وأن لله في الأرض قرآناً، وشرَعَ لنا شرعاً، فما دمت ضمن الشرع فأنت في سلام في حياتك الدنيا ويوم تقوم القيامة، فإذا خرجت عنه تدفع الثمن، تحمَّل المتاعب حينئذٍ، جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله عظني وأوجز، قال: «**قل آمنت بالله ثم استقم**»، قال: أريد أخفَّ من ذلك، قال: «**إذاً فاستعدّ للبلاء**»، ما دمت في طاعة الله فأنت في ذمته،

---

(١) [فَاطِرٍ: ٦].

قضية واضحة كالشمس، إما أن تطبّق التعليمات، وإما أن تستعدّ للبلاء، أي لو أن في الأرض إنساناً واحداً بعيداً عن الله، وهو يعيش سعيداً رغْمَ بُعْده عن الله لكان هذا الدّين باطلاً، ولو أن إنساناً واحداً كان متصلاً بالله، وهو شقيّ في حياته رغمَ طاعته وتقواه، لكان هذا الدين باطلاً، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ١٢٤﴾[1].

## الِاسْتِعَاذَةَ تَكُونُ قَبْلَ التِّلَاوَةِ

قَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ٩٨﴾[2]، قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنَ الْقُرَّاءِ وَغَيْرِهِمْ: نَتَعَوَّذُ بَعْدَ الْقِرَاءَةِ، وَاعْتَمَدُوا عَلَى ظَاهِرِ سِيَاقِ الْآيَةِ، وَلِدَفْعِ الْإِعْجَابِ بَعْدَ فَرَاغِ الْعِبَادَةِ؛ وَالْمَشْهُورُ الَّذِي عَلَيْهِ الْجُمْهُورُ أَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ لِدَفْعِ الْوَسْوَاسِ فِيهَا إِنَّمَا تَكُونُ قَبْلَ التِّلَاوَةِ، أَيْ: إِذَا أَرَدْتَ الْقِرَاءَةَ، وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ الْأَحَادِيثُ الواردة عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

## ما مَعْنَى أعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ؟

الاستعاذة: هِيَ الِالْتِجَاءُ إِلَى اللهِ مِنْ شَرِّ كُلِّ ذِي شَرٍّ، وَمَعْنَى أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، أَيْ: أَسْتَجِيرُ بِجَنَابِ اللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ أَنْ يَضُرَّنِي فِي

(١) [طه: ١٢٤].

(٢) [النَّحْلِ: ٩٨].

دِينِي أَوْ دُنْيَايَ، أَوْ يَصُدَّنِي عَنْ فِعْلِ مَا أُمِرْتُ بِهِ، أَوْ يَحُثَّنِي عَلَى فِعْلِ مَا نُهِيتُ عَنْهُ؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يكفُّه عَنِ الْإِنْسَانِ إِلَّا اللهُ؛ فأَمَرَ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِهِ مِنْ شَيْطَانِ الْجِنِّ لِأَنَّهُ لَا يَقْبَلُ رَشْوَةً وَلَا يُؤَثِّرُ فِيهِ جَمِيلٌ؛ لِأَنَّهُ شِرِّيرٌ بِالطَّبْعِ وَلَا يَكُفُّهُ عَنْكَ إِلَّا الَّذِي خَلَقَهُ، وَهَذَا الْمَعْنَى فِي ثَلَاثِ آيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، أحدها قول الله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٞ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ۝٣٦﴾[1].

والشيطان فِي لُغَةِ الْعَرَبِ مُشْتَقٌّ مِنْ شَطَنَ إِذَا بَعُدَ، فَهُوَ بَعِيدٌ بِطَبْعِهِ عَنْ طِبَاعِ الْبَشَرِ، وَقِيلَ: مُشْتَقٌّ مِنْ شَاطَ لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ مِنْ نَارٍ، وكِلَاهُمَا صَحِيحٌ فِي الْمَعْنَى، والرَّجيم: أَيْ أَنَّهُ مَرْجُومٌ مَطْرُودٌ عَنِ الْخَيْرِ كُلِّهِ.

## كَلِمَةٌ لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ؟

نعم، وَرَد فِي صَحيح ابنِ حِبّان عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: تَلَاحَى رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَتمزّع أنفُ أَحدِهِمَا غَضَبًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنِّي لَأَعْلَمُ شَيْئًا لَوْ قَالَهُ ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»**. وفي حديث أخرجه البخاري عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، قَالَ: استَبَّ رَجُلَانِ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ، فَغَضِبَ أَحَدُهُمَا غَضَبًا شَدِيدًا حَتَّى خُيِّل إِلَيَّ أَنَّ أَحَدَهُمَا يَتمزّع أَنفُهُ مِنْ شِدَّةِ غَضَبِهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: **«إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا لَذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ مِنَ الْغَضَبِ»** قَالَ: مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: **«يَقُولُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»**.

---

(١)[فُصِّلَتْ: ٣٦].

قَالَ: فَجَعَلَ مُعَاذٌ يَأْمُرُهُ، فَأَبَى، وَجَعَلَ يَزْدَادُ غَضَبًا، فَقَالُوا لِلرَّجُلِ: أَلَا تَسْمَعُ مَا يَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ قَالَ: إِنِّي لَسْتُ بِمَجْنُونٍ! وَقَدْ جَاءَ فِي الِاسْتِعَاذَةِ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ، وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ جِبْرِيلَ عليه السلام أَوَّلَ مَا نَزَلَ بِالْقُرْآنِ على رسول الله ﷺ أَمَرَهُ بِالِاسْتِعَاذَةِ.

## هل الاستعاذة واجبة؟

كلمَةُ أعُوذُ بالله من الشّيطان الرّجيم ليسَتْ آية، وجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ مُسْتَحَبَّةٌ لَيْسَتْ بِواجبة يَأْثَمُ تَارِكُهَا، وقيل: وُجُوبَهَا فِي الصَّلَاةِ وَخَارِجِهَا كُلَّمَا أَرَادَ الْقِرَاءَةَ، وَاحْتَجَّ بِظَاهِرِ الْآيَةِ: ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾ وَهُوَ أَمْرٌ ظَاهِرُهُ الْوُجُوبُ، وَبِمُوَاظَبَةِ النَّبِيِّ ﷺ عَلَيْهَا، وَلِأَنَّهَا تَدْرَأُ شَرَّ الشَّيْطَانِ، وَمَا لَا يَتِمُّ الْوَاجِبُ إِلَّا بِهِ فَهُوَ وَاجِبٌ، وَلِأَنَّ الِاسْتِعَاذَةَ أَحْوَطُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: كَانَتْ وَاجِبَةٌ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ دُونَ أُمَّتِهِ. وَقَالَ ابْنُ سِيرِينَ: إِذَا تَعَوَّذَ مَرَّةً وَاحِدَةً فِي عُمْرِهِ فَقَدْ كَفَى فِي إِسْقَاطِ الْوُجُوبِ.

## هل يجهر بالاستعاذة؟

قال الشافعي: يجهر بالتعوذ، وَإِنْ أَسَرَّ فَلَا يَضُرُّ، لِأَنَّهُ أَسَرَّ ابْنُ عُمَرَ وَجَهَرَ أَبُو هُرَيْرَةَ، وَاخْتَلَفَ قَوْلُ الشَّافِعِيِّ فِيمَا عَدَا الرَّكْعَةِ الْأُولَى: هَلْ يُسْتَحَبُّ التَّعَوُّذُ فِيهَا؟ عَلَى قَوْلَيْنِ، وَرَجَّحَ عَدَمَ الِاسْتِحْبَابِ، فَإِذَا قَالَ الْمُسْتَعِيذُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ كَفَى ذَلِكَ، وَزَادَ بَعْضُهُمْ: أَعُوذُ بِاللهِ السَّمِيعِ الْعَلِيمِ، وَقَالَ



آخَرُونَ: بَلْ يَقُولُ: أَعُوذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ، إِنَّ اللهَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ، وَحُكِيَ عَنْ بَعْضِهِمْ أَنَّهُ يَقُولُ: أَسْتَعِيذُ بِاللهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ لِمُطَابَقَةِ أَمْرِ الْآيَةِ.

## ما فضل الاستعاذة؟

الِاسْتِعَاذَةِ طَهَارَةٌ لِلْفَمِ مِمَّا كَانَ يَتَعَاطَاهُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَتَطْيِيبٌ لَهُ وَتَهَيُّؤٌ لِتِلَاوَةِ كَلَامِ اللهِ، وَهِيَ اسْتِعَانَةٌ بِاللهِ، وَاعْتِرَافٌ لَهُ بِالْقُدْرَةِ، وَلِلْعَبْدِ بِالضَّعْفِ وَالْعَجْزِ عَنْ مُقَاوَمَةِ هَذَا الْعَدُوِّ الْبَاطِنِيِّ الَّذِي لَا يَقْدِرُ عَلَى مَنْعِهِ وَدَفْعِهِ إِلَّا اللهُ الَّذِي خَلَقَهُ، وَلَا يَقْبَلُ مُصَانَعَةً، وَلَا يُدَارَى بِالْإِحْسَانِ، بِخِلَافِ الْعَدُوِّ مِنْ نَوْعِ الْإِنْسَانِ، وَلَمَّا كَانَ الشَّيْطَانُ يَرَى الْإِنْسَانَ مِنْ حَيْثُ لَا يَرَاهُ اسْتَعَاذَ مِنْهُ بِالَّذِي يَرَاهُ وَلَا يَرَاهُ الشيطان. فالشيطان ضعيف أمام الله، وضعيف أمام الإنسان الذي يلجأ إلى الله، لِإِنَّهُ ﴿لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٩٩ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ۝١٠٠﴾[1].



(١) [النَّحْلِ: ٩٨- ١٠٠ ].




## أعظم سورة في القرآن

سورة الفاتحة أعظم سُورة في القرآن الكريم، لقول النَّبي ﷺ لأبي سعيد بن المعلّي: **«لأعلّمنّك سورةً هيَ أعظمُ السّور في القرآن: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِيْن﴾ هيَ السّبعُ المَثَاني، والقرآن العظيم الَّذي أوتيته»**[1]، ولها أسماء كثيرة عدَّها السيوطي في كتاب الإتقان في علوم القرآن؛ بلغت خمسةً وعشرين اسمًا بين ألقاب وصفات، مِنها أسماء توقيفية مثل: فاتحة الكتاب، السبع المثاني، أم القرآن، أم الكتاب، القرآن العظيم، ومنها أسماء اجتهادية مثل: سورة الحمد، الكافية، الصلاة، الدعاء، الشكر، الشفاء، الرّقية، المناجاة، الكنز، النّور، عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: **«هِيَ أُمُّ الْقُرْآنِ، وَهِيَ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَهِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي»**[2]. وقد أجمع جُمهور العُلماء على أنَّ آيات سُورة الفاتحة سبع آياتٍ، وتعدّ السّورة مَكِّيَة أُنزلت قبل الهجرة، وكان ترتيبها في النزول خامسًا.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) تفسير الطبري.

## أهمّ أسمائها

أهم أسمائها: الْفَاتِحَةُ، أَيْ فَاتِحَةُ الْكِتَابِ خطًّا، وَبِهَا تُفْتَحُ الْقِرَاءَةُ فِي الصَّلَاةِ، وَلَهَا ثَلَاثَةُ أَسْمَاءٍ مَعْرُوفَةٌ: فاتحة الكتاب، وَأُمُّ الْقُرْآنِ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي، سميت فاتحة الكتاب لأنه تعالى بها افتتح القرآن، وسميت أم القرآن: لِأَنَّهَا أَصْلُ الْقُرْآنِ، وَيُقَالُ لِمَكَّةَ: أُمُّ الْقُرَى لِأَنَّهَا أَصْلُ الْبِلَادِ، وَقِيلَ: لِأَنَّهَا مُقَدِّمَةٌ لِمَا يَتْلُوهَا مِنَ السُّوَرِ، يُبْدَأُ بِكِتَابَتِهَا في المصحف وَبِقِرَاءَتِهَا فِي الصَّلَاةِ، وَالسَّبْعُ الْمَثَانِي: لِأَنَّهَا سَبْعُ آيَاتٍ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، وَسُمِّيَتْ مَثَانِيَ لِأَنَّهَا تُثَنَّى فِي الصَّلَاةِ، فَتُقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ. وَهِيَ مَكِّيَّةٌ عَلَى قَوْلِ الْأَكْثَرِينَ، وَقيل: مَدَنِيَّةٌ، وَقِيلَ: نَزَلَتْ مَرَّتَيْنِ، مَرَّةً بِمَكَّةَ وَمَرَّةً بِالْمَدِينَةِ، وَالْأَوَّلُ أَصَحُّ أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ①﴾ [الفاتحة: ١].

## ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ تَقْدِيرُهُ: أَبْدَأُ بِسْمِ اللَّهِ

قوله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ تَقْدِيرُهُ: أَبْدَأُ بِسْمِ اللَّهِ أَوْ قُلْ بِسْمِ اللَّهِ، وَأُسْقِطَتِ الْأَلِفُ مِنَ الِاسْمِ طلبا للخفة لكثرة اسْتِعْمَالِهَا، ﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾ أي: أَبتدئ بكل اسم لله تعالى، إذا شربت كأس ماء وقلت: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ③⓪﴾، هل فكرت في أن هذا الماء أصله شمس سُلِّطت على بحار شاسعة، فتبخر ماؤها، وتقطر، وأصبح بخاراً عالقاً في الجو، واجتمع سحباً ساقته الرياح إلى أرض عطشى، أنزله الله بفضله وبقدرته ماءً ثجّاجاً أنبت به الزرع، وأودعه في الجبال، أو مياه

جوفيه في أعماق الأرض، وفجّره ينابيع وأنهاراً في شتى أنحاء الأرض، فالشمس ساهمت، والأنواء، والمناخ، والرياح، والحرارة، والبرودة، والجبال، فإذا قلت :﴿ بِسْمِ اللهِّ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ يعني أبتدئ شرب كأس الماء بهذا الاسم، لأن لفظ (اسم) مفرد مضاف، فيعم جميع الأسماء [الحسنى]، ﴿ٱللَّهُ﴾ هو المألوه المعبود، المستحق لإفراده بالعبادة.

## نبدأ كل عمل باسم اللّه

هذه البسملة ينبغي أن تدور مع الإنسان في كل نواحي حياته، وفي كل نشاطاته، إذا قام ليتوضأ، إذا دخل البيت، إذا قام ليأكل، إذا قام ليشرب، حينما نقرأ القرآن، نحن مطالبون أن نبدأ كل عمل باسم الله، لأننا لا بد أن نحترم عطاء الله في كونه، فالفلاح الذي يمسك الفأس ويرمي البذرة قد يكون أجهل الناس بعناصر الأرض ومحتويات البذرة، فكأنه حين يبدأ العمل باسم الله الذي سخر له الأرض والحَبّ والماء، وكلها لا قدرة له عليها. ورسول الله ﷺ يتحدث ببشريته، فهو لا يستطيع أن يقرأ كلمة واحدة، ولكن قدرة الله هي التي ستأخذ هذا النبي لتجعله معلما للبشرية كلها إلى يوم القيامة، لأن كل البشر يعلمهم بشر، ولكن محمد ﷺ سيعلمه الله، ليكون معلما لأكبر علماء البشر.

### نضرب مثلا للتوضيح:

وذكر الشيخ النابلسي مثلا للتقريب فقال: إذا قُدتَ سيارتك وقلت: ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٣٠﴾، فليبادر ذهنك إلى أين أنت ذاهب؟ هل أنت ذاهب إلى

مكان لا يُرضي الله، فيتناقض ذلك بين البسملة وبين هذا المكان، فتنثني عن ذهابك عندئذٍ، وتعود إلى صوابك، هل تشكر الله على نعمة المركبة؟ هل تتباهى وتتفاخر أم تسخّرها لعباد الله؟ هل تُعين بها الضعيف؟ هل تُنقذ بها المريض؟ القضية واسعة جداً، النبي ﷺ، قال: **«كلُّ أمرٍ ذِي بالٍ لا يَبدأ فِيه بِبِسم الله فهُو أبتر»**[1]. يعني: مقطوع الخير، إنْ أنتَ ألَّفت كتاباً، هل تذكر في الكتاب شيئاً باطلاً، فإذا كتبت في صدر صفحاته بسم الله، فإنك تُدقّق: هل هدفك من هذا التأليف خالص لوجه الله؟ أم تبتغي به السمعة والشهرة؟ بسم الله تجعلك على بصيرة من الأمر.

## إرادة الخالق فوق القوانين

كما أن الأسباب والقوانين في الكون تعمل بقدرة خالقها، فالجمل الضخم والفيل الهائل، يقودهما طفل صغير، بخلاف الحية الصغيرة والعقرب، لنعلم أن خضوع هذه الكائنات هو بتسخير الله لها وليس بقدرتنا، إذن فكل شيء في الكون يبدأ وينتهي باسم الله، وإرادة الخالق فوق القوانين، إن شاءت جعلتها تعمل وإن شاءت جعلتها لا تعمل، فالأصل في المولود أنه يأتي من اجتماع الذكر والأنثى، ولكن القوانين لا تعمل إلا بأمر الله، لذلك قد يتزوج الرجل والمرأة ولا يأتي المولود!

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه.

## قولك باسم الله يردعك عن المعاصي

وقولك باسم الله، يمنعك من ارتكاب أي عمل يغضب الله، فإذا أردت أن تسرق أو أن تشرب الخمر فإنك لا تقل ذلك بالفطرة، وهكذا ستكون أعمالك كلها، وتحيطك رحمة الله في دنياك وآخرتك، فرحمة الله في الدنيا تشمل كل خلقه؛ المؤمن والعاصي والكافر، يرزق من آمن به ومن لم يؤمن به، ويعفو عن كثير، ولكن في الآخرة؛ الله رحيم بالمؤمنين فقط.

## هل هِيَ آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ؟

اختلف الْعُلَمَاءُ: هَل البَسمَلة آيَةٌ مُسْتَقِلَّةٌ فِي أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ؟ أَوْ أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ مِنْ أَوَّلِ كُلِّ سُورَةٍ، أَوْ أَنَّهَا كَذَلِكَ فِي الْفَاتِحَةِ دُونَ غَيْرِهَا، أَوْ أَنَّهَا إِنَّمَا كُتِبَتْ لِلْفَصْلِ بَين السّور، لَا أَنَّهَا آيَةٌ؟ ثم اتَّفَقوا عَلَى أَنَّهَا بَعْضُ آيَةٍ مِنْ سورَة النَّمْلِ، وَفِي سُنَنِ أَبِي دَاوُدَ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ لَا يَعْرِفُ فَصلَ السُّورَةِ حَتَّى يَنْزِلَ عَلَيْهِ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾ وعَنْ أُمِّ سَلَمَةَ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَرَأَ الْبَسْمَلَةَ فِي أَوَّلِ الْفَاتِحَةِ فِي الصَّلَاةِ وَعَدَّهَا آيَةً، وَفِيهِ ضَعْفٌ، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا وَابْنِ عَبَّاسٍ وَغَيْرِهِمَا، وَمِمَّنْ حُكِيَ عَنْهُ أَنَّهَا آيَةٌ مِنْ كُلِّ سُورَةٍ إِلَّا بَرَاءَةٌ.

## ليست آية من كل سورة

﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾، هي موجودة في (١١٣) سورة من القرآن الكريم، وقد اختلف العلماء حولها، هل هي من آيات السور نفسها، على أنها

الآية الأولى من السورة، أم أنها حُسبت فقط في فاتحة الكتاب، ثم بعد ذلك تعتبر فواصل بين السور؟ قالوا: أنها ليست آية من كل سورة ما عدا سورة الفاتحة فهي آية منها، ثم بعد ذلك تعتبر فواصل بين السور، وهناك سورة واحدة في القرآن الكريم لا تبدأ ب ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾ وهي سورة التوبة، لكن تكررت في سورة النمل الآية (٣٠).

## هل يقرأ الإمام بها جهرا؟

الجهر بالبسملة من سورة الفاتحة في الصلاة، اختلفوا فيه على أقوال أشهرها: تسنّ قراءة البسملة سرّا في الصلاة السرية والجهرية، وعليه العمل عند أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ، ومن بعدهم من التابعين، ومنهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وابن مسعود وعمار بن ياسر وابن الزبير وغيرهم، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ أَنَّهُ قَالَ: قُمْتُ وَرَاءَ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ وعثمان بن عفان كلهم كَانَ لَا يَقْرَأُ ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾ إِذَا افْتَتَحَ الصَّلَاةَ. وقال أبو هريرة: كان النبي ﷺ لا يجهر بها. وقيل: السنّة الجهر بالتسمية في الصلاة الجهرية في الفاتحة وفي السورة بعدها، وقيل: كراهة استفتاح القراءة في الصلاة بـ﴿بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣٠﴾ مطلقا في أم القرآن وفي السورة التي بعدها سرا وجهرا، وبناء على ما سبق: فالأمر فيه سعة بين أهل العلم.

## كلمتان اثنتان؟!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢ ﴾ [الفاتحة: ٢].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ هو الثناء على الله بصفات الكمال، وبأفعاله الدائرة بين الفضل والعدل، فله الحمد الكامل، بجميع الوجوه، ومن رحمة الله أنه جعل الشكر له في كلمتين اثنتين هما ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، والعجيب أنك حين تشكر بشرا على معروف تظل ساعات وساعات، ولكن الله علمنا أن نشكره في كلمتين اثنتين هما: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، ساوى الله بهما بين البشر جميعا، فهذا أمّيّ لا يقرأ ولا يكتب، وهذا (بروفيسور) أو عالم ذرّة، أو شاعر وأديب له قدرة على التعبير، ساوى بينهما جميعا في صيغة واحدة.

## أيهما أعمّ الحمد أم الشكر؟

الحمدُ حالةٌ نفسية، والشكرُ سلوك، فليس هناك سُلوك شاكر إلا على أساس حالة حَمد، فإذا لم يكن عند الإنسان حالة حمد فسُلوكه باطل، وهو في حَالة نفاق ومُداهنة، لذلك فإنّ الحمد أَعَمُّ مِنَ الشُّكْرِ، فَكُلُّ حَامِدٍ شَاكِرٌ وَلَيْسَ كُلُّ شَاكِرٍ حَامِدًا، وَقِيلَ: الْحَمْدُ بِاللِّسَانِ قَوْلًا وَالشُّكْرُ بِالْأَرْكَانِ فِعْلًا. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: الْحَمْدُ للهِ كَلِمَةُ الشُّكْرِ، وَإِذَا قَالَ الْعَبْدُ: الْحَمْدُ للهِ، قَالَ: شَكَرَنِي عَبْدِي. رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ. عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَفْضَلُ الذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَفْضَلُ الدُّعَاءِ الْحَمْدُ للهِ**»(١). وَرَوَى ابْنُ مَاجَهْ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ:

---

(١) رَوَاه التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ مَاجَهْ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ غَرِيبٌ.

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا أَنْعَمَ اللهُ عَلَى عَبْدٍ نِعْمَةً فَقَالَ: الْحَمْدُ للهِ إِلَّا كَانَ الَّذِي أَعْطَى أَفْضَلَ مِمَّا أَخَذَ»(١). العبد ماذا أعطي؟ هذه الكلمة، كلمة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، هذه الكلمة التي أعطاها العبد لربه أفضل عند الله مما أخذ، لو أخذ قصرا ثمنه خمسة ملايين، وقال: يا رب لك الحمد، فكلمة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ أفضل عند الله من هذا القصر، لأن هذا القصر مصيره إلى الخراب.

## ما شكر اللّهَ عبدٌ لا يحمده

قلنا إن ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ حالة نفسية مبنية على معرفة بفضل الله ﷻ، فالكلمة الأولى في الإسلام هي: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، الحمد لله على إيجادنا، فأول نعمة هي نعمة الإيجاد، فلان الفلاني ابن فلان وُلِد في دمشق عام كذا، من أخرجك إلى هذا الوجود، قال تعالى: ﴿ هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً﴾ [الإنسان:١]. إذا ولدت عام ثمانية وثلاثين، فأين كنت عام ستة وثلاثين؟ إذا وقع تحت يديك كتاب طُبع عام ثلاثين، أين كنت حينما طُبع هذا الكتاب؟ لم تكن شيئاً مذكوراً، ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على نعمة الإيجاد، و﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على نعمة الإمداد، أمدنا بكل ما نحتاج، و﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على نعمة الإرشاد والهداية، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾(٢).

---

(١) إسناده حسن.

(٢) [الحجرات:٧].

## هل تقول ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ من أعماقك؟

أنت في الصلاة تصلي الفرض، والفروض فقط في اليوم سبعة عشر ركعة، ومثلها سُنن، يعني تقول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ في الصلاة حوالي أربعين مرة، هل أنت في مستوى هذه الآية؟ يعني هل أنت راض عن الله ﷻ؟ هل أنت راض عن صحتك؟ عن دخلك، عن عملك، هل أنت راضٍ وأنت من أصحاب الدخل المحدود؟ أم ترى نفسك دائماً أنك محروم؟ إذا كان دخل الرجل محدوداً ويقضي عمره كله غير راضٍ، بينما يجد بائع فلافل دخله بسيط وهو أميّ، يقول صاحب الدخل المحدود: أنا حائز على شهادة ليسانس، دكتوراة، ودخلي محدود، فهو دائماً غير راضٍ، أما إذا كان مؤمناً وقال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞﴾، فليس عنده حرمان أبداً، إن نعمة الرضا أكمل نعمة، لو جاءك مئة مليون في الشهر وأنت على ضلال فالنهاية إلى جهنم، أما المؤمن فكلمة ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۞﴾ تدل على أنه راضٍ عن الله ﷻ، يقول: يا رب هل أنت راضٍ عني؟ قال: يا عبدي هل أنت راض عني حتى أرضى عنك؟ هل أنت راض عن الله ﷻ؟ هل تقول ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ من أعماقك، من أعماق أعماقك؟ هل أنت راضٍ وليس عندك إلا بنات فقط؟ وليس عندك ولا ذكر واحد؟ فهل أنت راضٍ؟ هل رأيت حكمة الله ﷻ أنه يحبك على هذا؟ ليس عندك أولاد إطلاقاً، بل عقيم! هل أنت راض عن الله ﷻ وعندك زوجة قبيحة أو سيئة المزاج، هل أنت راض بها؟ هل ترى أن الله شاءت

حكمته أن تكون كذلك؟ أنت تعاني من مرض مزمن بشكل مستمر، هل تقول ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾؟ هذه البطولة.

## إذا عرفت الله تحمده على المصائب!

كلمة الحمد لله يقولها الناس في اليوم آلاف المرات، كيف حالك؟ يكون ملحداً ويقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، وهي من فلتات اللسان عنده، هل تقول ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ من أعماقك؟ من أعماق أعماقك؟ فإذا كان فهمك عميقاً جداً تحمده على المصيبة، إذا أحب الله عبده ابتلاه، فإن صبر اجتباه، وإن رضي اصطفاه، أنت تعاني من مصيبة مزعجة، ولعلمك برحمة الله وحكمته، ولطفه، وحرصه على إسعادك، ففي أثناء المصيبة تقول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾ على هذه المصيبة! وأحياناً يقسو المعلم على تلميذه كي يكون الأول في الصف، فإذا صار الأول يحمده على قسوته لا على ملاطفته! نعم يحمده على قسوته! كذلك إذا عرفت الله حق المعرفة تحمده على المصائب، ورد في الأثر: الرضا بمكروه القضاء أرفع درجات اليقين، نعم؛ أن ترضى بمكروه القضاء الذي لا تحبه أعلى درجة في اليقين برحمة الله.

## تستيقظ صباحاً وتحسّ أنك بصحة تامة

ليس العجيب أن يمرض الإنسان، بل العجيب ألا يمرض، لأن هناك آلاف الآلاف من الأمور التي تتوافر جميعها كي تقول صباحاً: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾، الأجهزة لديك تعمل، جهاز الهضم، بدءاً من الفم، إلى

اللعاب، إلى البلعوم، إلى لسان المزمار، إلى المريء، إلى المعدة، إلى البنكرياس، إلى الإثني عشر، خلايا الامتصاص في الأمعاء الدقيقة، الأمعاء الغليظة، جهاز التصفية البولية إلى الكليتين، العضلات، العظام، الجلد، هذا كله يعمل بانتظام، الجهاز العصبي، الجهاز الهرموني، الغدة النخامية، الغدة الدرقية، البنكرياس كله يعمل بانتظام، لو أن نقطة دم كرأس الدبّوس تجمدت في أحد شرايين الدماغ لفقدت كل قواك، لفقدت ذاكرتك وخبراتك. ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ أن تستيقظ صباحاً وتحسّ أنك بصحة تامة.

## من الذي عمل تناسباً بين الإنسان ومتطلباته؟

أكلت طعاماً، مَن خَلَقه؟ البروتينات، والفيتامينات، والسكريات، والمواد الدسمة، من وزعها على هذا الطعام الذي نأكله؟ إذا أكلت لقمة خبز! إن شربت كأس ماء؟ إن لترَ الماء في دول النفط يكلف ثلاثة ريالات، هذا الينبوع مثلا؛ ينبوع (عين الفيجة) الذي يمتدّ حوضه الجيولوجي إلى حدود كبيرة جداً، من جعله ماءً عذباً؟ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على كأس الماء، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على حبة القمح ورغيف الخبز، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على هذه التفاحة التي تأكلها، إياك أن تظن أنك دفعت ثمنها، لا، أنت دفعت ثمن خدمتها، لو اجتمع أهل الأرض لا يستطيعون صنع تفاحة واحدة، من خلق هذه الكميات؟ لو كان التفاح صناعة بشر لكان ثمن الكيلو مرتفعا، من يشتريه إذاً؟ ومن يأكله؟ من الذي

عمل تناسباً بين الإنسان ومتطلباته؟ لو أن الدجاجة تبيض في السنة بيضة واحدة لكان ثمنها مرتفعا، أما إذا كانت تبيض كل يوم بيضة فثمنها رخيص، إذاً ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، الحليب، البيض، الجبن، اللحوم، هذه كلها من نعم الله، فهذه النعم لا يستطيع أحد أن ينكرها، لكن المشكلة في أن أهل الأرض معظمهم ينسبونها إلى غير الله!

## الكافر ساخط على كل شيء!

إن كنت طبيباً ناجحاً، أو مدرساً ناجحاً، أو تاجراً ناجحاً، أو صاحب مصنع ناجحاً، أو كان عندك مشروع زراعي ناجحٌ، أو كنت أباً ناجحاً، أو كنت موفقاً في زواجك، فـ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٦٥﴾، هذا هو الدين كله توحيد وحمد، الكافر يحيا في شرك وسخط، الكافر دائماً ساخط على كل شيء، متشائم، دائماً يشك في حكمة الله، أحياناً يقول لك: فلان ليس أهلاً للنعمة، يستكثر نعمة الله على بعض عباده، ويستقلها على آخرين، كأنه شاك في حكمة الله، مع أنك لو تعمقت في الأمور وكُشف الغطاء، وأَطلعنا الله على كل شيء لكان هذا هو الصواب ولقلنا: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٦٥﴾.

## لو اطلعتم على الغيب لاخترتم الواقع

تحدث في الأرض زلازل وفيضانات وبراكين وأعمال عنف، ومجاعات، لكن المشكلة أن هذه الحياة الدنيا بالنسبة إلى الدار الآخرة لا شيء، لذلك ربّما قد

يضحّي بها من أجل الهداية، فإذا أغلق صاحب المحل محله مثلاً والعامل نسي شمعة مشتعلة، وفي الساعة الثانية ليلاً أبلغوه أن المحل احترق، المحل فيه بضاعة بثلاثة ملايين، فإذا أخذ يصلي على أثر هذا الحريق فهذا عند الله حكمة بالغة، أما عند الناس فماذا يقولون؟ ليت هذا العامل لم ينس الشمعة مشتعلة، هي عند الله حكمة بالغة، لأن هذا المحل بكل هذه البضاعة التي احترقت؛ إذا أثمر احتراق المحل توبة لصاحبه، فهذا فضل كبير لا يعلمه إلا عند الموت، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦٥﴾﴾.

## الحمد مقياس القرب إلى الله

كلمة ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تعني أنك تعرف أن لهذا الكون إلهاً عظيماً، هو على كل شيء قدير، فإذا حرمك من شيء فهذا حرمان معالجة لا حرمان عجز، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تعني أن الذي خلقك يحبك، يحبك أكثر مما تحب نفسك، لذلك يعالجك بالبلاء والمصائب، ولولا المعالجة لما اهتديت، كلمة الحمد تقتضي وجود نِعَم، والنِّعم ظاهرة لا ينكرها جاحد، حتى الذي ينكر وجود الله لا ينكر النعم، يقول لك: الطبيعة، استثمار المياه، تحسين النسل، هذه موضوعات يعالجها الكفرة أيضاً، فالنعم لا ينكرها أحد، حتى الذين أنكروا وجود الله، الهواء، الماء، الطعام، الشراب، النبات، الأسماك، الأطيار، الأزهار، هذه نِعم لا ينكرها أحد، ولكن القصد في الآية أن الحمدَ لله فقط، أما أهل الدنيا فإنهم

يَحمدُ بعضهم بعضاً ويَشكرُ بعضهم بعضاً. وما من مخلوق خلقه الله حمده أكثر من الرسول محمد ﷺ، كأن الحمد مقياس للقرب من الله، سيد الحامدين هو سيد الخلق، فاسم محمد وأحمد، هذه كلها من الحمد، والله خلق لنا النِّعم، وعلمنا كيف نحمده عليها، سبحانك لا نحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك، كيف أثنى الله على نفسه ؟ بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٦٥﴾ لذلك فإن النبي الكريم قال: **«عجباً لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر، فكان خيراً له»**[1].

## ملخص الملخص

قال الإمام الغزالي: ليس في الإمكان أبدع مما كان، بعضهم فهمَ هذا الكلام فهماً مغلوطاً؛ والصواب في فهم العبارة: ليس في إمكان المخلوق أبدع مما أعطاه الله، الذي أعطاك الله هو أنسب شيء إليك، ولو كُشفت لك الحقائق لما اخترت إلا أن تكون كما كنت، بعض الناس يتمنى الغنى، بعض الناس يتمنى الصحة، لو كُشفت لك الحقائق لن تتمنى إلا أن تكون كما كنت، لأن الله ﷻ يعلم ما كان، ويعلم ما يكون، ويعلم ما سيكون، ويعلم ما لم يكن، لو كان كيف كان يكون، لذلك ليس في الإمكان أبدع مما كان، و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ على ما كان. هذه

---

(١) رواه مسلم.

الزوجة أنسب امرأة لك، يقول معترضاً: لا، الحقّ على أمّي، خطبتها بسرعة! كانت مستعجلة! لا، ليس الحق على أمك، ليس في الإمكان أبدع مما كان، و﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على ما كان، تقول: لولا علامة واحدة كنت أدخل كلية الهندسة وأصير مهندساً، لا، ليس في الإمكان أبدع مما كان، و﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على ما كان.

## الفرق بين المؤمن وغير المؤمن

لا أقول كلمة ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾ التي يقولها الناس جميعاً، بل حالة الحمد، المؤمن يعيش حالةً دائمةً من الحمد لله ﷻ، فهو شاكر، إن جاء من أسرة فقيرة قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، إن رزقه الله زوجة ليست صالحة، كيف يفهم هذا الأمر؟ يفهم هذا الأمر أن الله ﷻ رزقه هذه الزوجة ليصلحها، ويكسب بها أجراً عند الله، إن رزقه الله أولاداً ذكوراً قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وإن رزقه الله إناثاً قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وإن رزقه الله ذكوراً وإناثاً قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، وإن جعله الله عقيماً قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، إن كانت له وظيفة متعبة قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، أو مريحة قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، ولكن هناك نقطة دقيقة جداً، إياكم أن تفهموا من هذا الكلام أنه في أي وضع تحمد الله عليه ولا تحاول تحسين هذا الوضع، لا، هذا يتنافى مع أخلاق المؤمن، هو يحاول تحسين وضعه المادي، يحاول رفع مستواه في كل الميادين، فإذا بذل كل طاقته، ووصل إلى هذا المستوى، وليس في إمكانه أن

يتجاوزه فيقول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، إذا كنت باذلاً جهدك كله فقل: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، إذا قدم طالبٌ امتحاناً ولم ينجح قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾، لكن إذا ما درست فهذا جزاء التقصير، عندما يبذل الإنسان كل جهده ولا يُحقق مطلبه، عندئذ ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ﴾ على كل حال. كأننا نقول: إن الفرق بين المؤمن وغير المؤمن، لا نقول كلمة الحمد، بل حالة الحمد التي يحياها المؤمن، لِمَ يحمد الله؟ لأن الله بيده كل شيء، وهو القادر على تغيير كل شيء.

## مَنْ ليس له أب له ربّ

قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾. كلمة ﴿رَبِّ﴾ تقتضي العلم والخبرة والغنى، وتقتضي الحكمة، وتقتضي الرحمة، وتقتضي الإشراف الدائم، لا بد أن يكون رب العالمين دائم الإشراف، لا يُسمى المربي ناجحاً إذا غاب عن الذي يربيه، لا يُسمى المعلم ناجحاً إذا تغيّب عن الطلاب، لا بد أن يكون رب العالمين قوياً، ودائم الإشراف، كلمة ﴿رَبِّ﴾ فيها عطاء، ربنا عز جل ما قال: الحمد للإله، ما قال: الحمد للخالق، بل قال: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝٢﴾، أي أن لك رباً، ذات مرةٍ سمعنا في الطريق رجلاً يقول وهو في حالة غضب: مَنْ ليس له أب له رب؟ تأثرنا بهذه الكلمة، قد ينشأ أحدنا يتيماً ولا أب له، لكن الله موجود.

## ﴿رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ۝٢٩﴾: جميع المخلوقات

وَالْعَالَمِينَ: جَمْعُ عالم، والعالم لَا وَاحِدَ لَهُ مِنْ لفظه، واختلفوا في العالمين، قيل: هُمُ الجِنُّ والإنس، لأنهم مكلفون بِالْخِطَابِ، وقيل: هُمْ أَرْبَعُ أُمَمٍ: الْمَلَائِكَةُ وَالْإِنْسُ وَالْجِنُّ وَالشَّيَاطِينُ، وَلَا يُقَالُ للبهائم عالم لأنها لَا تَعْقِلُ، وقيل: جميع المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾(١). وَاخْتَلَفُوا فِي عددهم في ذلك الوقت، قَالَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ: للهِ أَلْفُ عَالَمٍ سِتُّمِائَةٍ فِي الْبَحْرِ وَأَرْبَعُمِائَةٍ فِي الْبَرِّ، وَقَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: للهِ ثَمَانُونَ أَلْفَ عَالَمٍ، أَرْبَعُونَ أَلْفًا فِي الْبَحْرِ وَأَرْبَعُونَ أَلْفًا فِي الْبَرِّ، وَقَالَ وَهْبٌ: للهِ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ أَلْفَ عَالَمٍ، الدُّنْيَا عَالَمٌ مِنْهَا، وَقَالَ كَعْبُ الْأَحْبَارِ: ولا يُحْصِي عَدَدَ الْعَالَمِينَ أَحَدٌ إِلَّا الله، قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾(٢).

## يُقَالُ: رَبُّ الشَّيْءِ إِذَا مَلَكَهُ

﴿رَبُّ ٱلْعَالَمِينَ ۝٢٩﴾ الربّ هو المربي جميع العالمين بخلقه إياهم، وإعداده لهم، وإنعامه عليهم بالنعم العظيمة، التي لو فقدوها، لم يمكن لهم البقاء. وَيُقَالُ: رَبُّ الشَّيْءِ إِذَا مَلَكَهُ، فَاللهُ تَعَالَى مَالِكُ الْعَالَمِينَ وَمُرَبِّيهِمْ، وَلَا يُقَالُ لِلْمَخْلُوقِ: هُوَ الرَّبُّ مُعَرَّفًا، إِنَّمَا يُقَالُ: رَبُّ كَذَا مُضَافًا، لِأَنَّ الْأَلِفَ وَاللَّامَ لِلتَّعْمِيمِ، وَهُوَ لَا يَمْلِكُ الْكُلَّ.

---

(١) [الأنعام: ١٦٤].

(٢) [المدثر: ٣١].

## تربية لجسمه وتربية لنفسه!

كل إنسان يتلقى من الله تربيتين؛ تربية لجسمه وتربية لنفسه، الإله نفسه رب العالمين، هذا عطاؤنا، المياه من عطاء الله ﷻ، نهر الأمازون يضخّ ثلاثمئة ألف مترا مكعبا بالثانية، نبع (الفيجة) حينما يفيض يلبي حاجة دمشق بكاملها، أحياناً يكون هناك شح في الماء، قال أحد المزارعين: والله دفعت في الأسبوع الماضي مبلغا كبيرا، كل أربعة أيام أدفع هذا المبلغ ثمن ماء لسقي المزروعات في المزرعة، الأمر صعب جداً وإلا تموت الأشجار، فالذي أمدنا بالماء هو الله، نهر الفرات يبلغ عرضه أحياناً أحد عشر كيلو متراً، بعمق كبير جداً، الآن إذا مشى الإنسان فيه لا يتجاوز مستوى الماء ركبتيه، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٥﴾ على عطائه وعلى منعه، ربنا يمدّ هذه الأجسام بكل ما تحتاجه من الشيء الأساسي، من الهواء والماء والطعام، أو الشيء الثانوي كالأزهار والأنهار والنجوم، هل تؤكل هذه؟ لا، هذا الجمال الذي بثه الله في الأرض، هذه السماء التي زينها بالنجوم، هذه الأماكن الجميلة التي جعلها منتجعاً لنا كلها من عطاء الله، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٥﴾. لكن معنى الربوبية يشمل التربية النفسية أيضاً، فكل أنواع المصائب مشتقة من قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٦٥﴾، الأب مثلا، يمدّ ابنه بكل ما يحتاج، أدواته، كتبه، دفاتره، ألبسته، غرفته بما فيها؛ طاولة، إنارة، سرير، وسائد، فإذا ضبطه يكذب فقد يضربه، والضرب أيضاً تربية، فالتربية لها معنيان؛ معنى

الإمداد بما تحتاجه من مواد، والمعنى الثاني التربية النفسية، فكل إنسان يتلقى من الله تربيتين؛ يتلقى تربية لجسمه، ويتلقى تربية لنفسه، فكل ما يحدث لك فهو من الله، بناءً على واقعك، وعلى نفسيتك، ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٦٥﴾.

## تربية عامة وتربية خاصة

وتربيته تعالى لخلقه نوعان: عامة وخاصة. فالعامة: هي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدنيا. والخاصة: تربيته لأوليائه على الإيمان، ويوفقهم له، ويدفع عنهم السوء، والعصمة عن كل شر. ولعل هذا المعنى هو السر في كون أكثر أدعية الأنبياء بلفظ الرب. فإن مطالبهم كلها داخلة تحت ربوبيته الخاصة. فدل قوله ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٩﴾ على انفراده بالخلق والتدبير، والنعم، وكمال غناه، وتمام فقر العالمين إليه، بكل وجه واعتبار.

## الرحمة شيء يبعث الراحة في النفس

قَالَ تَعَالَى:﴿ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٣ ﴾ [الفاتحة: ٣]

﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢﴾ اسمان دالان على أنه تعالى ذو الرحمة الواسعة العظيمة التي وسعت كل شيء، وعمّت كل حيّ وميّت، والرحمة شيء يبعث الراحةَ في

النفس، فأن تأكل طعاماً لذيذاً فهو من رحمة الله، وحينما تهطل الأمطار ينبت النبات وتثمر الأشجار، ونأكل، وترخص الأسعار، فهذا من رحمته، وأن ترى طفلاً كالملاك يتحرك في البيت، أطفال يشغلون سكون البيت حركة وحياة، ويبعثون الأنس فيه، وإذا كبر الابن يعين والديه، فالابن رحمة من الله، وإن كان لك عملٌ يدرُّ عليك دخلاً فهو من رحمة الله، وإذا ذهبت إلى بستان فمتعت النظر بجماله فهو من رحمة الله، وإذا هبت نسمات لطيفة عَطَّلت عمل المكيفات، وأوقفتها فهو من رحمة الله، وإذا كان الدفء أيام البرد الشديد فهو من رحمة الله، فالرحمة الشيء الذي يرتاح له الإنسان، والنّعم كلها أثر من آثار رحمته.

## رحمن بالخلق رحيم بالمؤمنين

الرّحمن يعذّب أما الرّحيم لا يعذب، الرّحمن صفة لذاته، والرّحيم صفة أفعاله، ماذا بقي؟ هو الإله، وهو الرب، وهو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢٢﴾، والرحمن الرحيم اسم جامع لأسماء الله الحسنى، فقوته من رحمته، ولطفه من رحمته، وبطشه من رحمته، وأفعاله نابعة من رحمته، لذلك هناك أسماء جامعة، الرحيم من الأسماء الجامعة. واسما الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ و﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢﴾، المشتقان من الرحمة، ذُكرا في كتاب الله ما يزيد عن (١٥٠) مرة، وأنهما وردا مقترنين في ستة مواضع، وأنهما اسمان رقيقان، أحدهما أرق من الآخر، واسم الله ﴿ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢﴾ يدل على الرحمة الخاصة بالمؤمنين، وأن ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ من تشمل رحمته المؤمنين وغيرهم،

إن من فَهم معنى اسمي الله الرحمن والرحيم، عَظُم حبه لربه، وزاد فرحه بخالقه، لأنه علم أن له ربا يعفو ويصفح، ويتجاوز عن الذنب. قال نبينا ﷺ: **«إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا فَقَالَ: رَبِّ، أَذْنَبْتُ، فَاغْفِرْ لِي. فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ؟ غَفَرْتُ لِعَبْدِي»**(١). ويقول الله تعالى في الحديث القدسي: **«أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي ...»**(٢). أي: أعامله على حَسَب ظنه، وأفعل به ما يتوقعه مني، فمن اطمأنت نفسه وحَسُن ظنه بربه بما تسكن النفس إليه، فيظن أن الله كافيه، فإنه يجد ذلك عنده، كيف لا وقد **«كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ»** وقال: **«إِنَّ رَحْمَتِي غَلَبَتْ غَضَبِي»**(٣). ومما يزيدنا حبا لربنا وتعلقا برحمته، أنه جعل جزاء السيئة سيئة واحدة، وضاعف الحسنة بعشر أمثالها.

## الرحمة في الإسلام شملت البهائم

وقال ﷺ: **«مَنْ لاَ يَرْحَمِ النَّاسَ لاَ يَرْحَمْهُ اللهُ»**(٤) وقال ﷺ: **«لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرَنَا، وَيُوَقِّرْ كَبِيرَنَا»**(٥). وقد شكا رجل إلى النبي ﷺ قسوة قلبه، فقال له: **«إِنْ**

---

(١) متفق عليه.

(٢) متفق عليه.

(٣) متفق عليه.

(٤) متفق عليه.

(٥) صحيح سنن الترمذي.

**أَرَدْتَ أَنْ يَلِينَ قَلْبُكَ، فَأَطْعِمِ الْمِسْكِينَ، وَامْسَحْ رَأْسَ الْيَتِيمِ»**[١]. بل إن الرحمة في الإسلام شملت البهائم التي لا تعقل، حتى وجدنا المرأة تدخل النار لما ظلمت هرّة، حبستها حتى ماتت جوعا، ووجدنا امرأة أخرى تدخل الجنة بسبب أنها سقت كلبا كاد يموت عطشا.

## البشر اليوم يرمون البراميل المتفجرة!!

فكيف بالبشر اليوم يجعلون الإنسان هدفا في زماننا؟ تُرمى الأسرة كلها، بل ترمى القرية والمدينة بمن فيها، يرمونها بالقنابل العنقودية، والمتفجرات الفسفورية، والبراميل المتفجرة والحارقة والمدمرة، فتأتي على الأخضر واليابس، ولا تترك وراءها إلا الدماء والأشلاء، من غير أن تأخذ هؤلاء العُتاةَ شيئا من رحمة أو رأفة، بل ذهبت القسوة ببعض هؤلاء إلى حد إغلاق أرض الله الواسعة في وجه المهجّرين الأبرياء المسالمين، فَمُنعوا من أرزاقهم وأقواتهم ومساكنهم، وصلة ذويهم، تعاليا واستكبارا، واحتقارا.

## موجبات الحمد تسبق الوجود الانساني

فالله قبل أن يخلق الكون، خلق لنا موجبات الحمد من النعم تسبق الوجود الانساني، فخلق لنا السماوات والارض، ووضع في الأرض أقواتها إلى يوم القيامة، كل هذه الاشياء لم يخلقها الانسان، بل ليجدها في الكون تعطيه بلا

---

(١) صحيح الترغيب للألباني.

مقابل ولا جهد منه، ولا يستطيع أحد من المخلوقات مهما بلغت أن يدّعيها لنفسه، هذه الآيات كلها أعطتنا الدليل على وجود قوة عظمى هي التي أوجدت هذا الكون العظيم.

## نمدح المخلوق وننسى الخالق

ومع ذلك فإن الانسان يمتدح الوجود وينسى الموجود!! فأنت حين ترى أي خلق من خلق الله تمتدح هذا الخلق فتقول: ما أجمل هذه الجوهرة أو هذا المخلوق، ولكن المخلوق الذي امتدحته، لم يعط صفة الجمال لنفسه، فالجوهرة والزهرة لا دخل لها أن تكون جميلة أو غير جميلة، وكل شيء في هذا الكون لم يضع الجمال لنفسه؛ وإنما الذي وضع الجمال فيه هو الله، فلا نخلط ونمدح المخلوق وننسى الخالق، بل قل: الحمد لله الذي أوجد في الكون ما يذكرنا بعظمة الخالق. والله تعالى يستحق منا الحمد، لأنه لا يأخذ منا ولكنه يعطينا، فالبشر في كل عصر يحاولون استغلال البشر، ويطمعون لما في أيديهم من ثروات وأموال، ولكن الله يعطينا ولا يأخذ منا.

## يعطيك دون أن تسأل

والله سبحانه، يطلب منه الانسان ويدعوه ويستعين به، وهذا يتوجب الحمد، فأنت إن طلبت شيئا من صاحب نفوذ، فلابد أن يحدد لك موعدا ومدة المقابلة، ولكن الله ﷻ بابه مفتوح دائما، فأنت ترفع يديك إلى السماء وتدعو وقتما تحب، وتسأل ما تشاء،

يقول تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِي وَلْيُؤْمِنُواْ بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ١٨٦﴾[١]، والله ﷻ يعرف ما في نفسك، ولذلك فإنه يعطيك دون أن تسأل. ولولا عدل الله لبغى الناس في الأرض وظلموا، ولكن يد الله حين تبطش بالظالم تجعله عبرة، فيخاف الناس الظلم، وكل من أفلت من عقاب الدنيا سيلقى الله في الآخرة، وهذا يوجب الحمد.

## الانسان يحمد الله على أي مكروه أصابه

و﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾ تعطينا المزيد من نعم الله مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾[٢]. وهكذا يظل الحمد دائماً والنعمة دائمة. بل إن الانسان يجب أن يحمد الله على أي مكروه أصابه؛ لأنه قد يكون الشيء الذي يعتبره شرا هو عينه الخير، فالله تعالى يقول: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا ١٩﴾[٣]، إذن فأنت تحمد الله لأن قضاءه خير، سواء أحببت القضاء أم كرهته، لأنك لا تعلم والله ﷻ يعلم. إذن، فالله سبحانه يريد أن يطمئن عباده أنه ربّ لكل ما في الكون، فلا تستطيع أي قوى تخدم الانسان أن تمتنع عن خدمته، لأن الله مسيطر على كونه، وهذه توجب الحمد.

---

(١) [البقرة: ١٨٦].

(٢) [إبراهيم: ٧].

(٣) [النساء: ١٩].

## الحمد لله في الآخرة أيضا

على أن الحمد لله ليس في الدنيا فقط؛ بل هو في الدنيا والآخرة، في الدنيا بعطاء ربوبيته لكل خلقه، وفي الآخرة بعطائه للمؤمنين من عباده، واقرأ قوله تعالى: ﴿دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٠﴾[1].

## ﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾ هو يوم الحساب

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ [الفاتحة: ٤].

المالك: هو من اتصف بصفة الملك التي من آثارها أنه يأمر وينهى، ويثيب ويعاقب، ويتصرف بما يملك بجميع أنواع التصرفات، و﴿يَوْمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾ هو يوم القيامة، يوم يدان أي يُحاسب الناس فيه بأعمالهم، خيرها وشرها، لأن في ذلك اليوم، يظهر للخلق تمام الظهور كمال ملكه وعدله وحكمته، وانقطاع أملاك الخلائق، حتى يستوي في ذلك اليوم الناس جميعا؛ الملوك والرعايا والعبيد والأحرار، كلهم مذعنون لعظمته، خائفون من عقابه، فلذلك خصّه بالذكر، وإلا فهو المالك ليوم الدين ولغيره من الأيام.

---

(١) [يونس: ١٠].

## إذا جاء ملك الموت كل شيء انتهى!

إذا جاء ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾ فلا اختيار لك، لكن: لو عقلنا معناها لارتعدت فرائصنا، أنتم الآن مخيّرون ما دام في القلب حياة، ما دام القلب ينبض فأنت مخيّر، كل شيء ممكن الآن، الإصلاح ممكن، والتوبة ممكنة، لكن إذا جاء ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾ فلا اختيار لك، هذه الأمانة التي أودعها الله فيك، هذا التكليف وهذا الاختيار الذي منحك الله إياه، هذا الكون الذي وهبه الله لك، هذا العقل والفكر الذي ميزك الله به كله انتهى، لا تستطيع أن تفعل شيئاً ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾، يوم الجزاء، إذا جاء ملك الموت انتهى كل شيء، الاختيار انتهى، والشهوات انتهت، والفكر تعطل، كل شيء انتهى.

## أنت الآن تملك الاختيار!

أما الآن، فأنت تملك الاختيار، مُخيّر أن تتوب أو لا تتوب، أن تسيء أو تحسن، افعل ما شئت، أعط أو لا تعط، اعدل أو اظلم، أحسن أو لا تحسن، اعملوا ما شئتم، عاملت زوجتك بالإحسان فهو لك، وإن أسأت فعليك، لكن يوم الدين ينتهي فيه الاختيار، كأن هذه الآية تحضّك على العمل الصالح، فإياك أن تصل إلى هذا اليوم وليس لك عمل صالح تلقى الله به، نحن الآن في يوم عمل، في العام الدراسي مثلاً، الطالب يأتي للمدرسة، قد يدرس أو لا يدرس، يجتهد أو لا يجتهد، يكتب وظائفه أو لا يكتبها، أو ينقلها، يعتدي على رفاقه، يستطيع

لأنه مخير، لكن إذا قُرع جرس الامتحان وطرحت الأسئلة؛ هذا يوم الدين، إنه يوم الجزاء، وفي الامتحان يكرم المرء أو يهان.

## في الآخرة انتهى الاختيار

أثناء العام الدراسي فلا إهانة للكسول، معه مهلة، أُعطي فرصة، ونحن الآن في هذه الدنيا كذلك، الآن نحن في فرصة، أنت حر، تحبّ أن تأتي إلى المسجد أو لا تأتي، هناك من يسهر وراء الأفلام والمسرحيات، يقول لك: والله هذه المحطة رائعة وممتعة، لكن تلك المحطة ناشفة وبرامجها هزيلة! قالوا: الدنيا دار تكليف والآخرة دار تشريف، في الآخرة انتهى الاختيار وانتهى التكليف، إنه ﴿يَوۡمُ ٱلدِّينِ ١٨﴾ انتهت كلمة حرام وحلال، أنت في الجنة، لا غضّ بصر في الآخرة، ولا استيقاظ لصلاة الصبح باكراً، وليس هناك دفع زكاة ولا صدقة ولا نفقات، ولا مشي في الشمس، ولا حرّ، أنت في جنة عرضها السماوات والأرض.

## اللّه أعطى الاتزان للوجود كله

لو لم يوجد يوم للحساب، لنجا الذي ملأ الدنيا شروراً، وشقي الذي التزم بالتكليف والعبادة في الحياة الدنيا، وحرم نفسه من شهواتها، ولكن الله أعطى الاتزان للوجود كله، ولذلك فإن ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ هي الميزان، فالذي يُفسد في الأرض تنتظره الآخرة، لن يفلت مهما كانت قوته ونفوذه، فتطمئن اطمئنانا كاملاً، وأن عدل الله سينال كل ظالم.

## واجهوه بإجابته فسكت

الله سبحانه لا يمتحن الناس ليعلم المصلح من المفسد، ولكنه يمتحنهم ليكونوا شهداء على أنفسهم. وهنا يأتي سؤال؛ إذا كان الله ﷻ يعلم كل شيء فلماذا الامتحان؟ إذا أردنا أن نضرب مثلا؛ نجد أن الجامعات في كل انحاء الدنيا تقيم الامتحانات لطلابها، فهل أساتذة الجامعة يجهلون الطالب؟ طبعا لا، ولكن ذلك يحدث حتى إذا رسب الطالب في الامتحان، وجاء يجادل، واجهوه بإجابته فيسكت. دخل أحد الأشخاص على رجل من الصالحين وقال له: أريد أن أعرف؛ أأنا من أهل الدنيا أم من أهل الآخرة؟ فردّ الرجل الصالح: إذا دخل عليك من يعطيك مالا، ودخل عليك من يأخذ منك صدقة، فبأيهما تفرح؟ فسكت الرجل.

## الذي لا يؤمن بالآخرة يفعل ما يشاء!

وقوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ هي أساس الدين، لأن الذي لا يؤمن بالآخرة يفعل ما يشاء، فما دام يعتقد أنه ليس هناك آخره وليس هناك حساب فمم يخاف؟ ولذلك لا بد من وجود يوم يعيد الميزان فيعاقب فيه كل من أفسد في الأرض، وأفلت من العقاب، فلا يعتقد أن هذا خير له بل إنه شر له.

## إذا قدمت ﴿إِيَّاكَ﴾ تكون قد حسمت الأمر

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥ ﴾ [الفاتحة: ٥].

عندما تقرأ قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ فالعبارة هنا تفيد الخصوصية، وثمة فرق أن تقول لإنسان إنني سأقابلك، و: إياك سأقابل، وإنك إذا قدمت ﴿إِيَّاكَ﴾ تكون قد حسمت الأمر بأن العبادة لله وحده، وهي خضوع لله بمنهجه افعل ولا تفعل، ولذلك جعل الصلاة أساس العبادة، والسجود هو منتهى الخضوع لله، لأنك تأتي بوجهك الذي هو أكرم شيء فيك وتضعه على الأرض عند موضع القدم، ويتم هذا أمام الناس، ويستوي فيه البشر جميعا، فيكون هذا هو منتهى الخضوع لله.

## معنى (العبادة) ومعنى (الاستعانة)

وقوله ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ أي: نخصك وحدك بالعبادة والاستعانة، فكأنه يقول: نعبدك ولا نعبد غيرك، ونستعين بك، ولا نستعين بغيرك. والعبادة: اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة. والاستعانة: هي الاعتماد على الله تعالى في جلب المنافع ودفع المضار، مع الثقة به في تحصيل ذلك. والقيام بعبادة الله والاستعانة به هو الوسيلة للسعادة الأبدية، والنجاة من جميع الشرور، فلا سبيل إلى النجاة إلا بالقيام بهما. وإنما تكون العبادة عبادة، إذا كانت مأخوذة عن رسول الله ﷺ مقصودا بها وجه الله، فبهذين الأمرين تكون عبادة، وذكر الاستعانة بعد العبادة مع دخولها فيها، لاحتياج العبد في جميع عباداته إلى الاستعانة بالله تعالى. نحن

أحياناً لا يتطابق اختيارنا مع أمر الله، نطبق مثلاً تسعين بالمئة، وهناك مثلاً عشرة بالمئة لم تطبقها في عملك، فلست إذاً عبداً كاملاً، أما العبودية الكاملة أن يكون اختيارك موافقاً مئة بالمئة لما أمر به الله ﷻ، إذاً أنت عبد لله، وإن لم تكن عبداً لله فلا بد أن تكون عبداً لشهواتك.

## المؤمن يدخل في صراع!

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ أي: لا نستعين إلا بك، والاستعانة بالله سبحانه تخرجك عن ذل الدنيا، ويريد الله أن يحرر المؤمن من ذل الدنيا، والمؤمن دائما يواجه قُوى أكبر منه، ذلك أن الذين يحاربون منهج الله يكونون من الأقوياء ذوي النفوذ الذي يحبون أن يستعبدوا غيرهم، فالمؤمن سيدخل معهم في صراع، ولذلك فإن الله يحضّ عباده المؤمنين بأنه معهم في هذا الصراع، وقوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ۝٥﴾ هي دستور الحركة في الحياة، ومعناها أن الانسان طلب المعونة واستنفد أسبابها ولكنها خذلته، حينئذ لا بد أن يتذكر أن له ربا يستعين به، وهو موجود دائما لا تفوته همسة في الكون، ولذلك فإن المؤمن يتجه دائما إلى السماء.

## عرفت الله وتعصيه!

قال رجل لابن الأدهم: ائذن لي بالمعصية؟ قال: أشياء خمس إذا فعلتها لن تضرك المعصية، قال: وما هي؟ قال: إذا أردت أن تعصيه فلا تسكن أرضه؟

قال: وأين أسكن إذاً؟ قال: فكيف إذاً تسكن أرضه وتعصيه؟ قال: ما الثانية؟ قال: إذا أردت أن تعصيه فلا تأكل من رزقه، قال: وماذا آكل إذاً؟ قال: كيف إذاً تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه؟ قال: هات الثالثة، قال: إذا أردت أن تعصيه فاجتهد ألا يراك، قال: وكيف لا يراني وهو رب العالمين؟ قال: تسكن أرضه، وتأكل رزقه، وتعصيه، ويراك ؟!

## اللّه علّمَنا ما نطلب

قَالَ تَعَالَى: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ ﴾ [الفاتحة: ٦].

المؤمن لا يطلب الدنيا أبدا، لأن الحياة الحقيقية للإنسان في الآخرة، فالمؤمن لا يطلب مثلا أن يرزقه الله مالا كثيراً ولا أن يمتلك عمارة مثلا، لأنه يعلم أن كل هذا وقتي وزائل، ولكنه يطلب ما ينجيه من النار ويوصله الى الجنة، ومن رحمته وتعالى أنه علمنا ما نطلب، وهذا يستوجب الحمد لله، وأول ما يطلب المؤمن هو الهداية والصراط المستقيم، فإذا اتبعت الاستقامة واتبعت منهجه ﷻ يهديك إلى سبلِ السلام، سلام في بيتك، سلام في صحتك، سلام في أولادك، سلام في تجارتك، سلام في عملك، سلام في ماضيك، سلام في حاضرك، سلام في مستقبلك، سلام في خريف عمرك. وللإيضاح نضرب مثلاً ذكره الشيخ النابلسي بآلة ثمينة جداً، معها تعليمات دقيقة جداً من خبراء الشركة، وهو ما يسمّى (كاتالوج)، إذا اتبعتَ التعليمات فإن هذه الآلة تخدمك إلى أمد طويلٍ طويل، وإذا خالفتَ التعليمات فسوف تصاب بالعطب، وتخسرها، وتخسر ثمنها.

## الهداية نوعان

والهداية نوعان: هداية دلالة وهي للناس جميعا، وهداية المعونة هي للمؤمنين فقط، وبين لنا الله في منهجه ب(إفعل) و(لا تفعل)، إفعل ما يرضيه ولا تفعل ما يغضبه، وأوضح لنا الطريق الذي نتبعه لنهتدي.

## إذا جاءهم الهدى ابتعدوا عنه وخالفوه

ولكن هل كل من بيّن له الله طريق الهداية اهتدى؟ نقول لا، واقرأ قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَٰهُمْ فَٱسْتَحَبُّواْ ٱلْعَمَىٰ عَلَى ٱلْهُدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَٰعِقَةُ ٱلْعَذَابِ ٱلْهُونِ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿١٧﴾﴾[1]. والله تعالى خلقنا مختارين لنأتيه عن حب ورغبة بدلا من أن يقهرنا على الطاعة، فالذين اتبعوا طريق الهداية يعينهم الله ويزيدهم تقوى وحبا في الدين، واقرأ قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾[2]، أما الذين إذا جاءهم الهدى ابتعدوا عن منهج الله وخالفوه، يتخلى الله عنهم ويتركهم في ضلالهم، واقرأ قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾﴾[3].

---

(١) [فصلت: ١٧].

(٢) [محمد: ١٧].

(٣) [الزخرف: ٣٦].

## هذا الدعاء من أجمع الأدعية

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٧].

﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾ أي: دلنا وأرشدنا، ووفقنا للصراط المستقيم وهو الطريق الواضح الموصل إلى الله، وإلى الجنة، وهو معرفة الحق والعمل به، فالهداية إلى الصراط: لزوم دين الإسلام، وترك ما سواه من الأديان، والهداية في الصراط، تشمل الهداية لجميع التفاصيل الدينية علما وعملا. فهذا الدعاء من أجمع الأدعية وأنفعها للعبد، ولهذا وجب على الإنسان أن يدعو الله به في كل ركعة من صلاته، لضرورته إلى ذلك. وهذا الصراط المستقيم هو: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين. ومعنى ﴿غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ أي يا رب لا تيسر لنا الطريق الذي نستحق به غضبك، كما استحقه أولئك الذين غيّروا وبدلوا في منهج الله، ليأخذوا سلطة زمنية في الحياة الدنيا وشهواتها، وليأكلوا أموال الناس. أي ﴿غَيۡرِ﴾ صراط ﴿ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ﴾ الذين عرفوا الحق وتركوه كاليهود ونحوهم. وغير صراط ﴿ٱلضَّآلِّينَ ۝٩٢﴾ الذين تركوا الحق على جهل وضلال، كالنصارى ونحوهم. فالضالّ هو الذي ضل الطريق فاتخذ منهجا غير منهج الله، ويقال ضلّ الطريق أي مشي فيه وهو لا يعرف السبيل إلى ما يريد أن يصل إليه، ولكن

المُضلّ هو من لم يكتف بأنه ابتعد عن منهج الله، بل يحاول أن يأخذ غيره إلى الضلالة، وكل واحد من العاصين يأتي يوم القيامة يحمل ذنوبه، إلا المُضلّ فإنه يحمل ذنوبه وذنوب من أضلهم.

## ما هو الصراط؟

ما هو الصراط؟ إنه الطريق الموصلة إلى الغاية، وهو أقصر الطرق إلى تحقيق الغاية، فأقصر طريق بين نقطتين هو الخط المستقيم، ولا تحسب أن البعد عن الطريق المستقيم يبدأ باعوجاج كبير، بل باعوجاج صغير جدا ولكنه ينتهي إلى بُعد كبير، ويكفي أن تراقب قضبان السكة الحديد، عندما يبدأ القطار في اتخاذ طريق غير الذي كان يسلكه فهو لا ينحرف في أول الأمر إلا بضعة ملليمترات، أي أن أول التحويلة ضيق جدا وكلما مشيت اتسع الفرق وازداد اتساعا إلى عشرات الكيلو مترات، وربما مئات الكيلو مترات!

## أقصر الطرق إلى تحقيق الغاية

وما هي الغاية؟ إنها الجنة والنعيم في الآخرة، ولذلك نقول: يا رب اهدنا وأعنّا على أن نسلك الطريق المستقيم ليوصلنا إلى الجنة، إذن، أقصر الطرق للوصول إلى الغاية المرجوّة وهي الجنة هو طريق الإسلام، وهو الطريق المستقيم تماما دون أن يكون فيه أي اعوجاج يبعدنا عنها.

## (آمين) ليست كلمة من القرآن

بقى أن نتكلم عن ختم فاتحة الكتاب بقولنا (آمين) أسوة برسول الله ﷺ الذي علمه جبريل عليه السلام أن يقول بعد قراءة الفاتحة آمين، فهي من كلام جبريل لرسول الله ﷺ وليست كلمة من القرآن، ومعناها استجب يا رب فيما دعوناك به من قولنا: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾.

## أهي كلمة عربية؟

وكلمة (آمين) أهي عربية أم غير عربية، وكيف تدخل كلمة غير عربية في قرآن حكم الله بأنه عربي؟ نقول إن ورود كلمة ليست من أصل عربي في القرآن الكريم، لا ينفي أن القرآن كله عربي، بمعنى أنه إذا خوطب به العرب فهموه، وهناك ألفاظ دخلت في لغة العرب قبل أن ينزل القرآن، ولكنها دارت على الألسن بحيث أصبحت عربية وألفتها الآذان العربية.

## بقولك (آمين) فأنت شريك في الدعاء

وأنت بقولك (آمين) تطلب من الله الاستجابة، وإذا كنت تصلي في جماعة وتسمع الإمام يقرأ الفاتحة ثم تقول (آمين)، فأنت شريك في الدعاء، ولذلك فعندما دعا موسى عليه السلام أن يطمس الله على أموال قوم فرعون ويهلكهم قال الله لموسى: ﴿قَالَ قَدۡ أُجِيبَت دَّعۡوَتُكُمَا﴾[١]. فالخطاب من الله موجّهٌ إلى موسى

(١) [يونس: ٨٩].

وهارون. ولكن موسى هو الذي دعا وهارون أمّن على دعوة موسى فأصبح مشاركا في الدعاء.

## فضل سورة الفاتحة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَى أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ وَهُوَ يُصَلِّي، فَقَالَ: «... **يَا أُبَيُّ: أَتُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ تُنَزَّلْ لَا فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا؟**» قُلْتُ: نَعَمْ، أَيْ رَسُولَ اللهِ، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَا تَقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ؟**». قَالَ: فَقَرَأْتُ عَلَيْهِ أُمَّ الْقُرْآنِ، قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أَنْزَلَ اللهُ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ، وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلَهَا؛ إِنَّهَا السَّبْعُ المثاني**»[١]. وعَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ وَعِنْدَهُ جِبْرِيلُ، إِذْ سَمِعَ نَقِيضًا (صوتا) فَوْقَهُ، فَرَفَعَ جِبْرِيلُ بَصَرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: هَذَا بَابٌ قَدْ فُتِحَ مِنَ السَّمَاءِ، مَا فُتِحَ قَطُّ. قَالَ: فَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: «**أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبي قَبْلَكَ: فَاتِحَةُ الْكِتَابِ، وَخَوَاتِيمُ سُورَةِ الْبَقَرَةِ، وَلَنْ تَقْرَأَ حَرْفًا مِنْهُمَا إِلَّا أُوتِيتَهُ**»[٢].

---

(١) أخرجه الحاكم وصححه.

(٢) صَحِيح مُسْلِمٌ. وَهَذَا لَفْظُ النَّسَائِيِّ.

## احتوت على أنواع التوحيد الثلاثة

هذه السورة على إيجازها، قد احتوت على ما لم تحتو عليه سورة من سور القرآن، فتضمنت أنواع التوحيد الثلاثة: توحيد الربوبية يؤخذ من قوله: ﴿رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ وتوحيد الإلهية وهو إفراد الله بالعبادة، يؤخذ من لفظ: ﴿ٱللَّهُ﴾ ومن قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ وتوحيد الأسماء والصفات، وهو إثبات صفات الكمال لله تعالى، التي أثبتها لنفسه، وأثبتها له رسوله من غير تعطيل ولا تمثيل ولا تشبيه، وقد دل على ذلك لفظ ﴿ٱلۡحَمۡدُ﴾، وتضمنت إثبات النبوة في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ لأن ذلك ممتنع بدون الرسالة. وإثبات الجزاء على الأعمال في قوله: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ٤﴾ وأن الجزاء يكون بالعدل، لأن الدين معناه الجزاء والحساب بالعدل. وتضمنت إثبات القدر، وأن العبد فاعل حقيقة، خلافا للقدرية والجبرية، بل تضمنت الرد على جميع أهل البدع والضلال في قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ٦﴾ لأنه معرفة الحق والعمل به، وكل مبتدع وضال فهو مخالف لذلك. وتضمنت إخلاص الدين لله تعالى، عبادة واستعانة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ ٥﴾ فالحمد لله رب العالمين.

## هَلْ تَجِبُ قِرَاءَةُ الْفَاتِحَةِ عَلَى الْمَأْمُومِ؟

فِيهِ أربَعَة أَقْوَالٍ لِلْعُلَمَاءِ:

أَحَدُهَا: أَنَّهُ تَجِبُ عَلَيْهِ قِرَاءَتُهَا، كَمَا تَجِبُ عَلَى إِمَامِهِ؛ لِعُمُومِ الْأَحَادِيثِ الْوارِدة،

وَلَا تُجْزِئُ الصَّلَاةُ بِدُونِهَا، وَهُوَ قَوْلُ الْأَئِمَّةِ وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ؛ وَاحْتَجُّوا عَلَى ذَلِكَ بِهَذَا الْحَدِيثِ: **«مَنْ صَلَّى صَلَاةً لَمْ يَقْرَأْ فِيهَا بِأُمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ»** وَالْخِدَاجُ هُوَ: النَّاقِصُ. وَاحْتَجُّوا أَيْضًا بِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»**.

والثّاني: لا يتعيّن قراءة سورة الفاتحة، بَلْ مَهْمَا قَرَأَ بِهِ مِنَ الْقُرْآنِ أَجْزَأَهُ فِي الصَّلَاةِ، وَاحْتَجُّوا بِعُمُومِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَٱقۡرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِۚ﴾[1]، وَبِمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ فِي قِصَّةِ الْمُسِيءِ صَلَاتَهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ لَهُ: **«إِذَا قُمْتَ إِلَى الصَّلَاةِ فَكَبِّرْ، ثُمَّ اقْرَأْ مَا تَيَسَّرَ مَعَكَ مِنَ الْقُرْآنِ»** قَالُوا: فَأَمَرَهُ بِقِرَاءَةِ مَا تَيَسَّرَ، وَلَمْ يُعَيِّنْ لَهُ الْفَاتِحَةَ وَلَا غَيْرَهَا.

الْقَوْلُ الثالث: أَنَّهُ تَجِبُ الْقِرَاءَةُ عَلَى الْمَأْمُومِ فِي السِّرِّيَّةِ، وَلَا تَجِبُ فِي الْجَهْرِيَّةِ لِمَا ثَبَتَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«إِنَّمَا جُعِلَ الْإِمَامُ لِيُؤْتَمَّ بِهِ؛ فَإِذَا كَبَّرَ فَكَبِّرُوا، وَإِذَا قَرَأَ فَأَنْصِتُوا»**.

وَالقولُ الرّابع: لَا تَجِبُ عَلَى الْمَأْمُومِ قِرَاءَةٌ بِالْكُلِّيَّةِ لَا الْفَاتِحَةُ وَلَا غَيْرُهَا، لَا فِي الصَّلَاةِ الْجَهْرِيَّةِ وَلَا السِّرِّيَّةِ، لِمَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ فِي مُسْنَدِهِ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: **«مَنْ كَانَ لَهُ إِمَامٌ فَقِرَاءَةُ الْإِمَامِ لَهُ قِرَاءَةٌ»** وَلَكِنْ فِي إِسْنَادِهِ ضَعْفٌ.

---

(١) [المُزَّمِّل: ٢٠].

## هل تجب قراءة الفاتحة في كل ركعة؟

ثُمَّ إِنَّ مَذْهَبَ جَمَاعَةٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ: أَنَّهُ تَجِبُ قِرَاءَتُهَا فِي كُلِّ رَكْعَةٍ. وَقَالَ آخَرُونَ: إِنَّمَا تَجِبُ قِرَاءَتُهَا فِي مُعْظَمِ الرَّكَعَاتِ، وقيل: إِنَّمَا تجب قراءتها في ركعة واحدة من الصَّلَوَاتِ، وَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ وَأَصْحَابُهُ: لَا تَتَعَيَّنُ قِرَاءَتُهَا، بَلْ لَوْ قَرَأَ بِغَيْرِهَا أَجْزَأَهُ لِقَوْلِهِ: ﴿فَٱقْرَءُواْ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِۚ﴾[1].



(١) [الْمُزَّمِّلِ: ٢٠].




قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿الٓمٓ﴾[1].

هذه تسمى حروف مقطعة، ومعنى مقطعة أن كل حرف يُنطق بمفرده، مثلا: تقرأ ﴿الٓمٓ﴾: (ألف، لام، ميم)، بينما تُنطق بمسمياتها كحرف استفهام في سورتي الانشراح والفيل، في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ۝١﴾ و﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١﴾، مع أن الكتابة واحدة في الاثنين! ولكن النطق بها مختلف، كما يفيد أن القرآن أصله السماع فلا يجوز أن تقرأه إلا بعد أن تسمعه، على نحو ما سبق.

## ماذا قال المفسرون القدامى؟!

اخْتَلَفَ المفسرون القدامى فِي مَعْنَاهَا، قيل: إِنَّمَا هِيَ أَسْمَاءُ السُّوَرِ، وقيل: فَوَاتِحُ افْتَتَحَ اللهُّ بِهَا الْقُرْآنَ. وقيل: اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ السُّوَرِ، وَقِيلَ: هِيَ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهَّ تَعَالَى. وقيل: ﴿الٓمٓ﴾ قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: هِيَ اسْمُ اللهَّ الْأَعْظَمُ. وقيل: هُوَ قَسَمٌ

(١) [البقرة:١].

أَقْسَمَ اللهُ بِهِ، وقيل في معناها: أَنَا اللهُ أَعْلَمُ. وَقيل: لَيْسَ مِنْهَا حَرْفٌ إِلَّا وَهُوَ فِي مُدَّةِ أَقْوَامٍ وَآجَالِهِمْ. قَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّمَا ذُكِرَتْ لِنَعْرِفَ بِهَا أَوَائِلَ السُّوَرِ. وقيل: هيَ لفتُ انتباه، ابْتُدِئَ بِهَا لتُفْتَحَ لِاسْتِمَاعِهَا أسماعُ الْمُشْرِكِينَ. وَقَالَ آخَرُونَ وهوَ الأقْرَبُ إلى الصّحيح: بَلْ إِنَّمَا ذُكِرَتْ هَذِهِ الْحُرُوفُ فِي أَوَائِلِ السُّوَرِ الَّتِي ذُكِرَتْ فِيهَا بَيَانًا لِإِعْجَازِ الْقُرْآنِ، وَأَنَّ الْخَلْقَ عَاجِزُونَ عَنْ مُعَارَضَتِهِ بِمِثْلِهِ، هَذَا مَعَ أَنَّهُ تَرَكَّبَ مِنْ هَذِهِ الْحُرُوفِ الْمُقَطَّعَةِ الَّتِي يَتَخَاطَبُونَ بِهَا. وَأَمَّا مَنْ زَعَمَ أَنَّهَا دَالَّةٌ عَلَى مَعْرِفَةِ الزمن، وَأَنَّهُ يُسْتَخْرَجُ مِنْ ذَلِكَ أَوْقَاتُ الْحَوَادِثِ وَالْفِتَنِ وَالْمَلَاحِمِ، فَقَدِ ادَّعَى مَا لَيْسَ لَهُ، وَقَدْ وَرَدَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ ضَعِيفٌ.

## هل نزلت هَذِهِ الْحُرُوفَ عَبَثًا؟!

لَا شَكَّ أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ لَمْ يُنْزِلْهَا ﷻ عَبَثًا وَلَا سُدًى؛ وَمَنْ قَالَ مِنَ الْجَهَلَةِ: إِنَّه فِي الْقُرْآنِ مَا هُوَ تَعَبُّدٌ لَا مَعْنًى لَهُ بِالْكُلِّيَّةِ، فَقَدْ أَخْطَأَ خَطَأً كَبِيرًا، فَتَعَيَّنَ أَنَّ لَهَا مَعْنًى فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، فَإِنْ صَحَّ لَنَا فِيهَا قولٌ أو أثرٌ صَحيح قُلْنَا بِهِ، وَإِلَّا وَقَفْنَا حَيْثُ وَقَفْنَا، وَقُلْنَا: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾[1].

## نكتسب أجرا سواء فهمنا معناه أو لم نفهم

ولنعرف ونحن نتعبد بتلاوة القرآن الكريم، أننا نأخذ حسنة على كل حرف، سواء فهمنا معناه أو لم نفهم، وأن في ذلك حكمة، فحينما نقرأ «الٓمٓ» ونحن لا

(١) [آلِ عِمْرَانَ: ٧].

نفهم معناها، نعرف أن لنا ثوابا على قراءة القرآن على كل حرف نقرؤه، سواء فهمناه أم لم نفهمه، ويُستدلّ من قول رسول الله ﷺ: **«من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حَسَنَةٌ والحَسَنَةُ بعَشْرِ أمْثَالها، لا أقولُ ﴿الٓمٓ﴾ حرف، ولكن ألفٌ حرْفٌ ولاَمٌ حرف ومِيمٌ حرف»**(١). هذا فيه رحمة عظيمة بالمسلمين غير العرب ممن لا ينطقون العربية ولا يفهمونها، تجد أحدهم يقرا القرآن كل يوم ولا يفهم منه كلمة، بل تجد منهم يحفظ القرآن كله دون أن يفهم منه كلمة أو آية، مئات الملايين من المسلمين في دول شرق آسيا ودول أوروبا وتركيا وشتى أنحاء العالم، فهل هؤلاء كلهم محرومون من الأجر؟

## كلمة سرّ

ونحن لا يجب أن نجهد أذهاننا لفهم هذه الحروف، فحياة البشر تقتضي منا في بعض الأحيان أن نضع كلمات لا معنى لها بالنسبة لغيرنا، تماما ككلمة السر (الشيفرة العسكرية) التي تستخدمها الجيوش، لا معنى لها إذا سمعتها، ولكن بالنسبة لمن وضعها قد تكون نتائجها حياة أو موت، حرب أو سلام، فخذ الحروف التي لا تفهمها بمرادات الله فيها، فالله ﷻ شاء أن يُبقي معناها في الغيب عنده.

(١) أخرجه الترمذي وصححه الألبانيُّ.

## القرآن ليس إعجازا في البلاغة فقط

وقد يضع الله ﷻ من أسراره في هذه الحروف التي لا نفهمها ثوابا وأجرا لا نعرفه، ويريدنا بقراءتها أن نحصل على هذا الأجر، والقرآن الكريم ليس إعجازا في البلاغة فقط، ولكنه يحوي إعجازا في كل ما يمكن للعقل البشري أن يحوم حوله.

## قدراتنا تتفاوت وأفهامنا قاصرة

وإذا أراد إنسان منا أن يعرف معنى هذه الحروف، فلا نأخذها على قدر بشريتنا، لأن قدراتنا تتفاوت وأفهامنا قاصرة، فكل منا يملك مِفْتاحاً من مفاتيح الفهم على قدر علمه.

## هل لذلك حكمة؟!

ونحن نقول للذين يتساءلون عن الحكمة في بداية بعض السور بحروف، نقول إن لذلك حكمة عند الله فهمناها أو لم نفهمها، والقرآن نزل على أمة عربية فيها المؤمن والكافر، ومع ذلك لم نسمع أحداً يطعن في الأحرف التي بدأت بها السور، قالوا عن القرآن قديما بأنه سحر! قالوا عن القرآن شعر! قالوا عن الرسول مجنون! ولم يعترض أحد منهم على الحروف المقطعة! الملحدون والمتشرقون والمبشّرون طعنوا في الأحكام والتشريع على مدى القرون السابقة

والحاضرة، وربما اللاحقة، وألّفوا الكتب والأبحاث والمجلدات، وأصدروا التقارير والبرامج على وسائل الإعلام والفضائيات، ولم يعترض أحد منهم على هذه الحروف! مع أنها مبهمة وغير مفهومة وأولى بالاعتراض! أليس هذا دليل على أنها إعجاز؟

## سرّ اللّه في القرآن

إننا لو بحثنا معنى كل لفظ في القرآن الكريم، فقد أخرجنا الأمّيّ وكل من لم يدرس اللغة العربية دراسة متعمقة من قراءة القرآن، ولكنك تجد أميّا لم يقرأ كلمة واحدة، ومع ذلك يحفظ القرآن كله، فإذا قلت كيف؟ نقول: بسرّ الله فيه. فإذا قلت إنك قد عرفت كل معنى للقرآن الكريم، فإنك تكون قد حددت معنى كلام الله بعلمك، ولذلك جاءت هذه الحروف إعجازا لك، حتى تعرف إنك لا تستطيع أن تحدد معاني القرآن بعلمك.

## ننتفع بقراءتها دون أن نفهمها

هذه الحروف المقطعة، ننتفع بقراءتها دون أن نفهمها، فالريفيّ مثلا ينتفع بالكهرباء والتليفزيون، وما تبثه الأقمار الصناعية، وهو لا يعرف عن أيّ منها شيئا، فلماذا لا يكون الله ﷻ قد أعطانا هذه الحروف نأخذ فائدتها ونستفيد من أسرارها، سواء فهمناها أم لم نفهمها؟

## ما الذي يُتعبكم؟!

فما الذي يتعبكم أو يرهقكم في محاولة إيجاد معان لهذه الحروف؟! لو أن الله تعالى يريد أن يفهمنا معانيها لأوردها بمعنى مباشر، أو أوضح لنا المعنى، لا بد أن يكون هناك سرّ في هذه الحروف، وهذا السر هو من أسرار الله التي يريدنا أن ننتفع بقراءتها دون أن نفهمها.

## جامع لكل أحكام السماء

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾[1].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ أي هذا الكتاب العظيم وهو الْقُرْآنُ. والقول بأنه الكتاب، تمييز له عن كل كتب الدنيا، والكتب السماوية التي نزلت قبله، فهو الكتاب الجامع لكل أحكام السماء، ولولاه ما عرف الناس المنهج الذي يقودهم إلى الجنة، وأن قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ﴾ يحمل معنى التفوق الكامل الشامل على كل ما سبقه من كتب، وأنه سيظل كذلك حتى قيام الساعة. ولابد أن نعرف أن: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ليست كلمة واحدة، وإنما هي ثلاث كلمات: «ذا» اسم إشارة، و: «اللام» تدل على الابتعاد ورفعة شأن القرآن الكريم، و: «ك» لمخاطبة الناس جميعا. ﴿لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ ولا شك بوجه من الوجوه. ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾ الهدى: هو

(١) [البقرة:٢].

الدلالة على طريق يوصلك إلى ما تطلبه، فالإشارات التي تدل المسافر على الطريق، هي هدى له، فإذا لم يكن هناك غاية أو هدف، فلا معنى لوجود الهدى، لأنك لا تريد أن تصل إلى شيء.

## هنا نتساءل؟

من الذي يحدد الهدف ويحدد لك الطريق للوصول إليه؟ الذي يحدد لك الطريق، لا بد أن يكون أحد كامل العلم والحكمة ما يستطيع به أن يدلك على أقصر الطرق لتصل إلى ما تريد، فإذا نظرنا إلى الناس في الدنيا، كالذي يريد أن يبني بيتا، مثلا: يأتي بمهندس يضع له الرسم، فيظل يغيّر ويبدل فيه، ثم يأتي بمهندس آخر، فيضع تصوراً جديداً للمسألة كلها، وهكذا يكون الهدف متغيّرا وليس ثابتا، وعند التنفيذ قد لا توجد المواد المطلوبة، فنغيّر ونبدل لنأتي بغيرها، ثم فوق ذلك كله، قد تأتي قوة أعلى فتوقف التنفيذ أو تمنعه. إذن، كلنا محتاجون إلى أحد كامل العلم والحكمة ليرسم لنا طريق حياتنا، وأن يكون قادرا على كل شيء، ومالكا لكل شيء، والكون خاضعا لإرادته، حتى نعرف يقينا أن ما نريده سيتحقق، وينبهنا الله ﷻ إلى هذه القضية فيقول: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ﴾[1]، فالخلق إذا أرادوا أن يتّبعوا الطريق الذي لا توجد فيه أية عقبات أو متغيرات، فليأخذوا طريقهم عن الله، ولذلك كانت قوانين البشر في تحديد

---

(١) [البقرة: ١٢٠].

أهدافهم في الحياة، وطريقة الوصول إليها قاصرة، فهي تتغير وتتبدل كل فترة من الزمان.

## خذ الهدف عن اللّه

فإذا أردت أن تحقق سعادة في حياتك، وأن تعيش آمنا مطمئنا، فخذ الهدف عن الله، وخذ الطريق عن الله، فإن ذلك ينجيك من قلق متغيرات الحياة التي تتغير وتتبدل، والذين لا يأخذون هذا الطريق، فهم يُتعبون أنفسهم ويُتعبون مجتمعهم، ولا يحققون شيئا. ﴿لِّلۡمُتَّقِينَ﴾: الوقاية هي الاحتراس والبعد عن الشر، أي أن هذا القرآن هدى للجميع، فالذي يريد أن يتقي عذاب الله وغضبه يجد فيه الطريق الذي يحدد له هذه الغاية.

## خمس حواس ظاهرة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣﴾[1].

حقيقة الإيمان: هو التصديق التام بما أخبرت به الرسل، وليس الشأن في الإيمان بالأشياء المشاهدة بالحس، إنما الشأن في الإيمان بالغيب الذي لم نره ولم نشاهده، وإنما نؤمن به، لأنه تصديق مجرّد لله ورسله. فالمؤمن يؤمن بكل ما أخبر الله به أو أخبر به رسوله، سواء شاهده أو لم يشاهده، وسواء فهمه أو لم يهتد إليه عقله

---

(١) [البقرة: ٣].

ويفهمه، بخلاف الملحدين والمكذبين بالأمور الغيبية، لأن عقولهم القاصرة لم تهتد إليها، فكذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ففسدت عقولهم، ويدخل في الإيمان بالغيب؛ الإيمان بجميع ما أخبر الله به من الغيوب الماضية والمستقبلة، وأحوال الآخرة.

## الغيب والحواسّ الخمس

الغيب: هو كل ما غاب عن مدركات الحس، لأن ما تراه لا تريد عليه دليلا، وهناك خمس حواس ظاهرة هي: السمع والبصر والشم والذوق واللمس، ولكن هناك أشياء تدرك بغير هذه الحواس، لنفرض أن أمامنا حقيبتين، الشكل نفسه والحجم نفسه، هل تستطيع بحواسك الظاهرة أن تدرك أيهما أثقل من الأخرى؟ لا بد أن تحمل واحدة منهما ثم تحمل الأخرى. ولا بد أن نعرف أن وجود الأشياء مختلف تماما عن إدراكها، فأنت لك روح في جسدك تهبك الحياة، هل رأيتها؟ أو سمعتها؟ أو ذقتها؟ أو شممتها؟ أو لمستها؟ إنك تدرك ذلك بأثرها في حركة الجسد. والجراثيم مثلا موجودة في الكون، تؤدي مهمتها منذ بداية الخلق، الناس لا يشاهدونها ولكن يشاهدون آثار الأمراض في أجسادهم، من ارتفاع في الحرارة وحمّى وغير ذلك، وهم لا يعرفون السبب، حتى اكتُشف المجهر في العصر الحديث. لكن قبل أن يكتشفها البشر، هل كان يمكن إنكارها؟!

## عدم رؤية شيء لا يعني أنه غير موجود

إن عدم قدرتنا على رؤية شيء لا يعني أنه غير موجود، سواء رأيناه أو لم نره، ولكن آلة الإدراك وهي البصر عاجزة عن أن تراه، وصار يمكن أن تراه بالتلسكوب الفضائي، هل كان يمكن إنكار وجود هذه الكواكب بأنها كانت موجودة من قبل؟ والله تعالى قد أعطانا من آياته في الكون ما يجعلنا ندرك أن لهذا الكون خالقا، وإن كنا لا نراه، فالشمس والقمر والنجوم والأرض، والإنسان والحيوان والجماد، لم يجرؤ أحدٌ من قبل أن يدّعي أنه خلقهم، ولا يمكن لهذا الكون بهذا النظام الدقيق أن يوجَد مصادفة؛ ولكن كل ما في الكون من آيات، يؤكد لنا أن هناك قوة هائلة، هي التي خلقت ونظمت وأبدعت.

## لماذا قال﴿يُقِيمُونَ﴾ ولم يقل: يفعلون

﴿وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون بالصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقامة الصلاة بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطنا بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها، إنها ليست حركات رياضية وطقوس بلا معنى، هذه الصلاة هي التي قال الله فيها: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾.

## هل الرزق هو المال؟

وقوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ۝٣﴾ حين نتكلم عن الرزق، يظن كثير من الناس أن الرزق هو المال فقط، ولكن الرزق هو كل ما يُنتفع به، فالقوة رزق، والعلم رزق، والحكمة رزق، والتواضع رزق، وكل ما فيه حركة للحياة رزق، ذكاؤك الذي هو سبب في حصولك على شهادة علمية هو رزق لك، تفكيرك الناجح في حصولك على ثروة مالية هو رزق لك، تواضعك في عملك ومجتمعك، ومحبة الناس لك هو رزق لك، بصرك وسمعك وحركة يديك وأرجلك وحركات جسمك كلها هي رزق لك.

## تخيّل لو أن الآخرة لم تكن موجودة!

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾[1].

﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القرآن والسنة، فهم يؤمنون بجميع ما جاء به الرسول، وقوله: ﴿وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ هذا يشمل الإيمان بالكتب السابقة للقرآن، وما اشتملت عليه، خصوصا التوراة والإنجيل والزبور، وهذه خاصية المؤمنين؛ يؤمنون بجميع الكتب السماوية وبجميع الرسل؛ فلا يفرقون بين أحد منهم. ثم قال: ﴿وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝٤﴾ و﴿الْآخِرَةِ﴾ اسم لما يكون بعد الموت،

---

(١) [البقرة: ٤].

وخصّه بالذكر لأن الإيمان باليوم الآخر أحد أركان الإيمان؛ ولأنه أعظم باعث على الرغبة والرهبة والعمل، وقوله تعالى: ﴿يُوقِنُونَ ۝٣٦﴾ اليقين: هو العلم التام الذي ليس فيه أدنى شك، الموجب للعمل، فلو أن الآخرة لم تكن موجودة، لكان الكافر أكثر حظا من المؤمن في الحياة، لأنه أخذ من الدنيا ما يشتهيه، ولم يقيّد نفسه بمنهج، فيكون الكافر هو الفائز بنعم الدنيا وشهواتها، والمؤمن لا يأخذ شيئا، ولذلك كان الإيمان بالله قمة الإيمان بداية، والإيمان بالآخرة قمة الإيمان نهاية.

## لماذا استخدم الله كلمة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مرتين؟

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ۝٥﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تشمل الجميع، ولكن لماذا استخدم الله ﷻ كلمة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مرتين؟ تلك من بلاغة القرآن الكريم، ولماذا دمج الخبرين بعضهما مع بعض؟ حتى نعرف أنه ليس في الإسلام إيمانان بل إيمان واحد، يترتب عليه جزاء واحد، وسيلته الهدى وغايته الجنة، ولو نظر إلى التكليفات التي هي الهدى الموصلة إلى الغاية، نجد أن الله تعالى رفع المهتدي على الهدى، لنعرف أن الهُدى لم يأت ليقيّد حركة الإنسان في الحياة ويستذله، وإنما جاء ليرفعه.

---

(١) [البقرة: ٥].

## هل الهدى يمنع تحقيق شهوات الإنسان؟

إن المعترضين على أحكام الله يعتقدون أن الهدى يقيد حركة الإنسان في الحياة، ويمنعه من تحقيق شهواته العاجلة، ولكن الهدى في الحقيقة يرفع الإنسان ويحفظه من الضرر، ومن غضب الله، ومن إفساد المجتمع الذي سيكون هو أول من يعاني منه. و: ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ تفيد الاستعلاء، فإذا قلت أنت على الجواد فإنك تعلوه، كأن المهتدى يرتفع إلى الهدى ليأخذه من خير إلى خير، وذلك بعكس الضلالة التي تأخذ الإنسان إلى أسفل، يظهر ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّآ أَوۡ إِيَّاكُمۡ لَعَلَىٰ هُدًى أَوۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٢٤﴾[1]

## الكافر صنفان

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ ءَأَنذَرۡتَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تُنذِرۡهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ٦﴾[2].

معنى كَفَرَ (أي) سَتَرَ، وكفر بالله أي ستر وجود الله، والذي يستر لا بد أن يستر موجودا، فكأن الأصل هو الإيمان، اعترفوا داخل أنفسهم بوجود الله، ثم طرأت الغفلة على الناس في أن الإيمان يقيد حركة الناس في الكون، ويمنع الشهوات، فستروا وجود الله ليبقوا أسيادا في سلطانهم أو سيطرتهم أو

---

(١) [سبأ: ٢٤].

(٢) [البقرة: ٦].

استغلالهم أو استعلائهم على غيرهم من البشر. لابد أن يكون هناك شر يحاربه الإيمان، والمؤمن يقي نفسه ومجتمعه وعالمه من شرور يأتي بها الكفر.

## الكافرون قسمان

والكافرون قسمان: قسم كفر ثم آمن ونجا، وصنف آخر مستفيد من الكفر والطغيان والظلم، وأكل حقوق الناس، والوصول إلى الأطماع والأهواء، والوصول إلى الشهوات، وغير ذلك، وهذا الصنف يعرف أن الإيمان إذا جاء فإنه سيسلبه جاها دنيويا ومكاسب يحققها وأهواء وأطماع وشهوات اعتاد عليها، فاستمرّ على ما هو عليه، وربما أضلّ غيره!

## التفت إلى قوة الأسباب لا إلى خالق الأسباب!

الخلق قضية محسومة لله، فلا يمكن أن يدّعي أحد أنه خلق نفسه أو خلق الكون، ولما نظر الإنسان حوله، فوجد كل ما في الكون مسخر لخدمته، والأشياء تستجيب له، فظن بمرور الزمن أنّ له سيطرة على هذا الكون، ولذلك عاش وفي ذهنه قوة الأسباب ولم يلتفت إلى خالق الأسباب.

### نضرب مثلا للتوضيح:

ذلك أن الإنسان يحرث الأرض فتعطيه الثمر، فيعتقد أنه هو الذي أخضع الأرض ووضع لها أسرارها وقوانينها لتعطيه ما يريد، أو يضغط على زر

الكهرباء فينير المكان فيعتقد أنه هو الذي أوجد هذه الكهرباء، أو يركب الطائرة وتسير به في الجو فيعتقد أنه هو الذي جعلها تطير، وينسى الخصائص التي وضعها الله سبحانه في الغلاف الجوي، ليستطيع أن يحمل هذه الطائرة، يفتح التليفزيون ويرى أمامه أحداث العالم فيعتقد أن ذلك قد حدث بقدرته هو.

## إننا جميعا محتاجون إلى الخالق

إذن فأنت تبدأ بالطفولة محتاجا إلى غيرك، وتنتهي بالشيخوخة محتاجا إلى غيرك، وحتى عندما تكون في شبابك قد يصيبك مرض وتحتاج إلى غيرك، فإذا كانت لك ذات حقيقية فادفع هذا المرض عنك، والله سبحانه أوجد هذه المتغيرات حتى ينتهي الغرور من الإنسان، لنعلم أننا جميعا محتاجون إلى الخالق.

## اتخذوا الكفر صناعة

إنهم لم يكفروا لأن بلاغا عن الله لم يصلهم، ولم يكفروا لأنهم في حاجة إلى أن يلفتهم رسول أو نبي إلى منهج الله، هؤلاء اتخذوا الكفر صناعة ومنهج حياة، فهم مستفيدون من الكفر لأنه جعلهم سادة متميزون، أطماع وأهواء وشهوات، اتخذوا الكفر طريقا لجاه الدنيا وزخرفها، بل إن هؤلاء يقاومون الدين ويحاربون كل من آمن، لأنهم يعرفون أن الإيمان سيسلبهم مميزات كثيرة، إنه يريد الدنيا التي يعيش فيها، سواء أنذرته أو لم تنذره فإنه لن يؤمن.

## لماذا يطلب الإيمان منهم وقد ختم على قلوبهم؟!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٧﴾[1].

معنى الختم على القلب، هو حكم بألاّ يخرج من القلب ما فيه من الكفر، ولا يدخل إليه الإيمان، هؤلاء يختم الله بكفرهم على آلات الإدراك كلها، القلب والسمع والبصر، وقد يتساءل بعض الناس: إذا كان هذا هو حكم الله على الكافرين؟ فلماذا يطلب رسول الله الإيمان منهم وقد ختم الله على قلوبهم؟! يطلب رسول الله الإيمان منهم ليكونوا شهداء على أنفسهم يوم القيامة بأنهم رفضوا، فلا يأتي هؤلاء الناس يجادلون بالباطل، بأنه لو دعاهم رسول الله لآمنوا.

## ولكن، لماذا يختم الله على قلوبهم؟

لأن القلب هو مكان العقائد، ولذلك فإن القضية تناقش في العقل فإذا انتهت مناقشتها واقتنع بها الإنسان تماماً فإنها تستقر في القلب ولا تعود إلى الذهن مرة أخرى وتصبح عقيدة وإيمانا، والحق ﷻ يقول: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ۝٤٦﴾[2]. فإذا عمى القلب عن قضية الإيمان، فلا عين ترى آيات الإيمان، ولا أذن تسمع كلام الله.

---

(١) [البقرة: ٧].

(٢) [الحج: ٤٦].

## المنافق يعيش في خوف عميق

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ۝٨﴾[(١)].

الناس في الحياة الدنيا على ثلاثة أحوال: إما مؤمن، وإما كافر، وإما منافق، وجاء ذكر المنافقين في ثلاث عشرة آية متتابعة، لخطورتهم على الدين، فالكافر نتّقيه ونحذره، والمنافق يتظاهر أمامك بالإيمان، ولكنه يبطن الشر والكفر، وقد تحسبه مؤمنا، فتطلعه على أسرارك، فيتخذها سلاحا لهدم الدين والطعن فيه، فالمؤمن ملكاته منسجمة بلا تناقض، لأنه اعتقد بقلبه ما نطق لسانه، والكافر رفض الإيمان بقلبه ولسانه، ولكن الذي فقد السلام مع ملكاته هو المنافق، لأنه فقد السلام مع مجتمعه ومع نفسه، ويخشى أن يكشفه الناس، فيعيش في خوف عميق، وهو يعتقد أن ذلك شيء مؤقت سينتهي، ولكن هذا التناقض يبقى معه، ثم ينتقل معه إلى الآخرة، فينقضّ عليه، ليقوده إلى الدرك الأسفل من النار.

## صفة تدل على غفلتهم وحمق تفكيرهم

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾[(٢)].

وتأتي الصفة الثانية من صفات المنافقين، وهي صفة تدل على غفلتهم وحمق

---

(١) [البقرة: ٨].

(٢) [البقرة: ٩].

تفكيرهم، فإنهم يحسبون أنهم بنفاقهم يخدعون الله، وهل يستطيع بشر أن يخدع رب العالمين؟ إن الله عليم بكل شيء، عليم بما نخفي وما نعلن، عليم بالسر وما هو أخفى من السر، وهل يوجد ما هو أخفى من السر؟ نقول نعم، السر هو ما أسررت به لغيرك، فكأنه يعلمه اثنان، أنت ومن أسررت إليه. ولكن ما هو أخفى من السر، ما تبقيه في نفسك ولا تخبر به أحدا، أنه يظل في قلبك لا تسر به لإنسان، والله ﷻ يقول: ﴿وَإِن تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧﴾[1]

## هذا الخداع شقاء عليهم

لا يوجد مخلوق يستطيع أن يخدع خالقه، ولكنهم من غفلتهم، يحسبون أنهم يستطيعون خداع الله، ويحسبون أيضا أنهم يخدعون الذين آمنوا، ولكن هذا الخداع شقاء عليهم، لأنهم يعيشون في خوف مستمر، وهم دائما في قلق من أن يكتشف المؤمنون أمرهم، أو يستمعوا إليهم في مجالسهم الخاصة، وهم يتحدثون بالكفر ويسخرون من الإيمان، فكل واحد منهم يخشى أن تنفلت منه كلمة تفضحه، وهكذا فلا سلام بينهم وبين أنفسهم ولا مع المؤمنين، وبالتالي فإنهم لا يخدعون إلا أنفسهم.

---

(١) [طه: ٧].

## قلوب خائفة مرتعبة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًاۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ۝١٠﴾[1].

فكأن قلوبهم لا تملك الصحة الإيمانية، ولكنها قلوب مريضة، أتعبها التنافر مع كل ما حولها، ولذلك فهي قلوب ضعيفة، ليس فيها القوة اللازمة لمعرفة الحق، وهي قلوب خائفة مرتعبة في كل خطواتها، مضطربة بين ما في القلب وما على اللسان، تلك الرؤية التي لا تتناسب وتتفق مع فطرة الإيمان، وليت الأمر يقتصر عند هذا الحد، ولكن ينتظرهم في الآخرة عذاب أليم بسبب كذبهم.

## أفسدوا هذا الدين بالمذاهب والاختلافات

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١﴾[2].

إن جئت للصالح وأفسدته، فقد أفسدْت فسادين، لأن الله سبحانه أصلح لك مقومات حياتك في الكون، فلم تتركها على صلاحها الذي خُلقتْ به، تؤدي مهمتها في الحياة، وكان تركها في حدّ ذاته أولى، ولكنك جئت إلى هذه المهمة فأفسدتها. ثم أفسدت فسادا خاصا يتعلق بالشخص نفسه، ولقد تنبه أعداء

---

(١) [البقرة: ١٠].

(٢) [البقرة: ١١].

الإسلام إلى أن هذا الدين القوي لا يمكن أن يتأثر بطعنات، وتنبهوا إلى أن هذا الدين لا يمكن أن يهزم إلا من داخله، واستخدام المنافقين هو الطريقة الحقيقية لتفريق المسلمين، فانطلقوا إلى بعض المسلمين السخفاء ليتخذوا منهم الحربة التي يوجّهونها ضد هذا الدين، وظهرت مذاهب واختلافات، وما أسموه العلمانية واليسارية وأحزاب وتنظيمات وغير ذلك، كل هذا قام به منافقون مسلمون، وغلّفوه بغلاف إسلامي، ليفسدوا في الأرض، ويحاربوا منهج الله، وإذا لفت المؤمنون نظرهم إلى أنهم يفسدون، ادّعوا أنهم يصلحون!

## بشر من خلق الله يضعون لنا المناهج!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾[1].

الكون لا يصلح إلا بمنهج الله، وكل من يحاول أن يغير هذا المنهج أو يعطل تطبيقه بحجة الإصلاح، فهو مفسد وإن كان لا يشعر بذلك، فالله ﷻ هو الذي خلق الخلق، وهو أدرى بصنعته، ولا يوجد من يعلم سر ما يصلح صنعته أكثر من صانعها، ونحن في المنهج الدنيوي إذا أردنا إصلاح شيء اتجهنا لصانعه؛ فإذا لم يكن صانعه موجوداً في البلدة نفسها اتجهنا إلى ما يسمونه (الكتالوج)، وبدون هذا لا نصلح، والعجيب أننا نتبع هذه الطريقة في حياتنا الدنيوية، فبدلاً من أن نتجه إلى صانعه وخالقه لنأخذ عنه منهج الإصلاح، وهو أدرى بصنعته،

---

(١) [البقرة: ١٢].

نتجه إلى بشر من خلق الله يضعون لنا المناهج وما يسمى ب(القانون الوضعي)، وظاهرها الإصلاح، لكنها تزيد الأمور سوءا، والغريب أننا نسمي هذا تحضرا وتقدّما!

## ما داموا سفهاء، لماذا تدّعون الإيمان؟

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾[1].

إذا كنتم تعتقدون أن الذين آمنوا هم السفهاء، فلماذا تدّعون الإيمان كذبا لتكونوا سفهاء مثلهم؟ لاشك أن هناك تناقضاً موجوداً في كل تصرفات المنافقين، تناقض مع العقل والمنطق، هذا التناقض يأتي من تناقض ملكات النفس بعضها مع بعض، فاللسان يكذّب القلب، والقلب يكذّب اللسان، والعمل يكذّبهما معا، ولو كان لهم عقول لتنبّهوا إلى هذا كله، ولكنهم لا يشعرون أنهم يجسّدون السفاهة بعينها.

---

(١) [البقرة: ١٣].

## هذا هو الفرق!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤﴾(١).

انظر إلى هؤلاء، كما يقوم الممثّل على المسرح، بتمثيل دور شخصية غير شخصيته تماماً، ولنضرب لذلك مثلا، رجل يجلس مع زوجته في منزله، وطرق الباب طارق، يقوم الرجل بكل اطمئنان، ويفتح الباب، وتقوم الزوجة بإعداد فنجان من القهوة أو كوبا من الشاي، أو إعداد طعام، نأخذ هذه الحالة نفسها إذا كان الرجل مع زوجة غيره في شقته وطرق الباب، يحدث ارتباك عنيف، ويبحث الرجل عن مكان يُخفي فيه المرأة، أو يحاول أن يطفئ الأنوار ويمنع الأصوات، ويحرصون على ألا يراهم أحد، وهي شهادة منه بأن ما يفعله جريمة قبيحة، هذا هو الفرق بين منهج الإيمان ومنهج الشيطان، الحادثة واحدة، ولكن الذي اختلف هو الحلال والحرام.

## ضربة واحدة، وينتهي كل شيء!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥﴾(٢).

---

(١) [البقرة: ١٤].

(٢) [البقرة: ١٥].

هذه سُنَّة الله في خلقه، أنت إنسان مخيَّر، ولا بدَّ أن تأخذ أبعادك كلَّها، ولا بدَّ أن يسمح لك أن تصل إلى نهاية الطريق، إلى هنا حدود الفساد والانحراف، لا بدَّ من أن يُرْخَ لك الحبل، لذلك حينما ترى الله يتابع نعمه عليك؛ إذا وجدت القوة والمال والوسامة وأنت تعصيه، فاحذره، فهذا الإنسان يحتاج إلى ضربةٍ واحدة، وينتهي كل شيء.

## هل كان معهم هدى ساعة الصفقة؟

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾[1].

هناك صفقة، ماذا اشتروا؟ اشتروا الضلالة، واشتروها بأي ثمن؟ ﴿بِٱلۡهُدَىٰ﴾ والباء في اللغة تدخل على المتروك، إذن كأن هؤلاء قد تركوا الهدى واشتروا الضلالة، ولكن هل كان معهم هدى ساعة الصفقة؟ إن الحال يقتضي أن يكون معهم هدى، والهدى الذي كان معهم، قد يكون هدى الفطرة، فكأن هؤلاء كان يمكنهم أن يختاروا الهدى فاختاروا الضلالة.

## صورته حقيرة أمام نفسه

قوله تعالى: ﴿فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾ يدل على أنهم

---

(١) [البقرة: ١٦].

خسروا كل شيء، خسروا الربح ورأس المال، هم قدموا الهدى ثمنا للضلال، وضاع منهم الهدى، ولذلك تكون صورته حقيرة أمام نفسه، حتى لو استطاع أن يخفي عيوبه عن الناس.

## لم يُبق لهم ضوءا ولا نورا

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾﴾(١).

ونلاحظ هنا دقة التعبير القرآني في قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ ولم يقل ذهب الله بضوئهم، مع أنهم أوقدوا النار ليحصلوا على الضوء، نجد أن الضوء أقوى من النور، والضوء لا يأتي إلا من إشعاع ذاتي، فالشمس ذاتية الإضاءة، ولكن القمر يستقبل الضوء ويعكس النور، فلو أن الحق تعالى قال ذهب الله بضوئهم، لكان المعنى أنه سبحانه ذهب بما يعكس النور، ولكن قوله تعالى: ﴿ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾، معناها أنه لم يُبق لهم ضوءا ولا نورا، فكأن قلوبهم يملؤها الظلام.

## معجزة قرآنية

ونلاحظ هنا أنه سبحانه، لم يقل وتركهم في ظلام، بل قال: ﴿فِى ظُلُمَٰتٍ﴾ أي أنها ظلمات متراكمة، ظلمات مركبة لا يستطيعون الخروج منها أبدا، وإذا امتنع

---

(١) [البقرة: ١٧].

النور امتنع البصر، أي أن العين لا تبصر بذاتها، ولكنها تبصر بانعكاس النور على الأشياء، ثم انعكاسه على العين، ولذلك فأنت لا تبصر الأشياء في الظلام، وهذه معجزة قرآنية اكتشفها العلم بعد نزول القرآن.

## كل حواسّهم تعطلت

قَالَ تَعَالَى: ﴿صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾[1].

أراد ربنا أن يلفتنا، إلى أنه ليس البصر وحده هو الذي ذهب، ولكن كل حواسهم تعطلت، فالسمع تعطل، والنطق تعطل، والبصر تعطل، وهذه هي آلات الإدراك الأساسية في الإنسان، ولن تعود إليهم هذه الوسائل ليدركوا نور الله في كونه، فكأنهم انصرفوا عن كل ما يهديهم إلى طريق الله!! ولذلك فلا تطمعوا أن يرجعوا إلى منهج الإيمان أبدا.

## لم يلتفتوا إلى الخير، بل التفتوا إلى الظلمة

قَالَ تَعَالَى: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩﴾[2].

هؤلاء المنافقون، لم يلتفوا إلى هذا الخير الذي ينزل عليهم من السماء، من غير

(١) [البقرة: ١٨].

(٢) [البقرة: ١٩].

تعب أو جهد منهم، فالمطر قبل أن ينزل من السماء، لا بد أن يكون ظلمة في السحاب، هذه الظلمة مقدمات الخير والماء، إنهم لم يلتفتوا إلى الخير الذي ملأ الله به الأرض، بل التفتوا إلى الظلمة، هم لا يرون النعمة الحقيقية في أن هذا المطر يأتي لهم بعوامل استمرار الحياة، ولكنهم يأخذون الظاهر في البرق والرعد، فلا يستطيع الواحد منهم أن يصبر على شهوات نفسه ونزواتها، ويغفل عن حقيقة جزاء التكاليف في الآخرة، تماما كما ينظر الإنسان إلى المطر على أنه ظلمة ورعد وبرق، بينما هي في الحقيقة تأتي لوقت قصير وتختفي، فهي قصيرة كالحياة الدنيا، غفلوا عن ذلك الماء التي يبقى فترة طويلة، وتنبهوا إلى تلك الظواهر الوقتية التي تأتي مع المطر فخافوا منها.

## المستشرقون يشكّكون!!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾[1].

يدّعي بعض المستشرقين أن ذلك يتعارض مع الآية الكريمة التي تقول ﴿صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨﴾ كيف يكونون صمّا بكما عميا، ثم يقول: ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ﴾ مع أنهم صم وبكم وعمي؟ نقول: إن وسائل إدراكهم للمعنويات تتعطل، ولكن وسائل إدراكهم للمحسّات تبقى،

---

(١) [البقرة: ٢٠].

فأبقى الله لهم أبصارهم وأسماعهم لتكون حجة عليهم، انصرفوا بها عن آيات الله إلى الأشياء التي تأتيهم بفائدة عاجلة في الدنيا، وخطط المؤامرات على الإسلام.

## لا أحد يدّعي أنه خلق نفسه أو خلق الكون

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾[1].

أن من مقتضيات العبادة، أن الله هو خالق هذا الكون والناس جميعا، وليس في ذلك شبهة؛ لأنه لا أحد يستطيع أن يدّعي أنه خلق نفسه أو خلق هذا الكون، هل ظهر أحد الخلق من البشر أو من غير البشر منذ آلاف السنين وادعى ذلك؟ هل ادعى أحد بأنه خلق نفسه؟ أو خلق الناس جميعا؟ أو خلق جزءا منهم؟ أو خلق الحيوان؟ أو خلق الجبال أو البحار؟ أو السماء أو الأرض؟ لم يحدث هذا ولن يحدث أبدا.

## الأرض مريحة لكل جيل

قَالَ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٢٢﴾[2].

---

(١) [البقرة: ٢١].

(٢) [البقرة: ٢٢].

نحن نتوارث الأرض جيلا بعد جيل، وهي تصلح لحياتنا جميعاً، ومنذ أن خلقت الأرض إلى يوم القيامة، ستظل فراشا للإنسان، قد يقول بعض الناس: أنك إذا نمت على الأرض فقد تكون غير مريحة تحتك، فيها حصى أو غير ذلك مما يضايقك! نقول: إن ضرورة النوم ممكنة على الأرض، وقد أعدّها لنا إعداداً يتناسب مع كل جيل، مع اختلاف رفاهية العيش بسبب تقدم الحضارة، أنت حينما تجلس أو تنام على الأرض، هل تجلس أو تنام على كل الأرض؟ أم أنك تجلس أو تنام على جزء منها يناسب حجمك؟ أنت حينما تجلس أو تنام على جزء يناسب حجمك، هل تكون مرتاحا أم لا؟.

## السماء لا تهدد سكان الأرض

قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾ البناء يفيد المتانة والتماسك، أي أن السماء وهي فوقك، لا نرى شيئا يحملها حتى لا تسقط عليك، فهي ثابتة في مكانها، لا تُهدد سكان الأرض وتُفزعهم، والهدف من هذه الآيات كلها، أن نَطْمَئِنّ ونحن نعيش على الأرض، أن السماء لن تتساقط علينا لأن الله يحفظها.

## الرزق ما تنتفع به، وليس ما تحصل عليه

قوله تعالى: ﴿رِزْقًا لَّكُمْ﴾ فالله سبحانه، وضع في الأرض وسائل استبقاء الحياة، فالمطر ينزل من السماء فينبت به الزرع والثمر، وهذا رزق لنا، والرزق هو ما ينتفع به، وليس هو ما تحصل عليه. فقد تربح مالاً وافراً ولكنك لا تنفقه

ولا تستفيد منه، فلا يكون هذا رزقك ولكنه رزق غيرك من الورثة، أو اللصوص، أو الضرائب والجهات الحكومية، فأنت تظل حارساً عليه طول فترة حياتك، لا تنفق منه قرشاً واحداً، حتى ينتقل إلى أصحابه الذين ذكرناهم.

والرزق في نظر معظم الناس هو المال، وهو جزء من الرزق، ولكن هناك رزق الصحة، ورزق الولد، ورزق الطعام، ورزق في البركة، وكل نعمة من الله ﷻ هي رزق، وليس المال وحده.

## الرزق لا يأتي إلا من أعلى

قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ﴾ فيه دلالة أن الرزق لا يأتي إلا من أعلى، والماء رزق مباشر محسوس، ينزل من السماء في أنقى صوره مقطراً، ليزيد حياة القيم ارتقاءً، إنها عملية لو أراد البشر أن يقوموا بها ما استطاعوا، لأنها كانت ستكلف ملايين الأموال، لتعطينا ماءً لا يكفي أسرة واحدة، ولكن الله أنزله في أنقى صوره، ليضمن استمرار الحياة في هذا الكون.

## من يدّعي أنه أنزل المطر وأنبت الزرع؟

﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ فالله واحد في قدرته، واحد في قوته، واحد في خلقه، ولا توجد مقارنة بين صفات الخالق ﷻ وصفات الخلق، لو عرضت هذه المسألة على العقل لرفضها تماماً، لأنها لا تتفق مع عقل أو منطق، ولذلك يقول الحق ﷻ: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ أي تعرفون هذا جيداً بعقولكم،

لأن طبيعة العقل ترفض هذا تماماً، فمن ذا الذي يستطيع أن يدّعي أنه خلقكم والذين من قبلكم؟! ومن ذا الذي يستطيع أن يدعي ولو كذبا من البشر وغير البشر، أنه هو الذي أنزل المطر وأنبت الزرع؟ ومادام لا يوجد معارض ولا يمكن أن يوجد، فالقضية محسومة.

## فضحوا أنفسهم!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾﴾[1].

فمن أين دخل الريب إلى قلوبهم؟ لقد فضحوا أنفسهم بأنهم لا يرتابون في القرآن، ولكنهم كانوا يريدونه أن ينزل على سيّد من سادة قريش، وهؤلاء المرتابون لم يجدوا حجة يواجهون بها القرآن، فقالوا ساحر، إذا كان ساحرا فلماذا لم يسحركم أنتم؟ وقالوا شاعر، إذا كان القرآن شعرا فلماذا لا تقولون شعرا مثله؟ وقالوا مجنون، فهل يكون المجنون على خلق عظيم؟ إذن فأسباب الريب كلها غير موجودة.

## الاختيار البشري ينتهي ساعة الاحتضار

وبعض المستشرقين الذين يحاولون الطعن في القرآن الكريم يقولون: أن كلمة

---

(١) [البقرة: ٢٣].

عباد قد جاءت في وصف غير المؤمن في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ١٧﴾(١). نقول: إنكم لم تفهموا أن هذا ساعة الحساب في الآخرة، وفي الآخرة كلنا عباد لأننا كلنا مقهورون، فلا اختيار لأحد في الآخرة، وإنما الاختيار البشري ينتهي ساعة الاحتضار، ثم يصبح الإنسان بعد ذلك مقهوراً.

## موقفهم مدعاة للسخرية

والله ﷻ وضع في هذه الآية معظم الشكوك لنفحصها، ولنصل فيما بعد ذلك إلى جوهر الإعجاز القرآني، فقد تدرج في التحدي، فطلب منهم أن يأتوا بمثل القرآن، ثم طلب عشر سور من مثله، ثم طلب سورة واحدة، والنزول التدريجي في التحدي دليل ضد من تحداهم، فلا يستطيعون، ويصبح موقفهم مدعاة للسخرية، وهذا منتهى الاستهانة بالذين تحداهم، وإثبات بأنهم لا يقدرون على شيء.

## أليس هذا إظهار منتهى القوة لله؟

وكلمة ﴿بِمَثَلِ﴾، معناها أن الله سبحانه، يطلب المثيل ولا يطلب النَص القرآني المطابق، وهذا إمعان وزيادة في إظهار عجز القوم، وقوله:﴿وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم﴾ معناه زيادة في التحدي، أليس هذا إظهار منتهى القوة لله، لأنه لم

(١) [الفرقان: ١٧]

يشترط شهداء من الملائكة، ولا من الذين اشتُهر عنهم الصدق، بل ترك لهم أن يأتوا بالشهداء، بأي شهداء متحيزين لهم، من كل أجناس الأرض، وهؤلاء لن يستطيعوا أن يشهدوا أن كلام هؤلاء المشككين يماثل سورة من القرآن. وقوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾: ولكن إياكم أن تقولوا يشهد الله بأن ما جئنا به مثل القرآن، لأنكم تكونون قد كذبتم على الله وادعيتم شيئا لم يقله، ومعنى قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٢٣﴾ صادقين في ماذا؟ فالله يريد منكم الدليل على صدقكم، فإن لم يحدث ذلك فأنتم كاذبون.

## الله حكم عليهم بالفشل إلي يوم القيامة

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ٢٤﴾[1].

يأتي الله بالنتيجة، لأنه سبحانه يعلم أنهم لن يفعلوا ولن يستطيعوا، وقد حكم عليهم بالفشل وقت نزول القرآن وبعد نزول القرآن إلي يوم القيامة، لأن الله لا يخفى عن علمه شيء، وقوله تعالى «**فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا**» معناه أن الشك مفتعل في نفوسهم؛ هم لا يريدون أن يؤمنوا، ولذلك يأتون بسبب مفتعل لعدم الإيمان، ومادام هذا هو ما قرّرتموه، فإنكم ستظلون تبحثون عن أسباب ملفّقة أخرى.

---

(١) [البقرة: ٢٤].

## أعطاهم ذاتية الاختيار

﴿فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلۡحِجَارَةُۖ﴾. وهذا وعيد من الله، لقد أعطاهم ذاتية الاختيار في الدنيا، ولم يختاروا قهراً، بل اختاروا عدم الإيمان بمشيئة الاختيار التي أعطاه الله لهم، ولكن هناك وقت ليس فيه اختيار وهو الآخرة، فحاولوا أن تتقوا في الآخرة عذاب النار. ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡكَٰفِرِينَ ١٣١﴾ وقوله تعالى «**أُعدّت**» فيه دليل أنها موجودة فعلاً وإن لم نكن نراها.

## فاز مرتين!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥﴾[1].

هذه الصورة المتقابلة لها تأثير على دفع الإيمان في النفوس، فإذا قرأ الإنسان سورة للعذاب ثم جاء بعدها النعيم، فإنه يعرف أنه قد فاز مرتين، نجاته من النار ودخوله الجنة، فالله تعالى يريد من المؤمنين أن يعملوا بالمنهج حتى لا تتعاند حركة الحياة، ومادامت حركة الحياة مستقيمة، فإنها تصبح حياة متساندة وقوية، وعندما انتشر الإسلام في بقاع الأرض لم يكن الهدف أن يؤمن الناس

---

(١) [البقرة: ٢٥].

فقط لمجرد الإيمان، ولكن لا بد أن تنسجم حركة الحياة مع منهج الإسلام، فإذا ابتعدت حركة الحياة عن المنهج، حينئذ لا يخدم قضية الدين أن يؤمن الناس أو لا يؤمنوا، فكان لا بد أن ينصّ على العمل الصالح.

## ألفاظ تتناسب مع عقولنا وإدراكنا

قوله تعالى: ﴿مِن ثَمَرَةٍ﴾ فالطعام والشراب والنساء بالنسبة لأهل الجنة لا يكون عن جوع أو ظمأ أو حاجة، وإنما عن مجرد الرغبة والتمتع، والله تعالى في هذه الآية يَعِدُ بأمرٍ غيبي، ولذلك فإنه لكي يقرب المعنى إلى ذهن البشر، لا بد من استخدام ألفاظ مشهودة وموجودة عن واقع نشهده، وما هو موجود في الجنة لا تعلمه نفس في الدنيا، ولا يوجد لفظ في اللغة يعبر عنه، ولذلك استخدم الله ﷻ الألفاظ التي تتناسب مع عقولنا وإدراكنا.

## ربما تكون هذه الثمرة هي ثمرة المانجو!

﴿وَأُتُوا۟ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ وتعتقد أن هناك تشابها بين ثمر الدنيا وثمر الجنة، ولكن ثمر الجنة ليس كثمر الدنيا لا في طعمه ولا في رائحته، وإنما يرى أهل الجنة ثمرها، ويتحدثون يقولون: ربما تكون هذه الثمرة هي ثمرة المانجو أو التفاح أو العنب الذي أكلناه في الدنيا، ولكنها في الحقيقة تختلف تماما.

## زوجة دائمة الشجار!

﴿وَلَهُمْ فِيهَآ أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌۖ﴾ هناك منغّصات تستطيع أن تضعها المرأة في حياة زوجها تجعله شقيا في حياته، كأن تكون سليطة اللسان أو دائمة الشجار، أو تحاول إثارته بأن تجعله يشكّ فيها، أما في الآخرة فتزول كل هذه المنغّصات بأمر الله، وهي مطهرة من كل ما يكرهه الزوج فيها، وما لم يحبه في الدنيا يختفي.

## لماذا لم يضرب الله مثلا بالفيل أو الأسد؟

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِي بِهِۦ كَثِيرًاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ٢٦﴾[1].

كل ما يأتينا من الله في قرآن، نستقبله على أنه كلام الله ولا نستقبله بأي صيغة أخرى، ذلك هو الإيمان الذي يريد الله منا بأن يكون هو سلوك حياتنا، وعندما ضرب الله مثلا بالبعوضة، استقبله الكفار بالمعنى الدنيوي دون أن يفطنوا للمعنى الحقيقي، قالوا كيف يضرب الله مثلا بالبعوضة ذلك المخلوق الضعيف، لماذا لم يضرب الله مثلا بالفيل الذي هو ضخم الجثة، أو بالأسد شديد القوة، وقالوا: ﴿مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًاۘ﴾ ولم يفطنوا إلى أن هذه البعوضة دقيقة الحجم خلقها معجزة، فكلما دق الشيء احتاج إلى دقة خلق أكبر.

---

(١) [البقرة: ٢٦].

## صناعة الأجهزة الإلكترونية!

ونحن نشاهد في حياتنا البشرية، اخترع الإنسان الساعة والمذياع، وفي عصرنا الحاضر، صناعة الحواسيب المعقدة جدا، والأجهزة الإلكترونية صغيرة الحجم، وفي كل الصناعات عندما يصغر حجمها ترتقي، وهكذا حين ضرب الله مثلا بالبعوضة وما فوقها، أي بما هو أقل منها حجما، فإنه ﷻ أراد أن يلفتنا إلى دقة الخلق، فكلما صغر حجم الشيء احتاج إلى دقة الخلق.

## تكافل اجتماعي بين البشر

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾﴾[1].

فالله ﷻ أخذ من البشر جميعا عهدا، فوفّى به بعضهم ونقضه بعضهم، والذي ينقض عهدا مع بشر، فسلوكه هذا لا يقبله الله حتى مع الكفار وغير المؤمنين، وما أمر الله به أن يوصل هو صلة الرحم، وهكذا نرى أن هناك روابط إنسانية تبدأ بالأسرة ثم تتسع لتشمل القرية أو الحي، ثم تتسع لتشمل الدولة والمجتمع، ثم تتسع لتشمل المؤمنين جميعا، ثم تتسع لتشمل العالم كله، فصلة الرحم توجِد نوعا من التكافل الاجتماعي بين البشر، فإذا حدث لشخص مصيبة، أسرع أقاربه يقفون معه في محنته، ويحاول كل منهم أن يخفف عنه، هذا

---

(١) [البقرة: ٢٧].

التلاحم بين الأسرة يجعلها قوية في مواجهة الأحداث، ولا يحسّ واحد منها بالضياع في هذا الكون، لأنه متماسك مع أسرته، متماسك مع حيِّه أو قريته، وهكذا يختفي الحقد من المجتمع.

## تفكك الأسرة في المجتمعات الغربية

ولعلنا إذا نظرنا إلي المجتمعات الغربية التي يعتريها تفكك الأسرة، نجد أن كل واحد منهم قد ضلّ طريقه وانحرف لأنه أحسّ بالضّياع، فانحرف إلى المخدرات أو إلى الخمر أو إلى الزنا واللواط، وغير ذلك من الانحرافات والرذائل التي نراها كالزواج المثلي! انتقل المجتمع بها إلى جيل ضائع، من الذي أضاعه؟ إنه تفكك الأسرة وعدم ترابطها مع الثوابت الدينية والأخلاقية.

## هذا يجعل الكون قبيحا

﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ ومن رحمة الله أنه جعل في كونه خلقا يعمل مقهورا، ليضبط حركة الكون الأعلى، كالشمس والنجوم والفضاء، وكذلك الكون السفلي للإنسان وهو الأرض، وكل الكون ما عدا الإنس والجان، أعطانا الاختيار حتى نأتيه عن حب وليس عن قهر، ولذلك فكل منا مختار في أن يؤمن أو لا يؤمن، وهذا الاختيار يثبت محبوبية الله، فأنت تحب الشهوات ولكنك تحب الله أكثر، لنأتي الله طائعين ولسنا مقهورين، فكل إنسان غير أمين في عمله يفسد في الكون، وكل إنسان غير أمين في خُلُقه يفسد في الكون، وهذا يجعل الكون قبيحا.

## ما نراه اليوم، الجهلة يسيّرون الأمور!

إن ما نراه اليوم من شكوى الناس علامة على الفساد، لأن معناها أن الناس تعاني، ولا أحد يتحرك ليرفع أسباب هذه الشكوى، وأول مظاهر الفساد أن يوكل الأمر إلى غير أهله، فالذي يجيد النفاق هو الذي يصل إلى الدرجات العلا، والذي يتقن عمله لا يصل إلى شيء، وتكون النتيجة أن مجموعة من الجهلة هم الذين يسيّرون الأمور بدون علم، فيتحول المجتمع كله إلى مجموعة من غير المنتجين، وتضيع الحقوق، وتصبح الحياة سلسلة لا تنتهي من الشقاء.

## انتهت الصفقة وضاع كل شيء!

إن قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٦٣﴾ تدل على أن الصفقة انتهت وضاع كل شيء، وليس الخسران موقوتا، ولا هو خسران يمكن أن يعوّض في الصفقة القادمة، بل هو خسران أبدي، والندم عليها سيكون شديدا. والعجيب أنك ترى الناس يعدّون للحياة الدنيا إعدادا قويا، فيرسلون أولادهم إلى مدارس لغات أجنبية، ويتحملون في ذلك مالا يطيقون، ثم يدفعونهم إلى الجامعات للدراسة في أوروبا، هم في ذلك يعدّونهم لمستقبل مظنون، لأن الإنسان يمكن أن ينحرف في آخر مراحل دراسته، فيضيع كل ما أنفقوه من أجله، أو يرتكب جريمة، يقضي فيها بقية عمره في السجن فيضيع عمره، وتجد

قليلا من الآباء، هم الذين يبذلون جهدا لحمل أبنائهم على الصلاة وعبادة الله، والأمانة، وكل ما يقربهم إلى الله.

## أمر عجيب ما كان يجب أن يحدث!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿كَيۡفَ تَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَكُنتُمۡ أَمۡوَٰتٗا فَأَحۡيَٰكُمۡۖ ثُمَّ يُمِيتُكُمۡ ثُمَّ يُحۡيِيكُمۡ ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٢٨﴾[1].

هذه الآية الكريمة ليس بغرض الاستفهام، ولكن لطلب تفسير أمر عجيب ما كان يجب أن يحدث! كأن تقول لرجل: كيف تسبّ أباك؟ ﴿ثُمَّ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٤٤﴾ لقد حاول الملحدون وأصحاب الفلسفة المادية أن ينكروا قضية البعث، وهم في هذا لم يأتوا بجديد، بل جاءوا بالكلام نفسه الذي قاله أصحاب الجاهلية الأولى، واقرأ قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾[2]، وأمنية الكافر ألا يكون هناك بعث أو حساب، وإلا سيفاجأ في الآخرة بالله، يحاسبه على أطماعه وأهوائه وشهواته، حيث لم يكن ذلك في باله!

---

(١) [البقرة: ٢٨].

(٢) [الجاثية: ٢٤].

## الأسباب والمسبّبات في الكون

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ٢٩﴾[1].

الكون مسخر لخدمة الإنسان، فنحن مثلا نستخدم الكهرباء مع أننا لا نعرف ما هي؟ وكذلك نعيش على الأرض، ونستفيد بكل مكوناتها وعناصرها، وإذا كانت هناك ظواهر في الكون تتمرّد بقَدَر الله، مثل الفيضانات والبراكين والكوارث الطبيعية، والحروب والأحداث بأشكالها، نقول: إن ذلك يحدث ليلفتنا الله سبحانه إلى أن كل ما في الكون لا يخدمنا بذاتنا، ولا بسيطرتنا عليه، وإنما يخدمنا بأمر الله له، فالأسباب والمسببات في الكون لا تخرج عن إرادة الله.

## الاختراعات الجديدة خلق من موجود

بعض الناس يتساءل عن الرقيّ والحضارة وهذه الاختراعات الجديدة، أليس للإنسان فيها خلق؟ نقول: فيها خلق من موجود، والله ﷻ كشف من علمه للبشر، ما يستطيعون أن يرتقوا ويصنعوا أشياء جديدة، وكل خلق الله الذي تراه في الكون الآن، قد وضع الله ﷻ فيه من قوانين الأسباب، ما يعطيه استمرارية الحياة، من جيل إلى جيل حتى ينتهي الكون. فالإنسان لم يخترع مثلا البترول أو المعادن، ولكنها كانت مطمورة في الأرض، حتى جاء الوقت

---

(١) [البقرة: ٢٩].

وعلمنا الله كيف نستخرجها، فليس معنى أن الشيء كان غائبا عنا أنه لم يكن موجودا، أو أنه وجد لحظة اكتشافنا له، فالشيء الحادث الآن، والشيء الذي سيحدث بعد سنوات، خلق الله كل عناصره، وأودعها في الأرض لحظة الخلق، والإنسان بما يكشف الله له من علم يستطيع تركيب هذه العناصر.

## عقلك قاصر عن أن تدرك ذلك!

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يجب أن نفهم كل شيء متعلق بذات الله، على أنه سبحانه ليس كمثله شيء، فالله استوى والملوك تستوي على عروشها، وأنت تستوي على كرسيك، ولكن لأننا محكومون بقضية ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ لا بد أن نعرف أن استواء الله ﷻ ليس كمثله شيء، والله حيّ وأنت حيّ، هل حياتك كحياته؟ والله يعلم وأنت تعلم، هل علمك كعلمه؟ لا يمكن أن تحيط أنت بعقلك، بفعل يتعلق بذات الله ﷻ، فعقلك قاصر عن أن يدرك ذلك.

## الجن خُلق قبل الإنسان

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٠﴾[1].

كلمة (سفك) وكلمة (دم)، كيف عرفتها الملائكة وهي لم تحدث بعد؟ لا بد

---

(١) [البقرة: ٣٠].

أنهم عرفوا من حياة سابقة قاسوا عليها، والله ﷻ يقول: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾[1]، أو أنهم ظنوا أن آدم سيطغى في الأرض، فكأن الجن قد خُلق قبل الإنسان. ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ التسبيح والتنزيه لا يكونان إلا للكمال المطلق الذي لا تشوبه أية شائبة، وهو لله ﷻ وحده، لذلك صرف الله ألسنة خلقه عن أن يقولوا كلمة سبحانك لغير الله تعالى، فلا تسمع في حياتك أن إنسانا قال لبشر سبحانك. وقوله: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝٣٠﴾ معنى ذلك: أن علمك أيها المخلوق مناسب لمخلوقيتك، أما علم الله ﷻ فهو أزلي لا نهائي.

## هل كان فيها أسماء ما يستجدّ من مخترعات في العالم؟

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٣١﴾[2].

وكلمة ﴿كُلَّهَا﴾ تفيد الإحاطة، أي معرفة كل شيء عن هذه الأسماء، هنا يتبادر سؤال: هل عَلّم الله آدم الأسماء منذ ساعة الخلق إلى قيام الساعة، مادام سبحانه يقول كلها، فما هو حكم تلك الأسماء التي هي لمخترعات ستأتي بعد خلق آدم

---

(١) [الحجر: ٢٧].

(٢) [البقرة: ٣١].

بقرون طويلة؟ إن تعليم الخالق يختلف عن تعليم المخلوق، لأن الخالق يعلم إلهاما، يقذف في قلب آدم أسماء المسميات كلها، لكل ما في الكون من أسماء المخلوقات. وهنا نتوقف لنجيب عن سؤالين: الأول: إذا كان الله تعالى قد علّم آدم الأسماء كلها، فهل كان فيها أسماء ما سيستجد من مخترعات في العالم؟ نقول: إنه تعلّم الأسماء التي يحتاج إليها في أولويات الوجود، ويستخدمها في متطلبات حياته على الأرض، فإذا جدّ جديد، فإن أولاد آدم يستخدمون هذه الأسماء، من المقدمات والأسماء التي تعلموها، فما يجدّ في الوجود من أسماء تدخل على اللغة، لم تأت من فراغ، وإنما جاءت من أصل اللغة التي تنطق بها وتكتب بها.

## لماذا اختلفت اللغات على الأرض؟

يأتي السؤال الثاني: إذا كان الله هو المعلم للكلام، فلماذا اختلفت اللغات على الأرض، وأصبح هناك ألوان من اللغات والألسنة؟ نقول إن انتشار الإنسان على الأرض، جعل كل مجموعة من البشر تقترب من بعضها لتكون لها لغة واحدة، وكل لغة موجودة مأخوذة من لغة قديمة، فالفرنسية والإنجليزية والإيطالية مأخوذة من اللاتينية، والعبرية والسريالية لهما علاقة باللغة العربية وكلها يرجع إلى اللغة السامية الأم، واللهجات التي يتكلم بها العالم العربي تختلف، حتى أن لهجة الجزائر تجدها مختلفة عن اللهجة المصرية، ولغة هؤلاء جميعا في الأصل هي لغة القرآن وهي العربية.

## هل تكذب الملائكة؟

في قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٢٥﴾ قد يتساءل البعض: هل تكذب الملائكة؟ إن الملائكة خلق من نور يسبّحون الله ويفعلون ما يؤمرون، نقول إن قوله تعالى ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ فيما تنبأتم به من غيب، أو قستم عليه من الأحداث، وليس هذا طعنا في الملائكة، ولكنه تصحيح لهم.

## الله تعالى هو المعلم الأول في الكون

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ٣٢ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ٣٣﴾[1].

هاتان الآيتان، توضحان أن الله ﷻ هو المعلم الأول في الكون، وإذا كنا نشاهد في عصرنا ألوانا من العلوم، فهذه العلوم كلها من تفاعل العقل الذي وهبه الله تعالى للإنسان، من المواد التي وضعها في الكون، بالمنطق والعلم الذي علمه للإنسان.

---

(١) [البقرة: ٣٢ – ٣٣].

## كيف يسجد الملائكة لغير الله؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝٣٤﴾[1].

قال بعض الناس: كيف يسجد الملائكة لغير الله؟ نقول لهؤلاء: إن العبادة هي طاعة أوامر الله، واجتناب نواهيه، فالله ﷻ هو الذي أمر الملائكة بالسجود، ومن لم يطعه كان عاصيا، ولذلك عندما نذهب إلى الحج فإننا نقبّل حجرا ونرجُم حجرا، وأمرُ السجود لآدم كأمر الله لنا بالسجود إلى القبلة في الصلاة، فنحن لا نسجد للقبلة ذاتها أو لجهة من الجهات، ولكننا نسجد لأمر الله بالسجود إلى القبلة، هذا هو معنى العبادة لله، لا شيء مقدّس عندنا إلا أمر الله.

## لولا أن آدم عصى، هل كنا الآن نعيش في الجنة؟

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٣٥﴾[2].

بعض الناس يقول: إنها جنة الخلد في الآخرة، وبعضهم قال: لولا أن آدم عصى لكنا نعيش في الجنة، نقول لهم: لا، جنة الآخرة هي للآخرة، ولا يعيش فيها

---

(١) [البقرة: ٣٤].

(٢) [البقرة: ٣٥].

إنسان ثم بعد ذلك يطرد منها، كما أن هذه الجنة فيها تكليف، في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾ وجنة الآخرة لا تكليف فيها، إذن فما هي الجنة التي عاش فيها آدم وحواء؟ هذه الجنة هي جنة التجربة أو المكان الذي تمت فيه تجربة تطبيق المنهج، ونحن إذا قرأنا القرآن الكريم، نجد أن الله تعالى قد أطلق لفظ الجنة على جنات الأرض، ذلك أن فيها أشجارا كثيفة تستر من يعيش فيها فلا يراه أحد.

## لماذا لم يقل: فتشقيا؟

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾﴾[1].

هذا مثل قوله تعالى: ﴿فَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾ يعني لآدم وحواء، ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾[2]. يعنى تتعب وتشقى في طلب رزقك، فإنك ههنا في عيش رغيد بلا كلفة ولا مشقة، وهنا لا بد أن نتساءل: لماذا لم يقل فتشقيا؟ إن هذه لفتة من الحق ﷻ إلى مهمة المرأة ومهمة الرجل في الحياة، فمهمة المرأة أن تكون سكنا لزوجها عندما يعود إلى بيته، تستقبله بحفاوة فينسى تعبه وشقاءه، أما مهمة الرجل فهي العمل حتى يوفر

---

(١) [البقرة: ٣٦].

(٢) [طه:١١٧].

الطعام والمسكن والحياة الكريمة لزوجته وأولاده، والعمل تعب وحركة، فمهمة الرجل أن يكدح ويشقى، ثم يأتي إلى أهله فتكون السكينة والراحة والاطمئنان.

## لماذا يأتي العالم ليغيّر هذا النظام؟

إذا كانت هذه هي الحقيقة، فلماذا يأتي العالم ليغير هذا النظام؟ نقول إن العالم هو الذي يُتعب نفسه ويُتعب الدنيا، فعمل المرأة شقاء لها، ومهمتها هي البيت، وليس عندها وقت لأي شيء آخر، فإذا عملت فذلك على حساب أولادها وبيتها وزوجها، ومن هنا ينشأ الشقاء في المجتمع، فيضيع الأولاد، ويهرب الزوج إلى مكان فيه امرأة تعطيه السكن الذي يحتاج إليه، وينتهي المجتمع إلى فوضى.

## هل النسيان معصية؟

ما الذي اسقط آدم في المعصية؟ إنها الغفلة أو النسيان، والحق ﷻ يقول: ﴿وَلَقَدۡ عَهِدۡنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبۡلُ فَنَسِيَ وَلَمۡ نَجِدۡ لَهُۥ عَزۡمٗا ١١٥﴾[1]، وهل النسيان معصية؟ حتى يقول الحق ﷻ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ١٢١﴾[2]، نعم النسيان كان

(١) [طه: ١١٥].

(٢) [طه: ١٢١]

معصية في الأمم السابقة، لذلك يقول النبي ﷺ: **«رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه»**، ونسي وعصى، تؤدي معنى واحدا.

## أنك لم تفهم عن الله شيئا!

هذا الهبوط هو بداية نزول الإنسان إلى الأرض ليباشر مهمته في الدنيا، ومادام الله ﷻ قال: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ۝٢٤﴾، فهي إذن حياة موقوته على قدر وقتها، وعلى قدر حجمها، والذين يقولون بأنه لا بد من وجود بشر نسميه مخَلِّصا، ليفدي العالم بقتله وصلبه من الخطيئة التي ارتكبها آدم، نقول له: أنك لم تفهم عن الله شيئا، لأن القصة هي هنا خطأ قد حدث وصُوّب، وفرق بين الخطأ والخطيئة، فالخطأ يصوّب، ولكن الخطيئة يعاقب عليها.

## من الذي قال إن الخطيئة تورّث؟

آدم أخطأ وصوب الله له، وتلقى من ربه كلمات فتاب عليه، إذن لا توجد خطيئة بعد أن علمه الله التوبة وتاب إلى الله، حتى نقول: نخلص العالم من خطيئة آدم، وهل خطايا العالم كلها أكل من شجرة؟ من الذين أوجد القتل وسفك الدماء، والزنا والاغتصاب والنميمة والغيبة؟ لو أن كلامهم صحيح لكان لا بدّ ألا توجد خطيئة على الأرض مادام قد وجد المخلِّص الذي فدى العالم من الخطيئة، ولكن الخطيئة باقية، ومن الذي قال إن الخطيئة تورّث؟ حتى

يرث العالم كله خطيئة آدم؟ والله ﷻ يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[١].

## العداوة تعطينا مناعة ألا نخطئ ولا نغفل

فالمستشرقون يعادون الإسلام، ولكن معاداتهم هذه تعطينا نشاطا لكي نبحث حتى نرد عليهم، وجنود الشيطان من الإنس يعادون المؤمنين، وعداواتهم هذه تعطينا مناعة ألا نخطئ ولا نغفل، فأنت مادام لك عدو، فحاول أن تتفوق عليه، ولعل الحضارة الإنسانية لا ترتقي بسرعة قدر ارتقائها وقت الحروب، ففيها يحاول كل خصم أن يتغلب على خصمه، وتُجند كل القوى للتفوق علميا على الدول الأخرى، هذه الارتقاءات والاختراعات قد تكون أدوات للتدمير والقتل، ولكن بعد أن تنتهي الحرب تتحول إلى استنتاجَات وعِبَر تُوجّه إلى ارتقاءات الإنسان في الأرض.

## شرّع الله التوبة رحمة بالمجتمع كله

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾[٢].

بعد أن وقعت المعصية، كان لا بد أن يشرع الله تعالى التوبة رحمة بالمجتمع كله، فالإنسان إذا عصى وعرف أنه لا توبة له، يتمادى في إجرامه، من الذي سيُعاني

(١) [الإسراء:١٥].

(٢) [البقرة: ٣٧].

في هذه الحالة؟ إنه المجتمع الذي يعيش فيه، وسيكون المسلمون أكثر الناس معاناة لأنهم أهل خير وتسامح.

## لكن إبليس لم يعترف بذنبه

إن بعض الناس يقول: إن آدم قد عصى وتاب الله عليه، وإبليس قد عصى فجعله الله خالدا في النار، نقول: إنكم لم تفهموا ماذا فعل آدم؟ أكل من الشجرة المحرمة، وعندما علم أنه أخطأ وعصى، لم يصرّ على المعصية، ولكنه أعترف بذنبه واعترف بضعفه، واعترف بأن الله حق وطلب التوبة منه، لكن إبليس لم يعترف بذنبه، بل ردّ الأمر على الآمر وقال: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝١٦﴾ وقال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢﴾ وقال: ﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ۝٦٢﴾ وسأفعل كذا وسأفعل كذا. وهذا زيادة بالكفر بالله.

## ما هذه الكلمات؟

قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾ ما هذه الكلمات؟ هل هي قول آدم كما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٢٣﴾[١]. هذه الآية الكريمة، دلتنا على أن ذنب آدم لم يكن من ذنوب الاستكبار، ولكن من ذنوب الغفلة، بينما كان ذنب إبليس من ذنوب الاستكبار على أمر الله، ولكن آدم عندما عصى حدث منه انكسار.

---

(١) [الأعراف: ٢٣].

## الله يستر عبده مرّة ومرّة

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٤﴾ كلمة تواب تدل على أنه يضبط بعد مرتين أو ثلاث، فالله يستر عبده مرة ومرة، ولكن إذا ازداد وتمادى في المعصية، يوقفه الله عند حده، وأنا أتحدى أن يوجد مجرم يُضبط من أول مرة، والله تعالى توّاب برحمته، لأن هناك من يعفو ويظل يمنّ عليك بالعفو، حتى أن المعفو عنه يقول: ليتك عاقبتني ولم تمنّ عليّ بالعفو كل ساعة.

## ما هو الخوف وما هو الحزن؟

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿قُلْنَا ٱهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٣٨﴾[1].

﴿هُدًى﴾ أي: الرسل والكتب السماوية، ﴿خَوْفٍ ۝٤﴾ أي: أن تتوقع شرا مقبلا لا قدرة لك على دفعه فتخاف منه، ﴿يَحْزَنُونَ ۝١٣﴾ والحزن: أن يفوتك شيء تحبه وتتمناه، وهذه تعطينا قضية مهمة في المجتمع، فالإنسان المستقيم الذي لم يرتكب أية مخالفة، لا يناله خوف أبدا، ولكن من يرتكب مخالفة، تجده دائما خائفا خشية أن ينكشف أمره.

---

(١) [البقرة: ٣٨].

## هل التكذيب عدم قدرة على الفهم؟

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٣٩﴾[1].

الكفر هو محاولة ستر وجود الله واجب الوجود، ومحاولة ستر هذا الوجود هو إعلان واعتراف بأن الله تعالى موجود، فأنت لا تحاول أن تستر شيئا إلا إذا كان له وجود، لأن الشيء الذي لا وجود له لا يحتاج إلى ستر. ﴿وَكَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَآ﴾ والآية هي الشيء العجيب اللافت، فهناك في الكون آيات كونية مثل الشمس والقمر والنجوم والأرض، والجبال والبحار وغير ذلك، هذه فوق قدرة البشر، خلقها الله ﷻ لتكون آية في كونه وتخدم الإنسان، وهناك الآيات وهي المعجزات؛ عندما يرسل الله رسولا أو نبيا إلى قومه فإنه سبحانه يخرق له قوانين الكون ليثبت لقومه أنه نبي مرسل من عند الله. والذين كذبوا بآيات الله هم الذين يرفضون الإسلام ويحاربون الدين، هؤلاء جميعا، حدد لنا الله تعالى مصيرهم، ولكن هل التكذيب عدم قدرة على الفهم؟ نقول أحيانا يكون التكذيب متعمدا مثلما حدث لآل فرعون عندما أصابهم الله بآفات وأمراض وبالعذاب الأصغر حتى يؤمنوا، ولكنهم رغم يقينهم بأن هذه الآيات من الله ﷻ، لم يعترفوا بها.

---

(١) [البقرة: ٣٩].

## بنو إسرائيل أكثر الأمم عصيانا

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ۝٤٠﴾(١).

أَخذت قصة بني إسرائيل ذلك الحجم الضخم في كتاب الله، وأنبياء بني إسرائيل من أكثر الأنبياء الذين أُرسلوا لأمة واحدة، وليس معنى هذا أنهم مفضّلون، ولكن لأنهم كانوا أكثر الأمم عصيانا وآثاما، فقد كانوا كلما خرجوا من معجزة انحرفوا، فتأتيهم معجزة أخرى، فينحرفون، وهكذا حكم الله عليهم لظلمهم أن يتفرقوا في الأرض عام (١٣٥م)، ثم يتجمعوا مرة أخرى بعد فترة طويلة من الزمن عام (١٩٤٨م) في مكان واحد على أرض فلسطين.

## من هو إسرائيل؟

نلاحظ أن الله تعالى بدأ هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ لماذا؟ ومن هو إسرائيل؟ إسرائيل هو نبي الله يعقوب عليه السلام، ولأنه ابتُلي بلاء كبيرا، استحق به أن يكون صفيّا لله، وعندما ينادي الله تعالى قوم موسى بقوله: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾، فإنه يريد أن يذكّرهم بمنزلة إسرائيل عند الله، ويذكّر الأبناء بفضله على الآباء علهم يتّعظون أو يخجلون من المعصية، تماما كما يكون هناك عبد صالح أسرف أبناؤه

(١) [البقرة: ٤٠].

على أنفسهم، فيقال لهم: ألا تخجلون؟ أنتم أبناء فلان الرجل الصالح، لا يصح أن ترتكبوا ما يغضب الله.

## ما هو العهد؟

﴿وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ﴾ العهد هو الميثاق، وما هو العهد الذي يريد الله من بني إسرائيل أن يوفوا به ليفي الله بعهده لهم؟ نقول: إما أن يكون عهد الفطرة، وهو أن نؤمن بالله ونشكره على نعمه، وكما قلنا إذا هبط الإنسان في مكان ليس فيه أحد، ثم نام وقام فوجد مائدة طعام أمامه، ألا يسأل نفسه: من صنع هذا؟ لو أنه فكر قليلا لعرف أنه لا بد أن يكون لها من صانع، فذِكْرُ الله وشكرِهِ واجب بالفطرة السليمة، لا يحتاج إلى تعقيدات وفلسفات، أو هو العهد الذي أخذه الله على الأنبياء ليبلغوا أقوامهم بأنهم إذا جاءهم رسول مصدق لما معهم فلا بد أن يؤمنوا به وينصروه.

## لما جاء من العرب كفروا به!!

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلۡتُ مُصَدِّقٗا لِّمَا مَعَكُمۡ وَلَا تَكُونُوٓاْ أَوَّلَ كَافِرِۭ بِهِۦۖ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا وَإِيَّٰيَ فَٱتَّقُونِ ۝٤١﴾[1].

بعد أن لفت الله أنظار اليهود إلى أن عدم إيمانهم بالإسلام هو كفر بالتوراة، لأن

(١) [البقرة: ٤١].

تعاليم التوراة تأمرهم أن يؤمنوا بالرسول الجديد، لقد كانوا يبشرون بمجيئه، وقد أُعطُوا أوصافه وزمنه في التوراة، فلما جاء من العرب، عرفوا أن سطوتهم ستزول، وأن سيادتهم الاقتصادية ستنتهي، فكفروا به وبرسالته. فاليهود لم يكونوا أول كافر بمحمد ﷺ، وإنما كانت قريش، والمقصود أول كافر به أي من أهل الكتاب، لأن قريشا لا صلة لها بمنهج السماء، وأحبار اليهود كانوا يعرفون صدق الرسالة، وكانوا يستفتحون برسول الله ﷺ على أهل المدينة ويقولون: جاء زمن رسول سنؤمن به ونقتلكم قتل عاد وإرم، ولما جاء رسول الله ﷺ، بدل أن يكونوا أول المؤمنين به، كانوا أول من كفر.

## ليتك جعلتها ثمنا غاليا؟!

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ لقد جعلت آيات الله ثمنا لتحصل على مكاسب دنيوية، وليتك جعلتها ثمنا غاليا، بل جعلتها ثمنا رخيصا، لقد تنكرت لعهدك مع الله، وكتمت الحقيقة عن رسالة محمد ﷺ ليبقى لك مالك أو مركزك! إنك تستعجل مكاسب الصفقة استعجالا أحمق، فهب أن معك كنز قارون ذهبا، وأنت في مكان منعزل وجائع، ألا تعطي هذا الكنز لمن سيعطيك رغيفا؟ فكيف إذا وقعت ببطش الله وعذابه؟

## هل فعلوا ذلك عن طريق الخطأ؟

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾[(١)].

في التوراة آيات لم يحرفها اليهود، وآيات حرفوها، وكل الآيات التي تتعلق برسول الله ﷺ ووصفه، حرفوها وأنكروها، وغيّروا أوصافها، والآيات التي لا تتعلق بذلك لم يحرفوها، فكأنهم خلطوا الحق بالباطل، ما الذي جعلهم يدخلون الباطل ويحاولون إخفاء الحقائق؟ ليشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، ويحافظوا على مناصب دينية ومراكز اجتماعية، ويستمروا في أطماعهم وأهوائهم، وشهواتهم القذرة، إذا انتقلوا إلى دين جديد، ولكن هل فعلوا ذلك عن طريق الخطأ أو السهو أو النسيان؟ لا بل فعلتموه ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

## أمرهم بالصلاة كما يصلي المسلمون

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[(٢)].

الله ﷻ يريد أن يهدم تكبرهم على الدين الجديد، فأمرهم بالصلاة كما يصلي المسلمون، وبالزكاة كما يزكّي المسلمون، فلا يعتقدون أن إيمانهم بموسى والتوراة سيُقبل منهم بعد أن جاء الرسول الجديد الذي أمروا أن يؤمنوا به،

---

(١) [البقرة: ٤٢].

(٢) [البقرة: ٤٣].

ويقولوا ديننا كافينا، إنه تعالى يريد أن يلفتهم إلى أن صلاتهم لن تُقبل منهم إلا أن يكون فيها ركوع، وصلاة اليهود ليس فيها ركوع.

## عالم الدين، الناس أعينهم مفتحة لما يصنع!!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿أَتَأْمُرُونَ ٱلنَّاسَ بِٱلْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ وَأَنتُمْ تَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾[1].

لا بد أن يكون العلماء قدوة ليصلح أمر الناس، والقدوة ليست مطلوبة في كل علوم الدنيا، إلا في الدين، فأنت إذا ذُكِرَ لك عالم كيمياء بارع، وقيل لك أنه يتناول الخمر، أو يفعل كذا، تقول مالي وسلوكه، وكذلك كل علماء الأرض، ما عدا عالم الدين، فالناس كلهم مفتحة أعينهم لما يصنع، فإن أمر بمعروف وهو لا ينفذه، أو نهى عن منكر ويفعله، فإنه يهبط من نظرك في الحال، فأي فائدة أن نقول إننا مسلمون ونعمل بعمل غير المسلمين؟

## هناك أحداث شاقة ستقع!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾[2].

ومعنى الاستعانة بالصبر، أن هناك أحداثا شاقة ستقع، فالصبر معناه حمل

---

(١) [البقرة: ٤٤].

(٢) [البقرة: ٤٥].

النفس على أمر صعب، وهم ماداموا قد تعودوا على شراء آيات الله بثمن قليل، فجعلوا آيات الله ثمنا لمتع الدنيا، واشتروا بها متعهم وملذاتهم، فلا بد أن يستعينوا بالصبر إذا أرادوا العودة إلى طريق الإيمان، وهذه المسألة موجهة للجميع، فكل مؤمن يدخل منهج الإيمان محتاج إلى الاستعانة بالصبر ليحمل نفسه على مشقة المنهج وتكاليفه، وليمنع نفسه عن الشهوات التي حرمها الله ﷻ.

## لماذا قال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ بدل (وإنّهما)

وسياق الآية يقتضي أن يقال: (وأنهما) لكن القرآن قال: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ﴾ فهل المقصود واحدة منهما، الصلاة فقط أم الصبر؟ نقول إنه عندما يأتي أمران منضمان إلى بعضهما لا تستقيم الأمور إلا بهما معا، يكونان علاجا واحدا، واقرأ قوله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾[1]. فقال: يرضوه ولم يقل يرضوهما، والتفسير السابق نفسه نفهمه، ليس لله حق ولرسوله حق، ولكن الله ورسوله يلتقيان على حق واحد. والعلاج في الصبر مع الصلاة، فالصبر كبير أن تتحمله النفس، وكذلك الصلاة، لأنهما يأخذان من حركة حياة الإنسان.

(١) [التوبة: ٦٢].

## الخشوع يجعل الإنسان يستحضر عظمة الخالق

والخشوع هو الخضوع لمن ترى أنه فوقك بلا منازع، فالناس يتفاوتون في القيم والمواهب، وكل واحد يحاول أن يفاخر بعلوه ومواهبه، فمن الممكن أن يستكبر الإنسان بما عنده، ولكن الإنسان يخضع لمن كانت له حاجة عنده، لأنه لو تكبر عليه أتعبه في دنياه، هذا في البشر، أما بالنسبة لله سبحانه، فإنه خشوع لمن خلق، فالخشوع يجعل الإنسان يستحضر عظمة الخالق سبحانه، ومدى عجزه أمام خالق هذا الكون، ويعلم أن كل ما عنده يمكن أن يذهب به الله تعالى في لحظة، ذلك أننا نعيش في عالم الأغيار، والله ﷻ يجعل الأيام دولا، أي متداولة بين الناس، فإنسان يفاخر بقوته، يأتي من هو أقوى منه فيهزمه، وإنسان يفاخر بماله، فيضيع هذا المال في لحظة.

## مجرد الظن يكفي

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمۡ وَأَنَّهُمۡ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ٤٦﴾[1].

لم يقل الحق سبحانه: الذين تيّقنوا أنهم ملاقوا ربهم، لأن مجرد الظن أنك ملاق الله كاف أن يجعلك تلتزم بالمنهج، فما بالك إذا كنت متيقنا، فمجرد الظن يكفي، وإذا أردنا أن نضرب لذلك مثلا نقول: هب أنك سائر في طريق، وجاء شخص يخبرك أن هذا الطريق فيه لصوص وقطاع طرق، فمجرد هذا الكلام

(١) [البقرة: ٤٦].

يجعلك لا تمشي في هذا الطريق أبدا، والنفس البشرية لا بد أن تحتاط للقاء الله.

## أنت لا محالة سترجع إلى الله

﴿وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿٤٦﴾﴾ والرجوع إلى الله ﷻ أمر يقيني، فما دمت قد جئت إلى الدنيا مخلوقا من الله، فأنت لا محالة سترجع إليه، وهذا اليوم يجب أن نحتاط له حيطة كبرى، وأن نترقبه، لأنه يوم عظيم، ونحن نحتاط لأحداث دنيوية لا تساوي شيئا بالنسبة لأهوال يوم القيامة، أنت تسافر بالطائرة إلى أمريكا مثلا لقضاء عدد من السنوات، قبل التوجّه إلى المطار فإنك تحتاط من كل شيء، جواز سفرك، نقودك، أوراقك الرسمية، أنت تحتاط من كل شيء، وإن مجرد الظن هنا بأننا سنلاقي الله تعالى يوم الحساب، يكفي لأن نعمل له ألف حساب.

## ﴿فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾﴾ ممن عاصروكم

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٢٢﴾﴾[1].

وبما أن أوصافه ﷺ قد ذكرت في التوراة، وطلب منهم أن يؤمنوا به وينصروه، فإن عدم إيمانهم به هو كفر بالتوراة، كما أن الإنجيل بشّر بمحمد ﷺ وطلب

(١) [البقرة: ٤٧].

منهم أن يؤمنوا به، فعدم إيمانهم به كفر بالإنجيل. والمعنى اذكروا نعمتي بأني فضلتكم على العالمين ممن عاصروكم وقت نزول رسالة موسى، وجعلت منكم الأنبياء، والله يريد أن يلفتنا إلى أنه مادام قد أنعم عليهم، فلا يظنون أنهم غير مطالبين بالإيمان بمحمد، إنما كان لا بد أن يفهموا أن رسول الله ﷺ جاء ليصحّح لهم كتابهم، ويوضّح لهم الطريق الصحيح، فكان يجب عليهم أن يؤمنوا به وينصروه.

## لا شفاعة ولا فدية من سيادته أو فخامته!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝٤٨﴾[1].

أي خافوا يوم القيامة، وهو يوم الحساب على الأعمال في الدنيا، يوم لا يغني أحد عن أحد شيئًا، ولا يقبل الله وساطة أحد ولا شفاعة أحد في منكر أو ملحد أو مجرم، ولا يقبل منهم فدية سواء كانت مبلغا ضخما من المال، ملايين أو مليارات، أو كانت أموال الأرض جميعًا، من ذهب أو أبنية وعقارات، ولا يجرؤ أحد في هذا اليوم أن يتقدم لنصرتهم وإنقاذهم، من هؤلاء الذين اعتادوا نصرتهم في الدنيا، سواء كانوا سيادته أو فخامته أو عطوفته!!

(١) [البقرة: ٤٨].

## لماذا لم يقل (بناتكم) بدلا من ﴿نِسَآءَكُمۡۚ﴾؟

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذۡ نَجَّيۡنَٰكُم مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَسُومُونَكُمۡ سُوٓءَ ٱلۡعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ وَيَسۡتَحۡيُونَ نِسَآءَكُمۡۚ وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٤٩﴾[1].

الفرق بين ﴿يُذَبِّحُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾ و﴿يُقَتِّلُونَ أَبۡنَآءَكُمۡ﴾[2]. فالذبح لا بد فيه من إراقة دماء، وعادة يتم بقطع الشرايين عند الرقبة، ولكن القتل قد يكون بالذبح أو بغيره كالخنق والإغراق، وليس شرطا فيه أن تسفك الدماء. ولكن لماذا لم يقل الحق سبحانه: يذبّحون أبناءكم ويستحيون بناتكم بدلا من قوله يستحيون نساءكم؟ الله تعالى يريد أن يلفتنا إلى أن الفكرة من هذا هو إبقاء عنصر الأنوثة يتمتع بهنّ آل فرعون، لذلك لم يقل بنات ولكنه قال نساء، أي أنهم يريدونهنّ للخدمة والمتعة الجسدية وذلك للتنكيل ببني إسرائيل، ولا يقتل رجولة الرجل إلا أنه يرى الفاحشة تُصنع في نسائه، ولهذا قال ﷻ: ﴿وَفِي ذَٰلِكُم بَلَآءٞ مِّن رَّبِّكُمۡ عَظِيمٞ ٦﴾.

## حين تخرج الأحداث عن نطاق الأسباب

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذۡ فَرَقۡنَا بِكُمُ ٱلۡبَحۡرَ فَأَنجَيۡنَٰكُمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَ وَأَنتُمۡ تَنظُرُونَ ٥٠﴾[3].

---

(١) [البقرة: ٤٩].

(٢) [الأعراف:١٤١].

(٣) [البقرة: ٥٠].

الله سبحانه يريد أن يمنّ على بني إسرائيل بأنه أنجاهم من العذاب وأهلك عدوهم، فقد خرج موسى وقومه وكانوا ستمائة ألف كما تقول الروايات، فخرج فرعون وراءهم على رأس جيش من ألف ألف (مليون)، فلما تراءى الجمعان رؤية العين قال قوم موسى ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ۝٦١﴾ وهذا كلام منطقي، فأمامهم البحر ووراءهم فرعون وجنوده، ولكن حين تخرج الأحداث عن نطاق الأسباب إلى قدرة المسبب فهي لا تخضع لأسباب الكون، فبمنطق الأحداث يكون فرعون وجنوده سيدركونهم، ولكن بمنطق الله تعالى فإنه سيهيئ لهم طريق النجاة، وأوحى الله إلى موسى بأن يضرب بعصاه البحر فانفرق، وهكذا توقف قانون الماء وهو الاستطراق والسيولة، وانفرق البحر وأصبح كل جزء منه كالجبل، ذرات الماء تماسكت مع بعضها البعض لتكون جبلين كبيرين بينهما يابس يمر منه بنو إسرائيل.

## وقفوا يشاهدونهم!

﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝١٤٣﴾ أي يرى بنو إسرائيل آل فرعون وهم يغرقون فوقفوا يشاهدونهم، وأنت حين ترى مصرع عدوك تشعر بالمرارة التي في قلبك وهي تزول، ﴿وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ۝١٤٣﴾ أي ينظر بعضكم إلى بعض وأنتم غير مصدقين أنكم نجوتم من هذا البلاء العظيم، وفي نفس الوقت تطمئنون وأنتم تشاهدونهم، وهم يغرقون دون أن ينجو منهم أحد، حتى لا يدخل في قلوبكم الشك، أنه ربما نجى بعضهم وسيعودون ليتبعوكم.

## الدين يتكلم عن الزمن بالليلة، ما السبب؟

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ۝٥١﴾[1].

هذه الليالي الأربعون حُددت ثلاثين أولا، تم أتمّها الله بعشر أخرى، وعندما يتكلم الدين عن الزمن يتكلم دائما بالليلة، والسبب في ذلك أنك لا تستطيع أن تحدد الزمن بدقة بالنهار، فإذا نظرت إلى قرص الشمس، لا يمكن أن تحدد في أي وقت من الشهر نحن، ولكن إذا جاء الليل بمجرد أن تنظر إلى القمر تستطيع أن تحدد الزمن، فإذا كان القمر هلالا فنحن في أول الشهر، وإذا كان بدرا فنحن في وسطه وهكذا. ولأن السنة الهجرية تقوم على حساب الهلال، فمعنى ذلك أن كل نفحات الله في كونه تأتي في كل الفصول والأزمان، فتجد رمضان في الصيف والشتاء، وكذلك وقفة عرفات، وكذلك كل المناسبات الدينية، لأن السنة الهجرية تنقص أحد عشر يوما عن السنة الميلادية، والفرق سنة كل ثلاث وثلاثين سنة.

## الحرام لا يأتي منه خير مطلقا

بنو إسرائيل سرقوا بعض حليّ نساء آل فرعون، وزيّن لهم الشيطان أن يصنعوا منها عجلا يعبدونه، صنعه لهم موسى السّامري أحد علماء بني إسرائيل، فأخذ الحلي وصهرها ليجعلها في صورة عجل له خوار، وقال لهم: هذا إلهكم وإله

---

(١) [البقرة: ٥١].

موسى، أتعرف لماذا فتنهم الله ﷻ بالعجل؟ لأن الذهب المصنوع منه العجل من أصل حرام، والحرام لا يأتي منه خير مطلقا، ولا بدّ أن نأخذ العبرة من هذه الواقعة، وهي أن الحرام ينقلب على صاحبه شراً ووبالا.

## عفا اللّه عنهم، لماذا؟

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٢﴾[1].

عفا الله عنهم مع أنهم ارتكبوا ذنبا عظيما، لماذا؟ لأنه يريد أن يعلم خلقه أنه رب رحيم، لتمحو خلايا الشر في النفس البشرية، ولو لم تُشرع التوبة والعفو من الله لزاد الناس في معاصيهم، وهذا ما لا يريده الله سبحانه لعباده، لقد عبد بنو إسرائيل العجل قبل أن ينزل عليهم المنهج وهو التوراة، ولكن هل بعد أن أُنزل عليهم المنهج والتوراة تابوا وأصلحوا، أو استمروا في معصيتهم وعنادهم؟

## قصة موسى السامريّ

فتنة عبادة العجل حدثت بسبب السامري، والسامري اسمه موسى السامري، وردت قصته في روايات بني إسرائيل، وهي من الأخبار التي لا تُصدّق ولا تُكذّب، ولدته أمه في الصحراء وماتت، فكفله جبريل وربّاه، وكان جبريل عليه السلام يأتيه على حصان يحمل له ما يحتاج إليه من طعام وشراب، وكان موسى

(١) [البقرة: ٥٢].

السامري يرى حصان جبريل، كلما مشى على الأرض وقع منه تراب فتخضرّ وتنبت الأرض بعد هذا التراب، وأيقن أن في حافر الحصان سرّاً، فأخذ قبضة من أثر الحصان ووضعها في العجل المصنوع من الذهب، فأخذ يُحدث خوارا كأنّه حيّ! ولا تتعجب من أن صاحب الفتنة يجد معونة من الأسباب حتى يفتن بها الناس! لأن الله تعالى يريد أن يمتحن خلقه، والذي يحمل دعوة الحق لا بد أن يهيئه الله تهيئة خاصة.

## قتلوا من أنفسهم سبعين ألفا!

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿٥٣﴾ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓاْ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾[1].

﴿ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ﴾ أي: الكتاب الفارق بين الحق والباطل، وهو التوراة قبل تحرفها. ﴿فَٱقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ وعندما نزل حكم الله، جعل موسى بني إسرائيل يقفون صفوفا، وقال لهم: إن الذي لم يعبد العجل يقتل من عبده، ولكنهم حين وقفوا للتنفيذ، كان الواحد منهم يجد ابن عمه وأخاه وذوي رحمه أمامه فيشق عليه التنفيذ، فﷻ بأن بعث ضبابا يسترهم حتى لا يجدوا مشقة في تنفيذ

---

(١) [البقرة: ٥٣ – ٥٤].

القتل، وقيل إنهم قتلوا من أنفسهم سبعين ألفا، وهذا الرقم كما قال المفسرون ليس بالتحديد، إنما هو للمبالغة في عدد القتلى بأنه عدد كبير، قد يكون أقلّ من ذلك أو أكثر، وعندما حدث ذلك، أستصرخ موسى وهارون ربهم، وقالا لقومهم: أبكوا عسى أن يعفو الله عنكم، ووقفوا يبكون، فعفا الله عنهم، إن التشريع هنا بالقتل هو كفارة الذنب، وهو بذلك يعيد نفسه التي تمردت على منهج الله إلى العبادة الصحيحة، وهذا أقسى أنواع الكفارة، وهو أن يقتل الإنسان نفسه أو يقتل أخاه أو ابنه إثباتا لإيمانه، وندما على ما فعل، فكأن القتل هنا شهادة صادقة للعودة إلى الإيمان.

## أنت لا ترى الروح، فكيف تطمع أن ترى خالقها

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَـٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾﴾[1].

اليهود الذين لا يؤمنون إلا بالشيء المادي المحسّ، لا تتسع عقولهم ولا قلوبهم إلى أن الله فوق المادة وفوق الأبصار، وهذه النظرة المادية نظرة حمقاء، والله ﷻ قد لفتنا إلى قضية رؤيته جهرا في الدنيا بقوله تعالى: ﴿وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[2].

فإذا كانت الروح التي في جسدك، والتي تعطيك الحياة، لا تستطيع أن تدركها

---

(١) [البقرة: ٥٥].

(٢) [الذاريات: ٢١].

مع أنها موجودة داخلك، فكيف تريد أن تدرك الله ﷻ، وإذا كانت هذه الروح هي مخلوقة لله لا تدركها، فكيف تطمع أن ترى خالقها، وقد حسم الله المسألة مع موسى عليه السلام بأن أراه العجز البشري، لأن الجبل بقوته وجبروته لم يستطع احتمال نور الله فجعله دكّا، وكأن الله يريد أن يُفهم موسى، أن الله حجب عنه رؤيته رحمة منه، لأنه إذا كان هذا قد حدث للجبل لمّا تجلى له الله! فماذا كان يمكن أن يحدث بالنسبة لموسى؟

## كأن قوم موسى ماتوا فعلا!؟

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ۝٥٦﴾[1].

موسى عليه السلام أصيب بالصاعقة أيضا، عندما طلب أن ينظر إلى الله، لقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ﴾[2] ، أي أن الصاعقة أصابته بنوع من الإغماء، ولكن مع قوم موسى قال: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ﴾، فكأن قوم موسى ماتوا فعلا من الصاعقة، فموسى أفاق من تلقاء نفسه، أما أولئك الذين أصابتهم الصاعقة من قومه، فقد ماتوا ثم بُعثوا.

---

(١) [البقرة: ٥٦].

(٢) [الأعراف: ١٤٣].

## المنّ أشهى أنواع الحلويات

﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۖ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾(١).

والمنّ نُقط حمراء تتجمع على أوراق الشجر بين الفجر وطلوع الشمس، وهي موجودة حتى الآن في مناطق بالعراق، فيجمعونها وتصبح من أشهى أنواع الحلويات، أما السلوى فهي طير من السماء ويقال إنه السمان، يأتيهم في جماعات كبيرة لا يعرفون مصدرها، ويبقى على الأرض حتى يمسكوا به ويذبحوه ويأكلوه، وكل هذا يأتيهم من السماء دونما تعب منهم، ولكنهم لعدم إيمانهم بالغيبيات، يريدون الأمر المادي، لو كانوا مؤمنين حقا لقالوا: إن الذي رزقنا بالمن والسلوى لن يضيّعنا، وهم يخافون أن ينقطع المَنَّ والسلْوى عنهم يوما ما، فماذا يفعلون؟

## دخلوه زاحفين على ظهورهم!!

﴿وَإِذْ قُلْنَا ٱدْخُلُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ فَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَٰيَٰكُمْ ۚ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾(٢).

إنهم حتى في الأمر يغيرون مضمونه، ويلبسون الحق بالباطل، وهذه خاصية

---

(١) [البقرة: ٥٧].

(٢) [البقرة: ٥٨].

فيهم، ولذلك دخلوا الباب وهم غير ساجدين، دخلوه زاحفين على ظهورهم، مع أن ما أمرهم الله به أقل مشقة مما فعلوه، فكأن المخالفة لم تأت من أن أوامر الله شاقة، ولكنها أتت من الرغبة في مخالفة أمر الخالق، وبدلا من أن يقولوا حطة، أي حُطّ عنا يا رب ذنوبنا، قالوا حِنطة والحنطة هي القمح، ليطوّعوا اللفظ لأغراضهم، فكأن المسألة ليست عدم قدرة على الطاعة، ولكن رغبة في المخالفة.

## الرغبة في مخالفة أمر اللّه!!

﴿فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَنزَلْنَا عَلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ۝٥٩﴾[1].

فلو أن الله كلفهم تكليفا لم يستطيعوه؛ لأنه شاق عليهم فربما كان لهم عذرهم، ولكن الله ﷻ لا يكلف إلا بما هو في طاقة الإنسان أو أقل منها، فيقول: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾[2]، والله ﷻ لم يكلف بني إسرائيل بأن يدخلوا هذه القرية إلا بناء على طلبهم هم، فلما استجاب الله لدعواهم، بدلوا القول، وبدلوا طريقة الدخول، وكان هذا رغبة في المخالفة، فأصابهم الله بعذاب من السماء.

(١) [البقرة: ٥٩].

(٢) [البقرة: ٢٨٦].

## انتهت آخر نقطة من الماء

﴿وَإِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِۦ فَقُلۡنَا ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۖ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ مِن رِّزۡقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعۡثَوۡاْ فِي ٱلۡأَرۡضِ مُفۡسِدِينَ ٦٠﴾[1].

لقد وصلت ندرة الماء عند بني إسرائيل لدرجة أنهم لم يجدوا ما يشربونه، وموسى عليه السلام طلب السقيا من الله، ولا تطلب السقيا من الله إلا إذا كانت الأسباب قد نفدت، وانتهت آخر نقطة من الماء عندهم؛ وكان طمع موسى في رحمة الله بلا حدود، ولذلك فإن الدعوات كانت تتوالى من موسى عليه السلام لقومه، وكانت الاستجابة من الله تأتي، الله تعالى أراد المعجزة، فقال: لن أعطيكم ماء ينزل من السماء، ولكن الله أراد أن يُرِي بني إسرائيل مدى الإعجاز، فأعطاهم الماء من الحجر.

## لماذا اثنتا عشرة عينا؟!

قوله تعالى: ﴿فَٱنفَجَرَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ﴾ لماذا اثنتا عشرة عينا؟ لأن اليهود كانوا يعيشون حياة انعزال، منقسمون إلى اثنتا عشرة مجموعة، وهم عدد أبناء أبيهم يعقوب (إسرائيل) عليه السلام، كل مجموعة منهم كانت تسمى «سبطا» لها شيخ مثل شيخ القبيلة، فإذا ما أخذوا حاجتهم ضرب موسى الحجر فيجفّ،

---

(١) [البقرة: ٦٠].

ولذلك نعرف أن الحجر كان يعطيهم الماء على قدر الحاجة، من الجهات الأربع، فقد نبع من كلّ منها ثلاثة ينابيع.

## ماذا طلبوا؟

﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ۗ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٦١﴾﴾[١].

ماذا طلبوا؟ لقد طلب بنو إسرائيل من موسى أن يدعو الله أن يخرج لهم أطعمة مما تنبت الأرض، وعدّدوا ألوان الأطعمة المطلوبة، وحدّدوا أسماءها وأصنافها، ولكنها كلها أصناف تدل على أن من يأكلها هم من صنف العبيد، والمعروف أن آل فرعون إستعبدوا بني إسرائيل، ويبدو أن بني إسرائيل أحبّوا حياة العبودية واستطعموها، ومن الثابت في القرآن الكريم، إن مصر التي لم تنوّن، هي علم على مصر التي نعيش فيها، أما مصراً التي خضعت للتنوين فهي تعني أيّ بلد كان، أو تعني كل وادٍ فيه زرع.

---

(١) [البقرة: ٦١].

## قتلوا أنبياءهم، لماذا؟ لأنهم فضحوا كذبهم!

﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ والأنبياء أسوة سلوكية، ولكنهم لا يأتون بمنهج جديد، أما الرسل فهم أنبياء بأنهم أسوة سلوكية ورسل لأنهم جاءوا بمنهج جديد، ولذلك كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا، والله ﷻ يعصم أنبياءه ورسله من الخطيئة، ولكنه يعصم رسله من القتل، فلا يقدر عليهم أعداؤهم، فمجيء الأنبياء ضرورة، لأنهم نماذج سلوكية تسهّل على الناس التزامهم بالمنهج، وبنو إسرائيل بعث الله لهم أنبياء ليقتدوا بهم فقتلوهم، لماذا؟ لأنهم فضحوا كذبهم وفسقهم وعدم التزامهم بالمنهج، ولذلك تجد الكافر والعاصي وغير الملتزم يغار ويكره الملتزم بمنهج الله، ويحاول إزالته عن طريقه ولو بالقتل.

## انتهى كل هذا!!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢﴾[1].

فالذين تسمّوا باليهود، والذين تسمّوا بالنصارى، والذين تسمّوا بالصابئة، الله يريد أن يبلغهم: لقد انتهى كل هذا، فمن آمن بمحمد ﷺ فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فكأن رسالته ﷺ جاءت لتصفية كل الأديان السابقة، وكل

---

(١) [البقرة: ٦٢].

إنسان في الكون مطالب بأن يؤمن بمحمد ﷺ، فالإسلام يمسح العقائد السابقة في الأرض، ويجعلها مركّزة في دين واحد، فالذين آمنوا بهذا الدين: ﴿لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾، والذين لم يؤمنوا لهم خوف وعليهم حزن، ورد في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «**وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ**»[1]. وهذا إعلان بوحدة دين جديد، ينتظم فيه كل من في الأرض إلى أن تقوم الساعة.

## اقتلعنا جبل الطور من مكانه ورفعنا فوقكم

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱذۡكُرُواْ مَا فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٦٣﴾[2].

اذكروا يا بني إسرائيل حين أَخَذْنا منكم العهد المؤكَّد بالإيمان بالله والرسول محمد، واقتلعنا جبل الطور من مكانه ورفعنا فوقكم، وقلنا لكم: خذوا تعاليم التوراة واعملوا بها بجدٍ واجتهاد واحفظوها، وإلا أطبقنا وأسقطناعليكم هذا الجبل.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) [البقرة: ٦٣].

## يمتنّ عليهم لأنه أنقذ آباءهم من الذبح

نلاحظ أن القرآن الكريم حينما يتكلم عن اليهود، يتكلم عنهم بالخطاب المباشر، فهل الذين عاصروا نزول القرآن مخاطبون بمراد آبائهم وأجدادهم الذين عاصروا موسى ﵇؟ نقول: إنه كان المطلوب من كل جد أو أب أن يبلغ ذريته ما انتهت إليه قضية الإيمان، فحين يمتنّ الله عليهم، يمتنّ عليهم لأنه أنقذ آباءهم من الذبح، ولولا أنه أنقذهم ما جاء هؤلاء اليهود المعاصرون لرسول الله ﷺ، ولو لم ينقذ آباءهم من الموت عطشا لماتوا بلا ذرية، فكل إمتنان على اليهود في عهد موسى هو إمتنان على ذريته في عهد رسول الله ﷺ.

## عصرنا الحاضر، لم يعد يحتمل التكاليف الشرعية؟!

﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ﴾ يعني: خذوا تعاليم التوراة والتزموا بها بجد وعزم من غير توانٍ ولا تراخٍ ولا اختيار، واسمعوا سماع قبول وانقياد، وأطيعوا وإلا وقع عليكم هذا الجبل، نسمع الآن صيحات تقول: أن العصر لم يعد يحتمل، بسبب ظروف الدنيا وسرعة الأحداث فيها، هي تبرير أنه ليس في وسعنا اليوم أن نؤدي بعض التكاليف الشرعية! نقول لهؤلاء: إن الذي كلفك قديما هو الله ﷻ، وهو يعلم أن في وسعك أن تؤدي التكليف وقت نزوله، وبعد آلاف السنين من نزوله، وحتى قيام الساعة، فنحن الذين نعيش هذا العصر بكل ما فيه من متغيرات، نقوم بالتكاليف ونزيد عليها دون أية مشقة، ودليل ذلك أن

هناك من يقوم بالتكليف ويتطوع بأكثر منه، فهناك من يقوم الليل، وهناك من يتطوع بالصيام، وهناك من يحجّ مرات، وهناك من يتصدّق أكثر من الزكاة.

## عصيتم مرة أخرى!

﴿ثُمَّ تَوَلَّيْتُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۖ فَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَكُنتُم مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴿٦٤﴾﴾[(١)].

ثم خالفتم وعصيتم مرة أخرى بعد أخرى، كشأنكم دائمًا، كيف يكون بينكم وبين الله نسب كما تدّعون؟ أخذ الله عليكم الميثاق أن تعبدوه فعبدتم العجل، أخذ الله عليكم الميثاق بأن تحسنوا إلى الوالدين فعققتم وأسرفتم، أخذ الله عليكم الميثاق بأن تحسنوا إلى ذوي القربى واليتامى والمساكين، فقطعتم الأرحام وأسأتم إلى المحتاج، أخذ الله عليكم الميثاق بأن تقولوا للناس حسنًا، وها أنتم اليوم تعيشون في الأرض البذائة والفحش في القول، تملكون أعظم وسائل الإعلام والمحطات الفضائية والمواقع الإلكترونية، تملأون العالم تحريضا على الإسلام، وتنشرون الدعارة الأخلاقية والسياسية، ولم يسلم من شركم أحد، حتى مساجد الله في أقصى الأرض، إنه المسجد الأقصى في القدس، وأرض فلسطين الآن، لم يسلم فيها شبر من شركم، إنها اليوم تعاني من فسادكم الثاني، وننتظر نحن المسلمون بفارغ الصبر دخول المسجد الأقصى كما دخلناه أول مرة، إن الله على كل شيء قدير.

---

(١) [البقرة: ٦٤].

## لم يأكلوا ولم يشربوا ولم يتناسلوا حتى انقرضوا!

﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا۟ مِنكُمْ فِى ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا۟ قِرَدَةً خَٰسِـِٔينَ ﴿٦٥﴾﴾[(١)].

وفي قوله: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ﴾ معنى ذلك أن هذه قصة معروفة، ومشهورة ومتواترة عند اليهود، وكأنها من قصص التراث التي يتناقلونها، يعلّمها الأجداد للآباء والأباء للأحفاد، وإن كان المخاطبون هم اليهود المعاصرين لرسول الله ﷺ، فلما وجدوا أنفسهم قد تحولوا إلى خلق أقل من الإنسان، لم يأكلوا ولم يشربوا حتى ماتوا، ولذلك فبمجرد مسخهم لم يتناسلوا حتى انقرضوا، ولو أنهم تناسلوا لتَحَمّل الأبناء وزر آبائهم، وهذا مرفوض عند الله. قد يقول بعض الناس: لو أنهم مُسخوا قردة، فمن أين جاء اليهود الموجودون الآن؟ نقول لهم: إنه لم يكن كل اليهود عاصين، بعد أن انقسموا إلى ثلاثة أقسام، وكان منهم أقلية هي التي عصت ومُسخت، وبقيت الأكثرية ليصل نسلها إلينا اليوم.

## القرد لا يتأدّب إلا بالعصا

﴿فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٦٦﴾﴾[(٢)].

أي جعل الله هذه العقوبة لمن حضرها من الأمم، وبلغه خبرها ممن هو في وقتهم ومن بعدهم، فتقوم على العباد حجة الله، وليرتدعوا عن معاصيه،

---

(١) [البقرة: ٦٥].

(٢) [البقرة: ٦٦].

ولكنها لا تكون موعظة نافعة إلا للمتقين، وأما من عداهم فلا ينتفعون بالآيات، لقد أخبرنا الله في الآية السابقة أن اليهود مُسخوا قردة، ولكنه لم يقل لنا أنهم مسخوا خنازير، ثم الآية الأخرى: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ﴾[1].

فهل مسخوا قردة أولا؟ ثم بعد ذلك إزداد غضب الله عليهم ومسخوا خنازير؟ وهل نقلهم الله من إنسانية إلى بهيمية في القيم والإرادة والخلقة؟ نقول: علينا أولا أن ننظر إلى البهيمية التي نقلهم الله إليها، نجد أن القردة هي الحيوان الوحيد المفضوح العورة دائما، وإن عورته لها لون مميز عن جسده، وأنه لا يتأدّب إلا بالعصا، واليهود كذلك، لم يقبلوا المنهج إلا عندما رفع فوقهم جبل الطور وهددهم الله بأن يسقط عليهم، وما هم فيه الآن ليس مسخ خلقه ولكن مسخ خُلُق، والخنازير لا يغارون على إناثهم، وهذه موجودة في اليهود، فهم يستخدمون الجنس وإغراء نسائهم الجميلات من أجل تحقيق أهدافهم السياسية والاقتصادية للسيطرة على شعوب العالم وأموالها وثرواتها، على مستوى حكومات العالم أجمع، منذ عمق التاريخ إلى عصرنا الحاضر.

(١) [المائدة: ٦٠]

## العبادة هي تنفيذ أمر الله!

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ۖ قَالَ أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾[١].

أنت حين تعبد الله فكل ما تفعله هو طاعة لله سواء عرفت العلة أو لم تعرفها؛ فأنت تؤدي الصلاة لأن الله أمرك بأن تصلي، فلو أديت الصلاة على أنها رياضة، أو أنها طقوس، أو حركات لأجل ليونة المفاصل؛ فإن صلاتك تكون بلا ثواب ولا أجر، إن أردت الرياضة فاذهب إلى أحد النوادي وليدرّبك أحد المدرّبين لتكون الرياضة على أصولها، وإن أردت اللياقة البدنية فهناك ألف طريقة لذلك، وإن أردت عبادة الله كما أمرك الله فلتكن صلاتك التي فرضها الله عليك لأن الله فرضها، وكذلك كل العبادات الأخرى، والصوم ليس طريقة لعمل (الريجيم) ولكنه عباده، إن لم تصم تنفيذا لأمر الله بالصوم فلا ثواب لك، وإن جعلت للصيام أي سبب إلا العبادة فإنه صيام لا يقبله الله، وكذلك كل العبادات، هذا هو المفهوم الإيماني الذي أراد الله أن يلفتنا إليه في قصة بقرة بني إسرائيل، ولذلك لم يأت بالعلة أو السبب أولا، بل أتى بالقصة ثم أخبرنا في آخرها عن السبب.

---

(١) [البقرة: ٦٧].

## أنظر إلى الغباء!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تَذۡبَحُواْ بَقَرَةٗۖ﴾ الأمر أولا ليختبر قوة إيمان بني إسرائيل، ومدى قيامهم بتنفيذ التكليف دون تلكؤ أو تمهل، ولكنهم بدلا من أن يفعلوا ذلك، أخذوا في المساومة، فلو أن إنسانا يَعقل طُلب منه أن يذبح بقرة، أهذه تحتاج إلى إيضاح؟ ولكن أنظر إلى الغباء حتى في السؤال، إنهم يريدون أن يفعلوا أي شيء لإبطال التكليف، لقد قالوا لموسى نبيهم إنك تهزأ بنا، فهل هناك نبي يهزأ بتكليف من تكليفات الله؟ هنا عرف موسى أن هؤلاء اليهود جاهلون بربهم وبرسولهم وبآخرتهم، وأنهم يحاولون أن يأخذوا كل شيء بمقاييسهم، وليس بمقاييس الله ﷻ.

## شددوا على أنفسهم فشدد اللّه عليهم!

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ لَّا فَارِضٞ وَلَا بِكۡرٌ عَوَانُۢ بَيۡنَ ذَٰلِكَۖ فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ۝٦٨﴾[١].

لم يقولوا ادع لنا ربنا، بل قالوا إدع لنا ربك، وكأنه رب موسى وحده، وقد تكررت هذه الطريقة في كلام بني إسرائيل عدة مرات، ولقد استمر الحوار بينهم وبين موسى فترة طويلة، وبدلا من أن ينفّذوا الأمر وتنتهي المسألة يوجهون سؤالا آخر، ثم يقطع الله عليهم أسباب الجدل، بأن يعطيهم أوصافا

---

(١) [البقرة: ٦٨].

لبقرة لا تنطبق إلا على بقرة واحدة فقط، فكأنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم. ﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ﴾ سؤال لا معنى له ولا محل، لأن الله ﷻ قال لهم إنها بقرة، ولم يقل مثلا إنها حيوان على إطلاقه، فلم يكن هناك محل للسؤال، والحق بعد ذلك يقرعهم فيقول: ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ۝٦٨﴾ يعني كفاكم مجادلة ونفذوا أمر الله واذبحوا البقرة، ولذلك غيّروا صيغة السؤال.

## بحثوا عن سؤال آخر!

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا لَوۡنُهَاۚ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٞ صَفۡرَآءُ فَاقِعٞ لَّوۡنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ۝٦٩﴾[1].

بحثوا عن سؤال آخر، قالوا: ما لونها؟ كأن الله ﷻ حين حدثهم عن السنّ، فتحوا الأبواب ليسألوا ما لونها؟ مع أنه ﷻ قال لهم: ﴿فَٱفۡعَلُواْ مَا تُؤۡمَرُونَ ۝٦٨﴾ فلم يفعلوا، بل سألوا ما لونها؟

## تاهوا وضاعوا بسبب عنادهم وجدلهم

﴿قَالُواْ ٱدۡعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلۡبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيۡنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهۡتَدُونَ ۝٧٠﴾[2].

---

(١) [البقرة: ٦٩].

(٢) [البقرة: ٧٠].

أراد الله ﷻ أن يؤدّبهم، فجعلهم ينظرون إلى البقر، هذا يقول هذه هي، والآخر يقول لا بل هي في مكان كذا، والثالث يقول لا بل هي في موقع كذا، وعادوا إلى موسى يسألونه أن يعود إلى ربه ليبين لهم لأن البقر تشابه عليهم، وهنا ذكروا الله الذي نسوه ولم ينفّذوا أمره منذ أن قال لهم اذبحوا بقرة، فطلبوا منه الهداية بعد أن تاهوا وضاعوا بسبب عنادهم وجدلهم.

## يريدون أن يماطلوا الله سبحانه!

﴿قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَاۚ قَالُوا۟ ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿٧١﴾﴾[1].

والمتأمل في وصف البقرة كما جاء في الآيات، يرى الصعوبة والتشدد في اختيار أوصافها، كأن الحق ﷻ يريد أن يجازيهم على أعمالهم، ولم يجد بنو إسرائيل إلا بقرة واحدة تنطبق عليها هذه المواصفات، فقالوا ﴿ٱلْـَٔـٰنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّۚ﴾ كأن ما قاله موسى قبل ذلك كان خارجا عن نطاق الحق! ذبحوا البقرة ولكن عن كره منهم، لأنهم كانوا حريصين على ألا يذبحوها، حرصهم على عدم تنفيذ المنهج، هم يريدون أن يماطلوا الله ﷻ.

(١) [البقرة: ٧١].

## ارتكبوا الجريمة، أرادوا أن تبقى في طيّ الكتمان

﴿وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾(١).

﴿فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا﴾ أي تنازعتم بشأنها، كلٌّ يدفع عن نفسه تهمة القتل، لكن الله يريد شيئا آخر، يريد أن يردّ بهذه الجريمة على جحود بني إسرائيل باليوم الآخر، ويجعل الميت يقف أمامهم وينطق اسم قاتله، ويجعلهم يرون البعث وهم أحياء، ولذلك قال ﷻ: ﴿وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٧٢﴾﴾، أي أن بني إسرائيل أو أولئك الذين ارتكبوا الجريمة، دبروها على أن تبقى في طي الكتمان، فلا يعلم أحد عنها شيئا، ولكن الله تعالى أراد غير ذلك، أراد أن يكشف الجريمة بطريقة لا تحتمل الجدل، وفي نفس الوقت يردّ على جحود بني إسرائيل بأن يريهم البعث وهم أحياء.

## درس إيمانيّ!

﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾(٢).

فلو أن الله أحياه بدون أن يضرب بجزء من البقرة، لقالوا لم يكن قد مات، كانت فيه حياه ثم أفاق بعد اغماءة، ولكن الله أمرهم أن يذبحوا بقرة حتى

---

(١) [البقرة: ٧٢].

(٢) [البقرة: ٧٣].

تموت، ليعطيهم درسا إيمانيا بقدرة الله، وهم الماديون الذين لا يؤمنون إلا بالماديات، وأن يأخذوا جزءاً منها، وأن يضربوا به القتيل فيحيا وينطق باسم قاتله، ويميته الله بعد ذلك.

## كيف تكون القلوب أشدّ قسوة من الحجارة؟

﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٧٤﴾﴾[(١)].

الحجارة هي الشيء القاسي الذي تدركه حواسنا ومألوف لنا ومألوف لبني إسرائيل أيضا، لأن لهم مع الحجارة شوطا كبيرا عندما تاهوا في الصحراء، وعطشوا، وكان موسى يضرب لهم الحجر بعصاه لينفجر منه الماء، ولكن قلوبهم تجاوزت هذه القسوة فلم تصبح في شدة الحجارة وقسوتها بل هي أشد، ولكن كيف تكون القلوب أشد قسوة من الحجارة؟ لا تنظر إلى ليونة مادة القلوب ولكن انظر إلى أدائها لمهمتها، فكل صفة مخلوقة لمخلوق ومطلوبة لمهمة، هنا يذكّرهم الله لما رأوه من الرحمة الموجودة في الحجارة، عندما ضرب موسى الحجر بالعصا فانفجرت منه العيون، وهذا مثل حسّيّ شاهدوه وشهدوه، وكيف أن الجبل حين تجلى الله له هبط وانهار من خشية الله، وهكذا لا يعطيهم الأمثلة مما وقع لغيرهم، ولكن يعطيهم الأمثلة مما وقع لهم.

---

(١) [البقرة: ٧٤].

## لا تطمع أن يدخلوا في الإسلام!

﴿۞أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾[1].

هنا الحكمة، فيما رواه لنا الله سبحانه عن بني إسرائيل وعن قصصهم، لأنهم سيكون لهم دور مع المسلمين في المدينة، ثم في بيت المقدس، ثم في المسجد الأقصى، فهو يروي لنا كيف أتعبوا نبيهم وكيف عصوا ربهم، وإذا كان هذا موقفهم يا محمد، فلا تطمع أن يؤمنوا لك ولا أن يدخلوا في الإسلام، مع أنهم عندهم التوراة تدعوهم إلى الإيمان بمحمد ﷺ، هذه الآيات تحمل أعظم تعزية للرسول الكريم، فيطمئنه الله ويقول له: لا تعتقد أنهم سيؤمنون، فتكذيبهم لك يا محمد لا ينبغي أن يؤثر فيك، فلا تطمع أن يؤمنوا لك.

## الغريب أنهم يقولون: ﴿بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ﴾!

﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٧٦﴾[2].

هذه صوره من صور نفاق اليهود، فالمؤمن انسجم مع نفسه ومع الكون الذي يعيش فيه، والكافر انسجم مع نفسه ولم ينسجم مع الكون، والمنافق لا انسجم

---

(١) [البقرة: ٧٥].

(٢) [البقرة: ٧٦].

مع نفسه ولا انسجم مع الكون، فهو يقول ما لا يؤمن به، وفي داخل نفسه يؤمن بما لا يقول، والكون كله يلعنه، وفي الآخرة هو في الدرك الأسفل من النار، إن الغريب أنهم يقولون: ﴿بِمَا فَتَحَ ٱللَّهُ عَلَيۡكُمۡ﴾ وإذا كان هذا فتحا من الله فلا فضل لهم فيه، وماداموا يعلمون ذلك فلماذا يكفرون بخالقهم؟

## هل أنتم تعملون لمصلحة أنفسكم؟

وقوله تعالى: ﴿لِيُحَآجُّوكُم بِهِۦ﴾ لم يقولوا عند الله بل قالوا ﴿عِندَ رَبِّكُمۡ﴾ والمحاجّة معناها أن يلتقي فريقان لكل منهما وجهة نظر مختلفة، وتقام بينهما مناظرة، وما داموا يحاجّوكم عند ربكم، وهم يعتقدون أن القضية لن تمر أمام الله بسلام، لأنه رب الجميع، وسينصف المظلوم من الظالم، إذا كانت هذه هي الحقيقة، فهل أنتم تعملون لمصلحة أنفسكم؟ الجواب لا، لو كنتم تعلمون الصواب ما كنتم وقعتم في هذا الخطأ.

﴿أَوَلَا يَعۡلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعۡلِنُونَ ۝٧٧﴾[1].

السر هو ما تسره في نفسك، ولا تهمس به لأحد من الناس، ونحن نعلم أن الله غيب، وغيب يعني مستور عن حواسنا، ومادام الله غيبا فهو يعلم الغيب المستور.

---

(١) [البقرة: ٧٧].

## يكتبون بأيديهم، ليتأكدوا بأن الأمر قد تمّ!

﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾(١).

يريد الله ﷻ أن يبين لنا مدى تعمد هؤلاء للإثم، فهم لا يكتفون بأن يقولوا لغيرهم اكتبوا، ولكن لاهتمامهم بتزييف كلام الله وتزويره، يقومون بذلك بأيديهم، ليتأكدوا بأن الأمر قد تم كما يريدون تماما، فليست المسألة نزوة عابرة، ولكنها مع سبق الإصرار والترصد، وهم يريدون بذلك أن يشتروا به ثمنا قليلا، هو المال أو ما يسمى بالسلطة الزمنية والأطماع والأهواء، يحكمون ويكون لهم نفوذ وسلطان.

## لستم أنتم الذين تحكمون وتقرّرون!

﴿وَقَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾﴾(٢).

قولهم هذا دليل على غبائهم، إنها مجرد أماني وضعها الشيطان في عقولهم، ليأتي الرد من الله سبحانه: ﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللَّهِ عَهْدًا﴾ والله يأمر رسوله ﷺ أن يقول لهم: لستم أنتم الذين تحكمون وتقررون ماذا سيفعل الله بكم.

---

(١) [البقرة: ٧٨-٧٩].

(٢) [البقرة: ٨٠].

## لم يكونوا عصاة فقط!

﴿بَلَىٰۚ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨١﴾[1].

﴿بَلَىٰٓ﴾ أي: ليس الأمر كما ذكرتم، ولكن ﴿مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ﴾ والمراد به هنا الشرك، بدليل قوله: ﴿وَأَحَٰطَتۡ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ فلم تدع له منفذا، وهذا لا يكون إلا الشرك، فهؤلاء لم يكونوا عصاة فقط، ولكنهم كانوا كافرين مشركين، والدليل قوله تعالى: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٧﴾ فأصحاب الصغائر أو الكبائر الذين يتوبون منها لا يخلدون في النار، وكل من لم يؤمن بسيدنا محمد ﷺ هو كافر.

## لا يكون الإيمان إلا بالأعمال الصالحة

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾[2].

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ ولا تكون الأعمال صالحة إلا بشرطين: أن تكون خالصة لوجه الله، متبعا بها سنة رسوله، فأهل النجاة والفوز هم أهل الإيمان والعمل الصالح، والهالكون أهل النار المشركون بالله، الكافرون به.

---

(١) [البقرة: ٨١].

(٢) [البقرة: ٨٢].

## ليس لهم رغبة في هذه الأوامر!

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾﴾[1].

قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ هذا من قسوتهم أن كل أمر أمروا به، استعصوا؛ فلا يقبلونه إلا بالأيمان الغليظة والعهود الموثقة ﴿لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وهذا أصل الدين، فلا تقبل الأعمال كلها إن لم يكن هذا أساسها، فهذا حق الله تعالى على عباده، وللإحسان ضدان: الإساءة، وترك الإحسان بدون إساءة، ثم أمر بالإحسان إلى الناس عموما فقال: ﴿وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ ومن القول الحسن البشاشة وغير ذلك من كل كلام طيب، ومن أدب الإنسان أن يكون نزيها في أقواله وأفعاله، غير فاحش ولا بذيء، ولا شاتم، ولا مخاصم، بل يكون مجاملا لكل أحد، صبورا على ما يناله من أذى الخلق، ﴿ثُمَّ﴾ بعد هذا الأمر ﴿تَوَلَّيْتُمْ﴾ هؤلاء ليس لهم رغبة في هذه الأوامر، وقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ﴾ هذا استثناء، لئلا يوهم أنهم تولوا كلهم.

---

(١) [البقرة: ٨٣].

## حال اليهود قبل الإسلام

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ٨٤﴾[1].

هذا الفعل المذكور في هذه الآية، فعل اليهود بالمدينة قبل ظهور الإسلام، وذلك أن الأوس والخزرج وهم الأنصار، كانوا قبل مبعث النبي ﷺ مشركين، وكانوا يقتتلون على عادة الجاهلية، فنزلت عليهم الفرق الثلاث من فرق اليهود، بنو قريظة، وبنو النضير، وبنو قينقاع، فكل فرقة منهم حالفت فرقة من أهل المدينة، فكانوا إذا اقتتلوا أعان اليهودي حليفه على مقاتليه الذين تعينهم الفرقة الأخرى من اليهود، فيقتل اليهودي اليهودي، ويخرجه من دياره إذا حصل جلاء ونهب، ثم إذا وضعت الحرب أوزارها، فدى بعضهم أسرى بعض!

## هم كذلك حتى الآن!

﴿ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ٨٥﴾[2].

---

(١) [البقرة: ٨٤].

(٢) [البقرة: ٨٥].

لما جاء الرسول ﷺ إلى المدينة، أفسد على اليهود خطة حياتهم، فاليهود كانوا ممثلين في بني قينقاع وبني النضير وبني قريظة، وكان هناك في المدينة الأوس والخزرج، وبينهما حروب دائمة قبل أن يأتي الإسلام، فاليهود قسموا أنفسهم إلى قوم مع الأوس وقوم مع الخزرج حتى يضمنوا استمرار العداوة بين القبائل العربية في المدينة، فكلما هدأ القتال أهاجوا أحد المعسكرين على الآخر ليعود القتال من جديد، وهم كذلك حتى الآن وهذه طبيعتهم، وقد كان فُرض عليهم في التوراة أن لا يسفك بعضهم دم بعض، ولا يُخرج بعضهم بعضا، وإذا وجدوا أسيرا منهم وجب عليهم فداؤه، فعملوا بالأخير وتركوا الأولين، فأنكر الله عليهم ذلك فقال: ﴿أَفَتُؤۡمِنُونَ بِبَعۡضِ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهو فداء الأسير ﴿وَتَكۡفُرُونَ بِبَعۡضٖۚ﴾ وهو القتل والسلب والنهب والطرد والتهجير.

## لا يؤخر الله جزاء بعض الذنوب إلى الآخرة

﴿فَمَا جَزَآءُ مَن يَفۡعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ إِلَّا خِزۡيٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ أي إنكم فعلتم ذلك وخالفتم لتصلوا إلى مجد دنيوي ولكنكم لم تصلوا إليه، فالخزي في الدنيا أصابهم على يد رسول الله ﷺ والمؤمنين، وأُخرج بنو قينقاع من ديارهم في المدينة، كذلك ذُبح بنو قريظة بعد أن خانوا العهد وخانوا رسول الله ﷺ والمسلمين، وهكذا لا يؤخر الله ﷻ جزاء بعض الذنوب إلى الآخرة، لأن المظلوم لا بدّ أن يرى مصرع ظالميه حتى يعتدل نظام الكون.

قد يتساءل الناس ألا يكفيهم الخزي في الدنيا عن عذاب الآخرة؟ نقول لا، لأن الخزي لم ينلهم في الدنيا نتيجة إقامة حدود الله عليهم.

## سبب خيبة هؤلاء؟

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا بِٱلۡأٓخِرَةِۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ٨٦﴾[1].

يذكر لنا الله سبحانه سبب خيبة هؤلاء وضلالهم، أنهم اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة، فقد جعلوا الآخرة ثمنا لنزواتهم ونفوذهم في الدنيا، وأطماعهم وشهواتهم، هم نظروا إلى الدنيا فقط، ونظرة الإنسان إلى الدنيا ومقارنتها بالآخرة تجعلك تطلب في كل ما تفعله ثواب الآخرة، فالدنيا عمرك فيها محدود، فإذا خرجت منها فقد انتهت بالنسبة لك.

## كثرةَ الأنبياءِ شهادة عليهم لا لهم!

﴿وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَى ٱلۡكِتَٰبَ وَقَفَّيۡنَا مِنۢ بَعۡدِهِۦ بِٱلرُّسُلِۖ وَءَاتَيۡنَا عِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدۡنَٰهُ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِۗ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمۡ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهۡوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسۡتَكۡبَرۡتُمۡ فَفَرِيقٗا كَذَّبۡتُمۡ وَفَرِيقٗا تَقۡتُلُونَ ٨٧﴾[2].

---

(١) [البقرة: ٨٦].

(٢) [البقرة: ٨٧].

إن كثرةَ الأنبياءِ لبني إسرائيلَ، ليست شهادة لهم ولكنها شهادة عليهم، إنهم يتفاخرون أنهم أكثرُ الأممِ أنبياءً، ويعتبرون ذلك ميزة لهم ولكنهم لم يفهموا، فكثرة الأنبياء والرسل دلالةَ على كثرة فساد الأمة، لأن الرسل إنما يجيئون لتخليص البشريةِ من الفساد والأمراض، وإنقاذها من الشقاء، وكلما كثُرَ الرسلُ والأنبياءُ، دلّ ذلك على أن القومَ قد انحرفوا بمجرد ذهابِ الرسولِ عنهم، ولذلك كان لا بد من رسول جديد، تماما كما يكون المريض في حالةٍ خطرةٍ فيكثر أطباؤه بلا فائدةٍ. ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِۗ﴾ والروحُ القدس هو جبريل عليه السلام لم يكن يفارقه أبدا، لقد جاء عيسى عليه السلام على غير مألوف الناس وطبيعة البشر، مما جعله معرضاً دائماً للهجوم، ولذلك لا بدّ أن يكون الوحي في صحبته لا يفارقه، ليجعل من مهابته على القوم ما يرد الناس عنه.

## قتلوا رسلهم بدل أن يؤمنوا بهم!

﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولُۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾ فاليهود جعلوا أنفسهم مشرعين من دون الله، وهم يريدون أن يشرّعوا لرسلهم بدل أن يؤمنوا بهم، فإذا جاء الرسول بما يخالف أهواءكم وشهواتكم وأطماعكم ﴿ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ٨٧﴾ معنى استكبرتم أي أعطيتم لأنفسكم كبرياء لستم أهلا له، وادعيتم أنكم كبارٌ ولستم كباراً، ولكن هل الله مساو لك حتى تتكبر على منهجه؟ طبعا لا، والكذب كلام يخالف الواقع، أي أنكم اتهمتم الرسل بأنهم يقولون كلاما يخالف الواقع، لأنه يخالف أهواءكم وما تشتهيه

أنفسكم، ولكن القتل أبشع، فحين ترى إنسانا يتخلص من خصمه بالقتل، فاعلم أنها شهادة على نفسه بضعفه أمام خصمه، ولو أنه رجلٌ مكتمل الرجولة لما ضعف أو تأثر بوجود خصمه.

## عذر أقبح من ذنب!

﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ فَقَلِيلٗا مَّا يُؤۡمِنُونَ ٨٨﴾[١].

برّر بنو إسرائيل عدم إيمانهم وقتلهم الأنبياء وكل ما حدث منهم فقالوا: ﴿قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ﴾ أي مغلفة وفيها من العلم ما يكفيها ويزيد، إنه عذر أقبح من ذنب! فكأنهم يقولون: إننا لسنا في حاجة إلى كلام الرسل! ألم تسألوا أنفسكم ما هو السبب؟ والحق يرد عليهم فيقول: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾: لفظ «**بل**» يؤكد لنا أن كلامهم غير صحيح، فهم ليس عندهم كفاية من العلم بحيث لا يحتاجون إلى منهج الرسل، ولكنهم ملعونون ومطرودون من رحمة الله.

## يقول: مادام اللّهُ أضلني فما ذنبي؟

وبعض الناس الذين يريدون أن يهربوا من مسئولية الكفر يقولون: إنه ﷻ قال: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۖ﴾[٢] ومادام اللهُ قد شاء أن يضلني فما ذنبي أنا؟ وهل أستطيع أن أمنع مشيئة الله؟ أم أنهم هم الذين ارتكبوا من

---

(١) [البقرة: ٨٨].

(٢) [فاطر: ٨].

الضلال ما جعلهم لا يستحقون هداية الله؟! إنسان رفض أن يستمع لآيات الله ورسله، ورفض أن يتأمل في كون الله، ورفض أن يتأمل في خلقه هو نفسه ومن الذي خلقه، ورفض أن يتأمل في خلق السموات والأرض، ومضى يصنع لنفسه طريق الضلال ويشرّع لنفسه الكفر، برغم أن الله ﷻ وضع له في الكون، وفي نفسه آيات تجعله يؤمن بالله، وبرغم ذلك رفض، وبالتالي ختم الله على قلبه.

## كأن اليهود سخّرهم الله لنصرة الإسلام!

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾﴾[1].

واليهود في كفرهم، كانوا أحد أسباب نصرة رسول الله ﷺ، لأن الأوس والخزرج عندما بُعث الرسول ﷺ قالوا: هذا النبي الذي يهددنا به اليهود؟ وأسرعوا يبايعونه! فكأن اليهود سخرهم الله لنصرة الإسلام وهم لا يشعرون. وهكذا، نرى أن بني إسرائيل فيهم جُحود مركّب، جاءهم الرسول الذي انتظروه وبشروا به، ولكن أخذهم الكبر رغم أنهم موقنون بمجيء الرسول الجديد، وأوصافه موجودة عندهم في التوراة، إلا أنهم رفضوا أن يؤمنوا، فاستحقوا بذلك لعنة الله.

---

(١) [البقرة: ٨٩].

## باعوا أنفسهم وخسروا الصفقة!

﴿بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾(١).

إننا عادة ندفع الثمن ونأخذ السلعة التي نريدها، ولكن اليهود قلبوا هذا رأسا على عقب وجعلوا الثمن سلعة، فالصفقة الرابحة كانت أن يشتروا أنفسهم مقابل التصديق بما أنزل الله على محمد ﷺ، ولكنهم باعوا أنفسهم واشتروا الكفر فخسروا الصفقة. تجد إنسانا ابتعد عن دينه، وأقبلت عليه الدنيا بنعيمها ومجدها وشهرتها، ثم تجده في آخر أيامه يعيش على صدقات المحسنين، وتجد امرأة غرّها المال، فانطلقت تجمعه من كل مكان حلالا أو حراما، وأعطتها الدنيا بسخاء، وفي آخر أيامها تزول عنها الدنيا فلا تجد ثمن الدواء، كل هذه الأحداث وغيرها عِبرة للناس، تحدث على رؤوس الأشهاد، ويعرفها عدد كبير من الناس، لأنها تُنشر في الصحف أو تذاع بين أهل الحيّ فيتناقلونها، وتجد مثلا، أن اليهود الذين كانوا زعماء المدينة تجار الحرب والسلاح، ينتهي بهم الحال أن يُطردوا من ديارهم، وتؤخذ أموالهم، وتُسبى نساؤهم!

---

(١) [البقرة: ٩٠].

## حسدوا العرب لأن الرسول عربي!

﴿بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ﴾ ولكن ما سبب بغيهم؟ حسدٌ على رسول الله ﷺ لأنه عربيّ، وعلى العرب أن يكون الرسول منهم، واليهود اعتقدوا لكثرة أنبيائهم أنهم الذين ورثوا رسالات الله إلى الأرض جميعا، وعندما جاءت التوراة والإنجيل يبشران برسول قادم وخاتم قالوا إنه منا، والرسالة والنبوة لن تخرج عنا، فنحن شعب الله المختار، ولذلك كانوا يعلنون أنهم سيتّبعون النبي القادم وينصرونه، ولكنهم فوجئوا بأنه ليس منهم، حينئذ ملأهم الكبر والحسد وقالوا: مادام ليس منا فلن نتّبعه، بل سنحاربه.

## العذاب المهين أكثر إيلاما للنفس

﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝﴾ ولكن لنفرض أن الذي يُعذّب يُحاول ألا يظهر الألم حتى لا يشمت فيه الناس، يأتيه الله بعذاب عظيم لا يقدر على احتماله، ذلك أن عظمة العذاب تجعله لا يستطيع أن يحتمل، فإذا كان الإنسان من الذين تزعّموا قومهم في الدنيا، يأتيهم الله بعذاب مهين، ويكون هذا أكثر إيلاما للنفس، تماما كما تأتي لرجل هو أقوى مَنْ في المنطقة يخافه الناس جميعا، ثم تضربه بيدك وتسقطه على الأرض، تكون في هذه الحالة قد أهنته أمام الناس، فلا يستطيع بعد ذلك أن يتجبّر أو يتكبّر على واحد منهم، ويكون هذا أشدّ إيلاما للنفس من ألم العذاب نفسه.

## قولوا لنا: لِمَ قتلتم أنبياء اللّه؟

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُواْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾﴾[1].

فاليهود حين يكفرون بالقرآن يكفرون أيضا بالتوراة، لأن القرآن يصدق ما جاء في التوراة، وهنا يقيم الله ﷻ عليهم الحجة البالغة؛ فلو أنكم تستقبلون الإيمان، فقولوا لنا لِمَ قتلتم أنبياء الله؟ هل هناك في كتابكم التوراة أن تقتلوا أولياء الله؟ إذا كان هذا صحيحا، وأنكم تؤمنون بما أنزل عليكم، فهاتوا لنا مما أنزل إليكم في التوراة، ما يبيح لكم قتل الأنبياء إن كنتم مؤمنين بالتوراة؟ واليهود بعد نزول هذه الآية الكريمة، لم يتراجعوا عن تآمرهم، ولن يكفوا عن بغيهم في قتل الرسل والأنبياء، فحاولوا قتل رسول الله ﷺ أكثر من مرة، لقد كانت هذه الآية كافية لإلقاء اليأس في نفوسهم، حتى يكفّوا عن أسلوبهم في قتل الأنبياء، ولكنهم ظلوا في محاولاتهم.

## لا آمنتم بما أنزل إليكم، ولا بما أنزل بعدكم!

﴿۞وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾﴾[2].

---

(١) [البقرة: ٩١].

(٢) [البقرة: ٩٢].

﴿بِٱلۡبَيِّنَٰتِ﴾: لقد شق لكم البحر ومررتم فيه وأنتم تنظرون وترون، أي أن المعجزة لم تكن غيبا عنكم، بل حدثت أمامكم ورأيتموها، ولكنكم بمجرد أن تجاوزتم البحر وذهب موسى للقاء الله، اتخذتم العجل إلها من دون الله، وعبدتموه، فكيف تدّعون أنكم آمنتم بما أنزل إليكم، فلا أنتم مؤمنون بما أنزل إليكم، ولا أنتم مؤمنون بما أنزل من بعدكم، وكل هذه حجج الهدف منها عدم الإيمان أصلا.

## هل الميثاق منهم أو هو ميثاق اللّه؟

﴿وَإِذۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَكُمۡ وَرَفَعۡنَا فَوۡقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا وَأُشۡرِبُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡعِجۡلَ بِكُفۡرِهِمۡۚ قُلۡ بِئۡسَمَا يَأۡمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٩٣﴾[1].

الله ﷻ يريد أن يلفتهم، إلى أنه لم يترك حيلة من الحيل حتى يتلقى بنو إسرائيل منهج الله الصحيح إلا فعلها، لكن غريزة الاستكبار والعناد منعتهم أن يستمروا على الإيمان، هل الميثاق منهم أو هو ميثاق الله؟ طبعا هو ميثاق الله، ولكن الله خاطبهم بقوله: «**ميثاقكم**» لأنهم أصبحوا طرفا في العقد، هم اتبعوا موسى قبل أن يرفع فوقهم جبل الطور، فلابد أنهم أخذوا منهجه باختيارهم، وطبّقوه باختيارهم، لأن الله ﷻ لم يُبْقِ الطور مرفوعا فوق رءوسهم أينما كانوا

(١) [البقرة: ٩٣].

طوال حياتهم حتى يقال أنهم أُجبروا، فلو أنهم أُجبروا لحظة وجود جبل الطور فوقهم، فإنهم بعد أن انتهت هذه المعجزة، لم يكن هناك ما يجبرهم على تطبيق المنهج، ولكن المسألة أن الله ﷻ حينما يرى من عباده مخالفة فإنه قد يخيفهم، وهذا يأتي من حب الله لعباده لأنه يريدهم مؤمنين. لكن كيف يمكن أن يدخل العجل في هذا الحيز الضيق وهو القلب؟ الجواب: بكلمة **{أُشْرِبُوا}**، لأنها وصف لشرب الماء، والماء يتغلغل في كل الجسم، والصورة تعرب عن تغلغل المادية في قلوب بني إسرائيل، حتى كأن العجل دخل في قلوبهم، وتغلغل كما يدخل الماء في الجسم، مع أن القلب لا تدخله الماديات.

## الله يريد أن يفضح اليهود!

﴿قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِندَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوُا الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٩٤﴾﴾[1].

الله تعالى يريد أن يفضح اليهود، ويبين إن إيمانهم غير صحيح، وأنهم حرّفوا وبدلوا واشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، ويعرفون أنهم جاءوا بكلام ونسبوه إلى الله ﷻ زورا وبهتانا، ولذلك يطلب من رسول الله ﷺ أن يفضحهم أمام الناس، ويبين كذبهم بالدليل القاطع، فالله ﷻ يقول لرسوله ﷺ: اليهود قالوا إن الدار الآخرة خالصة لهم، سنصدقهم ونقول لهم: لماذا لا يتعجلون ويتمنون

(١) [البقرة: ٩٤].

الموت، فالمفروض أنهم يشتاقون للآخرة مادامت خالصة لهم، ولكنها أمانٍ كاذبة عند اليهود وعند النصارى.

## أليست هذه معجزة؟

﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ۝﴾[1].

أنظر إلى الإعجاز القرآني في قوله سبحانه: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ﴾ فالله حين أنزل هذه الآية، وضع قضية الإيمان كله في يد اليهود، بحيث يستطيعون إن أرادوا أن يشككوا في هذا الدين! ألم يكن من الممكن عندما نزلت هذه الآية، أن يأتي عدد من اليهود ويقولوا ليتنا نموت؟ نحن نتمنى الموت يا محمد! ألم يكن من الممكن أن يقولوا هذا؟ ولو نفاقا ليهدموا هذا الدين؟ وكان من الممكن أن يفطنوا لهذا التحدّي، ولكن حتى هذه لم يقولوها، ولم تخطر على بالهم.

## هل التمني يكون فقط باللسان؟ ربما تمنوا بالقلب؟!

قد يقول قائل: وهل التمني يكون فقط باللسان؟ ربما تمنوا بالقلب؟ نقول: وهب أنه عمل قلبي، فلو أنهم تمنوا بقلوبهم لاطلع الله عليها وأماتهم في الحال، ولكن مادام الحق تعالى قال: ﴿وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا﴾ فهم لن يتمنوه سواء كان باللسان أو بالقلب. ولذلك نسمع عن أناس، فالذي أساء في دنياه لا يتمنى الموت أبدا، أما صاحب العمل الصالح فإنه يستبشر بلقاء الله.

---

(١) [البقرة: ٩٥].

## هل يجوز للمسلم تمنّي الموت؟

ونقول: إن تمني الموت المنهيّ عنه، الذي لا يستطيع أن يتحمل قدر الله في مصيبة حدثت له، أو يتمناه احتجاجا على أقدار الله في حياته، أما صاحب العمل الصالح فمُستحب له أن يتمنّى لقاء الله. عنْ أَبِي هُريرة: أَنَّ رَسُولَ اللهَّ ﷺ قالَ: «**لا يَتَمَنَّ أَحَدُكُمُ المَوْتَ، إمَّا مُحسِنًا فَلَعَلَّهُ يَزْدادُ، وَإِمَّا مُسِيئًا فَلَعَلَّهُ يَسْتَعْتِبُ**»[١]. أي يسترضي الله بالتوبة، وقال ﷺ: «**لا يَتَمَنَّيَنَّ أحَدٌ مِنكُمُ المَوْتَ لِضُرٍّ نَزَلَ به، فإنْ كانَ لا بُدَّ مُتَمَنِّيًا لِلْمَوْتِ فَلْيَقُلْ: اللَّهُمَّ أحْيِنِي ما كانَتِ الحَياةُ خَيْرًا لِي، وتَوَفَّنِي إذا كانَتِ الوَفاةُ خَيْرًا لِي**»[٢].

## اليهود أشد حرصا على الحياة!

﴿وَلَتَجِدَنَّهُمۡ أَحۡرَصَ ٱلنَّاسِ عَلَىٰ حَيَوٰةٖ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمۡ لَوۡ يُعَمَّرُ أَلۡفَ سَنَةٖ وَمَا هُوَ بِمُزَحۡزِحِهِۦ مِنَ ٱلۡعَذَابِ أَن يُعَمَّرَۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾[٣].

فالمشرك حريص على الحياة، لأنه يعتقد أن الدنيا هي الغاية، واليهود أشد حرصا على الحياة ، لأنهم يخافون الموت لسوء أعمالهم السابقة، فالمشرك لا آخرة له، والدنيا هي كل همّه وكل حياته، لذلك يتمنى أن تطول حياته بأي ثمن وبأي شكل، لأنه يعتقد أن بعد ذلك لا شيء.

---

(١) متفقٌ عَلَيْهِ، وهذا لفظ البخاري.

(٢) صحيح البخاري.

(٣) [البقرة: ٩٦].

## طول العمر لا يغير النهاية!

﴿يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ ولكن هبْ أنه عاش ألف سنة أو حتى أكثر من ذلك، أيزحزحه هذا عن العذاب؟ لا، فطول العمر لا يغير النهاية، ومادامت النهاية هي الموت، يتساوى من عاش سنوات قليلة ومن عاش ألوف السنين.

## المسألة ليست مجزأة ولكنها قضية واحدة

﴿قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٩٨﴾ وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٩٩﴾﴾[1].

أي: قل لهؤلاء اليهود الذين زعموا أن الذي منعهم من الإيمان بك، أن وليّك جبريل عليه السلام، ولو كان غيره من ملائكة الله لآمنوا بك وصدقوا، إن هذا الزعم منكم تناقض وتهافت، فإن جبريل هو الذي نزل بالقرآن، وهو الذي نزل على الأنبياء قبلك، والله هو الذي أمره وأرسله، إنما هو رسول، مع أن هذا الكتاب وهو القرآن غير مخالف ولا مناقض للكتب السابقة، وعداوتهم لجبريل لا لذاته بل فيه العداوة للذي أنزله وأرسله، إن المسألة ليست مجزأة ولكنها قضية

(١) [البقرة: ٩٧-٩٩].

واحدة، فمن كان عدوا للملائكة وجبريل وميكائيل ورسل الله، فهو أولا وأخيرا عدو لله، لأنه لا انقسام بينهم، فكلهم دائرون حول الحق، والحق الواحد، وإنما العدوان ينشأ من تصادم الأهواء والشهوات، وهذا يحدث في أمور الدنيا.﴿وَلَقَدۡ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ءَايَٰتِۭ بَيِّنَٰتٖۖ﴾ هي في الوضوح والدلالة قد بلغت مبلغا عظيما، ووصلت إلى حالة لا يمتنع من قبولها إلا من أصرّ على العناد، وخرج عن طاعة الله، واستكبر غاية التكبر.

## كلما وُجد العهد ترتّب عليه النقض

﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهۡدٗا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٠﴾[1].

﴿أَوَكُلَّمَا﴾ وهذا فيه التعجب من كثرة معاهداتهم، وعدم صبرهم على الوفاء بها. ف (كُلَّمَا) تفيد التكرار، فكلما وُجد العهد ترتب عليه النقض، ما السبب في ذلك؟ السبب أن أكثرهم لا يؤمنون، فعدم إيمانهم هو الذي أوجب لهم نقض العهود. إذن فليسوا كلهم، حتى لا يُقال هذا على مطلق اليهود، لأن فيهم أناسا لم ينقضوا العهد، ويريد الله تعالى أن يفتح الباب أمام أولئك الذين يريدون الإيمان، حتى لا يقولوا لقد حكم الله علينا حكما مطلقا، ونحن نريد أن نؤمن ونحافظ على العهد، ولكن هؤلاء الذين حافظوا على العهد كانوا قلة.

---

(١) [البقرة: ١٠٠].

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١﴾[1].

﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ﴾ أي أن ما جاء في القرآن مصدق لما جاء في التوراة، لأن القرآن من عند الله والتوراة من عند الله، ولكن التوراة حرفوها وكتموا بعضها، وغيروا وبدلوا فيها، فأخفوا ما يريدون إخفاءه، لذلك جاء القرآن الكريم ليظهر ما أخفوه، ويؤكد ما لم يخفوه ولم يتلاعبوا فيه. ﴿نَبَذَ فَرِيقٌ﴾ يعني نبذ جماعة وبقيت جماعة أخرى لم تنبذ الكتاب، بدليل أن عبد الله بن سلام وهو أحد أحبار اليهود صدّق رسول الله وآمن به، وكعب الأحبار أسلم، فلو أن القرآن عمّم ولم يقل فريق، لقيل إنه غير منصف لهؤلاء الذين آمنوا. ﴿وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ﴾ النبذ قد يكون أمامك، وكونه أمامك فأنت تراه دائما، وربما يغريك بالإقبال عليه، ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم، أي جعلوه وراءهم حتى ينسوه تماما ولا يلتفتوا إليه. ﴿كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ١٠١﴾ أي يتظاهرون بأنهم لا يعلمون ببشارة رسول الله وأوصافه، وقوله تعالى: «**كأنهم**» دليل على أنهم يعلمون ذلك علم يقين، لأنهم لو كانوا لا يعلمون لقال الحق سبحانه: وهم لا يعلمون، إذن هم يعلمون يقينا ولكنهم تظاهروا بعدم العلم،

---

(١) [البقرة: ١٠١].

## هم نبذوا كتاب الله، ولكن ماذا اتبعوا؟

﴿وَاتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَى مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَانُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾[1].

وكان السياق يقتضي أن يقال ما تلته الشياطين على ملك سليمان، ولكن الله ﷻ يريدنا أن نفهم أن هذا الاتّباع مستمر حتى الآن، كأنهم لم يحددوا المسألة بزمن معين، إنه حتى هذه اللحظة هناك من اليهود من يتبع ما تلته الشياطين على ملك سليمان، ونظرا لأن المعاصرين من اليهود قد رضوا وأخذوا من فعل أسلافهم الذين اتبعوا الشياطين فكأنهم فعلوا، واستحضار اليهود لما كانت تتلوه الشياطين حتى الآن دليل على أنهم يؤمنون به ويصدقونه.

---

(١) [البقرة: ١٠٢].

## هل تعلّم سليمان السحر وعمل به؟

كذبوا في ذلك، فلم يستعمله سليمان، ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ﴾ بتعلم السحر ولم يتعلّمه بداية ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ﴾ بذلك ﴿يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ لحرصهم على إغواء بني آدم، وكذلك اتبع اليهود السحر الذي أُنزل على الملكين الكائنين بأرض بابل من أرض العراق، أُنزل عليهما السحر امتحانا وابتلاء من الله لعباده فيعلمانهم السحر ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ﴾ ينصحاه، و﴿يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ أي: لا تتعلم السحر فإنه كفر، فينهيانه عن السحر، فهؤلاء اليهود يتّبعون السحر الذي تعلمه الشياطين، والسحر الذي يعلّمه الملكان ابتلاء واختبارا للناس، فترك اليهود علم الأنبياء والمرسلين وأقبلوا على علم الشياطين، ثم ذكر مفاسد السحر فقال: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾ وفي هذا دليل على أن السحر له حقيقة، وأنه يضرّ بإذن الله، أي: بإرادة الله، ثم ذكر أن علم السحر مضرة محضة، وليس له داع أصلا، فالمنهيات كلها إما مضرة محضة، أو شرها أكبر من خيرها ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ﴾ أي: اليهود ﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ أي: رغب في السحر رغبة المشتري في السلعة ﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾ أي: نصيب، بل هو موجب للعقوبة، فلم يكن فعلهم إياه جهلا، ولكنهم استحبوا الحياة الدنيا

وشهواتها ومغرياتها على الآخرة والجنة ﴿وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾. ثم يقول الله تعالى بعد ذلك: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌۖ﴾ لهم من تعلم السحر ﴿لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[1].

## انتهزوا الفرصة، يقصدون المعنى الآخر!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُواْۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ نداء للمؤمنين: ﴿لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا﴾ ما معنى راعنا؟ كان المسلمون يقولون حين خطابهم للرسول: ﴿رَٰعِنَا﴾ أي: راع أحوالنا، فيقصدون بها معنى صحيحا، نحن نقول في لغتنا الدارجة (راعينا) يعني احفظنا وراقبنا وخذ بيدنا، لماذا استبدل الحق ﷻ كلمة راعنا بكلمة ﴿ٱنظُرْنَا﴾؟ إن كلمة راعنا في العبرانية والسريانية، معناها عند اليهود الرعونة، اتخذوها وسيلة للسباب بالنسبة لرسول الله ﷺ، يريدون بها معنى آخر، والمسلمون لا يدرون شيئا، فانتهزوا الفرصة، فصاروا يخاطبون الرسول بذلك، ويقصدون المعنى الآخر، فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة

---

(١) [البقرة: ١٠٣].

(٢) [البقرة: ١٠٤].

﴿وَٱسۡمَعُواْ﴾ القرآن والسنة التي هي الحكمة، لفظا ومعنى واستجابة، ففيه الأدب والطاعة. ثم توعد الكافرين بالعذاب المؤلم الموجع.

## اليهود والنصارى مشتركون في كراهيتهم للمؤمنين

﴿مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَلَا ٱلۡمُشۡرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ مِّن رَّبِّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ١٠٥﴾[1].

أخبر الله عن عداوة اليهود والمشركين للمؤمنين، أنهم ما يودون ﴿أَن يُنَزَّلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ أي: لا قليلا ولا كثيرا ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ حسدا منهم، وبغضا لكم أيها العرب أن يختصّكم بفضله فإنه ﴿ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٤﴾ ومن فضله عليكم، إنزال الكتاب على رسولكم، ليزكّيكم ويعلمكم الكتاب والحكمة، ويعلمكم ما لم تكونوا تعلمون. وقوله تعالى: ﴿مِّنۡ خَيۡرٖ﴾ أي من أي شيء فيه خير لكم، والله ﷻ يريدنا أن نفهم أن أهل الكتاب والكفار والمشركين، مشتركون في كراهيتهم للمؤمنين، حتى إنهم لا يريدون أن ينزل عليكم أي شيء من ربكم مما يطلق عليه خير ﴿وَٱللَّهُ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ﴾ أي أن الخير لا يخضع لرغبة الكافرين وأمانيهم، والله قد قسم بين الناس أمور

(١) [البقرة: ١٠٥].

حياتهم الدنيوية، فكيف يطلب الكافرون أن يُخضع الله منهجه لإرادتهم؟ فليس لهؤلاء الكفار أن يتحكموا في مشيئة الله، وحسدهم وكراهيتهم للمؤمنين لا يعطيهم حق التحكم في رحمة الله، ولذلك أراد الله أن يرد عليهم بأن هذا الدين سينتشر، وسيفتح الله به أقطارا ودولا، وسيدخل الناس فيه أفواجا وسيظهره على الدين كله ﴿وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ۝﴾.

## الأمر مع الله ليس كذلك!

﴿۞مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝﴾[1].

هناك في رسالات السماء كلها أمور مشتركة لا فرق فيها بين رسول ورسول، ولكن الحياة في تطورها توجد فيها قضايا لم تكن موجودة في العصر الذي سبق، فإننا نجد أحكاما في هذه الحركة حسب ما طرأ عليها من توسعات. فالله الذي وضع هذا الحكم، وضعه على أساس أنه سينتهي وسيحل محله حكم جديد، وليس هذا كواقع البشر، فأحكام البشر وقوانينهم تُعدّل، لأن واقع التطبيق يثبت قصور الحكم عن مواجهة قضايا الواقع، لأنه ساعة وضع الناس الحكم علموا أشياء وخفيت عنهم أشياء، فجاء الواقع ليظهر ما خفى، وأصبح الحكم لا بد أن يُنسخ أو يُعدل، ولكن الأمر مع الله ﷻ ليس كذلك.

---

(١) [البقرة: ١٠٦].

## ما هي الحكمة في أن ينسخها بمثلها؟

﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾ وهل الآية المنسوخة، كان هناك خير منها ولم ينزله الله؟ نقول لا، والمعنى أن الآية المنسوخة كانت خيراً في زمانها، والحكم الثاني كان زيادة في الخير بعد فترة من الزمن، وكلاهما خير في زمنه وفي أحكامه.

﴿أَوْ مِثْلِهَآ﴾ قد يكون مفهوما أن ينسخ الله آية بخير منها، ولكن ما هي الحكمة في أن ينسخها بمثلها؟ إذا كانت الآية التي نسخت مثل الآية التي جاءت فلماذا تم النسخ؟ نقول: إن الله ﷻ حين أمر المسلمين بالتوجه إلى الكعبة بدلا من بيت المقدس، نسخ آية بمثلها، إن التوجه إلى الكعبة لا يكلف المؤمن أية مشقة أو زيادة في التكليف، فالإنسان يتوجه ناحية اليمين أو إلى اليسار، أو إلى الأمام أو إلى الخلف، وهو نفس الجهد، إذن ﴿مِثْلُهَا﴾ لم تأت بلا حكمة، بل جاءت لحكمة عالية، وهنا تبرز الطاعة الإيمانية.

## هل الله ليس موجوداً إلا في الكعبة؟

ولعل تغيير القبلة يعطينا فلسفة نسخ الآيات، اختباراً للطاعة الإيمانية لله، فلا يأتي أحد ليقول لماذا الكعبة؟ وهل الله ليس موجوداً إلا في الكعبة؟ نقول لا إنه موجود في كل مكان، ولكنه أمرنا أن نتجه إلى الكعبة، ونحن لا نتجه إليها لأننا نعتقد أن الله موجود في هذا المكان فقط، ولكن طاعة لأمر الله.

## النسخ لا يحدث في شيئين

الأول: أمور العقائد، فالعقائد ثابتة لا تتغير منذ عهد آدم حتى يوم القيامة، فالله سبحانه واحد لا تغيير ولا تبديل، والغيب قائم، والآخرة قادمة والملائكة يقومون بمهامهم.

والثاني: القصص والإخبار، لأنها إبلاغ عن شيء واقع، فلا تروى لنا حادثة الفيل ثم تنسخ بعد ذلك، أو تروى بتفاصيل أخرى، لأنها أبلغت كما وقعت. ولكن النسخ يكون في التكليف، ليعطينا على قدر طاقتنا، ففي أول نزول القرآن، كانت المرأة إذا زنت وشهد عليها أربعة، يمسكونها في البيت، لا تخرج منه حتى تموت، وبعد أن شاع الإسلام، نزل تشريع جديد هو الرجم أو الجلد، وهذا ما نفهمه في سياق الحكم الأول من قوله تعالى: ﴿أَوۡ يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لَهُنَّ سَبِيلٗا ﴿١٥﴾﴾ كأن هناك حُكما أو أمرا في علم الله سيأتي، ليعدّل الحكم الموجود، وكأن الله سبحانه حين أبلغنا بالحكم الأول أعطانا فكرة، بأن هذا الحكم ليس نهائيا وأن حكما جديدا سينزل.

## الاستفهام التقريري

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾[1].

(١) [البقرة: ١٠٧].

﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ﴾ هذا التعبير يسمى الاستفهام الاستنكاري أو التقريري، لأن السامع لا يجد إلا جوابا واحدا بأنه يقرّ ما قاله الله ﷻ، ويقول: نعم يا رب، فالإنسان ليست له قدرة التملك ولا المقدرة على استبقاء ما يملكه، ولا يملك الفعل في الكون، إن أراد مثلا أن يبني عمارة قد لا يجد الأرض، فإن وجد الأرض قد لا يجد العامل الذي يبني، فإن وجده قد لا يجد مواد البناء، فإن وجد هذا كله، قد تأتي الحكومة أو الدولة وتمنع البناء على هذه الأرض، فتقام القضايا ولا يتم البناء.

## هذا تكريم من الله للمؤمنين

﴿أَمۡ تُرِيدُونَ أَن تَسۡـَٔلُواْ رَسُولَكُمۡ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبۡلُۗ وَمَن يَتَبَدَّلِ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١٠٨﴾[1].

ولم يشأ الحق أن يشبّه المسلمين باليهود، وكان من الممكن أن يقول: أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سأل اليهود موسى، وهذا تكريم من الله للمؤمنين بأن ينزههم أن يتشبهوا باليهود، فبعد أن رأوا المعجزات وعبروا البحر وهم يشاهدون المعجزة، وكانت دالة على وجود الله ﷻ، أرادوا أن يجعل لهم موسى صنما يعبدونه، وعبدوا العجل! وقوله: ﴿فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ١﴾ ما هو الضلال؟ هو أن تسلك سبيلا لا يؤدي بك إلى غايتك، و(سواء الطريق) هو

(١) [البقرة: ١٠٨].

وسطه، والسبيل أو الطريق كان قبل استخدام التكنولوجيا الحديثة، تكون أطرافه وعرة من جنس الأرض قبل أن تُمهّد، أي لا تصلح للسير، ولذلك فإن السير في وسط الطريق أكثر أمانا، ولن يضلوا يمينا ولا يسارا، ويبعدك عن المتاعب والصعوبات.

## اليهود يحسدون المسلمين على دينهم

﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْحَقُّ فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ١٠٩﴾[1].

هم لا يفعلون ذلك عن مبدأ أو عقيدة، والذي يدعوهم إلى ردكم عن دينكم هو الحسد على نعمة الإيمان، ويتمنون زوال هذه النعمة التي جعلت من المسلمين إخوانا متحابين متكاتفين مترابط، بينما هم شيع وأحزاب، فكأن اليهود يحسدون المسلمين على دينهم، وهذا الحسد من عند أنفسهم، لا تقره التوراة. وقوله: ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾ إن هذا الوضع بالنسبة لليهود وما يفعلونه في المؤمنين، لن يستمر، لأن الله سبحانه قد أعد لهم أمرا لم يأت وقته ولا أوانه، وعندما يأتي سيتغير كل شيء، ولن يكون هذا اليوم بعيدا، بل أمر الله قريباً وسيتحقق حتما وسيتم.

---

(١) [البقرة: ١٠٩].

## الله يأمرهم بأداء الصلاة حسب ما جاء به الإسلام

﴿وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٠﴾﴾[1].

ثم أمرهم الله تعالى بالاشتغال في الوقت الحاضر، بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، والقيام بجميع أحكام العبادات والمعاملات التي أمر بها الله حسب ما جاء به الإسلام، ووعدهم أنهم مهما فعلوا من خير، فإنه لا يضيع عند الله، بل يجدونه عنده مرصودا لهم قد حفظه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾.

## الأماني مطامع الحمقى!

﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَـٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَـٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[2].

في هذه الآية الكريمة يظهر التناقض بين أقوال اليهود والنصارى، فقالت النصارى: إنهم سيدخلون الجنة وحدهم، وقالت اليهود القول نفسه، ثم قالوا: لن يدخل الجنة إلا من كان يهوديا أو نصرانيا، ثم: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾[3]، ويقول الناس:

---

(١) [البقرة: ١١٠].

(٢) [البقرة: ١١١].

(٣) [البقرة: ١١٣].

إذا كنت كذوبا فكن ذكورا؛ ذلك أن الذي يكذب تتناقض أقواله، لأنه ينسى مادام قد قال غير الحقيقة، ولذلك تجد أن المحقق أو القاضي يظل يسأل المتهم أسئلة مختلفة، حتى تتناقض أقواله فيعرف أنه يكذب. وقوله: ﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ﴾ تبين لنا أن الأماني هي مطامع الحمقى لأنها لا تتحقق. إذن فقوله سبحانه: ﴿هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ﴾ كلام من الله يؤكد أنهم كاذبون، فليس هناك برهان على ما يقولونه، وأنهم لو أرادوا أن يأتوا بالدليل، فلن يجدوا في كتب الله ولا في كلام رسله ما يؤكد ما يدعونه، وإن أضافوه يكن هذا افتراء على الله

## كلام الله دقيق!

﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾﴾[(١)].

عندما يقول الله لهم ﴿بَلَىٰ﴾ فمعنى ذلك أن الكلام في الأية السابقة غير صحيح، وأنه سيدخلها غير هؤلاء، ولم يقل الله أنه لن يدخلها اليهود ولا النصارى، لأن القرآن أزلي يعالج القضايا منذ بداية الخلق وحتى يوم القيامة، فالقرآن كلام الله، فلو أنه قال لن يدخل الجنة إلا من آمن بمحمد لكان في هذا تجاوزٌ، لأن هناك من آمن بموسى وقت رسالته وعاصره واتبعه ومات قبل أن يدرك محمدا، وهناك من النصارى من آمن بعيسى وقت حياته، وعاصره ونفذ

(١) [البقرة: ١١٢].

تعاليمه ومنهجه ثم مات قبل أن يُبْعَثَ محمدٌ، ولكن بعد أن بُعث محمد وجاء الإسلام ونزل القرآن، فكل من لم يؤمن برسول الله ﷺ لن يدخل الجنة، بل ولن يراها، ولذلك جاء كلام الله دقيقا لم يظلم أحدا من خلقه.

## هذا الخلاف الكبير من الذي يحكم فيه؟

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ عَلَىٰ شَىْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾﴾[(١)].

نقول إن أصدق ما قاله اليهود والنصارى، هو أن كل طائفة منهم اتهمت الأخرى بأنها ليست على شيء، والعجيب إن الطائفتين أهل كتاب، ومع ذلك كل منهما يتهم الآخر بأنه لا إيمان له، وبذلك تساوى مع المشركين الذين يقولون إن أهل الكتاب ليسوا على شيء، هذا الخلاف الكبير من الذي يحكم فيه؟ لا يحكم فيه إلا الله، ومتى يكون موعد هذا الحكم؟ أهو في الدنيا؟ لا، فالدنيا دار اختبار وليست دار حساب ولا محاسبة، ولذلك فإن الحكم بينهم يتم يوم القيامة وعلى مشهد من خلق الله جميعا.

---

(١) [البقرة: ١١٣].

## مؤمنون ضعفاء!

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾[1].

مساجد الله هي الأماكن التي يتم فيها السجود لله، فإذا أتى قوم يجترئون عليها ويمنعون أن يذكر اسم الله فيها، فمعنى ذلك أن المؤمنين القائمين على هذه المساجد ضعفاء، لأنهم لو كانوا أقوياء ما كان يجرؤ عدوهم على أن يمنع ذكر اسم الله فيها، أو أن يسعى إلى خرابها، فتهدم ولا تقام فيها صلاة الجمعة ولا بقية الصلوات، لأن الكافر الذي يريد أن يطفئ مكان إشعاع نور الله لخلقه، يعيش في حركة الشر في الوجود التي تقوى وتشتد.

## لماذا ذكرت الآية الشرق والغرب فقط؟

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾[2].

بعد أن بين الله ﷻ جزاء الذين يخرّبون مساجد الله ويهدمونها، ويمنعون أن يذكر فيها اسمه، والعذاب الذي ينتظرهم في الآخرة، أراد أن يذكّرنا بأن تنفيذ

---

(١) [البقرة: ١١٤].

(٢) [البقرة: ١١٥].

هذا على مستوى تام وكامل عملية مستحيلة، لأن الأرض كلها مساجد، وتخريبها معناه أن تخرب الأرض كلها، لأن الله ﷻ موجود في كل مكان، وقوله تعالى: ﴿فَثَمَّ وَجۡهُ ٱللَّهِۚ﴾ أي هناك وجه الله، وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٞ ١١٥﴾ أي لا تضيقوا بمكان التقاءاتكم بربكم؛ لأن الله واسع موجود في كل مكان في هذا الكون، وفي كل مكان خارج هذا الكون، فأينما كنتم فستجدون الله مقبلا عليكم بالتجليات. ﴿وَلِلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ﴾ لا يعني تحديد جهة الشرق أو جهة الغرب فقط، ولكنه يتعداها إلى كل الجهات شمالها وجنوبها، ولكن لماذا ذكرت الآية الشرق والغرب فقط؟ لأن كل الجهات تحدد بشروق الشمس وغروبها، كما إن الشرق والغرب معروف بالفطرة عند الناس، فلا أحد يجهل من أين تشرق الشمس ولا إلى أين تغرب.

## المعجزة في آدم أقوى

﴿وَقَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدٗاۗ سُبۡحَٰنَهُۥۖ بَل لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ١١٦﴾[١].

الله تعالى يريدنا أن نعرف أن هذا إدعاء خطير مستقبح مستنكر وممقوت، لقد عالجت سورة مريم المسألة علاجا واسعا، علاجا اشترك فيه انفعال كل أجناس الكون غير الإنسان، انفعال السموات والأرض والجبال وغيرها من خلق الله

(١) [البقرة: ١١٦].

التي تلعن كل من قال ذلك، بل وتكاد شعورا منها بفداحة الجريمة أن تنفطر السماء أي تسقط قطعا صغيرة، وتنشق الأرض أي تتمزق، وتخرّ الجبال أي تسقط كتراب، كل هذا من هول ما قيل ومن كذب ما قيل، لأن هذا الادعاء افتراء على الله. ولكن المعجزة في آدم أقوى منها في عيسى عليه السلام، أنتم فُتنتم في عيسى لأن عنصر الأبوة ممتنع، وآدم امتنع فيه عنصر الأبوة والأمومة، إذن فالمعجزة أقوى، وكان الأولى أن تُفتنوا بآدم بدل أن تُفتنوا بعيسى.

## هل رأيت واحدا صنع صنعة منه؟

ومن العجيب أنكم لم تذكروا الفتنة في آدم وذكرتم الفتنة فيما فيه عنصر غائب من عنصرين غائبين في آدم، وكان من الواجب أن تنسبوا هذه القضية إلى آدم ولكنكم لم تفعلوا. ومادام هو خالقه وموجده، فلا يمكن أن يكون هذا الشيء جزءا منه، هل رأيت واحدا صنع صنعة منه؟ الذي يصنع سيارة مثلا، هل صنعها من لحمه أو من لحم البشر؟ وكذلك الطائرة والكرسي والساعة والتليفزيون، هل هذه المصنوعات من جنس الذي صنعها؟

## ماذا كان الله سبحانه يفعل قبل أن يكون له ولد؟

كما أن الولد يُتّخذ لاستبقاء حياة والده التي لا يضمنها له واقع الكون، فهو يحمل اسمه بعد أن يموت ويرث أملاكه، إذن هو من أجل بقاء نوعه، والذي يريد بقاء النوع لا يكفيه أن يكون له ولد واحد، وعندما وقبلما يوجد الولد ماذا

كان الله ﷻ يفعل وهو بدون ولد؟ وماذا استجد على الله بعد أن اتخذ ولدا كما يزعمون، لم يتغير شيء في الوجود، إذن إن وجود ولد بالنسبة للإله لم يعطه مظهرا من مظاهر القوة، لأن الكون قبل أن يوجد الولد المزعوم وبعده لم يتغير فيه شيء.

## هذا التماثل لم يتمّ على قالب، وإنما تمّ بكلمة ﴿كُنْ﴾

﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ١١٧﴾[1].

حين خلق الله الخلق من آدم إلى أن تقوم الساعة، جعل الخلق متشابهين في كل شيء، في تكوين الجسم وفي شكله، بحيث يؤدي كل عضو مهمته في الحياة، ولكن هذا التماثل لم يتم على قالب وإنما تم بكلمة ﴿كُنْ﴾، ورغم التشابه في الخلق فكل منا مختلف عن الآخر اختلافا يجعلك قادرا على تمييزه بالعلم والعين، فبالعلم كل منا له بصمة أصبع وبصمة صوت يمكن أن يميزها خبراء التسجيل، وبصمة رائحة قد لا نميّزها نحن ولكن تميزها الكلاب المدرّبة، فتشم الشيء ثم تسرع فتدلنا على صاحبه ولو كان بين ألف من البشر، وبصمة (شيفرة) تجعل الجسد يعرف بعضه بعضا، فإن جئت بخلية من جسد آخر لفظها، وإن جئت بخلية من الجسد نفسه اتحد معها وعالج جراحها! فكل مخلوق يختلف عمن قبله وعمن بعده وعمن حوله، مع أنهم في الشكل العام

(١) [البقرة: ١١٧].

متماثلون، ولو أنك جمعت الناس كلهم منذ عهد آدم إلى يوم القيامة تجدهم في صورة واحدة، وكل واحد منهم مختلف عن الآخر، بشكلنا ولحمنا وصفاتنا وكل ذرّة فينا، هل هناك دقة بعد ذلك؟

## ماذا كانوا يريدون أن يكلمهم اللّه؟

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ لَوۡلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوۡ تَأۡتِينَآ ءَايَةٞۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِم مِّثۡلَ قَوۡلِهِمۡۘ تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ قَدۡ بَيَّنَّا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يُوقِنُونَ ١١٨﴾[١].

ماذا كانوا يريدون أن يكلمهم الله؟ أكانوا يريدون أن يقول لهم الله إنه أرسل محمداً رسولا ليبلغهم بمنهج السماء، وكأن كل المعجزات التي أيد الله بها رسوله لم تكن كافية لإقناعهم، مع أن القرآن كلام معجز وقد أتى به رسول أمي، جاء القرآن ليتحدى في أحداث المستقبل وفي أسرار النفس البشرية، وكان ذلك يكفيهم، لو أنهم استخدموا عقولهم، ولكنهم أرادوا العناد، كلما جاءتهم آية كذبوا بها وطلبوا آية أخرى، والله ﷻ قد أبلغنا أنه لا يمكن لطبيعة البشر أن تتلقى عن الله مباشرة. فالآيات التي يطلبها الكفار ليؤمنوا لا تجعلهم يؤمنون، ولكن يزدادون كفرا، وهكذا فإن طلبهم أن يكلمهم الله أو تأتيهم آية كان من باب العناد والكفر، فبنو إسرائيل قالوا لموسى أرنا الله جهرة، والذين لا

---

(١) [البقرة: ١١٨].

يعلمون قالوا لولا يكلمنا الله، فتساوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون، لذلك قال الله تعالى: ﴿تَشَٰبَهَتۡ قُلُوبُهُمۡۗ﴾ في الهوى، ومادام القلب غير خالص لله، فيستوى الذي يعلم والذي لا يعلم.

## بشير بماذا؟ ونذير بماذا؟

﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗاۖ وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾[1].

نلتفت إلى أن الله ﷻ حينما يخبرنا عن قضية من فعله، يأتي دائما بنون العظمة التي نسميها نون المتكلم، يستخدمها رؤساء الدول والملوك، ويقولون نحن فلان أمرنا بما هو آت، فإذا تحدث الله عن فعل يحتاج إلى كمال المواهب من الله يقول «إنا»، ولكن حين يتكلم الله عن ألوهيته وحده يستخدم ضمير المفرد، مثل قوله سبحانه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾[2]. أما قوله: ﴿بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا﴾ بشير بماذا؟ ونذير بماذا؟ يبشر من آمن بالجنة وينذر الكافر بعذاب النار، والبشرى والإنذار يقتضيان منهجا يُبَلّغ، من آمن به كان بشارة له، ومن لا يؤمن كان إنذارا له. ﴿وَلَا تُسۡـَٔلُ عَنۡ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَحِيمِ ١١٩﴾ والحق سبحانه يريد أن يطمئن رسوله أنه لا يجب أن ينشغل قلبه بالذين كفروا لأنه قد أنذرهم، وهذا ما عليه، وهذه مهمته التي كلفه الله بها.

---

(١) [البقرة: ١١٩].

(٢) [طه: ١٤].

## لا اليهود ولا النصارى سيتبعون ملتك!

﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٢٠﴾﴾[1].

يريد الله ﷻ أن يقطع على اليهود سبيل الكيد والمكر برسول الله ﷺ، بأنه لا اليهود ولا النصارى سيتبعون ملتك، وإنما هم يريدون أن تتبع أنت ملتهم، أنت تريد أن يكونوا معك وهم يطمعون أن تكون معهم، فاليهود حرّفوا في ملتهم والنصارى حرّفوا فيها، ورسول الله ﷺ معه هدى الله، وهدى الله طريق واحد، أما هدى البشر فكل واحد له هدى ينبع من هواه. وهذا الخطاب لرسول الله ﷺ يجب أن نقف معه وقفة، لنتأمل كيف يخاطب الله رسوله ﷺ الذي اصطفاه، فالله حين يوجّه هذا الخطاب لمحمد ﷺ، فالمراد به أمة رسول الله وأتباعه الذين سيأتون من بعده، وهم الذين يمكن أن تميل قلوبهم إلى اليهود والنصارى، أما الرسول فقد عصمه الله.

---

(١) [البقرة: ١٢٠].

## قانون الاحتمال

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُوْلَٰٓئِكَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ١٢١﴾[١].

﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي: يتبعونه حق اتباعه، فيحلون حلاله ويحرمون حرامه، وهؤلاء هم السعداء من أهل الكتاب، وآمنوا بكل الرسل، ولم يفرقوا بين أحد منهم، فهؤلاء، هم المؤمنون حقا، لو أن الله سبحانه لم يذكر هذه الآية لقال الذين يقرأون التوراة والإنجيل على حقيقتيهما، ويفكرون في الإيمان برسالة رسول الله ﷺ لقالوا كيف تكون هذه الحملة على كل اليهود وكل النصارى ونحن نعتزم الإيمان بالإسلام، وهذا ما يقال عنه (قانون الاحتمال)، وقد كان هناك جماعة من اليهود عددهم أربعون، قادمون من سيناء مع جعفر بن أبي طالب، ليشهدوا أمام رسول الله ﷺ أنهم قرأوا التوراة غير المحرفة: ﴿يَتۡلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ﴾ أي يتلونه كما أنزل بغير تحريف ولا تبديل، فيعرفون الحقائق صافية غير مخلوطة بهوى البشر.

## توبيخ لبني إسرائيل

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٢٢﴾[٢].

---

(١) [البقرة: ١٢١].

(٢) [البقرة: ١٢٢].

التذكير بالنعمة هنا وبالفضل، هو تقريع لبني إسرائيل أنهم لم يؤمنوا برسول الله ﷺ؛ مع أنه مذكور عندهم في التوراة، وكان يجب أن يأخذوا هذا الذكر بقوة، ويسارعوا للإيمان بمحمد ﷺ؛ لأنه تفضيل كبير من الله لهم. ثم يحذرهم الله تعالى في قوله: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ١٢٣﴾[1].

## استقراء للغيب

﴿۞وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾[2].

أراد إبراهيم أن ينقل الإمامية إلى أولاده وأحفاده، حتى لا يُحرموا من القيم الإيمانية تحرس حياتهم وتؤدّي بهم إلى نعيم لا يزول، ولكن الله ﷻ يردّ على إبراهيم بقضية إيمانية أيضا هي تقريع لليهود، الذين تركوا القيم وعبدوا المادة، فيقول: ﴿لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ١٢٤﴾ وهو استقراء للغيب، أنه سيأتي من ذرية إبراهيم من سيفسق ويظلم. أنتم تدّعون أنكم أفضل شعوب الأرض، لأنكم من ذرية إسحق بن إبراهيم، والعرب لهم هذه الأفضلية والشرف، لأنهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم، إذن فأنتم غير مفضلين عليهم.

---

(١) [البقرة: ١٢٣].

(٢) [البقرة: ١٢٤].

## لماذا أمرنا الله بأن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى؟

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ١٢٥﴾[١].

قوله تعالى: ﴿مَثَابَةً لِّلنَّاسِ﴾ إن الذي يذهب إلى بيت الله الحرام مرة يحبّ أن يرجع مرات ومرات، إذن فهو مثابة له؛ لأنه ذاق حلاوة وجوده في بيت ربه، وأتحدى أن يوجد شخص في بيت الله الحرام يشغل ذهنه غير ذكر الله وكلامه وقرآنه وصلاته. ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾ ولكن لماذا أمرنا الله بأن نتخذ من مقام إبراهيم مصلى؟ لأنهم كانوا يتحرّجون عن الصلاة فيه، ولذلك قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لرسول الله ﷺ: ألا نتخذ من مقام إبراهيم مصلى؟ وسؤال عمر ينبع من الحرص، لما رأى مكانا في البيت ليس فيه صلاة، يصنع فجوة بين المصلين، فأراد أن تعمّ الصلاة كل البيت، فنزلت الآية: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّىۖ﴾

## مادام ﴿وُضِعَ﴾ للناس فالناس لم يضعوه!

إن كثيرا من المفسرين يخفى عليهم حقيقة ما جاء في القرآن، والمفروض أننا حين نتعرض لقضية بناء البيت لا بد أن نستعرض جميع الآيات التي وردت في

(١) [البقرة: ١٢٥].

القرآن حول هذه القصة، ومنها قوله ﷻ: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾[١]، والقول إنه وضع للناس؛ والناس هم آدم وذريته حتى تقوم الساعة، وعلى ذلك لا بد أن نفهم أن البيت مادام وُضع للناس فالناس لم يضعوه، ولكن الله ﷻ هو الذي وضعه وحدده، وعدل الله يأبى إلا أن يوجد البيت قبل أن يخلق آدم، ولذلك فإن الملائكة هم الذين وضعوه بأمر الله وحيث أراد الله لبيته أن يوضع، والله مع نزول آدم إلى الأرض شرّع التوبة، وأعد هذا البيت ليتوب الناس فيه إلى ربهم، وليقيموا الصلاة ويتعبدوا فيه.

## حُفَر على شكل قدميه!

إن الحجر الذي كان يقف عليه إبراهيم به حفر على شكل قدميه، وهما بين قائل أن الحجر لان تحت قدمي إبراهيم من خشية الله، وبين قائل إن إبراهيم هو الذي قام بحفر مكان في الحجر على هيئة قدميه، حتى إذا وقف عليه ورفع يده إلى أعلى، كان توازنه محفوظا.

## دعاء إبراهيم عليه السلام

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾﴾[٢].

---

(١) [آل عمران: ٩٦].

(٢) [البقرة: ١٢٦].

واذكر أيها النبي حين قال إبراهيم داعيًا: ﴿رَبِّ ٱجۡعَلۡ﴾ مكة ﴿بَلَدًا ءَامِنًا﴾ من الخوف، وارزق أهله من أنواع الثمرات، وخُصَّ بهذا الرزق ﴿مَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُم بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ﴾ قال الله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ منهم فأرزُقُهُ في الدنيا وأُمتعه متاعًا قليلا، ثم أُلجئُه مرغمًا إلى عذاب النار، وبئس هذا المصير.

## حالة من الخوف والرجاء

﴿وَإِذۡ يَرۡفَعُ إِبۡرَٰهِـۧمُ ٱلۡقَوَاعِدَ مِنَ ٱلۡبَيۡتِ وَإِسۡمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلۡ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ١٢٧﴾[1].

أي: واذكر يا محمد النبي إبراهيم وابنه إسماعيل، في حالة رفعهما القواعد (الأساس) من البيت، واستمرارهما على هذا العمل العظيم، وكيف كانت حالهما من الخوف والرجاء، حتى إنهما مع هذا العمل دعوا الله أن يتقبل منهما عملهما.

## بيّن لنا يا رب ما تريده منا؟

﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾[2].

(١) [البقرة: ١٢٧].

(٢) [البقرة: ١٢٨].

فإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام، بمجرد أن فرغا من رفع القواعد من البيت قالا: ﴿رَبَّنَا وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ ولم يكتفيا بذلك، بل أرادا امتداد حلاوة التكليف إلى ذريتهما من بعدهما، فيقولان: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةٗ مُّسۡلِمَةٗ لَّكَ﴾، ليتصل أمد منهج الله في الأرض، ويستمر التكليف من ذرية إلى ذرية إلى يوم القيامة، ثم يقولان: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، أي بيّن لنا يا رب ما تريده منا؟ بيّن لنا كيف نعبدك؟ وكيف نتقرب إليك؟ أي: علّمنا إياها على وجه المشاهدة ليكون أبلغ، ويحتمل أن يكون المراد بالمناسك أعمال الحج كلها، ولما كان العبد لا بد أن يعتريه التقصير، ويحتاج إلى التوبة قالا: ﴿وَتُبۡ عَلَيۡنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٢٨﴾.

## كلمة ﴿رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ تردّ على اليهود

﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾[1].

أي: ربنا وابعث في هذه الأمة رسولا من ذرية إسماعيل يتلو عليهم آياتك ويعلمهم القرآن والسنة، ويطهرهم من الشرك وسوء الأخلاق، ﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ﴾ أي: القاهر لكل شيء، الذي لا يمتنع على قوته شيء. ﴿ٱلۡحَكِيمُ ٢﴾

(١) [البقرة: ١٢٩].

الذي يضع الأشياء مواضعها، فاستجاب الله لهما، فبعث الله هذا الرسول الكريم، الذي رحم الله به ذريتهما خاصة، وسائر الخلق عامة. وكلمة ﴿رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ تردّ على اليهود الذين أحزنهم أن رسول الله من العرب، وأن الرسالة كان يجب أن تكون فيهم، ونحن نقول لهم إن جدّنا وجدّكم إبراهيم، وأنتم من ذرية يعقوب بن اسحق، ومحمد ﷺ من ذرية إسماعيل بن إبراهيم وأخ لإسحاق، ولا حجة لما تدّعونه من أن الله فَضَّلَكم واختاركم على سائر الشعوب، إنما أراد الحق ﷻ أن يسلب منكم النبوة لأنكم ظلمتم في الأرض.

﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٣٠﴾[1].

كثير من الناس يظن أن ارتفاع مقامات بعضهم في أمور الدنيا، هو اصطفاء من الله لهم بأن أعطاهم زخرف الحياة الدنيا، ويكون هذا مبررا لأن يعتقدوا أن لهم منزلةً عالية في الآخرة، نقول: لا، فمنازل الدنيا لا علاقة لها بالآخرة.

## الإسلام لا يكون إلا لله

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٣١﴾[2].

(١) [البقرة: ١٣٠].

(٢) [البقرة: ١٣١].

لم يقل الله أسلم إِليّ، ولم يقل أسلم لربك، لأن الإسلام لا يكون إلا لله، وإبراهيم عليه السلام قال في رده: ﴿أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ١٣١﴾ ومعنى ذلك أنه لن يكون وحده في الكون، لأنه إذا أسلم لله، يكون قد انسجم مع الكون المخلوق من الله للإنسان، فكأنه أسلم وجهه لله، أما من يسلم وجهه لغير الله، فقد اعتمد على قوي يمكن أن يضعف، وعلى غني يمكن أن يفتقر، وعلى موجود يمكن أن يموت ويصبح لا وجود له، ولذلك فهو في هذه الحالة يتصف بالسفاهة.

## المعنى: لا تفارقوا الإسلام لحظة

﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٣٢﴾[1].

الوصية دائما تكون لمن تحب، فساعة يحتضر الإنسان لا يغش نفسه أبدا، ولا يغش أحدا من الناس، لماذا؟ لأنه يحسّ إنه مقبل على الله سبحانه فيقول كلمة الحق، وأن حب الإنسان لأولاده أكيد، سواء أكان هذا الإنسان مؤمنا أم كافرا، فقد وصّى إبراهيم بنيه، ويعقوب وصى بنيه؛ فإبراهيم هو الأب الكبير وابنه اسحق وابن اسحق يعقوب، ويعقوب هو الأب المباشر لليهود، ويعقوب وصاهم كما يروي لنا القرآن الكريم: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ١٣٢﴾

(١) [البقرة: ١٣٢].

فهل يملك أولاد يعقوب أن يموتوا وهم مسلمون؟ والموت لا يملكه أحد، إنه يأتي في أي وقت فجأة، ولكن مادام يعقوب قد وصى بنيه، فالمعنى لا تفارقوا الإسلام لحظة حتى لا يفاجئكم الموت إلا وأنتم مسلمون.

## إقرار من بني إسرائيل بأنهم مسلمون

﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى ۖ قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾[1].

أكنتم أيها اليهود حاضرين حين جاء الموتُ يعقوبَ، إذ جمع أبناءه وسألهم ما تعبدون من بعد موتي؟ قالوا: ﴿نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا﴾، ونحن له منقادون مستسلمون خاضعون. هذا خطاب من يعقوب، ينطبق ويمسّ اليهود المعاصرين لنزول القرآن الكريم، وهو إقرار من الأسباط أبناء يعقوب(بني إسرائيل) بأنهم مسلمون.

﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ ۖ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ ۖ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤١﴾﴾[2].

---

(١) [البقرة: ١٣٣].

(٢) [البقرة: ١٣٤].

وقوله تعالى: ﴿قَدۡ خَلَتۡ﴾ يراد بها إفهام اليهود ألا ينسبوا أنفسهم إلى إبراهيم نسبا كاذبا، لأن نسب الأنبياء ليس نسباً دمويا أو جنسيا أو انتماء، وإنما نسب منهج واتباع، فكأن الحق يقول لليهود: لن ينفعكم أن تكونوا من سلالة إبراهيم ولا اسحق ولا يعقوب، لأن نسب النبوة هو نسب إيماني فيه اتباع للمنهج والعقيدة، ولا يشفع هذا النسب يوم القيامة، لأن لكل واحد عمله.

## رد على المستشرقين!

لا بد أن نلتفت لنرد على الذين يحاولون الطعن في القرآن، يأتي بعض المستشرقين ليقول: هناك آية في القرآن تؤكد أن الله يعطي بالأنساب، وذلك في قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾[1]. فإذا كان الاثنان مؤمنين فكأنك تزيد درجة الأبناء إكراما، ولكن غير المؤمنين مبعدون، ليس لهم علاقة بآبائهم، وانقطعت الصلة بينهم بسبب الإيمان والكفر.

## صفقة إيمانية بين الله وبين كل مؤمن

﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰ تَهۡتَدُواْۗ قُلۡ بَلۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِـۧمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٣٥﴾[2].

---

(١) [الطور: ٢١].

(٢) [البقرة: ١٣٥].

قالت اليهود كونوا هودا، وقالت النصارى كونوا نصارى، لأن كل واحد منهما لا يرى الخير إلا في نفسه، ولكن الإسلام جاء وأخذ من اليهودية موسى وتوراته الصحيحة، وأخذ من المسيحية عيسى وإنجيله الصحيح، ومعنى ذلك أن الإسلام أخذ وحدة الصفقة الإيمانية المعقودة بين الله سبحانه وبين كل مؤمن.

## مخالفة الاعوجاج اعتدال

معنى قوله: ﴿حَنِيفًاۖ﴾: الحنف هو الاعوجاج، ونقول إن الاعوجاج عن المعوجّ اعتدال، والرسل لا يأتون إلا بعد اعوجاج كامل في المجتمع، ليصرفوا الناس عن الاعوجاج القائم فيميلون إلى الاعتدال، لأن مخالفة الاعوجاج اعتدال، وقوله تعالى: **«حنيفا»** تذكرنا بنعمة الله على الوجود كله، لأنه يصحح غفلة البشر عن منهج الله، ويأخذ الناس من الاعوجاج الموجود إلى الاعتدال.

## هذا بلاغ عن الله منذ عهد آدم حتى الآن

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ١٣٦﴾[1].

---

(١) [البقرة: ١٣٦].

البلاغ الصحيح عن الله منذ عهد آدم حتى الآن، هو وحدة العقيدة بأنه لا إله إلا الله وحده، ووحدة الكون بأن الله هو الخالق، وأن كل شيء يخرج عن ذلك يكون من تحريف الديانات السابقة، هو افتراء على الله سبحانه، وكل ما يخالف ذلك من صنع البشر. والإنسان لا يسلم وجهه إلا لمن هو أقدر منه وأعلم منه، وأقوى منه، ولمن لا هوى له، فإن تشككت في أحد العناصر فإسلامك ليس حقيقة وإنما تخيّل، وأنت لا تسلم زمامك لله إلا وأنت متأكد أن قدراته فوق قدرات المخلوقين جميعا.

## ماذا تخشى؟ وممن تخاف؟

﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٖۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ۝١٣٧﴾[1].

فإنْ آمن الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم بمثل الذي آمنتم به، مما جاء به الرسول، فقد اهتدوا إلى الحقيقة، وإن أعرضوا فإنما هم في خلاف شديد ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ﴾ أي لا تلتفت إلى معاركهم ولا إلى حوارهم، فالله يكفيك بكل الوسائل عمن سواه، فإذا حاول اليهود والنصارى والمنافقون أن يكيدوا لك ويؤذوك، فالله ﷻ يكفيك، فماذا تخشى؟ وممن تخاف؟ ومن ذا الذي يستطيع أن يصل إليك؟ ولقد حاول اليهود قتل رسول الله ﷺ أكثر من مرة، وحاولوا إيذاءه بالسحر، فأبطل الله كيدهم، وأظهر ما خفي منه، وأطلع رسوله عليه.

---

(١) [البقرة: ١٣٧].

## لماذا كلمة صبغة؟

﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُۥ عَٰبِدُونَ ۝١٣٨﴾[1].

كأن الإيمان بالله، وملة إبراهيم، وما أنزل الله على رسله، هي الصبغة الإلهية التي تتغلغل في الجسد البشري، ولماذا كلمة صبغة؟ حتى نعرف أن الإيمان يتخلل جسدك كله، إنه ليس صبغة من خارج جسمك، ولكنها صبغة جعلها الله في خلايا القلب، موجودة فيه ساعة الخلق، فكأن الإيمان صبغة موجودة بالفطرة، تهز كل أعضاء الجسد البشري، إنها صبغة الله.

## مادام لا يؤذي أحدا، فليس من الضروري أن يصلي!

﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ۝١٣٩﴾[2].

المحاجّة لا يمكن أن تقوم بين حق وحق، وإنما تقوم بين حق وباطل، وبين باطل وباطل، لأن هناك حقا واحدا، ولكن هناك مائة طريق إلى الباطل، فمادامت المحاجّة قد قامت بيننا وبينكم، ونحن على حق، فلا بد أنكم على باطل، وليحسم الحق ﷻ هذه المسألة، ويمنع الجدل والجدال، قال سبحانه:

---

(١) [البقرة: ١٣٨].

(٢) [البقرة: ١٣٩].

﴿وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ ١٣٩﴾، قد يقول إنسان: إن الإخلاص في العمل، والعمل مكانه القلب، ومادام الإنسان لا يؤذي أحدا، ولا يفعل منكرا، فليس من الضروري أن يصلي، مادامت النية خالصة، نقول إن المسألة ليست نيات فقط، ولكنها أعمال ونيات.

## إنسان كافر قدم اكتشافاً، أيعذب في النار؟

إن الذين يتعجبون من أن إنسانا كافرا قدم اكتشافاً هاماً للبشرية، ولكنه لم يكن مؤمنا بالله، يتعجبون أيعذب في النار؟ نقول نعم، لأنه عمل وليس في قلبه الله، ولذلك يجازى في الحياة الدنيا، فتقام له التماثيل، ويطلق اسمه على الميادين، ويخلد اسمه في الدنيا التي عمل من أجلها، ولكن مادام ليس في نيته الله، فلا جزاء له عند الله.

## ﴿ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ﴾؟!

﴿أَمۡ تَقُولُونَ إِنَّ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطَ كَانُواْ هُودًا أَوۡ نَصَٰرَىٰۗ قُلۡ ءَأَنتُمۡ أَعۡلَمُ أَمِ ٱللَّهُۗ وَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٠﴾[1].

السؤال هنا لا يوجد له إلا رد واحد، لأنهم لن يستطيعوا أن يقولوا نحن أعلم

(١) [البقرة: ١٤٠].

من الله، فكأن الله بالسؤال قد أخبر عن القضية، ولكن يلاحظ في هذه الآية الكريمة ذكر إبراهيم وإسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط، وفي ذكر إسماعيل دائما مع اسحق ويعقوب يدل على وحدة البلاغ الإيماني عن الله؛ لأن إسماعيل كان في أمة العرب وإسحق ويعقوب كانا في بني إسرائيل، والله الذي بعث إسماعيل، هو الله الذي بعث اسحق، وما دام الإله واحداً فالمنهج الإيماني لا بد أن يكون واحدا، فإذا حدث خلاف، فالخلاف من البشر الذين يحرفون المنهج ليحققوا شهوات ومكاسب لهم. ثم يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ١٤١﴾[1].

## هذا يدل على أنّهم سفهاء حقا

﴿سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ١٤٢﴾[2].

هذا أول نسخ في القرآن الكريم، يريد الله تعالى أن يعطيه العناية اللائقة؛ لأنه سيكون مثار تشكيك وجدل عنيف من كل من يعادي الإسلام؛ فكفار قريش سيأخذون منه ذريعة للتشكيك، وكذلك المنافقون واليهود، والله تعالى يريد أن يحدد المسألة قبل أن تتم هذه التشكيكات، فحرف السين هنا يؤكد إنهم لم

(١) [البقرة: ١٤١].

(٢) [البقرة: ١٤٢].

يقولوا بعد، ولذلك قال سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ فقبل أن يتم تحويل القبلة قال: إن هذه العملية ستحدث هزة عنيفة يستغلها المشككون، وبرغم أن الله ﷻ قال: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ﴾ أي أنهم لم يقولوها إلا بعد أن نزلت هذه الآية، مما يدل على أنهم سفهاء حقا؛ فلو أنهم امتنعوا عن القول، ولم يعلقوا على تحويل القبلة، لكان ذلك تشكيكا في القرآن الكريم، لأنهم في هذه الحالة كانوا يستطيعون أن يقولوا: لم يقل أحد منا شيئا!

## وسطية الإسلام

﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾﴾[1].

واقع الحياة أن الماديين يفتنون الروحانيين لأن عندهم المال والقوة، والإسلام جاء وسطا فيه المادة والروح، وإياك أن تقول أن الروح أحسن من المادة أو المادة أحسن من الروح، لكن حين تختلط المادة بالروح فإنه توجد النفس، والنفس هي التي لها اختيار تطيع أو تعصي، تعبد أو تكفر، والله يريد من المؤمنين أن يعيشوا مادية الحياة بقيم السماء، وهذه وسطية الإسلام، لم يأخذ الروح وحدها

(١) [البقرة: ١٤٣].




ولا المادة وحدها، وإنما أوجد مادية الحياة محروسة بقيم السماء، فحين يخبرنا الله سبحانه أنه سيجعلنا أمة وسطا تجمع خير الطرفين، نعرف أن الدين جاء ليعصم البشر من أهواء البشر. قد يتساءل البعض، هل الشيوعية ارتقت بشعوبها أم لا؟ نقول انظروا إليها الآن لقد بنت ما ادعته من ارتقاءات على الكذب والزيف، ثم تراجعت ثم انهارت تماما، وكما انهارت الشيوعية ستنهار الرأسمالية، لأنهما طرفان متناقضان، إنما نحن أمة وسطا.

## التوراة والإنجيل ورد فيهما: أن محمداً يصلي إلى قبلتين

﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾[1].

هل معنى ذلك أن القبلة التي كان عليها الرسول وهي بيت المقدس لم يكن راضيا عنها؟ نقول لا، وإنما الرضا دائما يتعلق بالعاطفة، وهناك فرق بين حب العاطفة وحب العقل، ولذلك لا يقول أحد إن رسول الله لم يكن راضيا عن قبلة بيت المقدس، وإنما كان يتجه إلى بيت المقدس، وفي قلبه عاطفة تتجه إلى الكعبة، هذا يدل على الطاعة والالتزام.﴿وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾﴾. فالذين أوتوا الكتاب،

---

(١) [البقرة: ١٤٤].

يحاولون التشكيك في اتباع رسول الله، يعلمون أن رسول الله هو الرسول الخاتم، ويعرفون أوصافه التي ذكرت في التوراة والإنجيل، ويعلمون أنه صاحب القبلتين، ولو لم يتجه الرسولُ من بيت المقدس إلى الكعبة، لقالوا إن التوراة والإنجيل تقولان إن الرسول الخاتم محمداً يصلي إلى قبلتين، فلماذا لم تتحقق؟ ولكان هذا أدعى إلى التشكيك، فكأن هذا التحويل بالنسبة لأهل الكتاب، تثبيت لإيمانهم بالرسول ﷺ، وليس سببا في زعزعة اليقين.

## لا يريدون الاقتناع بصحة الدين الجديد

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ﴿١٤٥﴾﴾[1].

ساعة تسمع ﴿وَلَئِنْ﴾ هذا قسم، فكأن الله تعالى أقسم أنه لو أتى رسول الله أهل الكتاب بكل آية ما آمنوا بدينه ولا اتبعوا قبلته، لماذا؟ لأنهم لا يريدون الاقتناع بصحة الدين الجديد، ولو كانوا يريدون دليلا أو اقتناعا لوجدوه في كتبهم التي أنبأتهم عن رسول الله ، وأنه النبي الخاتم وأعطتهم أوصافه، فكأن الدليل عندهم، ولكنهم يأخذون الأمر سفها وعنادا ومكابرة.

---

(١) [البقرة: ١٤٥].

## المقصود بهذه الآية هي أمة محمد

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ إِنَّكَ إِذٗا لَّمِنَ ﴿١٤٥﴾ حين يخاطب اللهُ رسوله بهذه الآية، وهو يعلم أن رسوله لا يمكن أن يتبع أهواءهم، نقول إن المقصود بهذه الآية هي أمة محمد ﷺ، إن الله يخاطب أمته في شخصه، ما هي أهواء أهل الكتاب؟ هي أن يقول إن ما حرفوه في كتبهم أنزله الله، وهكذا يجعل هوى نفوسهم أمراً متبعا، فكأن الله ﷻ يريد أن يلفت أمة محمد ﵇، إلى أن كل من يتبع أهواء أهل الكتاب وما حرفوه سيكون من الظالمين، مهما كانت درجته من الإيمان، وإذا كان الله ﷻ لن يقبل هذا من رسوله وحبيبه، فكيف يقبله من أي فرد من أمة محمد؟

## أعرفه كمعرفتي لابني، ومعرفتي لمحمد أشد!!

﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمۡۖ وَإِنَّ فَرِيقٗا مِّنۡهُمۡ لَيَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾[1].

يعرفون ماذا؟ هل يعرفون أمر تحويل القبلة؟ أم يعرفون أمر رسول الله وبعثه ورسالته التي يحاولون أن يشككوا فيها؟ إن اليهود والنصارى يعرفون رسالة محمد ﷺ، ومكتوب في التوراة والإنجيل أنه الحق، ومطلوب منهم أن يؤمنوا به، إن كعب الأحبار كان جالسا وعمر بن الخطاب ﵁ كان موجودا، فسأله

---

(١) [البقرة: ١٤٦].

عمر: أكنتم تعرفونه يا كعب؟ فقال كعب وهو من أحبار اليهود، أعرفه كمعرفتي لابني، ومعرفتي لمحمد أشد، فلما سألوه لماذا؟ قال: لأن ابني أخاف أن تكون امرأتي خانتني فيه، أما محمد فأوصافه مذكورة بالدقة في التوراة بحيث لا نخطئه.

## كتم الحقيقة عملية شاقة!

النطق بالحقيقة لا يحتاج إلى مجهود، أما كتم الحقيقة فهو عملية شاقة، ويحتاج إلى مجهود وقوة. إن أخطر الأمراض هي التي لا يصاحبها ألم، ولا تحس بها إلا بعد أن يكون قد فات وقت العلاج، والمعارك بين الحق والباطل تنتهي بهزيمة الباطل بسرعة، ولكن الذي يطول هو معركة بين باطلين، ولذلك فإن معارك العصر الحديث تطول وتتعب الدنيا، فمعارك الحرب العالمية الثانية مثلا لازالت آثارها ممتدة حتى الآن.

## هذا الحق الذي هو أحقّ أن يُسمّى حقا

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ١٤٧﴾[1].

أي: هذا الحق الذي هو أحقّ أن يُسمّى حقا من كل شيء، لِما اشتمل عليه من المطالب العالية، والأوامر الحسنة، وتزكية النفوس وحثها على تحصيل

(١) [البقرة: ١٤٧].

مصالحها، ودفع الأضرار عنها، لصدوره من ربك، الذي من جملة تربيته لك أن أنزل عليك هذا القرآن الذي فيه تربية العقول والنفوس.

## إنكم ستفاجأون بما سيحدث لكم!!

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾(١).

إن بشرية الإنسان تنتهي ساعة الاحتضار، فعند مواجهة الموت ونهاية العمر يصبح الإنسان مقهورا وليس مختارا، فهو لا يملك شيئا لنفسه، ولا يستطيع أن يقول لن أموت الآن، انتهت بشريته وسيطرته على نفسه، حتى أعضاؤه تشهد عليه، ففي الحياة الدنيا كل واحد يختار الوجهة التي يتجه إليها، هذا يختار الكفر وهذا يختار الإيمان، والمطلوب من المؤمنين في الحياة الدنيا أن يتسابقوا إلى الخيرات قبل أن يأتيهم الأجل، ولا يحسب واحد منهم أنه سيفلت من الله، أو أنه لن يحاسب، أو أنه يستطيع أن يختفي، إنكم ستفاجأون بما سيحدث لكم.

---

(١) [البقرة: ١٤٨].

## الخطاب للنبي، وهذا للعموم

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۖ وَإِنَّهُۥ لَلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ١٤٩﴾(١).

أي: وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ في أسفارك وغيرها، وهذا للعموم، والخطاب للنبي، من أي مكان خَرَجْتَ أيها النبي مسافرًا، وأردت الصلاة، فوجِّه وجهك نحو المسجد الحرام. وإنَّ توجُّهك إليه لهو الحق الثابت من ربك، وما الله بغافل عما تعملونه، وسيجازيكم على ذلك.

## استمروا ولا تخافوهم!

﴿وَمِنۡ حَيۡثُ خَرَجۡتَ فَوَلِّ وَجۡهَكَ شَطۡرَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِۚ وَحَيۡثُ مَا كُنتُمۡ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ شَطۡرَهُۥ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيۡكُمۡ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ فَلَا تَخۡشَوۡهُمۡ وَٱخۡشَوۡنِي وَلِأُتِمَّ نِعۡمَتِي عَلَيۡكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ ١٥٠﴾(٢).

ومن أى مكان خرجت أيها النبي فتوجَّه إلى المسجد الحرام، وحيثما كنتم أيها المسلمون أيضا كذلك، بأي قطر من أقطار الأرض فولُّوا وجوهكم نحو المسجد الحرام; لكي لا يكون للناس المخالفين لكم احتجاج عليكم بالمخاصمة والمجادلة، إلا بعض الفلاسفة والملاحدة من المستشرقين المعاصرين والمبشرين

---

(١) [البقرة: ١٤٩].

(٢) [البقرة: ١٥٠].

وأهل الظلم والعناد قديما وحديثا، فسيظلُّون على جدالهم البليد، استمروا ولا تخافوهم، وخافوني بامتثال ما أمرت به، واجتناب ما نهيت عنه; لكي أتمّ نعمتي عليكم باختيار أكمل التوجيهات والشرائع لكم، ولعلكم تهتدون إلى الحق والحقيقة، وما ينفعكم في دنياكم وضمان النتائج بعد موتكم. قال هنا: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ أي: لينقطع عنكم احتجاج الناس من اليهود، فإنهم يجدون في كتابهم أن قبلته المستقرة هي الكعبة والبيت الحرام، والمشركون العرب يرون أن من مفاخرهم هذا البيت العظيم، وأنه من ملة إبراهيم، وأنه إذا لم يستقبله محمد قالوا: كيف يدّعي أنه على ملة إبراهيم، وهو من ذريته، وقد ترك استقبال قبلته وهي الكعبة؟!

﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴿١٥١﴾﴾[1].

﴿رَسُولًا مِّنكُمْ﴾ أي ليس من جنس آخر، تعرفونه قبل أن يكلف بالرسالة، لأنه معروف بالخلق والأمانة وبكل ما يزيد الإنسان علوا واحتراما، وأول من آمن بهَ هم أولئك الذين يعرفونه أكثر من غيرهم، كأبي بكر الصديق، وزجته خديجة وابن عمه علي بن أبي طالب، هؤلاء آمنوا دون أن يطلبوا دليلا، فهم لم يعرفوا عنه كذبا قط، فقالوا إن الذي لا يكذب على الناس لا يمكن أن يكذب على الله، فآمنوا. ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾ والتزكية هي التطهير، ولا بد أن يكون هناك

---

(١) [البقرة: ١٥١].

دنس ليطهرهم منه، فيطهرهم من عبادة التماثيل والحجارة، وتقديس الذات والذوات، ومن قتل البنات خوفا من العار مستقبلا، ومن شرب الخمر وسلب المال بالقمار، واستغلال الناس الفقراء بالابتزاز المالي وهو الربا، فكأنه جاءهم ليستبدل مجتمعا تعمّه الفوضى والجرائم يأكل فيه القوي الضعيف، إلى مجتمع كله قوي، الضعيف فيه قوي حتى يؤخذ الحق له، والقوي فيه ضعيف حتى يؤخذ الحق منه.

﴿وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ أي: القرآن، ألفاظه ومعانيه ﴿وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ قيل: هي السنة؛ معرفة أسرار الشريعة والفقه فيها، وقيل: الحكمة، هو المعنى الكثير في القول القليل، وتنزيل الأمور منازلها ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمۡ تَكُونُواْ تَعۡلَمُونَ ١٥١﴾ لأنكم أمة أمية، فإن بهَرَتكم الدنيا بحضارتها فستبهرونهم بالإشعاعات الإيمانية التي تجعلكم متفوقين عليهم، فكل ما يأتيكم من السماء فهو أعلى، وهو فوق كل حضارات الأرض.

## ﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ﴾ في الملأ الأعلى

﴿فَٱذۡكُرُونِيٓ أَذۡكُرۡكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢﴾[1].

أمر الله تعالى عباده المؤمنين بذكره على كل حال، ووعد عليه أفضل الجزاء، وهو الثناء في الملأ الأعلى على مَنْ ذكره، وكأنه قال: خُصّوني أيها المؤمنون

(١) [البقرة: ١٥٢].

بالشكر قولا وعملا، ولا تجحدوا نعمي عليك، كما قال تعالى على لسان رسوله، عنْ أَبي هُريرَةَ، أنَّ رسُولَ اللهَّ ﷺ قال: **يقُولُ اللهَّ تَعالى: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعهُ إِذَا ذَكَرَني، فَإِن ذَكرَني في نَفْسهِ، ذَكَرْتُهُ في نَفسي، وإنْ ذَكَرَني في ملإٍ، ذكَرتُه في ملإٍ خَيْرٍ منْهُمْ»**[1].

## ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾، على ماذا؟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾[2].

يطالبنا الله أن نستعين بالصبر والصلاة، على ماذا؟ على أن تفعل ما أمرك الله به ولا تفعل ما نهاك عنه، لقوله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ﴾ وهو يأخذ ألوانا شتى، حسب تسامي الناس في العبادة، فمثلا سئل الإمام عليّ رضي الله عنه عن حق الجار؟ قال: تعلمون أنك لا تؤذيه؟ قالوا: نعم، قال: وأن تصبر على أذاه، فكأنه ليس مطلوبا منك فقط ألا تؤذي جارك، بل تصبر على أذاه. إن الله منعك من أشياء هي من شهوات النفس، وأمرك بأشياء فيها مشقة، وهذه محتاجة إلى الصبر. يقول أحد الصالحين: اللهم إني أسألك ألا تكلني إلى نفسي، فإني أخشى يا رب ألا تثيبني على الطاعة؛ لأنني أصبحت أشتهيها، فالطاعة من كثرة حب الله، أصبحت مرغوبة محببة إلى

---

(١) متَّفقٌ عليهِ.

(٢) [البقرة: ١٥٣].

النفس، حتى أن رسول الله ﷺ كان يقول لبلال ساعة الآذان: «**أرحنا بها يا بلال**» ولم يقل كما يقول بعض الناس أرحنا منها؛ ذلك أن هناك من يقول لك: أن الصلاة تكون على كتفي مثل الجبل وأرتاح، نقول له أنت ترتاح بها ولا ترتاح منها.

## واجه الحياة في معيّة اللّه

قول الله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾﴾ لفظ: ﴿مَعَ﴾ يقتضي الاجتماع في المكان أو الزمان، وهي تعني المعيّةأ أي إن كنت صابرا على أمر الله، سواء في الشدائد أو إذا وقعت مصيبة، أو صابرا على بلاء الله، فإن الله يكون معك، يطلب الله منك أن تواجه الحياة في معية الله؛ فأنت لو واجهت المشكلات في معية من تثق في قوته تواجه الأمور بشجاعة، فما بالك إذا كنت في معية الله، أيجرؤ شيء أن يقف أمامك؟ وكل شيء في الوجود خاضع له؟

## اللّه يعطي المؤمنين مناعة ضد الأحداث

﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾﴾[١].

الله تعالى يعلم، أن خصوم الإيمان سيواجهون المسلمين بمشقة عنيفة، لا تهدّدهم في أموالهم فقط ولكن تهدّدهم في نفوسهم، فأراد الله ﷻ أن يعطي

---

(١) [البقرة: ١٥٤].

المؤمنين مناعة ضد هذه الأحداث، وقال لهم: إن المسألة قد تصل إلى القتل، والقتل هو أشد ما يمكن أن يقع على الإنسان، فهو يصاب في ماله أو رزقه صحته، أما أن يصاب في نفسه فيُقتل، فهذه هي المصيبة الكبرى، وأراد الله أن يطمئنهم بأن الاستشهاد في سبيل الله، هي أعلى مرتبة إيمانية، يستطيع الإنسان المؤمن أن يصل إليها في الدنيا، فالذي يقتل في سبيل الله لا يموت، وإنما يعطيه الله لونا جديدا من الحياة مباشرة، فيها من النعم كثيراً ما لا يعدّ ولا يحصى.

## الابتلاء ليس شرا

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾[1].

إن مجرد الابتلاء ليس شرا، ولكن الشر هو أن تفشل في الابتلاء، فكل ابتلاء هو اختبار وامتحان، ولم يقل أحد: إن الامتحانات شر، إنها تصير شراً من وجهة نظر الذي لم يتحمل مشاق العمل للوصول إلى النجاح، أما الذي بذل الجهد وفاز بالمركز الأول، فالامتحانات خير بالنسبة له، إذن فقوله الحق: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ أي سنصنع لكم امتحاناً يصفي البطولة للعقيدة الجديدة.

(١) [البقرة: ١٥٥].

## قمة الابتلاءات

والله سبحانه قد ذكر لنا قبل هذه الآية قمة الابتلاءات؛ وهي أن ينال الإنسان الاستشهاد في سبيل الله، وذكر ثواب الشهيد، وهو البقاء على هيئة من الحياة عند ربه، وكان ذلك مقدمة للابتلاءات الأقل، فقمة الابتلاء في حدود إدراكنا هي فقد الحياة، وأراد الحق أن يعطي المؤمنين مناعة فيما دون الحياة، مناعة من الخوف والجوع ونقص الأموال والأنفس والثمرات، فمن لم يفقد حياته، فستأتي له ابتلاءات فيما دون حياته، وكل هذه الابتلاءات التي سبقت، أشياء لا يحبها الإنسان.

## دع الأمر إلى أن يقع

إذن فالذي يخاف من الخوف؛ نقول له: أنت معين لمصدر الخوف على نفسك، وخوفك وانزعاجك لن يمنع الخوف، ولذلك دع الأمر المخوف إلى أن يقع، فآفة الناس أنهم يعيشون في المصائب قبل وقوعها، وهم بذلك يطيلون على أنفسهم أمد المصائب، قد تأتي مثلا بعد شهر، فلماذا تطيل من عمرها بالتوجس منها والرهبة من مواجهتها؟ إنك لو تركتها إلى أن تقع؛ تكون قد قصرت مسافتها.

## المهم أن ينجح المؤمن في كل هذه الابتلاءات

الجوع شهوة غالبة إلى الطعام، وهو ضروري لاستبقاء الحياة، ومن رحمة الله بالإنسان أن ضمن له في ذاته غذاء يدّخره من وقت رخائه لينفعه وقت شدته،

على صورة شحم، فإذا انتهى الشحم يأخذ من اللحم، وإذا انتهى اللحم يأخذ الجسم غذاءه من العظم، من أجل أن يستبقي الإنسان الحياة. والله سبحانه حين يعدّنا هذا الإعداد، فإذا نجحنا فيه تكون لنا البشرى، لأننا صبرنا على كل هذه المنغصات: صبر على الخوف، وصبر على الجوع، وصبر على نقص الأموال، وصبر على نقص الأنفس، وصبر على نقص الثمرات، فالمهم أن ينجح المؤمن في كل هذه الابتلاءات؛ حتى يواجه الحياة صلبا؛ ويواجه الحياة قويا.

## قال: ﴿مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾ ولم يقل: (علينا)

﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾[1].

والمصيبة هي الأمر الذي ينال الإنسان منه المشقة والألم، والمؤمن يستقبل المصيبة واثقا أنها على قدر إيلامها يكون الثواب عليها، ولذلك عندما فرح الكفار بها أصاب المسلمين في بعض المعارك، أنزل الله: ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا﴾[2] أي قولوا أيها المؤمنون لهؤلاء الحمقى من الكفار: إنه لن يحدث لنا إلا ما كتبه الله ﴿لَنَا﴾، أي أن المسألة ستكون لحسابنا، وسنأخذ عليها حسن الثواب، ولم يقل: كتب الله (علينا)، لأنها لو كانت كذلك لكان معناها أنها جزاء وعقاب.

---

(١) [البقرة: ١٥٦].

(٢) [التوبة: ٥١].

## هل رأيت إنسانا يُفسد ملكه؟

ثم يدعونا أن نقول: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾، إننا بهذا القول ننسب ملكيتنا إلى الله، ونقبل ما حدث لنا، ولا بد لنا هنا أن نأتي بمثال: هل رأيت إنسانا يفسد ملكه؟ أبداً، فما بالنا بالله ﷻ ونحن ملك له، وهو سبحانه لا يُعرِّض ملكه أبداً للضرر، وإنما يُقيمه على الحكمة والصلاح.

## هذا يجرّد الإنسان من أوهام تملأ حياته

﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ١٥٧﴾[1].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بالصبر المذكور﴿عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾ أي: ثناء وتنويه بحالهم ﴿وَرَحْمَةٌ﴾ عظيمة، ومن رحمته إياهم، أن وفّقهم للصبر الذي ينالون به السلامة من الندم على الأفعال والأقوال إن صدرت وقت الغضب، وينالون كمال الأجر﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ١٥٧﴾ الذين عرفوا الحقيقة، وهو في هذا الموضع، علّمهم بأنهم لله، وأنهم إليه راجعون، وهذا يجرّد الإنسان من أوهام وأوجاس تملأ حياته، قد يظن بأنه وقعت عليه أحداث ووقع عليه ظلم، قد يخسر الإنسان ماله كله في مصيبة، أو يخسر الإنسان ابنه الوحيد في حادث، فيتألم ويتحسّر، ويدخل في حالة نفسية من ضيق وكآبة، ولكن حينما يَصبر ويُصبّر نفسه، تنزل عليه رحمة الله، ويهتدي، فيخفّ همّه، ويخرج من هذا الحال.

---

(١) [البقرة: ١٥٧].

## السعي بين الصفا والمروة، هل هو ركن؟!

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾[1].

عندما غفل الناس عن عبادة الله، ودخلت عبادة الأصنام في الجزيرة العربية، أوجدوا على جبل الصفا صنما، وعلى المروة صنما، وكانوا يترددون بينهما، لا بين الصفا والمروة، لقد نقلوا العبادة من خالصية التوحيد إلى شائبية الوثنية، فلما جاء الإسلام، تحرّج المسلمون أن يسعوا بين الصفا والمروة. وساعة نقول: لا جناح عليك أن تفعل كذا، فمعنى ذلك أنك إن فعلت فلا إثم عليك، وليس فرضاً في أن تفعل، وهذا ما جعل بعض الناس يقولون: إن السعي بين الصفا والمروة ليس ركنا من أركان الحج، ونقول لهؤلاء: هذه آية جاءت لسبب، وهو أنهم كانوا يتحرّجون من الطواف في مكان يطوف فيه المشركون.

## كتموا ﴿ٱلْبَيِّنَٰتُ﴾ التي تثبت نبوءة محمد

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾﴾[2].

يبيّن الله لنا موقف الجزاء من الذين يكتمون ما أنزل الله، لقد كتم بعض من

---

(١) [البقرة: ١٥٨].

(٢) [البقرة: ١٥٩].

أهل الكتاب البينات التي أنزلها الله في الكتاب (التوراة والإنجيل) والذي يُدعى اليوم الكتاب المقدس الذي معهم، أنزل فيه بينات تثبت صدق محمد ﷺ في نبوته، وهذا الكتمان سيورّث شرورا، وكلما نال العالم شراً من كتمانهم فسيلعنهم لعنات متتابعة إلى أن تقوم الساعة.

## استثناءات

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَـٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٠﴾[1].

أي أعلنوا التوبة وهي أمر ذاتي، وأصلحوا بمقدار ما أفسدوا، وبيّنوا للناس ما كتموا، إذن شرط التوبة أن يعود كل حق لصاحبه، فالذي كتم شيئا عليه أن يبينه، فالكتمان لا يؤثر فقط في العلاقة بين العبد والرب، ولكنه يضر العباد، فأي إنسان يذنب ذنبا لا بد أن يصلح هذا الذنب من جنس ما فعل، فإن فعل ذنبا سرا فيكفيه أن يتوب سرا، أما إن كسر حدود الله علنا، وكان أسوة سيئة لأناس يجعلهم يتجرأون، لا بد أن تعلن توبتك أمام الناس جميعاً.

## وقت الإمهال انتهى وقد فات الأوان

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٌ أُوْلَـٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١ خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ١٦٢﴾[2].

---

(١) [البقرة: ١٦٠].

(٢) [البقرة: ١٦١-١٦٢].

وأما من كفر واستمر على كفره، ولم يلجأ ويرجع إلى ربه حتى مات، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةُ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ١٦١﴾ لأنه لما صار كفرهم وصفا ثابتا، صارت اللعنة عليهم وصفا ثابتا لا تزول، لأن الحكم يدور مع علته، وجودا وعدما. ﴿لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ﴾ بل عذابهم دائم شديد مستمر لا يُحتمل ﴿وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٢٩﴾ أي: يُمهَلون، لأن وقت الإمهال وهو زمن الدنيا قد مضى وانتهى، وقد انتقلوا إلى عالم آخر، ولم يبق لهم عذر بعد أن فات الأوان.

## إن أحدا من المخلوقين لا ينفع أحدا

﴿وَإِلَٰهُكُمۡ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ١٦٣﴾[1].

فإذا كان كذلك، فهو المستحق لأن يُعبد بجميع أنواع العبادة، وهو ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ٢٢﴾ المتصف بالرحمة العظيمة، التي لا يماثلها رحمة أحد، فقد وسعت كل شيء وعمت كل شيء، فبرحمته وجدت المخلوقات، وبرحمته اندفع عنها كل نقمة، وبرحمته عرّف عباده نفسه، وبيَّن لهم كل ما يحتاجون إليه من مصالح دينهم ودنياهم، بإرسال الرسل، وإنزال الكتب. فإذا عُلم أن نعم العباد كلها من الله، وأن أحدا من المخلوقين لا ينفع أحدا، عُلم أن الله هو المستحق لجميع

---

(١) [البقرة: ١٦٣].

أنواع العبادة، وأن يُفرد بالمحبة والخوف، والرجاء، والتعظيم، والتوكل، وغير ذلك من أنواع الطاعات.

وأن من أظلم الظلم وأقبح القبيح، أن يعدل عن عبادته إلى عبادة مخلوق من تراب أو أي عنصر آخر من عناصر الأرض.

## أمور عجيبة، تلفت إلى أن موجدها أعظم منها

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ١٦٤﴾[1].

إن الله برحمته خلق الإنسان منعِماً عليه، وخلق كل ما في الكون نعمة له، ويلفتنا إلى الدليل على هذه القضية بالكون نفسه، ويحدد مظاهر في الكون لم يدّع أحدٌ أنه خلقها وأوجدها، فإذا ما جاء الناس الذين لا يؤمنون بالإله الواحد يزحزحون الألوهية إلى سواه نقول لهم: هذا الكون العجيب الذي يتمثل في الأرض، ويتمثل في السماء، ويتمثل في اختلاف الليل والنهار، ويتمثل في الفلك التي تجري في البحر، ويتمثل في ما أنزل الله من السماء من ماء، ويتمثل في السحاب المسخر بين السماء والأرض؛ كل هذه الآيات من أمور عجيبة، تلفت إلى أن موجدها أعظم منها.

---

(١) [البقرة: ١٦٤].

## لم يوجد إلى الآن من يجرؤ على هذه الكلمة!

وسبحانه يريد أن ينبه العقل، ليستنبط من هذه الآيات العجيبة صدق الله في قوله: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ لأنه ليس من المعقول أن يخلق غير الله كل ذلك الخلق ثم يسكت عنه! فضلا عن أن أحداً لم يدّع أنه خلقها، وما دام لم يدّع أحدٌ ذلك، ورغم الكفر والعناد لم يدع أحد هذه القضية قط، أو يقول أحدٌ: أنا لي الملك، ولم يوجد إلى الآن من يجرؤ على هذه الكلمة، وهذا دليل على أن الله واحد.

## أين يا رب من قلت عنهم إنهم مضللون؟

إن خلق السماوات والأرض وخلقكم هو أمر غيبي، ومادام أمراً غيبياً فلا رائي له ولا مشاهد له إلا الذي خلقه، فخذوا علم الخلق منه، ولذلك قال ﷻ: ﴿۞مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا ۝٥١﴾[1]. فيجب أن نحذّر هؤلاء المضللين الذين يحاولون إضلالنا بقضايا ليست حقيقية، بأن الله قد علم أزلا بأنه سيوجد قوم يقولون: إن السماء والأرض خلقتا بطريق الصدفة! والإنسان خلق عن طريق الصدفة! وعندما نسمع هؤلاء نقول: هؤلاء هم المضللون، وقد نبهنا الله أزلا إليهم، فوجود المضللين هو عين الدليل على صدق الله، هؤلاء الذين قالوا: الأرض كانت

---

(١) [الكهف: ٥١].

جزءا من الشمس وانفصلت عنها، والإنسان أصله قرد، لأنه لو لم يوجد مضللون لقلنا: أين يا رب ما قلت عنهم إنهم مضللون؟

## عملية التقطير الإلهي!

وقوله الحق: ﴿وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ﴾ فهل يعني هذا القول أن الماء في السماء؟ لا، إن الماء أصله في الأرض، لكن ماء الأرض الثابت لا ينفع لريّنا ولا لري زرعنا، كيف يمكننا ريّ مساحات واسعة جدا من الأراضي لولا هطول المطر من السماء؟ إنها ستكون عملية شاقة أو مستحيلة على مدار السنة والفصول! والذي يوجد على الأرض منه هو مخزون فقط، ولذلك وضع الله له المواد الكيماوية الذاتية التي تجعله لا يفسد ولا تتغير صفاته وطبيعته، ثم تتسع رقعة الماء على قدر اليابس ثلاث مرات، لماذا؟ لأن الله يريد أن تتسع صفحة الماء اتساعا يجعل للبخار مصادر كبيرة وواسعة، هذا البخار هو عملية التقطير الإلهي، فكوب واحد من الماء المقطر يستغرق وقتا، ويستلزم جهدا وتكاليف، بينما المعمل الإلهي يدر لنا ماءً غدقاً لا حصر لكمياته، إن هذا المعمل يعمل ونحن لا ندري.

## الجو الحار يصبح لطيفا بلا مكيّف

ومعنى تصريف الرياح هو التحويل والتغيير، أي توجيه الرياح إلى نواح مختلفة، وعندما نتأمل عملية الاستطراق في الهواء نجد أنها تعطي اعتدالا

مزاجيا للهواء، فمرة يأتي من ناحية حارة؛ ليهب على المناطق الباردة، ومرة يأتي من المناطق الباردة؛ فيهب على المناطق الحارة، ليصبح الجو الحار لطيفا لا يحتاج إلى مكيّف، بل يكون في غنى عن مكيفات الأرض، وهذا التصريف نعمة من نعم الله، فلو كانت الرياح ثابتة لصارت مرهقة للبشر.

## ننتفع بالمطر مجانا

﴿وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ سخر الله لنا السحاب يجوب في السماء من أجلنا، ننتفع بزخات المطر مجانا، ننتفع به دون تعب أو مشقة، أو بذل مال أو توجيه طائرات، قد تنتفع بمطر ينزل من سحابة في غير مكانك، ربما في بلاد أخرى بعيدة، ونحن ننتفع في مصر بماء النيل برغم أن المطر ينزل في جنوب السودان، وفي هضاب الحبشة، فينتقل لنا الماء عبر أنهار وينابيع في الأرض، ولو اقتصرنا على الماء الذي ينزل من سماء مصر لكنا قد هلكنا عطشا.

## لا يخدع نفسه ويقول: يا صنم أنقذني!

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾﴾[1].

(١) [البقرة: ١٦٥].

فكما يُحب المؤمن ربه، يحب الكافر إلهه، لماذا؟ لأن هذا هو الحب الذي لا يختلف عليه أحد، ولكن حبّ هؤلاء المشركين للآلهة المزيفة حبّ زائف ومختلف؛ فعندما يمسّ المشرك الضرّ، يضرع إلى الله وليس إلى الآلهة المزيفة، لأن المشرك يكتشف بفطرته كذبه على نفسه، ولذلك إذا عزت عليه الأسباب، ووقع في مأزق فهو لا يخدع نفسه ويقول: يا صنم أنقذني: وإنما يقول: يا رب أنقذني.

## لكل عصر أصنامه من البشر!

فلهذا توعدهم الله بقوله: ﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ﴾ باتخاذ الآلهة من التماثيل والأصنام في تلك الفترة، ولكل عصر آصنامه وتمائيله، فالانقياد لأصحاب النفوذ والسيادة، هذا فخامته وهذا سيادته وهذا عطوفته، اجتماع مجلس الوزراء يبدأ وقت إقامة الصلاة! ويستمر إلى بعد انتهاء وقتها ووقت الصلاة التي تليها! فلا أحد يقوم فيصلي! لا في وقت الأولى ولا في وقت الثانية! إنها عبودية لغير رب العباد، إن هؤلاء مجرد تماثيل وأصنام وإن كانوا بشرا، لكن هؤلاء بلا إحساس وبلا عقل، ظلموا أنفسهم وظلموا الخلق بصدّهم عن عبادة الله، وسعيهم فيما يضرهم.

﴿إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ ١٦٥﴾ أي: يوم القيامة يرون العذاب عيانا بأبصارهم، ﴿أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ١٦٥﴾ أي: لعلموا علما جازما، أن القوة والقدرة لله كلها، وأن آلهتهم من البشر أو الحجر أو البقر أو النار أو أي عنصر

من عناصر الأرض، ليس فيها من القوة شيء، فتبين لهم في ذلك اليوم ضعفها وعجزها، لا كما اشتبه عليهم في الدنيا، فخاب ظنهم، ولم يدفع عنهم (فخامته وسيادته) شيئا، بل يحصل لهم الضرر منها، من حيث ظنوا نفعها.

## هل بعد هذا الخسران خسران؟

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ١٦٦﴾[1].

وتبرأ المتبوعون (سيادته وفخامته) من التابعين، وتقطعت بينهم المصالح وتعطلت المحسوبيات التي كانت في الدنيا، لأنها كانت لغير الله، وعلى غير أمر الله، ومتعلقة بالباطل الذي لا حقيقة له، فاضمحلت أعمالهم، وتلاشت أحوالهم، وتبين لهم أنهم كانوا كاذبين، وأن أعمالهم التي يؤملون نفعها وحصول نتيجتها، انقلبت عليهم حسرة وندامة، وأنهم خالدون في النار لا يخرجون منها أبدا، فهل بعد هذا الخسران خسران؟ حينئذ يتمنى التابعون أن يُردّوا إلى الدنيا فيتبرأوا من متبوعيهم، ويُقبلوا على إخلاص العمل لله، وهيهات، فات الأمر وفات الأوان. ومع هذا، فهم كَذَبَة، فلو ردوا لعادوا لما نهوا عنه، وإنما هو قول يقولونه، وأماني يتمنونها، حنقا وغيظا على المتبوعين لما تبرأوا منهم والذنب ذنبهم، فرأس المتبوعين على الشر إبليس، ومع هذا يقول

(١) [البقرة: ١٦٦].

لأتباعه لما قضي الأمر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾.

## ندموا يوم لا ينفع الندم!

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُواْ مِنَّاۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ١٦٧﴾[١].

إن تبرؤ الذين اتَّبَعُوا من الذين اتُّبِعُوا لن ينفعهم، وتمنيهم أن تكون لهم عودة ليتبرأوا منهم لن يُجدي، ويريهم الله أعمالهم التي سبقت حسرات عليهم، ولا تكون الحسرة إلا إذا أصيب الإنسان بمصيبة لا منأى من النجاة منها، ولن ينفعهم ندمهم على ما سبق من أعمالهم السيئة، ولن يجدي هذا الندم في إخراجهم من النار.

## هذا عطاء الربوبية لكل البشر

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ١٦٨﴾[٢].

(١) [البقرة: ١٦٧].

(٢) [البقرة: ١٦٨].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فكأنه خلق ما في الأرض جميعا للناس جميعا، وهذا عطاء الربوبية لكل البشر، من آمن منهم ومن لم يؤمن، فهو سبحانه خلق كل الخلق، مؤمنهم وكافرهم، ومادام قد خلقهم واستدعاهم إلى الوجود فهو يوجه الخطاب لهم جميعا؛ مؤمنهم وكافرهم؛ وكأن الخطاب يقول للكافرين: حتى ولو لم تؤمنوا بالله، فخذوا من المؤمنين الأشياء الحلال واستعملوها لأنها تفيدكم في دنياكم؛ لأن من مصلحتكم أن تأكلوا الحلال الطيب، فالله لم يحرم إلا كل ضار.

## مادام اللّه قد حرّم شيئا فلماذا خلقه؟

هنا موقف يقفه كثير من الذين يحبون أن تكون قضية التحريم والتحليل قضايا كاذبة؛ لأنه لا ينجيهم أمام أنفسهم إلا أن يجدوا أشياء يكذّبون بها الدين، لأنهم لم يستطيعوا أن يحملوا أنفسهم على مطلوبات الله، فلم يجدوا منفذا لهم إلا أن يقولوا: إن قضايا الدين كاذبة بما فيها التحليل والتحريم، إنهم يقولون: مادام الله قد حرم شيئا فلماذا خلقه في الكون؟ كأنهم يعتقدون أن كل مخلوق في الأرض قد خُلق ليؤكل، وما علموا أن لكل مخلوق في الأرض مهمّة.

### نضرب مثلا للتوضيح:

هم الآن يمسكون الحيات والثعابين ليستخلصوا منها السموم؛ حتى يقتلوا بها الميكروبات التي تقتل الإنسان، وكانوا قبل اكتشاف فائدة السم في الثعبان

يتساءلون: وما فائدة خلق مثل هذه الثعابين؟ فلما أحوجهم الله وألجأهم إلى أن يستفيدوا بما في الثعابين من سم؛ ليجعلوه علاجاً، أدركوا حكمة الله من خلق هذه الأنواع، لقد خلقها لا لنأكلها، وإنما لنعالج بها.

### نضرب مثلا آخر:

ومنها المبيدات الحشرية، وبعض أنواع الحيوانات والطيور، فإنها تحافظ على البيئة، بالقضاء على الميكروبات والآفات والحشرات الضارة، ومادام الحكيم هو الذي خلق؛ فلا يعترض أحد ويقول لماذا خلق كذا وكذا؟ لأن لكل مخلوق دوراً يؤديه في الكون، وقد أثبت الواقع؛ أن الكافرين يلجأون إلى منهج الله في بعض القضايا؛ ليحلوا مشاكل حياتهم، لا بدين الله كدين، ولكن بأوامر الله كنظام.

## أكبر طرق الشيطان

﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلۡفَحۡشَآءِ وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ١٦٩﴾[1].

السوء هو كل ذنب لا حدّ فيه، مثل الغيبة أو النميمة، والفحشاء هي كل ذنب فيه حد وفيه عقوبة. قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَأۡمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ﴾ أي :الشر الذي يسوء صاحبه، فيدخل في ذلك، جميع المعاصي، وقوله: ﴿وَٱلۡفَحۡشَآءِ﴾ ما تناهى قبحه

(١) [البقرة: ١٦٩].

من المعاصي، كالزنا، وشرب الخمر، والقتل، والقذف، مما يستفحشه من له عقل، ﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ٣٣﴾ يدخل في ذلك القول على الله بلا علم، في شرعه، وقدره، كمن قال: إن الله أحل كذا أو حرم كذا أو أمر بكذا، أو نهى عن كذا، بلا علم، فقد كذب على الله، أو تأوّل متأوّل كلام الله أو كلام رسوله، ثم يقول: إن الله أرادها، فالقول على الله بلا علم من أكبر المحرمات، وأشملها، وأكبر طرق الشيطان التي يدعو إليها، ويبذلون مكرهم وخداعهم على إغواء الخلق.

## لماذا يتّبعون آباءهم في الأمور الزائفة؟!

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ١٧٠﴾[(١)].

هذه الآية تعالج قضية خطيرة في المجتمع الإسلامي، قضية تقليد الناس لعادات آبائهم، والتقليد هو نشأة طبيعية في الإنسان، فالطفل الصغير حين يريد أن يتحرك، فهو يقلد حركة الذين حوله، فتنشأ حركات مختلطة تمثل الأجيال كلها. وحين يدعو الله الناس، فهو ينهاهم أن يتبعوا تقليد الآباء في كل حركاتهم، لأنه قد تكون حركة الآباء قد اختلت بالغفلة عن المنهج أو بنسيان المنهج، لذلك يدعونا سبحانه، ويأمرنا أن ننخلع عن هذه الأشياء، ونتبع ما

---

(١) [البقرة: ١٧٠].

أنزل الله من السماء، ولا نهبط إلى مستوى الأرض. ﴿أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ۝١٧٠﴾ أي: أيتبعون ما وجدوا عليه آباءهم حتى ولو كان آباؤهم لا يعقلون ولا يهتدون؟ لماذا يتبعون آباءهم في المنهج الباطل، ولا يتبعونهم في باقي أمور الدنيا، في الملابس، وفي الأكل، وفي كل مناحي الحياة؟ إذن فلا شيء قد جعلهم يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم إلا لأنهم وجدوا فيه ما يوافق هواهم، بدليل أنهم انسلخوا عن تبعيتهم لآبائهم في أشياء رأوها في سلوك الآباء وخالفوهم فيها، وماداموا قد خالفوهم في أشياء كثيرة؛ فلماذا يتبعونهم في الدين الزائف؟

## ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ كالدوابّ!

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝١٧١﴾[1].

والذي ينعق هو الذي يُصَوِّتُ ويصرخ للبهائم، وهو الراعي، ليلفت الماشية لتسير خلفه، وهو لا يقول لها ما يريده أن تفعله، وإنما ينبّهها بالصوت إلى ما يريد، فكأن الماشية لا تفهم من الراعي إلا النداء والدعاء، فهي لا تعرف الهدف منه، ومثل الذين كفروا بالرسول كمثل الماشية مع الراعي، فهم لا يسمعون إلا

(١) [البقرة: ١٧١].

مجرد الدعاء، مع الفارق؛ أن الدواب ليس مطلوبا منها أن ترد على من يناديها، لذا كان الكافرون شر الدواب، فهم مصابون بالصم والبكم والعمى.

## الله لا يكلف إلا من يؤمن!

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا رَزَقْنَـٰكُمْ وَٱشْكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿١٧٢﴾﴾[1].

عدل الله اقتضى ألا يكلف إلا من يؤمن، وهذا على خلاف مألوف البشر، لأن تكليفات القادة من البشر للبشر تكون لمن يرضى بقيادتهم ومن لم يرض، وإذا كان للقائد من البشر قوة، فإنه يستخدمها لإرغام من يوجدون تحت ولايته على تنفيذ ما يقول.

## لماذا حرم الله الميتة؟

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ ٱلْمَيْتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحْمَ ٱلْخِنزِيرِ وَمَآ أُهِلَّ بِهِۦ لِغَيْرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٧٣﴾﴾[2].

نظرة بسيطة إلى دجاجتين، إحداهما مذبوحة أريق دمها، والأخرى منخنقة، فإننا نجد اختلافا ظاهرا في اللون، واختلافا في الطعم، سنجد طعم الدجاجة

---

(١) [البقرة: ١٧٢].

(٢) [البقرة: ١٧٣].

المذبوحة مقبولا، وسنجد طعم الدجاجة الميتة غير مقبول، وكان الذين لا يؤمنون بإله أو بمنهج يقومون بذبح الحيوانات قبل أكلها، لماذا؟ لقد هدتهم تجاربهم إلى أن هذه عملية فيها مصلحة، وإن لم يعرفوا طريقة الذبح الإسلامية. وحين يحرم الله ﴿ٱلْمَيْتَةُ﴾ فليس هناك أحد منا مطالب أن يجيب عن الله؛ لماذا حرم الميتة؟ لأنه يكفينا أن الله قال: إنها حرام، ولو لم يكن فيها ضرر نعلمه، وهو الذي يأمرك بألا تأكلها، فليس من حقك بعد ذلك أن تسأل لماذا حرمها عليّ؟

## نؤمن بالاكتشافات العلمية أم بالله؟!

وحرم الله **«لحم الخنزير»** وقلنا إن علة الإقبال عليه الحكم هو أمر الله به، لكن لو انتظرنا وأجّلنا تنفيذ حكم الله حتى نتأكد من علة التحريم؛ لكُنّا نؤمن بالعلماء والاكتشافات العلمية قبل أن نؤمن بالله، لأننا إن انتظرنا حتى يقول العلماء كلمتهم؛ فقد اعتبرنا العلماء آمن علينا من الله! وهل يوجد مخلوق آمن على مخلوق من الخالق؟

## أفلا يغفر الله للمضطر؟

ونتساءل: ما علاقة ﴿غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣٠﴾ بهذه الآية؛ نقول: إذا كان الله يغفر مع الذنب، أفلا يغفر مع الضرورة التي شرع لها الحكم، إن المنطق يقول: إن الله يغفر الذنب الذي يحدث بلا مناسبة تستدعيه، أفلا يغفر للمضطر الذي أجبرته

الظروف على أكل الميتة؟ إن الله غفور في الأصل أفلا يغفر لمن أعطاه رخصة؟

## أرادوا امتلاء بطونهم شهوة ولذة!

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَشۡتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٤﴾[1].

الذين يكتمون ما أنزل الله، إنما يصادمون منهج السماء، وهذا لا يتأتى إلا من إنسان يريد أن ينتفع بأهواء الحياة؛ يتمتع بالشهوات ويأكل أموال الناس، فحين يكتمون ما أنزل الله، فقد أصبحوا عوائق لمنهج الله الذي جاء ليسيطر على حركة الحياة، وما نفعهم في ذلك؟ لا بد أن يوجد نفع لهم كانوا يأخذوه من أتباعهم، ليجعلوا أحكام الله على مقتضى أهواء الناس وشهواتهم، هذا النفع مهما علا بالتقدير البشري، فهو ثمن قليل وعمره قصير، كما أرادوا امتلاء بطونهم شهوة ولذة، فكذلك يجعل الله العذاب لهم من جنس ما فعلوه بالثمن القليل الذي أخذوه، فهم أخذوا ليملأوا بطونهم من خبيث ما أخذوا، وسيملأ الله بطونهم ناراً.

---

(١) [البقرة: ١٧٤].

## ما الذي يعطيه الأمل في أن يصبر على النار؟!

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡعَذَابَ بِٱلۡمَغۡفِرَةِۚ فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾[١].

﴿فَمَآ أَصۡبَرَهُمۡ عَلَى ٱلنَّارِ ١٧٥﴾ هذا تبشيع للعقاب حتى يُنَفِّر منه الناس، ويريد منا الله أن نتعجب، كيف يجوز للضال أن يترك الهدى ويأخذ الضلال، وبعد ذلك تكون النتيجة أن يأخذ العذاب ويترك المغفرة، فما الذي يعطيه الأمل في أن يصبر على النار؟ هل عنده صبر إلى هذا الحد يجعله يقبل على الذنب الذي يدفعه إلى النار؟

## شقة الخلاف واسعة

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخۡتَلَفُواْ فِي ٱلۡكِتَٰبِ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ١٧٦﴾[٢].

إنها هوة واسعة يسقطون فيها، فالشقاق في القيم المنهجية السماوية هو هوّة كبيرة، فلو كان الخلاف في أمور مادية لأمكن للبشر أن يتحملوها فيما بينهم، ولكن الخلاف في أمر قيمي لا يقدر البشر على أن يصلحوه فيما بينهم، من هنا فإن شقة الخلاف واسعة، ولا يقوى على حلها إلا الله.

---

(١) [البقرة: ١٧٥].

(٢) [البقرة: ١٧٦].

## في هذه الآية أكبر العبادات

﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[1].

أي: ليس الخلاف حول القبلة هو البر المقصود من العباد، فيكون كثرة البحث فيه والجدال من العناء الذي ليس تحته إلا الشقاق والخلاف ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾ وهو كل ما أخبر الله به في كتابه، أو أخبر به الرسول، مما يكون بعد الموت. ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ﴾ قليلا كان أو كثيرا ﴿عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾ بيَّن به أن المال محبوب للنفوس، فلا يكاد يخرجه العبد، فمن أخرجه مع حبه له تقربا إلى الله تعالى، كان هذا دليلا على إيمانه، ومن إيتاء المال على حبه، أن يتصدق وهو صحيح شحيح، يأمل الغنى ويخشى الفقر، وكذلك إذا كانت الصدقة عن قلة كانت أفضل، لأنه في هذه الحال يحبّ إمساكه، لما يتوهمه من العدم والفقر. ثم ذكر المنفق عليهم، وهم أولى الناس من الأقارب الذين تتوجع لمصابهم وتفرح بسرورهم، على حسب قربهم وحاجتهم. ﴿وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾

(١) [البقرة: ١٧٧].

وهم الذين أسكنتهم الحاجة، وأذلهم الفقر، فلهم حق على الأغنياء بما يتيسر ﴿وَٱبۡنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وهو الغريب المنقطع به في غير بلده، يعطيه ما يعينه على سفره، على حسب استطاعته، ﴿وَٱلسَّآئِلِينَ﴾ أي: الذين تعرض لهم جائحة أو حريق أو كارثة أو حالة إفلاس مالي توجب السؤال، أو يسأل الناس لتعمير المصالح العامة، كالمساجد، والمدارس، والمستشفيات ونحو ذلك، فهذا له حق وإن كان غنيا ﴿وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ ويدخل فيه تحرير العبيد من الرق، كما هو موجود الآن في الدول في العالم، وفداء الأسرى في الحروب، أو فداء شخص تم خطفه عند عصابة مقابل فدية. ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ تقدم أن الله تعالى يقرن بين الصلاة والزكاة لكونهما أفضل العبادات، ﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ﴾ والعهد: دخل في ذلك حقوق الله كلها، لكون الله ألزم بها عباده والتزموها، ووجب عليهم أداؤها، وحقوق العباد التي أوجبها الله عليهم، والحقوق التي الزمها العبد على نفسه كالأيمان والنذور ﴿وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ﴾ أي: الفقر، لأن الفقير يحتاج إلى الصبر من وجوه كثيرة، لكونه يحصل له من الآلام النفسية والبدنية المستمرة ما لا يحصل لغيره، فإن رأى الأغنياء يتنعمون تألم، وإن جاع أو جاعت أسرته تألم، وإن أكل طعاما غير موافق لهواه تألم، فكل هذه مصائب يؤمر بالصبر عليها، ﴿وَٱلضَّرَّآءِ﴾ أي: المرض على اختلاف أنواعه، حتى وجع الأسنان فإنه يحتاج إلى الصبر على ذلك؛ لأن

النفس تضعف، والبدن يتألم، وذلك في غاية المشقة على النفس، ﴿وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ﴾ أي: وقت قتال الأعداء، لأن الإنسان يجزع من القتل، أو الجراح أو الأسر، فاحتيج إلى الصبر في ذلك، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ﴾ في إيمانهم، لأن أعمالهم صدّقت إيمانهم، ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ١٧٧﴾ لأن الوفاء بالعهد، يدخل فيه الدين كله، ولأن العبادات المنصوص عليها في هذه الآية أكبر العبادات، ومن قام بها كان بما سواها أقوم، فهؤلاء هم الأبرار المتقون.

## اللّه تعالى يحسم المغالاة في الثأر

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَىۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰۚ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعُۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٧٨﴾[(١)].

إن الله سبحانه، يضع لمسألة الثأر الضوابط، وهو سبحانه لم يُشَرِّعْ أن الحر لا يُقتل إلا بالحر، وإنما مقصد الآية أن الحر يقتل إن قتل حراً، والعبد يقتل إن قتل عبداً، والأنثى مقابل الأنثى، هذا هو إتمام المعادلة، فجزاء القاتل من جنس ما قتل، لا أن يتعداه القتل إلى من هو أفضل منه، فالله هنا يضع منهجاً يحسم المغالاة في الثأر.

(١) [البقرة: ١٧٨].

## أخوّة الإيمان فوق أخوّة الدم

وقوله تعالى: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ﴾ كأنه يحثّ وليّ الدم على أن يعفو ولا ينسى أخوة الإيمان، صحيح أنه وليّ للمقتول؛ لأنه من لحمته ونسبه، ولكن الله أراد أن يجعل أخوة الإيمان فوق أخوة الدم، وقد أورد الحق الأخوة هنا لترقيق المشاعر، لينبه أهل القاتل والقتيل معاً أن القتل لا يعني أن الأخوة الإيمانية انتهت، لا، إن على المؤمنين أن يضعوا في اعتبارهم أن أخوة الإيمان قد تفتر رابطتها، وحين يتذكر أولياء الدم أخوة الإيمان، فإن العفو يصبح قريباً من نفوسهم، ولنا أن نلاحظ أن الحق يرفعنا إلى مراتب التسامي.

## سبب الثارات الموجودة اليوم؟

والثارات الموجودة في المجتمعات المعاصرة، سببها أننا لم نُمكن وليّ الدم من القاتل، بدليل أنه إذا ما قدر قاتل على نفسه، وذهب إلى أهل القتيل، ودخل عليهم بيتهم، وبالغ في طلب العفو منهم، وأخذ كفنه معه وقال لهم: جئتكم لتقتصوا مني، وهذا كفني معي فاصنعوا بي ما شئتم، لم يحدث قط أن أهل قتيل غدروا بقاتل، بل المألوف والمعتاد أن يعفوا عنه، لماذا؟ لأنهم تمكنوا منه وأصبحت حياته بين أيديهم، وفي العادة تنقلب العداوة إلى مودة، فيظل القاتل مدينا بحياته للذين عفوا عنه، والذين يعرفون ذلك من أبناء القاتل يرون أن حياة أبيهم هبة وهبها لهم أولياء القتيل وأقرباؤه، يرون أن عفو أهل القتيل هو الذي نَجّا حياة قريبهم، وهكذا تتسع الدائرة، وتنقلب المسألة من عداوة إلى ودّ.

## خيارات الجزاء: القتل أو الدّية أو العفو

فالله لا يريد من أولياء الدم أن يرهقوا القاتل أو أهله في دفع الدية، كما يريد أن يؤدي القاتل أو أهله الدية بأسلوب يرتفع إلى مرتبة العفو الذي ناله القاتل، وفي ذلك الأمر تخفيف عما جاء بالتوراة؛ ففي التوراة لم تكن هناك دية يفتدى القاتل بها نفسه، بل كان القصاص بأسلوب واحد هو قتل إنسان مقابل إنسان آخر، وفي الإنجيل لا دية ولا قتل، فجاء بمبدأ: «من صفعك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر» ولكن الإسلام قد جاء ديناً عاماً جامعاً شاملاً، فيثير في النفس التسامي، ويضع الحقوق في نصابها، فأبقى القصاص، وترك للفضل مجالاً. إن الحق يرفع العقاب والعذاب عن القاتل إذا قَبِل القصاص ونفذ فيه، أو إذا عُفي عنه إلى الدية وأداها، ولكن الحق لا يقبل أن يتستر أهل قتيل وراء العفو، ليقتلوا القاتل بعد أن أعلنوا العفو عنه، فذلك عبث بما أراده الحق منهجاً بين العباد.

## القاتل عليه أن يتحمل مسئولية ما فعل

﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾[1].

إن القصاص مكتوب على القاتل والمقتول ووليّ الدم، فإذا علم القاتل أن الله قد قرر القصاص فإن هذا يفرض عليه أن يسلم نفسه، وعلى أهله ألا يخفوه بعيداً

(١) [البقرة: ١٧٩].

عن أعين الناس؛ لأن القاتل عليه أن يتحمل مسئولية ما فعل، وحين يجد القاتل نفسه محوطاً بمجتمع مؤمن يرفض القتل فإنه يرتدع ولا يقتل، إذن ففي القصاص حياة؛ لأن الذي يرغب في أن يقتل يمكنه أن يرتدع عندما يعرف أن هناك من سيقتص منه، وأن هناك من لا يقبل المداراة عليه.

## سيفكّر ألف مرة قبل أن يرتكب جريمة

ونأتي بعد ذلك للذين يتشدّقون ويقولون: إن القصاص وحشية وإهدار لآدمية الإنسان، ونسألهم: لماذا أخذتكم الغيرة لأن إنساناً يقتص منه بحق وقد قتل غيره بالباطل؟ ما الذي يحزنك عليه.إن العقوبة حين شرّعها الله لم يشرّعها لتقع، وإنما شرّعها لتمنع. ونحن حين نقتص من القاتل نحمي سائر أفراد المجتمع من أن يوجد بينهم قاتل لا يحترم حياة الآخرين، وفي الوقت نفسه نحمي هذا الفوضوي من نفسه؛ لأنه سيفكر ألف مرة قبل أن يرتكب جريمة، فلولا القصاص لما ارتدع أحد، ولولا القصاص لغرقت البشرية في الوحشية.

## لا يتجاوز الثلث

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ ۝١٨٠﴾[1].

﴿تَرَكَ خَيْرًا﴾ أي: مالا، وهو المال الكثير في عرف الناس. فَرَض الله عليكم إذا

---

(١) [البقرة: ١٨٠].

حضر أحدُكم علامات الموت ومقدماته، إن ترك مالا فعليه الوصية بجزء من ماله للوالدين والأقربين مع مراعاة العدل; فلا يدع الفقير ويوصي للغني أو العكس، ولا يتجاوز الثلث، وذلك حق ثابت يعمل به أهل التقوى الذين يخافون الله. وكان هذا قبل نزول آيات المواريث التي حدَّد الله فيها نصيب كل وارث.

## المسؤولية تقع على مَن غيَّر وبدَّل

﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ١٨١﴾[1].

فمَن غَيَّر وصية الميت بعدما سمعها منه قبل موته، فإنما تقع المسؤولية والذنب على مَن غيَّر وبدَّل، ويتحمل مسؤولية ذلك أيضا على المدى البعيد، إن الله سميع لوصيتكم وأقوالكم، عليم بما تخفيه صدوركم من الميل إلى الحق والعدل أو الجور والحيف، وسيجازيكم على ذلك.

## يستشير أولا حتى لا تنشأ الضغائن بعد وفاته

﴿فَمَنۡ خَافَ مِن مُّوصٖ جَنَفًا أَوۡ إِثۡمٗا فَأَصۡلَحَ بَيۡنَهُمۡ فَلَآ إِثۡمَ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ١٨٢﴾[2].

---

(١) [البقرة: ١٨١].

(٢) [البقرة: ١٨٢].

أما الذي يتدخل لإصلاح أمر الوصية بما يحقق النجاة للميت من الجنف غير المقصود، أو يصلح من أمر وصية فيها إثم، فهذا أمر يريده الله ولا إثم فيه، ويحقق الله به المغفرة والرحمة، وهكذا يعلمنا الحق أن الذي يسمع أو يقرأ وصية، فلا بد أن يقيسها على منطق الحق والعدل وتشريع الله، فإن كان فيه مخالفة فلا بد أن يراجع صاحبها، وهذا القول يلفتنا إلى أن الإنسان إذا ما عزم على اتخاذ أمر في مسألة الوصية، فعليه أن يستشير من حوله، وأن يستقبل كل مشورة من أهل العلم والحكمة قبل أن يبرم أمر الوصية إبراماً نهائياً، وذلك حتى لا تنشأ الضغائن بعد وفاته، فلا بد من معالجة الانحراف بالوقاية منه قبل أن يقع.

## الصيام مصلحة للخلق في كل زمان

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾[1].

يخبر تعالى عباده، بأنه فرض عليهم الصيام، كما فرضه على الأمم السابقة، لأنه من الشرائع والأوامر التي هي مصلحة للخلق في كل زمان، وفيه تنشيط لهذه الأمة، بأنه ينبغي لكم أن تنافسوا غيركم للمسارعة إلى أفضل الأعمال، وأنه ليس من الأمور الثقيلة، ثم ذكر تعالى حكمته في مشروعية الصيام فقال:

(١) [البقرة: ١٨٣].

﴿لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ١٨٣﴾ فإن الصيام من أكبر أسباب التقوى، فيه أن الصائم يترك ما تميل إليها نفسه من الأكل والشرب والجماع ونحوها من أجل الله، فهذا من التقوى. ومنها: أن الصائم يدرب نفسه على طاعة الله، فيترك ما تهوى نفسه، مع قدرته عليه، لعلمه باطلاع الله عليه ومراقبته له، ومنها: أنه بالصيام يضعف نفوذه، وتقل منه المعاصي، ومنها: أن الصائم في الغالب تكثر طاعته، ومنها: أن الغنيّ إذا ذاق ألم الجوع والحرمان من أشياء تشتهيها نفسه، أوجب له ذلك مواساة الفقراء المعدمين، وهذا من خصال التقوى.

## كانوا غير معتادين على الصيام، فخيّرهم!

﴿أَيَّامٗا مَّعۡدُودَٰتٖۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدۡيَةٞ طَعَامُ مِسۡكِينٖۖ فَمَن تَطَوَّعَ خَيۡرٗا فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥۚ وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾[1].

أخبر الله أن الصوم أيام معدودات، أي: قليلة في غاية السهولة، ثم سهل تسهيلا آخر فقال: ﴿فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۚ﴾ وذلك للمشقة، رخّص الله لهما في الفطر، ولما كان لا بد من حصول مصلحة الصيام لكل مؤمن، أمرهما أن يقضياه في أيام أُخر إذا زال المرض وانقضى السفر، كما يجوز أن يقضي أياما قصيرة باردة عن أيام طويلة

---

(١) [البقرة: ١٨٤].

حارة، وقوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: يطيقون الصيام فِدْيَةٌ عن كل يوم يفطرونه طَعَامُ مِسْكِين، وهذا في ابتداء فرض الصيام، لما كانوا غير معتادين على الصيام، وفيه مشقة عليهم، درّجهم الرب الحكيم بأسهل طريق، وخيَّر القادر على الصوم بين أن يصوم وهو أفضل، أو يطعم، ولهذا قال: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٌ لَّكُمۡ﴾ ثم بعد ذلك جعل الصيام فرضا وحتما على القادر، أما غير القادر يفطر ويقضيه في أيام أخر، وقيل في معنى: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ﴾ أي: يتكلفونه ويشق عليهم مشقة غير محتملة، كالشيخ الكبير والمريض المزمن، فدية عن كل يوم مسكين إطعام يوم، وهذا هو الصحيح.

## لا تقيس التكليف على قدر عقلك؟

﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ هُدٗى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٖ مِّنَ ٱلۡهُدَىٰ وَٱلۡفُرۡقَانِۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهۡرَ فَلۡيَصُمۡهُۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٖ فَعِدَّةٞ مِّنۡ أَيَّامٍ أُخَرَۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ وَلِتُكۡمِلُواْ ٱلۡعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُواْ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمۡ وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ١٨٥﴾[1].

لا يصح مطلقاً لأي إنسان أن يخرج عن إطار الضرورة التي شرعها الله، فبعض من الذين يتفلسفون، يحبون أن يزيّنوا لأنفسهم الضرورات التي تبيح لهم

---

(١) [البقرة: ١٨٥].

الخروج عن شرع الله، ويقول الواحد منهم: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾(١). ونقول: إنك تفهم وتحدد الوُسعَ على قدر عقلك ثم تقيس التكليف عليه، برغم أن الذي خلقك هو الذي يُكلف ويعلم أنك تَسَعُ التكليف، وهو سبحانه لا يكلف إلا بما في وسعك؛ بدليل أن الله المشرع يعطي الرخصة عندما يكون التكليف ليس في الوسع. ويتساءل الإنسان: كيف يطيق الإنسان الصوم، ثم يؤذن له بالفطر مقابل فدية هي إطعام مسكين؟ وأقول: إن هذه الآية دلت على أن فريضة الصوم قد جاءت بالتدريج، فقد كانوا لا يصومون، إلى أن يصوموا صياماً يُخيّرهُم فيه، ثم جاء الأمر بصيام لا خيار فيه، فصار الصوم فريضة محددة المدة وهي شهر رمضان، وبذلك انتهت مسألة الفدية بالنسبة لِمَنْ يطيق الصوم، أما الذي لا يطيق أصلاً بأن يكون مريضاً أو شيخاً، فإن قال الأطباء المسلمون: إن هذا مرض لا يُرجى شفاؤه نقول له: أنت لن تصوم أياما أخر وعليك أن تفدي. إن الله بدأ مشروعية الصوم بالأيام المعدودة، ثلاثة أيام من كل شهر، وهو اليوم العاشر والعشرون والثلاثون من أيام الشهر، وكان الإنسان مخيراً في تلك الأيام المعدودة: إن كان مطيقا للصوم أن يصوم أو أن يفتدي، أما حين شرع الله الصوم في رمضان فقد أصبح الصوم فريضة وركناً من أركان الإسلام، وبعد ذلك جاءنا الاستثناء للمريض

(١) [البقرة: ٢٨٦].

والمسافر. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ فكأنك لو خالفت ذلك لأردت الله معسراً لا ميسراً، بل أنت الذي تكون معسراً على نفسك، فهل أنت مع العبادة أم أنت مع المعبود؟

## لم يقل: (فقل إني قريب)

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾[1].

لم يقل: فقل إني قريب؛ ويريد الله أن يجعل في الجواب عن السؤال مباشرة بدون وساطة، وإن كان الذي سيبلغ الجواب هو رسوله ﷺ، وهذه لها قصة: لقد سألوا رسول الله: أقريب ربك فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ لأن عادة البعيد أن يُنادى، أما القريب فيناجى، ولكي يبين لهم القرب، حذف كلمة «قل» ، ولا يقول لك ربك كلمة: «افعل» و«لا تفعل» إلا إذا كنت صالحاً للفعل ولعدم الفعل، وهي تدخل في الأمور الاختيارية، ثم ترك أشياء لا يقول لك فتكون حراً في أن تفعلها أو لا تفعلها، اسمها «منطقة الاختيار المباح».

### نضرب مثلا للتوضيح:

يجب ألا يفهم أن الله لم يستجب له إذا دعا فيقول: لماذا لم يستجب الله لي؟ لقد استجاب له، ولكنه نحَّى عنه حمق الدعوة التي دعاها إن كان بها شر له، وهو لا

---

(١) [البقرة: ١٨٦].

يعلم بأنها شر له، ولذلك فمن الخير له ألا تجاب دعوته. وأضرب هذا المثل: قد يطلب منك ابنك الصغير أن تشتري له مسدساً، وهو يظن أن ذلك خير، لكنك تؤخر طلبه وتماطل، فهل هذا التأخير على وفق ما رأى هو منع الخير عنه؟

نضرب مثلا آخر:

الله تعالى يحب أن يسمع الدعاء من عبده المؤمن فيقول: «**إنّ من عبادي من أحبّ دعاءَهم، فأنا أبتليهم ليقولوا: يا ربّ**»(١) وأضرب هذا المثل: الأب قد يعطي ابنه مصروف اليد كل شهر، لكن الأب حين يعطي مصروف اليد كل يوم، فالابن ينتظر والده، وعندما يتأخر الوالد قليلاً فإن الابن يقف لينتظر والده على الباب؛ لقد ربط الأب ابنه بالحاجة ليأنس برؤياه.

## ليس كل من يسأل يُستجاب له

ومعنى قوله تعالى: ﴿وَلْيُؤْمِنُواْ بِى﴾ أي أن يؤمنوا به سبحانه إلها حكيما يجيب الدعوة في الوقت الذي يناسب صاحبها، إما آجلا أو عاجلا، وإما يدّخرها له، وليس كل من يسأل يُستجاب له؛ لأن الألوهية تقتضي الحكمة التي تعطي كل صاحب دعوة خيراً يناسب الداعي، لا بمقاييسه هو، ولكن بمقاييس من يجيب الدعوة.

---

(١) حديث ضعيف.

## هذا يحدث في الواقع، فهما يلتفان في ثوب واحد

﴿أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾﴾[1].

﴿أُحِلَّ لَكُمْ﴾ قبل أن تنزل هذه الآية، كان جماع النساء في ليل الصيام حراماً، كما حال الطعام والشراب بعد صلاة العشاء وبعد النوم حتى يفطروا. ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ فكأن الرجل لباس للمرأة أي ستر عورتها، والمرأة تستر عورته، فهذا يحدث في الواقع، فهما يلتفان في ثوب واحد، فلا تمتد عين الرجل إلى امرأة أخرى، وهي لا تنظر إلى غيره، وأن يظل هذا اللباس ستراً بحيث لا يفضح شيئاً من أمر الزوجين عند الآخرين، ولذلك فالنبي ﷺ يحذرنا أن يحدث بين الرجل وأهله شيء بالليل، وبعد ذلك تقول به المرأة نهاراً، أو يقول به الرجل. ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾﴾ والتقوى كما نعلم ليست للنار فقط،

---

(١) [البقرة: ١٨٧].

لكنها اتقاء لكل مشاكل الحياة؛ ولذلك يقول الحق: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾[١]، أي أن حياته تمتلئ بالهموم لأنه يخالف منهج الله، وإذا لم تنشأ المشاكل مع المخالفات لقال الناس: خالفنا منهج الله ونجونا، لذلك كان لا بد أن توجد المشاكل لتنبهنا أن منهج الله يجب أن يسيطر.

## ومادامت أموالي فلماذا لا آكلها؟

﴿وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ١٨٨﴾[٢].

وما دامت أموالي فلماذا لا آكلها؟ فالذي يحكم حركة تداوله؟ أي لا تأكل مما يملكه غيرك إلا بحق: فلا تسرق، ولا تغتصب، ولا تخطف، ولا ترتش، ولا تكن خائناً للأمانة، فكل ذلك إن حدث، تكن قد أكلت المال بالباطل، وحين تفعل ذلك، يصير الناس جميعاً نهباً للناس جميعا، وتشيع الفوضى في الحياة، ويأكل الكل من عمل غيره، ويعيشون عالة على الآخرين، وتشيع الفوضى في الكون.

## هل إباحة الحكومات لها يجعلها حلالاً؟

لا تقل إن الحاكم قد شرع أعمالاً وتُلقي عليه تبعة أفعالك؛ ومثال ذلك ما

---

(١) [طه: ١٢٤].

(٢) [البقرة: ١٨٨].

يسمى بالفنون الجميلة كالرقص والغناء والخلاعة، وبيع الخمور والمنكرات، والمصارف الربوية، هل إباحة الحكومات لها يجعلها حلالاً؟ لأن هناك فرقاً بين الديانة المدنية والديانة الربانية، ولذلك تجد أن الفساد إنما ينشأ في الحياة من مثل هذا السلوك، ولو عملنا قائمة لكل المنحرفين عن منهج الله، وكل منا يعرف جيرانه وزملاءه، من أين يأكلون؟ ومن أين يكتسبون؟ ويعرف أعمال الحلال والحرام، ليتأمل حياتهم، ويجعلها عبرة له ولأولاده، كيف كانوا؟ وإلي أي شيء أصبحوا؟ ثم ينظر خواتيم هؤلاء كيف وصلت. ﴿وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ﴾ أي تُرشوا الحكام، إنهم يفعلون ذلك حتى يعطيهم الحكام التشريع القانوني لأكل أموال الناس، فحين يصير الفساد قانونا، ذلك نتيجة أن الحاكم يقرّ ذلك، فعلى المؤمن أن يحتاط وألا يخرج عن تعاليم دينه.

## أنتم قليلو الفطنة، فماذا نفعل لكم؟

﴿۞يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡأَهِلَّةِۖ قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلۡحَجِّۗ وَلَيۡسَ ٱلۡبِرُّ بِأَن تَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنِ ٱتَّقَىٰۗ وَأۡتُواْ ٱلۡبُيُوتَ مِنۡ أَبۡوَٰبِهَاۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٨٩﴾[1].

الأهلّة: جمع هلال، ما فائدتها وحكمتها؟ ﴿قُلۡ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ﴾ أي: جعلها الله على هذا التدبير يبدو الهلال ضعيفا في أول الشهر، ثم يتزايد إلى

---

(١) [البقرة: ١٨٩].

نصفه، ثم يكتمل تماما ليكون بدرا منتصف الشهر، ثم يبدأ في النقص، وهكذا، يسألك أصحابك أيها النبي عن الأهلة وتغيُّر أحوالها، قل لهم: جعل اللهُ الأهلة علامات يعرف بها الناس أوقات عباداتهم المحددة بوقت مثل الصيام والحج، ومعاملاتهم، وليس الخير ما تعودتم عليه في الجاهلية وأول الإسلام من دخول البيوت من ظهورها حين تُحْرِمون بالحج أو العمرة، ظانّين أن ذلك قربة إلى الله، ولكن الخير مَنِ اتقى الله واجتنب المعاصي، وادخلوا البيوت من أبوابها عند إحرامكم بالحج أو العمرة، واخشوا الله تعالى في كل أموركم، لتفوزوا بكل ما تحبّون من خيري الدنيا والآخرة. وكلمة ﴿ٱلۡبِرُّ﴾ في هذه الآية جاءت مرفوعة اسم ليس، وهي تختلف عن كلمة ﴿ٱلۡبِرَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿۞لَّيۡسَ ٱلۡبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمۡ﴾ التي جاءت منصوبة؛ وهي خبر مقدم لليس، وقد حاول المستشرقون أن يأخذوا هذا الاختلاف في الرفع والنصب مأخذا على القرآن الكريم، ونقول لهم: أنتم قليلو الفطنة والمعرفة باللغة العربية، فماذا نفعل لكم؟

## ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لا السيطرة على ثروات الشعوب

﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ١٩٠﴾[١].

---

(١) [البقرة: ١٩٠].

﴿وَقَٰتِلُواْ﴾ هذه قضية تتميز بخصوصية فريدة؛ هي أن الله قد أوكل أمة محمد على أن تؤدّب الخارجين على منهج الله؛ فقديماً كانت السماء هي التي تُؤدب هؤلاء، إما بصاعقة، وإما فيضان، وإما زلزال مدمّر، وإما بأية وسيلة، وتأكيد النص على كلمة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ لأنه يريد أن يضع حداً لجبروت البشر، ولابد أن تكون نيّة القتال في سبيل الله فقط دون سواها، لا أن يكون القتال بنيّة الاستعلاء القومي على الشعوب، أو بنيّة السيطرة على ثرواتها، أو أرضها أو سمائها، أو قهر شعوبها، فلا قتال من أجل الحياة أو المال، أو لضمان سوق اقتصادي، إنما هو في سبيل الله ومن أجل إعلاء كلمة الله، هذا هو غرض القتال في الإسلام.

## حكم قتل النساء والأطفال والرهبان في الحرب

﴿وَلَا تَعۡتَدُوٓاْ﴾ على قدر الفعل يكون ردّ الفعل، لأن في قتال النساء والعجزة اعتداء، وهو سبحانه ﴿لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ۝﴾، لكن قتال الأعداء إنما يكون لرد العدوان، لا بداية عدوان. وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ ارْتِكَابُ الْمَنَاهِي كَمَا قَالَهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ مِنَ التمثيل بالجثث، وَقَتْلِ النِّسَاءِ وَالصِّبْيَانِ وَالشُّيُوخِ الَّذِينَ لَا رَأْيَ لَهُمْ وَلَا قِتَالَ فِيهِمْ، وَالرُّهْبَانِ وَأَصْحَابِ الصَّوَامِعِ، وَتَحْرِيقِ الْأَشْجَارِ، وَقَتْلِ الْحَيَوَانِ لِغَيْرِ مَصْلَحَةٍ، كَمَا قَالَ ذَلِكَ ابْنُ عَبَّاسٍ، وَغَيْرُهُ من الصحابة. وَلِهَذَا جَاءَ فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ، عَنْ بُرَيدة أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ يَقُولُ: **«اغْزُوا فِي سَبِيلِ اللهِ،**

قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلّوا، وَلَا تَغْدروا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَلَا أَصْحَابَ الصَّوَامِعِ».

## ردّ المسلم عن دينه أشدّ من القتل

﴿وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ۝١٩١﴾[1].

إذن أسقط الحق الورقة من أيدي الأعداء، بأنه وإن كان القتال في الشهر الحرام وفي المكان الحرام وفي حال الإحرام صعباً وشديداً، فالفتنة في دين الله أشد، وقد حاولوا إجبار المسلمين الأوائل بالتعذيب حتى يرتدوا، وحينئذ نعلم أن القتال إنما جاء دفاعاً.

## ما أعظم التسامح في القرآن!

﴿فَإِنِ ٱنتَهَوْاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝١٩٢﴾[2].

ما أعظم كلام الله، وما أعظم التسامح في القرآن، فلا يصحّ أن يشيع في نفوسنا الحقد على ما فعلوه بنا قديما، بل نحتسب ذلك عند الله، وماداموا قد آمنوا فذلك يكفينا، وعفا الله عما مضى.

---

(١) [البقرة: ١٩١].

(٢) [البقرة: ١٩٢].

## كيف يكون ذلك؟

﴿ٱلشَّهۡرُ ٱلۡحَرَامُ بِٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ ١٩٤﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡحُرُمَٰتُ قِصَاصٞۚ﴾ يقتضي منا أن نسأل: كيف يكون ذلك؟ فهل يعني ذلك أن الذي يقوم بعمل حرام نقتص منه بعمل مماثل؟ ﴿فَمَنِ ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡ فَٱعۡتَدُواْ عَلَيۡهِ بِمِثۡلِ مَا ٱعۡتَدَىٰ عَلَيۡكُمۡۚ﴾ هل إذا زنى رجل بامرأة نقول له نقتص منك بالزنى في زوجتك!؟ لا، إن القصاص في الحرمات لا يكون إلا في المأذون به شرعا.

## الاستعداد للحرب أنفى للحرب

﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾[2].

﴿وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ يكشف لنا بعضاً من روائع الأداء البياني في القرآن؛ ففي الجملة الواحدة تعطيك الشيء ومقابل الشيء، وهذا أمر لا نجده في أساليب البشر؛ فالحق في هذه الآية يقول لنا: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ أي

---

(١) [البقرة: ١٩٤].

(٢) [البقرة: ١٩٥].

أنفقوا في الجهاد، كصناعة الأسلحة المتطورة وصناعة الطائرات القاذفة والصواريخ العابرة للقارات، وصناعة الدبابات عالية الكفاءة، أو الإمدادات التموينية، أو تجهيز مبانٍ وحصون، هذه أوجه أنفاق المال. وهل سيلقي الواحد منا نفسه في التهلكة بين عدوه؟ إن اليد المغلولة عن الإنفاق في سبيل الله هي التي تُلقي بصاحبها إلى التهلكة؛ لأنه إن امتنع عن ذلك اجترأ العدو عليه، وما دام العدو قد اجترأ على المؤمنين فقد هلكوا، فالاستعداد للحرب أنفى للحرب، وعندما يراك العدو قوياً فهو يهابك ويتراجع عن قتالك. إن الله سبحانه، يريد من المؤمنين أن يزنوا المسائل وزناً يجعلهم لا يتركون الجهاد فيهلكوا؛ لأن خصمهم سيجترئ عليهم، فالمعنى الأول: أن تنفق في سبيل الله، ولا تلقي بيدك إلى التهلكة بترك القتال. والمعنى الثاني: أي لا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة، بأن تقبلوا على القتال بلا داع أو بلا إعداد كافٍ.

## كأنك تراه!!

﴿وَأَحۡسِنُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٩٥﴾ والإحسان كما علمنا رسول الله ﷺ: أن تعبد الله، أي تطيع أوامره كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، ومشكلة الناس هذه الأيام أنهم يتشبهون ب (فإنه يراك) ، فعملوا الدوائر التليفزيونية المغلقة (كاميرات المراقبة) في المحلات التجارية والمصانع والشركات والأماكن العامة، حتى تتم مراقبة سير العمل في أرجاء المحل، هذا فعل البشر، لكن انظر

إلى تسامي الإيمان، إنه يأمرك أنت أن ترى الله، فلا تؤدّ العمل أداء شكلياً يرفع عنك العتب، بل عليك أن تؤدي العمل بقصد الإحسان في العمل.

## كلنا يصيح بالشكوى!

والإحسان في كل شيء، هو إتقانه إتقاناً بحيث يصنع الإنسان لغيره ما يحب أن يصنعه غيره له، ولو تعامل الناس على هذا الأساس، لامتازت كل الصناعات، لكن إذا ساد الغش، فأنت تغش غيرك، وغيرك يغشك، وبعد ذلك كلنا يتذمّر ويصيح بالشكوى.

## لا يقولنّ أحد: انظر إلى حال المسلمين!؟

إذن وجوه الإحسان في الأشياء كثيرة، وكلها تخدم قضية الإيمان، وإذا سألنا: ما الذي زهّد دنيانا المعاصرة في ديننا؟ فسوف نجد أن العالم ينظر إلى دين الله من خلال حركة المسلمين، وهي حركة غير إسلامية في غالبيتها، إن عليك أن تنظر إلى تشريعات الإسلام، فلا يقولن أحد: انظر إلى حال المسلمين، ولكن لننظر إلى قوانين الإسلام، والعقلاء والمفكرون يأخذون الدين من مبادئ الدين نفسه، ولا يأخذونه من سلوك الناس، كما أن الإسلام له مناعة في خميرته الذاتية، إنه يحمل مقومات بقائه وصلاحيته، وهو الذي يجذب غير المسلمين له فيؤمنون به، وليس المسلمون هم الذين يجذبون الناس للإسلام، وكأن الفطرة التي فطر الله الناس عليها تنطق بأن كل أمر حَسَن يجب أن يُنسب إلى الله.

## أليس ذلك خداعاً واحتيالا؟

﴿وَأَتِمُّوا۟ ٱلْحَجَّ وَٱلْعُمْرَةَ لِلَّهِ ۚ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۖ وَلَا تَحْلِقُوا۟ رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْهَدْىُ مَحِلَّهُۥ ۚ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ ۚ فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِٱلْعُمْرَةِ إِلَى ٱلْحَجِّ فَمَا ٱسْتَيْسَرَ مِنَ ٱلْهَدْىِ ۚ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَٰثَةِ أَيَّامٍ فِى ٱلْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ ۗ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ۗ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُۥ حَاضِرِى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١٩٦﴾﴾[1].

وكلمة ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ﴾ معناها أنه لا يملك، إنه لأمر غريب! أن تجد الحاج يشتري هدايا لا حصر لها؛ ساعات وتُحف وأجهزة كهربائية، ويملأ حقائبه، ثم يقول: لا أجد ما أشتري به الهَدي! ولذلك سأصوم! ألم يكن ثمن تلك الهدايا يصلح لشراء الهدي؟ أليس ذلك غشاً وخداعاً؟ ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ كيف يقول الحق: إنه شديد العقاب في التيسيرات التي شرعها؟ أي: إياكم أن تغشّوا أو تحتالوا في هذه التيسيرات، فليس من المعقول أو من المقبول أن ندلس شيئاً فيها، لذلك حذرنا سبحانه من الغش والاحتيال في هذه المناسك.

﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾[2].

---

(١) [البقرة: ١٩٦].

(٢) [البقرة: ١٩٧].

الفسوق محرم في كل وقت، وعليه أن يتذكر إن كان قد فسق بعيداً عن بيت الله فليستح أن يعصي الله في هذا البيت؛ فالذاهب إلى بيت الله يبغي تكفير الذنوب عن نفسه، فهل يُعقل أن يرتكب فيه ذنوباً؟ لا بد أن تستحي أيها المسلم وأنت في بيت الله، واعلم أن هذا المكان هو الوحيد الذي يُحاسب فيه على مجرد الإرادة، يقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾[1].

## مرتبة الجدال دون مرتبة الفسوق

ولنا أن نعرف أن مرتبة الجدال دون مرتبة الفسوق والعصيان، والرسول قال: «من حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه»، لم يقل: «ولم يجادل»، إن بشرية الرسول تراعي ظروف المسلمين، فمن المحتمل أن يصدر جدال من الحاج نتيجة فعل استثاره، فكأن عدم ذكر الجدال في الحديث فسحة للمؤمن، ولكن لا يصح أن نتمادى فيها. فالحاجّ يخرج من وطنه، ومن أهله ومن ماله، ومما أَلِفَ واعتاد من حياة، وفي هذا الخروج قد تضيق أخلاق الناس؛ لأنهم جميعاً يعيشون عيشة غير طبيعية؛ فهناك من ينام في غرفة مشتركة مع ناس لا يعرفهم، ليس فيها إلا دورة مياه واحدة، لذلك يحذرنا الله من الدخول في جدل؛ لأنه ربما كان الضيق من تغيير نظام الحياة سبباً في إساءة معاملة الآخرين، والحق يريد أن يمنع هذا الضيق من أن يؤثر في علاقتنا بالآخرين.

---

(١) [الحج: ٢٥].

## هذه الظروف تغيرت الآن

﴿وَتَزَوَّدُواْ﴾ والزاد: هو ما يأخذه المسافر ليتقوى به على سفره، وكان هذا أمراً مألوفا عند العرب قديماً؛ لأن المكان الذي يذهبون إليه ليس فيه طعام، وكل هذه الظروف تغيرت الآن، وكذلك تغيرت عادات الناس التي كانت تذهب إلى هناك ومعها ملح الطعام، والخيط والإبرة، فالحج ذلة عبودية، يريدها الله له وحده، فمن لا يكون عنده مؤونة سفره فربما يذل لشخص آخر، ويطلب منه أن يعطيه طعاماً، والله لا يريد من الحاج أن يذل لأحد، ولذلك يطلب منه أن يتزود بقدر حاجته حتى يكفي نفسه، وتظل ذلته سليمة خالصة لربه.

## عرفة وجبل الرحمة

﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُواْ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْۚ فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ ١٩٨﴾[1].

كما يظهر من قول الرسول ﷺ: (الحج عرفة)، و(عرفة) هذه الكلمة أصبحت علماً على المكان الفسيح الذي يجتمع فيه الحجيج في التاسع من ذي الحجة، ولا تظن أنها جبل، ولذلك تجد أناساً كثيرين يظنون أنهم إن لم يصعدوا الجبل المسمى بجبل الرحمة، فكأن الإنسان منهم لم يحج، نقول لهم: لا، الوقوف يكون في الوادي.

---

(١) [البقرة: ١٩٨].

## الاستغفار من التقصير في أداء العباده

﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٩﴾﴾[١].

أي: ثم أفيضوا من مزدلفة من حيث أفاض الناس، من لدن إبراهيم عليه السلام إلى الآن، والمقصود من هذه الإفاضة كان معروفا عندهم، وهو رمي الجمار، وذبح الهدايا، والطواف، والسعي، والمبيت ب (منى) ليالي التشريق وتكميل باقي المناسك، ولما كانت هذه الإفاضة، يقصد بها ما ذكر، والمذكورات آخر المناسك، أمر تعالى عند الفراغ منها باستغفاره والإكثار من ذكره، فالاستغفار للخلل الواقع من العبد، في أداء عبادته وتقصيره فيها، وذكر الله شكر الله على إنعامه عليه بالتوفيق لهذه العبادة العظيمة.

## يسأل الله مطالب الدنيا ما هو من شهواته

﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ ﴿٢٠٠﴾﴾[٢].

فإذا أتممتم عبادتكم، وفرغتم من أعمال الحج، فأكثروا من ذكر الله والثناء عليه،

---

(١) [البقرة: ١٩٩].

(٢) [البقرة: ٢٠٠].

مثل ذكركم مفاخر آبائكم وأعظم من ذلك. فمن الناس فريق يجعل همه الدنيا فقط، فيدعو قائلا ربنا آتنا في الدنيا عقارات وأراضي وعمارات، وسيارات فاخرة وقصور فخمة، وأرصدة بنكية، وصحة وأولادًا، وهؤلاء ليس لهم في الآخرة حظ ولا نصيب; لرغبتهم عنها وقَصْرِ هَمِّهم على الدنيا. ثم أخبر تعالى عن أحوال الخلق، وأن الجميع يسألونه مطالبهم، ويستدفعونه ما يضرهم، ولكن مقاصدهم تختلف، فمنهم: ﴿مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا﴾ أي: يسأله من مطالب الدنيا ما هو من شهواته، وليس له في الآخرة من نصيب، لرغبته عنها، وقصر همته على الدنيا.

## أجمع دعاء وأكمله

﴿وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ حَسَنَةٗ وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ٢٠١﴾[1].

ومنهم من يدعو الله لمصلحة الدارين، ويفتقر إليه في مهمات دينه ودنياه، والحسنة المطلوبة في الدنيا يدخل فيها رزق هنيء واسع حلال، وزوجة صالحة، وأولاد، وراحة بال، ونحو ذلك، من المطالب المحبوبة والمباحة. وحسنة الآخرة، هي السلامة من العقوبات، في القبر، والموقف يوم الحساب، وحصول رضا الله، والقرب من الرب الرحيم، فصار هذا الدعاء، أجمع دعاء وأكمله،

---

(١) [البقرة: ٢٠١].

وأولاه بالإيثار، ولهذا كان النبي ﷺ يكثر من الدعاء به، والحث عليه.

## اللّه يجيب دعوة كل داع، مسلم أو كافر

﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ نَصِيبٞ مِّمَّا كَسَبُواْۚ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٢٠٢﴾[1].

وكل من هؤلاء وهؤلاء، لهم نصيب من كسبهم وعملهم، وسيجازيهم تعالى على حسب أعمالهم، وهماتهم ونياتهم، جزاءً دائرا بين العدل والفضل، يُحمد عليه أكمل حمد وأتمه، وفي هذه الآية دليل على أن الله يجيب دعوة كل داع، مسلما أو كافرا، أو فاسقا، ولكن ليست إجابته دعاء من دعاه دليلا على محبته له وقربه منه، إلا في مطالب الآخرة ومهمات الدين. ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾ ولذلك سُئل الإمام علي بن أبي طالب: كيف يحاسب الله الخلائق جميعاً في لحظة واحدة؟ فقال: (كما يرزقهم في ساعة واحدة).

## النفاق غاية الجرأة على اللّه!!

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥﴾[2].

---

(١) [البقرة: ٢٠٢].

(٢) [البقرة: ٢٠٤-٢٠٥].

بعض الناس من المنافقين يعجبك أيها الرسول كلامه الفصيح الذي يريد به إغراءك، ويحلف مستشهدًا بالله على ما في قلبه من محبة الإسلام، وفي هذا غاية الجرأة على الله، وهو شديد العداوة والخصومة للإسلام والمسلمين؛ وعلم الله بالغيب، مسألة يجب أن نحمده عليها، لأنه هو الذي سيحمي كل واحد منا من غيره، لأن النفوس متقلبة، فلو علمتَ ما في نفسي عليك قد لا يسرك، وقد لا تنساه أبداً، ولو اطلع كل منا على غيب الآخر لكانت الحياة مرهقة، كلنا مدّاحون حين يلقى بعضنا بعضا، وكم من مادح يضمر في قلبه كرهاً، كل يقول بلسانه ما ليس في قلبه، فمن رحمة الله على خلقه أن ستر غيب خلقه عن خلقه. كانت الأرض بدون تدخل البشر مخلوقة على هيئة الصلاح، والفساد أمر طارئ من البشر، ونعرف أن الفساد لم يطرأ على أي أمر إلا وللإنسان فيه دخل، لماذا اشتكينا أزمة قوت ولم نشتك أزمة هواء؟ لأن الهواء لا تدخل للإنسان فيه، وبمقدار تدخل الإنسان يكون الفساد. وأراد المتحللون الإباحيون أن يُطلقوا إتيان المرأة في جميع جسدها، نقول لهم: لاحظوا قوله: «حرثكم» والحرث محل الإنبات، فالإتيان يكون في محل الإنبات فقط، لا تفهمها تعميماً وإنما هي تخصيص.

## إذا قلت له ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ فسيعرف أن نفاقه انكشف

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾[1].

---

(١) [البقرة: ٢٠٦].

فالمؤمن لا بد وأن تكون عنده فطنة وذكاء، ويرى تصرفات المقابل، فلا يأخذ بظاهر الأمر، ولا بمعسول القول ولا بالفعل، لأنه عندما يقول له: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ يفهم المنافق أن نفاقه قد انكشف، ولعله بعد ذلك يرتدع عن النفاق، وكل مَنْ يرى ويلمح بذكائه نفاقاً من أحد هنا يقول له: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، فإذا قال له واحد: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ وقال له آخر: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾، وثالث، ورابع، فسيعرف تماما أن نفاقه قد انكشف، ولم يعد كلامه يعجب الناس. أما ﴿ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾ فهي أنفة الكبرياء المقرونة بالذنب والمعصية، إن غَلَبت تطغى، فأية عزة هذه التي تقود في النهاية إلى النار؟ فإن أردت أن تكون عزيزاً، فتأمل عاقبتك، وإلى أين ستذهب؟

## كالطفل فقد الإرادة والسيطرة

كلمة (مهاد) معناها شيء مُمَهّد أي مريح في الجلوس والسير والإقامة، ولذلك يسمّون فراش الطفل المهد، وهل المهاد بهذه الصورة يناسب العذاب؟ نعم يناسبه تماماً؛ لأن الذي يجلس في المهاد لا إرادة له في أن يخرج منه، كالطفل فلا قوة له في أن يغادر فراشه، إذن فهو قد فقد إرادته وسيطرته، فإن كان المهاد بهذه الصورة في النار، فهو بئس المهاد.

## أفنوا شبابهم وقوتهم في تنفيذ أمر الله

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ ٢٠٧﴾[1].

وبعض الناس يبيع نفسه طلبًا لرضا الله عنه، بالجهاد في سبيله والتزام طاعته، أي أنهم أفنوا شبابهم وقوتهم وصحتهم من أجل الأعمال التي يرضى عنها، ويبذلون جهودهم في العبادات والمعاملات التي يأمر بها، ويقدمون كل طاقاتهم في تنفيذ أمر الله (إفعل) و(لا تفعل) والله يرحمهم في عاجلهم وآجلهم، هؤلاء هم الموفّقون الذين باعوا أنفسهم وأرخصوها طلبا لمرضاة الله ورجاء لثوابه، وقد وعد الله بالوفاء فقال: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱشۡتَرَىٰ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَنفُسَهُمۡ وَأَمۡوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلۡجَنَّةَۚ﴾، فلا تسأل بعد هذا عن ما يحصل لهم من الكريم، وما ينالهم من الفوز والتكريم.

## الإسلام لا بدّ أن يُؤخذ كلّه مرة واحدة

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ وَلَا تَتَّبِعُواْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيۡطَٰنِۚ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ٢٠٨﴾[2].

(١) [البقرة: ٢٠٧].

(٢) [البقرة: ٢٠٨].

﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ والسِّلْم هو الإسلام؛ لأن السلم ضد الحرب، والإسلام جاء لينهي الحرب بينك وبين الكون الذي تعيش فيه، لصالحك ولصالح الكون، ولتكون في سلام مع الله، وفي سلام مع الكون، وفي سلام مع الناس، وفي سلام مع نفسك، فالضرر الواقع في العالم الإسلامي اليوم، إنما هو ناتج من السلوكيات التي تحاول أن تأخذ بعضاً من تعاليم الإسلام وتترك بعضا، وهذا هو السبب في التعب والضرر؛ لأن الإسلام لا بد أن يؤخذ كله مرة واحدة، إذن ﴿ٱدۡخُلُواْ فِي ٱلسِّلۡمِ كَآفَّةٗ﴾ يعني إياكم أن تتركوا حُكْماً من الأحكام، إن الذي يُتعب المتسبين إلى الدين الآن، أننا نريد أن نلفق حياة إسلامية في بلاد تأخذ قوانينها من بلاد غير إسلامية، وللأسف فإن كثيراً من حكام البلاد المسلمة لا يأخذون من الإسلام إلا آخر قوله تعالى: ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ إنهم يأخذون﴿وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ ويتركون ﴿أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ ، وأقول: لماذا تأخذون الأخيرة وتتركون ما قبلها؟ إن الله لم يجعل لولي الأمر طاعة مستقلة، فنحن لا نريد تلفيقاً في الإسلام، خذوه كاملاً، تستريحوا أنتم ونستريح نحن معكم.

## لماذا لم يظهر الإسلام فوق كلّ الأديان؟

﴿فَإِن زَلَلْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْكُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٠٩﴾(١).

إنه سبحانه يوضّح لنا أنه لا عذر لكم مطلقا في أن تزلّوا؛ لأنني بيّنت لكم كل شيء، ولم أترككم إلى عقولكم، ومن المنطقي أن تستعملوا عقولكم استعمالا صحيحا، لتديروا حركة الكون الذي استخلفتكم فيه، ومع ذلك، إن أصابتكم الغفلة فأنا أرسل الرسل. وثمة سؤال: لماذا لم يظهر الإسلام فوق كل العقائد برغم أنكم تقولون: إن الله يقول في كتابه: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ ومع ذلك لم يظهر دينكم على كل الأديان، ولم يزل كثير من الناس غير مسلمين سواء كانوا يهودا أو نصارى أو بلا دين؟ قلت: لو فطنتم إلى قول الله: ﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨﴾ و﴿وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ۝٩﴾ لدلّكم ذلك على أن ظهور الإسلام قد تم مع وجود كفار، ومع وجود مشركين، وإلا لو ظهر ولا شيء معه، فممن يُكرَه؟

## ما الذي يؤجل دخولهم في الإسلام كافة؟

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِّنَ ٱلْغَمَامِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ۝٢١٠﴾(٢).

---

(١) [البقرة: ٢٠٩].

(٢) [البقرة: ٢١٠].

إن ذلك دليل على أن الله يمهلنا لنتدارك أنفسنا، ما الذي ينتظرونه؟ ما الذي يؤجل دخولهم في الإسلام كافة؟ تماما كأن تقول لشخص أمامك: ماذا تنتظر؟ ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني بما لم يكن في حسبانهم، هل ينتظرون حتى يروا ذلك الكون المنسق البديع قد اندثر؟! والكون كله تبعثر! والشمس كورت والنجوم انكدرت! وكل شيء في الوجود تغير! وبعد ذلك يفاجأون بأنهم أمام ربهم! فماذا ينتظرون؟ إذن يجب أن ينتهزوا الفرصة قبل أن يأتي ذلك الأمر، وقبل أن تفلت الفرصة من أيديهم، لماذا يسوّفون في أن يدخلوا في السلم كافة؟ ما الذي ينتظرونه؟ أينتظرون أن يتغيّر الله؟ أو أن يتغيّر منهج الله؟ إن ذلك لن يحدث. ﴿إِلَّآ أَن يَأۡتِيَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فلا تظن أن إتيانه كإتيانك، لأن ذاته ليست كذاتك، ولأن الناس في اختلاف درجاتهم تختلف أفعالهم، فإذا كان الناس يختلفون في الأفعال باختلاف منازلهم، فأفعال ربك تختلف عن أفعالك، وإياك أن تُخضع فعله لقانون فعلك؛ لأن فعلك يحتاج إلى علاج وإلى زمن يختلف باختلاف طاقتك وباختلاف قدرتك، والله لا يفعل الأشياء بحيث تأخذ منه زمناً ولكنه يقول: ﴿كُن فَيَكُونُ ٦٨﴾ . وقوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ﴾ أي انتهى كل شيء، ولم يعد للناس قدرة على أن يرجعوا عما كانوا فيه، فالله يقول: ماذا تنتظرون؟ هل تنتظرون حتى يأتيكم هذا اليوم؟ لا بد أن تنتهزوا الفرصة لترجعوا إلى ربكم قبل أن تفلت منكم فرصة العودة.

## يأكل خيرك وينكر معروفك

﴿سَلْ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ كَمۡ ءَاتَيۡنَٰهُم مِّنۡ ءَايَةِۭ بَيِّنَةٖۗ وَمَن يُبَدِّلۡ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَتۡهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ٢١١﴾[1].

ساعة تقول: اسأل فلاناً عما فعلته معه، كأنك لا تأمر بالسؤال إلا عن ثقة، وأنه لن يجد جواباً إلا ما يؤيد قولك، فالله يريد أن يضرب لنا مثلاً، كمثل إنسان يأكل خيرك وينكر معروفك، ألم يفلق لهم البحر؟ ألم يجعل عصا موسى حية؟ ألم يظللهم الله بالغمام؟ ألم يعطهم الله المن والسلوى؟ كل ذلك أعطاه الله لهم؛ فلم يشكروا نعمة الله، فحل عليهم غضبه.

## من الذي زيّنها لهم؟

﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَيَسۡخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ فَوۡقَهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَٱللَّهُ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ٢١٢﴾[2].

خذوا الحياة على قدرها، فمن الذي زيّنها؟ لقد زيّنها الله ﷻ، فكيف تنسى الذي زيّنها لك، وجعلها جميلة وجعلها تحت تصرفك، كان يجب أن تأخذها وسيلة للإيمان بمن رزقك إياها، وكلما ترى شيئا جميلا في الوجود تقول: سبحان الله، وتزداد إيمانا بالله، أما أن تأخذ المسألة وتعزلها عمن خلقها فذلك هو المقياس النازل، ودليل على الحمق.

---

(١) [البقرة: ٢١١].

(٢) [البقرة: ٢١٢].

## إذن، من أين جاء الخلاف إلى حياة الناس؟

﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾(١).

ولقائل أن يقول: إذا كان الناس أمة واحدة، وقد رتب الله بعث وإرسال النبيين على كونهم أمة واحدة؛ فمن أين إذن جاء الخلاف إلى حياة الناس؟ صحيح كان الناس أمة واحدة يتبعون آدم، وعلم آدم أبناءه منهج الله، ولم ينشأ عندهم ما يوجب اختلاف أهوائهم، فالعالم كان واسعاً، وكانت القلة السكانية فيه هي آدم وأولاده فقط، وكانت الملكية مشاعا للجميع؛ ولم توجد الأطماع بالمنافع مما يجعلهم يختلفون، إذن فأساس الاختلاف بين البشر، هو الطمع في متاع الدنيا، ومن هنا ينشأ الهوى، ومن هنا نشأت الخلافات، وتعددت الأهواء بسبب الخوف من استئثار الغير، فنشأ حب الذات، ولما كانت المنافع لا تتسع لأطماع الناس، فقد استشرى حب التملك، وإرادة البغي، والبغي هو أن يريد الإنسان أن يأخذ حق غيره، ومن رحمة الله تعالى بالخلق، ومن تمام علمه بضعف البشر أمام أهوائهم، وأمام استئثارهم بالمنافع، أرسل الرسل إلى البشر، ليبشروا ولينذروا.

---

(١) [البقرة: ٢١٣].

## كل جماعة تريد أن تصبغ دين الله بلونها!!

فنحن نفهم أن الله شاء بالإسلام حياة القيم، كما شاء بالماء حياة المادة، والماء حتى يظل ماء فلا بد أن يظل بلا طعم ولا لون ولا رائحة، فإذا أردت أن تجعل له طعماً خرج عن خاصيته؛ ربما أصبح مشروبا أو عصيراً أو غير ذلك، وقد يحبّ بعض الناس نوعا من العصير، لكن كل الناس يحبون الماء؛ لأن به تُصان الحياة، فإذا رأيت ديناً قد تلوّن بجماعة أو بهيئة أو بشكل فاعلم أن ذلك خارج عن نطاق الإسلام، وكل جماعة تريد أن تصبغ دين الله بلون، إنما يخرجونه عن طبيعته الأصلية.

فالذين يحاولون في زماننا، أو في أي زمان من الأزمنة، أن يصبغوا الدين بشكل أو بطقوس، أو بلون أو برسوم، أو هيئة خاصة، نقول لهم: أنتم تريدون أن تُخرجوا الإسلام عن عموميته الفطرية التي أرادها الله له، ولابد أن تقفوا عند حد الفطرة الإسلامية، ولا تلونوا الإسلام هذا التلوين.

## ما دام الله يهدي من يشاء، فما ذنب الذي لم يهتد؟

﴿وَٱللَّهُ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٤٦﴾ ثمة سؤال: ما دام الله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، فما ذنب الذي لم يهتد؟ نقول: إن الحق يهدي من شاء إلى صراط مستقيم؛ أي يبين الطريق إلى الهداية، فمن يأخذ بهداية الدلالة يزده الله بهداية المعونة على الاستمرار في الهداية، وييسر له ذلك الأمر. وضربنا

من قبل المثل بشرطي المرور، الذي يدلك على الطريق الموصل إلى الغاية التي تريدها، فإن احترمت كلامه ونفذته فهو يعطي لك شيئاً أكثر من النصائح، بأن يسير معك أو يوصلك إلى المكان الذي تريد، فما بالنا بالحق ﷻ؟

## لا بدّ أن يكون ابتلاؤكم على قدر مكانتكم

﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَأۡتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلِكُمۖ مَّسَّتۡهُمُ ٱلۡبَأۡسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلۡزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصۡرُ ٱللَّهِۗ أَلَآ إِنَّ نَصۡرَ ٱللَّهِ قَرِيبٞ ٢١٤﴾[1].

بل أظننتم أيها المؤمنون أن تدخلوا الجنة، ولـمَّا يصبكم من الابتلاء مثل ما أصاب المؤمنين الذين مضوا من قبلكم، من الفقر والأمراض، والخوف والرعب والمصائب، وزُلزلوا بأنواع المخاوف، حتى قال رسولهم والمؤمنون معه على سبيل الاستعجال للنصر: متى نصر الله؟ أنتم ستأخذون مكانة عالية في الأمم، ولذلك لا بد أن يكون ابتلاؤكم على قدر مكانتكم، فإن كنتم ذوي مكانة عالية، وستحملون الرسالة الخاتمة، وتنساحون في الدنيا، فلا بد أن يكون ابتلاؤكم على قدر عظمة مسئوليتكم ومهمتكم.

---

(١) [البقرة: ٢١٤].

## هل كل يتيم محتاج؟

﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾﴾[١].

هل كل يتيم محتاج؟ ربما يكون اليتيم قد ورث المال، لكن علينا أن نفهم أن المسألة ليست هي سد حاجة محتاج فقط، ولكنها الوقوف بجانب ضعيف في أي زاوية من زوايا الضعف؛ لأن الطفل عندما يكون يتيماً ولديه ماله، ثم يراك تعطف عليه، فهو يشعر أن أباه لم يمت؛ لأن أبوته باقية في إخوانه المؤمنين، وبعد ذلك لا يشبّ على الحسد لأولادٍ آباؤهم موجودين، لكن حين يرى اليتيم كل أب مشغولا بأبنائه، هنا يظهر فيه الحقد، وتتربى فيه غريزة الاعتراض على القدر، فيقول: لماذا أكون أنا الذي مات والدي؟

## ارقبوا هذا الأمر فيمن حولكم

يجب أن نربي في الناشئة، أن الله لا يأخذ أحداً من خلقه وفي الأرض حاجة إليه؛ وارقبوا هذا الأمر فيمن حولكم، تجدوا واحداً وقد تُوفي وترك أولاداً صغاراً فيحزن أهله ومعارفه، وينسون الأمر من بعد ذلك، وتمر فترة من الزمن، ويفاجأ الناس بأن أولاد ذلك الرجل قد صاروا سادة الحي، وكأن والدهم كان محبسا على رزقهم، فحينما انتهى الأب، فتح الله على الأبناء صنابير الرزق، وذلك حتى لا يُفتَن إنسان في سبب.

---

(١) [البقرة: ٢١٥].

## إياك أن تطلب الجزاء من الخلق

﴿وَمَا تَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ٢١٥﴾ إن الله يريد أن يرد الطبع البشري إلى قضية هي: إياك أن تطلب جزاء الخير الذي تفعله مع هؤلاء من أحد من الخلق، ولكن اطلبه من الله، وإياك أن تحاول أن يعلم الناس عنك أنك مُنْفِق على الأقارب واليتامى وابن السبيل؛ لأن الذين تريدهم أن يعلموا لا يقدرون على جزائك، وعلمهم لن يزيدك شيئا، وحسبك أَنْ يعلم الله الذي أعطاك، فحين ينفق الناس لمرضاة الناس، يلقون من بعد ذلك النكران والجحود، فيكون من أعطى قد خسر ما أنفق، واستبقى الشر ممن أنفقه عليهم. فإياك أن تحاول ولو من طرف خفيّ، أن يعلم الناس أنك تفعل الخير، وهذه عدالة من الله تتجلى في أنه يفعل مع المرائين ذلك؛ لأنهم يعطون وفي بالهم أنهم أعطوا له، ولو أعطوا الله لما أنكر الآخذ جميل العطاء، أنت أعطيته لمرضاته هو، ولهذا كان المتصدق في السر من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، وهذا هو الأفضل في صدقة التطوع، وأما الزكاة الواجبة فإعلانها أفضل، وكذلك الحال بالنسبة لصلاة الفريضة.

## لا تحكموا في القضايا الكبيرة في حدود علمكم

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾(١).

إن الله ﷻ يقول للذين آمنوا: اعلموا أنكم مقبلون على مشقات، وعلى متاعب، وعلى أن تتركوا أموالكم ولذتكم وتمتعكم، ولذلك نجد كبار الساسة الذين برعوا في السياسة، ونجحوا في قيادة مجتمعاتهم، كانوا لا يحبون لشعوبهم أن تخوض المعارك إلا مضطرين، فهم يوضحون لجندهم أنهم يدرأون بالقتال ما هو أكثر شراً منه، ومعنى ذلك أنهم يعبّئون النفس الإنسانية، حتى تواجه الموقف بجماع قواها، وبجميع ملكاتها، وكل إرادتها. إنه سبحانه يقول لنا: أعلم أن القتال كره لكم، ولكن أردت أن أشيع فيكم قضية، هي ألا تحكموا في القضايا الكبيرة في حدود علمكم؛ لأن علمكم دائما ناقص، بل خذوا القضايا من خلال علمي أنا؛ لأنني قد أشرع مكروها، ولكن يأتي منه الخير، وقد تَرَون حبا في شيء ويأتي منه الشر. ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾ سبق لنا أن ضربنا المثل من قبل، بالرجل الحنون الذي يحب ولده الوحيد، ويرجو بقاءه في الدنيا، لذلك عندما يمرض الابن، فالأب يعطيه الدواء المر، وساعة يعطيه الجرعة، فالابن يكره الدواء ولكنه خير له.

---

(١) [البقرة: ٢١٦].

## هل كان هؤلاء يعملون وفي بالهم الله؟!

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢١٧﴾﴾[1].

﴿حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ يقول بعض الناس: وهل يُعقل أن الكفار في أوروبا وأمريكا وغيرها من الذين صنعوا إنجازات واختراعات قد استفادت منها البشرية، هل من المعقول أن تصير أعمالهم إلى هذا المصير؟ لقد اكتشفوا علاجا لأمراض مستعصية! وخففوا آلام الناس! وصنعوا الآلات المريحة والنافعة، واكتشفوا أسرارا وصناعات! نقول لأصحاب مثل هذا الرأي: مهلاً، فهناك قضية يجب أن نتفق عليها، وهي أن الذي يعمل عملاً؛ فهو يطلب الأجر ممن عمل له، فهل كان هؤلاء يعملون وفي بالهم الله، أم في بالهم الإنسانية والمجد والشهرة، وما داموا قد نالوا هذا الأجر في الدنيا فليس لهم أن ينتظروا أجراً في الآخرة.

---

(١) [البقرة: ٢١٧].

## هل يمكن أن يستقرّ منهج الله دون أن يعاديه أحد؟

طبعاً لا؛ لذلك ينبّهنا الله إلى أننا سنجد أقواماً لا يسعدهم أن يُطبّق منهج الله في الوجود؛ لأنهم لا يعيشون إلا على ظلم الناس، وإقامة الحروب، وقهر الشعوب والأمم، والاستيلاء على ثرواتها الطبيعية بشتى أشكالها، هؤلاء قوم سيسوؤهم أن يُطبق منهج الله، فلتنتبهوا لهؤلاء؛ ولذلك فرض الله سبحانه القتال حتى نمنع الفتنة بالكفر من الأرض؛ لأن الكفر يعدّد الآلهة في الكون، ويصبح كل إنسان إلهه هواه، وستتعدد الآلهة بتعدد الأهواء، ولذلك كتب الله على المؤمنين القتال.

## الرحمة ألا تُبتلى بالألم من أول الأمر

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢١٨﴾[1].

ما هي الرحمة؟ الرحمة ألا تُبتلى بالألم من أول الأمر، والحق ﷻ يقول: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحْمَةٞ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾[2]، فالشفاء هو أن تكون مصابا بداء ويبرئك الله منه، لكن الرحمة، هي ألا يأتي الداء أصلا .

(١) [البقرة: ٢١٨].

(٢) [الإسراء: ٨٢].

## هل نسيان الهموم يمنع مصادرها؟

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾﴾[1].

إن كل الذي يتعاطون الخمر، يبررون فعلهم بأنهم يريدون أن ينسوا هموم الدنيا، ونسأل هؤلاء: وهل نسيان الهموم يمنع مصادرها؟ لا، ولذلك فالإسلام يطلب منك أن تعيش همومك لتواجهها بجماع عقلك، فإذا كانت هناك هموم ومشكلات، فالإسلام لا يريد منك أن تنساها، لا، بل لا بد أن توظف عقلك في مواجهتها، وما دام المطلوب منك أن تواجه المشكلات بعقلك، فلا تأتي وتقهره بتغييبه عن العمل.

## سلامة الضرورات الخمس

إن هدف الدين في المقام الأول سلامة الضرورات الخمس التي لا يستغني عنها الإنسان: سلامة النفس، والعرض، والمال، والعقل، والدين، ولو نظرت إلى هذه الضرورات تجد أن الحفاظ عليها يبدأ من سلامة العقل، والله ﷻ، أراد بتحريم الخمر أن يحفظ على الإنسان عقله؛ لأن العقل هو مناط التكليف للإنسان، وهو مناط الاختيار بين البدائل.

---

(١) [البقرة: ٢١٩].

## أيّ أخوة تبقى بين هؤلاء؟

لعب الميسر يتمثل في صورته البسيطة، في اثنين يجلسان أمام بعضهما البعض، وكل واحد منهما حريص على أن يأخذ ما في جيب الآخر، وكلاًّ منهما حريص على أن يعيد الآخر إلى منزله خاوي الجيوب، فأي أخوة تبقى بين هؤلاء؟ أما بالنسبة للخاسر فتجده يعيش في الحسرة والألم على ما فقد، وربما اضطر إلى التضحية بعرضه وشرفه، ويحدث كل ذلك بآمال كاذبة يزينها الشيطان للطرفين، فالذي كسب يتمنى زيادة ما معه من مال أكثر وأكثر، والذي خسر يأمل أن يسترد ما خسره.

## أيهما أقرب إلى العقل والمنطق؟

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَۖ قُلِ ٱلۡعَفۡوَۗ﴾ ﴿ٱلۡعَفۡوَ﴾ يعني الزائد عن الحاجة، فالإنفاق من الزائد عن الحاجة عند الأغنياء يحقق سدّ حاجات وضرورات كثيرة لدى العديد من الأسر في المجتمع، وقد يحقق الرفاهية في بعض هذه المجتمعات، فالذي يزرع أرضا أو يعمل طعاما، أو يشتري من مستلزمات المنزل ما يكفيه هو وعياله ويزيد، فهل يترك ما يزيد عن حاجته ليفسد، أم ينفق منه على قريبه أو جاره المحتاج؟ أيهما أقرب إلى العقل والمنطق؟ وكان ذلك قبل أن يشرع الحق الزكاة بنظامها المعروف.

## الجزاء في الدنيا السلامة وفي الآخرة الجنة

﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٢٠﴾[1].

الله تعالى يبدأ هذه الآية بقوله: ﴿فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأَخِرَةِ﴾ وكأنه يقول لنا: إياكم أن تعتقدوا أن كل تكليف من الله جزاؤه في الآخرة فقط، أبدا إن الجزاء سيصيبكم في الدنيا أيضا، وتأمل سيرة المستقيمين الملتزمين بمنهج دينهم، ومنهج الأخلاق في حياتهم، تجدهم قد أخذوا جزاءهم في الدنيا السلامة والأمن في كل أطوار هذه الحياة، فإن رأيت خللاً أو اضطراباً في الكون، أو رأيت خوفاً أو قلقاً، فاعلم أن منهجاً من مناهج الإسلام قد عُطّل.

## احذروا جيّداً !!

وتحرّج الناس، وتساءلوا: كيف يعاملون اليتيم؟ خصوصا بعد نزل قولُه تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًاۖ﴾[2]، كفّ الناس أيديهم عن أمر اليتامى، وأراد الله ﷻ أن يسهّل الأمر، فأنزل: ﴿قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْۚ﴾ والمخالطة تكون على أساس

(١) [البقرة: ٢٢٠].

(٢) [النساء: ١٠].

أن اليتامى إخوانكم، واحذروا جيداً أن يكون في هذا الخلط شيء لا يكون فيه إصلاح لليتيم، وإياكم أن تفهموا أن الشكلية الاجتماعية تكفي الوصي في أن يكون مشرفاً على مال اليتيم، بأن يقول أمام الناس: إنه قد فتح بيته لليتيم، وإنه يرعى اليتيم، دون حساب؛ لأن الله يعلم المفسد من المصلح.

## لو لم تكن مؤمنة، فماذا سوف يحدث؟

﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾﴾[١].

هذه أول لبنة في بناء الأسرة وبناء المجتمع، لأنها لو لم تكن مؤمنة، فماذا سوف يحدث؟ إنها ستشرف على تربية الطفل الوليد إشرافاً يتناسب مع انحرافها عن منهج الله، وأنت مهمتك كأب ومربّ لن تتأتى إلا بعد مدة طويلة تكون فيها المسائل قد غُرست في الطفل، فالطفولة في الإنسان هي أطول أعمار الطفولة في الكائنات كلها، إنها تستمر حتى فترة بلوغ الحلم، وعمل الأم مع الطفل يؤثر في أوليات تكوينه، إنه يؤثر في قِيَمه، وتكوين أخلاقه.

---

(١) [البقرة: ٢٢١].

## الاستمتاع بالجمال الحسّي للمرأة لا يزيد عن شهر!!

﴿وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ﴾ إن عمر الاستمتاع بالجمال الحسّي للمرأة والاستمتاع بها، إن جمعنا لحظاته بالدقائق والساعات، فلن يزيد عن شهر من مجموع سنوات الزواج، فكل أسبوع يتم لقاء قد يستغرق دقائق وبعدها يذبل الجمال، وتبقى القيم هي المتحكمة، ونحن نجد المرأة حين تتزوج، ثم يبدأ الحمل، فإنها تعاني من القلق وكذلك أهلها. فالرجل إن كان قد تزوجها للوسامة والقسامة والقوام والعينين، فهذا كله سيبرد ويهدأ ويتلاشى بعد فترة، وعندما يلتفت إليها الإنسان ولا يجدها فهو يغرق في الندم؛ لأنها لم تكن في باله وقت أن اختار،لذلك تريد المرأة أن تُمكّن لنفسها بأن يكون عندها ولد لتربط الرجل بها.

﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ المقاييس واحدة في اختيار شريك الحياة، إنها الرغبة في بناء الحياة الأسرية على أساس من الخير، وغاية كل شيء هي التي تحدد قيمته، وليست الوسيلة هي التي تحدد قيمة الشيء، فقد تسير في طريق خطر وغايته فيها خير، وقد تسير في سبيل مفروش بالورود والرياحين وغايته شر.

## يبهرها الشابّ ثم تجده إنساناً آخر!!

﴿وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ لقد جاء قول الله هنا بمقاييس الإعجاب الحسّي، ليلفتنا إلى أننا لا يصح أن نهمل مقاييس خالدة ونأخذ مقاييس مؤقتة وزائلة، فالمقاييس

العقلية والاجتماعية والخلقية التي قد لا تنظر إليها الفتاة؛ فقد يبهرها في الشاب قوامه وحسن شكله وجاذبية حديثه، لكن عندما تدخل المسألة في حركة الحياة ودوامتها قد تجده إنساناً آخر غير جدير بها.

## هذا التذكّر ماذا يفعل؟

﴿لَعَلَّهُمۡ يَتَذَكَّرُونَ ۝٥٨﴾ يرد هذا القول كثيراً في القرآن، هذا التذكر ماذا يفعل؟ إن التذكر يُشعرك بأن القضية كانت معلومة والغفلة هي التي طرأت، لكن الغفلة إذا تنبّهتَ إليها، فهي تذكرك ما كنت قد نسيته من قبل، لكن إن طالت الغفلة نُسي الأصل، فهذه هي الطامّة التي تنطمس بها المسألة، لأن المشركة في مثل هذه الحالة، ستتولى حضانة الطفل لمدة طويلة، هي أطول أعمار الطفولة في الكائن الحي، ولو كان الأب مؤمناً والأم مشركة، فالأب سيكون مشغولاً بحركة الحياة، فتتأصّل عن طريق الأم معظم القيم التي تتناقض مع الإيمان. كما أن المرأة المؤمنة بحكم زواجها من مشرك، ستنتقل إليه وإلى بيئته المشركة، وإلى أسرته، وسينشأ طفلها في بيئة شركية، فتتأصّل فيه الأشياء القيمية التي تناقض الإيمان، ويريد الله سبحانه بهذه الصيانة أن يحمي الحاضن الأول للطفولة، فلا يتذبذب بين عقائد متعددة.

## إذن، لماذا رخّص اللّه للمسلمين أن ينكحوا أهل الكتاب؟!

علينا أن نفهم أن الله تعالى رخص للمؤمنين في أن ينكحوا أهل الكتاب، إذا كان للرجل الولاية، فهو غالباً ما ينقلها إلى بيئته هو، وستكون البيئة المؤثرة واحدة، ويخفف من تأثير الأم الكتابية على أولادها، وإن كان على الإنسان أن يتيقظ إلى أن هناك مسالك تتسلل ناحية الشرك، فمن الخير أن يبتعد المسلم عن ذلك، وأن يتزوج فتاة مسلمة.

## لماذا لا نوجد حضانات جماعية؟

يتساءل البعض: لماذا لا نوجد حضانات جماعية؟ وكأنهم بذلك يريدون أن يحلوا الإشكال،نقول لهم: إن الإشكال لم يحل عند الذين فعلوا ذلك من قبلنا، ولذلك فعندما نقرأ مؤلفاتهم مثل كتاب (أطفال بلا أسر) فسنجد أن الطفولة عندهم معذبة، ولماذا نذهب بعيداً؟ إننا عندما نتتبع كيفية النشأة الجماعية للأطفال في إسرائيل، فالبحوث تؤكد على أن الأطفال يعيشون في بؤس رهيب، وكيف يغيب عن بالنا أن الطفل تصل سنُّهُ إلى عامين أو أكثر وهو يطلب ألا يشاركه في أمه أحد، حتى وإن كان أخاً له فهو يغار منه، فما بالك بأطفال متعددين تقوم امرأة ليست أمهم برعايتهم؟

## الذهن يستعد للخطر الذي سيأتي به الحكم!

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ ۖ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾﴾[1].

أما عن قضية التواصل مع المرأة أثناء فترة الحيض، فقد كان الحال متأرجحا بين الإفراط والتفريط، فهي امرأة إما أنها تعاني من قذارة ويجب أن تعيش في عزلة عن المجتمع، وإما أنها امرأة عادية تباشر حياتها الزوجية مع زوجها دون تحوّط أو تحفظ، فجاء الإسلام ليضع حداً لهذه المسألة. وقوله تعالى عن المحيض إنه أذى، وبذلك يستعد الذهن للخطر الذي سيأتي به الحكم، وقد جاء الحكم بالحظر والمنع، فالخالق أراد أن تكون عملية الحيض في المرأة عملية كيماوية ضرورية لحياتها وحياة الإنجاب، وأمر الرجال أن يعتزلوا النساء وهن حوائض؛ لأن المحيض أذى لهم، لكن هل دم الحيض أذى للرجال أو للنساء؟ إنه أذى للرجال والنساء معا؛ لأن الآية أطلقت الأذى، ولم تحدد من المقصود به.

## لا يرهقها الرجل بأكثر مما هي عليه!

والذي يقول: إن المحيض هو مكان الحيض، يبني قوله بأن المحرم هو المباشرة الجنسية، لكن ما فوق السرة، وما فوق الملابس فهو مباح، فقوله

(١) [البقرة: ٢٢٢].

تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ﴾ أي لا تأتوهن في المكان الذي يأتي منه الأذى وهو دم الحيض، والحيض يصيب المرأة بأذى في قوتها وجسدها؛ بدليل أن الله رخص لها ألاّ تصوم وألاّ تصلي، إذن فالمسألة منهِكة ومتعِبة لها، فلا يجوز أن يرهقها الرجل بأكثر مما هي عليه.

## إياك أن تأخذ المسألة استمتاع جنسي فقط!

﴿نِسَآؤُكُمۡ حَرۡثٞ لَّكُمۡ فَأۡتُواْ حَرۡثَكُمۡ أَنَّىٰ شِئۡتُمۡۖ وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُۗ وَبَشِّرِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢٢٣﴾[1].

إن الله ﷻ يفسح المجال للتمتع للرجل والمرأة على أي وجه من الأوجه، شريطة أن يتم الإتيان في محل الإنبات وهو الفرج، وقد جاء الحق بكلمة ﴿حَرۡثٞ﴾ هنا، ليوضح أن الحرث يكون في مكان الإنبات، مكان زرع الولد، أما المكان الذي لا ينبت منه الولد فلا تقربوه. إياك أن تأخذ المسألة على أنها استمتاع جنسي فحسب، إنما يريد الحق ﷻ بهذه اللذة الجنسية، أن يحمي متاعب ما ينشأ من هذه اللذة؛ لأن الذرية التي ستأتي من أثر اللقاء الجنسي سيكون لها متاعب وتكاليف، فلو لم يربطها الله ﷻ بهذه اللذة لزهد الناس في الجماع، ومن هنا يربط الله سبحانه، بين كدح الآباء وشقائهم في تربية أولادهم، بلذة الشهوة الجنسية، حتى يضمن بقاء النوع الإنساني، ومع هذا يحذرنا الحق أن نعتبر هذه

---

(١) [البقرة: ٢٢٣].

اللذة الجنسية هي الأصل في إتيان النساء فقال: ﴿وَقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُمۡۚ﴾ أي ادّخروا لأنفسكم شيئاً ينفعكم في الأيام المقبلة، ولا تأخذوا المتاع اللحظي العاجل على أنه هو الغاية، بل خذوه لما هو آت، وكيف نقدم لأنفسنا؟ لا بد أن يسمي الله ويقول: «**اللهم جنبني الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتني**»[١]. فإن فعلت ذلك فقد جعلت لابنك حصانة أبدية.

## يكفّر عن يمينه، ولا يعتاد ذلك!

﴿وَلَا تَجۡعَلُواْ ٱللَّهَ عُرۡضَةٗ لِّأَيۡمَٰنِكُمۡ أَن تَبَرُّواْ وَتَتَّقُواْ وَتُصۡلِحُواْ بَيۡنَ ٱلنَّاسِۚ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٢٢٤﴾[٢].

ولا تجعلوا أيها المسلمون حلفكم بالله مانعًا لكم من أعمال الخير والإصلاح بين الناس، بأن تُدْعَوا إلى فعل شيء منها، فتحتجّوا بأنكم أقسمتم بالله ألا تفعلوه، بل على الحالف أن يعدل عن حلفه، ويفعل أعمال الخير، ويكفّر عن يمينه، ولا يعتاد ذلك. لماذا؟ لأن المؤمن عندما يحلف على ألا يفعل خيراً، فهو يضع الله مانعاً بينه وبين الخير، فلا تجعل يمين البشر مانعاً من تنفيذ منهج رب البشر.

---

(١) رواه البخاري.

(٢) [البقرة: ٢٢٤].

## الله تعالى يضبط العلاقة الجنسية بين الزوجين

﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾﴾[1].

يريد الرجل أحيانا أن يؤدّب زوجته فيهجرها في الفراش دون أن يحلف، وبعض الناس لا يستطيعون أن يمتنعوا عن نسائهم من تلقاء أنفسهم، فيحلفون ألا يقربوهنّ حتى يكون اليمين مانعا ومشجعا له على ذلك، وبعضهم كان يحلف ألا يقرب زوجته زمنا محدداً، وقبل أن ينتهي هذا الزمن يحلف يمينا آخر ليزيد المدة فترة أخرى، وهكذا، وكان ذلك إهداراً لحق الزوجة في الاستمتاع بزوجها، ويريد الله ﷻ أن يُنهي هذه المسألة، لذلك أعطى الله للرجل الحق في أن يمتنع عن زوجته أربعة أشهر، أما أكثر من ذلك فالمرأة لا تطيق، وهكذا يضبط الخالق العلاقة الجنسية بين الزوجين ضبطا سليما نظيفا.

## يكفّر عن يمينه وتنتهي المسألة

﴿فَإِن فَآءُو﴾ أي فإن رجع الرجل، وأراد أن يقترب من زوجته قبل مضي الأربعة أشهر؛ فللرجل أن يكفّر عن يمينه وتنتهي المسألة، ولكن إذا مرت الشهور الأربعة وتجاوزت المقاطعة مدتها يؤمر الزوج بالرجوع عن اليمين أو بالطلاق، فإن امتنع الزوج طلقها الحاكم، وقال بعض الفقهاء: إنّ مضي مدة الأربعة أشهر دون أن يرجع ويفيء يجعلها مطلقة طلقة واحدة بائنة.

---

(١) [البقرة: ٢٢٦].

## حرارة الشهوة الجنسية للرجل!

عندما نتأمل موقف الإسلام من الطلاق، نجده يتكلم كلاماً واقعياً يناسب الميول الإنسانية؛ فمن الممكن أن يطرأ على حياة الزوجين أحداث أو مشاعر لم تكن في الحسبان ساعة الزواج، فقد يكون مدفوعا بحرارة ملكة واحدة، وبعد ذلك تتملكه ملكات متعددة، قد تسيطر عليه المسألة الجنسية، وتدفعه للزواج، وفي سبيل إرضاء شهوته الجنسية قد يهمل بقية ملكات نفسه، فإذا ما دخل واقع الزواج وهدأت غرائزه، تنبّه إلى مقاييس أخرى يريد أن يراها في زوجته، فلا يجدها، ويتساءل ما الذي أخفاها عنه؟ أخفاها سعار النظرة الجنسية، فقد نظر للمرأة قبل الزواج من زاوية واحدة، ولم ينظر لباقي الجوانب.

## إذا مرت ثلاثة أشهر، فلا أمل بالرجوع

﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًاۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾﴾[1].

والعلة هي استبراء الرحم، وإعطاء مهلة للزوجين في أن يراجعا نفسيهما، فربما بعد الطهر الأول أو الثاني يشتاق أحدهما للآخر، فتعود المسائل لما كانت عليه، لكن إذا مرت ثلاثة أطهار، فلا أمل ولا رجاء في الرجوع.

---

(١) [البقرة: ٢٢٨].

## نظام العدّة للمرأة له ثلاث حالات

إذن فنظام العدة له حالات: الأولى: إن كانت غير حامل فعدتها ثلاثة قروء أي ثلاثة أطهار إن كانت ممن يحضن، الحالة الثانية: إن كانت حاملا فعدتها أن تضع حملها، الحالة الثالثة: إن لم تكن حاملا وقد بلغت سن اليأس ولم تعد تحيض، أو كانت صغيرة لم تصل لسن الحيض، هذه وتلك عدتها ثلاثة أشهر، وهي التي تقرر المسألة بنفسها، فتقول: أنا حامل أو لا، وعليها ألا تكتم ذلك، فقد يجوز أن تكون حاملا، وبعد ذلك تكتم ما في بطنها، حتى لا تنتظر طول مدة الحمل، وتتزوج رجلاً آخر، فينسب الولد لغير أبيه، فغالباً ما يستمر الحمل تسعة أشهر، ولكن فيه استثناء، فهناك حمل مدته سبعة شهور، وأحيانا ستة شهور. وقد تتزوج المرأة المطلقة بعد ثلاثة شهور وتدّعي أنها حامل من الزوج الجديد وأن حملها لم يستمر سوى سبعة أشهر أو ستة أشهر.

## كيف يكون مرتين، ونحن نقول ثلاثة؟

﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَأۡخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ شَيۡـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَا فِيمَا ٱفۡتَدَتۡ بِهِۦۗ تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعۡتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٢٩﴾[1].

(١) [البقرة: ٢٢٩].

ولقائل أن يقول: كيف يكون مرتين، ونحن نقول ثلاثة؟ وقد سأل رجلٌ رسول الله ﷺ. فقال يا رسول الله قال الله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ فلم صار ثلاثاً؟ فقال ﷺ مبتسماً: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ ، فكأن معنى ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِۖ﴾ ، أي أن لك في مجال اختيارك طلقتين للمرأة، إنما الثالثة ليست لك؟ لأنها من بعد ذلك، ستكون هذه المرأة قد أصبحت من حق رجل آخر.

## أنت (طالق ثلاثاً) هل يُعتبر ثلاث طلقات؟

أما قول الرجل لزوجته أنت «طالق ثلاثاً» يُعتبر ثلاث طلقات أم لا؟ نقول: إن الزمن شرط أساسي في وقوع الطلاق، يطلّق الرجل زوجته مرة، ثم تمضي فترة من الزمن، ويطلقها مرة أخرى فتصبح طلقة ثانية، وتمضي أيضا فترة من الزمن، وبعد ذلك نصل لقوله: ﴿فَإِمۡسَاكُۢ بِمَعۡرُوفٍ أَوۡ تَسۡرِيحُۢ بِإِحۡسَٰنٖۗ﴾ ولذلك فالآية نَصّها واضح وصريح في أن الطلاق بالثلاث في لفظ واحد، لا يوقع ثلاث طلقات، وإنما هي طلقة واحدة، صحيح أن سيدنا عمر رضي الله عنه جعلها ثلاث طلقات؛ لأن الناس استسهلوا المسألة، فرأى أن يشدّد عليهم ليكفّوا، لكنهم لم يكفّوا.

## مرحلة اللا عودة

﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعۡدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوۡجًا غَيۡرَهُۥۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِۗ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ٢٣٠﴾[1]

(١) [البقرة: ٢٣٠].

إن وصلت الأمور بين الزوجين إلى مرحلة اللا عودة، فلا بد من درس قاس؛ وهو أن تتزوج المرأة بزوج آخر وتجرب حياة زوجية أخرى، وقد يأخذ بعض الرجال المسألة بصورة شكلية، فيتزوج المرأة المطلقة ثلاثاً زواجاً كامل الشروط من عقد وشهود ومهر، لكن لا يترتب على الزواج معاشرة جنسية بينهما، وذلك هو (المحلل) الذي نسمع عنه وهو ما لم يقره الإسلام، لأن المحلل لم يكن زوجاً وإنما تمثيل زوج، والتمثيل لا يُثبت في الواقع شيئاً.

## تدخّل الأهل، تشتعل الخصومة!

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍۚ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا۟ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥۚ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًاۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٣١﴾﴾[١].

لكن إذا ما دخل طرف ثالث في النزاع، ولا توجد عنده الحاجة بأن تدوم عشرة الزوجين، كالأب أو الأخ أو الأم، فسوف تشتعل الخصومة، ومن هنا فإن حرص الأطراف الخارجية على بقاء عشرة الزوجين لا يكون مثل حرص كل من الزوجين على التمسك بالآخر، ولذلك يجب أن نفهم أن كل مشكلة تحدث بين زوج وزوجته، ولا يتدخل فيها أحد، تنتهي بسرعة، فقد تكفي نظرة واحدة من أحد الزوجين للآخر، لأن تعيد الأمور إلى مجاريها.

---

(١) [البقرة: ٢٣١].

## لا يطلق الرجل زوجته وهي حائض، لماذا؟

ولذلك شاءت إرادة الله ﷻ، ألا يطلق الرجل زوجته وهي حائض، لماذا؟ لأن المرأة في فترة الحيض لا يكون لزوجها رغبة فيها، وربما ينفر منها، لكن يريد الحق ﷻ ألا يطلق الرجل زوجته إلا في طهر، لم يسبق له أن عاشرها فيه معاشرة الزوج زوجته، وبعد أن تغتسل من الحيض، وذلك حتى لا يطلقها إلا وهو في أشد الأوقات رغبة لها.

## في الظاهره يريد الخير، وفي الباطن يريد الشر!

﴿وَلَا تُمۡسِكُوهُنَّ ضِرَارٗا لِّتَعۡتَدُواْۚ﴾ أي لا تُبق أيها الرجل على الحياة الزوجية من أجل الإضرار بالمرأة وإذلالها، ومعنى الضرار أنك تصنع شيئا في ظاهره أنك تريد الخير، وفي الباطن تريد الشر، يقول الرجل أنا لا أريد طلاقها وسأعيدها لبيتها، يقول ذلك، ويُبيّت في نفسه أن يعيدها ليذلها وينتقم منها، وهذا لا يقرّه الإسلام؛ بل وينهى عنه، فإياك أن تظن أنك حين تعتدي على زوجتك أنك ظلمتها هي، لا، إنما أنت تظلم نفسك؛ لأنك حين تعتدي على إنسان فقد جعلت ربه في جانبه، فهل هناك ظلم أكثر من الظلم الذي يأتيك بسخط الله عليك.

## خذوا نظام اللّه، بلا تحليق في خيال كاذب

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوٗاۚ﴾ خذوا نظام الله، على أنه نظام جاء ليحكم حركة الحياة، حكما بلا مراوغة وبلا تحليق في خيال كاذب، إنما هو أمر واقعي،

فلا يصح أن يهزأ أحد بما أنزله الله، من أنظمة تصون حياة وكرامة الإنسان رجلاً وامرأة، وإياكم أن تتهموا دينكم بأنه قد فاته شيء من التشريع لكم، لأن الله عليم بما تكون عليه أحوال الناس.

## يقف بين الزوجين حجر عثرة!!

﴿وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْاْ بَيْنَهُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾﴾[1].

وهنا يتدخل أهل الإثارة والخصومة من الأقارب، ويقفون في وجه إتمام الزواج، والزوجان ربما كان كل منهما يميل إلى الآخر، وبينهما سيال عاطفي ونفسي لا يعلمه أحد، لكن الذين دخلوا في الخصومة من الأهل، يقفون في وجه عودة الأمور إلى مجاريها، خوفا من تكرار ما حدث أو لأسباب أخرى. إن حكمة التشريع في تدرج الطلاق مرة ومرتين، هي أن من لم يصلح في المرأة الأولى قد يصلح في المرة الثانية، وإذا كان الله العليم بنفوس البشر قد شرع لهم ذلك، وأعطى فسحة من الوقت لمن أخطأ في المرة الأولى ألا يخطئ في الثانية، لذلك فلا يصح أن يقف أحد حجر عثرة أمام إعادة الحياة الزوجية من جديد. ﴿أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ﴾ ونلحظ هنا أن الحق ﷻ ينسب النكاح للنسوة، فقال:

---

(١) [البقرة: ٢٣٢].

﴿يَنكِحْنَ﴾ وهذا يقتضي رضاء المرأة عن العودة للزوج، فلا يمكن أن يطلقها أولا، ثم لا يكون لها رأي في العودة إليه.

## لا تجعلوا طلاقكم مصدر تعاسة للطفل البريء!

﴿۞وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةٌۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾﴾(١).

انظر إلى عظمة الإسلام، فالطلاق يورّث الشقاق بين الرجل والمرأة، والله سبحانه وتعالى ينظر للمسألة نظرة الرحيم بعباده، فيريد أن يحمي الثمرة التي نتجت من الزواج قبل أن يحدث الشقاق بين الأبوين، فيبلغنا: لا تجعلوا شقاقكم وخلافكم وطلاقكم مصدر تعاسة للطفل البريء الرضيع.

## ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ ولم يقل: (وعلى الوالد)!

لنتأمل عظمة الأداء القرآني في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ﴾ أي الأب، إنه لم يقل: (وعلى الوالد)، ذلك ليكلفه بالتبعات في الرزق والكسوة، لأن (الوالد) قد

---

(١) [البقرة: ٢٣٣].

تكون المرأة فهي التي تلد وليس الرجل، وأن مسئولية الإنفاق على المولود هي مسئولية ﴿ٱلۡمَوۡلُودِ لَهُۥ﴾ وهو الأب وليست مسئولية الأم، وهي قد حملت وولدت وأرضعت، والولد يُنسب للأب في النهاية، وما دام المولود منسوباً للرجل الأب، فعلى الأب رزقه وكسوته هو، وعليه أيضا رزق وكسوة أمّه التي ترضعه بالمعروف المتعارف عليه، بما لا يسبب إجحافاً وظلما للأب.

## لا يتركها تتكفّف الناس

﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوۡلُودٞ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ﴾ على الأب ألا يضر والدة الطفل بمنع الإنفاق على ابنه، وألا يتركها تتكفف الناس من أجل رزقه وكسوته، وفي الوقت نفسه يُذَكّرُ الله الأم: لا تجعلي رضيعك مصدر إضرار لأبيه بكثرة الإلحاح في طلب الرزق والكسوة.

## سلامة الطفل في احتمالات ثلاث

﴿وَعَلَى ٱلۡوَارِثِ مِثۡلُ ذَٰلِكَۗ﴾ الوارث هو وليّ أمر الطفل في حال عدم وجود الأب، سواء كان ذلك بسبب الموت أو السجن أو السفر، وبذلك يكون الله قد شَرَّع صيانة أسلوب حياة الطفل في حال وجود أبويه، وشرّع له في حال طلاق أبويه وأبوه موجود، وشرّع له في حال طلاق أبويه مع فقدان الأب لأي سبب من الأسباب المذكورة.

## مسألة خطيرة

إن عليهما أن يلتقيا، بالتشاور والتراضي في مسألة تربية الأولاد، وما يحدث في كثير من حالات الطلاق من تجاهل للأولاد بعد الطلاق هي مسألة خطيرة؛ لأنها تترك رواسب وآثارا سلبية عميقة في نفوس الأولاد، ويترتب عليها شقاؤهم وربما تشريدهم في الحياة، وما ذنب أولاد كان الكبار هم السبب المباشر في مجيئهم للحياة؟ أليس من الأفضل أن يوفر الآباء لهم الظروف النفسية والحياتية التي تكفل لهم النشأة الكريمة؟ إن منهج الله أمامنا، فلماذا لا نطبقه لنسعد به وتسعد به الأجيال القادمة؟

## مرضعة!

هب أن الأم ليست لديها القدرة على الإرضاع أو أن ظروفها لا تسعفها، لضعف في صحتها أو قوتها، عند ذلك فالوالد مُطالب أن يأتي لابنه بمرضعة، قد تحتاج إلى أن يعطيها الأب ما يجعلها تقبل على إرضاعه. ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ٢٣٣﴾ مثال ذلك الأب الذي يريد أن يدلس على المجتمع، فهو يتحايل ويدّعي أنه ينفق على أمّ الطفل أمام الناس، ويعطيها أجرها، بينما الواقع يخالف ذلك، إن الله يحذر من يفعل هذا: أنت لا تعامل المجتمع وإنما تعامل الله.

## إذا انتهت عدتها، سقط حق الزوج في مراجعتها

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ فَإِذَا بَلَغۡنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا فَعَلۡنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٢٣٤﴾[١].

العدة الشرعية: هي الفترة الزمنية التي شرعها الله بعد طلاق أو وفاة الزوج، فإن كانت العدة بعد طلاق فمدتها ثلاثة قروء، والقرء هو الطهر أو الحيضة (ومدتها شهر)، فإن كانت المطلقة صغيرة لم تحض بعد أو كانت كبيرة تعدّت سنّ الحيض فالعدة تنقلب من القروء إلى الأشهر وتصبح ثلاثة أشهر. ومن حق الزوج أن يراجع زوجته بينه وبين نفسه دون تدخّل الزوجة أو وليّ أمرها، له ذلك في أثناء فترة العدة في الطلاق الرجعي، فإن انتهت عدتها فقد سقط حقه في مراجعة الزوجة بنفسه، وله أن يراجعها، ولكن بمهر وعقد جديدين ما دام قد بقى له حق، أي لم يستنفد مرات الطلاق. وإن تعدت الطلقات اثنتين وأصبحت هناك طلقة ثالثة فلا بد من زوج آخر يتزوجها.

## أليس من الجائز أن تلد الزوجة قبل أن يدفن زوجها؟

وأما عدة المتوفى عنها زوجها، فالقرآن ينصّ على أنها تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشرا، هذا إن لم تكن حاملا، فإن كانت حاملا فعدتها أبعد الأجلين،

---

(١) [البقرة: ٢٣٤].

فإن كان الأجل الأبعد هو أربعة أشهر وعشرا فتلك عدّتها، وإن كان الأجل الأبعد هو الحمل فعدتها أن ينتهي الحمل. لكن أليس من الجائز أن يموت زوجها وهي في الشهر التاسع من الحمل فتلد قبل أن يدفن؟ وهل يعني ذلك أن عدتها انتهت؟ لا، إنها تنتهي بأبعد الأجلين وهو في هذه الحالة مرور أربعة أشهر وعشرا وفاءً للزوج ، وإن قال بعض الفقهاء: إن عدة الحامل بوضع الحمل، لكن إذا لم يكن زوجها متوفَّى عنها فعدتها أن تضع حملها، وإن شاءت أن تتزوج فلها ذلك ولو بعد لحظة.

## لم يقل: فلا جناح عليهنّ؟

﴿فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِيٓ أَنفُسِهِنَّ﴾ إذا بلغت الأجل وانتهى، ولم يقل: فلا جناح عليهن، لقد وجه الخطاب هنا للرجال، فإذا رأى في سلوكها ما ينافي العدة فله أن يتدخل، مثلا إذا رآها تتزين، قال لها أو أرسل إليها من يقول لها: لماذا تتزينين؟ فللرجال قوامة على المتوفى عنها زوجها. فالآية لا تَخُصُ بالوصاية جماعة دون أخرى، إنها الكل يتواصون، فأنت رقيب عليّ فتوصيني، وأنا رقيب عليك فأوصيك، والله سبحانه لم يخصّ بالخطاب أولياء أمور النساء فحسب، وإنما ترك الحكم للجميع حتى لا يقول أحد: لا علاقة لي بالمرأة التي توفى عنها زوجها ولتفعل ما تشاء.

## لا تعتقد أن المسألة انتهت!

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ۝٨﴾ أي والله أعلم بما في نفسها وبما في نيتها، وهب أنها فعلت أي فعل على غير مرأى من أحد، فلا تعتقد أن المجتمع، وإن لم يشهد منها ذلك، أن المسألة انتهت، لا، إن الله عليم بما تفعل وإن لم يطلع عليها أحد من الناس.

## المرأة المطلقة، قد تثأر لنفسها وتتعجل الزواج

الله ﷻ حمى بكل التشريعات السابقة حق الزوج حتى تنتهي العدة، وحق المتوفى عنها زوجها في أثناء العدة، وجعل المرأة حرما لا يقترب منه أحد يخدش حجابها، لماذا؟ لأن المرأة خاصة إذا كانت مطلقة، قد تتملكها رغبة في أن تثأر لنفسها ولكرامتها، وربما تعجلت التزوج، وربما كانت مسألة الخلاف ناشئة عن اندساس رغبة راغب فيها، وبمجرد أن يتم طلاقها وتعيش فترة العدة فقد يحوم حولها الراغبون، أو تستشرق من تراه صالحاً كزوج لها، ولذلك يفرض الحق سياجا من الزمن ويجعل العدة كمنطقة حرام ليحمي المرأة حماية موضوعية لا شكلية.

## أدب الاحتياط

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ فِيمَا عَرَّضۡتُم بِهِۦ مِنۡ خِطۡبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوۡ أَكۡنَنتُمۡ فِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمۡ سَتَذۡكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ۝٢٣٥﴾[١].

(١) [البقرة: ٢٣٥].

الله تعالى يريد أن يجعل للعواطف تنفيسا من هذه الناحية، رعاية للمصلحة، فمن الجائز أنه لو حزم التعريض(وهو التلميح)، لكان في ذلك ضياع فرصة من يطلبها من الرجال، لذلك يضع الحق القواعد التي تفرض على الرجل والمرأة معا أدب الاحتياط، وكأنه يقول لنا: أنا أمنعكم أن تخطبوا في العدة، أو تقولوا كلاماً صريحاً وواضحاً فيها، لكن لا مانع من التلميح من بعيد.

## التعريض فرصة للتعبير عن العاطفة

فالتعريض (وهو التلميح) له فائدة في أنه يُعرّف المطلقة رأي فلان فيها حتى إن جاءها غيره لا توافق عليه مباشرة، وهكذا نرى قبساً من رحمة الله ﷻ بنا، بأن جعل العدة كمنطقة حرام تحمي المرأة، وجعل التعريض فرصة للتعبير عن العاطفة التي تؤسس مصلحة من بعد ذلك. وللمسلم أن يخفي في نفسه ما يشاء، ولكن ما الذي يُدري ويعلم المطلقة أنها في بالك يا من أسررت أمرها في نفسك؟ إنك لا بد أن تلمّح وأن تعرّض بأسلوب يليق باحترام المرأة.

## الذي خلقك يعلم أنها في بالك

﴿عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ﴾ إن الذي خلقك يعلم أنها ما دامت في بالك، ومات زوجها عنها أو طلقها فقد أصبحتْ أملا بالنسبة لك، فلو أنه ضيّق عليك لضاعت منك الفرصة لأن تتخذها زوجة من بعد ذلك، ولهذا أباح الحق التعريض حتى لا يقع أحدكم في المحظور وهو ﴿لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا﴾ بأن

تأخذوا عليهن العهد ألا يتزوجن غيركم، أو يقول لها: تزوجيني، بل عليه أن يعرض ولا يفصح ولا يصرح، لكن المسموح به هو التعريض بأدب، ﴿إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗاۚ﴾ كأن يقول: (يا سعادة من ستكون له زوجة مثلك) ومثل ذلك من الثناء الذي يُطرب المرأة، ونعلم جميعا أن المرأة في مثل حال المطلقة أو المتوفى عنها زوجها تملك شفافية وألمعية تلتقط بها معنى الكلام ومراده.

## ديمومة وبقاء، لا مجرد شهوة طارئة!

﴿وَلَا تَعۡزِمُواْ عُقۡدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ ٱلۡكِتَٰبُ أَجَلَهُۥۚ﴾ فلك أن تنوى الزواج منها وتتوكل على الله، لكن لا تجعله أمرا مفروغا منه، إلا بعد أن تتم عدتها، فإن بلغ الكتاب أجله وانتهت عدتها فاعزموا عقدة النكاح؛ فكأن عقدة النكاح تمر بثلاث مراحل: التعريض أي التلميح، ثم العزم بعد انتهاء فترة العدة، ثم العقد، والمقصود بهذه المراحل أن يأخذ كل طرف فرصته للتفكير العميق في هذا الأمر الجاد، حتى تستقر على رأي أكيد له ديمومة وبقاء، لا مجرد شهوة طارئة.

## الذين يبيحون زواج المتعة مصابون في تفكيرهم!

فالعلة في تحريم زواج المتعة أن المقدم عليه لا يريد به الاستمرار في الحياة الزوجية، وما دام لا يقصد منه الديمومة فمعناه أنه هدف للمتعة الطارئة، والذين يبيحون زواج المتعة مصابون في تفكيرهم؛ فما الداعي لأن تقيد زواجك

بمدة؟ وتأمل حمق هؤلاء لتعلم أن المسألة ليست مسألة زواج، إنما المسألة هي تبرير زنى، وإلا لماذا يشترط في زواج المتعة أن يتزوجها لمدة شهر أو أكثر؟

## غباء تفكيره وسوء نيته!

إن الإنسان حين يشترط تقييد الزواج بمدة، فذلك دليل على غباء تفكيره وسوء نيته؛ لأن الزواج الأصيل هو الذي يدخل فيه بديمومة، وقد ينهيه بعد ساعة إن وجد أن الأمر يستحق ذلك، ولن يعترض أحد على مثل هذا السلوك، فلماذا تقيد نفسك بمدة؟ إن المتزوج للمتعة يستخدم الذكاء في غير محله، قد يكون ذكيا في ناحية ولكنه قليل الفطنة في ناحية أخرى.

## حذار أن تضع في نفسك مثل هذا الزواج!

﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُۚ﴾ حذار أن تضع في نفسك مثل هذا الزواج المربوط على مطامع وأهداف في نفسك، كعدم الديمومة، أو لهدف المتعة فقط، فكل ما يفكر فيه بعض الناس من أطماع شهوانية ودنيوية هي أطماع زائلة، اصرف كل هذه الأفكار عنك؛ لأنك إن أردت شيئاً غير الديمومة في الزواج، وإرادة الإعفاف؛ فالله سبحانه يعلمه وسيردّ تفكيرك نقمة عليك فاحذره، والله سبحانه لا يحذر الإنسان من شيء إلا إذا كان مما يغضبه، وهو سبحانه يعلم ضعف النفس البشرية وأنها قد تضعف في بعض الأحيان، حينئذ: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ٢٣٥﴾ فإن كان قد حدث منها شيء فالله يعطيها الفرصة في أن يتوب صاحبها، لأنه سبحانه هو الغفور الحليم.

## ما هو المس؟

﴿لَّا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ إِن طَلَّقۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ مَا لَمۡ تَمَسُّوهُنَّ أَوۡ تَفۡرِضُواْ لَهُنَّ فَرِيضَةٗۚ وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ مَتَٰعَۢا بِٱلۡمَعۡرُوفِۖ حَقًّا عَلَى ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٢٣٦﴾[1].

قد تحدث بعض من المسائل تستوجب الطلاق لامرأة غير مدخول بها، ولنا أن نسأل ما هو المس؟ ولنتأمل أدب القرآن في تناول هذه المسألة نقول: كلمة «المس» هنا دلت على الدخول والوطء، وهي أيسر من أن يقول: باشرتم، ونحن نأخذ هذا المعنى؛ لأن هناك سياقا قرآنيا في مكان آخر، نستطيع منه أن نفهم المعنى المقصود بكلمة «المس» هنا، فقد قالت السيدة مريم: ﴿قَالَتۡ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠﴾[2]. ومعناه: أن أحداً من البشر لم يتصل بها ذلك الاتصال الذي ينشأ عنه غلام. ﴿وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى ٱلۡمُوسِعِ قَدَرُهُۥ وَعَلَى ٱلۡمُقۡتِرِ قَدَرُهُۥ﴾ أي إنّك إذا طلقت المرأة قبل الدخول، ولم تفرض لها فريضة (أي مهرا) فأعطها متعة، وقال العلماء في قيمة المتعة: إنها ما يوازي نصف مهر مثيلاتها من النساء

---

(١) [البقرة: ٢٣٦].

(٢) [مريم: ٢٠].

## أيهما أفضل: العدل أم الفضل؟

﴿وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَا۟ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾(١).

ذهب اثنان إلى رجل ليحكم بينهما قال: أتحبون أن أحكم بينكما بالعدل؟ أم بما هو خير من العدل؟ فقالا: وهل يوجد خير من العدل؟ قال: نعم، الفضل، إن العدل يعطي كل ذي حق حقه، ولكن الفضل يجعل صاحب الحق يتنازل عن حقه أو عن بعض حقه، إذن فالتشريع حين يضع موازين العدل لا يريد أن يحرم النبع الإيماني من أريحية الفضل؛ فهو يعطيك العدل، ولكنه سبحانه يقول بعد ذلك: ﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾؛ فالعدل وحده قد يكون شاقاً وتبقى البغضاء في النفوس، ولكن عملية الفضل تنهي المشاحة والمخاصمة والبغضاء.

## للزوجة أن تعفو عن نصف مهرها

والمقصود بـ ﴿يَعْفُونَ﴾ هو الزوجة المطلقة، إن بعض الجهلة يقولون: إن القرآن فيه لحن، وظنوا أن الصحيح في اللغة أن يأتي القول: إلا أن يعفوا بدلا من ﴿إِلَّآ أَن يَعْفُونَ﴾، وهذا اللون من الجهل لا يفرق بين «واو الفعل» و«واو الجمع» إنها هنا «واو الفعل»، وهكذا نفهم أن للزوجة أن تعفو عن نصف مهرها وتتنازل عنه لزوجها.

---

(١) [البقرة: ٢٣٧].

## قالوا: إنه ولي الزوجة!

﴿أَوۡ يَعۡفُوَاْ ٱلَّذِي بِيَدِهِۦ عُقۡدَةُ ٱلنِّكَاحِۚ﴾ والمقصود به الزوج وليس وليّ الزوجة، الزوج يعفو عن المهر كله إكراما لزوجته المطلقة لا النصف فقط، مع أن بعض المفسرين قالوا: إنه وليّ الزوجة، وأقول: لماذا يأتي الله بحكم تتنازل فيه المرأة عن حقها وأن تعفو عن النصف، والرجل لا يعفو؟ لماذا تجعل السماء الغرم كله على المرأة؟ هل من المنطقي أن تعفو النساء، فنجعل العفو يأتي من الزوجة ومن أوليائها؛ أي من جهة واحدة؟ ﴿وَأَن تَعۡفُوٓاْ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۚ﴾ من الجائز جدا، أن يظن أحد الطرفين أنه مظلوم وإن أخذ النصف الذي يستحقه، لكن إذا لم يأخذ شيئا فذلك أقرب للتقوى وأسلم للنفوس، ولنا أن نتذكر دائما في مثل هذه المواقف قول الحق: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلۡفَضۡلَ بَيۡنَكُمۡۚ﴾ أي لا تجعلوها خصومة وثأراً وأحقاداً.

## ما المقصود بالصلاة الوسطى؟

﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلۡوُسۡطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ ٢٣٨﴾[1].

لماذا اختار الله الصلاة دون سائر العبادات لتقطع سياق الكلام عن تشريع الطلاق والفراق بالوفاة؟ لأن الصلاة هي التي تهب المؤمنين الاطمئنان، إن المؤمن يذهب إلى الخالق ليسأله أن يخفف عنه الهم والحزن، فنفهم أن المقصود

---

(١) [البقرة: ٢٣٨].

في الآية هي الصلوات الخمس، فما المقصود بالصلاة الوسطى؟ فالحفظ معناه أن تضمن بقاء شيء كان عندك؛ ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾ معناه لا تضيعوها، وقد ذقتم حلاوة الصلاة في القرب من معية ربكم، وذلك أجدر وأولى أن تتمسكوا بها أكثر، وما العلة هنا في تفرد الصلاة الوسطى بالخصوص؟ ولماذا أخفى الله ذكرها عنا؟ نقول: ليكون كل شيء هو الشيء نفسه، فيؤدي ذلك إلى المحافظة على جميع الصلوات، ولذلك أبهم الله ليلة القدر للعلة نفسها وللسبب نفسه، فبدل أن تكون ليلة قدر واحدة أصبحت عشر ليال.

## الصلاة واجبة على المؤمنين أثناء القتال!

﴿فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَآ أَمِنتُمْ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٩﴾﴾[١].

إننا حتى في أثناء القتال والخوف، لا ننسى ذكر الله؛ لأننا أحوج ما نكون إليه أثناء مواجهتنا للعدو، ولذلك لا يصح أن نجعل السبب الذي يوجب أن نكون مع الله مبررا لأن ننسى الله،وكذلك المريض فهو مع معية الله، فلا يصح أن ينقطع عن الصلاة؛ فإن لم يستطع أن يصلي واقفا صلى قاعداً، فإن لم يستطع قاعدا؛ فليصل مضطجعا، ويستمر معه الأمر حتى لو اضطر للصلاة برموش عينيه؛ كذلك إن خفتم من عدوكم في الحرب صلوا رجالا، يعني سائرين على

(١) [البقرة: ٢٣٩].

أرجلكم أو ركبانا، والمقصود هنا، أن الصلاة واجبة على المؤمنين سائرين على أقدامهم أو ركبانا.

## صلاة الخوف

هذه المسألة قد فصلها الله ﷻ في صلاة الخوف، بأن قسّم المسلمين قسمين: قسما يصلي مع النبي ﷺ في الركعة الأولى، ثم يتمّون الصلاة وحدهم، ويأتي القسم الآخر ليأتمّ بالرسول في الركعة الثانية حتى تنتهي الصلاة بالنسبة للرسول ﷺ، وينتظرهم حتى يفرغوا من صلاتهم ويسلم بهم، فكلٌّ من الفرقتين كانت تقف في وجه العدو للحراسة في أثناء صلاة الفرقة الأخرى، وكان ذلك في غزوة ذات الرقاع، لكن في وقتنا الحالي الذي انتظمت فيه المسائل، وصار كل الناس على سواء، ولم يعد رسول الله ﷺ فينا، لذلك يصح أن تُصلي كل جماعة بإمام خاص بهم. ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُواْ تَعْلَمُونَ ۝٢٣٩﴾ فلو لم يعلمكم فماذا كنتم تصنعون؟

## بقية الحول والعام وصيّة ليست فريضة

﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِى مَا فَعَلْنَ فِىٓ أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝٢٤٠﴾[1].

(١) [البقرة: ٢٤٠].

إذن نحن أمام حكمين للذين يتوفون ويذرون أزواجا، حكم أن تتربص بنفسها أربعة أشهر وعشرا، وحكم آخر بأن للزوج حين تحضره الوفاة أو أسبابها أو مقدماتها، أن ينصح ويوصي بأن تظل الزوجة في بيته حولا كاملا إلا أن تخرج من نفسها، وتكون الأربعة الأشهر والعشر فريضة، وبقية الحول والعام وصية، إن شاءت أخذتها وإن شاءت عدلت عنها.

﴿وَلِلْمُطَلَّقَٰتِ مَتَٰعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ ۖ حَقًّا عَلَى ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٤١﴾﴾[1].

أي: للمطلقات متاع من كسوة ونفقة على الوجه المعروف المستحسن شرعًا، وما تعارف عليه الناس في المجتمع الذي تعيش فيه، حقًا على الذين يخافون الله ويتقونه في أمره ونهيه.

## لو لم تحدث شرور لقال الناس: لا داعي للتشريع!

﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٤٢﴾﴾[2].

إن الآيات هي الأمور العجيبة، والله ﷻ حين ينبّه العقل إلى استقبال حكم، يكون العقل المحض لو وجّه فكره إلى دراسة أسباب هذا الموضوع فلن ينتهي إلا إلى هذا الحكم، وكأنه بذلك يؤكد حكمته في تشريع ما شرع، وإلا لو لم

(١) [البقرة: ٢٤١].

(٢) [البقرة: ٢٤٢].

تحدث من المخالفات شرور لقال الناس: إنه لا داعي للتشريع، إننا لم نلتزم يا رب بمنهجك، ومع ذلك لا شرور عندنا، فكأن الشرور التي نجدها في المجتمع تلفتنا إلى صدق الله في تحديد منهجه، وهكذا يكون المخالفون لمنهج الله مؤيدين لمنهج الله.

## ما هو السبب؟ ولماذا الخروج؟

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَـٰهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾﴾[1].

يعالج القرآن تلك المسألة من الزاوية التي تهم، ولكن ما هو السبب؟ ولماذا الخروج؟ فذلك أمر لا يهم؛ لأن القرآن لا يعطي تاريخا، ولا يحدد أشخاص القضية، كل ذلك لا يهتم به القرآن، والذين يُتعبون أنفسهم في البحث عن تفاصيل تلك الأمور نقول لهم: إن القرآن لو أراد ذلك لفعل، ولو كان ذلك له أصل في العبرة والعظة لبيّنه، وأنتم تريدون إضعاف مدلول القصة بتلك التفاصيل؛

إذن، فإن الله حين يبهم عناصر الزمان والمكان والأشخاص في قصة ما، فإنه يعطي لها حياة في كل زمان، وفي كل مكان، وحياة مع كل شخص، والعبرة من القصة هو أمر متروك للإنسان.

---

(١) [البقرة: ٢٤٣].

## هل رأى رسول الله هذه المسألة؟

وثمة موقف لغوي، أنت تقول لإنسان: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ يعني ألم ير بعينيه، وهل رأى رسول الله ﷺ، والمؤمنون معه وبعده هذه المسألة؟ لا، وتعني: ألم تعلم يا من أخاطبك بالقرآن خبر هؤلاء القوم؟ إنه في قوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ يخبرك بشيء سابق عن وجودك أو بشيء متأخر عن وجودك، فعليك أن تستقبله استقبالك لما رأيته، وإخبار الله له كأنه يراه، فكأن الله يقول: إن هذه مسألة مفروغ منها، وساعة أخبرك بها فكأنك رأيتها، ولذلك جاء قوله تعالى في سورة الفيل: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ۝١﴾[1]، وإننا نعرف أن النبي ﷺ ولد في عام الفيل، ولم ير هذه الحادثة، فكيف يقول الله له ألم تر؟ لكي يؤكد له أنه سيقول له حدثاً هو لم يره، ولكن الله سيخبره به، إن المعنى من ذلك هو «ألم تعلم» ؟

## لا يَحتاط من قدر الله أحد!

﴿حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِ﴾ بيان لعلة الخروج، فأراد الله أن يبين لهم أن هذه قضية لا ينفع فيها الحذر، ولا يَحتاط من قدر الله أحد، وبأن الأمر الذي يفرون منه لاحق بهم، أنتم خرجتم خوفا من الموت، سأميتكم، وأحياهم إحياءً آخر ليتّعظوا ويتحسروا، ويأخذوا أجلهم المكتوب.

---

(١) [الفيل: ١]

## مدى الخيبة والغباء الذي كانوا فيه!

﴿وَهُمۡ أُلُوفٌ﴾ يبين لنا مدى الخيبة والغباء الذي كانوا فيه، لأنهم كيف يخرجون خائفين من الأعداء وهم ألوف مؤلفة، ولم يظهر واحد من هؤلاء الألوف ليقول لهم: إن الموت والحياة بيد الله. وقد يقول قائل: لماذا لم يترك الله هؤلاء القوم من بني إسرائيل ليموتوا، إلى أن يأتي البعث يوم القيامة ليحاسبهم؟ لقد أراد الله سبحانه بالأمر التسخيري بالإحياء ثانية أن توجد العبرة والعظة، ولتظل ماثلة أمام أعين الخلق، ومحفوظة في أكرم كتاب حفظه الله منهجا للناس وهو القرآن الكريم، ثم يعيشون الحياة المقدرة لهم ويموتون بعدها حتف أنوفهم، ولتظل عبرة ماثلة أمام كل مؤمن، بأن يستخدم قضية الجهاد في سبيل الله، فلا يظن ظان أن القتال هو الذي يسبب الموت، إنما أمر الموت والحياة بيد واهب الحياة.

## لا تبالوا أيها المؤمنون إن كان القتال يجلب لكم الموت!

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٦١﴾

لماذا يكون مثل هذا الموت فضلا من الله؟ لقد استبقى الله هذه العبرة، بما أجراه على بعض من بني إسرائيل، لنرى أن القتال في سبيل الله هو من نعم الله على العباد، فلا تبالوا أيها المؤمنون إن كان القتال يجلب لكم الموت؛ لأن الموت يأتي في أي وقت، وهذا درس واضح للمؤمنين الذين سيأتي إليهم الأمر بالقتال، لذا

فإن الله تعالى يخاطب المؤمنين في الآية التي تليها: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾﴾(١).

## اللّه يطمئنك، سيردّ ما اقترضه أضعافا مضاعفة!

﴿مَّن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾﴾(٢).

والله سبحانه يريد أن ينبهنا بكلمة القرض، على أنه يطلب منا عملية ليست سهلة على النفس البشرية، وهو سبحانه يعلم بما طبع عليه النفوس، ويعلم أن عملية الإقراض هي مسألة صعبة، وإنه المقدر لصعوبتها، ويقدر الجزاء على قدر الصعوبة، فأنت إذا أقرضت عبداً من عباد الله فكأنك أقرضت الله، لا تعطي إنساناً محتاجا بعينه وإنما تعطي الله مباشرة، والله المتكفل برزق ذلك المحتاج، وهو تعالى يطمئنك، وأنه سيرد ما اقترضه، في صورة مستثمرة أضعافا مضاعفة كثيرة، بمقاييس الله ﷻ لا بمقاييس البشر. في حين أن القرض هو دين يسترجعه صاحبه، فالصدقة تخرجها وتفقد الأمل فيها، لكن القرض تتعلق نفسك به، كما أن المتصدَّق عليه قد يكون غير محتاج، ولكن المقترض في مقاييس البشر لا يكون إلا محتاجاً.

---

(١) [البقرة: ٢٤٤].

(٢) [البقرة: ٢٤٥].

## ماذا نفهم من وجود نبي لهم وعدم وجود ملِك؟

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰٓ إِذْ قَالُوا۟ لِنَبِىٍّ لَّهُمُ ٱبْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ أَلَّا تُقَٰتِلُوا۟ ۖ قَالُوا۟ وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا وَأَبْنَآئِنَا ۖ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْا۟ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٤٦﴾﴾[1].

﴿أَلَمْ تَرَ﴾، فماذا نرى؟ إن الحق سبحانه يبلغنا بوسيلة السماع عنه ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، وعلينا أن نتلقى ذلك الأمر كأننا نراه بالعين، فماذا نرى؟ ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلْمَلَإِ﴾، ما معنى الملأ؟ هم أشراف القوم الذين يملأون حياة الوجود حولهم ولا يستطيع غيرهم أن يزاحمهم، كانوا بعد موسى عليه السلام، اجتمعوا للتشاور، ثم ذهبوا إلى النبي الذي كان معاصراً لهم وقالوا له: ابعث لنا ملكا، ونفهم من ذلك أنه لم يكن لهم ملك، وماذا نستفيد من ذكر وجود نبي لهم وعدم وجود ملك؟ نفهم من ذلك أن النبوة كانت تشرف على نفاذ الأعمال ولا تباشر الأعمال، وأما الملك فهو الذي يباشر الأعمال، وسبب ذلك أن الذي يباشر الأعمال يكون عرضه للكراهية من كثير من الناس، فبدلا من أن يوجّهوا ذلك للنبي، ينقلونه لمن هو أقل وهو الملك.

---

(١) [البقرة: ٢٤٦].

## قد يكون عدوك كثيراً لكن ليس له رصيد عند الله

﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ﴾ جاءالتعبير ب ﴿كُتُبُ﴾ ولم يأت ب (كَتبَ) لأنهم هم الذي طلبوا تشريع القتال، ومع ذلك تولوا وأعرضوا. لقد كان لنبيهم حق في أن يتشكك في قدرتهم على القتال، ولكن هل أعرضوا جميعا؟ لا؛ لكنهم قلة، وهذا تمهيد مطلوب، فقد يكون عدوك كثيراً لكن ليس له رصيد من ألوهية عالية، وقد يكون العكس، وهكذا تعرف أن العمل النزوعي يختلف من شخص لآخر، فالعدو قد يكون كثيراً أمامنا ونحن قلة، وكلنا رأى العدو كثيراً ورأى نفسه قليلاً، لكن المواجيد تختلف، أنا سأحسب نفسي ومعي ربي، وغيري رآهم كثيرين وقال: لا نقدر عليهم؛ لأنه أخرج ربه من الحساب. إذن فالجماعة الذين تولوا كانوا ظالمين لأنفسهم ولأهليهم ولمجتمعهم، وقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝٧﴾ هو إشارة على أن الله مطلع على هؤلاء الذين تخاذلوا سراً، وأرادوا أن يقتلوا الروح المعنوية للناس، وهم الذين يُطلق عليهم في هذا العصر اسم «الطابور الخامس» الذين يمزقون الروح المعنوية دون أن يراهم أحد.

## هل المَلِك يأتي غطرسة أو كبرياء؟

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِي ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِۖ وَٱللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾﴾[1].

هم الذين طلبوا من نبيهم أن يبعث لهم ملكا، وكان يكفي إذن أن يختار نبيهم شخصا ويوليه الملك عليهم. لكن نبيهم أراد أن يغرس الاحترام منهم في المبعوث كملك لهم. لقد قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ﴾ والنبي القائل ذلك ينتمي إليهم، وهو منهم، وعندما طلبوا منه أن يبعث لهم ملكاً كانوا يعلمون أنه مأمون على ذلك. هنا يتجلى أدب النبوة في التلقي، إنه يريد أن يطمئنهم على أن مسألة اختيار طالوت كملك ليست منه؛ لأنه بشرٌ مثلهم، وهو يريد أن ينحّي قضيته البشرية عن هذا الموضوع، فماذا كان ردهم؟ ﴿قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِۚ﴾ وهذه بداية التلكؤ واللجاجة ونقل الأمر إلى مسألة ليست من قضايا الدين، إنهم يريدون الوجاهة والغنى، وكان اختيار السماء لطالوت على عكس ما توقعوا، فبدأوا يبحثون عن صحيفة النسب

---

(١) [البقرة: ٢٤٧].

الخاصة به، فلم يجدوه منتمياً لنسل (بنيامين) النبي أو (لاوي) الملك، ابني يعقوب عليه السلام، وهل الملك يأتي غطرسة أو كبرياء؟ وهذا يدلنا على أنهم لا يريدون الرجل المناسب للموقف، ولكن يريدون الرجل المناسب لنفوسهم.

## كان يجب أن يستقبلوا اصطفاء اللّه بالقبول

وعندما نتأمل سياق الآيات، فإننا نجد أن الله قال لهم في البداية: ﴿بَعَثَ لَكُمْ﴾ حتى لا يحرج أحداً منهم في أن طالوت أفضل منه، وكان يجب أن يستقبلوا اصطفاء الله بالقبول والرضى، فما بالك وقد زاده بسطة في العلم والجسم؟ وكأن الحق يقول لهم: لا تظنوا أنكم أنتم الذين تختارون، فاتركوني بمقاييسي اختر الملك المناسب. ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ۝٢٤٧﴾ أي عنده لكل مقام مقال، ولكل موقع رجل، وهو سبحانه عليم بمن يصلح لهذه المهمة، ومن يصلح لتلك، لا عن ضيق أو قلة رجال، ولكن عن سعة وعلم.

## ما هو التابوت؟

﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٤٨﴾[1].

(١) [البقرة: ٢٤٨].

أي إن العلامة الدالة على ملكه هي ﴿أَن يَأۡتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ وهذا القول نستدل منه على أن التابوت كان غائباً ومفقوداً، وأنه أمر معروف لديهم، وهناك تلهف منهم على مجيئه، وما هو التابوت؟ غالب الظن أنه التابوت الذي نعرفه من أيام قصة موسى وهو رضيع، لأنه مادام جاء به على إطلاقه فهو التابوت المعروف، ولا نقول إنها كفريات ووثنيات؛ لأن لها ارتباطاً بأمر عقائدي، وبمسائل تاريخية، فيه بقية مما ترك آل موسى وآل هارون وتحمله الملائكة، إن هذا دليل على أنه شيء كبير ومهم. لقد كان التابوت مفقوداً، وذلك دليل على أن عدواً غلب على البلاد التي سكنوها، والعدو عندما يهاجم بلدا يحاول طمس المقدسات التي تربط هذا البلد بالعقيدة، فإذا كان التابوت مقدساً عندهم بهذا الشكل، كان لا بد أن يأخذه الأعداء، هؤلاء الأعداء هم الذين أخرجوهم من ديارهم وهم ألوف حذر الموت، أخرجوهم وأجبروهم على ترك التابوت.

## تحمله الملائكة؛ كائنات غير مرئية! ولن يراهم أحد!

﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ فكأن الاستقرار النفسي سيأتيكم مع هذا التابوت؛ لأن الإنسان حين يجد التابوت الذي نجا به نبي، وفيه أشياء هي صلة مادية تجعل النفس تستريح. ومن هذا كله نقول: إن ولاة الأمر يجب ألا يعتبروا مقدسات الأشياء ضرباً من الشركيات والوثنيات، بل يجب أن يولوها عناية ورعاية ويبرزوها للناس؛ لتكون مصدر سكينة وأمن نفس للناس، وعليهم أن

ينصحوا الناس بألا يُفتنوا بها، ولكن عليهم أن يتركوها لتذكرنا بأمر يتصل بعقيدتنا وبنبينا. فالله تعالى قال: ﴿فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَـٰرُونَ﴾ كأن آل موسى وهارون قد حافظوا على آثار أنبيائهم، ونلحظ في قوله: ﴿أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ إنه سبحانه قد نسب الإتيان إلى التابوت، فهل كان من ضمن العلامة أن يأتيهم التابوت وهم جالسون ينتظرون، ولأن التابوت تحمله الملائكة فلن يراهم القوم، لأنهم كائنات غير مرئية! فلن يراهم أحد! إن هذا المشهد يخلع القلوب ويجعل أشدها قساوة يخرون سجدا ويقولون: طالوت أنت الملك، ولن نختلف عليك.

## الاختبار يكون على قدر المهمة

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّيٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَـٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾[1].

(١) [البقرة: ٢٤٩].

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ والسياق القرآني يدل على أن الله بَهَتَهُم بالحجّة، وبَهَتَهُم بالآية، بدليل أنه حذف ما كان يجب أن يُقال وهو: فقبلوا طالوت ملكاً، ونظم طالوت الحرب، فقام وقسم الجنود ورتبهم، وكل هذه التفاصيل لم تذكرها الآيات. وهكذا نفهم معنى قول الحق: ﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ﴾ أي قسّمهم إلى جماعات مرتبة، وكل جماعة لها مهمة. ﴿قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ﴾ لقد أراد أن يختبرهم، فهم قوم وقفوا ضد تعيينه ملكاً، لذلك أراد أن يدخل الحكم على أرض صلبة، لقد أوضح لهم: أنتم مقبلون على اختبار ومهمة لله في سبيل الله، ولست أنا، لأن الاختبار يكون على قدر المهمة؛ أنا مشرف فقط على تنفيذ الأمر، والله مبتليكم بنهر من يشرب منه فليس منا إلا من اغترف غرفة بيده، وساعة تسمع كلمة ﴿مُبْتَلِيكُم﴾ تفسرها أنها اختبار، قد ينجح من يدخل وقد يفشل، وما دام كان الاختبار بنهر، لا بد أنهم كانوا عِطاشاً، وساعة يُرى الماء فسيقبلون عليه شرباً بنهَم، ومع ذلك يختبر الله صلابتهم فيطالبهم بأن يمتنعوا عن الشرب منه، إذ قال: ﴿فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى﴾ لماذا؟ لأنهم ساعة يرون ما يحبونه ويشتهونه، فسيندفعون إليه وينسون أمر الله، ومن ينس أمر الله ويفضّل نفسه، فهو غير مأمون أن يكون في جند الله.

## أباح لهم بغُرفة يد تسدّ الرمق وتستبقي الحياة

﴿إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِۦ﴾ ومع ذلك لم يَقْسُ الله في الابتلاء، فأباح ما يفك العطش ولم يحرمهم منه نهائياً، لقد سمح لهم بغرفة يد تسد الرمق وتستبقي الحياة، أباح لهم ما تقتضيه الضرورة، لكن ما صلة هذا الابتلاء بالعملية التي سيقبلون عليها؟ إن العملية الحربية التي سيدخلونها سيقابلون فيها الويل وسيعرضون لنفاذ الزاد، وهم أيضا عرضة لأن يحاصرهم عدوهم، وعلى الإنسان المقاتل في مثل هذه الأمور، أن يقوى على شهوته ويأخذ من زاده ومائه على قدر ضرورة استبقاء الحياة، لذلك تكفي غرفة واحدة لاستبقاء الحياة، كأن التدريب هنا ضرورة للمهمة.

## فهل فعلوا ذلك؟

يأتينا الخبر من الله: ﴿فَشَرِبُواْ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْۚ﴾ وهكذا تتم التصفية، ففي البداية سبق لهم أن تولوا وأعرضوا عن القتال إلا قليلا، وهنا امتنع عن الشرب قليل من القليل، لقد بقي منهم أقل القليل، لكنه القليل الذي يصلح للمهمة؛ إنّه الذي ظل على الإيمان، حتى لا يحمل راية الجهاد إلا الذي يعرف حقها. ﴿فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ قَالُواْ﴾ أي عندما عبروا النهر واجتازوا كل الاختبارات السابقة قال بعضهم: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦۚ﴾ لقد خاف بعض منهم من الاختبار الأخير، ولكن الذين آمنوا بالله لم يخافوا،

## انقسموا قسمين، قسم خاف وقسم لم يخف

فالذين جاوزوا النهر انقسموا قسمين، قسم خاف وقسم لم يخف، فالذين خافوا، هذه الفئة عزلت نفسها عن ربها فرأوا أنفسهم قلة فقالوا: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ﴾ لكن القسم الذي لم يخف جاء فيهم قول الله: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ كأنهم أدخلوا ربهم في حسابهم، لقد كان مجرد ظن الفئة المؤمنة أنهم ملاقو الله، قد جعل لهم هذه العقيدة، وإذا كان هذا حال مجرد الظن فما بالك باليقين؟ فالله يريد من عبده أن يستنفذ أسباب قوته الخاصة، وحين تستنفذ الأسباب برجولة وثبات، تأتيك معونة الله، ويقول الله لملائكته: هذا يستحق أن يعان فأعينوه.

## قالوا ﴿رَبَّنَا﴾ ولم يقولوا: يا الله!

﴿وَلَمَّا بَرَزُواْ لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ قَالُواْ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٥٠﴾﴾[1].

هذه هي الشحنة الإيمانية لمن يريد أن يواجه عدوه، فهو ينادي قائلا: ﴿رَبَّنَا﴾ إنه لم يقل: يا الله، بل يقول: ﴿رَبَّنَا﴾؛ لأن الرب هو الذي يتولى التربية والعطاء، بينما

---

(١) [البقرة: ٢٥٠].

مطلوب «الله» هو العبودية والتكاليف؛ لذلك ينادي المؤمن ربه في الموقف الصعب «يا ربنا» أي يا من خلقتنا وتتولانا وتمدنا بالأسباب.

## لأول مرة يظهر لنا اسم ﴿دَاوُۥدُ﴾

﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾﴾[1].

وجالوت هو زعيم جيش الكفار الذي هرب، فطارده داود وقتله، ولأول مرة يظهر لنا اسم ﴿دَاوُۥدُ﴾ في هذه القصة الطويلة، وكانت هذه المعركة التي جاءت بالفتح العظيم هي بداية تاريخه، ثم أنعم الله عليه بالملك والحكمة، وصار أمله أن يعلمه الله صناعة الدروع، ولذلك لم يتخذ صنعة في حياته إلا عمل الدروع، وجعل الله له الحديد ليّناً ليصنع منه ما يشاء.

## الحروب ضرورة اجتماعية

إن الحق يأتي هنا بقضية كونية في الوجود، وهي أن الحروب ضرورة اجتماعية، وأن الحق يدفع الناس بالناس، وأنه لولا وجود قوة أمام قوة لفسد العالم؛ فلو سيطرت قوة واحدة غير قوة الإسلام في الكون لفسد، فالذي يعمر الكون هو

---

(١) [البقرة: ٢٥١].

أن توجد فيه قوى متكافئة؛ قوة تقابلها قوة أخرى، ولذلك نجد العالم دائما محروسا بالقوتين العظميين، ولو كانت قوة واحدة لعم الضلال، ولو تأملنا التاريخ منذ القدم لوجدنا هذه الثنائية في القوى تحفظ الاستقرار في العالم. ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ﴾ ولماذا يدفع الله الناس بعضهم ببعض؟ لأن هناك أناساً يريدون الشر وأناساً يريدون الخير، فمن يريد الشر يدفع من يريد الخير، وإذا وقعت المعركة بهذا الوصف فإن يد الله لا تتخلى عن الجانب المؤمن الباحث عن الخير، فهو سبحانه القائل: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠﴾[1]".

## هذه هي الخيبة في الكون المعاصر!

ومادام الله ﷻ قد خلق الإنسان ومنحه الاختيار، وبعض الناس اختار مذهباً، والبعض الآخر اختار مذهبا مضادا، وكلٌّ من المذهبين خارج عن منهج الله، فالحق ﷻ يترك الفئتين تتقاتل وتتناحر، والمعارك التي تدور في أي مكان تجد أن هذا الطرف له هوى والآخر له هوىً مختلف، ولا يقف الله في أي جانب منهما؛ لأنه ليس هناك جانب أحق بالله من الآخر؛ لذلك يتركهم يصطرع بعضهم مع بعض، ومادام الحق قد تركهم فلا بد أن تطول المعركة، كما نرى في معارك

(١) [الحج: ٤٠]

العصر الحديث؛ هذه هي الخيبة في الكون المعاصر؛ وسيظل العالم في خيبة إلى أن يرتدعوا، إنهم يطيلون على أنفسهم أمد التجربة، وسيظلون في هذه الخيبة إلى أن يرجعوا جميعاً عن أهوائهم، فإن أردتم أن تصلح حياتكم، وأن تستقيم أموركم كما استقامت هندسة السماء والأرض، فخذوا الميزان من السماء في أعمالكم، فإن أموركم تستقيم لكم كما استقامت الأمور العليا في الكون، إنه نظام دقيق محكم، لأنه لا دخل للإنسان فيه.

## أليست هذه آيات؟

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۚ وَإِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢٥٢﴾﴾[1].

﴿تِلْكَ﴾ إشارة يخاطب الله بها رسوله ﷺ، ويشير إلى الآيات التي سبقت، والتي تدل على عظمة الله، طلبوا أن يقاتلوا وأن يبعث لهم ملكاً وبعثه لهم، فكانت هذه آية، وبعث لهم التابوت فيه سكينة، هذه آية أخرى؟ وبعد ذلك قتل داود الصبي الصغير جالوت العملاق الضخم، أليست هذه آية؟ وهذه الجماعة القليلة تدخل المعركة وتهزم الكثيرة، أليست هذه آية؟ وهل كان الرسول ﷺ، يعرف الآيات التي سبقت رسالته؟

---

(١) [البقرة: ٢٥٢].

## ما هو التفضيل؟

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَلَٰكِنِ ٱخْتَلَفُوا۟ فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿٢٥٣﴾﴾[1].

﴿فَضَّلْنَا﴾ التفضيل: هو أن تأتي للغير وتعطيه ميزة عمن سواه، قد يقول لك إنسان ما (هذه محاباة)، لذلك نقول لمن يقول ذلك: الزم الدقة، ولتعرف أن التفضيل هو إيثار الغير بمزية بدافع الحكمة، أما المحاباة فهي إيثار الغير بمزية بدافع الهوى والشهوة، فمثلاً إذا أردنا أن نختار أحداً من الناس لمنصب كبير، فنحن نختار عدداً من الشخصيات التي يمكن أن تنطبق عليهم المواصفات ونقول: هذا يصلح، وهذا فيه ميزات عن ذاك وهكذا، فإن نظرنا إليهم وقيمناهم بدافع الحكمة والكفاءة فهذا هو التفضيل، ولكن إن اخترنا واحداً لأنه قريب أو صهر أو غير ذلك، فهذا هو الهوى والمحاباة.

---

(١) [البقرة: ٢٥٣].

نضرب مثلا للتوضيح:

إن التفضيل هو أن تؤثر وتعطي مزية ولكن لحكمة، وأما المحاباة فهي أن تؤثر وتعطي مزية لهوى في نفسك، فمثلا هب أنك اشتريت قاربا وركبته أنت وابنك الصغير، ومعك سائق القارب، وأراد ابنك الصغير أن يسوق القارب، وجلس مكان السائق وأخذ يسوق، ولكن جاءت أمواج عالية واضطرب البحر، فنهضت أنت مسرعا وأخذت الولد وأمرت السائق أن يتولى القيادة، فهل هذه محاباة منك للسائق؟ لكنك أنت قد آثرت السائق لحكمة تعرفها وهي أنه أعلم بالقيادة، إذن إذا نظرت إلى حيثية الإيثار وحيثية التمييز لحكمة فهذا هو التفضيل، وكل أعمال الحق ﷻ تصدر عن حكمة؛ لأنه سبحانه ليس له هوى ولا شهوة، فكلنا جميعا بالنسبة إليه سواء.

## هل لهذه المعجزات الآن وجود؟

وأعطانا الله نماذج التفضيل فقال: ﴿مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ وبعد ذلك يقول: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ﴾ ثم قال: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾ والخطاب في الآيات لمحمد ﷺ، وإذا نظرنا إلى معجزات الأنبياء والرسل، نجد أنها معجزات كونية، أي مادية حسية الذي يراها يؤمن بها وتنتهي، فالذي رأى عصا موسى وهي تضرب البحر فانفلق، والذي رأى عيسى عليه السلام يبرئ الأكمه والأبرص، ولكن هل لهذه المعجزات الآن وجود؟ لكن معجزة محمد ﷺ إلى

أن تقوم الساعة، فرسالته غير محدودة، ولابد أن تكون معجزته غير محسوسة وإنما تكون معقولة؛ لذلك كانت معجزته القرآن، ويستطيع كل واحد الآن أن يقول: محمد رسول الله وتلك معجزته، إنها واقع محسوس، إذن حين يقول الله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ﴾ فهذا لا ينطبق إلا على سيدنا محمد ﷺ، وهذا أكثر من التصريح بالاسم،

## ونضرب هنا مثلا للتوضيح

حين تأتي لأولادك وتقول لهم: أنا اشتريت لفلان قلماً جافاً، ولفلان قلم حبر، واشتريت لفلان ساعة، وبعضهم اشتريت له هدية ثمينة، ف «بعضهم» هذا قد عُرف بأنه الابن الرابع الذي لم تذكر اسمه، فيكون قد تعين وتحدد.

## ألا يمكن أن يكونوا قد اختلفوا ولم يقتتلوا؟

إذن ما الذي جعل الناس تقتتل فيما بينها؟ إنه الاختلاف بين الناس، لقد اختلفوا فاقتتلوا، لكن ألا يمكن أن يكونوا قد اختلفوا ولم يقتتلوا؟ إن ذلك لو حدث لكان إجماعاً على الفساد، وهذا أمر خطير، والحق سبحانه لا يريد أن يحدث الإجماع على الفساد، فإن لم يسيطر الخير على أمور البشر فلا أقل من أن يظل عنصر الخير موجوداً.

## هذا أشدّ الخطر!

إذن لولا الاقتتال لعمّ الفساد، وانتهت المسألة، لكن الناس اختلفت؛ فمنهم من آمن، ومنهم من كفر، ﴿وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقۡتَتَلُواْ﴾ أي لظلوا على منهج واحد من الكفر والفساد، وهذا أشدّ الخطر، بأن يكون الناس كلهم على أمر الفساد، دون أن يظهر بينهم أهل خير للتصدي لهم فيقتتلوا معهم، ويردعوهم، وفي الاقتتال كما نعرف هناك تضحيات بالنفس، وتضحيات من أجل أن تظل القيم السماوية على الأرض.

## هل إيمانك بالطبيب أكثر من إيمانك بربّ الطبيب؟!

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَـٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٥٤﴾[1].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ إنما يدل على أن ما يأتي من بعد هذا القول هو تكليف لمن آمن بالله، وليس تكليفاً للناس على إطلاقهم؛ فكأنه نداء يقول للمؤمن: أنا أريد منك أن تفعل هذا الأمر، فأنت تفعل ذلك لماذا؟ لأن الله الذي آمنت به أمرني بهذه الأفعال، سواء فهمت الحكمة منها أو لم تفهمها، ولو أن إنساناً يشرب الخمر قال له الطبيب: إنها تفسد كبدك، وبعد ذلك امتنع عنها، فإيمانه بالطبيب أكثر من إيمانه برب الطبيب.

---

(١) [البقرة: ٢٥٤].

## إياك أن تقول: ما دخلي أنا بالمسكين؟!

إن الحق يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم﴾ أي أنا لا أطلب منكم أن تنفقوا عليّ، ولكن أنفقوا من رزقي عليكم؛ ومع ذلك إن حصل للإنسان خير فهو سبحانه لا يقول: (إنه لي)، ولكن أعطني حقي فيه، وحقي لن آخذه لي ولكن هو لأخيك المسكين، وإياك أن تقول: ما دخلي أنا بالمسكين؟ عليك أن تعلم أنّ المسكنة عَرَض، والعرض من الممكن أن يلحق بك أنت، فأعط المسكين وأنت غني؛ لأنه سبحانه سيقول للناس أن يعطوك وأنت فقير، وبذلك تتوازن المسألة.

## أيغنيك جبل من ذهب عن رغيف الخبز؟!

فعندما تكون جائعا أيغنيك أن يكون عندك جبل من ذهب؟ أما فائدتك من رغيف الخبز فهي استفادة مباشرة، ومعنى ﴿خُلَّةٌ﴾ هي الودّ الخالص، وهي العلاقة التي تقوم بين اثنين فيصير كل منهما موصلاً بالآخر بالمحبة؛ لأن كُلاًّ منكما منفصل عن الآخر وإن ربطت بينكم العاطفة وفي الآخرة سيكون كل إنسان مشغولا بأمر نفسه، وهذه هي أبواب النجاة المظنونة عند البشر التي تُغلق في هذا اليوم العظيم، وكأن الله ﷻ يقول: أنا لم أفوّت فرصة على خلقي؛ خلقي هم الذين ظلموا أنفسهم ووقفوا أنفسهم هذا الموقف.

## هل يجرؤ واحد أن يسمي نفسه ﴿ٱللَّهُ﴾؟

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ ٢٥٥﴾[1].

إن كلمة ﴿ٱللَّهُ﴾ هي عَلَمٌ على واجب الوجود، والله تعالى حين أعلمنا باسمه، أعطانا فكرة على أن كلمة ﴿ٱللَّهُ﴾ هذه يتحدى بها أن يُسمى بها سواه، ولكنْ هنا كافرون بالله ومتمردون وملحدون يقولون: (الله خرافة)!! ومع ذلك هل يجرؤ واحد من هؤلاء أن يسمي نفسه ﴿ٱللَّهُ﴾؟ لم يجرؤ واحد أن يدخل في هذه التجربة، وهذا دليل على أن كفرهم غير وطيد في نفوسهم، فلو كان كفرهم صحيحاً لقالوا: سنسمي ونرى ما يحدث، ولكن هذا لم يحدث.

## أين الآلهة الأخرى؟ ألم تعلم بهذه الحكاية؟!

و﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي لا معبود بحق إلا الله، وإن ادعى أحد غير ذلك، نقول له: إن الله قد أخبرنا أنه لا معبود بحق غيره؛ إن كان هذا الكلام صحيحاً فهو صادق فيه، وإن كان هذا الكلام غير صحيح، وأن أحداً غيره هو الذي خلق هذا الكون، فأين هذا الأحد الذي خلق، ثم ترك من لم يخلق ليأخذ الكون

(١) [البقرة: ٢٥٥].

منه ويقول: أنا الذي خلق الكون؟ وبعد ذلك لا نسمع له حساً ولا حركة، ولا يتكلم، ولا نعلم عنه شيئا، فما هو شأنه؟ إنه أمر من اثنين، إما أنه ليس هناك إله غيره فالقضية إذن منتهية، وإما لو كان هناك آلهة أخرى، وبعد ذلك جاء واحد وقال: أنا الإله وليس هناك إله إلا أنا، فأين هذه الآلهة الأخرى؟ ألم تعلم بهذه الحكاية؟ فإن كانوا لم يعلموا بها، فهم لا يصلحون أن يكونوا آلهة، وإن كانوا قد علموا فلماذا لم يقولوا: لا، نحن الآلهة، وكما بعث الله رسلا بمعجزات كان عليهم أن يبعثوا رسلا بمعجزات، فصاحب الدعوة إذا ادّعاها ولم يوجد معارض له، تثبت الدعوى إلى أن يوجد مُنازع.

## بنو إسرائيل سألوا موسى عليه السلام: أينام ربنا؟

﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾ قيل في كتب العلم: إن قوم بني إسرائيل سألوا موسى عليه السلام: أينام ربنا؟ فأوحى الله إليه: أن آت بزجاجتين وضعهما في يد إنسان، ودعه إلى أن ينام، ثم انظر الجواب، فلما وضع في يده الزجاجتين ونام؛ وقعت الزجاجتان وانكسرتا فقال: هو كذلك، هو قائم على أمر السماء والأرض، ولو كانت تأخذه سنة أو نوم لتحطمت الدنيا.

## كأن الخالق يقول للمخلوق: نَمْ واسترح!

والسِّنة: هي النعاس الذي يأتي في أول النوم، ومظهرها يبدو أولاً في العين وفي الجفن، فعندما يذهب إنسان إلى النوم؛ فإن أثر ذلك يظهر في عينيه، ولذلك يقولون: إن العين هي الجارحة التي يمكن أن تُعرف بها أحوال الإنسان، وقد

اكتشفوا في عصرنا الحديث أن الشرايين لا يمكن أن يعرفوا حالتها بالضبط إلا من العين، فالفتور الذي يأتي في العين أولاً هو السِّنة أو مقدمات النوم ونسميه: النعاس. كأن الخالق يقول للمخلوق: نم واسترح، وأثناء نومك فهناك أجهزة في جسمك تعمل، أإذا نمت وقف قلبك؟ أإذا نمت انقطع نفسك؟ أإذا نمت وقفت معدتك التي تهضم؟ أإذا نمت توقفت أمعاؤك عن امتصاص المادة الغذائية؟ لا، بل كل شيء يقوم بعمله، فمن الذي يُشرف على هذه العمليات لو كان ربك نائما؟

## كل شيء اكتشفه العقل البشري، كان موجودا

﴿يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ﴾ أي أن الله سبحانه يخبرنا أنه يعلم الماضي والمستقبل ﴿إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ هو إذْنٌ منه سبحانه، بأنه سيتفضل على خلقه بأن يشاء لهم أن يعلموا شيئا من علمه، وكان هذا العلم خفيا عنهم ومستورا في أسرار الكون، ثم يأذن الله للسر أن ينكشف، وكل شيء اكتشفه العقل البشري، كان مطمورا في علم الغيب، وكان سراً من أسرار الله، وبعد ذلك أذن الله للسر أن ينكشف فعرفناه، لقد كان هذا السر موجودا وكان العالم يستفيد منه وإن لم يعلمه، لقد كنا نحن نستفيد على سبيل المثال من قانون الجاذبية ولم نكن نعلم قانون الجاذبية، وهذا ما يبينه لنا الحق في موضع آخر من القرآن

الكريم: ﴿سَنُرِيهِمۡ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ۝٥٣﴾[١]. ما دام قال سبحانه: ﴿سَنُرِيهِمۡ﴾ فهذا يعني أنه سبحانه سيولّد لنا أسراراً جديدة، ولذلك يقول الناس عن الأسرار العلمية: إنها اكتشافات جديدة، لقد تأدّبوا في القول، كأن ما اكتشفوه كان موجودا وهم لا يقصدون هذا الأدب، إنما هي جاءت كذلك.

## هذا تحدّ لجميع الخلق!

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ﴾ فيه تحدّ واضح، فحتى إذا اجتمع البشر مع بعضهم فلن يحيطوا بشيء، وهذا تحدّ للكل حين يشاء سبحانه أن يجد إظهار سر في الوجود، فهذا السر يولد، وقد يكون إظهار السر موافقا لبحث الناس مثل العالم الذي يجلس في معمله ليجرب في العناصر والتفاعلات، ويهتدي لهذه وهذه، إنه يتعب كثيرا كي يعرف بعضا من الأسرار، ونحن لا ندري بتعبه وجهده إلا يوم أن يكشف سره، وقد يأذن الله مراراً كثيرة أن يولد السر بدون أن يشتغل الخلق بمقدماته؛ فيخرجه الله لأي مخترع كنتيجة لخطأ في تجربة ما!

---

(١) [فصلت: ٥٣].

## لا تقل: له كرسيّ وسيقعد عليه مثلنا؟!

﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ﴾ سنأخذ هذه الكلمة في إطار ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ﴾ فلا تقل: له كرسي وسيقعد عليه مثلنا، ونحن نقول: الله قال ذلك ونأخذها من الله؛ لأنه أعلم بذاته وبنفسه، ونُحيلها بألاَّ يكون له شبيه أو نظير، فعلمه ليس كعلمنا، وبصره ليس كبصرنا، فلماذا يكون كرسيّه مثل كرسيّنا؟

## السماوات كائنات كبيرة والكرسي أعظم!

﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ نحن نفهمها أنها كائنات كبيرة بالنسبة لنا، وعندما يقول: إن الكرسي وسع السماوات والأرض، إذن، فهو أعظم من السماوات والأرض، ولذلك يقول أبو ذر الغفاري ﷺ: سألت النبي ﷺ عن الكرسي فقال: «**يا أبا ذرّ ما السّماوات السّبع والأرضُون السّبع عندَ الكُرسيّ إلا كحَلَقة مُلقاة بأرضٍ فلاة، وإنّ فضلَ العرشِ على الكُرسيّ كفضلِ الفلاةِ عَلى تِلك الحَلقة**»[1].

## نستخدم أعدادا كثيرة من الأصفار!

والبشرية بكل ما وصلت له من إنجازات علمية قد وصلت إلى القمر فقط، وهو مجرد ضاحية من ضواحي الأرض، ومفصول عنا بمسافة تقاس بالثواني

---

(١) صح مرفوعا، رواه الألباني.

الضوئية، ولقد تعودنا في حياتنا أن نستخدم وحدات الميل والكيلومتر لقياس الأطوال والأبعاد الكبيرة، لكننا اكتشفنا أن هذه الوحدات ليست ذات نفع في قياس أبعاد النجوم؛ لأننا نعرف مثلا أن الشمس تبعد عن الأرض ثلاثة وتسعين مليون ميل، ويصلنا ضوؤها في ثماني دقائق وثلث الدقيقة، ونجم آخر هو ألمع نجوم السماء يصل إلينا ضوؤه في تسع سنوات ضوئية، ولكي نرصد المسافة بيننا وبين أحد النجوم، فلسوف نضطر إلى استخدام أعداد كثيرة من الأصفار أمام رقم ما، وهذا يجعل التعبير غير عملي، ولهذا السبب، وضع علماء الفلك وحدة ملائمة لقياس أبعاد النجوم، وهي ما نسميه السنة الضوئية، ونحن نعرف أن سرعة الضوء حوالي ثلاثمائة ألف كيلومتر في الثانية.

## حدود ملك اللّه فوق تصوّرنا

إذن فحدود ملك الله فوق تصورنا، والسنة الضوئية، هي وحدة لقياس المسافات الفلكية، ونحن نذهل عندما نعرف أن بعض النجوم يصل ضؤوها إلينا في خمسين سنة ضوئية!! كل ذلك ونحن لم نصل بعد إلى السماء الدنيا، فما بالنا ببقية السماوات؟ إذن يجب أن نفهم أن هناك عوالم أخرى غير السماء والأرض، لكن عيوننا لا تبصر إلا ما أراده الله لنا، ولذلك فعندما نسمع قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ فلنا أن نتخيل هذه العظمة وأية عظمة؟ إنها عظمة كرسي ذي الجلال والإكرام.

## إذا كان الكرسي كذلك فما بالنا بصاحب الكرسي!!؟

﴿وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ﴾ أي أنه لا يثقل على الله حفظ السماوات والأرض وهما فوق اتساع رؤية البشر؛ فقد وسعهما الكرسي الرباني. وقال بعض المفسرين: إذا كان الكرسي لا يثقل عليه حفظ السماوات والأرض فما بالنا بصاحب الكرسي!!؟ إنه الحق وحده ﷻ الذي يحفظ السماوات والأرض في توازن عجيب ومذهل.

## أطرح هذا المبدأ على الناس، وأترك لهم الخيار!

﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾[1].

نحن في حياتنا اليومية، نجد أن أصحاب المبادئ الباطلة هم الذين يمسكون البنادق والسياط من أجل إكراه الناس على السير على مبادئهم، وهو يعلم تمام العلم أنه لو ترك السوط والقهر ما سار إنسان على مثل هذه المبادئ، ولو كان معتقداً أن مبدأه سليم لقال: أطرح هذا المبدأ على الناس، وأترك لهم الخيار؛ لأنه في هذه الحالة سيكون واثقاً من مبدئه، أما الذي يقهر الناس ليعتقدوا مبدأ ما، فهو أول من يشك في هذا المبدأ، وهو أول من يعتقد أنه مبدأ باطل، مثل

---

(١) [البقرة: ٢٥٦].

هؤلاء نراهم عندما تضعف أيديهم عن استعمال السوط أو السلطان، فإن أمر مبدئهم ينهزم ويسقط بنيانه.

## استثناءات!

ولكن هناك أشياء قد نفعلها، كأن نُرغم الأبناء على المذاكرة، وهذا أمر لصالح الأبناء، وكأن نجبر الأطفال المرضى على تناول الدواء، ومثل هذه الأمور ليست إكراهاً، ومعنى هذه الآية أن الله لم يكره خلقه وهو خالقهم على دين، وكان من الممكن أن الله يقهر الإنسان المختار، كما قهر السماوات والأرض والحيوان والنبات والجماد، ولا أحد يستطيع أن يعصى أمره. فيقول سبحانه: ﴿لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾[١].

## هل الرسل قاموا بإكراه الناس؟

فقوله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ أي أنا لم أضع مبدأ الإكراه، وأنا لو شئت لآمن من في الأرض كلهم جميعاً، فهل الرسل الذين أرسلهم سبحانه يتطوّعون بإكراه الناس؟ إنّ الرسول جاء لينقل عن الله لا ليكره الناس، وهو سبحانه قد جعل خلقه مختارين، ولذلك يقول المولى ﷻ: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ۝٩٩﴾[٢].

---

(١) [الرعد: ٣١].

(٢) [يونس: ٩٩].

## لماذا لا تصلي؟ يقول لك: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾

إلا أن هنا لبساً، فهناك فرق بين القهر على الدين، والقهر على مطلوب الدين، هذا هو ما يحدث فيه الخلاف، تقول لمسلم: لماذا لا تصلي؟ يقول لك: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾، ويدّعي أنه مثقف، ويأتيك بهذه الآية ليلجمك بها، فتقول له: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ عقيدة وإيماناً، إنما إن آمنت وأعلنت أنك آمنت بالله وصرت معنا مسلماً فلا بد أن تعرف أنك إن كسرت حكماً من أحكام الإسلام نطلب منك أن تؤدّيه، أنت حرّ أن تؤمن أو لا تؤمن، لكن حين التزمت بالإيمان، فعليك مسئولية تنفيذ مطلوب الإيمان، فإذا كنت تشرب خمراً فإنك حرّ؛ لأنك كافر مثلاً، لكن تؤمن ثم تشرب خمرًا!؟ أنت بذلك تكسر حداً من حدود الله، وعليك العقاب.

## الطاغوت هو الذي تزيده طاعة الناس طغيانا

قوله تعالى: ﴿بِٱلطَّٰغُوتِ﴾ والطاغوت؟ من مادة طغى، مبالغة في الطغيان، والطاغوت إما أن يطلق على الشيطان، وإما أن يُطلق على من يعطون أنفسهم حق التشريع فيكَفِّرون وينسبون من يشاءون إلى الإيمان حسب أهوائهم، ويعطون أشياء بسلطة زمنية من عندهم، ويُطلق أيضاً على السحرة والدجالين، ويُطلق على كل من طغى وتجاوز الحد في أي شيء، وقد تكون هذه المبالغة متعددة الألوان، فمرة يكون شيطانا أو كاهناً أو ساحراً أو دجالاً، أو حاكماً.

ولا يوجد أحد استهل عمله بالطغيان العالي، إنما يبدأ الأمر خطوة خطوة، كأي نظام ديكتاتوري قهري، إنه يبدأ ب (جسّ نبض) فإن صبر الناس، ازداد هذا

النظام في القسوة حتى يصير طاغوتا، إذن فالطاغوت هو الذي تستزيده الطاعة طغيانا، وتُطلق على الشيطان؛ لأنه هو الأساس، وعلى الذين يتكلمون باسم الدين للسلطة الزمنية.

## كلما استمسك بالشيء احتاج إلى مجاهدة أكثر

وكلمة ﴿ٱسْتَمْسَكَ﴾ تدل على أن فيه مجاهدة في المسك، والذي يتمسك بالدين يحتاج إلى مجاهدة؛ لأن الشيطان لن يتركه، فلا يكفي أن تمسك، بل عليك أن تستمسك، كلما وسوس الشيطان لك بأمر فعليك أن تستمسك بالدين، هذا يدل على أن هناك مجاهدة وأخذاً ورداً، ﴿فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ﴾ والعروة هي العلاقة، مثلما نقول: عروة الدلو التي تمسكها منه، وهذه عادة ما تكون مصنوعة من الحبل الملفوف المتين، وهي تكون أقوى نقطة في الشيء، والوثقى أي أمر موثوق به.

## معنى وليّ، هو الأقرب لك

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٥٧﴾﴾[1].

---

(١) [البقرة: ٢٥٧].

كلمة وليّ تعني يليه، فهو الأقرب لك، وما دام هو الأقرب لك، فهو أول من يفزع لك ليُنقذك وقت الحاجة ووقت الشدّة، فقد يسير معك إنسان، فإذا التوت قدمك تناديه؛ لأنه الأقرب منك، وهو الذي سينجدك، فلا يوجد فاصل، وما دام لا يوجد فاصل فهو أول من تناديه، وأول من يفزع إليك بدون أن تصرخ له؛ لأن من معك لا تقل له: خذ بيدي، إنه من نفسه يأخذ بيدك بلا شعور، إذن فكلمة ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إذا نظرت إليها وجدتها تنسجم أيضا مع ﴿سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝﴾، فلا يريدك أن تناديه؛ لأن هناك من تصرخ عليه لينجدك، وهو لن تصرخ عليه؛ لأنه سميع وعليم.

## هل هناك حُب أكثر من هذا؟

وكلمة (وليّ) أيضا منها (مولى) ومنها (وال) أي هو الذي يتولى شئونهم وأمورهم، إنه وليهم أي ناصرهم، ومحبهم ومجيبهم ومعينهم، ومع الإيمان استصحاباً يكون ناصرنا على خصومنا وخصومه، وفي الآخرة هو وليّنا بالمحبة والعطاء، إذن فولايته لا تنتهي، هل هناك حُب أكثر من هذا؟

## أمر بلغ من العجب غاية بعيدة!

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِۦمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٢٥٨﴾[1].

---

(١) [البقرة: ٢٥٨].

﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ هنا تعني: ألم تعلم علم اليقين، فكأنك ترى ما يخبرك به، وعليك أن تأخذه على أنه مصدَّق كأنك رأيته بعينك، لأن ربك أوثق من عينيك، و﴿إِلَى﴾ جاءت هنا لتدل على أنه أمر بلغ من العجب غاية بعيدة، وهو بالفعل قد بلغ من العجب غاية بعيدة، والله ﷻ لم يقل لنا من هو ذلك الإنسان الذي حاجّ إبراهيم في ربه، لأنه لا يعنينا التشخيص، ولكن لو شاء الله تحديد اسم الرجل لحدده لنا، فأي إنسان في أي مكان قد يحاجج أي مؤمن.

## من إذن الذي حاجّ إبراهيم؟

إنه شخص ما، لأنه الذي بدأ بالمحاجّة، قائلا لإبراهيم: من ربك؟ إلا أن الذي حاج إبراهيم دخل في متاهات السفسطة بعد أن سمع قول إبراهيم: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِي يُحۡيِۦ وَيُمِيتُ﴾، لأن تلك القضية هي التي لم يدَّعِ أحد أنه فعلها، حتى الكافرون إذا سألتهم: من الذي خلق؟ يقولون الله، إلا أن الخصم الذي حاجّ إبراهيم أراد أن ينقل المحاجّة نقلة سفسطائية، بحيث يطيل الجدل بلا نهاية، قال الرجل: أنا أقدر أن أقتل ما عندي من مساجين وأقدر ألا أقتلهم، فكأنني أحيي وأميت، ولم يشأ إبراهيم أن يطيل هذه المجادلة، عن ماهيّة الحياة والموت، فجاء له بأمر يُلجمه وينتهي الجدل، فقال له: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأۡتِي بِٱلشَّمۡسِ مِنَ ٱلۡمَشۡرِقِ فَأۡتِ بِهَا مِنَ ٱلۡمَغۡرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَۗ﴾، وهكذا أنهى سيدنا إبراهيم هذا الجدل.

## لم يقلها، مما يدلّ على أنه غبيّ!

ولأن الله وليّ الذي آمنوا، فهو سبحانه لم يلهم المحاجّ أن يَرُدّ؛ كان يستطيع أن يقول له: اجعل إلهك الذي يأتي بها من المشرق يأتِ بها من المغرب، لكنه لم يقلها، مما يدل على أنه غبيّ! أو يكون ذكيا فيقول: إن الرب الذي معك فليأت بها من المغرب، فألجمه الله عن قول ذلك، وبُهت، وكلمة **{بُهِتَ}** تعني الدهشة والحيرة المقترنة بالضعف والهزيمة.

## ليس من سكانها، إنما مرّ عليها سياحة

﴿أَوْ كَٱلَّذِى مَرَّ عَلَىٰ قَرْيَةٍ وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا ۖ فَأَمَاتَهُ ٱللَّهُ مِاْئَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُۥ ۖ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ ۖ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۖ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ۖ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ ۖ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا ۚ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾[1].

ونفهم أن الذي مر على هذه القرية ليس من سكانها، إنما هو قد مرّ عليها سياحة في رحلة، كما أنه سبحانه لم يشأ أن يأتي لنا باسم القرية أو باسم الذي مرّ عليها، قيل (أرمياء) وقيل (عُزير) في بيت المقدس، وهما من أنبياء بني إسرائيل في تلك

---

(١) [البقرة: ٢٥٩].

الفترة، و﴿خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ المقصود بها أنها قرية خالية من السكان، و(العرش) يطلق على البيت من الخيام، ويطلق كما نعرف على (السُّقُف)، أي أن العرش قد سقط أولا، ثم سقطت الجدران عليه، مثلما نقول في لغتنا العامية: (جاب عاليها على واطيها)، وعندما يمر إنسان على قرية مثل هذه القرية فلا بد أن مشهدها يكون شيئاً لافتا للنظر، فكأنه يسأل عن القرية، وعن إماتة وإحياء الناس فيها.

## لا يشك، إنما يريد أن يرى كيف تتم هذه الحكاية!

﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ وساعة تسمع ﴿أَنَّىٰ﴾ فهي تأتي مرة بمعنى (كيف)، ومرة تأتي بمعنى: (من أين)، والمناسب لها هنا هو كيف، وقوله هذا يدل على أنه مؤمن، فهو لا يشك في أن قضية الإحياء من الله، وإنما يريد أن يعرف الكيفية، هو لا يشك في أن الله يُحيي الموتى، إنما يريد أن يرى كيف تتم هذه الحكاية؛ لأن الذي يريد أن يعرف كيفية الشيء، لا بد أنه متعجب من وجود هذا الشيء فيتساءل، مثلما نرى الأهرام، ونحن لا نشك أن الأهرام مبنية بهذا الشكل، لكننا نتساءل فقط: كيف بنوها؟ كيف نقلوا الحجارة بضخامتها لأعلى ولم يكن هناك سقالات أو رافعات آلية؟ إذن فنحن نتعجب فقط، والسؤال عن الكيفية معناه التيقن من الحدث.

## قضية عجيبة!

حوار دار في هذا الشأن، السؤال هو: كم لبثت؟ فأجاب الرجل: لبثت يوماً أو بعض يوم، قال ذلك؛ لأنه لا يستطيع أن يتحكم في تقدير الزمن، ولم ير شيئاً قد تغير فيه ليحكم بمقدار التغير، مثلا: لم يجد لحيته قد طالت، أو وجد شعره شائبا. إن في القصة ما يؤيد ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾، وما يؤيد ﴿بَل لَّبِثْتَ مِأْئَةَ عَامٍ﴾، فقد كان مع الرجل حماره، وطعامه وشرابه من عصير وعنب وتين، فنظر الرجل إلى طعامه وشرابه فوجدهما لم يتغيّرا، ونظر إلى حماره وقد تحول عظاماً مبعثرة، ولا يمكن أن يحدث ذلك في زمن قصير، فإن موت الحمار أمرٌ قد يحدث في يوم، أما أن ينتهي لحمه إلى رماد، والعظام مبعثرة، فتلك قضية تحتاج زماناً طويلاً، فالقضية إذن قضية عجيبة.

## قصة (عُزير) والقرية

﴿وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾ فمن هم الناس الذين سيجعل الله من قضية هذا الرجل آية لهم؟ كان لا بد أن يوجد أناس في القصة، لكن القرية خاوية على عروشها، وليس فيها إنسان أو بنيان! و(عُزيز) كما قيل هو الذي مرّ على القرية، وكان من الأربعة الذين يحفظون التوراة، وقد أراه الله العظام وكيف ينشزها ويرفعها فتلتحم ثم يكسوها لحما، أي أراه عملية الإحياء مشهدياً، وفي هذا إجابة للسؤال: ﴿أَنَّىٰ يُحْيِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾؟ ومن بعد ذلك تذكر

قريته التي خرج منها، وأراد العودة إليها، فلما عاد إليها وجد أمرها قد تغير بما يتناسب مع مرور مائة عام، وتثبت أهل القرية من صدق (عُزير)، هو أن (بختنصر) حينما جاء إلى بيت المقدس وخربها وحرق التوراة، قال العزير أنا أحفظها، وتلاها لهم، فصدّق القوم أنه العزير، وتعجب الناس.

## كان إبراهيم مؤمناً، ولكنه يريد أن يزداد اطمئناناً

﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ ٱجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا ۚ وَٱعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦٠﴾﴾[1].

أي أنه يطلب الحال التي تقع عليها عملية الإحياء، فإبراهيم عليه السلام لا يتكلم في الإحياء، وإنما كان شكّه في أن الله سبحانه قد يستجيب لطلبه في أن يطلعه على كيفية إحياء الموتى؟

﴿لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى ۖ﴾؟ فهل هذا دليل على أن إبراهيم قبل السؤال، وقبل أن يُجاب إليه، لم يكن قلبه مطمئناً؟ لا، لقد كان إبراهيم مؤمناً، ولكنه يريد أن يزداد اطمئناناً، لأنه أدار بفكره الكيفية التي تكون عليها عملية الإحياء، فالاطمئنان جاء لمراد في كيفية مخصوصة تخرجه من متاهات كيفيات متصورة ومتخيلة، وهذه الكيفية لا يمكن أن نشرحها لك بكلام، بل لا بد أن تكون تجربة عملية واقعية.

---

(١) [البقرة: ٢٦٠].

## تأتي أمامه سائرة لا طائرة كي يتأكد منها

﴿فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ ٱلطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ﴾ قال المفسرون: إن الأربعة من الطير هي: الغراب، الطاووس، الديك، الحمامة، وهكذا كان كل طائر له شكلية مختلفة. ﴿ثُمَّ ٱدْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًاۚ﴾

وكان المفروض أن يقول: يأتينك طيرانا، فالطير يطير في السماء، لكن الله أراد بذلك ألا يدع أي مجال لاختلاط الأمر فقال: ﴿سَعْيًاۚ﴾ أي أن الطير سيأتي أمامه سائرا، كي يتأكد منها سيدنا إبراهيم، وهنا ملحظية في طلاقة القدرة، وفي الفرق بين القدرة الواجبة لواجب الوجود وهو الله، لمنكر واجب الوجود وهو الإنسان.

## إذا كانت الأرض تضاعف لك، فما بالك بالله؟!

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾[1].

المال كله مال الله، وقد أخذه الإنسان بالحركة، فاحترم الله هذه الحركة، واحترم الله في الإنسان قانون النفعية، فجعل المال المتبقي من حركتك ملكا لك أيها الإنسان، لكن إن أراد الله هذا المال فسيأخذه، ومن فضل الله على الإنسان أنه

(١) [البقرة: ٢٦١].

حين يطلب من الإنسان بعضا من المال فهو يطلبه كقرض، ويردّه مضاعفا، لذلك لا تحزن ولا تخف على مالك؛ وهذه الآية تعالج قضية الشُح في النفس الإنسانية، فإذا كانت الأرض تضاعف لك ما تعطيها، فما بالك بالله؟

## انظر النظرة الواعية؟

وكلمة ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ كلمة عامة، يصح أن يكون معناها الجهاد، أو مصارف الصدقات؛ لأن كل هذا في سبيل الله؛ لأن الضعيف حين يجد نفسه في مجتمع متكافل، لا يحقد وإنما يقول: إن مال غيري يصلني. وقوله: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ﴾ هو قانون يريد به الله أن يحارب الشح في نفس المخلوقين، وتؤكد أن الصدقة لا تنقص ما عند الإنسان بل ستزيده، إنه يقول لكل منا: انظر النظرة الواعية؛ وإياك أن تظن أن ما تعطيه الأرض يكون لك فيه ثقة، وما يعطيه الله لا ثقة لك فيه.

## ماذا يكون الموقف؟

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتۡبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنّٗا وَلَآ أَذٗى لَّهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٦٢﴾[1].

إياك حين تنفق، أن تمنّ على من تعطيه أو تؤذيه، والمنّ هو أن يعتدّ على من

---

(١) [البقرة: ٢٦٢].

أحسن إليه بإحسانه ويريه أنه أوجب عليه حقا له، وأنه أصبح صاحب فضل عليه، وكما يقولون في الريف (تعاير بها)، ولذلك فمن الأدب الإيماني في الإنسان أن ينسى أنه أهدى وينسى أنه أنفق، ولا يُطلع أحداً من ذويه على إحسانه على الفقير، أو تصدّقه عليه، وخاصة الصغار الذين لا يفهمون منطق الله في الأشياء، فعندما يعرف ابني أنني أعطي لجاري كذا، ربما أخذه غروره فعيّره، ماذا يكون الموقف؟ يكرهها المُعْطَى الذي تصدقت بها عليه ويتولد عنده حقد وبغض، ولذلك حينما قالوا: اتق شر من أحسنت إليه، شرحوا ذلك بأن اتقاء شر ذلك الإنسان بألا تذكره بالإحسان، لأن ذلك يولد عنده حقداً.

## أتتصدقين به معطراً؟

﴿ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ﴾ انظر إلى الدقة الأدائية في قوله الكريم: ﴿ثُمَّ﴾ تأتي في هذا المعنى لوجود مسافة زمنية، إن المنفق بالمال قد لا يمنّ ساعة العطاء، ولكن قد يتأخر المنفق بالمنّ، يجب أن يبتعد المنفق عن المن دائماً، فلا يمتنع فقط وقت العطاء، ولكن لا بد أن يستمر بعد العطاء وإن طال الزمن. ولننظر إلى ما فعلته سيدتنا فاطمة بنت رسول الله ﷺ، لقد راحت تجلو الدرهم وتطيبه، فلما قيل لها: أتتصدقين به معطراً؟ قالت: لأني أعلم أنه يقع في يد الله قبل أن يقع في يد الفقير.

نضرب مثلا للتوضيح:

قوله تعالى: ﴿وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾﴾ هذا القول دليل على أن الله سيأتي بنتيجة النفقة بدون مَنّ أو أذى بما يفرح له قلب المؤمن، إما بالبركة في الرزق وإمّا بسلب المصارف عنه، فيقول القلب المؤمن: إنها بركة الصدقة التي أعطيتها، ونضرب مثلا: هب أن إنسانا راتبه خمسون جنيها، فيجد ولده متعبا وحرارته مرتفعة، فيرزق الله قلب الرجل الاطمئنان، ويطلب من الأم أن تعد كوبا من الشاي للابن ويعطيه قرصا من الأسبرين، وتذهب الوعكة وتنتهي المسألة، ورجل آخر يقذف الله في قلبه الرعب، وتأتي الخيالات والأوهام عن المرض في ذهن الرجل، فيذهب بابنه إلى الطبيب فينفق مائة جنيه!

## إذا ألحّ في سؤاله، عليك أن تتحمله

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَآ أَذًىۗ وَٱللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ ﴿٢٦٣﴾﴾[1].

فالقول المعروف هو أن تردّ السائل الرد الجميل بحيث لا تمتلئ نفسه بالكراهية عليك، وبحيث لا توبّخه لأنّه سألك، وإذا كان السائل قد تجهّم عليك تجهّم المحتاج فاغفر له ذلك، لماذا؟ لأن هناك إنسانا تلهب ظهره سياط الحاجة، ويراك أهلا لغنى وسعة من المال، وقد يزيد بالقول واللسان قليلاً عليك، وربما تجاوز أدب الحديث معك في إلحاحه، فعليك أن تتحمله.

---

(١) [البقرة: ٢٦٣].

## عمله يكون من أصله مردود، لا لله!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُبۡطِلُواْ صَدَقَٰتِكُم بِٱلۡمَنِّ وَٱلۡأَذَىٰ كَٱلَّذِي يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ عَلَيۡهِ تُرَابٞ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ مِّمَّا كَسَبُواْۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٢٦٤﴾[1].

أي: أنتم وإن قصدتم بالصدقة وجه الله في ابتداء الأمر، فإن المنّة والأذى مبطلان لها، فتصير أعمالكم بمنزلة الذي يعمل لمراءاة الناس، لا لله، فهذا لا شك أن عمله من أصله مردود، فمثله ﴿كَمَثَلِ صَفۡوَانٍ﴾ وهو الحجر الصلب الأملس عليه تراب ﴿فَأَصَابَهُۥ وَابِلٞ﴾ أي: مطر غزير ﴿فَتَرَكَهُۥ صَلۡدٗاۖ﴾ أي: ليس عليه شيء من التراب، فكذلك حال هذا المرائي، قلبه غليظ قاس بمنزلة الصفوان، وصدقته ونحوها من أعماله بمنزلة التراب الذي على الصفوان، إذا رآه الجاهل بحاله ظن أنه أرض زكية قابلة للنبات، فإذا انكشفت حقيقة حاله زال ذلك التراب وتبين أن عمله بمنزلة السراب، وأن قلبه غير صالح لنبات الزرع، ﴿لَّا يَقۡدِرُونَ عَلَىٰ شَيۡءٖ﴾ من أعمالهم التي اكتسبوها، لأنهم وضعوها في غير موضعها وجعلوها لمخلوق مثلهم، فلهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾.

---

(١) [البقرة: ٢٦٤].

## خسارته تكون خسارتين!

فالذي يتصدق ويُتبع صدقته بالمنّ والأذى، إنما يُبطل صدقته، وخسارته تكون خسارتين: الخسارة الأولى أنه أنقص ماله بالفعل؛ لأن الله لن يعوّض عليه؛ لأنه أتبع الصدقة بما يبطلها من المنّ والأذى، والخسارة الأخرى هي الحرمان من الثواب؛ والذي يعمل من أجل أن يقول الناس إنه عمل، فليأخذ أجره من القدرة المحدودة للبشر، ولذلك قال لنا رسول الله ﷺ عن الذي يفعل الحسنة أو الصدقة ليقال عنه إنه فعل، فإنه يأتي يوم القيامة ولا يجد أجرا له، وقد جاء في الحديث الشريف: «**... ورجلٌ آتاه من أنواعِ المالِ فأتى به اللهُ فعرَّفَه نِعَمَه فعرَفَها ، فقال : ما عملتَ فيها ؟ فقال : ما تركتُ من سبيلٍ تحبُّ أن تُنفقَ فيه إلا أنفقتُ فيه لك . قال : كذبتَ إنما أردتَ أن يقال : فلانٌ جوادٌ فقد قيل فأمر به فسُحِبَ على وجهِه حتى أُلقيَ في النارِ**»[1].

## هذه حالة أهل النفقات

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝٢٦٥﴾[2].

(١) رواه البخاري.

(٢) [البقرة: ٢٦٥].

﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي: منشرحة له النفس سخية به، لا على وجه التردد وضعف النفس في إخراجها، فمثل نفقة هؤلاء ﴿كَمَثَلِ جَنَّةِۭ﴾ أي: كثيرة الأشجار، وهذه الجنة ﴿بِرَبۡوَةٍ﴾ أي: مكان مرتفع مكشوف للشمس في جميع الأوقات، فثماره أحسن أكثر جودة، ف﴿أَصَابَهَا﴾ أي: تلك الجنة التي بربوة ﴿وَابِلٞ﴾ وهو المطر الغزير، فآتت ثمرها ضعفين لطيب أرضها ووجود الأسباب الموجبة لذلك، فهذه حالة المنفقين أهل النفقات الكثيرة والقليلة كل على حسب حاله.

## من أنفسهم، لأنفسهم أيضا

﴿وَتَثۡبِيتٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ وأما التثبيت من أنفسهم، فهو لأنفسهم أيضا، فكأن النفس الإيمانية تتصادم مع النفس الشهوانية، فعندما تطلب النفس الإيمانية أي شيء، فإن النفس الشهوانية تحاول أن تمنعها، وتتغلب النفس الإيمانية على النفس الشهوانية وتنتصر لله، والمراد هو أن يتثبت المؤمن على أن يحبّ نفسه حبا أعمق لا حبا أحمق، إذن فعملية الإنفاق يجب أن تكون أولا إنفاقا لوجه الله من أجل تحقيق الأجر والثواب.

## أحدث ما توصّل إليه العلم من وسائل الريّ

ففي الأرض المستوية، قد توجد المياه الجوفية التي تذهب إلى جذور النبات الشعرية وتفسدها بالعطن، فيشحب النبات بالاصفرار ثم يموت بعد ذلك، في حين أن الجنة التي بربوة تستقبل المياه من المطر، وتكون لها مصارف من جميع الجهات المنخفضة التي حولها، وترتوي هذه الجنة بأحدث ما توصّل إليه العلم من وسائل الري، إنها تأخذ المياه من أعلى، فتنزل المياه على الأوراق، لتؤدي وظيفة أولى وهي غسل الأوراق، التي هي مثل الرئة بالنسبة للإنسان مهمتها التنفس، مما يجعلها تؤدي دورها فيما نُسميه في العصر الحديث بالتمثيل الكلوروفيلي، وبعد ذلك تنزل المياه إلى الجذور، وينزل الماء الزائد عن ذلك في المصارف المنخفضة، وهذه أحدث وسائل الزراعة الحديثة.

## نبع هذه الأنهار غير ذاتي، إنما يجري بإرادة اللّه

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾[1].

(١) [البقرة: ٢٦٦].

ضرب الله مثلا كصاحب هذا البستان الذي فيه من كل الثمرات، وكان صاحبها قد اغتبط بها وسرته، ثم إنه أصابه الكبر فضعف عن العمل، وكان له أبناء صغار، فبينما هو كذلك إذ أصاب تلك الجنة إعصار وهو الريح القوية؛ فيها نار فاحترقت تلك الجنة، فلا تسأل عما لقي ذلك الذي أصابه الكبر من الهم والغم والحزن.

## تصوّر هذا الحال، نهاية وحسرة!

والإنسان أحوج ما يكون لعمله إذا مات، وكان بحالة لا يقدر معها على العمل، فيجد عمله الذي ينتظر أجره هباء منثورا، فلو تصور الإنسان هذا الحال، لم يُقدم على ما فيه مضرته ونهاية حسرته، أبناء ضعفاء، هرم وضعف وعجز عن العمل، إعصار فيه نار، فأيّ حسرة يكون فيها الرجل؟ إنها حسرة شديدة، فلهذا أمر تعالى بالتفكر في هذا الأمر وحثَّ عليه، فقال: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٦٦﴾﴾.

## طعام رديء، كيف ننفق منه لوجه الله!؟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾﴾[1].

---

(١) [البقرة: ٢٦٧].

بعض الناس كانوا يحضرون العِذق من النخل (وهو أردأ التمر) ويعلقه في المسجد من أجل أن يأكل منه الناس، فأراد الله أن يجنّبهم هذا الموقف، حتى لا يجعلوا لله ما يكرهون، فالله طيب لا يقبل إلا طيبا. ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ﴾ الواحد منا لا يرضى أن يأخذ لنفسه أو لأولاده هذا الطعام الرديء، فكيف ننفق منه لوجه الله!؟ ﴿وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِۚ﴾ أي أنك أيها الإنسان لن ترضى لنفسك أن تأكل من هذا الطعام الرديء إلا إذا أغمضت عينيك، أو تم تنزيل سعره لك؛ فكيف تطيب نفسك تقديم هذا الطعام للآخرين؟ ثم قال تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ٢٦٧﴾

## المنكرات الضغائن تدخل في قلب المجتمع!

﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِۖ وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦٨﴾[1].

إن الشيطان قد يوسوس لكم بأن الإنفاق إفقار لكم، ويحاول أن يصرفكم عن الإنفاق في وجوه الخير، ويغريكم بالمعاصي والفحشاء، فالْغَنِيُّ حين يقبض يده عن المحتاج فإنه يُدْخِل في قلب المحتاج الحقد، وأي مجتمع يدخل في قلب أفراده الحقد نجد كل المنكرات تنتشر فيه، وأي مجتمع تدخل في قلب أفراده الضغائن، فعلى هذا المجتمع السلام.

---

(١) [البقرة: ٢٦٨].

## كل ما أمرتكم به هو عين الحكمة

﴿يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾[1].

والحكمة هي وضع الشيء في موضعه النافع، فكأن الحق يقول: كل ما أمرتكم به هو عين الحكمة؛ لأني أريد أن أُؤَمِّنَ حياتكم الدنيا، وأُؤَمِّنَ لكم سعادة الآخرة، فإن صنع العبد المؤمن ما يأمر به الله، فهذا وضع الأشياء في موضعها وهو أخذ بالحكمة. وسيدنا الحسن البصري، كان يقول لمن يدخل عليه طالبا حاجة: مرحباً بمن جاء يحمل زادي إلى الآخرة بغير أجرة، إن سيدنا الحسن البصري قد أوتي من الحكمة ما يجعله لا ينظر إلى الخير بمقدار زمنه، ولكن بمقدار ما يعود عليه بعد الزمن، فالتلميذ الذي يَجِدُّ ويتعب في دروسه ليحصل على النجاح، يرتقي في المجتمع، بينما أخوه يحب لنفسه الراحة والكسل، وارتضى لنفسه به، يصير صعلوكاً في المجتمع.

## الإنسان لا ينبغي أن يورط نفسه في النذر

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ ۗ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٢٧٠﴾﴾[2].

---

(١) [البقرة: ٢٦٩].

(٢) [البقرة: ٢٧٠].

إن النذر، هو أن تُلزم نفسك بشيء من جنس ما شرع الله فوق ما أوجب الله، فإذا نذرت أن تصلي لله كل ليلة عددا من الركعات فهذا نذر من جنس ما شرع الله؛ وهذا دليل على أن العبادة قد حَلَتَ له، فأحبها وعشقها، ودليلٌ على أنه قارب أن يعرف قدر ربه؛ وأن ربه يستحق منه فوق ما افترضه عليه، فكأن الله في افتراضه كان رحيماً بنا، لأنه لو فرض ما يستحقه منا لما استطاع واحد أن يفي بحق الله، ولذلك فمن التعقل ألا يورط الإنسان نفسه ويسرف في النذر، لأنه في ساعة الأداء قد لا يقدر عليه، فمن الأفضل أن يتريث، لأنه إن نطق بنذر فقد لزم. ﴿وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ۝٢٧٠﴾ إن ظلم الإنسان إنما يكون لنفسه، ومن أشد الظلم للنفس في الإنفاق رياءً، أو الإنفاق في المعاصي، أو عدم الوفاء بالنذر، فليس لمن يفعل ذلك أعوان يدفعون عنه عذاب الله في الآخرة.

## الغنيّ عليه أن يتصدّق علنا

﴿إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٢٧١﴾[1].

فالحق خبير بنية من أبدى الصدقة، فإن كان غنياً فعليه أن يتصدق صدقة علنية، حتى يحمي نفسه وعرضه من كلام الناس عليه؛ لأن الناس حين يعلمون

---

(١) [البقرة: ٢٧١].

بالغني فلا بد أن يعلموا بإنفاقه، وإلا فقد يحسب الناس على الغني عطاء الله له، ولا يحسبون له النفقة في سبيل الله، وإن أراد أن يتصدّق تطوعا فلا مانع أن يُسرّ بها حتى لا تعلم شمالك ما أنفقت يمينك، أما إن كان الإنسان غير ظاهر الغنى، فمن المستحسن أن يُخفي الصدقة، وإن ظهرت الصدقة ليتأسّى الناس به، وليس في ذهنه الرياء فهذا أيضا مطلوب.

## لهم أن يختاروا هذا، أو هذا!

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾[1].

أصل هذه المسألة أن بعض السابقين إلى الإسلام كانت لهم قرابات لم تسلم، وكان هؤلاء الأقرباء من الفقراء، وكان المسلمون يحبون أن يعطوا هؤلاء الأقارب الفقراء شيئا من مالهم، ولكنهم تحرّجوا أن يفعلوا ذلك فسألوا رسول الله ﷺ في هذا الأمر. ولقائل أن يقول: ما دام الله هو الذي يهدي فيجب أن نترك الناس على ما هم عليه من إيمان أو كفر، وما علينا إلا البلاغ، ونقول لأصحاب هذا الرأي ما قاله الحق سبحانه: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُدَىٰ﴾[2]. وما دام الله هداهم فقد ترك فيهم قوة الترجيح بين

---

(١) [البقرة: ٢٧٢].

(٢) [فصلت: ١٧].

البدائل، فلهم أن يختاروا هذا، ولهم أن يختاروا هذا، فلما هداهم الله ودلَّهم استحبوا العمَى على الهدى.

## اجعل نفقتك عند من يجحد! لا عند من يحمد!

﴿وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ﴾ إذن فاجعل نفقتك عند من يجحد، ولا تجعل نفقتك عند من يحمد، لأنك بذلك قد أخذت جزاءك ممن يحمد، وليس لدى الله جزاء لك، لذلك كنت أقول دائماً للذين يشكون من الناس نكران الجميل ونسيان المعروف: أنتم المستحقون لذلك؛ لأنكم جعلتموهم في بالكم ساعة أنفقتم عليهم، ولو جعلتم الله في بالكم لما حدث ذلك منهم أبداً.

﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾﴾[1].

وسبب هذا الظن هو تركهم للمسألة، وإذا كان التعفف هو ترك المسألة فالله يقول بعدها: ﴿تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ إِلْحَافًا ۗ﴾ والسمة هي العلامة المميزة التي تدل على حال صاحبها، فكأنك ستجد فيهم خشوعاً وانكساراً ورثاثة هيئة، وإن لم يسألوا أو يطلبوا، ولكنك تعرفهم من حالتهم التي تستحق الإنفاق عليهم.

---

(١) [البقرة: ٢٧٣].

## يتبيّن حاله بالنظرة إليه فلا يدعه يسأل

والحق يريد من المؤمن، أن تكون له فراسة نافذة في أخيه، بحيث يتبين أحواله بالنظرة إليه ولا يدعه يسأل، فإذا ما سأل السائل بعد ذلك اعتبر سؤاله إلحاحاً؛ لأن حاله تدل على الحاجة، ومادامت حالته تدل على الحاجة، فكان يجب أن يجد من يكفيه السؤال، فإذا ما سأل فكأنه ألحف في المسألة وألحّ عليها، وهو سبحانه يريد من المؤمن أن يتفرس في وجه إخوانه ليرى ما بهم من حاجة، فإذا ما عرف ذلك يكون عنده فطنة إيمانية.

## بلا زيادة أو نقصان!

إن الذي خلق الخلق قد صنع حسابا دقيقا لذلك الخلق، بحيث لو أحصيت ما يجب على الأغنياء من زكاة، وأحصيت ما يحتاج إليه الفقراء والعاجزين عن العمل، لوجدت الفقراء والعاجزين يحتاجون لمثل ما يفيض عن الأغنياء بلا زيادة أو نقصان، وإلا كان هناك خطأ والعياذ بالله في حساب الخالق في تقدير نسبة الزكاة، ولا يمكن أن يكون ذلك أبداً.

## تحذير وتخويف أصحاب الأموال!

﴿وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ﴾ من غيرهم، فمن الجائز أن يكون حول كثير من الأغنياء أناس حمقى، حين يرون أيدي هؤلاء الأغنياء مبسوطة بالخير للناس، فيغمزونهم ويحذرونهم ليمسكوا أيديهم مخافة أن يفتقروا، كأن يقولوا لهم: استعدوا للزمن

مخافة أن يفتقر أبناؤكم، لكن أهل الخير من الأغنياء لا يستمعون لهؤلاء الحمقى.

﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣﴾ أي لا خوف عليهم الآن، ولا حزن عندهم حين يواجهون بحقائق الخير التي ادّخرها الله ﷻ لهم، بل إنهم سيفرحون.

## ارسموا لنا صورة الشيطان؟!

﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٢٧٥﴾[1].

والربا هو الأمر الزائد، وما دام هو الأمر الزائد يعني هو لا يحتاج أن يأكل، فهذا تقريع له، إذن فنحن في صورة لا نراها، فكيف يشبّه الله ما لم نره بما لم نره، يشبه شيئا مجهولاً بشيء مجهول؟ نقول: نعم، وذلك أمر مقصود للإعجاز القرآني؛ لأن للشيطان صورة متخيلة بشعة، بدليل أنك لو طلبت من رسامي العالم في فن الكاريكاتير، وقلت لهم: ارسموا لنا صورة الشيطان، فكل منهم يرسم وفق تخيله كياناً غاية في القبح، وما المناسبة بين هذه الصورة وبين عملية الربا؟ نلاحظ ازدحام السكان، وارتقاءات عقلية وطموحات ابتكارية وآلات الترفيه في أغنى بلاد العالم، هي التي يعاني الناس فيها القلق وتمتلئ

(١) [البقرة: ٢٧٥].

بالاضطراب، وينتشر فيها الشذوذ، وهي التي تشكو من ارتفاع نسبة الجنون بين سكانها، إنها حركة هستيرية في الكون تدل على أنه غير مستريح، وغير منسجم مع طموحاته وابتكاراته، هذا الاختلال ناشئ عن سلوك بشري غير منطقي في هذا الكون.

## لماذا نشقى كل هذا الشقاء؟

أما كان على هذا الكون بعقلائه أن يبحثوا عن السبب في هذا، وأن يعرفوا لماذا نشقى كل هذا الشقاء؟ فالمصيبة عامة، تعمّ الدول المتخلفة والمتقدمة، وكان من الواجب أن نبحث عن سبب مشترك. ومن العجيب أن نجد القوم الذين صدروا لنا النظام الربوي يحاولون الآن جاهدين أن يتخلصوا منه، لا لأنهم ينظرون إلى هذا التخلص على أنه طهارة دينية، ولكن لأنهم يرون أن كل شرور الحياة ناشئة عن هذا الربا، وأن المال لا يؤدي وظيفته في الحياة إلا إذا انخفضت الفائدة إلى درجة الصفر، ومعنى ذلك أنه لا ربا، وما دام هذا النظام قد ضمن للغني أن يزداد غنى، فمن أين يزداد غنى؟ لاشك أنه يزداد غنى من الفقير، ليصبح المال في يد أقلية في هذا العالم.

## يحاولون أن يتلصّصوا على النص القرآني!

إنها نكسة خُلُقية توجِد في المجتمع كراهية وأضغاناً، وتوجد في المجتمع حقداً، وتقضي على بقية المعروف وقيمته بين الناس، وتنعدم المودة في المجتمع، فإذا ما

رأى إنسان فقيرٌ إنساناً غنياً عنده المال، ويشترط الغني على الفقير المُعدم أن يُعطيه أكثر مما يأخذ، فعلى أية حال ستكون مشاعر وأحاسيس الفقير؟ أي أنهم يريدون تبرير إعطاء الفقير مالاً، وأن يرده أضعافاً فقط لا أضعافاً مضاعفة؛ حتى لا يصير ذلك الاسترداد بالزيادة حراماً، ولهؤلاء نقول: إن الذين يقولون ذلك يحاولون أن يتلصصوا على النص القرآني، ويسرقوا منه ما شاءوا دون أن يضع في النص ما يحول دون هذا التلصص، ولو فطنوا إلى أن الله يقول في آخر الأمر: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾[1].

هذا القول الحاسم يوضح أن الله لم يستثن ضعفاً ولا أضعافاً.

## اتفاق الطرفين هل يُعتبر تراضياً؟!

وكانوا يتعللون ويبررون أن اتفاق الطرفين على أي أمر يّعتبر تراضياً، ويُعتبر عقداً، وقد يكون ذلك صحيحاً، فهل كلما تراضى الطرفان على شيء يصير حلالاً؟ لو كان الأمر كذلك لكان الزنا حلالاً: لأنهما طرفان قد تراضيا!

## سأنهار اقتصاديا؟!

قوله تعالى: ﴿وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ إن مثل هذا الإنسان المرابي ربما قال: سأنهار اقتصاديا إذا تركت العمل بالربا، ومركزي الاجتماعي سيتزعزع، وسأصبح كذا وكذا. لا، اجعل سندك في الله، ففي الله عوض عن كل فائت، هو سبحانه

---

(١) [البقرة: ٢٧٩].

لا يريد أن يزلزل مراكز الناس، ولكن يريد أن يقول لهم: إنني إن سلبتكم نعمتي فاجعلوا أنفسكم في حضانة المنعم بالنعمة. والربا من السبع الموبقات التي أمر الرسول ﷺ باجتنابها حيث قال: **«اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقاتِ، قالوا: يا رَسولَ اللَّهِ وما هُنَّ؟ قالَ: الشِّرْكُ باللَّهِ، والسِّحْرُ، وقَتْلُ النَّفْسِ الَّتي حَرَّمَ اللَّهُ إلَّا بالحَقِّ، وأَكْلُ الرِّبا، وأَكْلُ مالِ اليَتِيمِ، والتَّوَلِّي يَومَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المُحْصَناتِ المُؤْمِناتِ الغافِلاتِ»**.[1]

## انظر كيف انتهت حياتهم؟!

﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾﴾[2].

ولعلنا إن دققنا النظر في البيئات المحيطة بنا وجدنا مصداق ذلك، فكم من أناس رابوا، ورأيناهم، وعرفناهم، وبعد ذلك عرفنا كيف انتهت حياتهم، فإياكم أن تعتقدوا أنكم تخدعون الله بذلك، وقد نعرف قيمة الصفعة بفاعلها، فإذا قيل: يصفعك هذا الملاكم فلا بد أن تكون هذه الصفعة قوية وربما تكون قاتلة، فإذا كان الله هو الذي قال: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ﴾ أيوجد محق فوق هذا؟ وعلى العكس من ذلك فهو: ﴿وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾ لأن الذي قالها أيضا هو الله.

---

(١) صحيح البخاري.

(٢) [البقرة: ٢٧٦].

## ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ مثل {اتقوا النار}

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ٢٧٨﴾[1].

إن سألك أحد: لماذا فعلت هذا الأمر؟ تقول: فعلته لأني مؤمن، ولا تدخل في متاهة علل الأحكام، لأن هناك أشياء قد تغيب علّتها عنك، أكنت تؤجلها إلى أن تعرف العلة؟ أكنا نؤجل تحريم لحم الخنزير إلى أن يثبت بالتحليل أنه ضار؟ لأن معنى ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾: أي اجعلوا وقاية بينكم وبين وبين ما يغضب الله، إذن ف ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ مثل {اتقوا النار} أي اجعلوا وقاية بينكم وبين النار.

## لا ضعف ولا ضعفين، ولا أضعافا مضاعفة!

﴿فَإِن لَّمۡ تَفۡعَلُواْ فَأۡذَنُواْ بِحَرۡبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۖ وَإِن تُبۡتُمۡ فَلَكُمۡ رُءُوسُ أَمۡوَٰلِكُمۡ لَا تَظۡلِمُونَ وَلَا تُظۡلَمُونَ ٢٧٩﴾[2].

لقد جاء نظام الإسلام ليحمي طائفة من ظلم طائفة، طائفة المرابين الذين ظلموا طائفة الفقراء المستضعفين، كأن الله ﷻ يجرد على المرابين تجريدة هائلة

(١) [البقرة: ٢٧٧-٢٧٨].

(٢) [البقرة: ٢٧٩].

من جنوده التي لا يعلمها إلا هو، وحرب رسول الله جنودها هم المؤمنون، وعليهم أن يكونوا حربا على كل ظاهرة من ظواهر الفساد في الكون؛ فإذا قال الحق: ﴿فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ﴾ فمعنى هذا، أنه لا حق للمرابين في ضعف ولا ضعفين، ولا في أضعاف مضاعفة.

## أمهلوه!!

﴿وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَىٰ مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٨٠﴾﴾[1].

وإن كان الإنسان المدين غير قادر على السداد، فأمهلوه إلى أن ييسِّر الله له عملا فيدفع إليكم مالكم، وإن تتركوا رأس المال كله أو بعضه وتضعوه عن المدين فهو أفضل لكم، إن كنتم تعلمون فَضْلَ ذلك عليكم وعليه وعلى المجتمع كله، وأنَّ ذلك خير لكم في الدنيا والآخرة.

﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾[2].

واحذروا أيها الناس جميعا، يومًا ترجعون فيه إلى الله، وهو يوم القيامة، حيث

---

(١) [البقرة: ٢٨٠].

(٢) [البقرة: ٢٨١].

تعرضون على الله ليحاسبكم، فلا تنفعكم الأموال الربوية ضعفا ولا أضعافا مضاعفة، فيجازي كل واحد منكم بما عمل من خير أو شر دون أن يناله إجحاف أو ظلم، وفي الآية إشارة إلى أن اجتناب ما حرم الله من المكاسب الربوية، تكميل للإيمان وحقوقه من إقام الصلاة وإيتاء الزكاة وغير ذلك من التكاليف الإيمانية.

## ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ تشريع سماوي

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيۡنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٖ مُّسَمّٗى فَٱكۡتُبُوهُۚ وَلۡيَكۡتُب بَّيۡنَكُمۡ كَاتِبُۢ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَلَا يَأۡبَ كَاتِبٌ أَن يَكۡتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ ٱللَّهُۚ فَلۡيَكۡتُبۡ وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥ وَلَا يَبۡخَسۡ مِنۡهُ شَيۡـٔٗاۚ فَإِن كَانَ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ سَفِيهًا أَوۡ ضَعِيفًا أَوۡ لَا يَسۡتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلۡيُمۡلِلۡ وَلِيُّهُۥ بِٱلۡعَدۡلِۚ وَٱسۡتَشۡهِدُواْ شَهِيدَيۡنِ مِن رِّجَالِكُمۡۖ فَإِن لَّمۡ يَكُونَا رَجُلَيۡنِ فَرَجُلٞ وَٱمۡرَأَتَانِ مِمَّن تَرۡضَوۡنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ أَن تَضِلَّ إِحۡدَىٰهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحۡدَىٰهُمَا ٱلۡأُخۡرَىٰۚ وَلَا يَأۡبَ ٱلشُّهَدَآءُ إِذَا مَا دُعُواْۚ وَلَا تَسۡـَٔمُوٓاْ أَن تَكۡتُبُوهُ صَغِيرًا أَوۡ كَبِيرًا إِلَىٰٓ أَجَلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِ وَأَقۡوَمُ لِلشَّهَٰدَةِ وَأَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَرۡتَابُوٓاْ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً حَاضِرَةٗ تُدِيرُونَهَا بَيۡنَكُمۡ فَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَلَّا تَكۡتُبُوهَاۗ وَأَشۡهِدُوٓاْ إِذَا تَبَايَعۡتُمۡۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٞ وَلَا شَهِيدٞۚ وَإِن تَفۡعَلُواْ فَإِنَّهُۥ فُسُوقُۢ بِكُمۡۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٢٨٢﴾[1].

(١) [البقرة: ٢٨٢].

فإن أقبل الإنسان على الله بالإيمان، فعليه أن يستقبل كل حكم منه بالتزام، ونضرب هذا المثل: إن الإنسان حين يكون مريضاً، هو حرّ في أن يذهب إلى الطبيب أو لا يذهب، ولكن حين يذهب الإنسان إلى الطبيب ويكتب له الدواء، فالإنسان يطيع ولا يسأل الطبيب لماذا كتبت هذا الدواء، فما بالنا إذا أقبلنا على الخالق؟

## لا تقل: (نحن أصحاب)!

وكلمة ﴿فَٱكۡتُبُوهُۚ﴾ هي رفع الحرج بين الأحباء، إنه تشريع سماوي، فلا تأخذ أحد الأريحية، فيقول لصاحبه: (نحن أصحاب) فقد يموت واحد منكما، فماذا يفعل الأبناء أو الأرامل أو الورثة؟ ويظن كثير من الناس أن الله يريد بالكتابة حماية الدائن، لا، إن المقصود بذلك حماية المدين، فلا يكسل عن العمل وعن سداد الديْن، ثم يضنّ المجتمع الغني على المجتمع الفقير فلا يُقرضه؛ ويأخذون عجز ذلك الإنسان عن السداد ذريعة لذلك. إن الله يريد أن يسيّر دولاب الحياة الاقتصادية عند من لا يملك، لأن من يملك يستطيع أن يسيّر حياته، أما من لا يملك فهو المحتاج، إنه يقترض ويسدد، لذلك يثق فيه كل الناس، وكل المال يصبح ماله.

## لماذا لا يملي الدائن؟

﴿وَلۡيُمۡلِلِ ٱلَّذِي عَلَيۡهِ ٱلۡحَقُّ﴾ ولماذا لا يملي الدائن؟ لعل الدائن عندما تأتي لحظة كتابة ميعاد السداد فقد يقلل هذا الميعاد، وقد يخجل المدين أن يتكلم ويصمت؛ لأنه في مركز الضعف.

## القوانين الوضعية!!

﴿وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌۚ﴾ ولذلك أخذت القوانين الوضعية من القرآن الكريم هذا المبدأ، فهي إن استدعت شاهدا من مكان ليشهد في قضية، فإنّها تقوم له بالنفقة ذهابا إيابا، ليضمن مصالح الجميع لا مصلحة جماعة على حساب جماعة.

## لا حرج في ترك الكتابة والإشهاد والرهن

﴿۞وَإِن كُنتُمۡ عَلَىٰ سَفَرٖ وَلَمۡ تَجِدُواْ كَاتِبٗا فَرِهَٰنٞ مَّقۡبُوضَةٞۖ فَإِنۡ أَمِنَ بَعۡضُكُم بَعۡضٗا فَلۡيُؤَدِّ ٱلَّذِي ٱؤۡتُمِنَ أَمَٰنَتَهُۥ وَلۡيَتَّقِ ٱللَّهَ رَبَّهُۥۗ وَلَا تَكۡتُمُواْ ٱلشَّهَٰدَةَۚ وَمَن يَكۡتُمۡهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٞ قَلۡبُهُۥۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ٢٨٣﴾[1].

وأي: إن كنتم مسافرين ولم تجدوا مَن يكتب لكم فادفعوا إلى صاحب الحق شيئًا يكون عنده ضمانًا لحقِّه إلى أن يردَّ المدينُ ما عليه من دين، فإن وثق بعضكم ببعض فلا حرج في ترك الكتابة والإشهاد والرهن، ويبقى الدَّين أمانة في ذمَّة المدين، عليه أداؤه، وعليه أن يراقب الله فلا يخون صاحبه، فإن أنكر المدين ما عليه من دين، وكان هناك مَن حضر وشهد، فعليه أن يظهر شهادته، ومن أخفى هذه الشهادة فهو صاحب قلب غادر فاجر، والله المُطَّلِع على السرائر، المحيط علمه بكل أموركم، سيحاسبكم على ذلك.

---

(١) [البقرة: ٢٨٣].

## البشر امتلكوا أقمارا صناعية ومراكب فضائية!!

﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ فَيَغۡفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ٢٨٤﴾[1].

قد يوجد في السماوات أو في الأرض أشياء يدّعي ملكيتها المخلوقون، ونجد بعض موجودات الأرض أو السماء مملوكة لأناس أو شركات أو مصانع كبيرة، فالبشر الذين صعدوا إلى السماء، امتلكوا أقمارا صناعية ومراكب فضائية، وإن كان هذا في ظاهر الأمر، فهو لم يعط هذه الملكية إلا عَرَضَاً يؤخذ منهم في نهاية الأمر، فإما أن يزولوا عنه فيموتوا، وإما أن يزول عنهم لسبب من الأسباب، لأن المالك من البشر لا يملك لنفسه أن يدوم، ولذلك، نقول للذين يَصلون إلى المرتبة العالية في الغنى أو الجاه أو أي مجال: احذر؟ فإن النعمة إذا وصلت الذروة فإنها تتغيّر إلى الأقل دائما، فإذا ما صعد إنسان إلى القمة، فلا بدّ له أن ينزل.

## يحدّث الشخص نفسه بما يرعب الحجر!

﴿وَإِن تُبۡدُواْ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ أَوۡ تُخۡفُوهُ يُحَاسِبۡكُم بِهِ ٱللَّهُۖ﴾ هل المقصود أن كل ما يطرأ أو يعرض أو يتحدث به العبد مع نفسه؟ سواء ما قد يوسوس به الشيطان للعبد من تخيل الذات الإلهية؟ أو تصوّر بعض صفات الله وتكييفها

---

(١) [البقرة: ٢٨٤].

بالخيال؟ أو ما قد يطرأ في لحظات الضعف البشري؟ في موقف من المواقف السلوكية وغير الأخلاقية؟ أو لحظات ضعف الإيمان؟ يخطط في نفسه كيف يقتل رجلا غنيا ويسرق ماله، كيف يسطو على محلّ تجاري؟ كيف يغتصب امرأة تشتهيها نفسه! فيحدّث الشخص نفسه بما يرعب الحجر تجاه ربه! هل هذه الأشياء جميعها وغيرها مشمولة في هذه الآية؟ أم أن الإنسان محاسب على أشياء ويأثم عليها ومعرض للعقوبة في حال حدّثت بها نفسه؟ فقد تطرأ منه حركات صامتة تدل على الامتعاض مثل تغير ملامح الوجه، أو وضع اليد على الفم، أو قول كلمة أفّ في حال تغلبت عليه تلك التخيلات والأحاديث النفسية المشينة، فهل بهذه الأعمال يصبح آثما ويستوجب العقوبة؟ الجواب: الوسوسة وحديث النفس شيء يهجم على القلب بغير اختيار الإنسان، ومن فضل الله تعالى ورحمته أن تجاوز عن ذلك ما لم يعمل به أو يتكلم، كما قال رسول الله ﷺ: **«إنَّ اللهَ تجاوَزَ لأُمّتي عمّا وَسوَسَت أو حدّثَت بِهِ أنفُسَهَا مَا لَم تَعمَل بِهِ أو تكلّم»**[(١)].

## نَسَخَتْهَا الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا

﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ قيل: نَسَخَتْهَا الْآيَةُ الَّتِي بَعْدَهَا: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، قيل: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ ﴿يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ﴾ اشْتَدَّ ذَلِكَ عَلَى الصَّحَابَة، وَخَافُوا مِنْهَا، وَمِنْ مُحَاسَبَةِ اللهَّ لَهُمْ عَلَى الْأَعْمَالِ كبيرها وَحَقِيرِهَا،

(١) رواه البخاري ومسلم.

فَأَتَوْا رَسُولَ اللهِّ ثم جَثَوْا عَلَى الرُّكَبِ، وَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِّ، كُلِّفْنَا مِنَ الْأَعْمَالِ مَا نُطيق: الصَّلَاةُ وَالصِّيَامُ وَالْجِهَادُ وَالصَّدَقَةُ، وَقَدْ أُنْزِلَ عَلَيْكَ هَذِهِ الْآيَةُ وَلَا نُطِيقُهَا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ: «**أَتُرِيدُونَ أَنْ تَقُولُوا كَمَا قَالَ أَهْلُ الْكِتَابَيْنِ مِنْ قَبْلِكُمْ: سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا؟ بَلْ قُولُوا:** ﴿سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾. فَلَمَّا أقَرّ بِهَا الْقَوْمُ وَذَلَّتْ بِهَا أَلْسِنَتُهُمْ»، أَنْزَلَ اللهُّ فِي أَثَرِهَا:

﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ ٢٨٥﴾[1].

صدَّق وأيقن رسول الله محمد ﷺ بما أوحي إليه من ربه، والمؤمنون كذلك صدّقوا وعملوا بالقرآن العظيم، كل منهم صدَّق بالله رباً وإلهًا متّصفًا بصفات الجلال والكمال، وأن لله ملائكة كرامًا، وأنه أنزل كتبًا، وأرسل إلى خلقه رسلا نؤمن بهم جميعا، ولا ننكر بعضهم. وقال الرسول والمؤمنون: سمعنا يا ربنا ما أوحيت به، وأطعنا في كل ذلك، نرجو أن تغفر بفضلك ذنوبنا، فأنت الذي ربَّيتنا بما أنعمت به علينا، وإليك وحدك مرجعنا ومصيرنا. وهذا يتضمن الإيمان بجميع ما أخبر الله به عن نفسه، وأخبرت به عنه رسله.

---

(١) [البقرة: ٢٨٥].

## هل يكلفنا الله بما لا نقدر عليه ولا نطيقه؟!

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾[1].

﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ الأحداث بالنسبة لعزم النفس البشرية ثلاثة أقسام: الأول: هو ما لا قدرة لنا عليه، والثاني: لنا قدرة عليه لكن بمشقة، والثالث: التكليف بالوسع، فالله كلف كل مسلم بالصلاة خمسة فروض كل يوم، وكان من الممكن أن تزيد بالنوافل، وكلف كل مسلم بالصوم شهراً ومن الممكن أن تزيد بالنوافل، ومثل هذا في الزكاة ومن الممكن أن تزيد بالصدقات، ولو لم يكن في الوسع لما تطوعت بالزيادة، إذن الله يكلفنا بما نقدر عليه ونطيقه، ومن لا تتسع همته فهو يؤدي الفروض المطلوبة منه فقط.

---

(١) [البقرة: ٢٨٦].

## خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ

ورد في فضل سورة البقرة وخواتيمها وآخر آيتين منها أحاديث كثيرة ومختلفة، منها عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: **«مَنْ قَرَأَ الْآيَتَيْنِ مِنْ آخِرِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ فِي لَيْلَتِهِ كَفَتَاهُ»**(١). وعَنْ أَبِي ذَرٍّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«أُعْطِيتُ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَهُنَّ نَبِيٌّ قَبْلِي»**(٢).



---

(١) متفق عليه .

(٢) صحيح الجامع.


د. أحمد حسين الرفاعي
تَفسِيرُ القُرآنِ العَظِيمِ
١





# تَفسِيرُ القُـرآنِ العَظِيـمِ

## بالأَمثال والمَعاني المعُاصِرة

د. أحمد حسين الرفاعي

القدس

الجزء الثاني



# تفسير القرآن العظيم

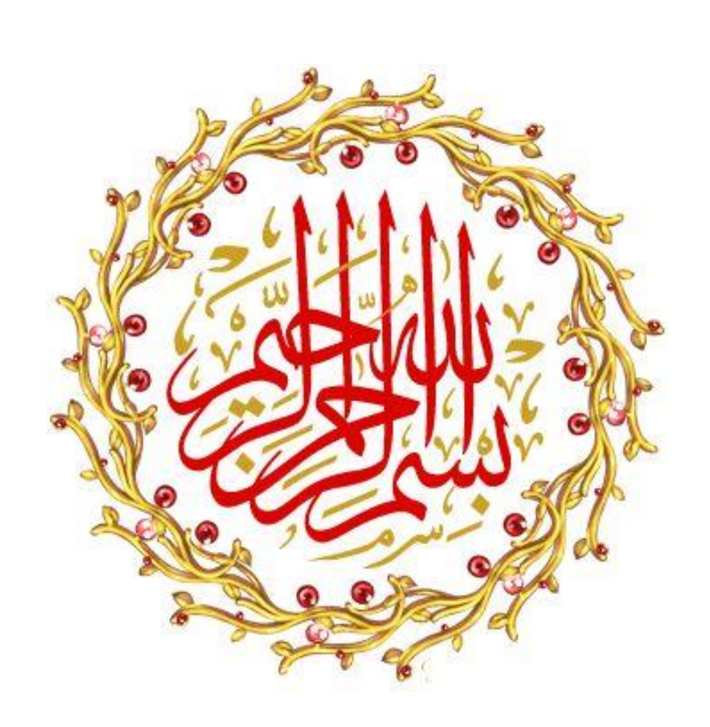
## بالأمثال والمعاني المعاصرة



د. أحمد حسين الرفاعي

القدس

(الجزء الثاني)


بسم الله الرحمن الرحيم



# تفسير سورة آل عمران

هي ثالثُ سورةٍ من سور القرآن، عدد آياتها (٢٠٠) آية، تُصنّف السورة على أنّها مدنية من السبع الطوال، بدأت السورة بحروف مقطعة ﴿الٓمٓ﴾ وذُكِرَت فيها غزوةُ أحد وما صاحبها من أحداث، نزلت بعد سورة الأنفال، سمّيت بذلك لورود قصة آل عمران أي (عائلة عمران) وهو والد مريم أمّ عيسى، وقصة ولادة مريم العذراء وابنها عيسى ابن مريم. تحدثت بالتفصيل عن النفاق والمنافقين وموقفهم من تثبيط همم المؤمنين، ثم ختمت بالتفكر والتدبّر في ملكوت السماوات والأرض وما فيهما من إِتقانٍ وإِبداع، وعجائب وأسرار تدل على وجودِ الخالق الحكيم، وقد ختمت بذكر الجهاد والمجاهدين.

## الحروف المقطعة لها سرّ

[١]

وجاءت أيضاً في سورة العنكبوت، والروم ولقمان والسجدة، وزاد عليها راءً في بعض السور ﴿الٓمٓرۚ﴾، وزاد عليها صاداً في ﴿الٓمٓصٓ ۝١﴾ وكل ذلك جاء

---

(١) [آل عمران: ١].

تأكيداً للمعاني أو تأكيداً للسر الذي وضعه الله في هذه الحروف، وإن لم نكن ندرك ذلك السر، فالمؤمن حين يقول: (ألف لام ميم)، يأخذ سرها من قائلها، فهمها أم لم يفهمها.

## قولوا لنا: أين الإله الآخر؟!

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾(١)

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ جعلها الله كلمة التوحيد، وجعل الأمر في غاية اليسر والسهولة والبساطة؛ فلم يشأ الله أن يجعل دليل الإيمان بالقوة العليا دليلاً معقداً، أو دليلاً فلسفياً، أو لا يستطيع أحد أن يصل إليه إلا أهل الثقافة العالية، لا، إن الدين مطلب للجميع؛ من راعي الشاة إلى الفيلسوف؛ فيجب أن تكون قضية الإيمان في مستوى هذه العقول جميعاً؛ فإما أن يكون الأمر صدقاً وبذلك تنتهي المشكلة، وإن لم تكن صدقاً فقولوا لنا: أين الإله الآخر الذي سمع التحدي، وأخذ الله منه ذلك الكون، ثم لم نسمع رداً عليه؟ ولم يدافع عن نفسه وملكيته، فإنه لا يصلح أن يكون إلهاً، وإن كان هناك إله آخر فليظهر لنا.

## ما شكل هذا القيام؟

قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ۝٢﴾ فإذا كان الله هو الذي يدبر ويقوم على أمر كل

---

(١) [آل عمران: ٢].

عوالم الكون؛ هل يكون قائما أو قَيُّوماً؟ لابد أن يكون قَيُّوماً، و﴿ٱلْقَيُّومُ﴾ صيغة مبالغة من القيام على الأمر، قائم بنفسه، ويُقيم غيره، وحيّ وقيّوم، يعني قائم بأمرك، فما شكل هذا القيام؟ إنه قيام أزلي كامل، وهذه القيّومية: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾، والسّنة: النعاس، كأنه يقول لنا: ناموا أنتم وارتاحوا واطمئنوا في نومكم لأنني لا أنام. وفي قوله: ﴿لَا تَأْخُذُهُۥ﴾ دلالة على أن للنوم قوة قاهرة تأخذ الحيوان أخذا وتقهر الكثير من أجناس المخلوقات قهرا، ولكنه سبحانه منزه عن ذلك، ومُبرّأ من أن يعتريه ما يعترى الحوادث.

## شيء من أعلى، ليس مساوٍ لك

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣﴾(١)

قوله: ﴿نَزَّلَ﴾ تفيد شيئا قد وجب عليك؛ لأن النزول معناه: شيء من أعلى ينزل، ليس من مساو لك، إنها من خالق الكون والبشر، فلا تتأبّ عليه؛ لأن خضوعك له ليس ذلة بل عزة.

## للقرآن نزولان

وللقرآن نزولان اثنان: الأول: إنزال من ﴿أَنزَلَ﴾ المقصود من قوله سبحانه: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ۝١﴾ أي أن القرآن نزل من اللوح المحفوظ إلى السماء

(١) [آل عمران: ٣].

الدنيا مرة واحدة، والآخر: تنزيل من ﴿نَزَّلَ﴾ أي نزّله الله عن طريق أشرف الملائكة وهو (جبريل) من السماء الدنيا إلى الأرض منجما في ثلاث وعشرين سنة، على حسب الأحداث والمناسبات التي تتطلب تشريعا أو إيضاحا لأمر، ليباشر مهمته في الكون، لكن الكتب الأخرى نزلت مرة واحدة؛ لا حسب الأحداث والمناسبات.

## الله فتح لهم المجال لأن يسألوا

وهنا يجب أن نلتفت إلى قوله: ﴿نَزَّلَ﴾ وقوله عن التوراة والإنجيل: ﴿أَنزَلَ﴾ هذا يوضح أن التوراة والإنجيل إنما أنزلهما الله مرة واحدة، أما القرآن الكريم فقد نَزَّله الله في ثلاث وعشرين سنة منجما ومناسباً للحوادث التي طرأت على واقع المسلمين، وليثبّت فؤاد الرسول؛ لأنه ﷺ كان يتعرض لأحداث شتى، فمن رحمته سبحانه بالمسلمين أن فتح لهم المجال لأن يسألوا، وأن يستوضحوا، ومثال ذلك في حياتنا اليومية، أن الواحد منا قد يملك في منزله صندوقا للأدوية مُمتلئا بألوان شتى من الدواء، ولكن عندما يصاب صاحب هذا الصندوق بقليل من الصداع فهو يبحث عن قرص أسبرين، قد لا يعرف مكانه في صندوق الدواء فيبعث في شرائه، وذلك أسهل وأوثق.

## الجمع بين ﴿نَزَّلَ﴾ و﴿أَنزَلَ﴾

﴿مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾﴾[1]

ويأتي القول الفصل في: ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ هنا الجمع بين ﴿نَزَّلَ﴾ و﴿أَنزَلَ﴾، وساعة يقول الله عن القرآن: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ فمعنى ذلك أن القرآن مصدق لما سبقه من القضايا الإيمانية التي لا يختلف فيها دين عن دين؛ لأن الديانات إن اختلفت فإنما تختلف في بعض الأحكام، أما العقائد فهي لا تتغير، وكذلك الأخبار وتاريخ الرسل.

## الصدق يستوحي واقعا

ومعنى ﴿مُّصَدِّقًا﴾ أي أن يطابق الخبر الواقع، وإن لم يطابق الخبر الواقع فإننا نسميه كذبا، والصادق هو الذي لا تختلف روايته للأحداث؛ لأنه يستوحي واقعا، وكلما روى الحادثة فإنه يرويها نفسها بكلماتها وتفاصيلها، أما الكاذب فلا يوجد له واقع يحكي عنه، لذلك يُنشئ في كل حديث واقعا جديدا. ﴿هُدًى لِّلنَّاسِ﴾ الذين عاصروا هذه الديانات وهذه الكتب، ونحن مؤمنون بها فيها بتصديق القرآن لها. ﴿وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾ يدل على أن الكتاب أي القرآن سيعاصر

(١) [آل عمران: ٤].

مهمة صعبة؛ فكلمة ﴿ٱلْفُرْقَانَ﴾ لا تأتي إلا في وجود معركة، وهو أنه يفرق بين الخير والشر، حق وباطل، شقاء وسعادة، استقامة وانحراف. ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ۝٤﴾ والعذاب إيلام، ويختلف قُوّة وضعفا باعتبار المؤلم، فصفعة طفل غير صفعة شاب غير صفعة بطل ملاكمة، فإذا كان العذاب صادراً من القوي الجبار وهو الله، إذن فلابد أنه عذاب لا يطاق.

## تأتي الأحداث بما لم يكن في بال البشر

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ۝٥﴾(١)

لا بد أن يعلم كل شيء عن الخلق، إن الآية تخدم كل الأغراض، وهو سبحانه يعلم كل الأغراض، فالآية حصاد على التشريع وعلى الجزاء، إنه يعلم كل الخلق ويعلم الخبايا، ولذلك يضع التقنين المناسب لكل ما يجري لهم، وما يعلمه سبحانه قد يعلمه خلقه وقد لا يعلمونه، وقد تأتي الأحداث بما لم يكن في بال المشرع البشري المقنن حين يقنن، ولذلك يضطرون عادة إلى تغيير القانون؛ لأنه قد جدّت أحداث لم يلتفت إليها المشرع البشري، لأن علمه مقصور على المرئيات التي توجد في عصره.

---

(١) [آل عمران: ٥].

## اختلاف ليس من إنتاج مصنع

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٦﴾(١)

والتصوير في الرحم يختلف نوعيته ذكورة وأنوثة، يختلف لون البشرة بيضاء وسمراء وقمحية وخمرية، وقصيرة وطويلة، واختلاف الألسن، وكل واحد بصوته الذي ثبت أن له بصمة كبصمة اليد، هذا الاختلاف ليس من إنتاج مصنع يصنع قالباً ثم يُشكّل عليه، فالأب والأم قد يتّحدان في اللون ولكن الابن قد ينشأ بلون مختلف، ويخلق قلة من الناس خلقاً غير سوي؛ فقد يولد طفل أعمى أو مصاب بعاهة ما أو بإصبع زائدة أو إصبعين، وهذا الشذوذ أراده الله في الخلق ليلفتنا الحق إلى حسن وجمال خلقه، لأن السويّ إذا رأى إنساناً آخر معوَّقاً عن الحركة فإنه يحمد الله على كامل خلقه، فالجمال لا يثبت إلا بوجود القبح، وبضدها تتمايز الأشياء، ولا تقل ما ذنب هذا الإنسان أن يكون مخلوقاً هكذا، أو بعاهة في جسده أو عقله؟ فهو سبحانه سيعوضه في ناحية أخرى؛ فقد يعطيه عبقرية تفوق إمكانات المبصر، ونحن نجد العبقريات تتفجر بأصحاب العاهات غالباً، لأن الله يجعل للعاجز عجزاً معيناً، شيئا يعوضه ما افتقده في شيء آخر، ومادام كل تصوير له حكمة فكل خلق الله جميل.

---

(١) [آل عمران: ٦].

## لا يوجد إله آخر

ومعنى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ لأنه لا يوجد إله آخر يقول له: هذه لا تعجبني وسأصور صورة أخرى! قد يقول أحد من الناس: إن هناك صوراً شاذة؛ وهو سبحانه يقول لك: أنا حكيم، وأفعلها لحكمة، فلن يترك المادة هكذا، بل سيجعل لهذه المادة قيما كي تنسجم حركة الوجود مع بعضها.

## الآيات المحكمات لا يختلف في مرادها الناس

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝٧﴾(١)

قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ﴾ إن الشيء المحكم هو الذي لا يتسرب إليه خلل في الفهم؛ وهذه الآيات المحكمة هي النصوص التي لا يختلف فيها الناس، فعندما يقول: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا﴾ هذه آية تتضمن حُكما واضحا، والنص فيه صريح لا يحتمل سواه، والمُتشابه هو الذي نَتعب في فهم المراد منه،

---

(١) [آل عمران: ٧].

## وما دمنا سنتعب في فهم المراد منه، فلماذا أنزله؟

الجواب: جعل الله الآيات المحكمات ليريح العقل من مهمة البحث عن حكمة الأمر المحكم؛ لأنها قد تعلو الإدراك البشري، أما المتشابه؛ يريد الله أن يُلزم العبد آداب الطاعة حتى في الشيء الذي لا تدرك حكمة تشريعه، وأيضا أنزل المتشابه ليحرك عقلك وتستنبط من المحكم وترد كل المتشابه إلى المحكم من الآيات.

## أمثلة المتشابه والمحكم

قول الله تعالى ﴿قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ كذبوا على الله بأن أنكروا أنهم كانوا مشركين، مع قوله تعالى: ﴿وَلَا يَكۡتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثٗا ٤٢﴾ فيأتي معترض على كلام الله ويقول: هذا متناقض! كيف يقولون: ﴿وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشۡرِكِينَ ٢٣﴾ ثم يقال عنهم إنهم: {لا يَكْتُمُونَ اللهَّ حَدِيثاً} فيضرب الآيات بعضها ببعض؛ ليوقع الناس في حيرة، لكنّ الراسخين في العلم يقولون: كله من عند الله ولا تناقض في كلام الله، ويقولون: إن يوم القيامة يومٌ مقداره خمسون ألف سنة، فتتغير الأحوال وتتبدل، وتكون هذه على حال وهذه على حال.

## أمثلة ردّ المُتشابه إلى المُحكم

وإذا قرأنا قول الله تعالى: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾(١). نرى أن ذلك كلاما عاما، وفي آية أخرى يقول سبحانه: ﴿وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ نَّاضِرَةٌ ٢٢ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٞ ٢٣﴾(٢) إذن، فالعقل ينشغل بقوله: ﴿لَّا تُدۡرِكُهُ ٱلۡأَبۡصَٰرُ﴾، وهذا يحدث في الدنيا، أما في الآخرة فسيكون الإنسان قد تمّ إعداده إعداداً آخر ليرى الله.

### نضرب مثلا:

نحن نعرف أن إنسانا أعمى يتم صناعة نظارة طبية له فيرى، ومن لا يسمع نصنع له سماعة فيسمع بها، فإذا كان البشر قد استطاعوا أن يُعِدُّوا بمقدوراتهم في الكون المادي أشياء لتؤهلهم إلى استعادة حاسة ما، فما بالنا بالخالق الأكرم الإله المُربّي، ألا يستطيع أن يعيد خلقنا في الآخرة بطريقة تتيح لنا أن نرى ذاته ووجهه؟!

## من أجل الإيمان لا من أجل الأحكام

إن الله يُدرَك أو لا يُدْرَك، فما الذي تغير من الأحكام بالنسبة لك؟ فهذه الآيات المتشابهات لم تأتِ من أجل الأحكام، إنما هي قد جاءت من أجل الإيمان فقط،

---

(١) [الأنعام: ١٠٣].

(٢) [القيامة: ٢٢، ٢٣].

ولذلك فالرسول ﷺ يُنهي كل خلاف للعلماء حول هذه المسألة بقوله: **«إنّ القرآن لم ينزل ليكذّب بعضُهُ بعضا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه منه فآمنوا به»**[١].

## النص المُحْكَم إنما جاء للعمل به

إن الْمُتَشَابه من الآيات قد جاء للإيمان به، والْمُحْكَم إنما جاء للعمل به، والمؤمن عليه دائما أن يرد الْمُتشَابِه إلى الْمُحْكَم، مثال ذلك في قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ إن الإنسان قد يتساءل: (هل لله يد)؟ على الإنسان أن يرد ذلك إلى نطاق: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾. وعندما يسمع المؤمن قول الحق: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝٥﴾ فهل لله جسم يستقرّ به على عرش؟ هنا نقول: هذا هو الْمُتشَابِه الذي يجب على المؤمن الإيمان به، ذلك أن وجودك أيها الإنسان ليس كوجود الله، فلماذا تريد أن تكون يده كيدك؟ فمن يتسع ظنه إلى أن يؤوّل ويردها إلى الْمُحْكَم بأن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ فله ذلك، ومن يتسع ظنه ويقول: أنا آمنت بأن لله يداً ولكن في إطار ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ فله ذلك أيضا، وهذا أسلم.

---

(١) صحيح ، أخرجه ابن ماجه.

## ليس كلّ محكم أمّا للكتاب

قوله تعالى: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ ومعنى ﴿أُمُّ﴾ أي الأصل الذي يجب أن ينتهي إليه تأويل المُتشَابه، ولم يقل: هن أمهات الكتاب؟ فالمقصود بها ليس كل محكم أُمّا للكتاب، إنما المحكمات كلها هي الأم، والأصل الذي يَرُدُّ إليه المؤمن أيَّ متشابهٍ، ومهمة المحكم أن نعمل به، ومهمة المتشابه أن نؤمن به؛ بدليل أنك إن تصورته على أي وجه لا يؤثر في عملك.

## الفطرة السليمة لا زيغ فيها

ومعنى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ﴾ أي ميل، يتّبعون ما تشابه من الآيات ابتغاء الفتنة، كأن الزيغ أمرٌ طارئ على القلوب، فالفطرة السليمة لا زيغ فيها، لكن الأهواء هي التي تجعل القلوب تزيع، ويكون الإنسان عارفاً لحكم الله الصحيح في أمر ما، لكن هوى الإنسان يغلب فيميل عن حكم الله، وحتى المنحرفين يعرفون القصد السليم، لكن الواحد منهم ينحرف لما يهوى، ودليل معرفة المنحرف للقصد السليم أنه بعد أن يأخذ شِرّته في الانحراف يتوب ويعلن توبته، وهذا أمر معروف في كثير من الأحيان؛ لأن الميل تَكَلّفٌ، أما القصد السليم فأمر فطري لا يُرهِق، ومثال ذلك: عندما ينظر الرجل إلى واحدة ليست زوجته، فان ملكاته تتعارك، ويتساءل: هل ستقبل منه النظرة أم لا؟ إنّ ملكاته تتضارب، أما النظر إلى الحلال فالملكات لا تتعب فيه.

**مثال آخر:**

عندما يذهب واحد لإحضار شيء من منزله، فإنه لا يحسّ بتضارب، أما إذا ذهب إنسان آخر لسرقة هذا الشيء فإن ملكاته تتضارب، وكذلك جوارحه؛ لأنها خالفت منطق الحق والاستقامة والواقع.

## الذين يتبعون المتشابه يبتغون به الفتنة

وهكذا نرى أن الأصل في الميل قد جاء منهم، ولننظر إلى أداء القرآن الكريم حين يقول: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ﴾ كأنه يقول: ما دمتم تريدون الميل فسأميلكم أكثر، وكذلك الذين يتبعون المتشابه يبتغون به الفتنة أي يطلبون الفتنة، ويريدون بذلك فتنة عقول الذين لا يفهمون، وما داموا يريدون فتنة عقول من لا يفهمون فهم ضد المنهج، وما داموا ضد المنهج فهم ليسوا مؤمنين، وما داموا غير مؤمنين فلن يهديهم الله إلى الخير.

## اللّه يريد للعقل أن يفكر ويستنبط

قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾: إن الله لو أراد للمتشابه أن يكون محكما، لجاء به من المُحكَم، والله يريد للعقل أن يتحرك وأن يفكر ويستنبط، ليستقبل العقائد والأحكام بما يريده الله، والذين في قلوبهم زيغ يحاولون التأويل وتحكمهم أهواؤهم، فلا يصلون إلى الحقيقة.

## وقفات؟!

والعلماء لهم وقفات عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ﴾: بعضهم يقف عندها ويعتبر قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ كلاماً مستأنفاً، إنهم يقولون: إن الله وحده الذي يعلم تأويل المتشابه، والمعنى: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ أي الثابتون في العلم، الذين لا تغويهم الأهواء ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ﴾ يقولون: إن المحكم من الآيات سيعملون به، والمتشابه يؤمنون به، أمّا مَن وقف عند قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ﴾ نقول له: إن الراسخين في العلم علموا تأويل المتشابه، وكان نتيجة علمهم قولهم: ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وكلا الأمرين متساويان، سواء وقفت عند حد علم الله للتأويل أو لم تقف، فالمعنى ينتهي إلى شيء واحد.

## حكمة الأحكام غائبة عنك

ولو أن كل شيء صار مفهوماً لما صارت هناك قيمة للإيمان، إنما عظمة الإيمان في تنفيذ بعض الأحكام وحكمتُها غائبة عنك؛ لأنك إن قمت بكل شيء وأنت تفهم حكمته فأنت مؤمن بالحكمة ولست مؤمناً بمن أصدر الأمر، وعندما نأتي إلى لحم الخنزير الذي حرمه الله من أربعة عشر قرناً، ويظهر في العصر الحديث أن في أكل لحم الخنزير مضار، فهل امتناع هؤلاء أمر يثابون عليه؟ طبعاً لا، لكن الثواب يكون لمن امتنع عن أكله لأن الله حرمه؛ وإن العبد الممتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر امتثالاً لأمر الله، هو الذي ينال الثواب، أما الذي يمتنع خوفاً من اهتراء الكبد أو الإصابة بالمرض فلا ثواب له.

## الكهنة في المعابد يقررون منهج اللّه!!

والراسخون في العلم يقابلهم من تلويهم الأهواء، فكل واحد من أهل الباطل يحاول أن يأتي بشيء يتفق مع هواه، ولذلك جاء التشريع من الله ليعصم الناس من الأهواء؛ لأن هوى إنسان ما قد يناقض هوى إنسان آخر، والباقون من الناس قد يكون لهم هوى يناقض بقية الأهواء. ونحن إذا نظرنا إلى تاريخ القانون في العالم لوجدنا أن أصل الحكم في القضايا إنما هو لرجال الدين والكهنة والقائمين على أمر المعابد، لأن هؤلاء كانوا هم المتكلمين بمنهج الله، وجاءت القوانين الرومانية والإنجليزية والفرنسية وغيرها؟ لأن القائمين بأمر الدين خرجوا عن نطاق التوجيه السماوي إلى خدمة أهوائهم، فلاحظ الناس أن هؤلاء الكهنة يحكمون في قضية ما يختلف عن حكم آخر في قضية متشابهة، إنهم القضاة أنفسهم والقضايا متشابهة.

## يقول: هذه وحشية وقسوة!

قوله تعالى: ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾﴾ أي أصحاب العقول المحفوظة من الأهواء، فالله يأمر بقطع يد السارق، وبعد ذلك يأتي من يمثّل دور حامي الإنسانية والرحمة ويقول: هذه وحشية وقسوة! هذا ظاهر الفهم، إنما لُبّ الفهم أن أمنعه أن يسرق؛ وقد قلنا إن حادثة سيارة قد ينتج عنها مشوّهون قدر مِنْ قطعت أيديهم بسبب السرقة في تاريخ الإسلام كله، فلا تفتعل وتدّعي أنك رحيم،

ولكن انظر إلى الجريمة حين تقع منه، فإن الله يريد أن يحمي حركة الحياة للناس، إنّ من علم أنه إن قَتل فسيُقتل، سيمتنع عن القتل، إذن فقد حمينا نفسه وحمينا الناس منه، وهكذا يكون في القصاص حياة، وذلك هو لُبّ الفهم في الأشياء؛ فلا نأخذ الأمور بظواهرها، بل نأخذها بلبها، وندع القشور التي يحتكم إليها أناس يريدون أن ينفلتوا من حكم الله.

## القلوب تتحول وتتغير

﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ۝٨﴾[1]

فإذا كان المحكم نعمل به والمتشابه نؤمن به، فهذه هي الهداية؛ ثم يكون الدعاء بالثبات على هذه الهداية، وهذا يدلنا على أن القلوب تتحول وتتغير؛ إياكم أن تظنوا أن المسألة مسألة فهم لنص وتنتهي، إن المسألة يترتب عليها أمر آخر، هذا الأمر الآخر لا يوجد في الدنيا فقط، ولكن هناك الآخرة التي تأتي بعد الدنيا، فيقول الحق على لسان الراسخين في العلم: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ۝٩﴾[2] قولهم: ﴿رَبَّنَا﴾ نفهم منه أنه الحق المتولي التربية، فهناك ربٌّ يربّي، وهناك عبد تتم تربيته، والربُّ يعطي الإنسان ما يؤهّله إلى الكمال المطلوب له.

---

(١) [آل عمران: ٨].

(٢) [آل عمران: ٩].

## من المؤكد أننا سنلتقي، نلتقي لماذا؟

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١﴾ لأن الذي يخلف الميعاد إنما تمنعه قوة قاهرة تأتيه؛ أما الله فلا تأتي قوة قاهرة لتغير ما يريد أن يفعل، وحين يؤكد الحق أنه سيتم جمعنا بمشيئته، فمن المؤكد أننا سنلتقي، سنلتقي لماذا؟ إننا سنلتقي للحساب على أفعالنا.

## في الآخرة الأمر يختلف

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠﴾[(١)]

ربما فكر الكافر أو المنافق أن هناك شيئا قد ينقذه مما سيحدث في ذلك اليوم، ككثرة الأولاد، أو كثرة الأموال، وامتلاك العقارات والأراضي، أو منصب عظيم أو عزوة أو جاه، وكان الكافرون على أيام رسول الله ﷺ يقولون ذلك القول الشاذ: مادام الله قد أعطانا أموالاً وأولاداً في الدنيا فلا بد أن يعطينا في الآخرة ما هو أفضل من ذلك، صحيح في هذه الدنيا أن الله قد يخلق الأسباب، فإذا ما أخذ الكافر بالأسباب فإنه يأخذ النتيجة، ولكن في الآخرة الأمر يختلف.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ وَقُودُ ٱلنَّارِ ١٠﴾ هذه النكاية الشديدة، وهذه ثورة الأبعاض، فذرّات الكافر مؤمنة، وذرات العاصي طائعة، والذي جعل هذه الذرات تتجه

---

(١) [آل عمران: ١٠].

إلى فعل ما يُغضب الله هو إرادة صاحبها، وهنا مسألة نأخذها من واقع التاريخ، هي أن الذين كفروا برسالات الله في الأرض تلقّوا بعض العذاب في الدنيا؛ لأن الله لا يدّخر كل العقاب للآخرة، وإلا لشقي الناس بالكافرين وبالعاصين، ولذلك فإن الله يُعَجِّلُ بشيء من العقاب لهؤلاء في هذه الدنيا.

## لننظر إلى هؤلاء ونرى ما الذي حدث لهم!

﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾[1]

الدأب هو العمل بلا انقطاع، أي كعادة آل فرعون، وهم قوم جاءوا قبل الرسالة الإسلامية، وقبلهم كان قوم ثمود وعاد وغيرهم، ويلفتنا الله إلى أن ننظر إلى هؤلاء ونرى ما الذي حدث لهم، لم يؤخر عقابهم إلى الآخرة؛ لأنه ربما ظن الناس أن الله قد ادّخر عذاب الكافرين إلى الآخرة؛ لا، بل العذاب أيضا في الدنيا مصداقاً لقوله الله: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ﴾ وإن العذاب لو تمّ تأجيله إلى الآخرة لشقي الناس بالأشقياء، وإنه لا عقوبة دون تجريم، فكان العقابُ بعد الجريمة أي بعد الذنب، وإن الله يغفر ما دون الشرك بالله، فالشرك بالله قمة الخيانة العظمى.

---

(١) [آل عمران: ١١].

## خبرٌ فيه إنذار

﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٢﴾﴾(١)

إنه أمر من الله لرسولهَ ﷺ وهو المبلّغ عن الله، أن يحمل للكافرين خبراً فيه إنذار، فهذا معناه قمة الأمانة من الرسول المبلغ عن الله، فنَقَل للكافرين النص الذي أمره الله بتبليغه للكافرين، وإلا كان يكفي الرسول ﷺ أن يذهب للكافرين ويقول لهم: ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ في الدنيا، قالها رسول الله مبلغا عن الله والمسلمون قلة لا يستطيعون حماية أنفسهم، ولا يقدرون على شيء، ومادام قد قالها فهي حجة عليه، لأنّ مَن أبلغه إياها قادر على أن يفعلها.

## أيّ جمع هذا؟

لما نزل قول الله: ﴿سَيُهْزَمُ ٱلْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ ٱلدُّبُرَ ﴿٤٥﴾﴾ تساءل عمر بن الخطاب: أي جمع هذا؟ إنه يعلم أن المسلمين ضعاف لا يقدرون، وأسباب انتصار المسلمين غير موجودة، ألا يكون صدق بلاغ الرسول ﷺ فيما يحدث في الدنيا دليل صدق على ما يحدث في الآخرة؟ إن تحقيق ﴿سَتُغْلَبُونَ﴾ يؤكد: ﴿وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾.

(١) [آل عمران: ١٢].

## وفي هذه الآية شيئان

الأول: بلاغ عن هزيمة الكفار في الدنيا وهو أمر يشهده الناس جميعا، والأمر الآخر هو في الآخرة وقد يُكذبه بعض الناس، ومادام قد صَدَق الرسول ﷺ في البلاغ عن الأولى فلا بد أن يكون صادقا في البلاغ في الثانية. وبعض المفسرين قد قال: إن هذه المقولة لليهود؛ ولنا أن نقول: اللفظ عام. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ والمهاد هو ما يُمهّد عادة للطفل حتى ينام، وهذا يدل على أنهم لا قدرة لهم على تغيير ما هم فيه، كما لا قدرة للطفل على أن يقاوم من يضعه للنوم في أي مكان.

## أمرٌ عجيبٌ لا يتفق مع منطق الأسباب

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾[1]

هذا خطاب عام لكل من ينتسب إلى الفئتين المتقاتلين، وكلمة ﴿فِئَةٍ﴾ تدل على جماعة من الناس لها حركة واحدة في عمل واحد لغاية واحدة، والحرب هي التي تُوَحّد كل فئةٍ في سبيل الحركةِ الواحدة والعمل الواحد للغاية الواحدة في عملية واحدة؛ لأن كل واحد من أي فئة لا يستطيع أن يحمي نفسه وحده، فكل واحد يرجع إلى الجماعة، لتصور كل معسكر يواجه آخر. ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ﴾ أي أمر عجيب جدا لا يسير ولا يتفق مع منطق الأسباب الواقعية

---

(١) [آل عمران: ١٣].

﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ فمن الذي يَرى؟ ومن الذي يُرى؟ وما الهدف من ذلك؟

## بعض الناس يتصيّدون للقرآن

بعضٌ من الذين يتصيّدون للقرآن يقولون: كيف يقول القرآن: ﴿يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ﴾ وهو يقول في موقع آخر: ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ﴾ وقال: ﴿وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِىٓ أَعْيُنِهِمْ﴾ وهذه الآية تثبت كثرة، سواء كثرة المؤمنين أو كثرة الكافرين، والآية التي نحن بصددها تثبت قلة، والمشككون في القرآن يقولون: كيف يتناول القرآن موقعة واحدة على أمرين مختلفين؟ ونقول لهؤلاء المشككين: أنتم قليلوا الفطنة؛ لأن هناك فرقاً بين الشجاعة في الإقبال على المعركة وبين الروح العملية والمعنوية التي تسيطر على المقاتل أثناء المعركة، والله سبحانه قد تكلم عن الحالين: قلل هؤلاء في أعين هؤلاء، وقلل هؤلاء في أعين هؤلاء، لأن المؤمنين حين يرون الكافرين قليلا فإنهم يتزوّدون بالجرأة والطاقة، والكافرون عندما يرون المؤمنين قلة فإنهم يستهينون بهم ويتراخون، وعندما تلتحم المعركة فإن المؤمن يدخل بالاستعداد المكثف، وأعصاب الكافر تخور لأن العدد أصبح على غير ما توقع، وما أن تبدأ

المعركة حتى تنقلب الأمور على عكسها ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصۡرِهِۦ مَن يَشَآءُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبۡرَةً لِّأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ ١٣﴾ فالعبرة هي حدث ينقلك من شيء إلى شيء مغاير، كالظالم ينتقل من الطغيان إلى المهانة، وهكذا تكون العبرة هي العظة الناقلة من حكم إلى حكم قد يستغربه الذهن.

## ولله حكمة!

ولله حكمة فيمن قُتل على أيدي المؤمنين من مجرمي الحرب من قريش، ولله حكمة فيمن أبقى من الكفار بغير قتل؛ لأن هؤلاء مدّخرون لقضية كبرى تخدم الإسلام، فلو قُتل خالد بن الوليد في جانب الكفر لخسرنا نحن المسلمون؛ لأن الله قد ادّخره لمعارك يكون فيها سيف الله المسلول، ولو قتل عكرمة لفقدت أمة الإسلام مقاتلا عبقريا.

## لا تأخذها بزينتها وبهرجتها

﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤﴾[1]

كلمة ﴿زُيِّنَ﴾ تعطينا فاصلا بين المتعة التي يحللها الله، والمتعة التي يحرمها الله؛

(١) [آل عمران: ١٤].

لأن الزينة عادة هي شيء فوق الجوهر، فالمرأة تكون جميلة في ذاتها وبعد ذلك تتزين، فتكون زينتها شيئا فوق جوهر جمالها، فكأن الله يريد أن نأخذ الحياة، ولكن لا نأخذها بزينتها وبهرجتها، بل نأخذها بحقيقتها الاستبقائية. فمن المزين؟ إن كان في الأمر الزائد على ضروريات الأمر، فهذا من شغل الشيطان، وإن كان في الأمر الرتيب الذي يضمن استبقاء النوع فهذا من الله.

## الجنس أعنف غرائز الإنسان

قوله تعالى: ﴿حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾ وما الشهوة؟ الشهوة هي ميل النفس بقوة إلى أي عمل ما، وأعنف غرائز الإنسان وهي غريزة الجنس، وأن الحيوان يفضل الإنسان فيها، فالحيوان أخذ العملية الجنسية لاستبقاء النوع، بدليل أن الأنثى من الحيوان إذا تم لقاحها من فحل لا تُمَكِّن فحلاً آخر منها، والفحل إذا ما جاء إلى أنثى وهي حامل فهو لا يُقبل عليها، إذن فالحيوانات لم تأخذ غريزة الجنس مجرد لذة متجددة كالإنسان، ومع ذلك فنحن البشر نظلم الحيوانات ونقول: إن عند فلان شهوة بهيمية.

## يقصد الذكور، ولم يقل البنات

ونجد الله يضيف ﴿ٱلۡبَنِينَ ۝١٥٣﴾ إلى مجال الشهوات ويقصد بها الذكور، ولم يقل البنات، لماذا؟ لأن البنين هم الذين يُطلبون دائما، والمحبوب لدى الرجل في الإنجاب حتى الآن هو إنجاب البنين، حتى ما يسمّى الجمعيات الذين

يطالبون اليوم بحقوق المرأة وينادون بها في المجتمعات الشرقية، سواء كان رجلا أو امرأة، فهم يرغبون إنجاب الذكور أكثر من رغبتهم إنجاب الإناث!

## كل ما يفوتك أو تفوته، لا تغترّ به

قوله تعالى: ﴿وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ﴾ والقنطار هو وحدة وزن حددته كثافة الذهب، وكان علامة الثراء الواسع في الزمن القديم، وهو ملء جلد الثور ذهباً ووزنوه فصار قنطارا، وقناطير مقنطرة، من ماذا؟ ﴿مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ﴾ كانت الخيل هي أداة العزّ وأمارة وعلامة على العظمة، كأنواع المركبات الشهيرة في عصرنا اليوم، هذه الخيل كانت مروّضة ومدربة، وسواء كانت شهوة للنساء أو للبنين أو المال؛ ذلك ليرشدنا إلى أن الإنسان المؤمن لا يصح أن يُضحّى بشهوته الحقيقية وهي إدراك الشهادة في سبيل الله بسبب الشهوات الزائلة التي تتمثل بهذه الشهوات إن كل ما تقدم من الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث؛ ﴿ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾، والفيصل هو أن الإنسان يخشى أن تفوته النعمة فلا تكون عنده، أو أن يفوتها فيموت، وكل ما يفوتك أو تفوته، فلا تغترّ به.

## خبر هائل!

﴿قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ ۗ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾(١)

قل أيها الرسول: أأخبركم بخير مما زُيِّن للنَّاس في هذه الحياة الدنيا؟ إنها جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ولهم فيها أزواج مطهرات من الحيض والنفاس وسوء الخلق، ولهم أعظم من ذلك: رضوان من الله، والله مطَّلِع على سرائر خلقه، عالم بأحوالهم، وسيجازيهم على ذلك، فأنت حين تسمع كلمة ﴿أَؤُنَبِّئُكُم﴾ فما نسمعه بعدها هو خبر هائل لا يقال إلا في الأحداث العظام، ولذلك يقول الله الحق: ﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ﴿١﴾ عَنِ النَّبَإِ الْعَظِيمِ ﴿٢﴾﴾.

## الرجل قد ينخدع بالمظهر الخارجي للمرأة

والأزواج المطهرة هي وعد من الله للمؤمنين، فالرجل قد ينخدع بالمنظر الخارجي للمرأة في الدنيا، وقد يقع الإنسان في هوى واحدة فيجد فيها خصلة تجعله يكرهها، فالرجل في الدنيا قد يهوى امرأة، وتستمر نضارتها خمسة عشر عاماً تستميله وتجذبه، ثم تبدأ التجاعيد والترهل والتنافر، أما في الآخرة فالأمر مختلف، تظل على نضارتها وجمالها إلى الأبد، إنها: ﴿أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ﴾ من كل عيب

---

(١) [آل عمران: ١٥].

يعيب نساء الدنيا، فيأخذ المؤمن جمالها، ولا يوجد فيها شرور الدنيا، من الذي طهّرها؟ إنه هو الله طهرها خَلْقاً وَخُلُقاً.

## أين الملوك والأباطرة؟

فأين القناطير المقنطرة من الذهب؟ وأين الخيل؟ وأين الأنعام وأين البنون؟ أين الملوك والأباطرة؟ فالإنسان لن يحتاج في الجنة إلى مال أو قناطير مقنطرة من الذهب والفضة؛ فنحن نحبّ المال، لماذا؟ لأنه يحقق لنا شراء الأشياء، أما الجنة في الآخرة فالمؤمن يجد فيها كل ما تشتهيه الأنفس، أما الوسائط والأسباب لا لزوم لها. ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ۝٢٠﴾ أي أن الله سيعطى كل إنسان على قدر موقفه.

## ليس الدين مجرّد كلام يُقال

﴿ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ إِنَّنَآ ءَامَنَّا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ۝١٦﴾[١]

هو أول مرتبة للدخول على باب الله، كأن يقول المؤمن: أنا ببشريتي لا أستطيع أن أوفى بحق الإيمان بك، فيا رب اغفر لي ما حدث لي فيه من غفلة، أو زلة، أو كبر أو نزوة نفس، وتلك واقعية الدين الإسلامي، فليس الدين مجرد كلام يقال، ولكنه دين يقدر الواقع البشري، فإنه سبحانه يعلم أن العباد سيرتكبون

---

(١) [آل عمران: ١٦].

الذنوب فيستغفروا، لأن الاستغفار من الذنب تكليف من الله. ﴿وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٦﴾ معنى التقوى أن تجعل بينك وبين النار وقاية كي لا تصيبكم بأذى. ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ تعني أن نضع بيننا وبين غضب الله وقاية، لأن غضب الله سيأتي.

## صابرون على ماذا؟

﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ١٧﴾[١]

وهذه كلها صفات للذين اتقوا الله، وأعد الله لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، والأزواج المطهرة، ورضوان من الله أكبر، صابرون على ماذا؟ على تنفيذ تكاليف الله، والتكاليف الشرعية فيها كلفة مشقة لأنها قيدت حرية العبد، فإذا ما جاء أمر الله ب: (افعل) فأنت صبرت على الطاعة، وقد تصبر عن المعصية (لا تفعل)، فترفض أن ترتكب الذنب، كالأمر بعدم شرب الخمر، أو لا تسرق، وبقيت أحداث لا تدخل في نطاق افعل ولا تفعل، وهي ما ينزل عليك نزولا قدريا بدون اختيار منك بل هي القهرية والقسرية؛ ماذا يفعل فيه المؤمن؟ إنه يصبر على الآلآم والمتاعب، كالمرض أو الكوارث الطارئة، كوقوع حجر من أعلى أو إصابة برصاصة طائشة، أو حادث سير مفاجئ، فإن صبر الإنسان على هذه الآلام فإنه يدخل في باب الصابرين. ف﴿ٱلصَّٰبِرِينَ ١٠٢﴾

(١) [آل عمران: ١٧].

هم: صابر على الطاعة ومشاقها، وصابر على المعاصي ومغرياتها، وصابر على الأحداث القدرية التي تنزل عليه بدون اختيار منه.

## مستشرقون يشككون؟!

﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ الصدق هو مطابقة الواقع، والكذب عكسه، وحينما تعرّض بعض المستشرقين لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ إنها مطابقة للواقع، ويؤكد الله ذلك بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ بعد ذلك يقول الله سبحانة: ﴿وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١﴾ هل كذبوا في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾؟ لا، إن الحق لم يكذبهم في قولهم: ﴿إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ ؛ لأن الله قد أيد هذه الحقيقة بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ ولكن كذبهم الله في شهادتهم فيما سها عنه المستشرق الناقد عندما قالوا: ﴿نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾ لماذا؟ لأن الشهادة تعني أن يواطئ اللسان القلب ويوافقه. وقولهم: شهادة لا توافق قلوبهم وتعنى كذبهم، ولذلك كان تكذيب الله لشهادتهم، ومن هنا ندرك السر في قول الله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ﴾ .

## هكذا ينكشف سرّ الكذب؟

والإنسان الذي نطلب منه أن يروي واقعة بصدق، لن يتغير كلامه أبدا، مهما تكرر القول؛ لأنه مطابق للواقع، لكن إن كانت الواقعة كذبا، فالراوي تختلط عليه أكاذيبه بألوان متعددة لا اتساق فيها، وقد ينسي الراوي الكاذب ماذا قال في المرة الأولى، وهكذا ينكشف سر الكذب. ﴿وَٱلصَّٰدِقِينَ﴾ مقصود به هؤلاء الناس الذين يأتون في كل حركاتهم صادرين عن منهج الله، فلا يؤمنون بقضية، ويفعلون أخرى، فالكافر له صدق مع النفس فهو لا يقول: لا إله إلا الله لأنه لا يعتقدها، أما المنافق فقد قال: لا إله إلا الله وهي غير مطابقة لسلوكه، لذلك يكون غير صادق مع نفسه وغير صادق مع ربه.

## هذا هو الإنسان الصادق

الطاعة هي امتثال أمر الله ونهيه، وهذا هو صدق القمّة، أن تكون كل تصرفات قائل: لا إله إلا الله متطابقة مع هذا القول، والمؤمن الحق هو من يبني كل تصرفاته موافقة لمنهج الله، هذا هو الإنسان الصادق، أما الذي يقول بلسانه: لا إله إلا الله، لا معبود بحق إلا الله ثم يخالف ربه بعصيانه له، أو فعل ما يناقضه، لنا أن نقول له: أنت كاذب، أنت منافق.

## الإنسان لا يطلب علة الحكم إلا من مساوٍ له

﴿وَٱلْقَٰنِتِينَ﴾ والقانت: هو العابد بخشوع وطمأنينة واستدامة، والقانت صادق مع نفسه، إنهم منفذون للأمر القادم من الآمر لا لعلة الأمر، فالإنسان لا يطلب علة حكم إلا من مساو له، فإن قال لك أحد من البشر: افعل الشيء

الفلاني فإنك تسأله: لماذا؟ فإن أقنعك، فأنت تقوم بالفعل لا بالطاعة له، ولكن عندما يصدر الأمر من الأعلى وهو الله، فإنك أيها العبد المؤمن تنفذ الأمر فورا.

### نضرب مثلا:

إن الأب يقول للابن في حياتنا اليومية: إن نجحت في المدرسة فسأحضر لك هدية هي الدَّراجة، وليست العلة هي الدراجة، إنما العلة عند الأب هي أن يتعلم الابن ويتفوق في حياته، وإن كان في ذلك مشقة، وعند ذلك يدرك العلة، ويقول لنفسه: لقد كان أبي على حق.

### مثل آخر:

إن الإنسان قد يمرض، فيفكر في الذهاب إلى طبيب، ويقول له: إنني أتعب من معدتي، أو من قلبي أو من أمعائي، إنه يحدد ما يشكو منه، وعقل الإنسان هو الذي هداه إلى الطبيب الذي يشخّص العلة، وبعد ذلك يأخذ المريض من الطبيب ورقة مكتوباً فيها الأدوية اللازمة، إن الإنسان يتناول كل دواء من هذه الأدوية دون أن يسأل الطبيب عن حكمة كل دواء؛ لأنه لو سأل عن ذلك فهذا معناه الدخول في متاهة كيماوية، والطبيب قد يخطىء، إنما حكم الله لا يخطئ أبدا.

## لماذا الخضوع والخشوع؟

لأن الله ﷻ لم يشرّع العبادة لينّفذها الإنسان، وينقذ نفسه من عذاب النار، لا؛ إننا نرى كثيرا من الناس، إذا ما لا حظنا واقع الحياة، إذا وجدوا رئيسا قويا وقوانينه صارمة، يأتي واحد من الموظفين فيقول عن هذا الرئيس إنه شديد، ولذلك ليس له عندي إلا أن أحضر في الثامنة إلا خمس دقائق، ولن أنصرف إلا في الثانية وخمس دقائق، يفعل ذلك باستعلاء على رئيسه حتى لا يسمح له بنقد أو تجريح، إنها طاعة بلا حب، وآخر يقول: ماذا يطلب الله مني؟ الصلاة والزكاة وإقامة العبادات؟ سوف أفعل ذلك، لمثل هذا العبد نقول: لا، إن الله يطلب العبادة بحبّ منك وخشوع واطمئنان، حتى يكون الإنسان سويا وله قيمة في الحياة.

## الإنسان يُميت ما أنفقه من نفسه

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُنفِقِينَ﴾ كلمة أنفق ونَفَقَ أي مات، ونفقت البضاعة أي انتهت واشتراها الناس ولم يبق منها شيء، ونفقة مأخوذة من هذا المعنى، تشعرنا بأن الإنسان حين ينفق فهو يُميت ما أنفقه من نفسه، فلا يتذكر أنه أنفق على فلان كذا، وعلى علان كذا، وليس له إلا أجر ما أنفق.

## أليس ذلك هو التأمين؟

القادر ينفق على غير القادر، والقادر الآن عُرضة لأن يصير غدا من العاجزين، ويقول القادر لنفسه: عندما أصبح عاجزا سوف أجد من يعطيني؛ أليس ذلك هو التأمين؟ ولنا أن نسأله: لو كنت عاجزا ألم تكن تحب أن يعطيك الناس دون

مَنٍّ أو أذى؟ أليس ذلك هو التأمين الحق؟ وعدّ الرسول ﷺ الرجل الذي أنفق حتى لا تعلم شماله ما صنعت يمينه، من السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.

## ادّخَرَ ليأخذ

وعلى المؤمن المنفق أن يُقدّر ساعة عطائه أنه ادّخر ليأخذ، إما أن يأخذ إن تغيّرت أحواله وطرأت له الأغيار في الدنيا، وإما أن يأخذ من يد الله في الآخرة أضعافا مضاعفة، وهكذا تكون ﴿وَٱلۡمُنفِقِينَ﴾ صفة من صفات الذين اتقوا ربهم.

## وجه الخيبة لما يحدث في زماننا

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾ إما أن يستغفر العبد لأنه قد فرطت منه هفوة في ذنب، وإما أن يستغفر لأنه لم يَزدد من أمور الطاعة، وكلمة ﴿بِٱلۡأَسۡحَارِ ١٧﴾ توضّح لنا لحظات من اليوم يكون الإنسان فيها محل الكسل والراحة، إن الذي سوف يصحو في السحر لا بد أن يكون قد اكتفى من الراحة، ثم إن بعضهم يأخذه لهو الحياة ليلا، من قضاء الوقت في مشاهدة الأفلام الهابطة، ومتابعة المواقع الإلكترونية الخليعة على الإنترنت، وهذا هو وجه الخيبة لما يحدث في زماننا، يأخذنا لهو الحياة ليلا، مما نشاهده من لهو الحديث، ولهو السهرات، وبعد ذلك يأتي الإنسان لينام متأخرا، فكيف نطلب

من هذا الإنسان أن يصحو في السحر ليذكر ربه ؟!

## لو صحونا جميعا في الأسحار!!

فالله سبحانه، في لحظة سكون الليل يوزع رحمته، وعندما يصحو إنسان في السحر ويدعو الله ويستغفره، فإنه يأخذ من رحمة الله النازلة في ذلك الوقت، فمعنى هذا أنه سيأخذ الكثير، وإياك أن تقول: لو صحونا جميعا في الأسحار لنفدت الرحمة والعطاء! لا، لأن قدرته ﷻ تتسع لعطائنا جميعا دون أن ينقص شيء من عنده.

## شهادة الذات للذات

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨﴾[1]

إن شهادة الله أنه لا إله إلا هو، هي شهادة الذات للذات، وتعني أنها كلمة مُمَكّنٌ منها، لو لم يكن قد شهد لنفسه بأنه لا إله إلا هو، وليس هناك من يعارض، أكان يجازف فيقولها؟ لذلك، لزم أن يشهد لنفسه ويلقى الأمر، وهو يعلم أنه لا إله يعارضه، وشهدت الملائكة أيضا، وهم الغيب الخفيّ عنا، وتتلقى الأوامر من الله، ولم يروا أحدا آخر يعطي لهم هذه الأوامر، إنه الإله

---

(١) [آل عمران: ١٨].

الواحد القادر. ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ﴾ أيضا يشهدون، إن هذه أعظم شهادة لأعظم مشهود به من أعظم شهود، الله في القمة، والملائكة وأولوا العلم، ولقد أخذ أولوا العلم منزلة كبيرة لأن الله قد قرنهم بالملائكة.

## أين الإله الذي أخذ منه الله هذا الكون؟

والله سبحانه قد نثر في كونه الآيات العجيبة العديدة، ومن يجلس ويتفكر ويتدبر، ويتفطن وينظر، فإنه يستخرج الأدلة على أنه لا إله إلا هو، وأبسط الطرق للتدليل على هذه الحقيقة؛ إن كانت (لا إله إلا الله) صدقا فقد كُفينا، وإن كانت غير صدق فأين الإله الذي أخذ منه الله هذا الكون؟ ولم يخبرنا ذلك الإله أنه صاحب الكون؟

## وزع الله المواهب ليتكامل المجتمع البشري

قوله تعالى عن نفسه: ﴿قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ يعني العدل، والقسط يقتضي ميزانا لا ترجح فيه كفة على كفة، وهذا الميزان ممسوك بيد القدرة القاهرة، لا توجد قوة أعلى منها تميل في الحكم، إن من عدالة الحق أنه وزع المواهب والمهارات بين البشر، يتبادلوا مع غيرهم المنافع، فالرجل السياسي لا يستطيع أن يزرع القطن ويجمعه ويغزله وينسجه ليلبس، وصانع الدواء لا يستطيع أن يزرع القمح ويحصده ثم يطحنه ثم يخبزه! إنما وزع الله المواهب لتتداخل ويتكامل المجتمع البشري، وهذا عدل عظيم؛ ليربط الناس بالناس قهرا، فواحد يعرف في مجال

وآخر لا يعرف، وهكذا يتبادل الناس المنافع رغما عنهم، ولذلك نجد الكون متكاملا.

## ما دام الشيء مستقراً لا يكون هناك قلقٌ

وهو ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٨﴾ العزيز لا يُغْلب على أمره، الحكيم صاحب كل الحكمة في وضع الأشياء في مواضعها، وما دام الشيء موضوعا في مكانه فهو مستقر، وما دام الشيء مستقراً لا يكون هناك قلقٌ، وانتهت القضية، فأنت تتعجب من عظمة قدرة الله.

## قد توجد أديان، لكنها ليست أديانا عند الله

﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ وَمَا ٱخۡتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلۡعِلۡمُ بَغۡيَۢا بَيۡنَهُمۡۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩﴾(١)

هو أمر منطقي جدا يجب أن ينتهي إليه العاقل، وإذا سألنا: ما هو الدين؟ تكون الإجابة: هي من (دان) تقول: دنت لفلان: رجعت له وأسلمت نفسي له، وأتمرت بأمره، ويُطلق الدين أيضا على الجزاء، يوم الدين؛ هو يوم الجزاء على الطاعة وعلى المعصية، وكلها تلتقي في قوله: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾

(١) [آل عمران: ١٩].

يُشعرنا بأنه قد توجد أديان يخضع لها الناس، ولكنها ليست أديانا عند الله؛ وإن الدين المعترف به عند الله هو الإسلام.

## معنى الإسلام

وكلمة الإسلام مأخوذة من مادة (سلم) ولها معنى ينتهي عند السلامة من العيوب والفساد؛ والصلح بين الإنسان ونفسه، وبين الإنسان وإخوانه، وبين الإنسان وربه، وبين الإنسان والكون، وما دامت المادة المكونة منها كلمة (إسلام) تدل على ذلك فلماذا لا نتبعها؟

والإسلام معناه الخضوع، والاستسلام بعزة وفهم وتعقل؛ فلا يستهويه أي شيء سوى الخضوع للأمر الثابت الذي لا يتناقض أبدا، وما دام الإسلام هو الخضوع والاستسلام لله، فهو خضوع لغير مساو، و(أسلم) أي دخل في السلم، أي في الصلح، وعدم التناقض، وفي الأمان والراحة، أي خلص نفسه من كل شيء إلا وجه الله. فإذا أسلم الإنسان، فإن هذا الإسلام له ثمن هو المثوبة من الله، وما دام الدين المعترف به عند الله هو الإسلام فهو الدين الذي يترتب عليه الثواب، والإسلام هو دين الرسل جميعا، وبذلك لا يقف الإسلام عند رسالة سيدنا محمد ﷺ فقط، إنما الإسلام خضوع من مخلوق لإله في منهج جاء به رسل مؤيدون بالمعجزات.

## لماذا حدث الاختلاف رغم أن الإله واحد؟

إن الله يوضح لنا أن الاختلاف قد جاء للذين أوتوا الكتاب من بعد ما جاءهم العلم، وتلك هي النكاية، وذلك هو الشر، فلو كانوا قد اختلفوا من قبل أن يأتي إليهم العلم لقلنا: إنهم معذورون في الاختلاف، ولكن أن يحدث الاختلاف من بعد أن جاء العلم من الإله الواحد فلنا أن نقول لهم: ما الذي حصل لتختلفوا؟ ولماذا حدث الاختلاف هنا رغم أن الإله واحد؟ وهو قائم بالقسط؟

## إنه الهوى؟!

لا بد لنا أن نستنتج أن شيئا جديدا قد طرأ، ما هو هذا الشيء؟ إنه الهوى، وحينما يقال: (اختلفوا) قد نستنتج أن طرفا قد ذهب إلى حق، وأن الطرف الآخر قد ذهب إلى باطل، أو أنهم جميعا قد ذهبوا إلى باطل، والذهاب إلى الباطل قد يختلف؛ لأن كل باطل له لون مختلف، وتجد المثال لذلك في اليهود، عندما جاء رسول الله ﷺ، لقد اختلفوا، وأسلم منهم أناس، بينما الآخرون لم يسلموا، بل أصروا على كتمان وجوده في كتبهم وإنكاره، فالذين آمنوا من أتباع تلك الديانات قد اهتدوا إلى الحق، واختلفوا مع غيرهم.

## من الذي آتاهم الكتاب؟

قوله تعالى: ﴿أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ ولفظ ﴿أُوتُوا۟﴾ يجعلنا نسأل: من الذي آتاهم الكتاب؟ إنه الله، وما دام الكتاب من عند الله فلا يمكن أن يوجد فيه خلاف،

والكتاب ليس من أفكار البشر؛ لأن المنهج لو كان من أفكار البشر لكان من الممكن أن يختلفوا فيه أو حوله، وفي هذا تنبيه لأتباع الديانات السابقة، أنكم حين تتبعون منهج الله فأنتم لا تتبعون أحدا من الخلق، أي رسول كان، لأن أي رسول أرسل إليكم إنما جاء ليبلغكم من الله.

## سبب كل خلاف بين رجال الدين

ولذلك نجد أن الحق يحدد لنا على ماذا اختلف الذين أوتوا الكتاب، لقد اختلفوا من بعد ما جاءهم العلم، ففيم الاختلاف؟ لا بد أن أمراً ما قد جدّ، والذي جدّ إنما هو قادم من الأغيار، وهي الأهواء، ولذلك يحدد لنا الله هذا الأمر بقوله ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾، ما البغي؟ البغي هو طلب الاستعلاء بغير حق، وهذا سبب كل خلاف بين رجال الدين، أو بين دين ودين، ومظاهر طلب الاستعلاء بغير حق هو إعطاء الفتاوى التي توافق أمزجة البشر، وتخالف ما أنزله الله.

## كل شخص يدّعي لنفسه أنه أرقى!

إنّ الواحد من هؤلاء يدّعى لنفسه التحضر، ويعطي من الفتاوى ما يناقض الذي أنزله الله، ويدعى أنه يأخذ الدين بروح العصر، أو يدعي لنفسه أنه أرقى في الفكر، أو يستعلى عندما يبرر للحاكم حكما من الأحكام، ويدخل في نطاق ذلك كل موجات الخروج عن منهج الله التي نراها في الكون.

## ثلاثة معسكرات

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾(١)

﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ﴾ لقد جابه الرسول ﷺ ثلاثة معسكرات، المعسكر الأول هم مشركو قريش، والمعسكر الثاني هو معسكر اليهود والنصارى لأنهم أهل كتاب، والمعسكر الثالث هو معسكر المنافقين، والمحاجّة قد أتت من المعسكر فهم يدّعون أن عندهم دينا منزلا من السماء، ومعنى المحاجة: أن يدلي كل واحد من الخصمين بحجته.

## هل هذا رد بالحجة؟

هذا يعني النقاش، أي إن ناقشوك في أمر الإسلام فقل يا محمد: ﴿أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ﴾ فهل هذا رد بالحجة؟ نعم هذا هو الرد، وكان من المنطق أن نسلم وجهنا لمن خلق، لأن الوجه أشرف شيء في الإنسان وهو السمة العالية المميزة، وهو الذي يظهر عليه انفعالات الأحداث في الكون من سرور أو حزن، والوجه يطلق ويراد به الذات كلها، فهو يعني أسلمت ذاتي بكل ما أوتيت الذات من جوارح ومن أعضاء. ﴿وَمَنِ اتَّبَعَنِ﴾ وكأن صاحب هذا القول يريد خطابا لكل مؤمن، فمن اتبع الرسول فقد آمن بأن محمدا ﷺ هو رسول مبلغ

---

(١) [آل عمران: ٢٠].

عن الله منهجه ﴿وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ﴾ تعني الدعوة للإسلام، أي أسلموا.

## البلاغ لا تنتهي مهمته عند رسول الله

قوله تعالى: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ إنه الحق ينبّه رسوله ألاّ يحزن وألاّ يأسف، ف﴿عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ نأخذ منها الفهم الواضح أن البلاغ لا تنتهي مهمته عند رسول الله، إنما يشمل كل عالِمٍ وكل مسلم، تشهدون على الناس أنكم أبلغتموهم رسالة رسوله.

## لِمَ جعلتموني أهون الناظرين إليكم؟

ثم يقول الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ لم يقل الله: إنه عليم بالعباد، لأن ﴿عَلِيمٌ﴾ تكون للأمور العقدية، والبصر لا يأتي إلا ليدرك حركة وسلوكا، إنه سبحانه يرى العباد المتحركين في الكون، وكأنه تعالى يقول: إن كنتم تعتقدون أني لا أراكم، فالخلل في إيمانكم، وإن كنتم تعتقدون أني أراكم فَلِمَ جعلتموني أهون الناظرين إليكم؟ ونحن في حياتنا العادية نجد أن الشاب الذي يدخّن يستحي أن يظهر أمام كبار عائلته كمدخن، فيمتنع، فما بالنا وهو يعتقد أن الله يراه؟

## اللّه غيب، ولكن الآيات ظاهرة في الكون

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيۡرِ حَقّٖ وَيَقۡتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡقِسۡطِ مِنَ ٱلنَّاسِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾(١)

هناك فرق بين الكفر بآيات الله وبين الكفر بالله، لماذا؟ لأن الإيمان بالله يتطلب البينات التي تدل على الله، وهذه البينات موجودة في الكون، إن الحق لم يقل هنا: إن الذين يكفرون بالله، لأن الله غيب، ولكن الآيات ظاهرة في الكون.

## كلمة القتل تأتي دائما للنبيّين

لذلك قال: ﴿وَيَقۡتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ نلاحظ هنا، أن كلمة القتل تأتي دائما للنبيين، ولا تأتي للرسول، فليس من المعقول أن يرسل الله رسولا ليبلغ منهجا لله، فيُقدّر الله خلقه على أن يقتلوه، ولكن الأنبياء يرسلهم الله ليكونوا أسوة سلوكية للمؤمنين، ولا يأتي الواحد منهم بتشريعات جديدة، إن الخلق لا يقدرون على رسول أرسله الله، لكنهم قد يقدرون على الأنبياء، وكل واحد من الأنبياء هو أسوة سلوكية، ولذلك نجد أن كل نبيّ يتعبّد على دين الرسول السابق عليه.

## لماذا يقتلون الأنبياء؟

(١) [آل عمران: ٢١].

لو كان النبي قد جاء بدين جديد، لقلنا: إن التعصب للدين السابق عليه هو الذي جعلهم يقتلونه، إنهم يحقدون على النبيّ لأنه يرتفع بسلوكه، وهم لا يستطيعون أن يرتفعوا ليكونوا مثله، ولذلك حين نجد إنسانا ملتزما بدين الله ومنهجه، فإننا نجد غير الملتزم ينال الملتزم بالسخرية والاستهزاء، لماذا؟ لأن غير الملتزم يمتلئ بالغيظ والحقد على الملتزم القادر على إخضاع نفسه لمنهج الله، ويسأل غير الملتزم نفسه: لماذا يكون هذا الإنسان قادرا على نفسه مخضعا لها لمنهج الله وأنا غير قادر على ذلك؟ فيتضاءل في نظر نفسه ونظر الآخرين إذا ما قارن نفسه بالملتزم بمنهج الله، فيشعر بالصغار النفسى.

## وهل هناك قتل لنبيّ بحق؟

قوله تعالى: ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ وهل هناك قتل لنبيّ بحق؟ لا، أبدا، وإنما جاءت للتأكيد على النفي ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِٱلْقِسْطِ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ إنهم لم يكتفوا بقتل النبيين، بل يقتلون أيضا من يدافع عن هذا النبيّ؟ هذا الكلام لمن؟ إنه موجّه لبعض من أهل الكتاب، لمن آمنوا بإتباع الذين قتلوا النبيين من قبل ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ٢١﴾ أليس معنى التبشير هو إخبار بما يَسُرّ؟ كتبشير المؤمنين بالجنة؟!

## لماذا يبشرهم بعذاب أليم؟

لأننا نعرف أن الذين قتلوا النبيين، لم يكونوا معاصرين لنزول هذا الآية، إن المعاصرين من أهل الكتاب لنزول هذه الآية هم أبناء الذين قتلوا الأنبياء، وقتلوا الذين أمروا بالقسط، ويبشرهم الحق بالعذاب الأليم؛ لأنهم ربما رأوا أن ما فعله السابقون لهم كان صوابا، فإن كانوا كذلك فلهم أيضا البشارة بالعذاب، وعلينا أن نعرف أنه ساعة نسمع كلمة (أبشر) فإن النفس تتفتح لاستقبال خبر يسر وتستعد النفس بالسرور وانبساط الأسارير إلى أن تسمع ﴿بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾﴾، ماذا يحدث؟ الذي يحدث هو انقباض مُفاجئ أليم، وهنا يكون الإحساس بالمصيبة أشد، والخبر يكون صاعقا

## بل هؤلاء كان مشغولا بالإنسانية؟!

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾[1]

عمل الخير لا يُحسب للإنسان إلا بنية إيمانه، وبعض من الناس في عصرنا الحاضر يأخذون على الإسلام أنه لا يجازي الجزاء الحسن للكفرة الذين قاموا بأعمال مفيدة للبشرية، يقول الواحد منهم: هل يعقل أحد أن (باستير) الذي اكتشف الميكروبات، والعالم الآخر الذي اكتشف الأشعة، وآخر اكتشف التيار الكهربائي، وكل هؤلاء العلماء يذهبون إلى النار؟ ولهؤلاء نقول: نعم، إن الحق

---

(١) [آل عمران: ٢٢].

بعدالته أراد ذلك، ولنتقاض نحن وأنتم إلى أعراف الناس، إن الذي يطلب أجرا على عمل يطلبه ممن؟ إنه يطلب الأجر ممن عمل له، فهل كان الله في بال هؤلاء العلماء وهم يفعلون هذه الأعمال؟ إن بالهم كان مشغولا بالإنسانية، وقد أعطتهم الإنسانية التخليد، ومكاسب الدنيا ﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٢٩﴾.

## ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ هنا تحكى عن حدث معاصر للنبي ﷺ

﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبٗا مِّنَ ٱلۡكِتَٰبِ يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ وَهُم مُّعۡرِضُونَ ٢٣﴾[1]

إن كانت ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ تحكى عن حدث معاصر، فالذي يأتي منه العلم؛ لأنه صادر عن رؤية ومشاهدة، وفي بعض الأحيان تأتي في حادث كان زمانه قبل بعثته، فلم يره رسول الله كقوله: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١﴾ فالنبي ﷺ لم ير أصحاب الفيل، هي تعني هنا (ألم تعلم)؛ فكأن الله يريد أن يخبرنا ب ﴿أَلَمۡ تَرَ﴾ أن نأخذ المعلومة من الله على أنها مرئية بالعين، وليكن ربك أوثق عندك من عينك.

## لفتة جميلة

(١) [آل عمران: ٢٣].

و﴿أُوتُواْ﴾ تلفتنا إلى قوم قد نزل إليهم منهج من أعلى، ولذلك يأتي في القرآن ذكر﴿نَزَّلَ﴾ و﴿أَنزَلَ﴾، وذلك حتى نشعر بعلو المكانة التي نزل منها المنهج. وما هو النصيب؟ إنه الحظ، كأن يكون عندنا عشرون دينارا، ونقسمهما على أربعة فيكون لكل واحد خمسة، هذه الخمسة الدنانير تسمى نصيبا أو حظا، إنها لفتة جميلة؛ فالكتاب كله لم يبق لهم، إنما الذي وصل وانتهى إليهم جزء بسيط من الكتاب، فكأن هذه الكلمة تنبه الرسول والسامعين له أن يعذروا هؤلاء القوم حيث لم يصلهم من الكتاب إلا جزء يسير منه فقط. ويشرح الحق ذلك في قوله: ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾، إن الجزء المنسي من الكتاب لم يأخذه المعاصرون لرسول الله، لأن الله قد أوضح أن بعضهم كتم بعضا منه في قوله: ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾﴾، فشيء من الكتاب قد نُسى، وبالتالي مُسح من الذاكرة، وهناك شيء قد كُتم، إذن فالكتاب الذي أُنزل إليهم من الله قد تعرض لأكثر من عدوان منهم، ولم يبق إلا جزء منه، وهذا هو الذي يجادل القرآن به هؤلاء الناس، ولا يجادلهم فيما تبدل عندهم بفعل أحبارهم ورهبانهم السابقين.

## اليهود احتالوا حيلة

ما معنى ﴿يُدۡعَوۡنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ إن الداعي هو الرسول ﷺ، وهم المُدعون، والعلماء ذكروا الحادثة التي دعوا للحكم فيها بكتاب الله: إن اثنين من يهود خيبر؛ امرأة ورجل قد زنيا، وكان الاثنان من أشراف القوم، ويريد الذين يحكمون في هذا الأمر ألا يبرزوا حكم الله الذي جاء بالتوراة، وهو الرجم، فاحتالوا حيلة، وهي أن يذهبوا إلى رسول الله ﷺ في هذه الجزئية، لعلهم يجدون مخرجا، كانوا يريدون حكما مخففا وينقذا أنفسهما من حكم التوراة بالرجم، فأراد رسول الله أن يحتكم إلى التوراة وهي كتابهم لأنه أعلم بما جاء فيها، قال: أيكم أعلم بالتوراة؟ قالوا: شخص اسمه عبد الله بن صورية، فأحضروه، وأعطاه التوراة، وقال: اقرأ، فلما مرّ على آية الرجم وضع كفه عليها ليخفيها، وكان عبد الله بن سلام حاضرا، وكان حبرا من أحبارهم قبل أن أسلم، فقال: يا رسول الله أما رأيته قد ستر بكفه آية وقرأ ما بعدها؟ وزحزح ابن سلام كفّ الرجل، وقرأ هو فإذا هي آيةُ الرجم!!

## حكم القرآن هو حكم التوراة في الزنا

هذه المسألة تعطينا أن الحكم في القرآن الكريم هو الحكم في التوراة في أمر الزنا، وتعطينا أيضا أن رسول الله ﷺ أفاض الله عليه من إلهاماته فجاء بالجزء من التوراة الذي يحمل هذا النص، وجاء بعد ذلك جندي من جنود الله هو عبد الله بن سلام وكان يهوديا قد أسلم ليُظهر به مكيدة القوم في التزييف والتزوير، لقد

أعرض فريق منهم عن قبول الحق، إنّ سبب هذا الإعراض هو السلطة الزمنية من أهواء وأطماع التي أراد اليهود أن يتخذوها لأنفسهم؟ ومعنى السلطة الزمنية أن يجيء أشخاص فيأخذوا من قداسة الدين ما يفيض عليهم هم قداسة، ويستمتعوا بهذه القداسة ثم يستخدموها في غير قضية الدين.

## لماذا يفعلون ذلك؟

نجد أن كل منحرف يأتي ويحاول أن يخفف من تكاليف الدين، ويحاول أن يحلل أشياء محرمة أو إنقاصها، إذا سألنا هؤلاء المنحرفين: لماذا تفعلون ذلك؟ نجد أنهم يفعلون ذلك لجذب الناس إلى أمور محرمة يحللها هؤلاء المنحرفون، من أجل تحقيق رغبات وشهوات أرادوها لأنفسهم، وهذا بطبيعة الحال هو تزييف لدين الله ومنهجه.

## الغرور في الدين هو المصيبة الكبرى

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾[1]

الغرور هو الأطماع فيما لا يصح ولا يحصل، وذهب بعض من أهل الكتاب إلى الغرور في دين الله، فافتروا أقوالا على الله لم تصدر عنه، وصدقوا افتراءاتهم، ويا

(١) [آل عمران: ٢٤].

ليت غرورهم لم يكن في الدين؛ لأن الغرور في غير الدين تكون المصيبة فيه سهلة، لكن الغرور في الدين هو المصيبة الكبرى، لماذا؟ لأن الغرور في أي جزئية من جزئيات الدنيا، إن فشلت فالفشل يقف عند هذه الجزئية وحدها، ولا يتعدى الفشل إلى بقية الزمن، لكن الغرور في الدين يجعل العمر كُله يضيع، بل يمتد الضياع والعذاب إلى العمر الثاني وهو الحياة في الآخرة.

## قالوها ويعرفون أنها كذب!

أما قوله: ﴿يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ والإفتراء هو تعمد الكذب، إن الحق سبحانه يوضح لهم المعنى فيقول: إن أعرضتم عن حكم الله، وعللتم ذلك بأن النار لن تمسكم إلا أياما معدودة، وادعيتم كذبا أن الأيام المعدودات هي أيام عبادتكم للعجل، وادعيتم أنكم أبناء الله وأحباءه، إن ذلك كله غرور وافتراءات، هم الذين قالوها ويعرفون أنها كذب!

## كيف يكون حالهم في هذا اليوم؟

﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٥﴾﴾(١)

إن كذبهم سينكشف في هذا اليوم، إن الحق يتساءل: كيف يصنعون ذلك كله في

(١) [آل عمران: ٢٥].

الحياة التي جعلنا لهم فيها اختيارا، فيفعلون ما يريدون، ماذا يفعل هؤلاء يوم القيامة؟ إن الجوارح التي كانت تطيعهم في الفعل لا تطيعهم في هذا اليوم العظيم؛ إن اللسان كان أداة إعلان الكفر، وهو يوم القيامة يشهد على الكافر، واليد كانت أداة معصية، وهي يوم القيامة تشهد على صاحبها، والجلود تشهد، كانت الجوارح خاضعة لإرادة أصحابها وهي كارهة؛ كيف يكون حالهم في هذا اليوم وهذا اليوم قادم لا محالة.

## هذا نشاهده كل يوم!

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾﴾[(١)]

ملكية الله هي الدائمة، وما دام الله هو مالك الملك، فإنه يهبه لمن يشاء، وينزعه ممن يشاء. ﴿وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ﴾ إننا ساعة نرى حاكما متكالبا على الحكم، فلنعلم أن الحكم عنده مغنم لا مغرم، ونحن نرى كل ملك وهو يوطن نفسه توطينا في الحكم، بحيث يصعب خلعه منه، لكن الله يخلعه بسهولة. ﴿وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ﴾ لأن كل ملك يعيش حوله من يتمتع بجاهه ونفوذه، فإذا ما انتهى سلطان هذا الملك، ظهر هؤلاء المستمتعون على السطح، وهذا نشاهده كل يوم وكل عصر. ﴿بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ﴾ ولو دقق كل منا النظر إلى

---

(١) [آل عمران: ٢٦].

مجريات الأمور، لوجد أن الله هو الذي يؤتي، والله هو الذي ينزع، والله هو الذي يعز، والله هو الذي يذل، ولا بد أن يكون في كل ذلك صور للخير في الوجود. ﴿إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٨﴾ إن إيتاء الملك عملية تحتاج إلى تحضير بشرى وبأسباب بشرية، وأحيانا يكون الوصول إلى الحكم عن طريق الانقلابات العسكرية، أو السياسية، وكذلك نزع الملك يحتاج إلى نفس الجهد، كل ذلك ليس بأمر صعب على قدرة الله اللانهائية.

## هل تنقص الخمس الساعات مرة واحدة؟

﴿تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧﴾[1]

معنى ﴿تُولِجُ﴾ هو (تُدخل)، إن الله يقول لنا: عندكم ظاهرة تختلف عليكم، وهي الليل والنهار، وظاهرة أخرى، هي الحياة والموت، إن ظاهرة الليل والنهار كلنا نعرفها لأنها آية من الآيات العجيبة، إن الحق لم يصنع النهار بكمية محدودة من الوقت متشابهة في كل مرة، لا، إنه سبحانه شاء لليل أن ينقص أحيانا عن النهار خمس ساعات، وأحيانا يزيد النهار على الليل خمس ساعات، ولنا أن نتساءل؟ هل تنقص الخمس الساعات من الليل أو النهار مرة واحدة؟ وفجأة؟ هل يفاجئنا النهار بعد أن يكون اثنتي عشرة ساعة ليصبح سبع عشرة

---

(١) [آل عمران: ٢٧].

ساعة؟ هل يكون الليل مفاجئاً لنا في الطول أو القصر؟ لا، إن المسألة تأتي تباعا، بالدورة، بحيث لا تحسّ ذلك.

نضرب مثلا:

كما الليل يطول دون أن نلحظ بشكل محسوس، فإن الطفل الوليد لا يكبر من الصباح إلى المساء بشكل محسوس، إنه يكبر بالفعل دون أن نلحظ ذلك، وقد يزيد بمقدار ملليمتر في الطول، وهذا المللميتر شائع في كل ذرات الثواني من النهار، إن الطفل لا يظل على وزنه وطوله أربعا وعشرين ساعة من النهار، ثم يكبر فجأة عند انتهاء اليوم، لا، وهذه العملية تحتاج إلى الدقة المتناهية في توزيع جزيئات الحدث على جزيئات الزمان، وهذه هي العظمة للقدرة الخالقة التي يظل الإنسان عاجزا عنها إلى الأبد.

## ليست الحياة حركة ظاهرة أمام العين فقط!

ثم يأتي لنا الحق الأعلى بمثل آخر، فيقول: ﴿وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ﴾، إنها القدرة المطلقة بدون أسباب، لقد وصل العلم لمعرفة أن لكل شيء حياة خاصة، فنرى أن ورقة النبات تحدث فيها تفاعلات ولها حياة خاصة، ونرى أن الذرة فيها تفاعلات ولها حياة خاصة، والإنسان العامّي لا يعرف أن النطفة فيها حياة، وأن الحبة فيها حياة، ولا يعرف العامة أن هناك فرقا بين شيء حي، وشيء قابل لأن يحيا، يقول العلماء: إن الحركة الموجودة في ذرات

رأس عيدان علبة كبريت واحدة تكفي لإدارة قطار كهربائي بإمكانه أن يلفّ حول الكرة الأرضية عددا من السنوات، هذه أمور لا يعرفها العامة، فليست الحياة هي الحركة الظاهرة والنمو الواضح أمام العين فقط، لا، بل إن هناك حياة في كل شيء.

## القرآن يخاطب بأشياء تتقبّلها كل العقول

القرآن حين يخاطب بأشياء قد تقف فيها العقول، فإنه يتناولها التناول الذي تتقبلها به كل العقول، فعقل الصفوة يتقبلها وعقل العامة يتقبلها أيضا، لأن القرآن عندما يلمس أي أمر إنما يلمسه بلفظ جامع راق يتقبله الجميع، ثم يكتشف العقل البشري تفاصيل جديدة في هذا الأمر، على سبيل المثال، القرآن لم يقل لنا: إن الذرة فيها حركة وحياة وفيها شحنات من لون معين من الطاقة، فلو عرف الإنسان وقت نزول القرآن ذلك فماذا الذي يزيد من الأحكام؟

## كلها أمور من الخير، وإن بدا غير ذلك!

لقد جاء الدليل من الآيات الكونية، ونراه كل يوم رأي العين، إنك أنت يا الله، الذي أجريت في كونك كل هذه المسائل وهي كلها أمور من الخير، وإن بدا للبعض أن الخير فيها غير ظاهر، إن الإنسان عندما يرى في ابنه شيئا يحتاج إلى علاج فإنه يسرع به إلى الطبيب ويرجوه أن يقوم بكل ما يلزم لشفاء الابن، حتى ولو كان الأمر يتطلب التدخل الجراحي، إن الأب هنا يفعل الخير للابن،

والابن قد يتألم من العلاج، فإذا كان هذا أمر المخلوق في علاقته بالمخلوق، فما بالنا بالخالق الذي يُجري في ملكه ما يشاء، فكل ذلك لا بد أن يكون من الخير، وأن الله على كل شيء قدير.

## يبيّن لك مالك وما عليك

لذلك يأتي قوله: ﴿وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ٢٧﴾ وساعة تسمع كلمة ﴿حِسَابٍ ٤٠﴾ فإنك تعرف أن الحساب هو كما قلنا سابقا: يبين لك مالك وما عليك، والحساب يقتضي محاسِبا ويقتضي محاسَبا ويقتضي محاسَبا عليه، فلنا أن نقول: ممن؟ ولمن؟ من أين يأتي الرزق؟ وإلى أين؟ إنه يأتي من الله، ويذهب إلى ما يقدّره الله، وهو الذي لا يستطيع ولا يجرؤ أحد على حسابه.

## يرزقك الله من شيء لم يكن محسوبا عندك!

إن الحساب يجريه الله على الناس، وهو سبحانه لا يعطي الناس فقط على قدر حركتهم في الوجود، بل يرزقهم أحيانا بما هو فوق حركتهم، وقد يرزقك الله من شيء لم يكن محسوبا عندك؛ لأن معنى الحساب هو ذلك الأمر التقديري الذي يخطط له الإنسان، كالفلاّح الذي يحسب عندما يزرع الفدان ويتوقع منه نتاجا يساوي كذا قنطارا، أو الصانع الذي يقدر لنفسه دخلا محددا من صنعته، الإنسان يحسب ويحسب وقد لا يأتي له الرزق.

## ثروة البترول

ونحن نرى إخوتنا الذين أفاض الله عليهم بثروة البترول، لقد تفجر البترول من تحت أرجلهم دون جهد منهم، إنه الله يريد أن يلفت الناس إلى قدرته، وأن الأرزاق في يده هو، وننظر إلى الناس الذين يشيرون إلى منطقة البترول فيتّهمون أهلها بالكسل، ونجد أن الله تعالى قد سخر لهم شعوبا من بلاد أخرى ليخدموهم، وعندما أفاء على المنطقة العربية بالبترول احتاجت لهم الدول التي تقول عن نفسها: أنها متقدمة، إنه رزق بغير حساب.

## الأسباب لا تتحكم وحدها

إن الله قد خلق الأسباب، ولم يترك الأسباب تتحكم وحدها، وقد يترك الله الأسباب للإنسان ليعمل بها، وقد لا يعطيه منها، ويعطي الله الإنسان من جهة أخرى لم يحسب لها حسابا، والإنسان الذي يتأمل تقدير أموره يجد أن تلك القضية منتشرة في كل الخلق، إنه سبحانه يرزق بغير حساب من الإنسان، لأن الموازنة التي قد يقوم بها الإنسان قد يأتي لها من الأسباب ما يخرقها، فإذا كانت كل هذه الأمور لله، وهو مالك الملك ويعطي من يشاء، ويعزّ من يشاء، ويرزق من يشاء بغير حساب، أليس من الحمق أن يذهب إنسان ليوالي غير الله، إياك أن تعمد إلى عدو لهذه القوة القادرة القاهرة.

## المؤمنون، متى يتخذون الكفار أولياء؟

﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةًۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾[1]

أنت لا تتخذ الكافر وليا إلا إن بانت لك مظاهر القوة فيه، ومظاهر الضعف فيك، وهكذا نلاحظ أن الولاية قد تضاف مرة إلى الله، ومرة إلى خلق الله، إن الله وليّ المؤمن، وهذا أمر مفهوم، وقد نتساءل: كيف يكون المؤمن ولي الله؟ إنا نستطيع أن نفهم هذا المعنى كما يلي: إن الله هو المعين للعباد المؤمنين فيكون الله ولي الذين آمنوا، أي معينهم ومقويهم، وأولياء الله، هم الذين ينصرون الله، فينصرهم الله، وهو سبحانه الحق الذي قال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾[2].

## القواميس الكونية بيد الله تسير كالساعة

ألم يكن الله قادرا أن ينتقم من الكفار مرة واحدة وينتهي من أمرهم؟ ولكن الله سبحانه قال: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾﴾[3]. إن الحق لو قاتلهم فإن قتاله لهم سيكون أمرا خفيا، والإنسان عليه أن يعرف بأن حياته بين قوسين: بين قوس ميلاده

---

(١) [آل عمران: ٢٨].

(٢) [محمد: ٧] .

(٣) [التوبة: ١٤].

وقوس وفاته، ولا يتحكم الإنسان في واحد من القوسين، فلماذا يحاول التحكم في المسافة بين القوسين؟ إذن القواميس الكونية بيد الله تسير كالساعة.

## حكم التُّقية

قوله تعالى: ﴿إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗۗ﴾، **{وتقاة}** مأخوذة من الوقاية، إنهم قد يكونون أقوياء للغاية، وقد لا يملك المؤمن بغلبه الظن في أن ينتصر عليهم؛ فلا مانع من أن يتقي المؤمن شرهم. إن التقية رخصة من الله، رُوي أن مسيلمة الكذاب جاء برجلين من المسلمين وقال لواحد منهما: «أتشهد أن محمدا رسول الله» ؟ قال المؤمن «نعم» : قال مسيلمة: «وتشهد أني رسول الله؟» قال المؤمن: «نعم» . وأحضر مسيلمة المسلم الآخر وقال له: «أتشهد أن محمداً رسول الله؟» قال المؤمن: «نعم» . قال مسيلمة: «أتشهد أني رسول الله؟» قال المؤمن الثاني: «إني أصمّ» كيف رد عليه المؤمن بدعوى الصمم؟ لقد علم مسيلمة أنه يدعي الصمم، لذلك أخذه وقتله، فرفع الأمر إلى سيدنا رسول الله ﷺ، فماذا قال؟ قال ﷺ: **«أما المقتول فقد صدع بالحق فهنيئا له، وأما الآخر فقد أخذ برخصة الله»**. فالتقية رخصة، والإفصاح بالحق فضيلة.

## هل عرفنا الآن لماذا جاءت التقية؟

ولننظر إلى حكمة التشريع في هذا الأمر، فلو لم يشرع الله التقية بقوله: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[1]. فمن يحمل علم الله إلى الآخرين؟ لذلك يشرع الله التقية من أجل أن يبقى من يحمل المنهج، إنه يشرع لنا التقية من أجل بقاء العقيدة، هل عرفنا الآن لماذا جاءت التقية؟ لأن الحق ﷻ يريد منهجا يعمر الأرض، ويورث للأجيال المتتالية، فلو أن الحق لم يشرع التقية بقوله: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾[2] لثبتت الفدائية في العقيدة، ولو ثبتت الفدائية وحدها لكان أمر المنهج عُرضه لأن يزول، ولذلك، فلا ولاية من مؤمن لقوم كافرين إلا أن يتقى منهم تقاة.

## احذروا التقية في أمر هو مرغوب لنفوسكم

وعليك أن تعرف جيدا أن الحق قد قال: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨﴾﴾ إنه الله يقول للمؤمنين: إياكم أن تخلعوا على التقية أمرا هو مرغوب لنفوسكم، لماذا؟ لأن الحق قد حددها: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾﴾[3]، فلا غاية إلا الله، وإياكم أن تغشّوا أنفسكم؛ لأنه لا غاية عند غيره؛ فالغاية كلها

---

(١) [النحل: ١٠٦].

(٢) [النحل: ١٠٦].

(٣) [النحل: ١٠٦].

عنده.

## إياك أن تعتقد ان اللّه غيب لا يعلم إلا الغيب

﴿قُلْ إِن تُخْفُواْ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٢٩﴾[1]

التحذير واضح في هذه الآية، هنا قد يقول قائل: إن إخفاء ما في الصدر هو الذي يعلمه الله، أما إبداء ما في الصدر فإنه قد علمه أحد غير الله، فلماذا جاء هذا القول؟ لقد جاء هذا القول الحكيم، لأنه قد يطرأ على بالك أن الله غيب فهو يعلم الغيب فقط ولا يعلم المشاهد، لكن الله لا يحجبه مكان عن مكان أو زمان عن زمان، فإياك أن تعتقد ان الله غيب فلا يعرف إلا الغيبأ إن الحق يعلم الغيب ويعلم ما برز إلى الوجود.

## انظر ماذا فعلت وماذا قلت!!

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ٣٠﴾[2]

كيف يأتي الإنسان يوم القيامة، ويجد عمله؟ إنه لا شك سوف يجد جزاء عمله،

---

(١) [آل عمران: ٢٩].

(٢) [آل عمران: ٣٠].

إننا حتى الآن نقول ذلك، إنهم الآن يستطيعون تسجيل الكتروني لعمل ما دون أن يشعر، وبعد مدة يقول الإنسان للآخر: انظر ماذا فعلت وماذا قلت، إن العمل المسجل الكترونيا يكون حاضرا ومصورا، فإذا كنا نحن البشر نستطيع أن نفعل ذلك بوسائلنا فماذا عن وسائل خالق البشر؟ لا بد أنها تفوقنا قدرة، إنه الحق يعلم كل شيء، في الصدر، أو في السماوات أو في الأرض: إن الحكم الإلهي يشمل الكون كله.

## يقول الإنسان لنفسه: يا ليتها ما جاءت

ويختم الحق هذه الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ۝٦﴾ إنه القادر الذي يعلم عنا الغفلة، ونحن مخلوقون لله، يأتي لكل منا بكتاب حسابه يوم الحساب، إذن فمن تقف في عقله هذه المسألة، فليقل: ﴿مَّا عَمِلَتۡ مِنۡ خَيۡرٖ مُّحۡضَرٗا﴾ يعني أنه يجد جزاء عمله، أما ما عملته النفس من السوء فهي تودّ أن يكون بينه وبينها أمدٌ بعيد، أي مسافة بعيدة، ويقول الإنسان لنفسه: (يا ليتها ما جاءت)، والحق سبحانه يقول: ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفۡسَهُۥۗ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ۝٣٠﴾ إن الحق سبحانه يكرر التحذير لنستحضر قوته المطلقة، ولكنه أيضا رءوف بنا رحيم.

## كلّ ﴿قُلۡ﴾ في القرآن إنما هي بلاغ من الرسول عن ربه

﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣١﴾[1]

ولنا أن نعرف أن كل ﴿قُلۡ﴾ إنما جاءت في القرآن كدليل على أن ما سيأتي من بعدها هو بلاغ من الرسول ﷺ عن ربه، بلاغ للأمر وللمأمور به، إن البعض ممن في قلوبهم زيغ يقولون: كان من الممكن أن يقول الرسول: ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ لهؤلاء نقول: لو فعل الرسول ﷺ ذلك لكان قد أدى (المأمور به) ولم يؤد الأمر بتمامه، وكأن الرسول ﷺ في كل بلاغ عن الله بدأ ب ﴿قُلۡ﴾ إنما يبلغ الأمر ويبلغ المأمور به، مما يدل على أنه مبلغ عن الله في كل ما بلغه من الله.

## حبّ الله ورسوله تتلخص في (افعل) و(لا تفعل)

قوله تعالى: ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ هذه الآية تدل على ماذا؟ إنهم لا بد قد ادعوا أنهم يحبون الله، ولكنهم لم يتبعوا الله فيما جاء به رسول الله، فكأنهم جعلوا الحب لله شيئا، واتّباع التكليف شيئا آخر، إن الله لا يحتاج إلى أحد ولا من أحد، إنه عندما كلفنا إنما يريد لنا أن نتبع قانون صيانة حياة الإنسان.

### نضرب مثلا للتوضيح:

---

(١) [آل عمران: ٣١].

نضرب مثلا بالآلة المصنوعة بأيدي البشر، إن المهندس الذي صممها يضع لها قانون صيانة ما، ويضع قائمة تعليمات عن كيفية استعمالها؛ وهي تتلخص في «افعل كذا» و«لا تفعل كذا» ، ويختار لهذه الآلة مكانا محددا، وأسلوبا منظما للاستخدام، إذن فوضع قائمة بالقوانين الخاصة بصيانه واستعمال آلة ما وطبعها في كراسة صغيرة (كاتالوج)، هي لفائدة المنتفع بالصنعة، لكي تدوم سلامتها ويكتمل انتفاعك بها، فلا تتعطل، هذا في مجال الصنعة البشرية، فما بالنا بصنعة الله ﷻ؟

## فرق بين أن تحب أنت الله، وأن يحبّك الله

إنك قد تحب الله، ولكن عليك أن تلاحظ الفرق بين أن تحب أنت الله، وأن يحبك الله، إن التكليف قد يبدو شاقا عليك فتهمل التكليف؛ لذلك نقول لك: لا يكفي أن تحب الله لنعمة إيجاده لك وإمداده بالنعم عليك؛ لأنك بذلك تكون أهملت نعمة تكلفيه التي تعود عليك بالخير عندما تؤديها أيها الإنسان، فلا تهملها، ومن الجائز أن تجد عبادا يحبون الله لأنه أوجدهم وأمدهم بكل أسباب الحياة، ولكن حب الله لعبده يتوقف على أن يعرف العبد نعمته في التكليف، إن الله يحب العبد الذي يعرف قيمة النعمة في التكليف، لأن الله لن يكلفكم لصالحه ولكنه كلفكم لصالحكم؛ وعندما تقيس ودادة القلب بالنسبة لله، فإننا نرى آثارها وعملها من عفو ورحمة ورضا، وعندما تقيس ودادة القلب من العبد إلى

الله فإنها تكون في الطاعة، وعلى الإنسان أن يبحث عن تكاليف الله ليقوم بها، طاعة منه وحبا لله، ليتلقى محبة الله له بآثارها، من عفو ورحمة ورضا.

## حُبّ العقل وحُبّ العاطفة

والحب المطلوب شرعا يختلف عن الحب بمفهومه الضيّق، أقول ذلك لنعلم جميعا، أنه سبحانه لا يكلف فوق الوسع أو فوق الطاقة، إن الحب المراد لله في التكليف هو الحب العقلي، ولا بد أن نفرق بين الحب العقلي والحب العاطفي، لا أقول لك: عليك أن تحب فلانا حبا عاطفيا، لأن ذلك الحب العاطفي لا قانون له، إن الإنسان يحب ابنه حتى ولو كان قليل الذكاء أو صاحب عاهة، يحبه بعاطفته، ويكره قليل الذكاء بعقله. والإنسان حينما يرى ابن جاره أو حتى ابن عدوه، وهو متفوق، فإنه يحب ابن الجار أو ابن العدو بعقله، لكنه لا يحب ابن الجار أو العدو بعاطفته، ودليل ذلك أن الإنسان عندما توجد لديه أشياء جميلة فإنه يعطيها لابنه لا لابن الجيران، هناك إذن فرق بن حب العقل وحب العاطفة، وهكذا يكون قول الله: ﴿إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ وهذا الحب ليس دعوى، إن الإنسان منا عندما يدّعي أنه يحب إنسانا آخر، فكل ما يتصل به يكون محبوبا، فإن كنتم تحبون رسول الله ﷺ فاتبعوه بتنفيذ التكاليف الإيمانية.

## الفرق بين (إتبعني) و(استمع لي)

إن الإتباع لا يكون إلا في السلوك، فإن كنت تحب رسول الله فعليك أن ترى ماذا كان يفعل رسول الله، وأن تفعل مثله، أما إذا كنت تدّعى هذا الحب، ولا تفعل مثلما فعل رسول الله فهذا عدم صدق في الحب، إن دليل صدقكم في الحب المُدّعى منكم أن تتبعوا رسول الله ﷺ، فإن اتبعنا رسول الله نكون قد أخذنا التكليف من الله على أنه نعمة، ونقبلها من الله مع ما فيها من مشقة علينا، فيحبنا الله؛ لأننا آثرنا تكليفه على المشقة في التكليف.

## هل التكليف لصالح المكلَّف؟

هنا نقول: انظروا إلى التكليف أهو لصالح من كلف أم هو لصالح من تلقى التكليف؟ إنه لصالح المكلَّف أي الذي تلقى التكاليف، فإن أحببت الله فهذا يقتضي أن تحبّه أيضا للتكليف، ودليل صدق الحب هو قيام العبد بالتكليف، وما دمت أنت قد عبّرت عن صدق عواطفك بحبك لله، فلا بد أن يحبك الله، وكل منا يعرف أن حبّه لله لا يقدم ولا يؤخر، لكن حبّ الله لك يقدم ويؤخر.

## رسول الله مبلّغ عن الله

إن قول الحق ﷻ فيما يعلّمه لرسول الله ليقول لهم: ﴿فَٱتَّبِعُونِى يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ أي أن الرسول ﷺ المرسل من عند الله جاء بكل ما أنزله الله ولم يكتم شيئا مما أُمِرَ بتبليغه، فلا يستقيم أن يضع أحدٌ تفريقا بين رسول الله وبين الله، لأن الرسول ﷺ مبلغ عن الله كل ما أنزل عليه.

## أي ذنوب يغفرها الله هنا؟

وبعد ذلك يقول الحق: ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ﴾ إن مسألة ﴿وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ﴾ هذه تتضمن ما تسميه القوانين البشرية بالأثر الرجعي، فمن لم يكن في باله هذا الأمر؛ وهو حب الله، وإتباع الرسول ﷺ، فعليه أن يعرف أن عليه مسئولية أن يبدأ في هذه المسألة فورا ويتبع الرسول ﷺ وينفذ التكليف الإيماني، وسيغفر له الله ما قد سبق، وأي ذنوب يغفرها الله هنا؟ إنها الذنوب التي فرّ منها بعض العباد عن إتباع الرسول، فجاء الرسول بالحكم فيها، وهكذا نعرف ونتيقن أن عدالة الله أنه سبحانه لن يعاقب أحدا على ذنب سابق ما دام قد قبل العبد أن ينفذ التكليف الإيماني، إن الذين أبلغهم رسول الله ﷺ كان يجب عليهم أن يفطنوا بعقولهم إلى ما أعلنه الرسول لهم، إن هذا الأمر لا يكون حجة إلا بعد أن صار بلاغا، وقد جاء البلاغ، ولذلك يغفر الله الذنوب السابقة على البلاغ، وبعد ذلك يقول: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣١﴾.

## طاعة المؤمنين للرسول من طاعة الله

﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝٣٢﴾[1]

إذن فقول الرسول بلاغا عن الله ﴿فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ﴾ يعني أن طاعة المؤمنين للرسول من طاعة الله، إن الرسول لم يأمرنا بطاعته، ولكنه يأمرنا بطاعة الله، والله هنا يوحّد أمر الطاعة فيجعلها لله وللرسول معا، إن الله تعالى

(١) [آل عمران: ٣٢].

يورد أمر الطاعة ثلاث مرات، فمرة يكون أمر الطاعة لله، ومرة ثانية يكون أمر الطاعة للرسول، ومرة ثالثة يقول الحق: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾(١).

## يطيع الرسول في التفصيل

﴿وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ٥٦﴾(٢)

إن الواحد منا لم يكن يعرف كم صلاة في اليوم، ولا عدد الركعات في كل صلاة، ولا نعرف كيفيتها، لكن الرسول ﷺ قد فصّل لنا الأمر في كل صلاة، إذن، فالمؤمن يطيع الله في الإجمال، ويطيع الرسول في التفصيل.

## هناك طاعتان

إن علينا أن نلتفت إلى أن هنا طاعتين: الأولى: طاعة الله، والثانية: طاعة الرسول، أما في الأمر المتّحد، فتكون الطاعة لله والرسول؛ لأنه أمر واحد، وأما الأمر الذي جاء من الله فيه تكليف إجمالي فقد ترك الله للرسول بيانه، فالمؤمن يطيع الله في الأمر الإجمالي كأمر الصلاة، وإقامتها، ويطيع الرسول في تفصيل أمر الصلاة؛ وكيفيتها، وأحيانا يجيء الحكم بالتفويض الأعلى من الله للرسول،

---

(١) [النساء: ٥٩].

(٢) [النور: ٥٦].

فيقول الله لرسوله ما معناه: إنك أنت الذي تقرر في هذه الأمور، كما قال الحق: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(١).

## التفويض العام

لقد ترك الله سبحانه للرسول أن يُصدر التشريعات اللازمة لاستقامة حياة المؤمنين، لقد أعطاه الله سبحانه التفويض العام، وما دام سبحانه قد أعطى الرسول التفويض العام فإن طاعة المؤمن تكون للرسول فيما يقوله الرسول، وإن لم يقل الله به، إننا على سبيل المثال لا نجد في القرآن دليلا على أن صلاة الفجر ركعتان، لكن الرسول ﷺ هو الذي فصّل لنا الصلاة فعرفنا أن الفجر ركعتان، والظهر أربع ركعات، والعصر مثل الظهر، والمغرب ثلاث ركعات، والعشاء أربع ركعات، إن الدليل هو تفصيل الرسول، وقول الله: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟﴾(٢). إنه دليل من القرآن الكريم.

## لا توجد طاعة ذاتية لأولي الأمر

(١) [الحشر: ٧].

(٢) [الحشر: ٧].

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾(١). إن الحق لم يورد طاعة أولي الأمر مندمجة في طاعة الله والرسول، لتكون طاعة واحدة، لا، إن الحق أورد طاعة أولي الأمر في الآية التي يفرّق فيها بين طاعة الله وطاعة الرسول، ثم من بطن طاعة الرسول تكون طاعة أولي الأمر، لماذا؟ لأنه لا توجد طاعة ذاتية لأولي الأمر؛ لأن الرسول ﷺ له الطاعة الذاتية، أما طاعة أولي الأمر فهي مستمدّة من طاعة أولي الأمر لله ورسوله، ولا طاعة لأولي الأمر فيما لم يكن فيه طاعة لله وللرسول ﷺ.

## إياك أيها المسلم أن تُنكر حكما

يقول الله سبحانه: ﴿قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٢﴾، أما إن تولوا، أي لم يستمعوا إليك يا محمد، ولم يتبعوك، فإن موقفهم ينتقل إلى الكفر؛ وليس هناك تفظيع أكثر من هذا، إن كلمة «**تولّوا**» توحي بأن الذين استمعوا إلى أوامر الحق قد نفروا وأعرضوا عن حكم الله، إياك أيها المسلم أن تنكر حكما لا تستطيع أن تحمل نفسك عليه أو لا تقدر عليه، إنك إن أنكرت تنقل نفسك من دائرة الإسلام إلى دائرة الكفر، ولكن قل: إنه حكم الله وهو صواب، ولكني لا أستطيع أن أعمل به، إن ذلك يجعل عدم تنفيذ الحكم معصية فقط.

## إننا في دين الإسلام لا نجد تعصّبا

---

(١) [النساء: ٥٩].

بعد هذا وذاك، يعرض الله نماذج قديمة، وهذه النماذج تؤكد لنا أننا في دين الإسلام لا نجد تعصبا، إنه يعطي صفات التكريم لأهل أديان منسوبين إلى ما أنزله الله عليهم من منهج، إنه مطلق العظمة، ها هو ذا الحق يقول: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾[1] إنها عدالة القرآن الكريم، إنه الحق العادل الذي ينزل على الرسول بلاغا يذكّر الأبناء بطهارة أصول الآباء، ومن الخسارة أن يصير الأبناء إلى ما هم عليه، وعندما تقول: اصطفيت كذا على كذا، فمعنى ذلك أنه كان من الممكن أن تصطفى واحدا من مجموعة على الآخرين، ولذلك نفهم المقصود ب «**على العالمين**» أي على عالمي زمانهم، إنهم قوم موجودون وقد اصطفى منهم واحدا، أما الذي سيولد من بعد ذلك فلا اصطفاء عليه، فلا اصطفاء على محمد ﷺ.

## الأنساب بالدم عند الأنبياء لا اعتبار لها

﴿ذُرِّيَّةَۢ بَعۡضُهَا مِنۢ بَعۡضٖۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٣٤﴾[2]

لنا أن نسأل: هل المقصود بذلك الأنساب أم الدّين والقيم؟ ولنا أن نلتفت أن الله قد علمنا في مسألة إبراهيم عليه السلام أن الأنساب بالدم واللحم عند الأنبياء لا اعتبار لها، وإنما الأنساب المعترف بها بالنسبة للأنبياء هي أنساب القيم والدين.

## مريم تنذر ابنها للبيت المقدس

---

(١) [آل عمران: ٣٣].

(٢) [آل عمران: ٣٤].

﴿إِذۡ قَالَتِ ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٣٥﴾(١)

معنى **(إذ)** أي اذكر، إننا عندما نسمع كلمة «**مُحَرَّراً**» فمعناها أنه غير مملوك لأحد، أما قولها: ﴿رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا﴾ هو مناجاة لله، فما الدافع إلى هذه المناجاة لله؟ إن امرأة عمران موجودة في بيئة ترى الناس تعتز بأولادها، ولم تُعجب بذلك، لقد أرادت ما في بطنها محررا من كل ذلك، لقد كانوا قديما عندما ينذرون ابنا للبيت المقدس فهذا النذر يستمر إلى أن يبلغ سن الرشد، بعدها يختار الابن بين أن يظل كما أراد والداه أو أن يحيا حياته كما يريد، وكان يستلزم ذلك في التصور البشري أن يكون المولود ذكرا؛ لأن الذي كان يقوم بخدمة البيت هم الذكران.

## هل كانت مريم مُجبرة على هذا النذر؟

الإنسان يختار نذرا من جنس ما فرض الله من تكاليف، إن النذر هو زيادة عما كلف المكلف من جنس ما كلف سبحانه، وكلمة «**نذرتُ**» من ضمن معانيها هو أن امرأة عمران سيدة تقية وورعة ولم تكن مجبرة على النذر، ولكنها فعلت ذلك، وهو أمر زائد من أجل خدمة بيت الله، والنذر يعبّر عن عشق العبد لتكاليف الله، فيلزم نفسه بالكثير من بعضها، ودعت امرأة عمران الله من بعد

(١) [آل عمران: ٣٥].

ذلك بقبول ذلك النذر فقالت: «**فتقبل مني**»، واستجابة لهذا الدعاء جاء قول الحق: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ﴾[1].

## ليس الذكر كالأنثى!

﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾[2]

لقد جاءت المولودة أنثى، لكن الحق يقول بعد ذلك: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾، وهذا يعني أنها تُظهر التحسّر، لأن الغاية من نذرها لم تتحقق، وبعد ذلك يقول الله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾ . فهل هذا من كلامها، أم من كلام الله؟ قد قالت: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ وقال الله: ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾، إن الله يقول لها: لا تظني أن الذكر الذي كنت تتمنينه سيصل إلى مرتبة هذه الأنثى، إن هذه الأنثى لها شأن عظيم، أو أن القول من تمام كلامها: ﴿إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ﴾ ويكون قول الحق: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ هو جملة اعتراضية ويكون تمام كلامها ﴿وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ﴾. أي أنها قالت: يا ربّ إن الذكر ليس كالأنثى، إنها لا تصلح لخدمة البيت.

---

(١) [آل عمران: ٣٧] .

(٢) [آل عمران: ٣٦].

## الشيطان يرتعد من الإستعاذة بالله

قالت امرأة عمران: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ﴾ قالت ما يدل على شعورها، فقد تمنت أن تكون المولودة طائعة عابدة، فسمتها ﴿مَرْيَمَ﴾ لأن مريم في لغتهم معناها العابدة. ﴿وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾. وأول ما يعترض العبودية هو الشيطان، إنه هو الذي يجعل الإنسان يتمرد على العبودية، إن الإنسان يريد أن يصير عابدا، فيجيء الشيطان ليزين له المعصية، وحينما يدخل الشيطان مع خلق الله في تزيين المعاصي، فهو يدخل مع المخلوق في عراك، ولكن الشيطان لا يستطيع أن يدخل مع ربه في عراك، ولذلك يقال عن الشيطان إنه إذا سمع ذكر الله فإنه يخنس أي يتراجع، ووصفه القرآن الكريم بأنه ﴿الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾، إن الشيطان إنما ينفرد بالإنسان حين يكون الإنسان بعيدا عن الله، إن الشيطان يرتعد فرقا ورعشة من الاستعاذة بالله، وعندما يتكرر ارتعاد الشيطان بهذه الكلمة؛ فإنه يعرف أن هذا الإنسان العابد لن يحيد عن طاعة الله.

## المسألة جاءت من أعلى

﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾[1]

---

(١) [آل عمران: ٣٧].

أما قوله الحق: ﴿وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا﴾ فهذا يعني أن المسألة جاءت من أعلى، إنه الرب الذي تقبلها بقبول حسن، وهو الذي أنبتها نباتا حسنا، إذن، فرعاية زكريا لها إنما جاءت بأمر من الله.

## قرعة!!

لقد اجتمع كبار القوم رغبة في كفالتها، وأجروا بينهم قرعة من أجل ذلك، عندما نختلف على شيء فإننا نجري قرعة، ويخصص سهم لكل مشترك فيها، ونرى بعد ذلك من الذي يخرج سهمه، ويلجأ الناس لهذا الأمر ليمنعوا هوى البشر عن التدخل في الاختيار، ولا يمكن أن يكونوا قد ذهبوا إلى هذه القرعة إلا إذا كان قد حدث تنازع بينهم، ويصبح الأمر خارجا عن مراد البشر إلى مراد الله ﷻ.

## حتى لا يوجد في النفس غضاضة

وكلمة «**أقلامهم**» قال فيها المفسرون: إنها القداح التي كانوا يصنعونها قديما، أو الأقلام التي كتبوا بها التوراة، فرموها في البحر، فمن طفا قلمه لم يأخذ رعاية مريم، ومن غرق قلمه في البحر فهو الذي فاز بكفالة مريم، إذن فهم قد خرجوا عن مراداتهم إلى مراد الله حتى لا يوجد في النفس غضاضة، لكن لو كان هناك من سيأخذ رعاية مريم بالقوة والغضب فلا بد أن يجد نفوس الآخرين وقد امتلأت بالمرارة، وكلمة « **وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا**» يعطينا المعنى الواضح بأن زكريا عليه السلام هو الذي قام برعاية شئون مريم وتولى كل مهمة تربيتها.

## أنّى لَكِ هذا؟

قوله سبحانه: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيۡهَا زَكَرِيَّا ٱلۡمِحۡرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزۡقٗاۖ﴾ إنه لم يدخل مرة واحدة، بل دخل عليها المحراب مرات متعددة، كان لا بد أن يتساءل عن مصدر هذا الرزق، ولا بد أن يكون تساؤله معبّرا عن الدهشة، وساعة أن تسمع ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ﴾ فهذا يدل على أنه قام بعمل محابس وأقفال على المكان الذي توجد به مريم، وإلا لظن أن هناك أحدا قد دخل على مريم، وكما يقولون: فإن زكريا كان يقفل على مريم الأبواب. وإلا لو كانت الأبواب غير مغلقة لظن أن هناك من دخل وأحضر لها تلك الألوان المتعددة من الطعام.

## فساد البيوت والمجتمعات!

إن الذي يدخل بيته ويجد ابنته ترتدي فستانا أنيقا أو تحمل هاتفا مرتفع الثمن ويفوق طاقة الأسرة، أو يجد ابنه قد اشترى حاسوبا أو مركبة أو شيئا ليس في طاقة الأسرة أن تشتريه، هنا يجب أن يتوقف الأب ليسأل: من أين لك هذا؟ إن في ذلك حماية لأخلاق الأسرة من الإنهيار أو التحلل، فلو فطن كل واحد أن يسأل أهله ومن يدخلون في كفالته: من أين لك هذا؟ لعرف كل تفاصيل حركتهم، لكن لو تُرك الحبل على الغارب لفسد الأمر.

## كيف فاتني هذا الأمر؟

ولننظر إلى إجابتها: ﴿قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٍ ٣٧﴾ أثارت هذه المسألة في نفس زكريا نوازع شتى؛ إنها مسألة غير عادية، وهنا ذكر زكريا نفسه، وكأن نفسه قد حدثته: إذا كانت للقدرة طلاقة في أن تفعل بلا أسباب، وتعطي من غير حساب، فأنا أريد ولداً يخلفني، رغم أنني على كبر من السن، وامرأتي عاقر، إن مسألة الرزق الذي وجده زكريا كلما دخل على مريم هي التي نبهته إلى ما يتمنى ويرغب، ونحن نعلم أن المعلومات التي تمر على خاطر النفس البشرية كثيرة، ومعلومات في حاشية الشعور يتم استدعاؤها عند اللزوم، فلما وجد زكريا الرزق المتعدد عند مريم وقالت له عن مصدره: ﴿هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾ هنا تساءل زكريا: كيف فاتني هذا الأمر؟ ولذلك يقول الحق عن زكريا: ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٨﴾[1].

## فلنطلب من ربنا ما نرجوه لأنفسنا

دعا زكريا لنفسه، فلنطلب من ربنا أن يرزقنا ما نرجوه لأنفسنا، وما دام قد قال هذا القول فلا بد أنه قد صدق مريم في قضيتها، بأن هذا الرزق الذي يأتيها هو من عند الله، ودليل آخر في التصديق هو أنه لا بد وقد رأى أن الألوان المتعددة من الرزق التي توجد عند مريم ليست في بيئته، أو ليست في أوانها؛ وكل ذلك

---

(١) [آل عمران: ٣٨].

في المحراب، هل كان طلبه للولد لما يطلبه الناس العاديون من أن يكون زينة للحياة أو عزوة أو ذكرا؟ لا، إنه يطلب الذرية الطيبة، فيه دليل أن هنالك ذرية غير طيبة.

## لا نقع في خديعة أنفسنا بالأسباب!

وقول زكريا: ﴿رَبِّ هَبۡ لِي﴾ تعني أنه استعطاء شيء بلا مقابل، إنه يعترف، أنا ليس لي المؤهلات التي تجعل لي ولدا؛ لأني كبير السن وامرأتي عاقر، إذن فعطاؤك يا رب لي هو هبة وليس حقا، وحتى الذي يملك الاستعداد لا يكون هذا الأمر حقا له، فلا بد أن يعرف أن عطاء الله له يظل هبة، فإياك أن تظن أن اكتمال الأسباب والشباب هي التي تعطي الذرية، إن الله سبحانه ينبهنا ألاّ نقع في خديعة وغش أنفسنا بالأسباب، هذا كقوله ﷻ: ﴿لِّلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثٗا وَيَهَبُ لِمَن يَشَآءُ ٱلذُّكُورَ ﴿٤٩﴾ أَوۡ يُزَوِّجُهُمۡ ذُكۡرَانٗا وَإِنَٰثٗاۖ وَيَجۡعَلُ مَن يَشَآءُ عَقِيمًاۚ إِنَّهُۥ عَلِيمٞ قَدِيرٞ ﴿٥٠﴾﴾[1]. إن في ذلك لفتا واضحا وتحذيراً ألا نفتتن بالأسباب، إذن فلكل عطاء من الله هو هبة، والأسباب لا تعطي أحدا ما يريد.

---

(١)( ) [الشورى: ٤٩ - ٥٠].

## يضع كلّ أمله في اللّه

فهل المراد أن يسمع الله الدعاء؟ أم أن يجيب الله الدعاء؟ إنه يضع كل أمله في الله، وكأنه يقول: إنك يا رب من فور أن تسمعني ستجيبني إلى طلبي بطلاقة قدرتك، لماذا؟ لأنك يا رب تعلم صدق نيتي في أنني أريد الغلام لا لشيء من أمور كالعزّ والجاه والعزوة، وغيرها، إنما أريد الولد ليكون وارثا لي في حمل منهجك في الأرض.

## أورع لقاء مع اللّه

﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّى فِى ٱلْمِحْرَابِ أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾[1]

قوله تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا﴾ أي: يكون يحيى سيدًا في قومه يُرجع إليه في الأمور، ﴿وَحَصُورًا﴾: لا يأتي الذنوب والشهوات الضارة، وقيل: ممنوعا من إتيان النساء، فليس في قلبه لهنّ شهوة، اشتغالا بخدمة ربه وطاعته، وقوله تعالى: ﴿فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾: هل كل الملائكة اجتمعوا ونادوا زكريا؟ لا، لأن جبريل عليه السلام الذي ناداه، لقد جاء هذا القول لنفطن إلى شيء هو، أن الصوت في الحدث كالإنسان له جهة يأتي منها، أما الصوت القادم من أمر السماء فلا يعرف

---

(١) [آل عمران: ٣٩].

الإنسان من أين يأتيه، إن الإنسان يسمعه وكأنه يأتي من جميع الجهات، وكأن هناك ملكا في كل مكان، لقد نادته الملائكة في أورع لقاءاته مع ربه، أليس طلبه من الله؟ إذن فليقف بين يدي الله، وليُجربها كل واحد منا عندما يصعب عليك أي شيء، وتتأزم الأمور، وتمتنع الأسباب، فليقم ويتوضأ وضوءا جديدا ويبدأه بالنية حتى ولو كان متوضئا، وليقف بين يدي الله، وليصلّ بخشوع، وأنا أجزم بأن الإنسان ما إن يسلّم من هذه الصلاة إلاّ ويكون الفرج قد جاء.

## ألم نتلق هذا عن رسول الله؟

إنه كلما حزبه أمر قام إلى الصلاة؟ ومعنى حزبه أمر، أي أن أسبابه ضاقت، لذلك يذهب إلى الصلاة لخالق الأسباب، بدلا من أن تلف وتدور حول نفسك، اذهب إلى الله من أقصر الطرق، لماذا تتعب نفسك أيها العبد ولك رب حكيم؟ وقديما قلنا: إن من له أب لا يحمل هما، والذي له رب أليس أولى بالاطمئنان؟

## النبي زكريا يتساءل: كيف يكون ذلك؟

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴿٤٠﴾﴾[1]

(١) [آل عمران: ٤٠].

إن بلوغ الكبر ليس دليلا على أنه عاجز عن الإنجاب، لأنه يكون كبير العمر، وقادرا على إخصاب امرأة، ذلك أن الإخصاب بالنسبة لبعض الرجال ليس أمرا عسيرا مهما بلغ من العمر إن لم يكن عاقرا، ولكن المرأة هي العنصر المهم، فإن كانت عاقرا، فذلك قمة العجز في الأسباب، ولو أن زكريا قال فقط: ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٌۖ﴾ لكان أمرا غير مستحب بالنسبة لزوجته، ولكان معنى ذلك أنه نسب لنفسه الصلاحية وهي غير القادرة، إنه أدب النبوة وهو أدب عال؛ لذلك أوردها من أولها: ﴿وَقَدۡ بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٌۖ﴾.

## الكبر هو الذي جاءني!

نرى دقة القول في: ﴿بَلَغَنِيَ ٱلۡكِبَرُ﴾، إنه لم يقل: (بلغت الكبر) بل يقول: إن الكبر هو الذي جاءني ولم أذهب أنا إلى الكبر؛ لأن بلوغ الشيء يعني أن هناك إحساسا ورغبة في أن تذهب إليه، وزكريا لم يكن عنده رغبة بالتوجّه لأن يكون طاعنا في السنّ، شأنه في ذلك طبيعة البشر جميعا، وذكر زكريا ﴿وَٱمۡرَأَتِي عَاقِرٌۖ﴾ هو تضخيم لطلاقة القدرة عند من يستمع للقصة، لقد أورد كل الخوالج البشرية، وبعد ذلك يأتي القول الفصل: ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفۡعَلُ مَا يَشَآءُ ٤٠﴾ إنها طلاقة القدرة التي فوق الأسباب لأنها خالقة الأسباب.

## زكريا يطلب علامة!

﴿قَالَ رَبِّ ٱجۡعَل لِّيٓ ءَايَةٗۖ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمۡزٗاۗ وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ ٤١﴾(١)

ماذا يريد زكريا من بعد ذلك؟ إنه يطلب آية، أي علامة على أن يحيى قد تم إيجاده في رحم أمه، إنه لم يطلب آية لأنه يشك في قدرة الله، إنه يطلب آية ليعيش في نطاق الشكر، ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا﴾ تفيد أن زكريا قادر على الذكر وغير قادر على كلام الناس، لذلك لا يريد الله أن يشغله بكلام الناس، وكأن الله يريد أن يقول له: ما دمت قد أردت أن تعيش مع النعمة شكرا فسأجعلك غير قادر على الكلام مع الناس، لكنك قادر على ذكر الله وشكره، وهذه قدرة أخرى من طلاقة قدرة الله، إنه اللسان الواحد غير القادر على الكلام، ولو حاول أن يتكلم لما استطاع، ولكن هذا اللسان نفسه قادر على الشكر والتسبيح، ويسمعه الناس.

## ما الذي تمتاز به عن نساء العالمين؟

﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٤٢﴾(٢)

---

(١) [آل عمران: ٤١].

(٢) [آل عمران: ٤٢].

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ المراد بها جبريل ﵇، يأتي صوته من كل جهة حتى يصير الأمر عجيبا، هذا القول يجب أن ينبّه في نفسها سؤالا هو: ما الذي تمتاز هي به عن نساء العالمين؟ إن الذهن ينشغل بهذا الأمر، وينشغل على أمر من وظيفة الأنثى، ونجد أن هذه كلها إيناسات للحدث الذي سيأتي من بعد ذلك، وهو حدث يتعلق بعرضها وعفافها، وإتيانها بمولود ذكر دون زواج أو اتصال بذكر، فلا بد أن يمهّد الله له تمهيدا مناسبا حتى تتأكد من أن هذه المسألة ليس فيها شيء يخدش الكرامة.

## ولنا أن نسأل: ما نتيجة هذا الاصطفاء؟

ثم قال سبحانه: ﴿وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٢﴾ ولنا أن نسأل: ما نتيجة هذا الاصطفاء؟ لقد اصطفى الله الكعبة من أجل ماذا؟ حتى يتجه كل إنسان إلى الكعبة، إذن فقد اصطفاها من أجل البشر وليشيع اصطفاؤها في كل مكان آخر، وإذا اصطفى الحق سبحانه زمانا، كاصطفائه لرمضان، فلماذا اصطفاه؟ ليشيع صفاؤه، وصفاء ما أنزل فيه في كل زمان، إذن فاصطفاء الحق للشخص أو للمكان أو للزمان هو لمصلحة بقية الناس أو الأمكنة أو الأزمنة، لماذا؟ لأن أحدا من الخلق ليس ابنا لله، وليس هناك مكان أولى بمكان عند الله، ولكن الله يصطفي زمانا على زمان، ومكانا على مكان، وإنسانا على إنسان ليشيع اصطفاء المُصطفى في كل ما اصطُفِيَ عليه، إذن فهل يجب على الناس أن يفرحوا بالمصطفى، أو لا يفرحوا به؟ إنّ عليهم أن يفرحوا به؛ لأنه جاء لمصلحتهم.

## السجود هو أعلى مرتبة من الخضوع

﴿يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾(١)

إنه أمر بالعبادة الخاشعة المستديمة لربها، فكأن الاصطفاءات هي من نعم الله عليك يا مريم، وتستحق منك القنوت ﴿وَٱسۡجُدِي﴾ أي بَالِغِي في الخشوع، والخضوع، بوضع الجبهة التي هي أشرف شيء في الإنسان على الأرض، لأن السجود هو أعلى مرتبة من الخضوع،

لكن أيعفيها هذا اللون من الخضوع مما يكون من الركوع لله مع الناس؟ لا، إنه الأمر الحق يصدر لمريم ﴿وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ ولا يعفيك من الركوع أنك فعلت الأمر الأعلى منه في الخضوع وهو السجود، بل عليك أن تركعي مع الراكعين.

## الرسول ﷺ لم يكن موجودا مع قوم مريم!!

﴿ذَٰلِكَ مِنۡ أَنۢبَآءِ ٱلۡغَيۡبِ نُوحِيهِ إِلَيۡكَۚ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يُلۡقُونَ أَقۡلَٰمَهُمۡ أَيُّهُمۡ يَكۡفُلُ مَرۡيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيۡهِمۡ إِذۡ يَخۡتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾(٢)

كلمة (نبأ) لا تأتي إلاّ في الخبر العظيم، والغيب هو ما غاب عن الحس، والنبأ الذي أخبر الله به رسوله حدث من قبل بعث الرسول بما لا يقل عن ستة

---

(١) [آل عمران: ٤٣].

(٢) [آل عمران: ٤٤].

قرون، قد يقول قائل: لعل الرسول قد قرأها أو سمعها، ومحمد ليس بقارئ، ولم يجلس إلى معلم، ولم يستمع منه، إذن فلم يكن من سبيل لمعرفة رسول الله بهذا النبأ إلا بالوحي، لذلك قال الحق سبحانه: ﴿نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾، هكذا يخبرنا الله ان الرسول تلقى هذا النبأ بالوحي، فلم يقرأه، ولم يشاهده، ونحن نعرف أن خصوم رسول الله شهدوا أنه لم يقرأ ولم يستمع من معلم، ولم يكن موجودا مع قوم مريم حين ألقوا أقلامهم.

## القرعة؛ ترك المسألة إلى قدر الله

قوله تعالى: ﴿إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَامَهُمْ﴾ والقلم: يُطلق على القلم الذي نكتب به، أو يطلق القلم على القداح التي كانوا يقترعون بها إذا اختلفوا على شيء، ونسميها نحن القرعة، ولذلك فنحن أيضا نُجري القرعة فنضع لكل واحد ورقة، إذن فلا هوى لأحد في إجراء قسمة عن طريق القرعة، وبذلك نكون قد تركنا المسألة إلى قدر الله، لأن الورقة لا هوى لها، أين تم إلقاء هذه الأقلام؟ قيل: إنها ألقيت في البحر فإذا ما طاش القلم أو غرقت كل الأقلام وطفا قلم واحد يكون صاحبه هو الفائز، ولا بد أنهم اتفقوا على علامة ما.

## ماذا يقصد الحق بقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾

﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾﴾(١)

البشارة لا تكون إلا بخبر عظيم مفرح، وقد يتساءل البعض؟ ماذا يقصد الله تعالى بقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ ؟ والإجابة هي: أن الحق سبحانه يزاول سلطانه في ملكه بالكلمة لا بالعلاج، فإذا أراد أمرا فإنه يقول له ﴿كُن فَيَكُونُ ﴿٦٨﴾﴾، هكذا نفهم معنى بشارة الله لمريم ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ ويقول الحق: ﴿ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾، إنها ثلاثة أسماء، ﴿ٱلْمَسِيحُ﴾ هو اللقب، ﴿عِيسَى﴾ هو الاسم، و﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ هو الكنية، ويقول عنه الله: ﴿وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ ونحن في حياتنا نستعمل كلمة فلان وجيه من وجهاء القوم، فالوجيه هو الذي يأخذ سمة وتميزا بحيث يستحي الناس أن يردّوه إن سأل، وهناك إنسان آخر قد يسألك أو يسأل الناس، فلا يبالي به أحد.

## معجزة!!

﴿وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾﴾(٢)

---

(١) [آل عمران: ٤٥].

(٢) [آل عمران: ٤٦].

نفهم من هذه الآية سرّ وجود آية المعجزة التي وهبها له الله وهو طفل في المهد، لأن المسألة تعلقت بعِرض أمه وكرامتها وعفّتها، فكان من الواجب أن تأتي آية لتمحو عجبا من الناس حين يرونها تلد بدون أب، وهذه المسألة لم نجد لها وجودا، إن كلام طفل في المهد لما كان أمرا عجيبا كان لا بد أنّه سيكون محل حفظ وتداول بين الناس، ولن يكتفي الناس برواية واقعة كلامه في المهد فقط، بل سيحفظون ما قاله، ويرددون قوله؛ لأن الكلمة التي نطق بها أول ما نطق: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾، فأخفوا هم هذه المسألة كلها.

## من أين أتت بهذا القول؟

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾[1]

لو أنها سكتت عند قولها: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ﴾ لكان أمرا معقولا في تساؤلها، ولكن إضافتها ﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ تثير سؤالا، من أين أتت بهذا القول؟ هل قال لها أحد؟ إن الملائكة لم تخبرها بذلك، إنها فطرة وفطنة المهيأة والمعدة للتلقي عن الله.

(١) [آل عمران: ٤٧].

## ما المقصود بالكتاب؟

﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٤٨﴾﴾[(١)]

لا بد لنا أن نسأل ما المقصود بالكتاب؟ هل كان المقصود بذلك الكتاب الكتب المتقدمة، كالزبور، والصحف الأولى، كصحف إبراهيم عليه السلام؟ وبعد ذلك توراة موسى الذي جاء عيسى مكملا لها، ومن ثمّ الانجيل؟ إن ذلك قد يكون صحيحا، وقيل: معنى ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ أي القدرة على الكتابة.

## ثم تتسامى المعجزة

﴿وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّىٓ أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾[(٢)]

إن كلمة رسول تحتاج إلى علامة، فليس لأي أحد أن يقول: أنا رسول من عند الله، بل لا بد أن يقدم بين يدي دعواه معجزة تثبت أنه رسول من الله، والآية كما نعرف هي الأمر العجيب الذي خرج عن القوانين والنواميس لتثبت صدق الرسول في البلاغ، وما دامت المعجزة خارجة عن نواميس البشر، فالمخالف

---

(١) [آل عمران: ٤٨].

(٢) [آل عمران: ٤٩].

نقول له: أنت حين تكذّب أن حامل المعجزة رسول، فكيف تعلل أنه جاء بمعجزة خرجت عن الناموس؟ إذن فالمعجزة تُلزم المُنكر الذي يتحدى وتُفحمه، لأنه لا يستطيع أن يأتي بمثلها، وقوم عيسى كانوا مشهورين بالحكمة والطب، إذن فستجيء الآيات من جنس الحكمة والطب، ثم تتسامى المعجزة، لأن الذي يطبب جسما ويداويه لا يستطيع أن يعيد الميت إلى الحياة، ولذلك رقّى الله آية عيسى، إنه يشفي المرضى، ويحيي الموتى أيضا، وهذا إعجاز.

## فرق بين صنعة البشر وخلق اللّه

وقوله: ﴿أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ﴾ مأخوذة من الخلق، إنّ من يأخذ قطعة من الطين ويصنع منها أي شيء فهذا ليس خلقا، مثال ذلك الكوب أو الكأس من الزجاج الذي نشرب فيه حينما صنعه الصانع حينما أخذ الرمال وصهرها ووضع عليها موادا كيماوية ثم قام بتشكيلها على هيئة الكوب؟ إذن فالكوب لم تكن موجودة، ووجدت على تقدير أن تكون شكل الكوب، فهي خلق أُوجد على تقدير، فماذا عن خلق الله؟ إنه يخلق على تقدير، وفرق بين صنعة البشر حين يخلق، وبين صنعة الله حين يخلق، إن صنعة البشر حين تخلق، إنما تخلق من موجود، وحين يخلق الله فهو يخلق من عدم، أما الإنسان فيضع الأشياء بنظام يُحدث فيها تفاعلات.

**نضرب مثلا:**

وأيضا يعطي الله لخلقه سرا لا يستطيع البشر إعطاءه لصنعته، فالله يعطيه سر الحياة والحياة فيها نمو، وفيها تكاثر، لكن البشر يصنعون الكوب مثلا، فتظل كوبا، ولا يوجد تكاثر بين كوب ذكر وكوب أنثى فتظل على حالتها، ولا يستطيع أن يصنعها صغيرة ثم تكبر وتتطور وتمر بمراحل، كل إنسان يستطيع أن يصنع تمثالا كهيئة الطير، وقد تسأل، في ماذا ينفخ؟ أينفخ في الطير؟! أم في الطين؟! أم في الهيئة؟؟

## أمراض مستعصية في ذلك العصر

وقوله: ﴿وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ﴾ لماذا تعرّض عيسى ابن مريم لهذين المرضين؟ لأنها كانت الأمراض المستعصية في ذلك العصر، والأكمه هو الذي وُلد أعمى، والبرص، هو تشوّهات في لون الجلد، وبعد ذلك تنتشر بقع متناثرة في كافة الجسم بلون أبيض، مما يدل على أن لون الجلد له كيماويات في الجسم تُغذى هذا اللون، فإن مُنعت الكيماويات في الجسم صار أبرص، وتبين صدق هذا في أن العلم المعاصر قد عرف أن الملونات للجلد هي غدد خاصة توجد في الجسم، واسمها الغدد الملونة، فإن امتنعت الغدد الملونة من إعطاء الألوان، جاء البرص، وهو مرض صعب، لم يكن باستطاعتهم أن يداووه، وجاء لهم بآية هي إبراء ما كانوا عاجزين عنه.

## هذه المعجزة إنما هي سبق زمني!!

وبعض الناس في عصرنا يحاولون أن يقربوا بين المعجزة وعقول الناس، يقولون: إن هذه المعجزة إنما هي سبق زمني، بمعنى أنه من الممكن أن يتوصل الإنسان اليوم بالطب المتقدم إلى أن يكتشف علاجا لهذه الأمراض، لكن لهؤلاء نقول: لا، إن المعجزة تظل معجزة إلى أن تقوم الساعة، كيف؟ لنأخذ مثالا من طب العيون، عندما قالوا إن هناك علاجاً للعمى سنقوم بتركيب قرنية، إذن هناك عملية معقدة في وقت محدد، وجراحة دقيقة قد تستمر لساعات، ليس الأمر سهلا ويتم بسرعة، ويتم على الفور. أو أن نأخذ مثالا من طب الجلد لو قالوا: سنداوي البرص، واكتشفوا أنواعا مختلفة من العلاج تحاول أن تجعل الجلد على لون واحد، لكنه لا يستعيد لونه الأصلي، كما أن عيسى ابن مريم عليه السلام كان يبرئ بالكلمة والدعوة، ومهما تقدم العلم فلن يستطيع العلم أن يبرئ المرض بالكلمة والدعوة، إنما سيأخذون أشياء ويقومون بتحليل تلك الأشياء، وخلط الكيماويات وإجراء الجراحات، لذلك تظل المعجزة التي جاء بها عيسى ابن مريم عليه السلام معجزة.

## مسألة إحياء الموتى ليست مطلقة

وقوله سبحانه: ﴿وَأُحۡيِ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۖ﴾ ومسألة إحياء الموتى لم يأخذها عيسى هكذا على إطلاقها فيحيي كل ميت، وليست مطلقة، ذلك أنه نبي

ورسول من الله فلا يمكن أن يصادم قدر الله في الآجال، ولذلك قالوا إنه عندما أحيا سام بن نوح، أحياه حتى نطق بكلمة، ثم عاد سام إلى الموت من بعد ذلك. إن عيسى لم يكن ليجترئ ويصنع ذلك كله إلا بإذن الله، وجاءت كلمة ﴿بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ من عيسى وعلى لسانه كاعتراف منه بأن ذلك ليس من مهارته.

## عيسى ابن مريم؛ هل دخل كل بيت؟!

وقوله سبحانه على لسان عيسى: ﴿وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ﴾ لماذا؟ لأن كل إنسان يعلم جزئية من أحداثه الحياتية الخاصة، يكون هذا العلم خاصا به، وكل إنسان مثلا يأكل طعامه بألوان مختلفة يعرفها هو ولا يعرفها الآخرون، فيقول له عيسى ابن مريم ماذا أكل، وليس من المعقول أن يكون عيسى ابن مريم قد دخل كل بيت أو جاءت له أخبار عن كل بيت، وكذلك أمر الادّخار، وذلك حتى تنتفي شبهة أنه كان يشم رائحة الإنسان فيعرف لون الطعام الذي يأكله، لذلك كان الإخبار بما يدّخر كل واحد في بيته، فهذه مسألة توضّح بالجلاء التام أنها آية من إخبار من يعلم مغيبات الأمور. ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٤٩﴾﴾ إن هذه الآية عجيبة تثبت أن هناك قوة أعلى قاهرة هي قوة الله هي التي تعطيه هذه الأشياء، فإن كنتم مؤمنين بوجود قوة أعلى فعليكم تصديق الرسالة التي جاء بها عيسى ابن مريم، والذي يؤمن بالآية هو الذي يؤمن بوجود إله أعلى قادر.

## إذا كان عيسى مصدقا للتوراة، لماذا جاءت رسالته؟

﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ وَجِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٥٠﴾﴾[1]

قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا﴾ تعني أن ما جاء به عيسى بن مريم مطابق لما جاء في التوراة، ومعنى ما بين يديّ الإنسان هو الذي سبقه، أي الذي جاء من قبله وصار أمامه، وما دام عيسى ابن مريم جاء مصدقا لما بين يديه من التوراة في زمانه، وكانت التوراة موجودة، فلماذا جاءت رسالته إذن؟ إن عيسى سيأتي بأحكام جديدة، ويتضح ذلك في قوله تعالى على لسان عبده عيسى ابن مريم: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ۚ﴾ في التوراة.

## ما فائدة توالي نزول الكتب السماوية؟

قد يقول قائل: إذا كانت الكتب السماوية تأتي مصدقة بعضها بعضا، فما فائدة توالي نزول الكتب السماوية؟ والإجابة هي: أن فائدة الكتب السماوية اللاحقة أنها تذكّر من سها عن الكتب السابقة، هذا في المرتبة الأولى، وثانيا: تأتي الكتب السماوية بأشياء وأحكام تناسب التوقيتات الزمنية التي تنزل فيها هذه الكتب، ومن الطبيعي أننا جميعا نفهم أن العقائد لا تبديل فيها، وكذلك الأخبار والقصص، لكن التبديل يشمل بعضا من الأحكام.

---

(١) [آل عمران: ٥٠].

## إياك أن تفهم أن اللّه يحرّم الضار فقط

إن لله حكمة فيما يحلل وحكمة فيما يحرم، إنما إياك أن تفهم أن كل شيء يحرمه الله يكون ضارا؛ قد يحرّم الله أشياء لتأديب الخلق، أو ابتلاء لاختبار الخلق، ولا يصح أن تسأل عن الضرر فيها، وقد يعيش المؤمن دنياه ولم يُثبت له ضرر بعض ما حرم الله، فإن تساءل أحد: لماذا حرم الله ذلك؟ تقول له: من الذي قال لك إن الله حين يحرم فهو يحرم الشيء الضار فقط؟ إنه الحق سبحانه يحرم الضار ويحرم بعضا مما هو غير ضار تأديبا لهم على ارتكاب المعاصي، وصدّهم عن سبيل الله، كقوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾﴾[1].

## البشر جميعا مشتركون في العبودية لله

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٥١﴾﴾[2]

الرسول والمرسل إليهم جميعا مربوبون إلى إله واحد، وعيسى ابن مريم يُقرّ بعبوديته لله وكأنه يقول: وأنا لم أصنع ذلك لأكون سيدا عليكم، ولكن أنا وأنتم مشتركون في العبودية لله. ومعنى ﴿هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ أي أنه صراط ليس فيه اعوجاج، لأن الطريق إذ التوى انحرف عن الهدف، أنك إذا

---

(١) [النساء: ١٦٠] .

(٢) [آل عمران: ٥١].

نظرت على سبيل المثال إلى الدائرة، فستجد أن لها محيطا، ولها مركزا، ومركز الدائرة هو الذي نضع فيه (سنّ الفرجار) حتى نرسم الدائرة، وبعد ذلك تصل من المركز إلى المحيط بأنصاف أقطار، وكلما بعدنا عن المركز زاد الفرق، وكلما نقرب من المركز تتلاشى الفروق، فإذا ما كان الخلق جميعا يلتقون عند المركز الواحد فهذا يعني الاتفاق، لكن الاختلاف يحدث بين البشر كلما بعدوا عن المركز، ولذلك لا تجد للناس أهواء ولا نجد الناس شيعا إلا إذا ابتعدوا عن المركز الجامع لهم، والمركز الجامع لهم هو العبودية للإله الواحد، ففي هذا يجتمع البشر بلا هوى أو تفرق.

## البشر بين أمرين(افعل) و(لا تفعل)

والإنسان في الأحداث بين اثنين: عمل يشق عليه فيحب أن يجتنبه، وعمل يستهويه فيحب أن يقترب منه، والمنهج جاء من السماء ليقول للإنسان (افعل) و(لا تفعل)، إذن فهناك مشقة في أن يحمل الإنسان نفسه على أن يقوم بعمل ما من أعمال التكليف، ومشقة أخرى في أن يبتعد عن عمل نهى عنه التكليف، ومعظم الناس لا تلتفت إلى هذه الغاية؛ ولا يفهمونها حق الفهم، فيأتي أنصار الشر؛ ولا يعجبهم حمل نفوسهم على توجيهات خالقهم، إن أفكار الشر تلح على صاحبها فيتمرد على التكليف الإيماني، وأفكار الشر تحاول الاقتراب بصاحبها من فعل الأمور التي حرمها التكليف.

## الهدف هو الذي يحدد الحركة

ولذلك ينقسم الناس، لأنهم لم يحددوا هدفهم في الوجود بانسجامهم مع فطرتهم ومع الكون، وهكذا نرى أن الهدف هو الذي يحدد الحركة، فالذي يعتبر أن الحياة هي الهدف، فهو يريد أن يحقق لنفسه أكبر قدر من اللذة فيها، ويقبل على ما تشتهيه نفسه، أما الذي يعرف أن الهدف ليس هو الحياة، إنما الحياة مرحلة، نسأله ما الهدف إذن، فيقول: إنه لقاء الله والآخرة، وما دام الهدف هو أن تذهب إلى الآخرة لتلقى الله فلماذا يغرق في الحزن لأن له قريبا أو حبيبا قد انتقل إلى رحمة الله؟ هذا الإنسان يمكننا أن نسأله، لماذا تحزن وقد قصر الله عليه خطواته إلى الهدف؟ لا بد أنك حزين على نفسك لأنك مستوحش له، ولأنك كنت تأنس به، أما حزنك من أجله هو، فلا حزن، لأنه اقترب من الهدف ووصل إليه.

## نضرب مثالا

في حياتنا اليومية عندما يكون هدف جماعة أن تصل من القاهرة إلى الإسكندرية، نجد إنسانا ما يذهب إلى الإسكندرية ماشيا، لأنه لا يجد نقودا أو وسيلة توصله، وتجد آخر يذهب إليها راكبا حمارا، وثالثا يذهب إليها راكبا حصانا، ورابعا يصل إليها راكبا (أتوبيسا)، وخامسا يصل إليها بالطائرة، وكل ما حدث هو أن كل واحد في هذه الجماعة قد اقترب من الهدف بالوسيلة التي

توافرت له، وهكذا نجد إنسانا يذهب إلى الله ماشيا في سبعين عاما، وآخر يستدعيه الله فورا وهو طفل أو شاب، فلماذا تحزن عليه؟

## مثال آخر

إن لنا أن نحزن على الإنسان الذي لم يكن موفّقا في خدمة الهدف، أما الموفق في خدمة الهدف فلنا أن نفرح له، ونقول: إن الله قد قصّر عليه المسافة، وأغلبنا إن كان عنده ولد حبيب إلى قلبه وصغير ويفقده، فهو يغرق في الحزن قائلا: إنه لم ير الدنيا، لهذا الإنسان نقول: يا رجل إن الله جعل ابنك يقفز عن الخطايا ويتجاوزها، وأخذَه ربّه إلى الغاية بسرعة، فما الذي يحزنك؟

## كلّ شيء يأمر به الله اسمه عبادة

﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشۡهَدۡ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ۝٥٢﴾[1]

العبادة لا تقتصر على إقامة الأركان التعبدية في الدين من شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان وحج البيت، إن هذه هي أركان الإسلام، ويجب أن نفطن إلى أن العبادة في الدنيا هي كل حركة تؤدي إلى إسعاد الناس وإعمار الكون، لكن علينا أن نعرف أن كل

---

(١) [آل عمران: ٥٢].

شيء يأمر به الله اسمه عبادة، إذن فالعبادة منها ما يصل العبد بالمعبود ليأخذ الشحنة الإيمانية من خالقه.

## الظالم يعربد في الكون

وقول الحق: ﴿فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنۡهُمُ ٱلۡكُفۡرَ﴾ يدل على أن كل صاحب فكرة وكل صاحب مهمة لا بد أن يكون يقظ الأحاسيس، لأن صاحب الفكرة وخاصة الدينية يُخرج الناس من الظلمات إلى النور، وقد يقول قائل: لماذا يعيش الناس في الظلام ولا يتّجهون إلى النور من أول الأمر؟ وتكون الإجابة: إن هناك أناسا يستفيدون من وجود جموع الناس في الظلمات، لذلك يكون بينهم أناس ظالمون وأناس مظلومون، والظالم الذي يأخذ اغتصابا خيرَ الآخرين ويعربد في الكون يخاف من رجل الدعوة الذي ينهاه عن الظلم، ويدعوه إلى الهداية إلى منطق العقل، ومثل هذا الظالم عندما يسمع كلمة المنطق والدعوة إلى الإيمان لا يحبّ أن تُنطق هذه الكلمة، إنه يكره الكلمة والقائل لها.

## الدعوة تحتاج إلى معركة

عيسى ابن مريم أحس منهم الكفر، لقد كان مليئا باليقظة والانتباه، إنه يعلم أنه قد جاء برسالة من الله؛ وعندما أحس منهم الكفر، أراد أن ينتدب جماعة ليُعينوه على أمر الدعوة، ﴿قَالَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾؟ إن الدعوة تحتاج إلى

معركة، والمعركة تحتاج إلى تضحية، والتضحية تكون بالنفس والنفيس، لذلك لا بد أن يستثير ويحرك من يجد في نفسه العون على هذه المسألة، إنه لا يسأل عن أناس يدخلون في لواء الدعوة من أجل الغنيمة أو يدخلون من أجل الجاه أو غير ذلك، إنه يسأل عن أهل العزم.

## نور الوجه لا يُقصد به البشرة البيضاء

والحواريون مأخوذة من الحور، وهو شدة البياض، وهم جماعة أشرقت وجوههم بالإيمان، فكأنها مشرقة بالنور، ونور الوجه لا يُقصد به البشرة البيضاء، ولكن نور الوجه في المؤمن يكون بإشراقة الإيمان في النفس، فحتى لو كان المؤمن أسود اللون فإن له سمة على وجهه، كيف ولماذا؟ لأن الإنسان مكوّن من أجهزة، وما دامت الأجهزة منسجمة فإن النفس تكون مرتاحة، ولكن عندما تتضارب تكون السحنة مكفهرّة.

## حواري رسول الله

والنبي ﷺ سمى بعضا من صحابته حواري رسول الله، وهم الذين جعلهم رسول الله معه طوال الوقت، إنه الإيمان: وما الإيمان؟ إنه اطمئنان القلب إلى قضية ما، هذا هو الإيمان في عمومه، فلو لم أكن مؤمنا بأن الطريق الذي أسير فيه موصلٌ إلى غاية مطلوبة لي لما سرت فيه، مثال ذلك المسافر من القاهرة إلى دمياط، لو لم يعتقد صحة الطريق لما سلك هذا الطريق.

## كل رسول جاء بشيء من اللّه

﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٥٣﴾(١)

فهل يكون إعلانهم للإيمان، يعني إيمانهم بتشريعات رسالة سابقة، لا، إن الإيمان هنا مقصود به ما جاء به عيسى من عند الله؛ لأن كل رسول جاء بشيء من الله، فوراء مجيء رسول جديد أمر يريد الله إبلاغه للناس، ونحن نعلم أن العقائد لا تغيير فيها؛ وكذلك الأخبار؛ وكذلك القصص، ولكن الأحكام هي التي تتغير، فكأن إعلان الحواريين هو إعلان بالإيمان بما جاء سابقا على عيسى ابن مريم من عقائد وبما جاء به عيسى ابن مريم من أحكام وتشريعات.

## لا تظلوا في حضيض الأرض

وقولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ﴾ تدل على منهج مُنَزّل من أعلى إلى أدنى، ونحن حين نأخذ التشريع فنحن نأخذه من أعلى، ولذلك قلنا سابقا: إن الله حينما ينادي من آمن به ليتبع مناهج الإيمان يقول: تعالوا، أي ارتفعوا إلى مستوى التلقي من الإله وخذوا منه المنهج ولا تظلوا في حضيض الأرض، أي لا تتبعوا أهواء بعضكم وآراء بعضكم أو تشريع بعضكم، وما دام المؤمن يريد العلو في الإيمان، فليذهب بسلوكه في الأرض إلى منهج السماء. وقولهم: ﴿وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ﴾ إن المتبع عادة يقتنع بمن اتبعه، يكون ذلك بمحض إرادته

---

(١) [آل عمران: ٥٣].

ومحض اختياره. ﴿فَٱكۡتُبۡنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٨٣﴾ إنهم يحملون أمانة التبليغ عن الرسول، ويشهدون كما يشهد الرسل لأممهم، ولذلك فلن يأتي أنبياء أو رسل من بعد أمة محمد ﷺ.

## هناك مكرٌ غير سيء

﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾(١)

كلمة المكر مأخوذة من الشجر الذي يلف ويدور حول نفسه، والرجل الذي يلف ويدور هو الذي يمكر من أجل أن يستخلص من آخر حقيقة ما، فإن كان ذلك بغير قصد الضرر نسميه حيلة، ولذلك فالله يقول: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ﴾(٢). ومعنى ذلك أن هناك مكراً غير سيء لا يقصد منه إيقاع الضرر بأحد، فالله يعلم ما يبيّت أي إنسان، ولن يستطيع أحد أن يواجه إرادة الله وأمره، إذن فمكر الله لا قِبَل لأحد لمواجهته.

## أسماء الله وصفاته توقيفية

أما أسماء الله وصفاته فهي توقيفية، نزل بها جبريل على رسول الله ﷺ، فليس من أسماء الله مُخادع، أو ماكر، إياك أن تقول ذلك، لأن أسماء الله وصفاته

(١) [آل عمران: ٥٤].

(٢) [فاطر: ٤٣].

توقيفية، وجاء القول هنا بمكر الله كمقابل لفعل من البشر، ليدلهم على أنهم لا يستطيعون أن يخدعوا الله، ولا يستطيعون أن يمكروا بالله.

## نقف الآن عند كلمة ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾

﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾[1]

لما أحسّ عيسى من بني إسرائيل الكفر، والمكر، ومؤامرة للقتل، طمأن الله عيسى فقال: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾ ونريد أن نقف الآن عند كلمة ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾؛ نحن غالبا ما نأخذ معنى بعض الألفاظ من الغالب الشائع، ثم تموت المعاني الأخرى في اللفظ ويُروَّج المعنى الشائع، إن كلمة (التوفّي) نفهمها على أنها الموت، ولكن علينا هنا أن نرجع إلى أصل استعمال اللفظة، ألم يكن ربك الذي قال: ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ﴾ ؟ وهو القائل أيضا: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ﴾[2]. إذن ﴿يَتَوَفَّىٰكُم﴾ هنا بأيّ معنى؟ إنها بمعنى ينيمكم، فالنوم معنى من معاني التوفّي، لأن النوم غيب عن حسّ الحياة، ألم يقل الله في كتابه أيضا:

---

(١) [آل عمران: ٥٥].

(٢) [الأنعام: ٦٠].

﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلۡأَنفُسَ حِينَ مَوۡتِهَا وَٱلَّتِي لَمۡ تَمُتۡ فِي مَنَامِهَاۖ﴾(١). إن منطق القرآن الكريم بيّن لنا أن كلمة (التوفي) ليس معناها هو الموت فقط، ولكن لها معان أخرى.

## مسألة لا تضر ولا تنفع!

وحتى لا يقف أحد في أمر لا يستأهل وقفة، فالذي يعتقد أن عيسى عليه السلام قد رفعه الله إلى السماء ما الذي زاد عليه من أحكام دينه؟ والذي لا يعتقد أن عيسى عليه السلام قد رُفع، ما الذي نقص عليه من أحكام دينه، إن هذه القضية لا تؤثر في الأحكام المطلوبة للدين، لكن العقل قد يقف فيها؟ فيقول قائل: كيف يصعد إلى السماء؟ ويقول آخر: لقد توفاه الله،

وليعتقدها أي إنسان كما يريد، لأنها لا تؤثر في أحكام الدين، فلا يترك العقل في حيرة أمام مسألة لا تضر ولا تنفع.

## ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ يعني أخذتك من البشر تامّاً

وحينما نقول (أوفيتك حقك) يعني تماما، إذن، (فمتوفيك) تعني مرة تمام الشيء كاستيفاء المال، وتعني مرة النوم، وحين يقول الحق: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ﴾ ماذا يعني ذلك؟ إنه سبحانه يريد أن يقول: أريدك تماما، إني طالبك إليّ تاما من البشر،

---

(١) [الزمر: ٤٢].

سآتي بك في مكان تكون خالصا لي وحدى، لقد أخذتك من البشر تامّاً، ومعنى (تاما)، أي أن الروح في جسدك بكل مواصفاته.

## (الواو) لا تقتضي الترتيب في الحدث

أما قوله تعالى: ﴿وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ هذا القول مستقيما مع القول السابق: ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ وقد يقول قائل: لماذا نأخذ الوفاة بهذا المعنى؟ نقول: إنه تعالى كان قادرا على أن يقول: إني رافعك إليّ ثم أتوفاك بعد ذلك، ونقول أيضا: من الذي قال: إن (الواو) تقتضي الترتيب في الحدث؟ ألم يقل الحق سبحانه: ﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ۝٣٠﴾[1]. هل جاء العذاب قبل الإنذار أو بعدها؟ إن العذاب إنما يكون بعد الإنذار، إن (الواو) تفيد الجمع للحدثين فقط، على فرض أنك قد أخذت ﴿مُتَوَفِّيكَ﴾ أي (مميتك)، فمن الذي قال: إن (الواو) تقتضي الترتيب في الحدث؟ بمعنى أن الله يتوفى عيسى (أي ينيمه أو يستوفيه لنفسه) ثم يرفعه.

## ملحدون يشككون في نهاية عيسى!

ولنقف الآن وقفة عقلية لنواجه الملاحدة الذين يحاولون إشاعة التعب في الدنيا فنقول: يا عباقرة! أَقَبِلتم في بداية عيسى أن يوجد من غير أب على غير طريقة الخلق في الإيجاد والميلاد؟ سيقولون نعم، هنا نقول: إذا كنتم قد قبلتم بداية مولده بشيء

(١) [القمر: ١٦].

عجيب خارق للنواميس، فكيف تقفون في نهاية حياته إن كانت خارقة للنواميس؟ إن الذي جعلكم تقبلون العجيبة الأولى يمهّد لكم أن تقبلوا العجيبة الثانية.

## من هم الذين اتبعوه؟

إن الحق سبحانه يقول: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، إنه سبحانه يبلّغ عيسى إنني سأخذك تاما من البشر، ومطهرك من خبث هؤلاء ونجاستهم، وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة، من الذين اتبعوه؟ وعلى أي منهج يكونوا؟ ومن الذي جاء من بعد عيسى بمنهج من السماء؟ إن الذي يتبعك على غير المنهج الذي قلته لن يكون تبعا لك، ولكن الذي يأتي على المنهج الصحيح فهو الذي اتبعك، أنت قلت: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ وقد جاء محمد رسول الله ﷺ ليصحّح الوضع ويبلغ المنهج كما أراده الله.

## ظهور فوقية دليل وقوة

وليس المراد هنا من قوله تعالى ﴿فَوْقَ﴾ الغلبة والنصر، ولكنه الحجة والبرهان. إذن، فالفوقية هي فوقية ظهور دليل وقوة برهان، وفي موقع آخر من القرآن الكريم، يؤكد الحق ظهور الإسلام على كافة الأديان وهو الشاهد على ذلك: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾[1]. ومعنى ذلك أن الله قد أراد للإسلام أن يظهر على كل

---

(١) [الفتح: ٢٨].

الأديان، وقد يقول قائل: إن في العالم أديانا كثيرة، ولم يظهر عليها الإسلام، والموجودون من المسلمين في العالم الآن مليار وأكثر، بينما أضعاف ذلك من البشر على ديانات أخرى! نقول لمثل هذا القائل: إن الله أراد للإسلام أن يظهره إظهار حجة، لا من قِبَلِكم أنتم فقط ولكن من قِبلهم هم كذلك، والناس دائما حين يجتمعون ليشرّعوا القوانين وليحدّدوا مصالح بعضهم بعضا، يلجأون أخيرا إلى الإسلام، فلننظر إلى من يشرع من جنس تشريع الأرض، ولنسأل أرأيت تشريعا أرضيا ظلّ على حاله؟ لا، إن التشريع الأرضي يتم تعديله دائما.

## قانون البشرية دائما يتجه إلى الإسلام

ولنمسك بأي قانون بشرى معدل في أية قضية من قضايا الأرض، ولننظر إلى أي اتجاه يسير؟ إنه دائما يتجه إلى الإسلام، وإن لم يلتق مع الإسلام فإنه يقترب منه، وعندما قامت في أوروبا ضجّة على الطلاق في الإسلام، ما الذي حدث؟ جاء التشريع بالطلاق في إيطاليا في موقف تَحَدٍّ مع الفاتيكان، هل شرّعوا الطلاق لأن الإسلام أباح الطلاق؟ لا، إنما شرّعوه لأن أمور الحياة أخضعتهم إلى ضرورة تشريع الطلاق، فكأنهم أقاموا الدليل بخضوعهم لأمور الحياة على أن ما جاء به الإسلام كان حقا، بدليل أن أوروبا لجأت إلى تشريع الطلاق لا كمسلمين، ولكن لأن مصالح حياتهم لا تكتمل إلا به، وهل هناك ظهور وغلبة أكثر من الدليل الذي يأتي من الخصم؟

## وصلوا أخيرا إلى ما بدأ به الإسلام!

وفي الربا، الذي يريد البعض هنا أن يحلله، تجد أوروبا تحاول التخلص منه، لأنهم توصلوا بالتجربة إلى أن المال لا يؤدي وظيفته في الحياة إلا إذا انخفضت الفائدة إلى الصفر؟ أي أنهم عرفوا أن إلغاء الربا ضروري حتى يؤدي المال وظيفته الحقيقية في الحياة، والذي ألجأهم إلى الوصول إلى هذه الحقيقة هو أن فساد الحياة سببه الربا، لقد وصلوا أخيرا إلى ما بدأ به الإسلام منذ قرون، أتريد لدين الله غلبة وفوقية وظهورا أكثر من هذا؟

## الذي يتبع عيسى هو الذي يتبع منهج الله

ونتابع بالتأمل قول الله تعالى: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾، أي أن الحق جاعل الذين ساروا على المنهج الأصيل القادم من الله فوق الذين كفروا، فالذين يقولون فيك يا عيسى ابن مريم ما لا يقال من ألوهية، هل اتبعوك حقيقة؟ لا، لم يتبعوك، إن الذي يتبع عيسى هو الذي يتبع منهج الله الصحيح، إن عيسى ابن مريم رسول إلى بني إسرائيل، وديانات السماء لا تأتي لعصبيات الجنس أو القومية أو الأوطان، ولكن المنهج الصحيح هو الذي يربط الناس بعضهم ببعض، كيف؟ لأن أهل النبوة هم المؤمنون بها، فالذين اتبعوا المنهج الذي جاء به المسيح من عند الله ليس من يطلق على نفسه النسب للمسيح، ومن يطلق على نفسه أنه يهودي إن هذه أسماء فقط، إن المتبع

الحق هو من يتبع المنهج الصحيح المنزل من عند الله، والذي يصوّب منهج عيسى هو محمد رسول الله ﷺ وما نزل في القرآن: ﴿إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ﴾.

## الديانات الأخرى أكبر مساحة من رقعة الإسلام

هل تكون الفوقية هي فوقية مساحة جغرافية؟ لأن رقعة من الأرض التي تتبع الديانات الأخرى غير الإسلام أكبر مساحة من رقعة أرض المؤمنين بالإسلام؟ لا، فالفوقية تكون فوقية حجة ودليل، وقد يقول قائل: إن الدليل لا يلزم، نرد قائلين: كيف لا يلزم الدليل؟ ونحن نرى الذين لا يؤمنون به يدللون عليه، كيف يدللون عليه؟ إنهم يسيرون فيما يقنّنون من قوانين البشر إلى ما سبق إليه تقنين السماء، وما دام هنا في هذه الآية كلمة ﴿فَوْقَ﴾ وكلمة ﴿كَفَرُوٓاْ﴾ وهناك أتباع، إذن، فهناك قضية وخصومة، ولا بد من الفصل في هذه القضية، ويأتي الفصل ساعة ألا يوجد للإنسان تصرف إرادي لا على ذات نفسه ولا على سواه، يوم تشهد الألسنة والجلود، ولهذا يقول الحق تعالى: ﴿ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٥٥﴾ لتكون ثمرة الحكم هي ماذا؟ هل هناك تكليف بعد ذلك؟ لا، لكن ثمرة الحكم هي الجزاء، فلا بد لنا أن نرى ما هو الحكم الذي سوف يكون؟ وها هو الحكم الذي سوف يكون:

## عذاب الدنيا والآخرة

﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٥٦﴾[1]

عذاب الدنيا سيكون قبل الحكم، وكأن الله يقول لنا: لا تعتقدون أن تعذيبي إياهم في الدنيا يعفيهم من تعذيبي إياهم في الآخرة، لأن التعذيب في الدنيا فقط قد يصيب من آمن بي، أما من كفر بي، فإني أعذبه في الدنيا وأعذبه في الآخرة، وهذه هي الحصيلة بعد كل شيء، يقول الله عن هذا العذاب: ﴿عَذَابٗا شَدِيدٗا﴾ إنه عذاب شديد؛ لأن الحدث حين يقع لا بد أن تلحظ فيه القوة التي تناسب من أحدث، ولنضرب هذا المثل: إن الطفل قد يكسر شيئا في حدود قوته كطفل، والشاب قد يكسر شيئا مناسبا لقوته، إذن فالحديث يجب أن نأخذه قياسا بالنسبة لفاعله؛ فإذا كان الفاعل هو الله، فهل لأحد طاقة على عذاب الله؟ لا أحد يتصور ذلك.

## اطمئنوا أيها المؤمنون

﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾[2]

وما دام الذين كفروا سينالون العذاب الشديد من الله، فالذين آمنوا سينالون النعيم المقيم بإذن الله.

---

(١) [آل عمران: ٥٦].

(٢) [آل عمران: ٥٧].

## واقع ما رآه الذين عاصروا تلك الأحداث

﴿ذَٰلِكَ نَتۡلُوهُ عَلَيۡكَ مِنَ ٱلۡأٓيَٰتِ وَٱلذِّكۡرِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٥٨﴾[1]

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة لما سبق من الأحداث في شأن امرأة عمران، ومريم، وزكريا، ويحيى، وعيسى، وكان لكل واحد من هؤلاء قضية وآيات عجيبة يخرق فيها ناموس الكون، وقد نُقلت إلينا هذه العجائب من واقع ما رآه الذين عاصروا تلك الأحداث، وجاء الخبر اليقين بتلك العجائب في قرآن كله صدق، فاطمئنوا أيها المؤمنين إلى أن ما وصلكم عن طريق القرآن، إنما حكى واقعا، فما جاء به من أخبار عن تلك الآيات هو ما يطابق الواقع الذي عاصره الناس وحكوه.

## هل خلق اللّه عيسى ليعطي صورة للإله؟

أتباع عيسى عليه السلام يتفقون معنا أن الله سبحانه وتعالى غيب، ولكنهم يختلفون معنا فيقولون: إن الله أراد أن يؤنس البشر بصورة يتجلى لهم فيها بشرا، فجاء بعيسى عليه السلام ليتحقق لهم ذلك الأنس، ونقول لهم: سنبحث هذه المسألة بدون حساسية، وبدون عصبية، بل بالعقل، ونسأل: هل خلق الله عيسى ليعطي صورة للإله؟ إن عيسى كان طفلا، ثم كبر من بعد ذلك، فأي صورة من صورة المرحلية كانت تمثل الله؟ إن كانت صورة طفل فهل هي صورة الله؟ وإن كانت صورة كهل فهل هي صورة الله؟ إن لله صورة واحدة لا نراها ولا نعرف كنهها، فهو

---

(١) [آل عمران: ٥٨].

سبحانه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾، فأية صورة من الصور التي تقولون: إنها صورة الله؟

## إله في الأرض ثلاثون عاما؟!

ولنا أن نسأل: كم استغرق وجود عيسى على الأرض؟ والإجابة: ثلاثين عاما أو يزيد قليلا. وهكذا تكون فترة معرفة الناس بالصورة الإلهية محدودة بهذه السنوات الثلاثين طبقا لتصوركم، ولا بد ان نسأل: ما عمر الخلق البشرى كله؟ إن عمر البشرية هو ملايين السنين، فهل ترك الله خلقه السابقين الأولين بدون أن يبدي لهم صورته، ثم ترك خلقه الآخرين الذين قَدِموا إلى الحياة بعد وفاة عيسى وتمام مهمته، ثم رفعه، بدون أن يعطيهم صورة له؟ إن هذا تصور لإله ظالم، فلا يعقل أن يضنّ بصورته فلا يبقيها إلا ثلاثين عاما؟ إن هذا القول لا يقبله عقل.

## ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾

ثم إنهم يقولون: إن عيسى عليه السلام قد صُلب، وهم معذورون! والله تعالى قد عذرهم في ذلك، حين يقول: ﴿وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾(١). لقد جعل الله لهم عذرا في أن يقولوا: إنه قُتل أو صُلب؛ لأنه شُبّه لهم، وكان من الممكن أن يلتمسوا من الإسلام حلا لهذه المشكلة، لأن الإسلام جاء ليقول: لا، ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا

---

(١) [النساء: ١٥٧].

صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۚ﴾ لأن هذا القتل والصلب ينقض فكرتهم عن أنه إله أو ابن إله، لأن المصلوب لو كان إلها أو ابن إله، لكانت لديه القدرة ليدفع عن نفسه ويفتك بالمخلوق الذي خلقه، والإسلام عندما يقول: إن عيسى ابن مريم لم يصلب وقد كرّمه الله، وهكذا ترى أن الإسلام قد جاء ليصفّى العقائد كلها من عيوب التحريف التي قام بها المتّبعون لتلك الأديان.

## قالوا: إنه ابن اللّه

اليهود يقولون: كان إبراهيم يهوديا، والنصارى يقولون لا، كان إبراهيم نصرانيا، وأما الجدل بين النصارى وبين رسول الله، فسببه أنهم قد أرادوا ان يتكلموا في مسألة عيسى، وأراد الله أن يُصفّى القضية تصفية نهائية حتى لا تظل معلقة تلوكها الألسن، وتجعلها مثارا للفتن، فلما اجتمع نصارى نجران تحت لواء رؤسائهم، ومنهم قساوسة، فقال لهم ﷺ: ماذا تقولون في عيسى؟ قالوا: إنه ابن الله، فقال لهم الرسول: إن عيسى عليه السلام قال: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ﴾، وهو عبده ورسوله، وكلمته ألقاها إلى العذراء البتول، فغضبوا وقالوا للرسول ﷺ: هل رأيت إنسانا قط من غير أب؟ إن كنت قد رأيت مثل ذلك فأخبرنا به، وهنا نزلت هذه الآية:

## هنا جاء القول الفصل

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٖ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾[١]

هنا جاء القول الفصل بالحجة الأقوى، فإذا كان عيسى ﵇ قد جاء بدون أب، فإن آدم ﵇ قد جاء بدون أب وبدون أم، وقال لهم رسول الله ﷺ: تعلمون أني رسول الله وأنني نبيّ هذه الأمة، فقالوا: أَنْظِرنا غدا نتكلم في هذه المسائل، ودعاهم رسول الله إلى الإيمان فقالوا: لا.

## لا تكن أيها السامع من الشاكّين

﴿ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡمُمۡتَرِينَ ۝٦٠﴾[٢]

إنه الحق القادم من الربوبية، فلا تكن أيها السامع من الشاكّين في هذه المسألة، ومن أراد أن يأتي بحجة مضادة للحجة القادمة من الله، فلنا أن نحسمها بأن نقول كما قال الله تعالى:

---

(١) [آل عمران: ٥٩].

(٢) [آل عمران: ٦٠].

## آية المباهلة

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ ۝٦١﴾[1]

الطرفان مدعوّان ليوجّها الدعوة لأبنائهم ونسائهم، فالرسولﷺ مدعوّ لدعوة أبنائه ونسائه، ومن له الولاية عليهم، وبحضوره هو، وهم أيضا مدعوّون لدعوة أبنائهم ونسائهم وأنفسهم للابتهال، وقد يسأل سائل: لماذا تكون الدعوة للأبناء والنساء؟ والإجابة هي: أن الأبناء والنساء هم القرابة القريبة التي تهمّ كل إنسان، وإن لم يكن رسولا، إنهم بضعة من نفسه وأهله، والمباهلة: هي التضرع في الدعاء لاستنزال اللعنة على الكاذب، وعندما يقول الطرفان: يا رب لتُنزل لعنتك على الكذّاب منا، فهذا دعاء يحمل مطلق العدالة، فالإله الذي يستطيع أن يُنزل اللعنة هو الإله الحق، وهو سينزل اللعنة على من يشركون به، ولو كانت اللعنة تنزل من الآلهة المتعددة فسوف تنزل اللعنة على أتباع الإله الواحد!

## قالوا: لا، لن نستطيع المباهلة

ماذا فعل رسول الله ﷺ؟ وهل هو مستعد لهذا الأمر حقيقة، أو هو مجرد قول منه أراد به التهديد فقط؟ ووجد رسولهم أن رسول الله قد جاء ومعه الحسين

---

(١) [آل عمران: ٦١].

والحسن وفاطمة وعلي بن أبي طالب، لذلك قالوا: لا لن نستطيع المباهلة، والله ما باهل قوم نبيا إلا أُخِذوا، وحاولوا ترضية رسول الله، وقالوا: لنظل على ديننا ويظل محمد وأتباعه على دينه، لقد ظنوا ان الدعوة إلى المباهلة هي مجرد تهديد لن ينفّذه الرسول، لكن الرسول جاء ومعه أهله استعدادا للمباهلة، ولن يُقبِل على مثل هذا الموقف الا من عنده عميق الإيمان واليقين، أما الذي لا يملك يقيناً فلن يُقبل على المباهلة، بل لا بد ان يَرجع عنها، وقد رجعوا عن المباهلة، وقالوا للرسول ﷺ: لنتفق معا ألا تغزونا أو تخيفنا على أن نرسل لك الجزية.

## قصص حقّ وليس مجرد حكاية!

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلۡقَصَصُ ٱلۡحَقُّۚ وَمَا مِنۡ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ٦٢﴾[1]

إن ما يرويه الله لنا هو الحق المطلق، وليس مجرد حكاية أو قصة، أو مزج خيال بواقع، كما يحدث في روايات وقصص العصر الحديث، ذلك عندما أُخذت كلمة القصة في العرف الأدبي الحديث القادم من حضارة الغرب، إن القصة بشكلها الحديث المعروف إنما يلعب فيها الخيال دورا كبيرا، فإذا جاء القصص من الإله الواحد فلنطمئن إلى أنه لا يوجد إله آخر سيأتي بقصص أخرى، لكن هل اتعظ القوم الذين جادلوا؟ لا.

---

(١) [آل عمران: ٦٢].

## الله عَلِمَ أزلا أنهم لن يقبلوا المباهلة

﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُفۡسِدِينَ ٦٣﴾[١]

إن قوله ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ يدل على أن الله قد علم أزلا أنهم لن يقبلوا المباهلة، وهكذا حكموا على أنفسهم بأنهم المفسدون، فصدق الله سبحانه في قوله، ومع ذلك فقد أمر الله رسوله ﷺ أن يدعوهم إلى الدّين الكامل لأنهم مؤمنون بالإله، وبالسماء، وبالكتاب، لذلك يقول الله سبحانه:

## الشرك يكون على ماذا؟

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ ٦٤﴾[٢]

إنها دعوة إلى كلمة مستوية لا التواء فيها ﴿أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ وهذا أمر لا جدال فيه، ثم: ﴿وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ فالعقول السليمة ترفض كلمة الشرك؛ لأن الشرك يكون على ماذا؟ هل الشرك على خلق الكون؟ إن كل مخلوق أشركوه في الألوهية إنما جاء من بعد أن خلق الله الكون، أو يكون الشرك على

---

(١) [آل عمران: ٦٣].

(٢) [آل عمران: ٦٤].

إدارة هذا الكون؟ إذا كان هذا هو السبب في الشرك فهو أتفه من أن يكون سببا؛ لأن الله سبحانه قادر على إدارة هذا الكون، وأنزل منهجا إذا ما اتّبعه الإنسان صار الكون منسجما، إذن فأي شرك لا لزوم له.

## لا يمكن أن يكون يهوديا ولا نصرانيا

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوۡرَىٰةُ وَٱلۡإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ٦٥﴾[١]

الله تعالى يسألهم: لماذا يكون جدالكم في إبراهيم خليل الله؟ إن اليهود منكم ينسبون أنفسهم إلى موسى، والنصارى منكم ينسبون أنفسهم إلى عيسى، وإبراهيم عليه السلام لا يمكن أن يكون يهوديا كما يدعي اليهود، فاليهودية قد جاءت من بعد إبراهيم بقرون، والنصارى لا يمكنهم الادعاء بأن إبراهيم كان نصرانيا، لأن النصرانية قد جاءت من بعد إبراهيم عليه السلام بقرون أكثر! فَلِمَ المحاجة إذن؟

## تجادلون في كل شيء!!

﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٦٦﴾[٢]

---

(١) [آل عمران: ٦٥].

(٢) [آل عمران: ٦٦].

أي: لقد جادلتم فيما بقي عندكم من التوراة، وتريدون أن تأخذوا الجدل على أنه باب مفتوح، تجادلوا في كل شيء، وأنتم لا تعلمون حقيقة الأشياء!

## ﴿حَنِيفًا﴾ تعني الدين الصافي

﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾(١)

إبراهيم عليه السلام لم يكن يهوديا، لأن اليهودية جاءت من بعده، ولم يكن إبراهيم نصرانيا، لأن النصرانية جاءت من بعده، لكنه ﴿كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ ونحن نفهم أن كلمة ﴿حَنِيفًا﴾ تعني الدين الصافي القادم من الله، إن إبراهيم هو أبو الأنبياء، ولم تكن اليهودية قد حُرفت وبدلت، وكذلك النصرانية، لكان من المقبول أن يكون اليهود والنصارى على ملة إبراهيم؛ لأن الأديان لا تختلف في أصولها، ولكن قد تختلف في بعض التشريعات المناسبة للعصور.

## لا علاقة لإبراهيم بمن جاء من نسله

﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾(٢)

---

(١) [آل عمران: ٦٧].

(٢) [آل عمران: ٦٨].

كل رسول من الرسل السابقين إنما نزل لأمة محددة، فموسى أرسله الله إلى بني إسرائيل، وكذلك عيسى، فلما تغير بعضٌ من التشريع؛ تمت تصفية المنهج الإيماني بالرسالة الخاتمة، وهي رسالة محمد ﷺ، وهي عامة لكل البشر، وهكذا صارت أمة محمد ﷺ هي خاتمة الأمم الإسلامية؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: **«إنَّ مَثَلِي ومَثَلَ الأنْبِياءِ مِن قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فأحْسَنَهُ وأَجْمَلَهُ، إلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِن زاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ به، ويَعْجَبُونَ له، ويقولونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هذِه اللَّبِنَةُ؟ قالَ: فأنا اللَّبِنَةُ، وأنا خاتِمُ النَّبِيِّينَ»**[١]. ولذلك فأولى الناس بإبراهيم ليسوا من جاءوا من ذريته، بل إن أولى الناس بإبراهيم هم الذين اتبعوه، ونبينا محمد ﷺ قد اتبع إبراهيم عليه السلام، لذلك فلا علاقة لإبراهيم بمن جاء من نسله، ممن حرفوا المنهج.

## المنحرف يحتقر نفسه

﴿وَدَّت طَّآئِفَةٌ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَوۡ يُضِلُّونَكُمۡ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٦٩﴾[٢]

معنى ﴿وَدَّت﴾ هو تمنّت وأحبّت، ولماذا أحبّوا أن يُضلوا المؤمنين؟ لأن المنحرف وغير الملتزم حين يرى إنسانا آخر ملتزما، فإنه يحتقر نفسه ويقول بينه وبين نفسه حسدا للمؤمن: لماذا وكيف استطاع هذا الملتزم أن يَقْدِر على نفسه؟

(١) صحيح البخاري.

(٢) [آل عمران: ٦٩].

ويحاول المنحرف أن يأخذ الملتزم إلى جانب الانحراف، وعندما يفشل أو يعجز ولا يستطيع جذب الملتزم إلى الانحراف فهو يسخر منه، ويهزأ به، ويحاول أن يحتال عليه ليأخذه إلى جانب الانحراف. ألم يقل الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ۝٢٩ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ۝٣٠﴾[1]. وهذا ما يحدث الآن عندما يرى أهل الانحراف إنسانا مؤمنا ذا استقامة، فيسخرون منه بكلمات، أو يحاول النيل من إيمانه، وعندما يعود أهل الانحراف إلى أهلهم فهم يروون كيف سخروا من المؤمنين، وكأنهم يحققون السعادة لهؤلاء الأهل بحكايات السخرية من الإنسان المؤمن، ولكن ليس كل ما يودّه الإنسان يحدث، فالتمنّي هو أن يطلب الإنسان أمرا مستحيلا أو عسير المنال، هم يحبون ذلك ولكن لن يصلوا إلى ما يريدون، إنهم يتمنون إضلال المؤمنين، لكن هل يستطيعون الوصول إلى ذلك؟ لا.

## كيف يزداد هذا الإثم جُرماً؟

ونتساءل: كيف يحدث إضلال النفس؟ وتكون الإجابة هي: أن الضالّ الذي يعرف المنهج وينكره إنما يرتكب إثما، ويزداد هذا الإثم جُرماً بمحاولة الضالّ إضلال غيره، فهو لم يكتف بضلال ذاته بل يزداد ضلالا بمحاولته إضلال غيره، إنهم لا يشعرون بالكارثة التي سوف تأتي من هذا الضلال المركّب الذي

(١) [المطففين: ٢٩ - ٣٣].

سينالون عليه العقاب، ولو أنهم تعمّقوا قليلا في الفهم لتوقفوا عن إضلال غيرهم، ولو بحثوا عن اليقين الحق لتوقفوا عن ضلال أنفسهم.

## صفة رسول الله موجودة في آيات التوراة

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمۡ تَشۡهَدُونَ ۝٧٠﴾(١)

وهنا قد يسأل سائل: هل شهد أهل الكتاب الآيات العجيبة في زمن رسول الله؟ والإجابة هي: ألم يستفتح اليهود على من يقاتلونهم بمجيء نبي قادم؟ إنهم كانوا يدعون الله قائلين: إنا نسألك بحق النبيّ الأميّ الذي وعدتنا أن تخرجه لنا في آخر الزمان إلا تنصرنا عليهم، فكانوا يُنصرون على أعدائهم، فلما بُعث النبيّ ﷺ كفروا به بغيا وحسداً، كانوا يريدون الحكم والأهواء وأطماع الدنيا، وهذا عبد الله بن سلام الذي كان يهوديّاً فأسلم قد قال عن سيدنا رسول الله ﷺ: «**لقد عرفته حين رأيته كمعرفتي لابني ومعرفتي لمحمد أشد**»، إذن فمعرفتهم بنعت رسول الله ووصفه موجودة في آيات التوراة، ولقد شهدوا الآيات البينات، لكنهم أنكروا الآيات طمعا في الأهواء والأطماع وتحقيق الشهوات، كهؤلاء الذين باعوا صكوك الغفران، إن العذاب هو مصير هؤلاء الذين يحرّفون كلام الله ومنهجه.

---

(١) [آل عمران: ٧٠].

## أنكروا بشارة الكتب السماوية برسالة محمد

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾(١)

معنى ﴿تَلۡبِسُونَ﴾ هو إدخال شيء في شيء، إنهم يخلطون الحق بالباطل، فهذه الآية تتحدث عن محاولة من بعض أهل الكتاب إلباس الحقائق بالأكاذيب، وقد حدث ذلك عندما حرفوا التوراة والإنجيل وأدخلوا فيها ما لم يأت به موسى أو عيسى عليهما السلام، وكانت هذه هي محاولة ضمن محاولات أخرى، ثم جاءت أكبر هذه المحاولات بإنكارهم للبشارة برسول الله ﷺ، رغم أنها وردت في كتبهم السماوية، لقد أعلنوا الإيمان بموسى وعيسى وأنكروا بشارتها برسالة محمد ﷺ، وكان ذلك قمة إلباس الحقائق بالأكاذيب، وذلك لأنهم كانوا يعلمون أن الإسلام الذي جاء به محمد رسول الله هو الدين الصحيح، وكانوا إذا ما خلوا إلى أنفسهم عرفوا ذلك ولكنهم يجحدونه، قال الله تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗاۚ﴾(٢). ومع ذلك فهم يحاولون العثور على حيلة ليبتعد بها الناس عن الإسلام تماديا منهم في الكفر.

---

(١) [آل عمران: ٧١].

(٢) [النمل: ١٤].

## حرب نفسية على المسلمين!!

﴿وَقَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ءَامِنُوا۟ بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَجْهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكْفُرُوٓا۟ ءَاخِرَهُۥ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾﴾[١]

لقد أراد بعضٌ من أهل الكتاب أن يشككوا المسلمين في أمر دينهم، لذلك اصطنعوا تلك الحيلة، فالمؤمنون من العرب وقريش في ذلك الزمن كانوا أمّيين، وكانوا يعرفون أن أهل الكتاب على علم بمناهج السماء، فإذا ما آمن بعضٌ منهم برسالة رسول الله وجه النهار أي أوّله؛ ساعات الصباح والظهر، وكفروا به آخر النهار أي ساعات المساء، ففي هذا حيلة وخداع للمؤمنين، والهدف بطبيعة الحال هو إشاعة الشك وزراعة البلبلة في نفوس المؤمنين بخصوص هذا الدين، فقد يقول بعض من الأمّيين: لقد اختبر أهل الكتاب هذا الدين الجديد وهم أهل علم بمناهج السماء ولم يجدوه مطابقا، لقد أرادوا إشعال الحرب النفسية ضد المسلمين.

## لا تكشفوا سرّ هذه الخدعة!

﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾﴾[٢]

---

(١) [آل عمران: ٧٢].

(٢) [آل عمران: ٧٣].

طالب المتآمرون بعضهم بعضا أن يظل الأمر سرا، حتى لا يفقد المكر هدفه وهو بلبلة المسلمين من الأميين، ولذلك قال هؤلاء المتآمرون بعضهم لبعض: ﴿وَلَا تُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ﴾ أي لا تكشفوا سرّ هذه الخدعة إلا لمن هو على شاكلتكم، لكن الله يكشف هذا الأمر كله بنزول هذه الآية على رسول الله ﷺ وبلاغه إياها للمؤمنين، وبذلك فسد أمر تلك الحيلة، وارتدت الحرب النفسية إلى صدور من أشعلوها؛ لقد تواصى هؤلاء القوم من أهل الكتاب بأن يكتموا اتفاقهم على تمثيل الادعاء بالإيمان وجه النهار والكفر به في آخره، وألا يعلنوا ذلك إلا لأهل ديانتهم.

## دهاء يصل إلى حد الغباء!

لقد أخذهم الخوف؛ وأرادوا أن يحرموا الناس من الإيمان، وكان كل ذلك من قلة الفطنة التي تصل إلى حد الغباء، لماذا؟ لأنهم توهّموا أن الله لا يعرف باطن ما كتموا وظاهر ما فعلوا، إنهم تناسوا أن الله يعلم ما تخفي الصدور، وتطابق ذلك مع سابق فعلهم عندما خرجوا من مصر، وذهبوا إلى التيه أثناء عبور الصحراء، وادّعوا أن الله قال لموسى عليه السلام: علموا بيوتكم أيها الإسرائيليون، لأني سأنزل وأبطش بالبلاد كلها! وكأنهم لو لم يضعوا العلامات على البيوت فلن يعرفها الله! إنه كلام في منتهى الخيبة، إنه دهاء قد يصل إلى حدّ الغباء!

## ليس لأحد حقّ على اللّه

﴿يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤﴾[1]

إن أحدا ليس له حق على الله؛ فكل لحظة من لحظات الحياة هي فضل من الله، وهو سبحانه يعطي رحمته بالإيمان بمنهجه ورسالته لمن يشاء، وهو صاحب الفضل المطلق.

## إنصاف الإله

﴿۞وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ٧٥﴾[2]

قولهم: ﴿ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ﴾ يقصدون العرب، يقولون: ليس علينا في أكل أموالهم إثم ولا حرج; لأن الله أحلَّها لنا! إذا كان الله قد كشف للرسول بعضا من مكر أهل الكتاب، فذلك لا يعني أن هناك حملة على أهل الكتاب وكأنهم كلهم أهل سوء، لا، بل منهم مَنْ يتميز بالأمانة، وهذا القول إنما يؤكد إنصاف الإله المنصف، إن الله سبحانه يخاطب النفوس التي يعلمها، ويخاطب بها العالم كله بما

(١) [آل عمران: ٧٤].

(٢) [آل عمران: ٧٥].

فيه أهل الكتاب، وهم الذين يعرفون الآيات والعلامات التي تدل على مجيء رسالة محمد ﷺ، لو كان القرآن قد نزل بلعنتهم جميعا لقال الذين يفكرون منهم في الإيمان: نحن لسنا كذلك! ولا نستحق اللعنة! فلماذا يأتي محمد ويلعننا؟ لو كان مثل ذلك الحكم العام الشامل قد صدر لقال المنصفون من اليهود: نحن نفكر في أن نؤمن بالإسلام، فكيف يهاجمنا الإسلام هذه المهاجمة؟ لكن الإسلام جاء ليُنصف فيعطي كل ذي حق حقه.

## يعرفون الحكم الصحيح وينحرفون عنه

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ يعلمون ماذا؟ يعلمون أن قولهم كذب، فهم يعرفون الحكم الصحيح وينحرفون عنه، وياليتهم قالوا: إن ذلك الحكم من عند أنفسهم، لكنهم ينسبون ذلك إلى تعاليم دينهم، وتعاليم الدين مأخوذة من الله، وهم بذلك يفترون على الله كذبا في قولهم ﴿لَيْسَ عَلَيْنَا فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٌ﴾ بأنه خلق البشر ثم صنفهم صنفين: صنفاً تؤدّى الأمانة له، وصنفاً لا تُؤدى الأمانة له، وهكذا كذبوا على الله وعلموا أنهم كاذبون، وهذا هو الافتراء، وهم أيضا يعلمون العقوبة التي تلحق من يكذب على الله، ورغم ذلك كذبوا.

## إن لم تلتزم بالعهد كان إيمانك بلا قيمة

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٧٦﴾(١)

ما العهد هنا؟ وأي عهد؟ إنه العهد الإيماني الذي ارتضيناه لأنفسنا بأننا آمنا بالله وساعة تؤمن بالإله فمعنى إيمانك به هو حيثية قبولك لكل حكم يصدر منه سبحانه، وأن تلتزم بما يطلبه منك، وإن لم تلتزم بما يطلبه منك كان إيمانك بلا قيمة؛ لأن فائدة الإيمان هو الالتزام، ولذلك قلنا: إن الله ﷻ حينما يريد تشريع حكم ينادي أولا ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ كتب عليكم كذا، إن الحق سبحانه لا ينادي في التكليف كل الناس، إنما ينادي من آمن وكأن سبحانه يقول: أنا لا أطلب ممن لم يؤمن بي، إنما أطلب ممن آمن.

## لقد أحبّني الله، وسأفعل ما يحلو لي!!

وفي قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٧٦﴾ إن الإنسان قد يخطئ ويقول: لقد أحبني الله، وسأفعل من بعد ذلك ما يحلو لي!! ونحن نذكّر صاحب هذا القول بأن الله يحب العمل الصالح الذي يؤديه العبد بنية خالصة لله، وليس للذات أي قيمة، لذلك فإن الذي أوفى بعهده واتقى سيحبّ الله فيه التقوى، وإياك أن تفهم أن الحب من الله للعبد سيصبح حبا ذاتيا، لكنه حب لوجود

---

(١) [آل عمران: ٧٦].

الوصف فيه، فالجنس ليس له قيمة، إنما القيمة للعمل الصالح، وقد ضربنا المثل وقلنا: إن الله سبحانه حينما وعد نوحا عليه السلام بأن ينجيه من الغرق هو وأهله، ثم فوجئ نوح بأن ابنه من المغرقين، ماذا فعل نوح عليه السلام؟ لقد نادى ربه طالبا نجاة ابنه، ويعلمنا الله من خلال رده على نوح، أن أهل الأنبياء ليسوا من جاءوا من نسلهم، إنما أهل الأنبياء هم من جاءوا على منهجهم، لذلك قال الله لنوح عن ابنه: ﴿إِنَّهُۥ لَيۡسَ مِنۡ أَهۡلِكَۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيۡرُ صَٰلِحٖۖ﴾.

## كيف تشتري الثمن؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشۡتَرُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ وَأَيۡمَٰنِهِمۡ ثَمَنٗا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ لَا خَلَٰقَ لَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيۡهِمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمۡ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٧٧﴾[١]

هنا نسأل: متى يصبح الأمر شراء وبيعا؟ إن الشراء والبيع يحدث عندما نستبدل رزقا مباشرا برزق غير مباشر، ومثال ذلك عندما يشتري الإنسان رغيف خبز بخمسة قروش، إن هذا هو الشراء والبيع، لأن الخمسة قروش هي رزق غير مباشر النفعية؛ لأن النقود لا تشبعك ولا ترويك من عطشك، والرغيف هو رزق مباشر النفعية لأنه يشبعك ويدفع عنك الجوع، وعندما يحب الإنسان أن يشتري شيئا فإن الذي يدفعه في الشراء يسمى ثمنا، إذن

---

(١) [آل عمران: ٧٧].

فكيف يشتري الثمن؟ إن الله يوضح لنا أن الأثمان لا تكون مشتراة أبدا، إنما مُشترى بها، ولذلك تكون أول خيبة في صفقة الذين يشترون بعهد الله ثمنا قليلا، إنهم اشتروا الثمن، بينما الثمن لا يُشترى، فالذي يُشتري هو السلعة، ويا ليت الثمن الذي اشتروه ثمن له قيمة، لكنه ثمن قليل، إذن فأول خيبة في نفوس الناس الذين يستبدلون الهدى ويأخذون بدلا منه الضلالة، إنهم خاسرون، والمقصود هنا بعهد الله، هو العهد الذي أخذه الله على أهل الكتاب بأنهم إن أدركوا بعثة رسول الله ﷺ، فلا بد أن يعلنوا الإيمان به.

## يتظاهر أمام الناس أنه عصري أو متحضر!

وواقعة الحال التي نزلت فيها الآية، هي أن جماعة في عهد مجاعة دخلت على كعب بن الأشرف اليهودي يطلبون منه الطعام والكسوة، فقال لهم: هل تعلمون أن هذا الرجل رسول الله؟ قالوا نعم، قال: إنني هممت أن أطعمكم وأن أكسوكم لولا أنكم تؤمنون به، قالوا لكعب بن الأشرف: دعنا فترة لنراجع فيها أنفسنا، وعندما مرت الفترة، رجعوا وقالوا لكعب بن الأشرف: لقد قرأنا في كتبنا الموجودة لدينا خطأ، ومحمد ليس رسولا، فأعطاهم كعب القوت والكسوة، وهؤلاء هم الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، وهو الطعام والكسوة، وكل من يشتري بآيات الله ثمنا قليلا، فهو يطمس حكما من أحكام الله من أجل أن يتظاهر أمام الناس أنه عصري أو متحضر، أو أنه مساير لروح الزمان، فالذي يفعل مثل ذلك إنما يشتري بآيات الله ثمنا قليلا.

## كيف لا ينظر إليهم الله؟

ويضيف الحق ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ وَلَا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٧٧﴾ وقد يقول قائل: ألم يقل القرآن الكريم في موقع آخر، إن الله يقول للكافرين: ﴿قَالَ ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾[1]، فلماذا يقول الحق لهم مرة: ﴿ٱخْسَـُٔوا۟ فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ ۝١٠٨﴾، ومرة أخرى يقول الحق: ﴿وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ﴾؟ ونجيب على مثل هذا القول: إن الحق لا يكلمهم كلاما ينفعهم، أو أنه سبحانه يكلمهم بواسطة ملائكته، ولكن كيف لا ينظر إليهم الله؟ إننا في مجالنا البشرى نقول: فلان لا ينظر إلى فلان أي أنه لا يوجه عيونه إليه، وهكذا نفهم عدم نظر الله إليهم بأن الله يهملهم ولا يهتم بهم، ونأخذ الأمر أيضا في إطار: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾، إن ولي الأمر من البشر عندما يرغب في عقاب أحد رعاياه، لا ينظر إليه ويهمله، فما بالنا بإهمال الحق ﷻ؟!

## الحدث يختلف باختلاف فاعله

وفي قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٥﴾ لا بد أن نأخذ قوة الحدث بفاعل الحدث، ففي حياتنا العادية عندما يقال: صفع الطفلُ رجلا، نفهم بطبيعة الحال أن صفعة الطفل تختلف في قوتها عن صفعة الشاب، وكذلك صفعة الشاب تختلف

(١) [المؤمنون: ١٠٨].

عن صفعة بطل في الملاكمة، إذن فالحدث يختلف باختلاف فاعله قوة وضعفا، فإذا كان فاعل العذاب هو الله فلا بد أن يكون عذابا أليما لا يطاق.

## إنهم يعرفون أن ما يقولونه هو الكذب

﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٨﴾[1].

أي أنهم يلوون ألسنتهم بالكلام الصادر من الله ليحرفوه عن معانيه، أو يَلْوُون ألسنتهم عندما يريدون التعبير عن المعاني، وهكذا نرى أنهم يلوون ألسنتهم بكلام يدّعون أنه من المنهج المنزّل من عند الله، وهذا الكلام ليس من المنهج ولم ينزل من عند الله، إنّهم يفعلون ذلك لتقوية مركزهم والتنقيص من مكانة الإسلام والطعن في الرسولﷺ، إن الحق يوضح لنا ألا نعطي لهم فرصة لتحريف كلام الله، لقد فضحهم الله لنا، تماما كما أخذوا من قبل قول الله: ﴿وَقُولُواْ حِطَّةٌ﴾[2]. أي حطّ عنا ذنوبنا، وحرفوا هذا القول: وَقُولُواْ حِنطَّةٌ استهزاء بكلام الله، وهم قد فعلوا ذلك حتى نحسب هذا التحريف من الكتاب، وما هو من الكتاب، إنهم يدّعون على المنهج المنزل من السماء ما ليس فيه، يقول سبحانه:

---

(١) [آل عمران: ٧٨].

(٢) [الأعراف: ١٦١].

﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٨﴾ إنهم يعرفون أن ما يقولونه هو الكذب، فالصدق: هو مطابقة الكلام للواقع، والكذب: هو عدم مطابقة الكلام للواقع، إذن فقوله سبحانه: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٤﴾، أي وهم يعلمون أنه كذب، حتى لا نقول: إنهم نطقوا بذلك غفلة، لقد تعمدوا الكذب.

## لماذا جاءت هذه الآية؟

﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ۝٧٩﴾[1]

هناك بعض من الأزمنة يكون المنهج موجودا، ولكن حمل النفس على المنهج هو المفتقد، ومثال ذلك عصرنا الحاضر، المنهج موجود وكلنا نعلم ما الحلال وما الحرام، لكن خيبة هذا الزمان تأتي من ناحية عدم حمل أنفسنا على المنهج، لذلك فنحن نحتاج إلى أسوة سلوكية، ولابد لنا أن نؤكد أن من يهبه الله الحكمة في الدعوة لمنهج الله وتطبيق هذا المنهج، لن يضيف للمنهج شيئا، وبحكم صدقه مع الله فهو لن يدّعي أنه مبعوث من الله للناس، إنه يكتفي بالدعوة لله، لكن لماذا جاءت هذه الآية؟ لقد جاءت هذه الآية بعد جدال نصارى نجران مع رسول الله ﷺ في المدينة، وسألوا رسول الله ﷺ: بماذا تؤمن وتأمر؟ فأبلغهم

---

(١) [آل عمران: ٧٩].

رسول الله ﷺ بأوامر الإسلام ونواهيه، وأصول العبادة، ولأن تلك الجماعة كانوا من أهل الكتاب، بعضهم من نصارى نجران والبعض الآخر من يهود المدينة، وكانوا يزيّفون أوامر تعبدية ليست من عند الله، ويريدون من الناس طاعة هذه الأوامر، وما زيّفوه منها.

## إنسان يطلب من الناس أن يعبدوه؟!

فإذا ما جاء إنسان بأمر ليس من الله، وطلب من الناس أن يطيعوه فيه، فهذا معناه أن ذلك الإنسان يطلب أن يعبده الناس؛ لأن طاعة البشر في غير أوامر الله هي شرك بالله، وظنوا أن الرسول ﷺ يطلب منهم طاعتهم لأوامره هو، كما كانوا يطلبون من الناس بعد تحريفهم للمنهج وقالوا: أتريد أن نعبدك ونتخذك إلها؟ إنهم لم يفطنوا إلى الفارق بين رسولنا الأمين وبين رؤسائهم الذين خالفوا الأحكام واستبدلوها بغيرها، فالرسول ﷺ لم يطلب منهم طاعته لذاته هو، ولكنه قد طلب منهم الطاعة للمنهج الذي جاء به، واستنكر رسول الله ﷺ ما قالوه.

## ظنّوا باللّه ظنّ السوء

لقد بلغت بهم الغفلة والشرك أنهم ظنوا أن الله لم يختر رسولا أمينا على المنهج، وظنوا بالله ظن السوء، أو أنهم ظنوا أن الرسول سيحرف المنهج كما حرفوه هم، فتحولوا عن عبادة الله إلى عبادة من بعثه الله رسولا، إن الرسول ﷺ لم

يطلب السجود له من أحد، إن المطلوب هو التعظيم لرسول الله ﷺ، لا أن نعطي له أشياء لا تكون إلا لله، إن الله سبحانه يستدرك هنا لنفهم أنه ليس لأحد من البشر أن يقول: ﴿كُونُواْ عِبَادًا لِّي﴾ بعد أن أعطاه الله الكتاب والحكم والنبوة.

## معنى كلمة ﴿رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾

أما قوله: ﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ﴾ معناه: كونوا حكماء فقهاء علماء بالعلوم التي نزلت من الربّ، وكلمة (ربّاني) توضح المتولي للتربية وتدل على الولاية، أليس ربّان السفينة هو الذي يقود السفينة؟ ونقول: لأن الكلمة مأخوذة من كلمة ربّ، لا بد أن يكون صادرا ومنسوبا إلى الرب؛ أي أنه يأخذ من الله ولا يأخذ من أحد آخر أبدا.

## أرادوا أن يعظّموه وقالوا: نريد أن نسجد لك

﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ٨٠﴾[1]

أي أنه ليس لبشر آتاه الله الكتاب والحكم والنبوة أن يأمر الناس باتخاذ أيّا من المخلوقات أربابا، إن من اختصه الله بعلم وكتاب ونبوة لا يمكن أن يقول:

(١) [آل عمران: ٨٠].

اعبدوني، أو اعبدوا الملائكة، أو اعبدوا الأنبياء، لماذا؟ يجيب سبحانه: ﴿أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ ۝٨٠﴾، واقعة القضية كانت مع مسلمين، كأنهم عندما جاءوا وأرادوا أن يعظموا رسول الله ﷺ وقالوا: نحن نريد أن نعطيك وضعا في التعظيم أكثر من أي كائن، ونريد أن نسجد لك، كانوا يقصدون بذلك تعظيم الرسول ﷺ، ولو أن رسول الله وافقهم لكان معنى ذلك أنه يخرجهم عن الإسلام، ولا يتصور أن يصدر هذا عن رسول الله ﷺ أو عن غيره من الأنبياء عليهم السلام.

## أسباب بعث الله للرسل

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم مِّن كِتَٰبٖ وَحِكۡمَةٖ ثُمَّ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مُّصَدِّقٞ لِّمَا مَعَكُمۡ لَتُؤۡمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥۚ قَالَ ءَأَقۡرَرۡتُمۡ وَأَخَذۡتُمۡ عَلَىٰ ذَٰلِكُمۡ إِصۡرِيۖ قَالُوٓاْ أَقۡرَرۡنَاۚ قَالَ فَٱشۡهَدُواْ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ۝٨١﴾[1]

قوله: ﴿لَمَآ ءَاتَيۡتُكُم﴾ معناه: لَئِنْ آتيتكم، هذه الآية تجعلنا نتعرف على أسباب بعث الله لموكب الرسل، ونعرف جميعا أن المنهج الأول قد أنزله الله على آدم عليه السلام متضمنا كل ما يجعل الحياة تسير إلى انسجام، وبلّغ آدم أولاده هذا المنهج كما علمهم أمور حياتهم، تماما مثلما يعلم الأب أبناءه ما يخدم أمور حياتهم، والأبناء يبلغون أبناءهم، ويتواصل البلاغ من جيل إلى جيل كي يكتمل وصول المنهج للذرية.

---

(١) [آل عمران: ٨١].

## وماذا بعد؟

ولكن مع توالي الزمن، نجد أن بعضا من مطلوبات الدين يتم نسيانها، إن هذا دليل على أن الناس قد غفلت عن المنهج، وهكذا نرى أن الغفلة تتم على مراحل، نجد إنسانا يغفل عن جزئية ما، وتنبهه نفسه وتلومه على تركه لتلك الجزئية، ونسمي صاحب هذا الموقف بصاحب النفس اللوامة، وهناك إنسان آخر يستمرئ المخالفة للمنهج وتلحّ عليه نفسه بالمخالفة؛ إنه صاحب النفس الأمارة بالسوء، وتتوالى به دواعي ارتكاب السيئات، وماذا يحدث للمجتمع إذا صار افراده جميعا من أصحاب النفس الأمارة بالسوء؟ إن معنى ذلك أن الفساد قد طم، ولا بد من مجيء رسول جديد.

## التشريع مطلوب منك ومطلوب لك

إذن فعندما يشرّع لنا أمراً فهو يشرّعه لمصلحتنا؛ لذلك أنزل المنهج (افعل ولا تفعل)، فهو لا يريد أن يحدد حرية الحركة على الخلق إلا بما يحميهم، فعندما حرم الله السرقة على سبيل المثال، فالأمر شامل لكل البشر، كان في ذلك منع ملايين الأيدي أن تسرق من هذا الإنسان، وفي هذا حماية لكل البشر، فساعة تأخذ التشريع لا تأخذه على أنه مطلوب منك، ولكن خذه على أنه مطلوب منك ومطلوب لك أيضا، ومثال آخر، لقد حرم المنهج عليك أن تمدّ عينيك إلى محارم غيرك، وأنت واحد، وكففنا من أجلك ملايين الأبصار كيلا تمتد إلى

زوجتك وبناتك ومحارمك، ولذلك كان الله رحيما بنا لأن فريق الرسل قد تواصل واستمر في الكون منذ آدم، وإلى محمد ﷺ، والمنهج الذي جاء به كل هؤلاء الرسل لا تناقض فيه أبدا، لأن في هذا المنهج مصلحة للخلق، لذلك فلا يمكن أن يكون موكب رسول قد أتى ليناقض موكب رسول آخر.

## لماذا التناقض بين الأديان والله واحد؟

إننا نبرّئ الرسل من التناقض، كذلك فلنعلم أن أتباع الرسل هم الذين يريدون لأنفسهم أهواء وأطماعا يتحكمون بها في الدنيا، فالذين كانت لهم سلطة زمنية في دين كاليهودية أو النصرانية فعلوا ذلك. لما جاءت النصرانية قال أحبار اليهود: نحن لا نريد النصرانية لماذا؟ لأن السيطرة كانت في أيديهم، ولو أن هؤلاء الأحبار ظلوا باقين على ما أنزله الله عليهم من منهج لقَبَّلُوا يديّ أيّ رسول قادم دون اعتراض، وقالوا له: ساعدنا على أن نعمق فهمنا لمنهج الله. إذن فالخلاف لا يحدث إلا حين توجد أهواء لها نفوذ وأهواء، وموكب الرسالات من يوم أن خلق الله الإنسان هو منهج متساند لا متعاند.

## قالوا: لو كانت هذه الأديان حقا لاتّفقوا!!

جاء الدين الإسلامي مصدقا لما سبقه في العقائد والأخبار والقصص، وإن اختلف في التشريعات التي تناسب زمنا ولا تناسب زمنا آخر، فكأن الله تعالى أراد أن يعصم البشرية من العصبية الهوجاء العمياء التي تنشأ من إتباع رسول

لتقف سدا حائلا أمام رسول آخر؛ فالله حين أرسل كل رسول أخذ منه الميثاق بأن يكون على استعداد هو والمؤمنون معه لتصديق كل رسول يأتي معاصرا، وأن يؤمنوا به، لماذا؟ لأن الله سبحانه يريد من مواكب الرسل ألا يكون بعضهم لبعض عدوّا، بل عليهم أن يواجهوا أعداء قضية الدين كلها، فالذي يجعل الإلحاد متفشّيا في هذا العصر هو أن المنسوبين إلى الأديان السماوية مختلفون، وربما كانت العداوة بينهم وبين بعض أقوى من العداوة بينهم وبين الملحدين، وهذا الاختلاف يعطي المجال للملحدين فيقولون: لو كانت هذه الأديان حقا لاتفقوا وما اختلفوا!

## لو عمل أتباع كل نبيّ بهذا العهد؟!

الله سبحانه يقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ وهذا يعني أنه سبحانه قد أخذ الميثاق على كل نبي ساعة أرسله أنه قد آتاه الكتاب والحكمة، وإنه إذا جاءكم رسول مصدق لهذا الكتاب وتلك الحكمة فعليكم الإيمان به، ولا يكفي إعلان الإيمان فقط، بل لا بد أن يكون النبي ومن معه في نصرة الرسول الجديد، نقول: ولو عمل أتباع كل نبيّ بهذا العهد والميثاق لما كان لهؤلاء الملحدين حجة.

## هل يشهدون على أنفسهم؟

ويضيف سبحانه: ﴿قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ۖ قَالُوٓاْ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُواْ﴾ والإقرار سيد الأدلة كما يقولون؛ والإصر هو العهد الشديد، فقال

الله سبحانه: ﴿فَأَشْهِدُوا﴾ هل يشهدون على أنفسهم؟ إن الرسول يشهد على أمته، وأن الأنبياء يشهد بعضهم لبعض؛ إذن قد يكون الشاهد نبيا، والمشهود له نبيٌّ آخر، والمشهود به أن يؤمنوا بالرسول القادم وينصروه، وقد يكون الشاهد النبي، والمشهود عليه هي أمته بأنه قد بلغها بالرسول القادم بمنهج السماء؛ ولنرتب الشهادات التي وردت في هذه الآية الكريمة: الأنبياء يشهد بعضهم على بعض، أو الأنبياء يشهدون على أممهم، ثم شهادة الله على الأنبياء.

## لا يصادم مؤمنٌ مؤمنا آخر

يجب أن يظل المنهج مترابطا فلا يتعصب قوم لنبيهم أو دينهم، وهذا ليكون موكب الرسالات موكبا متلاحما متساندا متعاضدا، فلا حجة من بعد ذلك لنبي ولا لتابع نبي أن يصادم دعوة أي رسول يأتي، ما دام مصدقا لما بين يديه. لقد أعلمنا الله أنه قد عرض شهادة الأنبياء على بعضهم، وشهادة الأنبياء على أممهم، وشهادة الله سبحانه على الجميع، وذلك أوثق العهود وآكدها، ولذلك يزداد موكب الإيمان تآزرا وتلاحما، فلا يأتي مؤمن برسالة من السماء ليصادم مؤمنا آخر برسالة من السماء، ولندَعَ المصادمة لمن لا يؤمنون برسالة السماء، وحين يتكاتف المؤمنون برسالة السماء يستطيعون الوقوف أمام هؤلاء الملاحدة.

## من تولّى، فماذا يكون وعيد اللّه له؟

﴿فَمَن تَوَلَّىٰ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٨٢﴾[1]

معنى ﴿تَوَلَّىٰ﴾ أي أعرض، كما نقول نحن في تعبيراتنا الشائعة: (أعطاني ظهره)، فالمراد مِنْ أَخْذ العهدِ أن يُقْبَل الناسُ على ذلك الدين، فالذي يُعرض ويعطي الإيمان الجديد ظهره يتوعده الله ويصفه بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ بعد ماذا؟ إنه التولي بعد أخذ العهد والميثاق على النبيين، وشهادة الأمم بعضها على بعضها، وشهادة الله على الجميع، إذن فلا عذر لأحد، فمن (أعطى ظهره) للنبي الجديد، فماذا يكون وعيد الله له؟ إن الله يصفهم بقوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٥٥﴾ والفسق هو الخروج عن منهج الطاعة.

## لماذا يتولى ويُعرض؟

نسأل: أيكون الفسق هنا مجرد خروج عن منهج طاعة الرسول؟ لكن هذا الخروج يوصف به كل عاصٍ، أي أن صاحبه مؤمن بمنهج وفَسَقَ جزئيا، إننا نقول عن كل عاصٍ: إنه فَسَقَ أي أنه مؤمن بمنهج وخرج عن جزئية من هذا المنهج، أما الفُسق الذي يتحدث عنه الحق هنا فهو (فُسق القمّة)؛ لأنه فسق عن ركب الإيمان كله، فإذا كان الله قد أخذ العهد، وشهد الأنبياء على أممهم، وشهدت الأمم بعضها على بعض، وشهد الله على الجميع، أَبعد ذلك تكون

(١) [آل عمران: ٨٢].

هناك فرصة لأن يتولى الإنسان ويعرض؟ ثم لماذا يتولى ويعرض؟ إنه يفعل ذلك لأنه يريد منهجا غير هذا المنهج الذي أنزله الله، فلو كان قد اقتنع بمنهج الله لأقبل على هذا المنهج، أما الذي لم يقتنع فإنه يُعرض عن المنهج ويطلب منهجا غيره، فأي منهج تريد يا من لا ترضى هذه الشهادة ولا هذا التوثيق؟ خصوصا وأنت تعلم أنه لا يوجد هناك إله آخر يرسل مناهج أخرى.

## من الذي جعل إنسانا يتبعه إنسان؟

لا يأتي منهج غير منهج الله إلا منهج من البشر لبعضهم بعضا، ولنا أن نقول لمن يتبع منهجا غير منهج الله: من الذي جعل إنسانا يتبعه إنسان؟ إن التابع لا بد أن يبحث عمن يتبعه، ولا بد أن يكون الذي يتبعه أعلى منه، لكن أن يتبع إنسان إنسانا آخر في منهج من عنده فهذا لا يليق، وهو فُسق عن منهج الله؛ لأن المساوي لا يتبع مساوياً له أبدا، ومن فضل الله سبحانه أنه جعل المنهج من عنده للناس جميعا حتى لا يتبع إنسان إنسانا آخر، لماذا؟ حتى لا يكون هوى إنسان مسيطرا على مقدرات إنسان آخر، والله سبحانه لا هوى له، إن كل إنسان يجب أن يكون هواه تابعا لله الذي خلق كل البشر.

## أفغير الله يبغون؟ نعم!

وما دام ليس هناك إله آخر، فما المنهج الذي يرتضيه الإنسان لنفسه؟ إن المنهج الذي يرتضيه الإنسان لنفسه لو لم يتبع منهج الله هو منهج من وضْع البشر،

والمنهج الذي يضعه البشر ينبع دائما من الهوى، وما دامت الأهواء قد وُجدت، فكل مشرِّع من البشر له هوى، وهذا يؤدي إلى فساد الكون؛ فإذا كانوا لا يرضون منهج الله، فأي فُسق هم فيه؟ إنه فسق عظيم؛ لأن الله قد أخذ عليهم العهد وعلى أنبيائهم ووثّق هذا العهد، أفغير الله يبغون؟ نعم، إنهم يبغون غير الله ومن هو ذلك الغير؟ أهو إله آخر؟ لا، فليس مع الله إله آخر، بل هم قد جعلوا الخلق مقابل الخالق.

## يريدون منهجا غير منهج اللّه

﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ۝٨٣﴾[1]

إنهم ما داموا غير مؤمنين برسالة محمد، فإن ذلك يكشف رغبتهم في أنهم يريدون منهجا غير منهج الله، وليس أمامهم إذن إلا مناهج البشر النابعة من الأطماع والأهواء، إن الله سبحانه يريد لخلقه أن يكونوا منطقيين مع أنفسهم، إنه الحق ﷻ قد أوضح لنا في منهجه، وقال لنا هذا المنهج: أنتم مستخلفون في الكون، وأنتم أيها الخلفاء في الأرض سادة هذا الكون، يخدمكم الكون كله، وانظروا إلى أجناس الوجود تجدوها في خدمتكم، إذن فأجناس الكون من حيوان ونبات وجماد ترضخ لإرادتك أيها الإنسان، فالنبات يخدم الحيوان

---

(١) [آل عمران: ٨٣].

والحيوان يخدمك أيها الإنسان، والجماد يخدم الجميع، والعناصر التي نأخذها نحن البشر من الجماد يستفيد منها أيضا النبات والحيوان، إذن فكل جنس في الوجود تراه بعينيك إنما يخدم الأجناس التي تعلوه.

## أنت في الكون لست وحدك؟

فإذا كان الجماد والنبات والحيوان في خدمة الإنسان، وأنت أيها الإنسان تخدم من؟ كان من واجب عقلك أيها الإنسان أن تفكر فيمن ترتبط به ارتباطا يناسب سيادتك على الأجناس الأخرى، كان لا بد أن تبحث عمن اعطاك السيادة على الأجناس الأخرى، هل أنت أيها الإنسان قد سخرت هذه الأجناس بقدرتك وقوتك؟ لا؛ فلست تملك قدرة ذاتية تتيح لك ذلك؟ أَمَا كان يجب عليك أن تفكّر ما هي القوة التي سخرت لك ما لا تقدر عليه، فخدمتك حين لا توجد لك قدرة، وخدمتك وأنت نائم تغطّ في نوم عميق؟ أما كان يجب عليك أن تفكر في هذا؟ إنك أيها الإنسان يجب أن تكون منطقيا مع نفسك، وأن تبحث لك عن سيد يناسب سيادتك على غيرك، والكون لا يوجد فيه سيدٌ عليك؛ لأن الكون محسّ، فإن جاءك من يحدثك بأن غيبا هو الإله يطلب أن تكون في خدمته فيجب أن تقول: إن هذا كلامي منطقي بالنسبة لوضعي في الكون، وبعد ذلك انظر إلى الكون، فأنت في الكون لست وحدك بل هناك أجناس أخرى، وكل جنس من الأجناس له قانونه وله مهمته،

للحيوان مهمة، وللنبات مهمة، وللجماد مهمة، فهل وجدت جنسا من الأجناس تمرّد على مهمته؟ لا.

## نماذج وأمثلة

انظر إلى الحصان مثلا، تستخدمه كأداة عليها وسادة من حرير وجلد، ولها لجام من فضة لتركبه، وتجد هذه الأداة في يوم آخر تحمل سماد الأرض من روث الحيوان، لقد أدت الخدمة لك راكبا، وأدت الخدمة لك ناقلا، هل تمرّدت عليك؟ أبدا، كل الأجناس تؤدّي مهمتها كما ينبغي، واستقام الأمر فيها، فبأي شيء استقام؟ إن الله الذي خلقها ذلّلها، قال لها: كوني في خدمة الإنسان مؤمنا كان أو كافرا. هل رأى أحدكم الشمس مرة قالت: لم يعد الخلق يعجبونني، ولن أشرق عليهم وسأحتجب اليوم؟! هل تمرد الهواء وقال: لا، إن الخلق لم تعد تستحق الأكسجين، لذلك لن أمكنهم من الانتفاع بي! هل رأينا المطر امتنع؟ هل استعصت على الإنسان أرض صالحة للزراعة؟ لا، لذلك يقول الحق: ﴿وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ﴾[1] . والله ﷻ يطلق بعضا من الحيوان فلا يُذلَّل ولا يُستأنس، وأنت أيها الإنسان ترى في هذا الكون بعضا من الحيوانات والمخلوقات شاردة مثل الثعابين والعقارب والحيوانات المتوحشة، ليدلنا الله على أن هذا الذي يخدمك لو لم يذلله الله لك لما استطعت أنت بقدرتك أن تذلله،

---

(١) [يس: ٧٣].

ولم نجد شيئا نافعا قد عصى الإنسان في الكون، لأن كل الخلق مسخر من الله لخدمة الإنسان، وهذا يشمل الخلق جميعا.

## من أين جاء الخلل في الكون؟

جاء منك أيها الإنسان، ولهذا فنحن لا نجد فسادا في الكون إلا وللإنسان دخلٌ فيه، أما مالا دخل للإنسان فيه فلا فساد فيه أبدا، ألسنا نشتكي من تلوث الهواء بالعوادم والمخلفات في المدن الصناعية؟ وعندما كان الوقود هو الحطب لم يكن هناك تلوث للبيئة، لماذا؟ لأن كل عنصر كان يؤدي مهمته، فجزء من احتراق الحطب كان يتحول إلى كربون، وجزء آخر يتحول إلى غازات، وتنصرف كل الأشياء إلى مساراتها، إن هذا يدلنا على أن الإنسان قد دخل إلى المخترعات المعاصرة بنصف علم، لقد قدّر الإنسان أنه يريد تخفيف الحركة، وينقل الأثقال ويختصر المسافات، لكنه لم ينظر إلى البيئة وتلوثها، فنشأ عادم يفسد البيئة، لكن لو كان عند الإنسان القدرة الشاملة على العلم لكان ساعة اختراع هذه المحركات قد بحث عن وضع معادلة لتعدل من فساد العادم.

## عادم السيارات ضار، وعادم خلق اللّه نافع

إننا نعرف أن عادم صناعتنا ضار كعادم المصانع والسيارات وغيرها، لكن عادم خلق الله في الحيوان نافع، فالإنسان يأخذ روث الحيوان ويصنع منه السماد ليزيد من خصوبة الأرض، والعجيب أن فضلات الحيوان التي تعطي خصوبة

للأرض لا نجد فيها شيئا يقزز، ولا نجد لها الرائحة التي توجد في فضلات الإنسان، لماذا؟ لأن الحيوان يأكل على قدر حاجته، إن الحيوان قد يجد أمامه أصنافا كثيرة، مثل الحشيش اليابس، وإذا شبع الحيوان امتنع عن الطعام، ولذلك لا يُخرج فضلات كريهة الرائحة، لكن الإنسان ينوع ويلون ويأكل فوق طاقته، ويحثّ شهيته على الانطلاق والانفلات، إن الحيوان لا اختيار له، ومحكوم بالغريزة، ويجد أمامه هذا الذي يؤكل وذلك الذي لا يؤكل فيختار بغريزته المناسب له، وإذا امتلأت البطن لا يأكل؛ لأنه محكوم بالغريزة، لكن الإنسان يتمتع بالاختيار، فأفسد عليه هذا الاختيار، وأبعده عن منهج الله.

## كيف نفهم قول الله بأن هناك من أسلم كرها؟

قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ نحن نفهمها كالآتي: إن الإنسان هو الذي انقسمت عنده المسائل، وفيه أمور تدخل في فعله ومراداته، وفيه أمور تحدث قهرا عنه، وتحدث له بلا إرادة ولا اختيار، فالإنسان يتنفس رغما عنه، دقات قلبه تعمل رغما عنه، فالإنسان يكون مختارا في الفعل الذي يقع منه، أما الفعل الذي يقع عليه أو فيه فلا دخل له فيه بالاختيار؛ إن أحدا منا لا يختار يوم ميلاده، أو يوم وفاته أو يوم إصابته بالمرض، والإنسان الذكي هو الذي يعرف ذلك.

## دعك من الغباء!!

ونقول للإنسان الذي لا يعرف أو يتجاهل ذلك: أيها الإنسان دعك من الغباء؛ إن هناك زوايا من حياتك أنت مجبر فيها على أن تكون مسلماً لله كرها، إنك تستسلم لله دون إرادتك في كثير من الأمور التي تقع عليك، وما دامت هناك زاوية من حياتك أيها الإنسان أنت مكره فيها، فلماذا تمردت في المسألة الاختيارية؟ كان يجب أن يأخذ الكافر هذه النقطة ويقول للكفر: (لا). فإن كان هناك من يريد ألا يستسلم، فليجرّب نفسه بألا يستسلم في المقهورات التي هو مقهور عليها، وهذا أمر مستحيل.

## يتم إرجاعهم إلى الله بالقهر!

قوله تعالى: ﴿وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ۝٨٣﴾ كلمة ﴿يَرۡجِعُونَ ۝٢٧﴾ تأتي مبنية للمفعول بمعنى أنهم مقهورون على الرجوع إلى الله، وفي هذه الآية نفهم أن الذين يبغون غير دين الله لا يرغبون أن يعودوا إلى الله، لذلك يتم إرجاعهم بالقهر، هل يُنكر أحد هؤلاء بأنه سيموت؟ حتى لو أنكروا البعث، هذا لا يعني عدم وجود واقع موجود بعد الموت، كمن ينكر حقيقة الجاذبية الأرضية وألقى نفسه من الطابق الستين، هل ينجو؟ هل إنكاره للجاذبية الأرضية ينفعه؟ وماذا سيكون مصيره إذا ألقى نفسه من الطابق الستين؟ وماذا سيكون مصيره إذا أنكر البعث ثم وجد ذلك حقيقة تنتظره؟ ماذا سيجد أمامه؟ الجواب

أمامهم: ﴿يَوۡمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ١٣﴾[(١)].

## الإسلام لم يأت ليهدم أديانا، ولكن ليُكمل أديانا

﴿قُلۡ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٨٤﴾[(٢)]

الله سبحانه يمزج الرسول والمؤمنين في الإيمان به كوحدة إيمانية، فكأن الأمة الإسلامية قد انصهرت في بعضها، وبذلك يتحقق الامتزاج والانسجام، وأدى مُؤدى يسع أمته كلها في قوله: ﴿قُلۡ ءَامَنَّا﴾ فتصبح الكلمة جاذبة لمعناها، ويصبح كل معنى عاشقا لكلمته، كان القياس أن يقول: (قل آمنت) عن نفسه، أو أن يقول: (قولوا آمَنَّا) عن المؤمنين. وعندما نقرأ قوله سبحانه: ﴿لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾ هذا القول يوضح أن الرسول ﷺ إنما جاء بمنهج يضم صحيح العقائد والقصص والأخبار، وهو يوافق ما جاء في موكب الرسالات من يوم أن خلق الله الأرض، وقد أخذ الله العهد على الأمم والأنبياء جميعا بأن يؤمنوا بالرسل السابقين، فهو ﷺ لم يأت ليهدم أديانا، ولكن ليكمل أديانا،

---

(١) [الطور: ١٣] .

(٢) [آل عمران: ٨٤].

وهكذا نرى النص القرآني: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾[1]. كأن الأديان السابقة بكل ما جاء فيها موجودة في الإسلام، وفوق كل ذلك جاء الإسلام بشرائع تناسب كل زمان ومكان، ولذلك قال الرسول ﷺ في حديثه الشريف: **«إنَّ مَثَلِي ومَثَلَ الأنْبِياءِ مِن قَبْلِي، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فأحْسَنَهُ وأَجْمَلَهُ، إلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِن زاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ به، ويَعْجَبُونَ له، ويقولونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هذِه اللَّبِنَةُ؟ قالَ: فأنا اللَّبِنَةُ، وأنا خاتِمُ النَّبِيِّينَ»**[2].

## كي يكون الإنسان منسجما مع نفسه

ومع قوله سبحانه: ﴿وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦﴾ يكون الإنسان منسجما مع نفسه في الإسلام لله، ويكوّن انسجاما مع الكون وما يحتويه من حيوان ونبات وجماد وغيرها في أنه أسلم خضوعا لله، وبذلك يصبح الكون بما فيه الإنسان المؤمن المسلم لله كله مسخَّراً لله، وما دام الكون بالإنسان قد صار مسخرا لله فلا تضاد في حركة لِتعاند حركة أخرى؛ لأن الذي يهيمن هذه الهيمْنة هو الذي وضع لكل إنسان في مجال حركته في الحياة قانونا يعصمه من أن يصطدم بغيره، وإذا كان البشر قد استطاعوا أن يضعوا لأنفسهم معايير تمنع التصادم في الحركة، تلك المعايير تكون مختلّة قد تؤدي إلى كوارث ومصائب.

---

(١) [المائدة: ٣].

(٢) صحيح البخاري.

نضرب مثلا للتوضيح:

وضع البشر معايير لإنهاء الحروب، فأرادوا إنهاء الحرب العالمية الثانية، واستخدموا القنبلة الذرية ما نتج عنها دمار هائل وشامل، دون أن يراعوا بذلك حقوق البشر ولا الحجر، نتج عنها مئات الملايين من الضحايا والمشردين، وما زالت آثارها الكونية والنفسية موجودة حتى البوم، بعد مرور عشرات السنين! ثم وضع البشر معايير للقانون الدولي، فاختلقوا حق النقد (الفيتو) للدول الخمس الكبرى في مجلس الأمن، ما نتج عنه ظلم وأحقاد وكراهية بين جميع دول وشعوب العالم، ثم وضعت الدول الصناعية الكبرى معايير التجارة العالمية، فاحتكرت مقدراتها واستعبدت شعوب الدول الأخرى لتكون أسواقا لمنتوجاتها، فامتصت أموالهم وثرواتهم، واستعمرت بلادهم دون تحريك جيش أو إطلاق صاروخ!

## لماذا تشذّ أنت أيها الإنسان عن الوجود؟

للنظر إلى السكك الحديدية، ألا يوجد موظف اسمه (المحوجلي)؟ ومعنى هذه الوظيفة هو أن القائم بها يقوم بتحويل القاطرة القادمة من طريق معين إلى مسار محدد حتى لا تدهم قاطرة أخرى جاءت من الطريق نفسه، إن ذلك من فعل الإنسان فيما صنع من قطارات ومواصلات، لقد صنع أيضا وسائل تمنع تصادمها، فما بالنا بالله سبحانه وهو الذي خلق الإنسان؟ إنه سبحانه قد وضع

المنهج حتى لا تصطدم حركة في الوجود بحركة أخرى، فتصادم حركة بحركة إنما ينشأ في الأمور الاختيارية، أو غفلة إنسان عن مهمته، كغفلة (المحولجي) عن عمله في تنظيم مرور القطارات، لكن تصادم حركة في الوجود بحركة أخرى في الوجود هو أمر مستحيل، ولا يحدث أبدا، وما دام الأمر في الإسلام هكذا، والوجود ينسجم مع نفسه، فلماذا تشذ أنت أيها الإنسان عن الوجود؟

## نضرب مثلا للتوضيح:

هل سمعنا أن جملين سارا في طريقين متعارضين واصطدم أحدهما بالآخر؟ لم يحدث ذلك أبدا، فالجمل يفادي نفسه وما يحمل من الجمل الآخر وما يحمله، لكننا نسمع عن تصادم سيارة مع سيارة، ذلك أن السيارة لا تسير بذاتها بل تسير بقيادة إنسان مختار، وهو الذي يصدم وهو الذي قد تأتي منه في غفلته الكوارث، وفي عصرنا الحديث نرى ارتقاء العالم ماديا بصورة عالية، بحيث يقع الحدث في أمريكا مثلا فنراه على شاشة التلفزيون فورا، ويركب الإنسان مركبا صاروخيا إلى الفضاء ولكن هل استراح العالم؟ لا، لقد ازداد العالم عناء، وكأنه يكدّ ذهنه ويرهق العلماء في معاملهم لابتكار أشياء تعطي للعالم مزيدا من القلق والاضطراب وتتصادم وتتعارض، وبذلك صار الكون لا يفرغ أبدا من حرب باردة أو ساخنة، كل ذلك إنما ينشأ من إدارة أمور العالم بأهواء البشر، بل كل إنسان يتبع في عمله هواه، لذلك نرى القلق والاضطراب.

## الهرب من المشكلة ليس حلاً

نرى الصرخات تملأ الدنيا من أهوال ومصائب، منها مثلا الكحول والمخدرات، هو إنسان غير راضٍ عن واقع حياته، فلا يريد المواجهة، إنما يحاول الهرب منها بالإدمان، ونقول لمثل هذا الإنسان: ليس هذا حلا للمشكلة؛ لأن الإنسان عندما تأتيه مشكلة فهو يحتاج عقلا على عقله ليواجه هذه المشكلة، وأنت بهذا الإدمان إنما تُضَيِّع عقلك، رغم أنك مطالب بأن تأتي بعقل آخر بجانب عقلك لتحل مشكلتك، فالهرب من المشكلة لا يحلها، إنما الهروب غباء وقلة فطنة، فالمشكلة زادت تعقيدا، ونقول للمجتمعات التي تشكو من مثل هذه البلايا: لو أخذتم شرائعكم من منهج الله لكان ذلك حماية لكم من مثل تلك الكوارث.

## لماذا يحدث كل ذلك؟

وهكذا نرى أن كل الابتكارات تُوجّه دائما إلى الشر أولا، فإذا لم يوجد لها ميدان شر فإننا نوجّهها إلى الخير، ويا ليته خير خالص لوجه الله، لا، إنه خير مجنّح ومنحرف عن الخير، لأن الذي لا يملك هذا النوع من الاختراعات كالشعوب النامية والعالم الثالث قد جعله المخترعون بوساطة هذه الاكتشافات والاختراعات مستعبدا ومقهورا لهم؛ إنهم جعلوا تقدمهم استعبادا وإذلالا لغيرهم وإن تظاهروا بغير ذلك، لماذا يحدث كل ذلك؟ لأننا لم نكن منطقيين مع

أنفسنا ولا مع واقع الأمور التي نحن فيها، فالطموحات العلمية التي لا حد لها لا يصح أن تسبب لنا كل هذا التعب، بل كان المفروض بعد الوصول إلى تحقيق هذه الطموحات أن نستريح، ولكن لِمَ لمْ يحدث هذا؟ لأن زمامنا نحن البشر بيد أهوائنا، والأهواء ليست هي اليد الأمينة، إن اليد الأمينة هي شرع الله الذي لم يشرع إلا لمصلحة الخلق، وما دام الإسلام يرسم طريق الأمان مع الخالق والنفس والكون الذي نحياه، بما فيه من الأجناس الأخرى، إذن فالدين عند الله هو الإسلام، وهذه هي النتيجة الحتمية.

## هل معنى تشريع العقوبة أن يحدث الذنب؟

﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٨٥﴾[١]

إن الغاية التي تسعد العالم كله هي دين الإسلام، فإن كان هناك من لا يعجبه تقنين السماء ويقول مندهشا: إن في هذا التقنين قسوة! إنك تقطع يد إنسان وتشوهه! نرد على مثل هذا القائل: إن سيارة تصدم سيارة تشوه عشرات من البشر داخل السيارتين، أو قطار يصاب بكارثة فيشوه مئات من البشر، ونحن عندما نبحث عن عدد الأيدي التي تم قطعها في تاريخ الإسلام كله، فلن نجدها إلا أقل كثيرا من عدد المشوهين بالحوادث، وأي ادعاء بالمحافظة على جمال الإنسان مسألة تثير السخرية؛ لأن تقنين قطع يد السارق استقامت به

---

(١) [آل عمران: ٨٥].

الحياة، بينما الحروب الناتجة عن الهوى شوهت وأفنت المئات والآلاف! هل معنى تشريع العقوبة أن يحدث الذنب؟ لا، إن تشريع العقوبة يعني تحذير الإنسان من أن يرتكب الذنب.

## أنا أكثر حنانا منك أيها الإله!!

وعندما نقول لإنسان: إن قتلت نفسا فسيتولى وليّ الأمر قتلك، أليس في ذلك حفاظٌ على حياته وحياة الآخرين؟ وحين يحافظ التشريع على حياة فرد واحد فهو يحافظ في الوقت نفسه على حياة كل إنسان، يقول الله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾(١). وهكذا يصبح هذا التقنين سليما غاية السلامة، إذن فقول الحق سبحانه: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ يدلنا على أن الذي يشرع تشريعا يناقض ما شرّعه الله فكأنه اتهم الله بالخطأ، وكأنه قد قال لله: أنا أكثر حنانا على الخلق منك أيها الإله؛ لأنه قد فاتتك هذه المسألة!؟ وحاشا لله أن يكون ذلك.

## كن عاقلا ولا تتمرد!

على الإنسان أن يلتزم الأدب مع خالقه، وحين تردّ أيها الإنسان كل شيء إلى ربك فأنت تستريح وتُريح، اللهم إلا أن يكون لك مصلحة في الانحراف،

(١) [البقرة: ١٧٩].

حينها تريد غير ما أراد الله، لذلك قال الحق: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ ونقول له: إنك ستأتي إلى ربك رضيت أو أبيت، فما حاجتك إلى هذا القول؟ كن عاقلا ولا تتمرد على أمر ربك، ويقول الحق: ﴿وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾، والخاسر مأخوذة من (الخسر) وهو ذهاب رأس المال وضياعه، والآخرة حياة ليس بعدها حياة، ومن الغباء أن يقول قائل: سوف أتعذب قليلا ثم تنتهي المسألة؟ لا، إن المسألة لا تنتهي؛ لأن الآخرة حياة مستمرة دائمة.

## يتساءل إنسان: اللّه لم يرد لي الهداية، فماذا أفعل؟

﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾[١]

الله سبحانه يدعونا أن نتعجب من قوم كفروا بعد الإيمان، إنهم لو لم يعلنوا الإيمان من قبل لقلنا: إنهم لم يذوقوا حلاوة الإيمان، لكن الذي آمن وذاق حلاوة الإيمان، كيف يقبل على نفسه أن يذهب إلى الكفر؟ إنه التمرد المركب. وقد يتساءل إنسان قائلا: مادام الله لم يهدهم، فما ذنبهم؟ نقول له: يجب أن تتذكر ما نكرره دائما، لتتضح القضية في الذهن لأنها قضية شائعة وخاصة عند غير الملتزمين، الذين يقول الواحد منهم: إن الله لم يرد هدايتي، فماذا أفعل أنا؟

---

(١) [آل عمران: ٨٦].

إن ذلك استدلال لتبرير الانحراف، إن الذي يقول: إن المعصية إنما أرادها الله مني، فما ذنبي؟ لماذا لا يقل : إن الطاعة من الله فلماذا لا أطيع؟ لماذا تغفل أيها العاصي عن الطاعة وثوابها؟ وتقف عند المعصية وتقول: إن الله قد كتب عليّ المعصية فلماذا يعذبني؟ كان يجب أن تقول أيضا: الله سبحانه كتب عليّ الطاعة وسيعطيني عليها ثوابا؟

## نضرب مثالا

إن الله يعطي عبده المؤمن حلاوة الطاعة، ويجعله مقبلا عليها بنشاط، إننا نكرر هذا القول حتى يتضح الأمر في أذهاننا جميعا، ولنذكره دائما، ونقول: مَن يعين الإنسان؟ إن الذي يعينه هو من آمن به، أما من كفر بالله، فلا يعينه الله. وسبق أن قلنا مثلا: إن إنسانا ما يسير في طريق، ثم التبس عليه الطريق الموصل للغاية، كالمسافر إلى الإسكندرية مثلا، وبعد ذلك وجد شرطيا واقفا فسأله: أين الطريق إلى الإسكندرية؟ فيشير الشرطي إلى الطريق الموصل إلى الإسكندرية قائلا للسائل: هذا هو الطريق الصحيح إلى الإسكندرية، إن الشرطي هنا قد دل هذا الإنسان، لكن عندما يقول السائل للشرطي: الحمد لله أنني وجدتك هنا لأنك سهلت لي الطريق، فهذا القول يأسر قلب الشرطي، فيزيد من إرشاداته للسائل ويوضح له بالتفصيل الدقيق كيف يصل إلى الطريق، وينبّهه إلى أي عقبة قد تعترضه، وإن زاد السائل في شكره للشرطي، فإن ذلك يأسر وجدان الشرطي

أكثر، ويتطوع ليركب مع السائل ليوصله إلى الطريق، شارحا له ما يجب أن يتجنبه من عقبات، وبذلك يكون الشرطي قد قدم كل المعونة لمن شكره.

## لنفترض أن الأمر بالعكس!

لكن لنفترض أن رجلا آخر سأل الشرطي عن الطريق، فأعرض الرجل وأهمل نصائح الشرطي، ففي مثل هذا الموقف يتجاهل الشرطي مثل هذا الرجل، وقد ضربنا هذا المثل للتقريب لا للتشبيه. إن الحق يدل أولا بهداية الدلالة، وقد هدى الله الناس جميعا، أي دلهم على المنهج، فمن ذهب إلى رحابه وآمن به، أعطاه الله هداية ثانية، وهي هداية المعونة والتيسير، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ ١٧﴾[1].

## كيف يعين اللّه من كفر به؟

إن الله سبحانه يعطيهم حلاوة الهداية وهي التقوى، كأن الحق يقول للعبد المؤمن: ما دمت قد أقبلت عليَّ فلك حلاوة الإيمان، أما الذي يكفر، والذي يظلم نفسه بالشرك، فالحق يمنع عنه هداية المعونة؛ لأنه قد رأى هداية الدلالة ولم يؤمن بها، إذن فالاستفهام في قوله تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾ هو تساؤل يراد به الإنكار والاستبعاد لا عن الهداية

---

(١) [محمد: ١٧].

الأولى وهي هداية الدلالة، ولكنه عن هداية المعونة، أي: كيف أعين من كفر بي؟

## من المقصود بهذا القول؟

والمقصود بهذا القول هو بعض من أهل الكتاب الذين جاءهم نعت الرسول ﷺ في كتبهم، حتى إن عبد الله بن سلام وهو منهم، يقول: لقد عرفت محمداً حين رأيته كمعرفتي لابني، ومعرفتي لمحمد أشدّ، والتعبير القرآني الدقيق لم يقل: يجدون وصفة مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل إنما يقول الحق: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِى ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ﴾[1]. كأن الذي يقرأ التوراة والإنجيل يمكنه أن يرى صورة النبي عليه السلام من دقة الوصف، لقد عرفته التوراة وعرفه الإنجيل معرفة مفصلة وشاملة، عرفوا الرسول ﷺ واعترفوا بذلك، وكانوا من قبل يستفتحون به على الذين كفروا، وقالوا: سيأتي نبي ونتبعه ونقتلكم معه قتل عاد وإرم، فماذا فعلوا؟ ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦ﴾[2]. إذن هم آمنوا بالرسول من قبل مجيئه، فلما جاء كفروا به!! ولهذا يقول سبحانه: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِى ٱللَّهُ قَوۡمًا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ﴾ فإذا كانوا قد صنعوا ذلك، فكيف يهديهم الله؟ إنهم ليس لديهم

(١) [الأعراف: ١٥٧].

(٢) [البقرة: ٨٩].

الاستعداد للهداية، ولم يقبلوا على الله بشيء من الحب، لذلك فهو سبحانه لا يعينهم على الهداية، ولو أقبلوا على الله لأعانهم قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ۝١٧﴾[1]. وهؤلاء لم يهتدوا، فلذلك تركهم الله بدون هداية المعونة، وهذا يوضح لنا معنى القول الحق: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ۝١٤٣﴾[2].

## أما الذي كفر فلا يهديه الله!

ما دام هناك من لم يؤمن بالله، فهل يمسك الله بيده ليهديه هداية المعونة؟ لا؛ لأنه إذا لم يؤمن بالأصل وهو هداية الدلالة، فكيف يمنحه الله هداية المعونة؟ وما دام لم يؤمن بالله أكان يصدق التيسيرات التي يمنحها الله له؟ لا؛ إنه لا يصدقها، ويجب أن تعلم أن هداية الدلالة هداية عامة لكل مخاطب خطابا تكليفيا، وهو الإنسان على إطلاقه، أما هداية المعونة فهي لمن أقبل مؤمنا بالله وكأن الله سبحانه يقول له: أنت آمنت بدلالتي فخذ معونتي، وستجد التيسير في كل الأمور، أما الذي كفر فلا يهديه الله، لذلك يكون القول الفصل: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ۝٣٧﴾ وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٥﴾ وقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ۝٥﴾. وبعد قوله

(١) [محمد: ١٧].

(٢) [النساء: ٨٨].

تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ وَشَهِدُوٓاْ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقّٞ وَجَآءَهُمُ ٱلۡبَيِّنَٰتُۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٨٦﴾[١].

## كيف يلعنهم الناس جميعا؟

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُمۡ أَنَّ عَلَيۡهِمۡ لَعۡنَةَ ٱللَّهِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلنَّاسِ أَجۡمَعِينَ ٨٧﴾[٢]

اللعنة: هي الطرد من الرحمة، وما داموا قد طُرِدوا من رحمة الله فالملائكة يرددون اللعنة، والمؤمنون من خلق الله يرددون اللعنة، وكذلك يلعنهم جميع الناس، وكيف يلعنهم كل الناس سواء أكانوا مؤمنين أم كفارا؟ كيف يلعنهم الكافرون؟ إن الكافر عندما يرى إنسانا يرتكب معصية ما فإنه ينزله من نظره ويحتقره وإن لم يكن مؤمنا، وهَب أن كافرا وجد إنسانا يخرج على المنهج ويفعل معصية ويرتكب جُرماً ألا يلعن الكافر مثل ذلك الإنسان؟ إنه يلعنه لأن الفطرة التي فطر الله الناس عليها ترفض ذلك ولا ترتضيه، لأنهم قد خرجوا عن منهج الله إلى اقتراف الآثام، وهكذا تصبح الملاعنة من الجميع، وهم مع ذلك خالدون في اللعنة.

---

(١) [آل عمران: ٨٦].

(٢) [آل عمران: ٨٧].

## الله يخلق للمعذّب إحساسا جديدا

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنۡهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَا هُمۡ يُنظَرُونَ ٨٨﴾(١)

قد يظن بعض الناس أن الكافر ما دام سيدخل النار ويحترق فسوف ينتهي أمره، لا، إنه يغفل قضية ويذكر قضية، إنه يتناسى قوله سبحانه: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتۡ جُلُودُهُم بَدَّلۡنَٰهُمۡ جُلُودًا غَيۡرَهَا لِيَذُوقُواْ ٱلۡعَذَابَۗ﴾(٢) دائما وأبدا، إن الله يخلق للمعذب إحساسا جديدا ليظل مستشعرا دائما للألم، وبعد ذلك يقول تعالى:

## تشريع التوبة بهدف إصلاح الكون

﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٥﴾(٣)

وقد أمر عباده أن يتوبوا إليه توبة نصوحاً أي توبة صادقة خالصة لا رجوع فيها، هذه التوبة تتسم بالإقلاع عن الذنب، والندم على ما فات، والعزم على عدم العودة للذنب مرة أخرى، ورد المظالم لأصحابها إن كانت هناك مظالم، عن أبي مُوسى عَبْدِاللَّهِ بنِ قَيْسٍ الأَشْعَرِيِّ ﷺ، عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**إِن الله تَعَالَى يبْسُطُ يدهُ بِاللَّيْلِ ليتُوب مُسيءُ النَّهارِ، وَيبْسُطُ يَدهُ بالنَّهَارِ ليَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ**

(١) [آل عمران: ٨٨].

(٢) [النساء: ٥٦].

(٣) [آل عمران: ٨٩].

**حتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِن مغْرِبِها»**[1] وهكذا أوجد الحق تشريع التوبة بهدف إصلاح الكون؛ لأن الله لو لم يشرّع التوبة لمن أذنب، فإن من غفل عن منهج الله ولو مرة واحدة، قد يصير في نظر نفسه ضائعا فاسداً، مرتكبا لكل الحماقات، فكأن الله بتشريع التوبة قد ضمن لصاحب الإسراف على نفسه في ذنب أن يعود إلى الله، كما يرحم المجتمع من شروره، إذن فتشريع التوبة إنما جاء لصالح الكون وصالح الإنسان.

## كيف يزداد الكفر؟

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّن تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلضَّآلُّونَ ۝٩٠﴾[2]

كيف يزداد الكفر؟ إنه قد كفر في ذاته، وهو لا يكتفي بخيبته، بل يحاول أن ينشر خيبته على الآخرين، وفي ذلك ازدياد في الكفر، وهذا القول قد نزل في بعض من اليهود الذين آمنوا بالبشارات التي تنبأت بمقدم عيسى عليه السلام، فلما جاء عيسى كفروا به، ولما جاء محمد ازدادوا كفرا، لقد كفروا بعيسى أولا، ثم ازدادوا كفرا بمحمد وادّعوا أنهم أبناء الله وأحباؤه.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) [آل عمران: ٩٠].

## الكفر هو الخيانة العظمى

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١﴾[1]

هب أن كافرا مات على الكفر وقد أنفق في الخير ملء الأرض ذهبا، نقول له: هذا الإنفاق لا ينفع، مع الخيانة العظمى وهي الكفر، فما دام غير مؤمن بإله، فهو قد أنفق هذا المال من أجل الناس، وصار منفقا على من لا يقدر على أن يجازيه بالخير في الآخرة، لذلك فليس له عند الله شيء، فالذي يعمل عملا، عليه ان يطلب أجرا ممن عمل له، فهل كان الله في بال ذلك الكافر؟ لا؛ لأنه مات على الكفر، لذلك لو أنفق ملء الأرض ذهبا فلن يقبل منه، لقد صنع ذلك الخير وفي باله الناس، والناس يعطونه حقه من الثناء، سواء كان مخترعا أو محسنا أو غير ذلك، إنه ينال أجره من الإنسانية، أو ينال جائزة (نوبل) وينطبق عليه قول الرسول ﷺ: **«فَعَلْتَ لِيُقَالَ:... فقدْ قِيل»**[2].

## عملوا للناس فأعطاهم الناس!

بعض الناس يقول: كيف لا ينال ثواب الآخرة من ملأوا الدنيا بالاكتشافات والابتكارات وخففوا بها آلام الإنسانية؟ ونقول: لقد أعطتهم الإنسانية

---

(١) [آل عمران: ٩١].

(٢) أخرجه مسلم.

وخلدت ذكراهم، وأقامت لهم التماثيل والمؤلفات والأعياد والجوائز، لقد عملوا للناس فأعطاهم الناس، فلا بخس في حقوقهم، ذلك أنهم لم يعملوا وفي بالهم الله.

## يُفاجأ بوجود الله!!

وقد صور الحق موقفهم التصوير الرائع فيقول جل سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩﴾[١]. إنه سراب ناتج عن تخيل الماء في الصحراء يتوهمه السائر العطشان في الصحراء نتيجة انعكاسات الضوء، فيظل السائر متجها إلى وهم الماء، إنه يصنع الأمل لنفسه، فإذا جاءه لم يجده شيئا، ويفاجأ بوجود الله، فيندم ويتلقى العذاب، وكذلك لن يقبل منه ملء الأرض ذهبا لو أنفقه في أي خير في الدنيا، وبعد ذلك لن يقبل الله منه ملء الأرض ذهبا، لو افتدى به نفسه في الآخرة، إن كان سيجد ملء الأرض ذهباً، وعلى فرض أنه قد وجد ملء الأرض ذهبا، فهل يجد من يقبل ذلك منه؟ لا، إنّه في الحقيقة لن يجد الذهب؛ لأنه في الآخرة لم يعد يملك شيئا.

---

(١) [النور: ٣٩].

## ما هي النفقة المقبولة؟

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٞ ۝٩٢﴾[1]

قوله تعالى: ﴿ٱلۡبِرَّ﴾: هو التقوى والطاعة، وقد يسأل سائل، لماذا أراد الله أن يجيء بحديث عن النفقة بعد الحديث عن تعذيب الكفار؟ نرى المقابل لمعاملة الحق للكفار وهو معاملة الحق للمؤمنين، فإن الآية تحريض على الإنفاق، وقوله:﴿مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾ إذن فهناك لون من النفقة يرفضه الله، مما يجعل الإنسان يسأل: ما هي إذن النفقة المقبولة؟ ولماذا لا ينال الإنسان البر إلا بعد ان ينفق مما يحب؟ إن طبيعة النفس الإنسانية هي الشحّ، وشحّ النفس يأتي لأن الإنسان لا يأمن أبدا أن يأتيه العجز من بعد القدرة، لذلك فإنه يحاول إن كان يملك شيئا أن يؤمّن العجز المتوهّم، فيحافظ على ما عنده من حاجات، ومن هنا جاءت الحيازة والملكية.

### مثال توضيحي:

لنفترض أن رجلا اشترى صندوقا من البرتقال، ودخل منزله، وعندما يحتاج ابن هذا الرجل لبرتقالة أو اثنتين فإنه يأخذ ما يريد، لكن لو أحضر الرجل قليلا من البرتقال فإن زوجة الرجل تكون حريصة على أن تقسم البرتقال بين

---

(١) [آل عمران: ٩٢].

الأولاد حتى لا تترك كل ابن يأخذ كما يريد بما قد يحرم الآخرين، وهكذا كان الأمر في بدء استخلاف الله للإنسان في الأرض، فمن أراد الأرض أخذ، ومن أراد أكل الثمار فهي أمامه، وعندما قلت مُعطيات الحاجات وذلك بضيق الأمكنة المُعطاة، بدأت في الظهور الرغبة في الملكية، وحيازة الأشياء.

## لماذا تقولون: إن الإبل وألبانها كانت محرمة؟

﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾﴾[1]

قد يحرم نبي الله يعقوب (إسرائيل) طعاما ما على نفسه كنذر، أو كوسيلة علاج، أو زهادة، لكن الله لم يحرم عليه شيئا، وما تحتجون به أيها اليهود إنما هو خصوصية لسيدنا يعقوب،

فلماذا تقولون: إن الإبل وألبانها كانت محرمة؟ لقد فعلوا ذلك لأنهم أرادوا أن يستروا على أنفسهم نقيصة لا يحبون أن يُفضحوا بها، وتلك هي النقيصة التي كشفها القرآن، عقابا لهم على ظلمهم لأنفسهم، وظلمهم لغيرهم، ومنها: ﴿كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ أي القدم التي تكون أصابعها مندمجة ومتصلة، ونجدها في الإبل والنعام والأوز والبط، وهذه كلها تسمى ذوات الظفر ﴿إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ﴾

(١) [آل عمران: ٩٣].

يعني الشحم الذي على الظهر، أما ﴿ٱلْحَوَايَآ﴾ فهي الدهون التي في الأمعاء الغليظة ﴿أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍۚ﴾. أي الشحم الذي يختلط بالعظم، إن التحريم هنا لم يكن لأن هذه الأشياء ضارة، ولكن التحريم إنما كان عقابا لهم على ظلمهم لأنفسهم وبغيهم على غيرهم، ذلك حتى لا يقول كل راغب في الانفلات من حكم الله ما الضرر في تحريم الأمر الفلاني؟ فالتحريم قد يأتي أدبا وتأديبا.

## نضرب مثالا

ونحن على المستوى البشرى يمنع الإنسان منا (المصروف) عن ابنه تأديبا، أو يمنع عنه الحلوى، لأن الابن خرج عن طاعة أمه، إذن كان التحريم جزاءً لهم وعقابا، وذلك هو الجزاء الذي أراده الله عليهم، إن التشريع السماوي حينما يأتي لظالم يخرج عن منهج الله، فكأنه يقول له ما هو القصد من خروجه عن منهج الله؟ ومثال ذلك القاتل يُحرم من ميراث من يقتله؟ لأن القاتل استعجل ما أخّره الله وأراد أن يجعل لنفسه المتعة بالميراث، فارتكب جريمة قتل، لذلك يأتي التشريع ليحرمة من الميراث، كأن التشريع يقول له: ما دامت نيتك هكذا فأنت محروم من الميراث، والتشريع حين وضع ذلك إنما حمى كل مورّث، وإلا لكان كل مورّث عرضة لتعدى ورثته عليه بالقتل.

## تهديد ووعيد

﴿فَمَنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٩٤﴾[١]

تحذير واضح بألا يختلق أحد على الله شيئا لم ينزل به رسول أو كتاب، فمن يفتري الكذب على الله لا يظلم إلا نفسه، ومَن كذب على الله من بعد قراءة التوراة ووضوح الحقيقة، فأولئك هم الظالمون القائلون على الله ما لم يقل، ظالمون لأنفسهم أولا حيث أدخلوها النار بسبب كذبهم على الله، وظالمون للناس حيث كذبوا عليهم بالتعاليم والأقوال التي نسبوها إلى الله كذبا وزورا .

## حين يتكلم اللّه فما الذي يحدث؟

﴿قُلۡ صَدَقَ ٱللَّهُۗ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٩٥﴾[٢]

قوله تعالى عن نفسه: ﴿صَدَقَ ٱللَّهُ﴾ نعم؛ لأن الصدق هو أن يطابق القول ما وقع فعلا، وحين يتكلم الله فما الذي يحدث؟ لا بد أن يوافق الواقع، فليس من المعقول أن يتكلم الله كلاما يأتي على لسان رسول، وبعد ذلك يأتي واقع الحياة فينقض قوله ويخالفه، نعرف أن ملة إبراهيم هي التي سمّت كل المؤمنين بالله المسلمين، وركْب الإيمان والرسل والأنبياء هو ركب واحد، و(الملة) تشمل المعتقدات والتشريعات العامة، كما أن الشريعة تشمل الأحكام،

---

(١) [آل عمران: ٩٤].

(٢) [آل عمران: ٩٥].

## معنى كلمة ﴿حَنِيفًاۚ﴾

وقد عرفنا أن كلمة ﴿حَنِيفًاۚ﴾ تعني الذي يسير على خط مستقيم، دون ميلان أو انحراف أو تعرجات، كما أن السماء لا تتدخل بإرسال الرسل إلا حين يعمّ الفساد، وما دام الفساد قد عمّ فإن الذي يميل منحرفا عن الفساد هو الذي اهتدى إلى الصراط المستقيم، فالحنيف معناه مائل عن الفساد.

## هل أهل الكتاب مشركون؟

وقد أوضح الله بعد ذلك دين إبراهيم عليه السلام: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٦٧﴾[1]. فكيف يمكن أن يختلقوا على إبراهيم أنه كان يهوديا أو نصرانيا؟ إنه كلام لا يصدر إلا عن قلة فطنة وغفلة بالغة، وعندما يقول سبحانه عن إبراهيم: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ١٢٣﴾ فهل أهل الكتاب مشركون؟ نعم؛ لأنهم حين يؤمنون بأن (عزير) ابن الله، وأن عيسى ابن الله، فهذا إشراك بالله، وأيضا كان العرب عبدة الأصنام يقولون: إنهم على ملة إبراهيم؛ ولهذا ينزّه الله سبحانه سيدنا إبراهيم عن ذلك، ما يدل على أن ملة إبراهيم وما جاء به موافقة لملة محمد وما جاء به.

---

(١) [آل عمران: ٦٧].

## الكعبة بيت الله باختيار الله، وهذا يكفي

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾[1]

هذا إيضاح أن الله قد جعل الكعبة هي أول بيت له يُتعبد فيه جنس البشر، وإبراهيم عليه السلام هو أول الأنبياء صلة بالبيت الحرام، وكان رفع قواعد البيت الحرام على يده بعد أن طُمر وسُتر بالطوفان في عهد نوح عليه السلام، وأكبر حادثة في تاريخ سيدنا إبراهيم، وهي حادثة بناء البيت الحرام، وعندما يتجه إنسان إلى الكعبة فقد يكون الشرق خلفه، ويكون الغرب أمامه، ويتجه إليها إنسان آخر فيتقابل وجهه مع وجه المتجه للكعبة، وهكذا يلتف البشر من الشرق والغرب والشمال والجنوب وكل الجهات الفرعية حول الكعبة، فيكون جميع الخلق متجه إلى الكعبة، وبذلك لا تكون هناك جهة أولى بالله من جهة أخرى، ولا نريد أن نقول بأنّ الكعبة مركز الأرض، وأن الأرض خلقت منها؛ لأن الشيء إذا كان مكوّرا فأيّ نقطة فيه تكون مركزا للجميع، لذلك فلنترك مثل هذا الكلام، لكن ألا يكفي أن يرجّحها أن الله قد اختارها؟ إن ذلك يكفي وزيادة، وبذلك ينتهي الأمر، إنها كذلك؛ لأنها بيت الله باختيار الله، وهذا يكفي.

---

(١) [آل عمران: ٩٦].

## هل آدم أول من عَمَرَ الأرض؟

وجود البيت الحرام كبيت لله لا يصطدم مع منطق الناس الذين لا يملكون إلا الثقافة الدينية الضحلة، فساعة أن يسمع الواحد منهم، أن هناك اكتشافا لحفريات من كذا مليون سنة فهو يتساءل قائلا: كيف وآدم لم يمر عليه سبعة آلاف سنة!؟ لنفترض أن هناك خمسة أجيال لإدريس عليه السلام وثلاثة أجيال لنوح عليه السلام، وأحد عشر جيلاً لإبراهيم عليه السلام وثلاثين جيلا لمحمد عليه السلام، وهكذا يكون الوجود البشري محددا بآلاف السنوات لا ملايينها، لهذا الإنسان نقول: وهل قال لك أحد: إن آدم أول من عَمَرَ الأرض؟ إن الدين لم يقل ذلك، لكن الدين قال: إن آدم هو أول هذا الجنس البشري، ولكنه ليس أول من سكن الأرض، لذلك فليقل العلماء: إن عمر هذه الأرض ملايين السنين، إذن فلا مجال لهذا البحث.

## أول بيت وضع في الأرض أم للناس؟

قام رجل إلى عليّ فقال: ألا تحدثني عن البيت (الكعبة): أهو أول بيت وضع في الأرض؟ قال: لا، والله سبحانه يقول ما يوضّح أن الجن قد سكنوا الأرض قبلنا: ﴿وَٱلْجَآنَّ خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ ٱلسَّمُومِ ۝٢٧﴾[1]. فكلام الله يؤكد أن الكعبة هي أول بيت وُضع للناس، أي للجنس البشري، ولذلك فلا داعي أن نتكلم

---

(١) [الحجر: ٢٧].

في الأشياء التي يقف فيها العقل حتى لا ندخل في متاهة، ولو كان الله قد أراد أن يعلمنا أن الكعبة هي أول بيت في الأرض لقال لنا: (إن أول بيت وضع في الأرض)، ولم يكن قد حدد الجنس الذي وضع البيت من أجله، ولكنه أول بيت وضع للناس، إنه جواب يتسع لكل ما يأتي به العلم.

## هناك أمور لها أول وليس لها آخر

وحين ننظر إلى القول الحق: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾ ما معنى ﴿أَوَّلُ﴾؟ إنه الابتداء، وهل كل ابتداء له انتهاء؟ لا، إن هناك أمورا لها أول وليس لها آخر، ومثال ذلك العدد واحد وما بعده ليس له آخر، فآخر التقديرات بعد المليون والمليار والترليون، كان الرقم الدشيليار، ثم بعد ذلك بعدة مراحل، نوصل علماء الرياضيات إلى رقم (جوجول بلكس- googolplex)، لو قمت بكتابة الرقم (١) وبدأت بكتابة الأصفار خلفه بمعدل صفر كل ثانية فلن يكفيك عمر الكون لإتمام كتابته، وستحتاج إلى ضعف عمر الكون لمرات عديدة حتى تكمل تدوين عدد أصفار هذا الرقم، وكذلك الجنة لها أول وليس لها آخر، إذن فأول بيت وضعه الله للناس هو الكعبة،

وحين يقال: إن البيت قد تم بناؤه قبل آدم فإننا نقول: نعم، لأن آدم من الناس، والله يقول: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ﴾ فلماذا نحرم آدم من أن يكون له بيت عند الله؟ إذن فالبيت موجود من قبل آدم.

## من الذي وضعه؟ هل هم الملائكة؟

إن كلمة ﴿وُضِعَ﴾ هو فعل مبني للمجهول، وما دام كذلك فواضعه غير الناس، فمن الذي وضعه؟ هل هم الملائكة؟ قد يصح ذلك وهو أن يكون الملائكة قد تلقوا الأمر من الله بمزاولة هذا البناء، ولكن الله يقول عن هذا البيت إنه: ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ۝٩٦﴾ وهذا يعني أن البيت هدى للملائكة؛ لأنهم عالم، وهذا يعني أن البيت قد وضعه الله من قبل ذلك، إن أحداً لا يقدر أن يجعل الكون على قدر العقل البشرى، إن على العقل البشري أن يكون في ركاب الكون، وإياك أن تجعل الكون في ركاب عقلك.

## ما هو الرفع؟

أما مسألة أن إبراهيم قد بني الكعبة أولاً فهذا عدم فهم للنص القرآني القائل: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ﴾[1]. فما هو الرفع؟ إنه إيجاد البُعد الثالث وهو الارتفاع، فالطول والعرض موجودان، إذن فهذا دليل على وجود البيت قبل أن يقيم إبراهيم عليه السلام ارتفاع البيت، وهكذا نستنتج أن الذي كان مطموسا هو القاعدة والارتفاع، مع وجود الطول والعرض اللذين يحددان المكان.

(١) [البقرة: ١٢٧].

## البيت الحرام مبارك أبدا، كيف؟

قوله: ﴿مُبَارَكًا﴾ إن البيت الحرام مبارك أبدا، كيف؟ أليست تُضاعف فيه الحسنة بمائة ألف؟ وهل هناك بركة أحسن من هذه؟ وهل هناك بركة أفضل من أنه بيت تُجبى إليه ثمرات كل شيء ولا تنقطع؟ فقديما كان الذاهب إلى البيت الحرام يأخذ معه حتى الكفن، ويأخذ الإبرة والخيط، والملح، والآن فإن الزائر لبيت الله الحرام يذهب ليأتي بكماليات الحياة من هناك.

## ما هو الهدى؟

يقول سبحانه عن هذا البيت: إنه: ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ٩٦﴾ ما هو الهدى؟ قلنا: إن الهدى هو الدلالة الموصلة للغاية، ومن يَزُرْ البيت الحرام يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فهل اهتدى للجنة أم لا؟ إنه يعرف بزيارة البيت الحرام الطريق إلى الجنة، يقول الله تعالى عن هذا البيت إنه: ﴿وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ٩٦﴾ وهذا يعني أن البيت هدى للملائكة؛ لأنهم عالم، وهذا يعني أن البيت قد وضعه الله من قبل آدم.

## ﴿مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾

﴿فِيهِ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ٩٧﴾[1]

---

(١) [آل عمران: ٩٧].

إنه سبحانه لم يذكر إلا ﴿مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ﴾ بعد الآيات، والمقام آية واحدة، وهذا يدل على أن مقام إبراهيم فيه الآيات البينات، وتعني مكان القيام، لماذا كان قيام إبراهيم عليه السلام؟

لقد كان إبراهيم يقوم ليرفع قواعد البيت الحرام، وكان إبراهيم يقوم على حجر، وكان يكفيه حين يرفع قواعد البيت أن يعطيه الارتفاع الذي يؤديه طول يديه، وبذلك يكون إبراهيم عليه السلام قد أدّى مطلوب الله بأن يؤدي كل تكليفات الله بعشق وحب وإكمال وإتمام، فقال إبراهيم في نفسه: لماذا لا أرفع البيت أكثر مما تطول يداي؟ ولم تكن هناك في ذلك الزمن القديم فكرة (السقالات)، ولم يكن مع إبراهيم عليه السلام إلا ابنه إسماعيل، وأحضر إبراهيم عليه السلام حجرا، ووقف عليه؛ ليرفع القواعد قدر الحجر، أي أنه أدى مطلوب الله أداء كاملا.

## ثبات القدمين في مكان آمن

ومن رأى منا الحجر فهو يسع وقوف إنسان واحد، وهكذا نفهم أن إسماعيل كان يساعد ويناول والده الأحجار، أما مكان الأقدام الموجودة في هذا الحجر، فهذا يعني أن إبراهيم عندما كان يقف ويحمل حجرا فإن هذا يتطلب ثبات القدمين في مكان آمن حتى لا يقع، وجعل القدمين تغوصان في الحجر غوصا يسندهما حتى لا تقعا، فنحت مكانا فيه على قدر قدمه حتى تثبت حين يحمل ويرفع الحجر، وهذه آيات بينات.

## معنى قولك: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾

نحن نعلم، هذا المكان تجتمع فيه القبائل، وبين بعض هذه القبائل ثارات ودماء وحروب، لذلك يبيّن الله الوضع الذي بمقتضاه تحقن الدماء، لماذا؟ لأنه بيت الرب ولا يصح أن يدخل واحد بيت الرب ويُعاقب حتى ولو كان قد أجرم جرما يوجب الله عليه الحد فيه، ولذلك قال سيدنا عمر ﷺ: لو ظفرت فيه بقاتل الخطاب (والده) لم أتعرض له، وقد يتساءل البعض: هل نترك المجرم يصول ويجول فيه؟ لا، ولكن يُضَيّق الخناق على المجرم حتى يخرج.

## قالوا: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ ليست صادقة!

ونحن نعرف حادث الاعتداء الأخير الذي حاوله (جهيمان) منذ سنوات، قال الناس: إن جهيمان عندما اعتدى على الناس، لم يستطع حجيج بيت الرحمن أن يكونوا آمنين في البيت وتساءل بعضهم، فكيف قال الحق: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾؟ بل قال بعض أهل الانحراف: إذن مسألة دخول جهيمان إلى البيت الحرام تجعل ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ ليست صادقة! نقول لهؤلاء: إن هناك فرقا بين إخبار الحق بواقع قد حدث، وبين إخبار بتكليف، إن الإخبار بالواقع كان معناه ألا يدخل أحد البيت الحرام ويهيّجه أو يهاجمه أحد أبدا، ولكن الإخبار التكليفي معناه: أن يخبر الله بخبر ويقصد به تكليف خلقه به، والتكليف كما نعرف عرضة لأن يطاع، وعرضة لأن يُعصى، فإذا قال الله




سبحانه: ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًاۗ﴾ فهذا معناه: يأيها المؤمنون، من دخل البيت الحرام فأمّنوه.

### نضرب مثلا:

ونضرب مثلا: تقول أنت لولدك: يا بنيّ هذا البيت يُفتح للضيوف من دخله فاحترمه وأكرمه، هل هذا يدل على إنجاز الإكرام لكل من دخل هذا البيت؟ وأن هذا لا يتخلف أبداً؟ لو كان لصا أو معتديا؟ أم أنك قلت الخبر، وتريد لولدك أن ينفّذه حسب حال الضيف؟ إن هذا خبر يحمل أمرا لابنك، هو ضرورة إكرام من يدخل هذا البيت، وتلك الوصية عرضة لأن تطاع وعرضة لأن تخالف.

### نضرب مثلا آخر:

ومثال آخر على ذلك هو قول الله تعالى: ﴿ٱلۡخَبِيثَٰتُ لِلۡخَبِيثِينَ وَٱلۡخَبِيثُونَ لِلۡخَبِيثَٰتِۖ وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ وَٱلطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَٰتِۚ﴾[1]. بعض الناس يقول: نجد واقع الحياة غير ذلك، حيث نجد امرأة طيبة تقع في عصمة رجل غير طيب وتتزوجه؛ ونجد رجلا طيبا يقع مع امرأة غير طيبة ويتزوجها، فكيف يقول الله ذلك؟ ونحن نردّ على أصحاب هذا القول: إن الله لم يقل ذلك تأريخا

(١) [النور: ٢٦].

للواقع، ولكنه أمر تكليفي، أَيْ افعلوا ذلك، فإذا امتثل الخلق أمر الخالق فعليهم أن يفعلوا ذلك، وإن لم يمتثل بعض الخلق لأمر الحق فإن الواقع ينبيء بحدوث وجود طيبين لغير طيبات أو العكس.

## الكعبة

أنها ذلك البناء الشامخ المهيب الضارب في أعماق التاريخ، الذي يتوسط المسجد الحرام بمكة المكرمة، والذي يبلغ ارتفاعه نحو خمسة عشر متراً، وطول جداريه الشرقي والغربي نحو اثني عشر متراً، والشمالي والجنوبي نحو عشرة أمتار، وبابها مصنوع من الذهب الخالص في عهد الملك خالد بن عبد العزيز، وكذا ميزاب الرحمة (وهو مصرف المياه على السطح) مصنوع أيضا من الذهب، وكسوتها من الحرير الطبيعي المصبوغ باللون الأسود، وتزينه آيات من القرآن الكريم مكتوبة بخيوط من الذهب الأصفر.

## مراحل بناء الكعبة عبر التاريخ

كان بناؤها في الدهر خمس مرات: الأولى حين بناها إبراهيم على القواعد الأولى، والثانية: حين بنتها قريش قبل الإسلام بخمسة أعوام، والثالثة: حين احترقت في عهد ابن الزبير بشرارة طارت من جبل أبي قُبيس، فوقعت في أستارها فاحترقت، فبناها على ما أشار إليه رسول الله ﷺ من ضم حِجْر إسماعيل إليها. والرابعة: في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، حيث هدم ما

بناه ابن الزبير وبناها على ما كانت في عهد الرسولﷺ والخامسة: حين أعاد السلطان مراد الرابع بناءها على أسسها.

## حكم الصلاة جهة الكعبة

نجد الصفوف في الصلاة حول الكعبة تتخذ شكل الدائرة؛ لأن الذين يصلّون في داخل الحرم يشاهدونها، أما الذين يصلّون خارجها فيكفي أن يتّجهوا إلى جهتها ولو طال الصف إلى ألف متر، لذلك فالصف للمصلين خارج الحرم يكون معتدلا، أما في داخل الحرم فالصفوف تأخذ شكل الدائرة، لأن أقصى بُعد في جداري الكعبة الشمالي والجنوبي هو اثنا عشر مترا وربع المتر.

## حجرٌ يُقدّس، وحجرٌ آخر يُرجم!!

ونجد من الآيات العجيبة أنك إذا ما نظرت إلى الحجر الأسود تجد الناس تتهافت على تقبيله، والحجر يمثل أدنى أجناس الكون، ونعلم جميعا أن الإنسان مستخلف كأرقى أنواع المخلوقات في الكون، ومن بعده الحيوان أقل منه في الفكر ومسخّر، ومن بعد الحيوان يكون جنس النبات، ومن بعد ذلك يأتي جنس الجماد ومنه الحجر. إننا نرى هذا الإنسان الراقي في الكون لا يقبل الله منه النسك القبول التام الحسن إلا إذا قبّل الحجر، أو حيّاه بيده، وهكذا ينقل الحق أعلى الأجناس إلى أدناها، والناس تزدحم حول الحجر، ومن لم يقبّل الحجر يحسّ أنه افتقد شيئا كثيرا، وهكذا ترى استطراقا وسلوكا من الخلق،

فالإنسان المتكبر الذي يتوهّم أنه سيّد على غيره، يأتي إليه أمر في النسك بتقبيل الحجر أو تحيته بالسلام، وهذا أول كسر لأنف غرور الإنسان. وحتى لا يظنّ ظانّ أنها حجرية أو وثنية، يأتي الأمر من الحق برجم حجر آخر، فنحن نجد حجرا يُقدس، وحجرا آخر يُرجم، نجد حجرا يقبله الإنسان ويعظمه وحجرا آخر يزدريه ويحقره، وذلك يدل على رضوخنا لإرادة الآمر فقط وهو الله سبحانه، فعندما يأمرنا بأن نعظم حجرا فالمؤمن يؤدي حق التعظيم بالسمع والطاعة، وعندما يأمرنا سبحانه برجم حجر آخر، فالمؤمن يرجم هذا الحجر بالسمع والطاعة لله أيضا، فالذاتية الحجرية لا دخل لها على الإطلاق.

## قالوا: الإسلام استبقى بعض الوثنية!

وبعض من أصحاب الظن السيء قالوا: إن الإسلام قد استبقى بعض الوثنية! ولهؤلاء نقول: لماذا تذكرون تعظيم الحجر الأسود، ولم تذكروا رجم إبليس وهو ثلاثة أحجار؟ لقد عظم المؤمن المؤدي للنسك حجرا واحدا ورجم ثلاثة أحجار، إن المؤمن إنما يطيع أمر الله، فليست للحجر أي ذاتية في النسك أو العبادة، لقد رفَعَنا الله من حضيض عبادة الأصنام التي هي عين الكفر، لكنه قال لنا: قبّلوا الحجر الأسود، فقد قبّلنا الحجر احتراما لأمر الآمر، وذلك هو منتهى اليقين، لقد نقلنا من عبادة الحجر إلى تعظيم وتقديس حجر مثله، لكن الأصنام كانت منتهى الشرك، وتقبيل الحجر الأسود منتهى اليقين، أليست هذه آيات بيّنات؟

## ماء زمزم

وزمزم أليست آيات بينات؟ إن (هاجر) تترك الكعبة وتروح إلى الصفا وتصعد إلى المروة بعد أن تضع وليدها إسماعيل وتدور بحثا عن المياه، سعت هاجر سبعة أشواط لعلها ترى طيرا أو تجد إنسانا يعرف طريق المياه، لأن ابنها يحتاج إلى الشرب، وكأن الله يقول لها ولكل إنسان: عليك بالسعي، إذن فصدَقَت في قولها: لن يضيّعنا الله، لقد جعلها الحق سبحانه تسعى سبعة أشواط ليظهر الماء قريبا منه، ولا يمكن لامرأة في مثل عمرها أن تقدر على أكثر من ذلك، وهذا يعلّمنا أن الإنسان عليه أن يباشر الأسباب، ولكن القلب عليه أن يتعلق بمسبّب الأسباب، وهو الله سبحانه.

## كل تكليف عليك، أثره لك

وحين يقول الحق ﷻ: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ﴾ على هذا فالنفعية هنا تكون لله، والتبعة هنا تكون على الناس، لكن لو فطنّا إلى سرّ العبارة لوجدنا أن الله لا ينتفع بشيء من تكليفه لنا، فالحج لله، ولكنه يعود إليك، فما لله عاد إليك، وما عاد عليك عاد لك، وكل تكليف عليك فأثره لك، نعم إن الحج لله، ولكن الفائدة لا تعود إلا عليك، وهو تكليف عليك، وفائدته تعود عليك.

## الطاعة والمعصية

الخالق يعلم بأن التكليف شاق على النفس، ولكن على المؤمن المكلف حين يجد تكليفا شاقا عليه أن ينظر إلى الفائدة العائدة من هذا الحكم، فإن نظر إلى الفائدة

من الحكم وجد أنها تعود عليه، ولذلك يسهل على العبد المؤمن أمر الطاعة، والذي لا يُقبل على الطاعة ويُهمل الجزاء عليها، ويغفل عنه، تكون الطاعة شاقة عليه، والذي يُقبل على المعصية ويُهمل الجزاء عليها تكون المعصية هيّنة عليه، فالعاصي قد يحقق لنفسه شهوة، لكنها شهوة عاجلة، ولو استحضر العاصي العقوبة على المعصية وقت عملها ما أقدم على معصيته أبدا.

نضرب مثالا:

وأضرب هذا المثل عن أعنف غرائز الإنسان وهي غريزة الجنس، هب أن شابا رأى فتاة جميلة ثم أراد أن ينالها، نقول لهذا المتشرد جنسيا: استحضر العذاب على هذا العمل، وإن أخذتَ هذه الفتاة فتعال لنريك بعينيك ما أعده الله لك حين تتمتع بهذه الفتاة خارجا عن شرع الله، أوقد له فرنا مسجوراً باللهب، وقُل له: في مثل هذا ستدخل بل وأشد منه إن نلت من الفتاة، أيقبل هذا المتشرد على ارتكاب تلك المعصية؟ لا؛ فشهوة المعصية تضيع عندما يستحضر العذاب عليها.

## كيف تتأتى هذه القدرة؟

إن الله سبحانه يقول: ﴿مَنِ ٱسۡتَطَاعَ إِلَيۡهِ سَبِيلٗاۚ﴾ والسبيل هو الطريق الموصل للغاية، وعندما يتجه الإنسان لأداء فريضة الحج فهو طارق للطريق، أي سيسير عليه، وما دام الطارق سيسلك طريقا فلا بد أن يكون عنده قدرة على أن يسلك

هذا الطريق فكيف تتأتى هذه القدرة؟ إن أول شيء في القدرة هو الزاد والوسيلة التي يركبها، والسبيل الذي يطرقه، أيكون محفوفا بالمخاطر؟ لا، بل يُفترض أن يكون السبيل آمنا، إذن فالاستطاعة تلزمها ثلاث حاجات، هي: الزاد، والراحلة، وأمن الطريق.

## كيف حاله إن كان يعول أسرة وصغارا؟

ولكن ماذا يكون الحال إن كان الإنسان يعول أسرة وصغارا؟ إذا كان الإنسان على هذا الحال فمن الاستطاعة أن يكون قد ترك زادا لمن يعولهم إلى أن يعود.

## هل يكفر تارك فريضة الحج؟

نجد التكليف بالحج قد أُتبع مباشرة بقول الله: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ فهل يقع في الكفر من لا يحجّ بدون مانع قاهر؟ العلماء يقولون: نعم إنه يدخل في الكفر، كأن يموت الإنسان يهوديّا أو نصرانيّا، وهنا نقول: انتبه، لا تأخذ الحكم من زاوية وتترك الزاوية الأخرى، هل تعارضون في هذا التكليف؟ أو تؤمنون به ولكن لا تنفذونه؟ الموقف يختلف مِنْ مؤمن إلى آخر؛ نجد مؤمنا يحرص على أداء الحكم من الله، ونجد مؤمنا آخر قد لا يحرص على أداء الحكم فيصبح عاصيا، ونجد في هذا الموقف أن الكفر نوعان، هناك من يكفر بحكم الحج، أي من كفر في الاعتقاد بأن الحج فريضة، وهذا كافر حقا، لكنْ هناك نوع آخر وهو الذي يرتكب معصية الكفر بالنعمة؛ لأن الله أعطاه الاستطاعة ولم يطع، لذلك قال

بعض العارفين: لو أن أحدهم أُخْبِر بأن له ميراثا بمكة لذهب إليه حبواً!

## اللّه غنيٌّ عن كل مخلوقاته

قوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ٩٧﴾ قد يقول قائل: ولماذا لم يقل الله: ومن كفر فإن الله غني عنه؟ نقول: إنّ الله غنيٌّ عن كل مخلوقاته، وإيّاك أن تفهم أن الذي لم يكفر وآمن، وأدى ما عليه من تكليف، أنه عمل منفعة لله؛ إن الله غني عن الذي أَدّى وعن الذي لم يؤدّ، إياك أن تظن أن من أدّى قد صنع لله معروفا ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ﴾ عمّن يفعل وعمّن لا يفعل.

## الرسول يبلّغ حرفيا ما سمعه عن اللّه

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا تَعۡمَلُونَ ٩٨﴾[1]

قد يقول قائل: ألم يكن يكفي أن يقول الله للرسول: (قل يا محمد)، فيبلغنا رسول الله يا أهل الكتاب لم تكفرون؟ كان ذلك يكفي، ولكن الرسول مبلغ الأمر نفسه من الله، فكأنه قال ما تلقاه من الله حرفيا دن زيادة ولا نقصان، والذي تلقاه الرسول من الله هو: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ وهذا يدل على أن الرسول يبلّغ حرفيا ما سمعه عن الله، فإذا ما وجدنا خطابا من الخالق للخلق، مرة مسبوقا ب ﴿قُلۡ﴾ ومرة أخرى غير مسبوق، فلْتعلم أن الله سبحانه يتلطف

---

(١) [آل عمران: ٩٨].

معهم مرة، ويجعلهم أهلا لأن يخاطبهم، ومرة حين يجد منهم اللجاج فإنه يبلّغ رسول ﷺ: قل لهم.

**نضرب مثلا:**

والمثال على ذلك في حياتنا، نجد الواحد منا يقول لمن بجانبه: قل لصاحب الصوت العالي أن يصمت، إن هذا القائل قد تَعَالَى عن أن يخاطب هذا الإنسان صاحب الصوت المرتفع، وحين يجيء الخطاب لأهل الكتاب فنحن نعرف أنهم اليهود أصحاب التوراة، والنصارى أصحاب الإنجيل، وهؤلاء هم من يقول عنهم الله: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ ولم يقل أحد لنا: (يا أهل القرآن) لماذا؟ لأن ما جاء في الكتاب يدعو إلى الإيمان، وما دام الله الذي نَزَّل الكتاب، فمن الحمق من أهل الكتاب أن يوقعوا أنفسهم في فخ الكفر؛ لأنهم بذلك يكذبون على الله، إنهم إن استطاعوا تعمية أهل الأرض فلن يستطيعوا ذلك بالنسبة للخالق.

## لماذا كفروا به؟

الله سبحانه حين يقول: ﴿لِمَ تَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؟ لنرى ماذا حدث منهم، لقد كانت البشارات به ﷺ مكتوبة في التوراة ومكتوبة في الإنجيل، وهم قد آمنوا بها قبل أن يجيء سيدنا رسول الله، فلما جاء رسول الله بالفعل كفروا به، لماذا كفروا به؟ لأنه زحزح عنهم أهواءهم وأطماعهم في الدنيا، فلم تعد لهم السلطة الزمنية من الرئاسة الدينية والزعامة الاجتماعية التي كانوا يستمتعون

بها في الدنيا، يبيعون فيها الجنة، ويبيعون فيها رضوان الله، ويعملون ما يحقق لهم مصالحهم.

## ضالّ مضلّ لغيره

﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا وَأَنتُمْ شُهَدَآءُ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾(١)

لماذا تحملون وزر إضلالكم للناس؟ كان يكفي أن تحملوا وزر ضلالكم أنتم، لا أن تحملوا أيضا وزر إضلالكم للناس؟ إن الذي لا يحمل وزرا مع وزره هو الضال في ذاته، فهذا يتحمل إثمه فقط، أما الذي يحمل وزر نفسه ووزر غيره فهو الضال المضل لغيره، وهنا يسألهم الحق سبحانه كأنه يقول لهم: ماذا تريدون؟ إنكم تريدون دينا معوجّا، والمعوج عن الاستقامة إنما يكون معوجّا لِغرض؛ لأن المعوجّ يطيل المسافة، إنّ الذي يسير في طريق مستقيم ما الذي يدعوه إلى أن ينحرف ليطيل على نفسه المسافة؟ الذي ينحرف عن الطريق المستقيم فهو لا ينبغي الغاية والوصول إلى الحقيقة، بل يطيل على نفسه المسافة، وقد لا يصل إلى الغاية.

---

(١) [آل عمران: ٩٩].

## ارتكبوا سلسلة من المعاصي

الله الحق يبلغهم: أنتم تبغون الدين عوجا برغم أنكم شهداء على أن ما جاء به محمد ﷺ هو الحق، إنه جاء مبلغا بالصدق، وكنتم تبشرون برسالة محمد، وكنتم تستفتحون على الذين أشركوا من أهل مكة وتقولون: سيأتي نبيّ نتبعه ثم نقتلكم معه قتل عاد وإرم، وأنتم يا أهل الكتاب شهود على صدق هذا الرسول، لقد ارتكبوا سلسلة من المعاصي؛ هم ضلوا وحاولوا أن يُضلوا غيرهم، ويا ليت ذلك يتم عن جهل، ولكنه أمر كان يتم بقصد وعن علم، وبلغت المسألة منهم أنهم شهود على الحق، ثم أصروا على الضلال والإضلال، إنهم شهود عرفوا ما قالوا ورأوه رأي العين، شهود على رؤية شيء شهدوه وليس شيئا سمعوه، وهذا مذكور في كتبكم السماوية، فما الذي يجعلهم لا يلتزمون طريق الحق وهم شهود؟ لا بد أنهم قد مستهم شبهة إن الله يغفل عن ذلك، فقال لهم لا: ﴿وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعۡمَلُونَ ﴿٩٩﴾﴾.

## لن يهدأ لهم بال حتى يردّوكم عن دينكم!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ فَرِيقٗا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ يَرُدُّوكُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ كَٰفِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾[١]

---

(١) [آل عمران: ١٠٠].

معنى ذلك أن الله نبّه الفئة المؤمنة إلى أن الذين يكفرون بآيات الله لن يهدأ بالهم ما دمتم أنتم أيها المؤمنون مستقيمين، ولن يهدأ للكافرين بال إلا أن يشككوا المؤمنين في دينهم، وأن يبغوها عوجا، وأن يكفّروهم من بعد إسلامهم، وهذه قضية يجب أن ينتبه لها الذين آمنوا؛ لأن الذين يبغون الأمر عوجا قد ضلوا وأضلوا، وهم يشهدون على هذا، فماذا يكون موقف الطائفة المؤمنة؟ إن أهل الكتاب يحاولون أن يصدوا المؤمنين عن دينهم، وليس المقصود بالصدّ، أن هناك من يمنع المؤمنين من الإيمان، لا، بل هي محاولة من أهل الكتاب للتشكيك وإقناع المؤمنين بالرجوع والارتداد عن الدين الذي اعتنقوه؛ والله سبحانه لا يتكلم عن كل الذين أوتوا الكتاب، إنما قال: ﴿فَرِيقًا﴾ إنه سبحانه يؤرّخ وهو يحمى الحقيقة.

## لماذا يكرهوننا؟؟!

إنّ لذلك قصة؛ فقد كان اليهود في المدينة يملكون السلطة الاقتصادية؛ لأنهم يجيدون التعامل في المال، ويمتلكون الأسواق والأرصدة والبنوك مع اختلاف المسميات، وكل من يريد مالا يذهب إليهم ليقترض منهم بالربا، وكان لليهود أيضا التفوق والتميز العلمي؛ لأنهم يعلمون الكتاب، بينما كان غالبية أهل مكة والمدينة من الأميين الذين لا يعرفون كتابا سماويا، وكذلك كان هناك تميز آخر لليهود هو خبرتهم بالحرب؛ فلهم قلاع وحصون، هكذا كان لليهود ثلاثة

أسباب للتميز: المال يحقق الزعامة الاقتصادية، والعلم بالكتاب وهو تفوق علمي، ثم خبرتهم بفنون الحرب، وكانوا فوق ذلك يحاولون إيجاد الخلاف بين الناس وتعميقه؛ مثل محاولتهم إثارة العداوات بين القبائل العربية كالأوس والخزرج، والمتاجرة بذلك حتى تظل الحروب قائمة، وبذلك يضمنون رواج تجارة الأسلحة التي يصنعونها ويمدّون بها كل فريق من المتحاربين، ولما جاء الاسلام وحّد الرسول ﷺ بين الأوس والخزرج، وبذلك ضاع منهم التفوق الاقتصادي، وجاء الاسلام بدين وكتاب فضاعت من اليهود المنزلة العلمية، وكذلك ضاعت من اليهود المنزلة الحربية؛ فقد رأوا قلة من المؤمنين أنزلوا بالأعداء هزيمة نكراء في بدر، وهكذا ضاع كل سلطان لليهود في المدينة.

## حاولوا مرة أخرى!!

لذلك أرادوا أن يعيدوا الأمر إلى ما كان عليه قبل أن يتقوى الإسلام، قالوا فلنؤجّج ونشعل العداوات في المدينة ونهيّجها، وقد رأوا نور الإيمان في قبائلها يعلو وجوههم ويشملهم الانسجام الإيماني، هيَّج ذلك زعيم من زعمائهم اسمه (شأس بن قيس) وقال: لا بد أن نعيدها ونرجعهم إلى ما كانوا عليه، فلا استقرار لنا ما دامو قد اجتمعوا، فأرسل فتى من اليهود وجلس بين الأوس والخزرج، ثم تطرق الحديث منه إلى قصص وأحاديث بتلك الثارات القديمة التي هيّجت النفوس، وحصل التفاخر واستيقظ التباغض، وقالوا: السلاح،

السلاح، وهكذا نجحت المكيدة، وصل الخبر إلى الرسول محمد، فقام ومعه صحابته، فوجدوا الحال على أشد درجات النزاع والتباغض، فقال الرسول ﷺ: أبِدَعْوى الجاهلية وأنا بين أظهركم!! أي كان من الواجب أن تخجلوا من أنفسكم؛ فماذا كانت مواقع هذه الكلمات في نفوس القوم؟ لقد دفعتهم كلماته إلى إلقاء السلاح، وبكوا وعانق بعضهم بعضا وانصرفوا، فما كان يوم أقبح أولا وأحسن آخرا من ذلك اليوم.

## آيات الله وسنة رسول الله هي العاصم

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُۥ ۗ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾[١]

إنه استعظام وتعجب من أن يأتي الكفر مرة أخرى من المؤمنين وهم في نعيم المعرفة بالله، فآيات الله تُتلى عليهم، ورسول الله معهم وفيهم، لقد كان وجود الرسول بين أظهرهم هو الأمر الضروري، لأنهم كانوا منغمسين في حمأة الجاهلية، فلا بد أن توجد إشراقة الرسول بينهم حتى تضيء لهم، قال الرسول ﷺ: **«إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ»**[٢]. هكذا نرى أن وجود آيات الله وسنة رسول الله هي

---

(١) [آل عمران: ١٠١].

(٢) رواه الحاكم في مستدركه.

العاصم الذي يهدي إلى الغاية المرجوة، فهب أن غايتك أن تذهب إلى مكان معين، فالذي يوصلك إلى ذلك المكان هو هدى، وكل ما يدل إنسانا على الموصل للغاية اسمه هدى.

## كلّ الكائنات مقهورة؛ ما عدا الإنسان

والخالق سبحانه حينما خلق الخلق جميعا، جعل بعض الخلق مقهورا، وبعض الخلق مخيرا، والمقهور من خلق الله هو كافة المخلوقات في الكون؛ ما عدا الإنسان إلا في بعض أموره، فإنه مقهور فيها أيضا، ولذلك قلنا: إن كل ما عدا الإنسان من خلق الله يؤدي مهمته كما طُلبت منه، فما امتنعت الشمس أن تشرق على الناس يوما، ولا امتنعت الريح أن تهب، ولا امتنعت السماء عن أن تمطر، ولم تقل الأرض للإنسان إنك تعصي الله فلا أنبت لك، ولا جاء إنسان ليركب الدابة المسخرة فقالت: لا؛ إنك عاصٍ، ولذلك سأغضب فلا أمكنك من ركوب ظهري، إذن فالانقسام جاء عند من؟ لقد جاء الانقسام عند الإنسان، لماذا؟ لأن الله خلق الإنسان مختارا.

## ربّ نفس عشقت مصرعها!

عندما يوقِد الإنسان ناراً ما في الخلاء فضوؤها يجذب الفَرَاش، ويحترق الفَراش بنيران الضوء؛ فقد جذبه النور وأغراه، ولكنه لم يعرف أن مصرعه في تلك النار، والحكمة العربية تقول: (رب نفس عشقت مصرعها) كذلك في

الشهوات، تتزين الشهوة للإنسان، فتجذبه إليها فيكون فيها مصرع الإنسان، لكن ما الحماية للإنسان من ذلك؟ إن الحماية هي في منهج الله (افعل ولا تفعل)، فمن يرد أن ينقذ نفسه من كيد الشيطان وكيد النفس فعليه أن يخضع لمنهج الله (افعل ولا تفعل) وقد قلت قديما: إنه من الحمق أن يصنع صانع صنعةً ما، ثم ينسى أن يضع لها قانون الصيانة، والإنسان في حدود صناعته لا ينسى ذلك، فما بالنا بالحق سبحانه بطلاقة قدرته؟ إن الخالق ﷻ قد خلق الإنسان، ووضع الله ﷻ قانون صيانة صنعته في الإنسان فقال ﷻ: افعل كذا ولا تفعل كذا، فمن أراد أن يعتصم بالحبل المتين فلا يأتي له نزغ شيطان أو كيد عدو ولا هوى نفس.

## لا نجاة للإنسان إلا بالاعتصام

قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعۡتَصِم بِٱللَّهِ﴾ كلمة الاعتصام أروع ما تكون عندما يكون الإنسان في الهواء معلقا في الفراغ، وهو في أثناء وجوده في الفراغ فإن ثقله الذاتي هو الذين يوقعه ويسقطه، لكن عندما يتمسك الإنسان بمنهج الله فإنه ينقذ نفسه من السقوط، ومهمة الشيطان أن يزيّن المعصية بالبريق، فتندفع شهوات النفس هائجة إلى المعصية، فثقل النفس البشرية هو ما يوقع الإنسان في الهاوية دون أن يلقيه أحد فيها، ولا إنقاذ للإنسان من الهاوية إلا بالاعتصام بحبل الله، كأن منهج الله هو الحبل الممدود إلينا، فمن يعتصم به ينجو من

الهاوية، وما دمنا نعتصم بحبل الله وهو القرآن المنزل من خالقنا والسنة النبوية المطهرة، وسبحانه يعلم كيد النفس لصاحبها، فلا بد أن يهدينا الله إلى الصراط المستقيم.

## معنى ﴿ٱتَّقُواْ﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾[(١)]

حين نسمع كلمة ﴿ٱتَّقُواْ﴾ فلنفهم أن هناك أشياء تسبب لك التعب والأذى، فعليك أن تجعل بينك وبينها وقاية، إنه الله يطلب من الإنسان أن يجعل بينه وبين الخطر وقاية يقيه منه، والله ﷻ حين يقول على سبيل المثال: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٤﴾[(٢)]. إي اجعل بينك وبين الله حجابا يقيك من غضبه. وقد يقول قائل: كيف يكون ذلك وأنا كمؤمن أريد أن أعيش في معيّة الله؟ نقول: إنك تجعل الوقاية لنفسك من صفات جلال الله، وهي القهر والجبروت وغيرها، وكذلك النار إنّها من جنود صفات الجلال، فحين يقول الله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ﴾ أو ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ فالمعنى واحد.

---

(١) [آل عمران: ١٠٢].

(٢) [المائدة: ٤].

## ماذا تعني (حَقَّ تُقَاتِهِ)

وعندما يسمع إنسان قول الله سبحانه: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ ماذا تعني حق تقاته؟ إن كلمة ﴿حَقٌّ﴾ تعني الشيء الثابت الذي لا يزول ولا يتزحزح، أي لا ينتهي ولا يتذبذب، هذا هو الحق، إذن ما حق التقوى؟ هو أن يكون إيمانك أيها المؤمن إيمانا راسخا لا يغادرك ولا تتذبذب معه، واتقاء الله حق تقاته هو اتباع منهجه، فيُطاع الله باتباع المنهج فلا يُعصي، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر ولا يُكفر، وطريق الطاعة يوجد في اتباع المنهج ب (افعل ولا تفعل). وقيل في معنى: ﴿حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ أي أَنه لا تأخذك في الله لومة لائم، أو أن تقول الحق ولو على نفسك، قال العلماء: إن هذه الآية عندما نزلت وسمعها الصحابة، استضعف الصحابة نفوسهم، فقال بعضهم: من يقدر على حق التقى؟ فأنزل الله بعد ذلك: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾(١).

## فهم خاطئ!

فهل معنى هذا أن الله كلف الناس أولا ما لا يستطيعون، ثم قال من بعد ذلك: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾؟ لا، إنه الحق سبحانه لا يكلف إلا بما في الوسع، والناس قد تخطئ الفهم لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ فيقول العبد: أنا

(١) [التغابن: ١٦].

غير مستطيع أن أقوم بذلك التكليف، ويظن هذا العبد أن التكليف يسقط عنه، لا، إن هذا فهم خاطئ؛ إن قوله الحق: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾ أي إنك تتقي الله بما كان في استطاعتك من الوسع، فما باستطاعتك أن تقوم به عليك أن تقوم به، فلا يهرب أحد إلى المعنى المناقض ويقول: أنا غير مستطيع؛ لأن الله يعلم حدود استطاعتك، وساعة تكون غير مستطيع فهو سبحانه الذي يخفف، إنك لا تخفف أنت على نفسك أيها العبد، فالخالق الحق هو الذي يعلم إذا كان الأمر خارجا عن استطاعتك أو لا، وساعة يكون الأمر خارجاً عن استطاعتك فالله هو الذي يخفف عنك، ولذلك فعلى الإنسان ألا يستخدم القول الحق: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۚ﴾[1] في غير موضعه؛ لأن الإنسان لا يستطيع أن يقدّر الوسع، بل عليك أن تفهم أيها الإنسان أن الله هو الذي خلق النفس، وهو الذي أنزل التكليف لوسع النفس، وما دام الخالق للنفس هو الله فهو العليم بوسع النفس حينما قرر لها المنهج، إنه سبحانه الذي كلف، وهو العليم بأن النفس قد وسعت، ولذلك فهو لا يكلف نفسا إلا وسعها، فإن كان سبحانه قد كلف فأعلم أيها العبد أنه سبحانه قد كلف بما في وسعك، وعندما يحدث للإنسان ما يشق عليه أو يمنعه من أداء ما كُلف به تامّاً فهو سبحانه يضع لنا التخفيف وينزل لنا الأعذار والرخص.

---

(١) [البقرة: ٢٨٦].

**مثال ذلك:**

المريض له رخصة الإفطار في رمضان، والمسافر له أن يفطر في رمضان ويقصر الصلاة، إذن فالله سبحانه هو الذي علم حدود وسع النفس التي خلقها، ولذلك لا تقدر وسعك أولا ثم تقدر التكليف عليه، ولكن قدّر التكليف أولا، وقل: ما دام الله قد كلف فذلك في الوسع.

## كيف نوفق بين الأمرين؟

وفي تذييل الآية الكريمة يقول سبحانه: ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ نجد أنفسنا أمام نهي عن فعل وهو: عدم الموت إلا والإنسان مسلم، كيف ذلك؟ أيقول لك أحد: لا تمت؟ إن ذلك الأمر ليس لك فيه اختيار؛ لأنه أمر نازل عليك، فإذا قيل لك: لا تمت، فإنك تتعجب؛ لأن أحدا لا يملك ذلك، ولكن إذا قيل لك: لا تمت إلا وأنت مسلم، فأنت تفكر، وتصل بالتفكير إلى أن الفعل المنهي عنه: (لا تمت) ليس في قدرة الإنسان؛ ولكن الحال الذي يقع عليه الفعل وهو: (إلا وأنت مسلم)، في قدرة الإنسان؛ لذلك تقول لنفسك: إن الموت يأتي بغير عمل مني، ولكن كلمة: إلا وأنت مسلم، فهي باستطاعتي، لأن الإسلام يكون باختياري، صحيح أنك لا تعرف متى يقع عليك الموت؟ ولكنك تحتاط، والاحتياط يكون بأن تظل مسلما حتى يصادفك الموت في أي لحظة وأنت مسلم، فكيف نوفق بين الأمرين؟ نأتي إلى الأمر الذي لنا فيه

اختيار، وهو أن نحرص على أن نكون مسلمين، وكأنه سبحانه يقول لنا: تمسّكوا بإسلامكم؛ لأنكم لا تدرون متى يقع عليكم الموت.

## إياك أن تقول: أنا مصري وأفتخر!

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ١٠٣﴾[1]

جاء هذا القول الكريم لينبه كل المؤمنين، وكأنه يقول: اعلموا أن التفاخر قبل الإسلام كان بأشياء ليست من الإسلام، لكن حين يجيء الإسلام فالتفاخر يكون بالإسلام وحده، فإياك يا عربي أن تقول: أنا مصري وأفتخر، أنا عراقي وأفتخر، فالمصري له الفخر ببلده، وكذلك السعودي والعراقي والجزائري والكويتي وكل البلاد العربية، وتظهر بعد ذلك العصبيات القومية والكراهية، ثم الفرقة والخلاف والتناحر، وكلنا جميعا قد جمعنا الله في القرآن ودين والإسلام، وهكذا يكون الاعتصام بحبل الله.

## العرب قبل الإسلام على حافة انهيار

﴿وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ﴾ والشفا هي الحافة، لقد

---

(١) [آل عمران: ١٠٣].

كان العرب قبل الإسلام على حافة انهيار وحافة النار، ومن كان على الحافة فهو يوشك أن يقع، فكأن الله يقول: لقد تداركتم بالإسلام، ولولا الإسلام لهويتم في النار. لم يعرف التاريخ العربي حروبا قاسية كتلك التي شهدت مرحلة ما قبل الإسلام، حروب دامت سنوات طويلة، منها بلغت أربعين عاما في حربي (البسوس، وداحس والغبراء)، وحربا مريرة قادها امرؤ القيس رغبة في استرجاع ملك كندة، تعددت أسبابها المباشرة، واعتّبرت تافهة كقتل كليب لناقة البسوس، وسباق داحس والغبراء، بلغت ضحاياها آلافا مؤلفة، غير أن الحقيقة القاسية التي وجب الوقوف عليها هي أن حروب الجاهلية كانت تقوم جرّاء صراع محتدم بين سيادة نظام سياسي ونظام القبيلة.

## هكذا نرى نعمة الإسلام في الدنيا

ويقول سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾﴾ وهكذا نرى نعمة الإسلام في الدنيا، فقدرة الإيمان على إنقاذ الإنسان من النار لا تحتاج إلى انتظار، بل يستطيع المؤمن أن يراها في الدنيا، ولقد كان العرب قبل الإسلام منشغلين بالاختلافات وموزعين بالعصبية، وكل يوم في شقاق، ولما جاء الإسلام صاروا إخوانا، وهذه نعمة عاجلة في الدنيا، فما بالك بما يكون في الآخرة وهي دار جزاء وبقاء. وقوله الحق: ﴿لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ المقصود به أن تظلوا على هدايتكم ليستمر لكم الإيمان دائما.

## معنى كلمة (أُمَّة)

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٠٤﴾(١)

وكلمة ﴿أُمَّةٞ﴾ تطلق مرّة، ويراد بها الجماعة التي تنتسب إلى جنس، كأمة العرب، ومرة تطلق ويراد بها الملة أي الدين، ومرة ثالثة تطلق ويراد بها الفترة الزمنية، ومرة تطلق على الرجل الجامع لصفات الخير ﴿إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ﴾(٢).

## هذه الآية تطالب كُلَّ أمة المسلمين بذلك

وقوله سبحانه: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ﴾ هذا القول يعني أن يكون منكم أيها المخاطبون جماعة تدعو إلى الخير، أو تكونوا جميعا أمة تدعو إلى الخير، ولكنّ هناك فهما أعمق من هذا، وهو أن هذه الآية تأمر بأن تكون كل جماعة المسلمين أمة تدعو إلى الخير، وتأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر، إي أن هذه الآية تطالب كُلَّ أمة المسلمين بذلك، فلا تختص جماعة منها فقط بهذا الأمر، فساعة تحدث كارثة لواحد من المسلمين يأتي أخوه ليصبّره، ومن يعرف حكما من الأحكام عليه أن يأمر به.

---

(١) [آل عمران: ١٠٤].

(٢) [النحل: ١٢٠].

## الذي يفلح الأرض يجد الثمرة في النهاية

قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٥﴾، إن كلمة ﴿ٱلْمُفْلِحُونَ ۝١٦﴾ هي كلمة معها دليلها، فالمفلح هو الذي أخذ الصفقة الرابحة، فالذي يفلح الأرض يجد الثمرة في النهاية، وقد جاء الله سبحانه بالمسألة المعنوية من أمر حسي، وبعد ذلك يريد سبحانه أن يعطينا شيئا آخر فيقول: إياك أن تظن أن المشقة التي تصيبك حين تفعل خيرا لا تعود عليك بالراحة، أو أن النقص الذي تفعل به الخير لا يعود عليك بالكمال، إن الفلاّح الذي يشقى بالحرث وبالري، وتراه وقد علا جبهته العرق والتراب، وتغوص أقدامه في الطين والوحل، إنك تراه يوم الحصاد وهو فرح مسرور، أما غيره الذي لم يتعب فيأتي في هذا اليوم وهو حزين ونادم، فإياك أن تنظر إلى تكاليف الدين على أنها أمور تحرمك الراحة، إنّها أمور ينتج عنها النفع، والراحة والسعادة، وإياك أن تظنّ أن حكما من أحكام الله قد جاء ليجور على حريتك، بل جاء ليمنع عنك الخطر والأذى.

## نضرب مثالا

فمثلا الإنسان الذي فلح الأرض وأخرج (حفنة) من القمح وبذرها فيها، هذا الإنسان قد تكون له زوجة حمقاء تقول له: إننا لا نملك إلا أربع (حفنات) من القمح، فكيف تأخذ (حفنة) لترميها في الأرض، إن هذه المرأة لا تعرف أن الحفنة التي أخذها الزوج هي التي ستأتي بعدد كبير جدا من الحفنات، فإياك أن تفهم أن الإسلام يأخذ منك شيئا إلا وهو يريد أن يعطيك أشياء.

### مثال آخر:

إن الشرع حين كلفك بأن لا تسرق مال أحد، فهو تقييد من أجل حفظ أموال الملايين، وهو أمر ضمني لكل الناس ألاَّ يسرقوا شيئا منك، وبالتالي لا يسرق أحد من أحد شيئا، وهنا نجد الأمن والأمان ينتشر بين الجميع، ولو نظرت إلى ما منع الدّين الناس أن يمارسوه معك لعرفت قيمة التكاليف الإيمانية، إن التكليف حين يأمر ألا يمدّ أحد عيونه إلى محارم جاره، هذا التكليف صادر للناس جميعا حتى يحمي الله لك محارمك من عيون الناس، لقد قَيَّد التكليف حرية الملايين من أجلك، وقيد حريتك من أجل الملايين وأنت واحد، إذن يجب أن نذكر بأن الأرض تأخذ الحبة وتعطيك سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة، فلا تنظر إلى ما أخذه التكليف من حريتك، لأنه أخذ لك من حريات الآخرين أيضا، ولا تقل: إن التكليف قد نقص حركتي لنفسي، لأنه سيعطيك ثمرات أكثر مما أفقدك.

## تفرقوا واختلفوا بإتباع الهوى

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾[1]

هذا القول ينهى عن اتباع الهوى الذي يؤدّي إلى الفرقة، إن هؤلاء سيصليهم الله النار، ولهم عذاب عظيم. فالهوى: ميل النفس إلى الشيء، وأكثر ما يستعمل

(١) [آل عمران: ١٠٥].

في الحب المذموم، ويقال إنما سُمّي هوى لأنه يهوي بصاحبه إلى المهالك والأخطار، وهو أيضاً ميل النفس إلى الشهوة، ومستحثّ لها لما تريده وتهواه، وأهل الأهواء هم أهل القبلة الذين لا يكون معتقدهم أهل السنة والجماعة، كالذين يُكَفِّرون غيرهم بارتكاب الكبائر، أو يقولون بعصمة الأئمة، أو سقوط التكاليف عن أصحاب الكرامات وأولياء الله والصالحين!! وكالذين يقدّمون العقل على النصوص الشرعية، لذلك اختلفت أهواؤهم فافترقوا، ولذلك برأ الله نبيه منهم بقوله: ﴿لَّسۡتَ مِنۡهُمۡ فِي شَيۡءٍ﴾[1].

## علامات أهل الأهواء

ومن علامات أهل الأهواء أنهم يكفّرون المخالف لهم بلا سبب موجب، وعادتهم التقاطع والتنافر والتباغض، ما ينتج عن ذلك اختلافات تنخر جسد الأمة، وتصدّعات قد تنهار بها شعوب، وظهور فتن قد تقضي على الأخضر واليابس، ولا يسلم العبد من الأهواء والبدع إلا بالرجوع للكتاب والسنة، وأن يكون على مثل ما كان عليه رسول الله ﷺ والصحابة الكرام، وما لم يكن يومئذ ديناً فليس اليوم ديناً، ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، على العبد أن يتأمل كم أضاعت معاصيه من فضائل، وكم من لذة أضاعت لذات، وكم من شهوة كسرت جاهاً، ونكّست رأساً، وأعقبت ذلاً، وألزمت عاراً لا يغسله الماء.

---

(١) [الأنعام:١٥٩].

## كيف يتخلص العبد من إتباع الهوى؟

ألا يختار لنفسه أن يكون الحيوان البهيم؛ فالحيوان قد يحسن التمييز بين ما ينفعه وما يضره، وأن يأنف لنفسه من ذل طاعة الهوى ليكون تحت قهر الشيطان، وأن يوازن بين سلامة الدين والعرض والمال والجاه ونيل اللذة المطلوبة، وأن يعلم أن الهوى ما خالط شيئاً إلا أفسده، والشيطان ليس له مدخلٌ على ابن آدم إلا من باب هواه، ولو تأملت السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله، لوجدتهم إنما نالوا ذلك كله بمخالفة الهوى، فجاهد نفسك واستعن بالله.

## هل الإنسان الأسود مكروه عند اللّه؟!

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ١٠٦﴾[1]

يجب أن نعلم أن السواد والبياض في بشرة الإنسان هما من آثار اختلاف البيئات في الدنيا، ولمعايشة ظروف البيئة، أما في هذه الآية، فهي تتحدث عما سوف نراه في الآخرة، حيث يكون السواد والبياض مختلفين، تماما كما تتبدل الأرض غير الأرض والسموات غير السموات، وكذلك يتبدل أمر السواد والبياض، إنه لن

---

(١) [آل عمران: ١٠٦].

يكون سواداً أو بياضا من أجل البيئات، ولذلك ستتعجب يوم القيامة؛ لأنك قد ترى إنسانا كان أسود في الدنيا وتجده أبيض في الآخرة، وتجد إنسانا آخر كان لونه أبيض في الدنيا ثم صار أسود في الآخرة، فلا يظن ظان أن الإنسان الأسود في الدنيا مكروه من الله، لا، بدليل أنك ترى واحدا أبيض ولكن وجهه عليه غبرة ترهقه قترة، وترى واحداً آخر أسود اللون، ولكن نور اليقين يملأ وجهه، وأنت لا تقدر أن تمنع عينيك من أن تديم النظر إليه!

### نضرب مثالا:

عندما يأتي عامل البناء ليثني عامود الحديد المستقيم؛ ويلويه، فهل يقال: إن هذا الإنسان قد عوّج الحديد؟ لا؛ إنه يريد أن يشكل عامود الحديد ليكون صالحا لمهمة معينة، وكذلك الاسوداد أو الابيضاض في الدنيا، إنما أراده الله ليتناسب مع ظروف الحياة في البيئة، أما في الآخرة فالدنيا قد زالت وفنيت، والأرض لن تكون هي الأرض والسماء لن تكون هي السماء؛ وكذلك ألوان وأشكال البشر.

## من هم الذين كفروا بعد الإيمان؟

[1]والله سبحانه يوجه سؤالا لهؤلاء: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ أو كأن هذا أمر

يُفاجئ من كان يعرف هؤلاء الناس في الدنيا؛ فقد رأوهم في الدنيا بيض الوجوه، ولكن يرونهم يوم القيامة وعلى وجوههم غبرة سوداء، وكأن ذلك هو سمة من يكفر بعد الإيمان، هذه هي سمتهم وعلامتهم في الآخرة، أي ما الذي صيركم إلى هذا اللون؟ إنه الكفر بعد الإيمان، فمن هم الذين كفروا بعد الإيمان؟ وماتوا على ذلك الكفر؟ هذا ينطبق على الذين ارتدّوا عن الإسلام، أو يُقال: ﴿أَكَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡ﴾ بمحمد، بعد أن جاءتكم به البشارات التي عرفتموها، وقرأتموها في التوراة والإنجيل، وقد تأكدتم أنه قادم لا محالة، وأنه رسول هذه الأمة وخاتم الرسل، وانطبق عليكم قول الحق: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٨٩﴾[1]».

## ما الفرق بين الاثنين؟

الناس في العبادة صنفان: منهم من يعبد الله ويريد نعيم الجنة، فيعطيه الله الجنة جزاء لعبادته ولعمله الصالح، وآخر يعبد الله؛ لأن الله يستحق العبادة ولا تمر الجنة على باله، وهذا ينال ما هو أعلى من الجنة، إنه ينال ذات الرحمة، إنه ينال لقاء وجه الله.

## وما الفرق بين الجنة والرحمة؟

إن الجنة مخلوقة لله، فهي باقية بإبقاء الله لها، ولكن الرحمة باقية ببقاء الله، وهذا ضمان كاف، فمن يرى الله فيه حسن العبادة لذاته سبحانه يضعه الله في الرحمة،

---

(١) [البقرة: ٨٩].

إن هناك جنة من الجنات اسمها (علّيّون) ليس فيها متعة من المتع التي سمعنا عنها في الجنة، وليس فيها إلا أن ترى الله، وما دام العبد لا يأكل عن جوع في الآخرة، فما الأفضل له؟ جنة المتع، أو متعة رؤية وجه الله؟ لا جدال أن التمتع برؤية الله أرقى وأسمى من التمتع بالمتع الأخرى، والدقة الأدائية في القرآن توضّح لنا أن الرحمة تكتنف هؤلاء العباد الصالحين، وتحيط بهم، إنهم ظرف للرحمة وداخلون فيها، فلا تمسهم الرحمة فقط، ولكن تحيط بهم، ويؤكدها الله تعالى بظرفية جديدة بقوله: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١٠٧﴾.

## لأِنّ الحق يُتعبه، فهو لا يخبر به!

﴿تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتۡلُوهَا عَلَيۡكَ بِٱلۡحَقِّۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾[١]

ما الذي يجعل إنسانا لا يخبر بالحق؟ لا بد أن هناك داعيا عند ذلك الإنسان، فلأِنّ الحق يُتعبه، فهو يخبر بغير الحق، لكن هل هناك ما يتعب الخالق؟ لا؛ فـ﷿ منزه عن ذلك وعن كل نقص أو عيب، إذن فلا بد ألاّ يقول إلا الحق، فلا شيء خارج عن ملكه بعد ذلك. يقول سبحانه: ﴿وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلۡمٗا لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٨﴾. إنه سبحانه ينفي الظلم عن نفسه كما قال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٤٦﴾[٢].

---

(١) [آل عمران: ١٠٨].

(٢) [فصلت: ٤٦].

## كيف يأتي الظلم؟

والحق لا يريد الظلم على إطلاقه من نفسه ومنكم أنتم أيها العباد، وكيف يأتي الظلم؟ إن مظاهر الظلم هي أن تعاقب إنسانا بغير جرم ارتكبه، أو ألا تكافئ إنسانا بدل إحسانه، فهو يفعل ذلك ليروي حقدا وغلا في نفسه، وقد يلفق لإنسان جرما؛ لأنه يرى أن هذا الإنسان قد يهدده في أي مصلحة من المصالح، وهو يعلم انحرافه فيها، فيضربه أو يؤذيه مثلا، أو يضعه في السجن حتى لا يسبب له فضيحه، والله لن يحقق لذاته منفعة أو يدفع ضررا يقع من خلقه عليه؛ إنه منزه عن ذلك؛ فهو القاهر فوق عباده.

## الظالم من البشر جاهل، لماذا؟

لأنه منح قوة لمن ظلمه، ولم يضعفه، فالظالم يظلم ليضعف المظلوم أمامه، فنقول له: أنت غبي قليل الذكاء؛ لأنك قوّيته على نفسك وفعلت عكس ما تريد، ولنوضحْ ذلك، نحن جميعا عيال الله، سننتقل إلى دائرة حياتنا اليومية ونرى عيالنا.

**نضرب مثلا:**

إن الواحد منا عندما يكون له أولاد، وجاء ولد من الأولاد وظلم أخاه فَقَلْبُ الوالد يكون مع المظلوم، ويحاول الوالد أن يترضّى ابنه المظلوم، إذن فالولد الظالم ضرّ أخاه ضررا يناسب طفولته، ولكنه أعطاه نفعا يناسب قوة والده، إنه يجهل حقيقة تقويته لأخيه، وما دمنا جميعا عيال الله فماذا يفعل الله حين يرى

سبحانه واحدا من خلقه يظلم آخر من خلقه؟ لا بد أن الحق سيشمل المظلوم برعايته، وهكذا يقوى الظالم المظلومَ، والظالم بذلك يعلن عن غبائه، فلو كان ذكيا لم يظلم، ولقال: إنه لا يستأهل أن أظلمه؛ لأنه عن طريق ظلمي له سيعطيه الله مكافأة كبرى، وهي أن يجعله في كنفه ورعايته مباشرة.

## يظلم من أجل نفع عاجل

ونقول لمثل هذا الإنسان: أنت لن تَهرب ممن خلقك، ولكنك هربت من المخلوق وداريت نفسك، وحاولت أن تحقق النفع العاجل لنفسك، لكن الخالق قيّوم ﴿لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ﴾، وكأن الله سبحانه يطمئننا بأن ننام بارتياح آمنين.

## الفرق بين كلمة (تَرجِعُ) وكلمة (تُرجِعُ)

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ وَإِلَى ٱللَّهِ تُرۡجَعُ ٱلۡأُمُورُ ١٠٩﴾[1]

نحن نعلم أن القرآن الكريم قد نزل من عند الله بقراءات متعددة وقد ورد وفي بعضها **(تَرجِعُ الأمور)** بفتح التاء بالبناء للفاعل، وفي قراءة أخرى: **(تُرجِعُ الأمور)** بضم التاء بالبناء للمفعول، وكذلك **(تُرجعون)** تأتي أيضا بضم التاء وفتحها، وكلها قراءات من عند الله، وعندما يقول الله سبحانه: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ ٨٥﴾ بفتح التاء،

(١) [آل عمران: ١٠٩].

فمعنى ذلك أننا نعود إليه مختارين؛ لأن المؤمن يُحبُّ ويرغب أنْ يصل إلى الآخرة، لأن عمله طيب في الدنيا، فكأنه يجري ويسارع إلى الآخرة، ومرة يقول تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٥﴾ بضم التاء، وهذا ينطبق على الكافر أو العاصي، إنّ كُلاً منهما يحاول ألا يذهب إلى الآخرة، لكن المسألة ليست بإرادته، إنه مقهور على العودة إلى الآخرة، كما هو مقهور على قانون الجاذبية الأرضية، سواء رضي أم سخط، فمهما ارتفع الإنسان وعلا، فلا بد أن يرجع ويسقط إلى الأرض، وهذه نتيجة حتمية، ولذلك نجد التعبير القرآني: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ۝١٣﴾[1]. أي: هناك من يدفعهم إلى النار دفعا، سواء رضو بذلك أم سخطوا!

## نضرب مثلا:

في حياتنا نجد الشرطي يمسك بالمجرم من ملابسة ويدفعه إلى السجن، ذلك هو الدعّ، وهكذا يكون قول الحق: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ۝٨٥﴾ بضم التاء وفتح الجيم، أي أنه مدفوع بقوة قاهرة إلى النهاية، أما المؤمن الواثق فهو يهرول إلى آخرته مشتاقا لوجه ربه.

---

(١) [الطور: ١٣].

## كلمة (المعروف) وكلمة (المنكر)

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿١١٠﴾﴾[(١)]

وساعة تسمع كلمة (معروف) و(منكر) فإنك تجد أن اللفظ موضوع في المعنى الصحيح، ف (المعروف) هو ما يتعارف الناس عليه وألفوه ويتفاخرون به، ويَسُرُّ كل إنسان أن يعرف الآخرون عنه. (والمنكر) هو الذي ينكره الناس ويخجلون منه، فمظاهر الخير يحب كل إنسان أن يعرفها الآخرون عنه، ومظاهر الشر ينكرها كل إنسان، إن مظاهر الخير محبوبة ومحمودة حتى عند المنحرف؛ فاللص نفسه عندما يوجد في مجلس لا يعرفه فيه أحد، ويسمع أن فلاناً قد سرق فإنه يعلن استنكاره لفعل اللص، إنه أمر منكر، حتى وإن كان هو يفعله، وهكذا تعرف أن (المعروف) و(المنكر) يخضعان لتقدير الفطرة، والفطرة السليمة تأتي للأمور الخيّرة، وتجعلها متعارفا عليها بين الناس، وتنكر الفطرة السليمة الأمور المنكرة، حتى ممن يفعلها.

---

(١) [آل عمران: ١١٠].

## هل فعل ذلك وكان الله في باله؟!

ولذلك فلا تظن أن الذي يصنع الخير دون إيمان بالله يُجازى به؛ فالله يجازي من كان على الإيمان به، وأن يكون الله في بال العبد ساعة يصنع الخير، لأن الجنّة ملك لله وهو يجازي بها، فإذا فعلت خيرا من أجل الناس، خذ أجرك من الناس، وماذا يملك الناس حتى يكافئوك؟ فمن صنع خيرا من أجل الشهامة والإنسانية، والجاه والمركز والسمعة، فإنه ينال جزاءه ممن عمل له، ومادام قد صنع ذلك من أجل أن يُقال عنه ذلك فقد قيل، وهو ما يبيّنه رسول الله ﷺ بقوله: «**... قال: قَاتَلْتُ فيك حتى اسْتُشْهِدْتُ، قال: كَذبْتَ، ولكنك قَاتَلْتَ لأن يقال: جَرِيء! فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجهه حتى أُلْقِي في النار**»[1]. إنه ينال جزاء عمله من قول الناس، لكن الله يجازي في الآخرة من كان الله في باله ساعة أن عمل، لذلك فالحق ﷻ يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ۝٣٣﴾[2]. إن المؤمن يفعل العمل الصالح، ويعلن أنه يفعل ذلك لأنه من المسلمين، ومهما صنع إنسان من الخير، وترك الاعتراف بالله فخيانة الكفر تفسد كل عمل، لأنه جحد وأنكر خالقه وكفر به، والذي يعمل خيرا من أجل شخص فلينل من هذا الشخص جزاء هذا العمل.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) [فصلت: ٣٣].

## حرصوا على المركز والجاه

ولكن ما الذي يجعلهم لا يؤمنون بالله وإن عملوا معروفا؟ إنه حرصهم على الجاه الزائف، فلمّا جاء الإسلام، ظن أهل الجاه في الديانات الأخرى أن الإسلام سيسلبهم الجاه والسلطة؛ والمكانة والمنافع التي كانوا يحصلون عليها، وكان من حماقة بعضهم أن باعوا الجنة على الأرض وخافوا على المركز والجاه والمنافع، وكان ذلك من قلة الفطنة، فلو آمنوا لظل لهم الجاه والسلطة في ضوء الإيمان بالله، فلا تجارة بالدين، وكانوا سيحصلون على أجرهم مرتين، أجر في الدنيا، وأجر في الآخرة، أو أجر على إيمانهم بنبيّهم، وأجرٌ آخر لإيمانهم برسول الله، ولكن هل معنى هذا القول أن أهل الكتاب لم يؤمنوا؟ لا، إن بعضهم قد آمن، فالحق تعالى يؤرخ لهم تأريخا حقيقيا فيقول سبحانه: ﴿مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ١١٠﴾. وما دام الله سبحانه قد قال ذلك، إذن ماذا يفعل المؤمن منهم مع الفاسق؟ سيتربص الفاسقون وهم الأكثرية في اليهودية والنصرانية بالأقلية المؤمنة ليوقعوا بهم الأذى والضرر.

## محاولة الأكثرية لن يتجاوز الأذى

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلَّآ أَذًىۖ وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١﴾[1]

أي يا أيتها الأقلية التي آمنت من أهل الكتاب، مثل عبد الله بن سلام الذي

---

(١) [آل عمران: ١١١].

أسلم وترك اليهودية، إياكم أن تظنوا أن الأكثرية الفاسقة قادرة على إنزال العذاب بكم؛ فالحق سبحانه يعلن أن محاولة الأكثرية لإنزال الضرر بالأقلية التي آمنت منهم لن يتجاوز الأذى.

## ما هو الضرر؟ وما هو الأذى؟

إن الأذى هو الحدث الذي يؤلم ساعة وقوعه ثم ينتهي، أما الضرر فهو أذى يؤلم وقت وقوعه، وتكون له آثار من بعد ذلك، فعندما يصفع الإنسان إنسانا آخر صفعة بسيطة فالصفعة البسيطة تؤلم، وألمها يذهب مباشرة، لكن إذا كانت الصفعة قوية وتتسبب في كدمات وتورّم فهذا هو الضرر، فالأذى يؤلم ساعة يُباشر الفعل فقط، وقد يكون الأذى بالكلمة كالاستهزاء، فالفاسق قد يستهزئ بالذي آمن، هذه الكلمة ليس لها ضرر في ذات المؤمن ولكنها تؤذي سمعه، إن الحق سبحانه يطمئن المؤمنين على أن أهل الكفر لن يضروا المؤمنين إلا الأذى، وهذا أقصى ما في استطاعتهم، وليس لهذا الأذى أثر.

## ما الذي سوف يحدث من بعد ذلك؟

قوله تعالى: ﴿وَإِن يُقَٰتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ ٱلْأَدْبَارَ﴾، هنا نقف وقفة، فَلننطق الآية ككلام البشر: إن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا يُنصروا، وهذا القول يكون تأريخا لمعركة واحدة، لكن ما الذي سوف يحدث من بعد ذلك؟ ماذا يحدث عندما يقاتل المؤمنون أهل الكفر والفسق؟ وتكون الإجابة هي: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١١١﴾ إن هذا القول الحكيم يحمل قضية بعيدة، إنها حكم من الله على

أهل الفسق بأنهم لا يُنصرون أبدا سواء أقاتلوا أم لم يقاتلوا، إنها قضية محسومة.

## هزيمة بحكم نهائي!

وكأن هذا حكم مستمر بأن أهل الفسق لن ينتصروا على أهل الإيمان، ولو بعد انتهاء المعركة القائمة الآن بينهم، إنها هزيمة بحكم نهائي، هذا هو القول الفصل: ﴿ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ١٢﴾ وهو أشد وقعا، إنها قضية دائمة، فليست المسألة مقصورة على عهد رسول الله فقط، ولكنها ستظل إلى أبد الآبدين.

## كيف ينتصر علينا اليهود ونحن مسلمون؟

وقد يأتي إنسان ويقول: كيف ينتصر علينا اليهود في هذا العصر ونحن مسلمون؟ ونقول: هل نحن نتبع الآن منهج وروح الإسلام؟ وماذا عندنا من الإسلام ومن الإيمان؟ هل تحسب نفسك على ربك أثناء هزيمتك؟ وهل دخلت معركتك كمعركة إسلامية؟ لا، لقد انتبهنا إلى كل شيء إلاّ الإسلام، قدمنا الانتماء لعصبية وقومية وعرقية على الإيمان، فكيف نطلب نصرا من الله؟ لا يحق لنا أن نطلب نصر الله إلا إذا دخلنا المعركة ونحن من جند الله، والهزيمة تحدث عندما لا نكون جنداً لله؛ لأن الله ضمن النصر والغلبة لجنوده فقال: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾[1]. فإذا لم نَغلب فتأكدوا أننا لسنا من جنود الله.

---

(١) [الصافات: ١٧٣].

## معنى كلمة ﴿ضُرِبَتْ﴾

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُواْ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾﴾(١)

نحن نستخدم كلمة (ضرْب) في النقود، عندما نقول: ضُرب هذا النقود في مصر، ومعنى ذلك أن الصانع يقوم بصنع قالب من مادة أكثر صلابة من المادة التي يصنع منها النقد، ويرسم فيها الحفريات التي تبزر الكتاب والصور على وجهي العملة، ثم تُصبّ المادة في ذلك القالَب، فتبرز الكتابة والصور، كأن (ضُرب) معناها (أُلزم)، إذن فالضرب معناه الإلزام والقسر على الفعل، وعندما يقول سبحانه: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ﴾ أي لزمتهم الذلة لا يستطيعون الانفكاك عنها أبدا، كما لا يستطيع المعدن المضروب نقدا أن ينفك عن القالب الذي صُكّ عليه، وكأن الذلة قبة ضربت عليهم، وقالب لهم، وقول الحق: ﴿أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓاْ﴾ تفيد أنهم أذلاء أينما وُجدوا في أي مكان.

## ولكن هناك استثناء لذلك، ما هو؟

قوله سبحانه: ﴿إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ إنهم لا يعانون من الذلة

---

(١) [آل عمران: ١١٢].

في حالة وجود عهدٍ من الله أو عهد من أناس أقوياء أن يقدموا لهم الحماية: فلما كانوا في عهد الله أولاً وعهد رسوله ساعة دخل رسول الله ﷺ المدينة وأعطاهم العهد، فكانوا آمنين، ولما خانوا العهد، ولم يُوفوا به؛ ماذا حدث؟ ضُربت عليهم الذلة مرة أخرى، إذن لقد كانوا في عهد الله آمنين لكنهم خانوا العهد، وانقطع حبل الله عنهم، فهيّجوا الهيجة التي عرفناها ونزل بهم ما نزل، وهو ما حدث لبني قينقاع ولبني النضير وبني قريظة ويهود خيبر، ونحن نعلم أن رسول الله ﷺ أول ما نزل المدينة عقَد العهد بينه وبين اليهود، وعاشوا في اطمئنان إلى أن خانوا العهد، فضُربت عليهم الذلة، وطُردوا من المدينة.

## نحن نراهم في حياتنا المعاصرة!

أما عن حبل الناس؛ فذلك لأنهم (أي اليهود) لا يملكون أيّ عزة ذاتية، إنهم دائما في ذلة إلا أن يبتغوا العزة من جانب عهد وحبل من الله، أو من جانب حماية من الناس، ونحن نراهم على هذا الحال في حياتنا المعاصرة، لا بد لهم من العيش في كنف أحد؛ لذلك فعندما حاربنا (إسرائيل) في حرب أكتوبر، انتصرنا عليهم إلى أن تدخلت أمريكا بثقلها العسكري، فقال رئيس الدولة المصري: لا قدرة لي أن أحارب أمريكا، إذن لو كانت الحرب بيننا وبينهم فقط لانتهت قوتهم؛ فهم بلا عزة ذاتية.

## المكان الذي أواهم هو الذي تمردّوا عليه!

ويقول سبحانه: ﴿وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ وهل رأى أحد منا غضبا أكبر من أن الله قد قطّعهم في الأرض؟ ولنقرأ قول الله: ﴿وَقَطَّعۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُمَمٗاۖ﴾[1].

المكان الوحيد الذي آواهم في زمن رسول الله ﷺ هو الجزيرة العربية في يثرب، واستقروا قليلا، وصارت لهم سيادة علمية؛ لأنهم أهل كتاب، وصارت لهم سيادة اقتصادية، وكذلك سيادة حربية، وهذا المكان الذي أواهم من الشتات في الأرض هو المكان نفسه الذي تمردوا عليه!

## كيف وصل اليهود إلى يثرب؟!

لقد كان السبب الذي من أجله قد جاءوا إلى يثرب هو ما كانوا يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة؛ ففي التوراة جاء ما يفيد أن نبيا سيأتي في هذا المكان ولا بد أن يتبعوه، واليهود لم يأتوا إلى يثرب إلا على أمل أن يتلقّفوا النبي المنتظر ليؤمنوا به، ومن بعد ذلك يكونون حربا على الكافرين معه، لكن ما الذي حدث؟ إنه سبحانه يخبرنا بما حدث منهم في قوله: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ﴾[2]. اعترضوا عليه لأنه نبيّ عربيّ، وكفروا به، يريدونه نبي منهم، أي بني إسرائيل، رغن أنهم عرفوا أوصافه كما جاءت في كتبهم، ثم ذكر

---

(١) [الأعراف: ١٦٨].

(٢) [البقرة: ٨٩].

السبب فقال: ﴿ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨﴾ كَانَ العصيانُ سبباً لأن تُضرب عليهم الذلة، وأن يبوءوا بغضب من الله، وأن تُضرب عليهم المسكنة، وكل ذلك ناشئ من فعلهم.

## قولان للمفسرين في قوله سبحانه: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗ﴾

﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣﴾[1]

وهذا ما حدث بالفعل، لكن أيّ آيات لله كانوا يتلونها؟ إنها آيات القرآن، ولماذا يقول الحق: ﴿وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣﴾ وهل هناك قراءة للقرآن ساعة السجود؟ حتى نعرف تفسير ذلك لا بد لنا أن نعرف أن اليهود لا يصلّون العتمة، أي الصلاة في الليل، وحتى يعطيهم الله السمة الإسلامية قال عنهم: ﴿يَسۡجُدُونَ۩ ٢١﴾ ويُعَرّفهم بأنهم يقيمون صلاة العتمة وهي العشاء، وهي صلاة المسلمين، وما داموا يصلون صلوات المسلمين ويسجدون، إذن فهم مسلمون، وذكر المفسرون قولين في المراد من قوله سبحانه: ﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ﴾:

الأول: إن أهل الكتاب ليسوا سواء في موقفهم من الإسلام، فبعضهم مؤمن به، مستسلم لما جاء به، وبعضهم معرض عنه، رافض لما جاء به، ومال ابن كثير

(١) [آل عمران: ١١٣].

إلى هذا القول، وقال: هذه الصفات توجد في اليهود، ولكن قليلاً، كما وُجِدَ في عبد الله بن سلام، وأمثاله ممن آمن من أحبار اليهود، ولم يبلغوا عشرة أنفس، وأما النصارى فكثير منهم، وهكذا نعرف أن أهل الكتاب ليسوا سواء؛ ولذلك لا يكون حكم الله عليهم جميعا، فمن أهل الكتاب جماعة دخلوا في الإسلام، وهي قائمة بتلاوة القرآن آناء الليل وهم يسجدون، وكانوا يؤدون الصلاة باستدامة وخشوع.

القول الثاني: إن المسلمين وأهل الكتاب ليسوا سواء، وقد رُوي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: لا يستوي أهل الكتاب وأمة محمد ﷺ، وقد مال إلى هذا القول من المفسرين الإمام القرطبي، ويستمر الحق سبحانه في وصفهم في الآية التالية:

## صفات ﴿خَيۡرَ أُمَّةٍ أُخۡرِجَتۡ لِلنَّاسِ﴾

﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤﴾[1]

إنما يتصفون بالصفات التي أوردها الله صفة لخير أمة أُخرجت للناس، وهي أمة محمد ﷺ، وبمجرد أن جاء النبي الجديد تلقّفوا الخيط وآمنوا برسالته،

(١) [آل عمران: ١١٤].

وصاروا من خير أمة أخرجت للناس، لقد أراد ابن الخليفة عمر بن عبد العزيز من أبيه أن يسارع في وَقْف عقاراته لله، اليوم قبل أن يأتي الغد، لكننا في زمننا قد نجد من الأبناء من يطلب الحَجْر على أبيه إن فكر في ذلك!

## وهنا يبرز سؤال هو: كيف يكونوا ﴿مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝﴾؟

كلمة رجل صالح تعني أنه صالح لاستعمار الأرض وإصلاحها، إن الرجل على سبيل المثال، قد يجد بئرا يأخذ منه الناس الماء، فإما يتركه على حاله، وإن كان طالحا فقد يردم البئر بالتراب، أما إن كان الرجل من أهل الصلاح فيفكر ليبني خزانا عاليا، ويسحب الماء من البئر بآلة رافعة، ويُخرج من الخزان أنابيب ويمدها إلى البيوت بالطريقة الحديثة، فيأخذ الناس المياه وهم في المنازل، إن هذا الرجل قد استخدم فكره في زيادة صلاح البئر، إذن فكلمة رجل صالح تعني أنه صالح لاستعمار الأرض أي أن يجعلها عامرة.

### نضرب مثلا:

ومثال ذلك، حين اخترعوا المبيدات الحشرية، ظنوا أنهم تغلبوا على الآفات في الزراعة، لكنهم لم يعرفوا أنهم قد أضروا بالزراعة وبالبيئة أكثر مما أفادوا، لذلك عادوا يقولون: لا تستعملوا هذه المبيدات؛ لأنها ذات أضرار كثيرة، ولهذا لا بد أن يكون كل عمل قائما على قواعد علمية سليمة.

## لا يضيع عند الله عمل

﴿وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ١١٥﴾[(١)]

إن شيئا لا يضيع عنده وهو الحق سبحانه؛ فالخير الذي يفعلونه لن يُجحد لهم أو يُستر عن الناس؛ لأنه سبحانه عليم بالمتقين، فمن الجائز أن يصنع إنسان الأعمال ولا يراها أحد، أما الحق فهو يرى كل عمل، وهو الذي يملك حسن الجزاء، ثم يصف الله سبحانه حال الذين كفروا يوم القيامة فيقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ أَمۡوَٰلُهُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـٔٗاۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ١١٦﴾[(٢)]

## إنهم لا يحسنون التقدير

فالأموال والأولاد هما من مظانّ الفتنة مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَأَوۡلَٰدُكُمۡ فِتۡنَةٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥٓ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ٢٨﴾[(٣)]، وما دامت الأموال والأولاد فتنة فلا بد أن نفهم الأمر على حقيقته؛ فالفتنة ليست مذمومة في ذاتها؛ لأن معناها اختبار وامتحان، وقد يمر الإنسان بالفتنة وينجح، كأن يكون عنده الأموال والأولاد فلا يغترّ بذلك إن استعملها في أمور الخير، ودفع

---

(١) [آل عمران: ١١٥].

(٢) [آل عمران: ١١٦].

(٣) [الأنفال: ٢٨].

البلاء والشقاء عن الفقراء والضعفاء، لذلك فساعة يسمع الإنسان أي أمر فيه فتنة فلا يظن أنها أمر سيء، بل عليه أن يتذكر أن الفتنة هي اختبار وابتلاء وامتحان، وعلى الإنسان أن ينجح مع هذه الفتنة؛ فالفتنة إنها تضر من يفشل ويضعف عند مواجهتها، والكافرون لا ينجحون في فتنة الأموال والأولاد، هم في الدنيا مشغولون بأموالهم وأولادهم، لكن سيأتي يوم لا يملكون فيه هذا المال ولا أولئك الأولاد، وسيكون كل واحد من أولادهم مشغولا بنفسه، إن كل امرئ له يوم القيامة شأن يلهيه عن الآخرين.

## من هو الغَنيُّ؟

وعندما نتأمل قوله: ﴿لَّن تُغۡنِيَ عَنۡهُمۡ﴾ نجد أننا نقول: أغناه عن كذا أي جعله في استغناء، فمن هو الغَنيُّ إذن؟ الغني هو من تكون له ذاتية غير محتاجة إلى غيره، فإن كان جائعا فهو لا يأكل من يد الغير، والنبي ﷺ يقول: «**ليسَ الغنى عن كثرةِ العَرَضِ ولكنَّ الغِنى غنى النَّفسِ**»[1]. يعني: ليس الغِنى الحقيقي بسبب كثرة ما عند الإنسان من الثروات من العقارات والسيارات، والمصانع والشركات، وغيرها من مطالب الدنيا، لأن مطالب الحياة الدنيا كالماء المالح، كلما شربت منه ازددت عطشا، إن الكافر من هؤلاء يخدع نفسه ويغشّها، ويغترّ بالمال والأولاد، وينسى أن الحياة تسير بأمر من يملك الملك كله، إن الكافر

---

(١) أخرجه البخاري ومسلم.

يأخذ مسألة الحياة في غير موقعها، فالغرور بالمال والأولاد في الحياة أمر خادع، والإنسان يستطيع أن يعيش الحياة بلا مال أو أولاد، ومن يغتر بالمال أو الأولاد في الحياة يأتي يوم القيامة ويجد أمواله وأولاده حسرة عليه لماذا؟ لأنه كلما تذكر أن المال والأولاد أبعداه عما يؤهله لهذا الموقف، فهو يعاني من الأسى ويقع في الحسرة.

## إياكِ يا نفس أن تنخدعي!!

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾ فإن رأينا كفارا يعملون خيرا في الدنيا فليحذّر كلّ منّا نفسه قائلا: إياك يا نفس أن تنخدعي بذلك الخير، لماذا؟ لأن الكافر يعيش كفر القمّة، وكل عمل مع كفر القمة هو عمل مرفوض عند الله، وإن كان مقبولا عند الناس.

## اللّه سبحانه يضرب لنا مثلا

﴿مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَثَلِ رِيحٖ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتۡ حَرۡثَ قَوۡمٖ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَأَهۡلَكَتۡهُۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ۝١١٧﴾[1]

إن ما ينفقه هؤلاء الكافرون في أثناء الحياة الدنيا وهم بعيدون عن منهج الله، إنه سبحانه يشبهه بريح فيها صرّ، أي شديدة، فمادة (الصاد والراء) تدل على

(١) [آل عمران: ١١٧].

الشدة والضجة والصخب، والريح الصرصر هي التي تحمل الصقيع، ولها صوت مسموع، فإنها تنقل هذا البرد من مكان إلى مكان آخر، فتتسع دائرة الضرر بها، وماذا تفعل الريح التي فيها شِدة برد؟ إنها تفعل الكوارث، ويقول عنها الحق: ﴿أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُۚ﴾ إن الله سبحانه يريد أن يضرب لنا المثل؛ وهو عن جماعة غير مؤمنين أنفقوا أموالهم في الخير، لكن ذلك لا ينفعهم ولا جدوى منه، وهكذا يكون مصير الإنفاق على نيّة غير مؤمنة، كهيئة الحرث الذي هبّت عليه ريح فيها صوت شديد مصحوب ببرد، و(الريح الصر): هي الريح الشديدة المصحوبة بالبرد، ونعرف في القُرى أن الصقيع ينزل على بعض المزروعات فيتلفها.

## من عمل عملا فليطلب أجره ممن عمل له!

ونلاحظ هنا أن هذه الأموال التي أنفقها الكافرون لعمل الخير، لن تغني عنهم شيئا في الآخرة؛ لأنهم لا يملكونها، لماذا؟ لأن النية دائما هي التي تحدد الهدف، فهل كان في نية هؤلاء حين أنفقوا أموالهم في الخير؟ كالمساعدات الإنسانية؟ وإنشاء المدارس والمستشفيات؟ هل كان في بال هؤلاء الكفار ثواب الآخرة؟ أم أنهم كانوا يعملونها طمعا في جاه الدنيا؟ وتقدير التاريخ وذكر الإنسانية؟ وإنشاء التماثيل لهم على مفارق الطرق الرئيسية! لا شك أنهم كانوا يعملونها للجاه، أو للتاريخ، أو للإنسانية؛ لأنهم لا يؤمنون بما وراء ذلك، فليطلبوا

أجرهم منهم، فهم لا يؤمنون بوجود إله ولا يؤمنون بوجود يوم آخر يُحاسبون فيه على ما قدموا، وقلنا من قبل: إن الذي يعمل عملا فليطلب أجره ممن عمل له.

## هل تُصيب الريح حرث قوم لم يظلموا أنفسهم؟

لماذا تصيب الريح حرث قوم ظلموا أنفسهم، وهل لا تصيب الريح حرث قوم لم يظلموا أنفسهم؟ إن الذين ظلموا أنفسهم تنزل بهم هذه الكارثة كعقوبة، لقد جزاهم الله بظلمهم، ولكن ألا نرى رجلا لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة؟ إننا نرى ذلك في الحياة، والرجل الذي لم يظلم نفسه وتصيب زراعته كارثة، فهو يصبر على كارثته، ويأخذ الجزاء والثواب من الله، ولعل الله قد أهلك بها مالا كانت الغفلة قد أدخلته في ماله من طريق غير مشروع، هكذا تكون الكارثة بالنسبة للمؤمن لها ثواب وجزاء، أو تكون تطهيرا للمال، أما الذي ينفق على غير نية الله وهو كافر، فلا ثواب له.

## نهاية مؤلمة ومدمرة!!

وقوله تعالى: ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ فهو سبحانه لم يظلم الكافرين حين جعل نفقتهم بدون جدوى ولا حصيلة لها عنده، ﴿وَلَٰكِنۡ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ١١٧﴾ لأنهم أنفقوا أموالا طائلة على غير هيئة القبول، وهم الذين صنعوا ذلك عندما ظلموا أنفسهم بالكفر فَحَبطت أعمالهم، وما داموا قد عملوا للدنيا وجاهها،

والفخر فيها، فقد أعطتهم الدنيا كل شيء، كالنبات يزهر جمالا، وبعد ذلك ينتهي إلى هشيم، هكذا هي الدنيا، فيها نضارة وخضرة وبهجة، ونهاية مؤلمة ومدمرة، وتلك هي عدالة الحق سبحانه.

## لا تسأل: لماذا كلفتني يا رب بهذا الأمر؟

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ لَا يَأۡلُونَكُمۡ خَبَالٗا وَدُّواْ مَا عَنِتُّمۡ قَدۡ بَدَتِ ٱلۡبَغۡضَآءُ مِنۡ أَفۡوَٰهِهِمۡ وَمَا تُخۡفِي صُدُورُهُمۡ أَكۡبَرُۚ قَدۡ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۖ إِن كُنتُمۡ تَعۡقِلُونَ ١١٨﴾[١]

حين يخاطب الله المؤمنين ويناديهم بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ فلتعلم أن ما يجيء بعد ذلك هو تكليف من الله، وهو سبحانه لا يكلف ب (افعل) و(لا تفعل) إلا من آمن، أما من لم يؤمن فيناديه الله ليدخل في حظيرة الإيمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ فإذا ما دخل الإنسان في حظيرة الإيمان، فليسمع من الإله ما يصلح حياته، ويتساءل الإنسان: كيف ينادي الله مؤمنا بهذا القول ثم يأمره بالإيمان؟ وهنا نرى أن الله حين يطلب من المؤمن أمراً موجودا فيه؛ فلنعلم أن الله يريد من المؤمن الاستدامة على هذا اللون من السلوك الذي يحبه الله، وكأن الله حين يخاطب المؤمنين بقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إنما يحمل هذا القول الكريم أمراً بالاستدامة على الإيمان، ونحن نعرف

---

(١) [آل عمران: ١١٨].

أن قوما آمنوا فارتدوا، فليس الأمر مجرد إعلان الإيمان ثم تنتهي المسألة، لا، إن المطلوب هو استدامة الإيمان، وحين نقرأ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فلنفهم أن هناك تكليفا جديدا، ولا تبحث أيها المؤمن في علة الحكم وتسأل: لماذا كلفتني يا رب بهذا الأمر؟ فليس من حقك أيها المؤمن أن تسأل لماذا، سواء فهمت العلة أم لم تفهمها.

## نضرب مثلا للتوضيح:

إن المريض الذي يشكو من سوء الهضم بعد تناول الطعام؛ يفكر أن جهازه الهضمي مصاب بعلة، ويفكر في اختيار الطبيب المعالج، ويختار طبيبا متخصصا في الجهاز الهضمي، ويذهب إلى هذا الطيب، وهنا ينتهي عمل العقل بالنسبة للمريض؛ فقد اختار طبيبا وقرر الذهاب إليه، والطبيب يُجري الفحص الدقيق، ويطلب التحاليل اللازمة إن احتاج الأمر، ويشخّص الداء، ثم يكتب الدواء، وحين يكتب الطبيب الدواء للمريض، فإن المريض لا يعترض ويقول: لن آخذ هذا الدواء إلا إذا أقنعتني بحكمته! فكيف يكون أدب الإنسان مع خالقه؟

## مثال آخر:

إننا ظللنا لا نعرف علة حكم من الأحكام لمدة أربعة عشر قرنا من الزمان، مثل تحريم أكل لحم الخنزير، فهل كان على العباد المؤمنين أن يؤجّلوا أكل لحم

الخنزير أربعة عشر قرنا إلى أن يمتلكوا معامل للتحليل حتى نعرف المضارّ التي فيه؟ تلك المضارّ التي ثبتت علميا؟،لا.

**مثال آخر:**

عندما يزور الإنسان مريضا ويسأله: لماذا تأخذ هذا الدواء؟ فالمريض يجيب: لقد كتب الطبيب لي هذا الدواء، ويكتفي بهذا القول، فما بالنا بتنفيذ أحكام الله؟ إنه يجب أن ننفذها لأن الله قالها، ونكتفي بذلك، فكأن العقل يوصلك إلى أن تؤمن بالله، ولكنه لا يحشر نفسه فيما ليس له قدرة عليه.

## معنى كلمة ﴿بِطَانَةً﴾

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمۡ﴾ ولنفهم كلمة ﴿بِطَانَةً﴾ هنا جيدا، إن بطانة الرجل هم خاصته، أي الناس الذين يصاحبهم ويجلسون معه ويعرفون أسراره، ويسمون البطانة بالوليجة، أي التي تدخل في حياة الناس، وكل شر في الوجود من هذه البطانة، لذلك كأنه سبحانه يقول: يا أيها المؤمنون تنبهوا إلى أنكم في معسكر يقاتلكم ويعاندكم، وهؤلاء لا يمكن أن يتركوكم على إيمانكم، بل لا بد أن يكيدوا لكم، وهذا الكيد يتجلى في أنهم يدسّون لكم أشياء، وينفُذون إليكم.

## هذا قريبي، أو صديقي؟

ونعرف جميعا أن الإسلام عندما جاء كان كثير ممن آمن له ارتباطات بمن لم يسلم؛ فهناك القرابة والصداقة والجوار، والأخوّة من الرضاعة، لذلك يحذّر الله من هذه المسائل، فلا يقولنّ مؤمن هذا قريبي، أو هذا صديقي، فالإسلام يحقق لكم أخوة إيمانية تفوق كلّ ذلك، ولهذا فإياكم أن تتخذوا أناسا يتداخلون معكم بالودّ؛ لأن الشر يأتي من هذا المجال، وأن الكفار لن يتورّعوا أن يدخلوا عليكم من باب الكيد لكم ولدينكم بكل لون من الألوان، ولا يقصّرون في هذا أبدا، لذلك يأتي الأمر من الله بأن احموا هذا الإيمان، فلا تتداخلوا مع غير المؤمنين تداخلا يفسد عليكم أمور دينكم؛ لأنهم لن يهدأوا، لماذا؟ لأن حال هذه البطانة معكم سيكون كما يلي: ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ أي لا يقصّرون أبدا في إفسادكم والكيد لكم، ولا يقف الأمر عند هذا الحد، بل ﴿وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ﴾ أي أنهم يحبون العنت والتعب للمؤمنين، ويحبون المشقة لهم.

## من أين تنشأ المشقة؟

نحن نرى ذلك في المجتمعات الأوروبية التي وصلت إلى أرقى حياة اقتصادية، وأمورهم المادية ميسرة كلها، فالشيخوخة مُؤَمَّنة، وكذلك التأمينات الصحية والاجتماعية، ودخل الإنسان مرتفع، لكنهم مع ذلك يعيشون في تعب، وترتفع بينهم نسبة الانتحار، وينتشر بينهم الشذوذ، والسبب وراء كل ذلك هو أن

ملكاتهم النفسية غير منسجمة، وسلام الملكات النفسية لا يتحقق إلا عندما يؤمن الإنسان، ويطبق تعاليم ما يؤمن به.

**نضرب مثلا:**

فالرجل على سبيل المثال حين ينظر إلى زوجته، ينظر إليها براحة ويشعر باطمئنان؛ لأن ملكاته النفسية منسجمة، أما عندما تتجه عيناه إلى امرأة ليست زوجته، فإنه يراقب كل من حوله حتى يعرف هل هناك من يراه أو لا؟ وهل ضبطه أحد أو لا؟ وعندما يضبطه أحد فهو يضطرب ويفزع وتتخبط ملكاته.

## الكافر يحاول أن يجذب المؤمن إلى الانحراف

لذلك، يحذر الله سبحانه المؤمنين: إياكم من البطانة من غير المؤمنين، لأنهم لا يقصّرون أبدا ولا يتركون جهدا وهم يحاولون فيه أن يدخلوكم في مشقة، والمشقة إنما تنشأ من أن الكافر يحاول أن يجذب المؤمن إلى الانحراف والاضطراب النفسي، وتشتت الملكات مستغلا القرابة والصداقة، مطالبا أن يرضيه المؤمن بما يخالف الدين، ولا يستطيع المؤمن التوفيق بين ما يطلبه الدين وما يطلبه الكافر؛ لذلك تنقسم ملكات المؤمن ويحسّ بالمشقة، والكافرون لا يتركون أي فرصة تأتي بالفساد للمؤمنين إلا انتهزوها واغتنموها.

## اللّهُ فضَحَهُم!

قوله ﷻ: ﴿قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ وما دامت البغضاء قد بدت من أفواههم فكيف نتخذهم بطانة؟ إنك حين تصنع لنفسك جماعة من غير المؤمنين، تبدوا البغضاء من أفواههم، ويتبادلون الاستهزاء والسخرية بالمؤمن، وكان عليهم أن يعلموا أن هناك إلها يرقب عملية الإيمان في المؤمن حتى ينبهه إلى أدق الأشياء، لكنهم في غباء، لقد كان مجرد نزول قول الحق: ﴿وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ إن الغيظ الذي في قلوب هؤلاء الجاحدين الحاقدين قد ظهر على ألسنتهم، ولكن مَن الذي نقل إلى رسول الله ﷺ وصحابته ما في صدور الكافرين مما هو أكثر من ذلك؟ إنه الله قد فضحهم.

## معنى ﴿ٱلْأَيَٰتِ﴾

وإذا ما دققنا التأمل في قوله سبحانه: ﴿قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْأَيَٰتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ١١٨﴾ فالآية هي الشيء العجيب اللافت الذي يجب أنه ننتبه إليه، لنأخذ منه دستورا لحياتنا، فالآيات المنزلة من الله إما أن تكون آيات قرآنية، وإما أن تكون آيات كونية، فالقرآن له آيات، والكون له آيات، وهكذا نعلم أن الآيات القرآنية تعطي التعاليم والمنهج، والآيات الكونية تتحدث عن خلق الإنسان، والكون، ومكونات الأرض والسماوات.

## قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾ والبغضاء في أفواههم

﴿هَٰٓأَنتُمۡ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ وَتُؤۡمِنُونَ بِٱلۡكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمۡ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ قُلۡ مُوتُواْ بِغَيۡظِكُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩﴾(١)

ما زال الحديث عن البطانة، وهو يدل على أن البطانة لم تستطع أن تلوي المؤمنين عن الإيمان، ولم يكن أمام هؤلاء إلا النفاق، لذلك قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾. ثم قوله: ﴿تُحِبُّونَهُمۡ وَلَا يُحِبُّونَكُمۡ﴾ لقد أحب المؤمنون الكافرين، وأرادوا أن يجنّبوهم متاعب الكفر في الدنيا والآخرة، وهذا هو الحب الحقيقي، فهل بَادَلَهُم الكافرون الحب؟ لا؛ لأنهم أرادوا أخذ المؤمنين إلى الكفر، ولم يستطيعوا ذلك، ولذلك قالوا: ﴿ءَامَنَّا﴾، قالوا ذلك على الرغم من ظهور البغضاء في أفواههم، ولم يكن سلوكهم مطابقا لما يقولون.

## حدث ما هو العكس!

معنى قوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَلَوۡاْ عَضُّواْ عَلَيۡكُمُ ٱلۡأَنَامِلَ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۚ﴾ عملية عض الأنامل عندما نراها نجدها عملية انفعالية واضطراب قسري، أي أن الفكر لا يرتبها؛ فليس هناك من يرضى لنفسه عضّ أصابعه، لأن ذلك يسبب الألم، لكن الامتلاء بالغيظ يدفع الإنسان إلى ذلك الانفعال، ومن أين يجيء

---

(١) [آل عمران: ١١٩].

الغيظ؟ لقد جاء الغيظ إلى الكافرين لأنهم لم يستطيعوا أن يزحزحوا المؤمنين عن منهج الله، بل حدث ما هو العكس، لقد حاول المؤمنون أن يجذبوا الكافرين إلى الإيمان، ولذلك وقعوا في الغيظ، فإذا أراد إنسان من أهل الإيمان أن يواجه حسد واحد من خصومه فعليه أن يزيد في فضله على هذا الإنسان، وهنا يزداد هذا الخصم غيظا ومرارة، إنهم بإحسان المسلمين إليهم يزدادون خصومة، وغيظا وحقدا على الإسلام وكان المسلمون الأوائل يتصرفون بذلك الأسلوب، لقد كانوا جبالا إيمانية راسخة.

## يخزّن انفعالاته في قلبه كالبركان!

ساعة يرى خصوم الإسلام أن كيدهم لا يحقق هدفه فإنهم يقعون في بئر وحمأة الغيظ، وعندما يَخْلُوَنّ الكافرون بأنفسهم فأول أعمالهم هو عض الأصابع من الغيظ، نتيجة الانفعال القسري التابع للغضب والعجز عن تحقيق الغاية؛ فالإنسان عندما يسبب غضبا لأحد يعرفه فهو ينفعل بسرعة ويثور بالكلمات، هذا دليل على طيبة الإنسان الغاضب، أمَّا الذي لا يظهر انفعاله فيجب الحذر منه؛ لأنه يخزّن انفعالاته، ويسيطر عليها، فلا تعرف متى تظهر ولا على أية صورة تبدو؛ فعندما تتجمع انفعالاته وتصبح متراكمة في قلبه كالبركان، فلا أحد يعرف متى يفيض به الكيل ويثور. ﴿قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾[1].

ومعنى ذلك أن إغاظة المؤمنين لكم أيها الكافرون ستستمر إلى أن تموتوا من

---

(١) [آل عمران: ١١٩].

الغيظ؛ لذلك فلا طائل من محاولتكم جذب المؤمنين إلى الكفر: ﴿قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ﴾، فمعنى ذلك أنه سيظل أسير هذا الأمر حتى يدركه الموت.

## الفرق بين المسّ والإصابة

﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ١٢٠﴾[1]

العبارات في المعنى الواحد قد تختلف، لأن كل مقام له قوله، وسبحانه يحدد بدقة متناهية اللفظ المناسب، وفي الآية التي نحن بصددها تجد خلافا في الأسلوب، فسبحانه يقول: ﴿إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ﴾ إنه لم يورد الأمر كله (مَسًّا)، ولم يورده كله (إصابة) إنه كلام رب حكيم، ولنتعرف الأن على المس والإصابة، بعض العلماء قال: إن المس والإصابة بمعنى واحد، بدليل قوله الحق: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ٢١﴾[2]. فإذا مسّ الرجل امرأته، فنحن نأمره بالوضوء فقط فلا حاجة للغسل، أما الإصابة فهي التقاء وزيادة؛ فالذي يضرب واحدا صفعة وأصابه فإنه قد يتورم وجهه، وهذا المعنى لا ينطبق إذا قلنا مسّه، وهكذا نعرف أن هناك فرقا بين المس والإصابة.

---

(١) [آل عمران: ١٢٠].

(٢) [المعارج: ١٩ – ٢١].

## اصبر على شرّهم!

فمعنى ذلك أن الحسنة الواقعة بسيطة، أو قليل من الخير، وفي حياتنا اليومية نجد من يمتلئ غيظا لأن خصمه قد كسب عشرة قروش، وقد يجد من يقول له: لماذا لا تدّخر غيظك إلى أن يكسب مائة جنيه مثلا؟ ومثل هذا الغيظ من الحسنة الصغيرة هو دليل على أن أي خير يأتي للمؤمنين إنما يسبب التعب والغيظ للكافرين، فماذا عن أمر السيئة؟ الله يقول: ﴿وَإِن تُصِبۡكُمۡ سَيِّئَةٞ يَفۡرَحُواْ بِهَاۖ﴾ إن الكافرين يفرحون لأي سوء يصيب المؤمنين، إن المطلوب منك أن تصبر على عداوتهم، وتصبر على شرّهم، وتصبر على فرحهم في المصائب، وتصبر على حزنهم من النعمة تصيبك أو تمسك، اصبر فيكون عندك مناعة؛ وكيدهم لن ينال منك، اصبر ليتحقق فيك قول الله سبحانه: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾.

## وما الكيد؟

الكيد: هو أن تحتال على إيقاع الضرر بالغير، بحيث يبدو أنه كيدٌ من غيرك، أي تدبّر لغيرك لتضرّه، وما معنى يبيّتون؟ قالوا: إن التبييت ليس دليل الشجاعة، وساعة ترى واحداً يبيّت ويمكر فاعرف أنه جبان؛ لأن الشجاع لا يكيد ولا يمكر، إنما يمكر ويكيد الضعيف الذي لا يقدر على المواجهة، فإن تصبروا على مقتضيات عداواتهم وتتقوا الله لا يضركم كيدهم شيئا؛ لأن الله يكون معكم.

## يحاسبهم على جرائمهم

ويذيل الله سبحانه الآية الكريمة بالقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطٌ ١٢٠﴾، وساعة ترى كلمة ﴿مُّحِيطٌ ٢٠﴾ فهذا يدلك على أنه عالم بكل شيء، والإحاطة: تعني ألا تشرد حاجة منه، والله محيط بكل أعمال البلاد والعباد، يحاسبهم على جرائمهم في الدنيا قبل الآخرة، وها هي تجارب واقعية نعيشها ونشاهدها أو نقرؤها في تاريخ الإسلام.

## إن خالفتم الرسول فلا بد أن تنهزموا

﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ١٢١﴾[1]

هذه المرة في غزوة أحد، جاء الكفار بثلاثة آلاف، وكان المسلمون قلة، سبعمائة مقاتل فقط، والغدوة هي: أول النهار، والرواح: آخر النهار، والأهل: تطلق ويراد بها الزوجة، والمقصود هنا حجرة عائشة؛ لأن الرسول كان فيها في هذا الوقت الذي أراد فيه كفار قريش أن يثأروا لأنفسهم من قتلى بدر وأسراهم، وقد جمعوا حشودهم، فدخل رسول الله ﷺ بيته فلبس درعه وأخذ سلاحه، وخرجوا إلى الحرب، اذكر يا محمد: ﴿وَإِذۡ غَدَوۡتَ مِنۡ أَهۡلِكَ تُبَوِّئُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلۡقِتَالِۗ﴾ أي توطّن المؤمنين في أماكن للقتال، وكلمة ﴿مَقَٰعِدَ﴾ أي أماكن

---

(١) [آل عمران: ١٢١].

للثبات، فكأنه مُوَطَّنٌ في الميدان، فكأن أمر الرسول إلى المقاتلين يتضمن ألا يلتفت أي منهم إلى موطن آخر غير موطنه الذي ثبته فيه، أي إن هذا هو وطنك الآن.

## إن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا

رسول الله ﷺ جاء بالرماة؛ وأمّر عليهم عبد الله بن جبير، وهم يومئذ خمسون رجلا وقال لهم: **«قوموا على مصافّكم هذه فاحموا ظهورنا، فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا»**، لكنهم لم يقدروا على هذه، لأن نفوسهم مالت إلى الغنيمة؛ وقد تبيّن للمؤمنين في كل المعارك أن أمر القائد يجب أن يُتبع.

## هل الإسلام انهزم في أُحد؟!!

قد يقول قائل: الإسلام انهزم في معركة أُحد، نقول: لا، إن الإسلام انتصر، لكن المسلمين انهزموا، ولو أن المسلمين في هذه المعركة انتصروا مع مخالفة الرماة لأمر النبي ﷺ، أكان يستقيم لرسول الله أمر؟ إذن فقد انهزم المسلمون الذين لم ينفذوا الأمر، وكان لا بد من أن يعيشوا التجربة وهم مع رسول الله، إن التحقيق التاريخي لمعركة أُحد قد أكد أن المسألة لا تُعتبر هزيمة ولا انتصاراً؛ لأن المعركة كانت لا تزال مائعة، وبعدها دعا الرسول من كان معه في غزوة أحد إلى الخروج في طلب العدو، وأدركهم في (حمراء الأسد)، وفَرَّ الكافرون،

فلا أسروا، ولا أخذوا غنيمة، ولا دخلوا المدينة، ولا ظلوا في أرض المعركة، فكيف تسمّي هذا نصراً لهم؟

## ثبتوا بعد أن همّوا في التراجع

﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٢٢﴾(١)

الفشل هو الجبن، والطائفتان هما (بنو حارثة) من الأوس، (وبنو سلمة) من الخزرج، وهؤلاء كانوا الجناح اليمين والجناح اليسار، فجاءوا في الطريق إلى المعركة، وسمعوا كلام المنافق ابن سلول، إذ قال لهم: لن يحدث قتال؛ لأنه بمجرد أن يرانا مقاتلو قريش سيهربون، وقال ابن سلول المنافق للرسول: لو نعلم قتالاً لاتبعناكم، إلا أن عبد الله ابن حارثة وقومه ساروا إلى القتال وثبتوا بعد أن همّوا في التراجع.

## ما معنى ﴿هَمَّت﴾؟

إن الهمّ هو تحرك الخاطر نحو عملية ما، وهذا الخاطر يصير في مرحلة ثانية قصداً وعزماً، إذن فالذي حدث منهم هو مجرد هَمّ بخاطر الانسحاب، لكنهم ثبتوا، ولماذا ذلك؟ لقد أراد الله بهذا أن يُثبت أن الإسلام منطقي في نظرته إلى الإنسان، فالإنسان تأتيه خواطر كثيرة، لذلك يورد الحق هذه المسألة ليعطينا

---

(١) [آل عمران: ١٢٢].

العلاج، فقال: ﴿إِذْ هَمَّت﴾. وقد قال واحد من الطائفتين: والله ما يسرني أني لم أهمّ، أي لقد انشرح قلبي لأني هممت لأني ضمنت أنّي من الذين قال الله فيهم: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَاۗ﴾، وحسبي ولاية الله، لقد فرح لأنه أخذ الوسام، وهو ولاية الله.

## إياكم ان تعتمدوا على قوة السلاح

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌۖ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ١٢٣﴾[1]

لقد نقلهم من معركة فيها شبه هزيمة أو عدم انتصار إلى نصر، فكأنه يريد أن يقول: إن الأمر بالنسبة لكم أمر إلهكم الذي يرقبكم ويعينكم ويمدكم ويرعاكم، وإياكم ان تعتمدوا على العدد والعُدة ولكن اعتمدوا على الله سبحانه، وعلى ما يريده الحق توجيها لكم، لأن مدد الله إنما يأتي لمُستَقْبل لمدد الله، ولا يأتي المدد لغير مستقبل لمدد الله، ونعرف أن فيه فرقاً بين الفاعل وبين القابل، فالفاعل شيء والقابل للانفعال بالفعل شيء آخر.

### نضرب مثلا كوب الشاي:

نضرب لذلك مثلاً: بأن الفاعل قد يكون واحداً، ولكن الانفعال يختلف، وحتى نقرب المسألة نقول: كوب الشاي، تأتي لتشرب منه فتجده ساخناً فتنفخ فيه ليبرد، وفي الشتاء تصبح لتجد يدك باردة فتنفخ فيها لتدفأ، إنك تنفخ مرة

(١) [آل عمران: ١٢٣].

لتبرّد كوب الشاي، ومرة تنفخ لتدفئ يدك، إذن فالفاعل واحد وهو النافخ، ولكن القابل للانفعال شيء آخر.

## مثال آخر: استماع القرآن

القرآن كلام الله، ولو أنه نزل على الجبال لخرّت خاشعة، ومع ذلك يسمعه أناس، لا يستر الله عليهم، بل يكشفهم لنا ويفضحهم بعظمة ألوهيته، إنهم لم ينفعلوا بالقرآن، فاذا كنت لا تستطيع ان تستقبل ما ترسله السماء من تعليمات نقول لك: أصلح جهاز استقبالك؛ لأن جهاز الاستقبال كالمذياع التالف، إن الإرسال من الإذاعات مستمر، لكن المذياع التالف هو الذي لا يستقبل، إذن فإن كنت تريد أن تستقبل عن الله فلا بد أن يكون جهاز استقبالك سليما. ثم يقول سبحانه: ﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ١٢٤﴾[1]. ويبين ﷻ كيفية إصلاح جهاز الاستقبال لتلقي تعاليم الله فيقول: ﴿بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ ١٢٥﴾[2].

---

(١) [آل عمران: ١٢٤].

(٢) [آل عمران: ١٢٥].

## كيف تكونون أهلاً للمعونة والنصر؟

ضرب الله سبحانه المثل بالصبر والتقوى في بدر مع القلة فكان النصر، وهنا في أُحد لم تصبروا؛ فساعة أن رأيتم الغنائم سال لعابكم فلم تصبروا عنها، ولم تتقوا أمر الله المبلغ على لسان رسوله في التزام أماكنكم، فكيف تكونون أهلاً للمعونة والنصر؟ إذن فالصبر والتقوى هما العُدّة في الحرب، أنتم تعدون ما في استطاعتكم من أسباب مادية، وساعة تعدون ما في استطاعتكم وأسبابكم قد انتهت، فالله هو الذي يكملكم بالنصر.

### نضرب مثلا:

لنفترض أنك تاجر كبير، وتأتيك العربات الضخمة محملة بالبضائع، صناديق وطرود كبيرة، وأنت جالس بينما يفرغ العمال البضائع، وجاء عامل لينزل الطرد فغلبه الطرد على عافيته، وتجد نفسك بلا شعور منك ساعة تجده سيقع، تهبّ وتقوم لنصرته ومعاونته، لقد استنفد هذا العامل أسبابه ولم يقدر، فالذي يعنيه الأمر يمدّ يده إليه، فما بالنا بالله ﷻ.

## الملائكة مجرد بُشرى!

﴿وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِۦ ۗ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾[1]

(١) [آل عمران: ١٢٦].

فإياك أن تظن أن المدد بالثلاثة آلاف أو الخمسة آلاف من الملائكة، هو شرط في نصر الله لك، إنه قادر على أن ينصرك بدون ملائكة، ولكنها بشرى لتؤنس المادة البشرية، فساعة يرى المؤمنون أعداداً كبيرة من المدد، والكفار كانوا متفوقين عليهم في العدد، فإن أسباب المؤمنين تطمئن وتثق بالنصر، إذن فالملائكة مجرد بُشرى، ولكن النصر من عند الله.

## ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ ولم يقل ليستأصل

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُواْ خَآئِبِينَ ﴿١٢٧﴾﴾[1]

قطع الطرف كان على أشكال متعددة، فإن كان طرفَ عددٍ فيُقتل بعضهم، وإن كان طرف أرض يؤخذ منها وتتحول إلى أرض إيمانية، وإن كانت عظمة وقهرا تأتهم الهزيمة، وإن كان نفوذاً فهو يتزلزل وينهار، ولنلحظ أن الحق قد قال: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا﴾ ولم يقل ليستأصل، لأن الله ﷻ أبقى على بعض الكفار لأن له في الإيمان دوراً، وكان رسول الله ﷺ يحسن الظن بالله أن يهديهم، والرسول يحب أن يهتدي إلى الإيمان كل فرد في أمته.

## ما عليك يا محمد إلاّ البلاغ

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾[2]

---

(١) [آل عمران: ١٢٧].

(٢) [آل عمران: ١٢٨].

أي ليس لك يا محمد شيء من أمر هؤلاء المصرّين على عدم الدخول في الإسلام، إلا أن يتوب الله عليهم فتفرح بتوبتهم، أو يعذبهم، فلا يحزنك ذلك لأنهم ظالمون، أي ما عليك يا محمد إلاّ البلاغ فقط.

## لا تأخذها بمقاييسك

﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ١٢٩﴾[1]

إنك إذا وقف عقلك في حاجة فلا تأخذها بمقاييسك أنت، بل خذها بالمقاييس الأعلى، ونحن نقول هذا الكلام لأن العلم الآن يجري ويسعى سعياً حثيثا مسرعاً حول استخراج بعض أسرار الله في الكون، فبيّن لنا أن الحيوانات لها لغات تتفاهم بها، ويحاولون الآن أن يضعوا قاموسا للغة الأسماك، والحق ﷻ ذكر لنا حكاية النملة مع سليمان والعلم يتسابق وَيُسَارع الآن ليثبت أن لكل جنس في الوجود لغة يتفاهم بها، وكل جنس في الوجود له تكاثر، وكل جنس في الوجود له انفعال، هذا يعني أن الجمادات لا تتكلم فقط، ولكنها تحس أيضاً، والسماء والأرض أتيا إلى الله في منتهى الطاعة والخشوع.

---

(١) [آل عمران: ١٢٩].

## الربا، هل يؤكل؟!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضۡعَٰفٗا مُّضَٰعَفَةٗۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٣٠﴾(١)

والربا زيادة في المال، فهل يؤكل؟ نعم؛ لأن كل المسائل المالية من أجل اللقمة التي تأكلها، هذا هو الأصل؛ والرسول ﷺ يقول: «**مَنْ أَصْبَحَ مِنْكُمْ آمِنًا فِي سِرْبِهِ ، مُعَافًى فِي جَسَدِهِ، عِنْدَهُ قُوتُ يَوْمِهِ، فَكَأَنَّمَا حِيزَتْ لَهُ الدُّنْيَا**»(٢). ونعرف أنه عندما يكون الواحد منا في منطقة ليس فيها رغيف خبز، فلن تنفعه ملكية جبل من الذهب. وقوله سبحانه: ﴿أَضۡعَٰفٗا﴾ و﴿مُّضَٰعَفَةٗۖ﴾ هو كلام اقتصادي على أحدث نظام، فالأضعاف هي: الشيء الزائد بحيث إذا قارنته بالأصل صار الأصل ضعيفاً، فعندما يكون أصل المال مائة على سبيل المثال وسيؤخذ عليها عشرون بالمائة كفائدة، فيصبح المجموع مائة وعشرين، إذن فالمائة والعشرون تجعل المائة ضعيفة، هذا هو معنى أضعاف.

## فماذا عن معنى مضاعفة؟

إننا سنجد أن المائة والعشرين ستصبح رأس مال جديداً، وعندما تمرّ سنة ستأخذ فائدة على المائة وعلى العشرين أيضا، إذن فالأضعاف ضوعفت أيضاً،

---

(١) [آل عمران: ١٣٠].

(٢) رواه البخاري.

وهذا ما يسمى بالربح المركب، وهل معنى هذا أننا نأكله بغير أضعاف مضاعفة؟ لا؛ لأن الواقع في عهد رسول الله ﷺ كان هكذا.

## هل يصحّ أن تأخذ ربحاً بسيطاً؟

وقد يقول لك واحد: أنا أفهم القرآن، وأنّ المنهيّ عنه هو الأضعاف المضاعفة، فإذا لم تكن أضعافاً مضاعفة فهل يصحّ أن تأخذ ربحاً بسيطاً يتمثل في نسبة فائدة على أصل المال فقط؟ ولكن مثل هذا القائل نردّه إلى قول الله: ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾[1]. إن هذا القول الحكيم يوضّح أن التوبة تقتضي أن يعود الإنسان إلى حدود رأس ماله، ولا يشوب ذلك ربح بسيط أو مركب، وعندما نجد كلمة ﴿أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً﴾ فهي قد جاءت فقط لبيان الواقع الذي كان سائداً في أيامها.

## كلمة ﴿تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾

كلمة ﴿ٱتَّقُواْ﴾ يعني اجعلوا بينكم وبين الله وقاية، والوقاية تكون مما يتعب ومما يؤلم ويؤذي، وعندما يقول الحق: ﴿لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾﴾ نعرف أن كلمة (الفلاح) هذه تأتي لترغيب المؤمن في منهج الله، وقد جاء الله بها من الشيء المحسّ الذي نراه في كل وقت، ونراه لأنه متعلق ببقاء حياتنا، وهو الزرع

---

(١) [البقرة: ٢٧٩].

والفلاحة، أنت تحرث وتبذر وتروي، وبعد ذلك تحصد، إذن فهو يريد أن يوضّح لك أن المتاعب التي في الحرث، والمتاعب التي في البذر، والمتاعب التي في السقي كلها متى ترى نتيجتها؟ أنت ترى النتيجة ساعة الحصاد، فالفلاّح يأخذ (كيلتين) من القمح من مخزنه كي يزرع ربع فدان، ولا نقول له: أنت أنقصت المخزن؛ لأنه أنقص المخزن للزيادة، ولذلك فالذي لم ينقص من مخزنه ولم يزرع، يأتي يوم الحصاد يضع يده على خده نادماً ولا ينفع حينئذ الندم.

## هذا أمر واضح

إن الحق يريد أن يقول لنا: إن التكاليف والمنهج وإن أتعبك، إلا أنه سيعود عليك بالخير حسب نيتك وإقبالك على العمل، ولقد ضرب لنا الله المثل في قوله: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾[1]. هذا أمر واضح، حبة نأخذها منك فتنقص ما عندك، لكنها تعطيك سبعمائة، إذن فساعة تؤخذ منك الحبة لا تقل: إنك نقصت، إنما قَدِّرْ أنها ستزيد. ويعطينا الله ذلك المثل في خلق من خلقه وهو الأرض الصماء، أنت تعطيها حبة فتعطيك سبعمائة، فإذا كان خلق من خلق الله وهو الأرض يعطيك أضعاف أضعاف ما أعطيت، أفلا يعطيك رَبّ هذه الأرض أضعاف ذلك؟

---

(١) [البقرة: ٢٦١].

## ما الوسيلة كي نتّقي النار؟

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾[١]

ولذلك يقول تعالى: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾[٢].

لأنه إذا زُحزح عن النار وأُدخل الجنة؟ إن هذا هو الفوز الكبير، وهذا السبب في أن ربنا ﷻ ساعة السير على الصراط سيُرينا النار ونمرُّ عليها، لماذا؟ كي نعرف كيف نجّانا الإيمان من هذه، وما الوسيلة كي نفلح ونتقي النار؟ إن الوسيلة هي اتباع منهج الله الذي جاء به على لسان رسوله.

## الفرق بين (الرحمة) و(الشفاء)

﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾[٣]

الرحمة تتجلى في ألا تقع في التعب، أما الشفاء فهو أن تقع في التعب ثم يزول عنك، لذلك فنحن إذا ما أخذنا المنهج من البدء فسنأخذ الرحمة. ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ﴾[٤]. إن الشفاء هو إزالة للذنب الذي تورطنا فيه

---

(١) [آل عمران: ١٣١].

(٢) [آل عمران: ١٨٥].

(٣) [آل عمران: ١٣٢].

(٤) [الإسراء: ٨٢].

ويكون القرآن علاجاً، والرحمة تتجلى إذا ما أخذنا المنهج في البداية فلا تأتي لنا أية متاعب.

## السرعة إلى الخير محمودة

﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ ١٣٣﴾(١)

السرعة هي: التقدم فيما ينبغي، ومعنى أن تتقدم فيما ينبغي، أنك تجعل الحدث يأخذ زمناً أقل، والمثال على ذلك عندما يسرع الإنسان بسيارته من القاهرة إلى الإسكندرية فهو يحاول أن يقطع المائتين والعشرة كيلو مترات في زمن أقل، فبدلاً من أن تأخذ منه ثلاث ساعات في السيارة فهو يسرع كي تأخذ منه ساعتين، إذن فالسرعة هي: التقدم فيما ينبغي، وهي محمودة، وضدها: الإبطاء، فالسرعة إلى الخير محمودة، والإبطاء مذموم.

## انتهز الفرصة، خذ الجنة بسرعة

الله سبحانه يقول: ﴿وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ أي: خذوا المغفرة وخذوا الجنة بسرعة، لأنك لا تعرف كم ستبقى في الدنيا، إياك أن تؤجل عملاً من أعمال الدين أو عملا من أعمال الخير؛ لأنك لا تعرف أتبقى له أم لا، فانتهز

(١) [آل عمران: ١٣٣].

فرصة حياتك وخذ المغفرة وخذ الجنة، هذا هو المعنى الذي يأتي فيه الأثر الشائع: (اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً، واعمل لآخرتك كأنك تموت غداً). الناس تفهمها فهماً بمعنى: اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً: يعني اجمع الكثير من الدنيا كي يَكفيك حتى يوم القيامة، وليس هذا فهماً صحيحاً لكن الصحيح هو أن ما فاتك من أمر الدنيا اليوم فاعتبر أنك ستعيش طويلاً وتأخذه غداً، أمَّا أمر الآخرة فعليك أن تعجل به.

## مساحات أوسع ممَّا نعرف؟!

قوله تعالى: ﴿۞وَسَارِعُوٓاْ إِلَىٰ مَغۡفِرَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ ونحن نعرف أن المساحات لها طول وعرض، لأن الذي طوله كعرضه يكون مربعاً، إنما الذي عرضه أقل من طوله فنحن نسميه مستطيلا، وحين يقول الحق ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ نعرف أن العرض هو أقل البعدين، أي أنها أوسع مما نراه، فكأنه شبّه البعد الأقل في الجنة بأوسع البعد لما نعرفه وهو السموات والأرض ملتصقة مع بعضها بعضا فأعطانا أوسع مَمَّا نراه، فإذا كان عرضها أوسع ممَّا نعرف فما طولها؟ أنه حد لا نعرفه نحن.

## إذا كان عَرْضُهَا السماوات، فما طولها؟!

قد يقول قائل: لماذا بيَّن عرضها فقال: ﴿عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ﴾ فأين طولها إذن؟ ونقول: وهل السموات والأرض هي الكون فقط؟ إنّه سبحانه

يقول: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[1] ويقول ﷺ: «**ما السَّماوات السّبع في الكُرسيِّ إلَّا كحلقةٍ ملقاةٍ بأرضِ فلاةٍ، وفضلُ العرشِ على الكُرسيِّ كفضلِ تلك الفلاةِ على تلك الحلقةِ**». أليست هذه من ملك الله؟ وهكذا نرى أن هذه الجنة قد أُعدت للمتقين، ومعنى ﴿أُعِدَّتْ﴾ أي هُيّئت وصُنعت وانتهت المسألة! يؤكد ذلك رسول الله ﷺ فيقول: «**عُرضت عليّ الجنة ولو شئت أن آتيكم بقطاف منها لفعلت**». لماذا؟ لأن الإخبار بالحدث قد يعني أن الحدث غير موجود وسيوجد من بعد ذلك، ولكن الوجود للحدث ينفي أن لا يوجد؛ لأن وجوده صار واقعا، فعندما يقول: ﴿أُعِدَّتْ﴾ فمعناها أمر قد انتهى الله من إعداده، ولن يأخذ من خامات الدنيا وينتظر إلى أن ترتقي الدنيا عندكم، ويأخذ وسائل وموادّ مما ارتقيتم ليعدّ بها الجنة، لا. لقد أخبر سبحانه عنها فقال: «**أَعْدَدْتُ لِعِبَادي الصَّالحين ما لا عَيْنٌ رأَت، ولا أُذُنٌ سَمِعَت، ولا خَطَر على قَلب بَشَر**»[2]. أعدّ سبحانه الجنة كلها بـ ﴿كُنْ﴾، فعندما يقول: ﴿أُعِدَّتْ﴾ تكون مسألة مفروغاً منها، وما دامت مسألة مفروغاً منها، إذن فالمصير إليها مفروغ منه، أُعدت للمتقين.

---

(١) [البقرة: ٢٥٥].

(٢) متفق عليه.

## فمن هم المتقون؟

﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝١٣٤﴾(١)

هذه بعض من صفات المتقين ﴿وَٱلْكَـٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ﴾ لأن الغيظ يهيّج النفس البشرية، وهو انفعال طبيعي، ولا نقول لحظة الانفعال ما يسخط الرب، بل انفعال موجّه، والغيظ يحتاج إليه المؤمن حينما يهيج دفاعاً عن منهج الله، ولكن على المؤمن أن يكظمه، أي لا يجعل الانفعال غالبا على حسن السلوك والتدبير.

ومعركة أُحد ستعطينا هذه الصورة أيضاً، فحمزة وهو سيد الشهداء وعمّ سيدنا رسول الله ﷺ يُقتل؛ وليته يُقتل فقط ولكنه مُثِّل به، وأُخِذ بضعٌ منه وهو كبده، فلاكته (هند)، وهذا أمر أكثر من القتل، وقد شبه النبي ﷺ هذه الحادثة بأنها أفظع ما لقي، إنها مقتل حمزة فقال: «**لئن أظفرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلنّ بثلاثين رجلا منهم**»، وينزل قول الحق: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦۖ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ۝١٢٦﴾(٢).

كي نعرف أن ربنا لا ينفعل لأحد؛ ويأتي هنا الأمر بكظم الغيظ، وبعد ذلك يُشيعها قضية عامة لتكون في السلم كما كانت في الحرب.

---

(١) [آل عمران: ١٣٤].

(٢) [النحل: ١٢٦].

## إذا كظمت غيظك وعفوت تنتهي المسألة

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ﴾ أما العفو فهو أن تخرج الغيظ من قلبك، وكأن الأمر لم يحدث، وهذه هي مرتبة ثانية. أما المرتبة الثالثة فهي: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ۝٩٣﴾ أن تنفعل انفعالاً مقابلاً؛ أي أنك لا تقف عند هذا الحد فحسب، بل إنك تستبدل بالإساءة الإحسان إلى من أساء إليك. إذن فهناك ثلاث مراحل: الأولى: كظم الغيظ. والثانية: العفو. والثالثة: أن يتجاوز الإنسان الكظم، والعفو بأن يحسن إلى المسيء إليه، وهذا هو الارتقاء في مراتب اليقين؛ لأنك إذا ما كظمت غيظك وعفوت، فقد يخجل الذي أمامك من نفسه وتنتهي المسألة.

## فلسفة ذلك

إننا جميعاً صنعة الله، والخلق كلهم عيال الله، وما دمنا كلنا عيال الله فعندما يُسيء واحد لآخر فالله يقف في صف الذي أسيء إليه، ويعطيه من رحمته ومن عفوه ومن حنانه أشياء كثيرة، وهكذا يكون المُساء إليه قد كسب، أليس من واجب المُسَاء إليه أن يُحسِن للمسيء؟ لكن العقل البشري يفقد ذكاءه في مواقف الغضب؛ فالذي يسيء إليه إنسان يحسبه عدوًّا، لكن على الواحد منا أن يفهم أن الذي يسيء إليك إنما يجعل الله في جانبك.

## يُجرؤ على المعصية ليحقق شهوة!

﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَـٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝١٣٥﴾[1]

الفاحشة هي: الذنب الفظيع، ولحظة فعل الفاحشة أو ظلم النفس لا يكون الله على بال الإنسان الفاعل للفاحشة، أو على بال من ظلم نفسه، والذي يُجِّرئ الإنسان على المعصية ليحقق لنفسه شهوة، أنَّه لم ير الله ولم ير جزاءه وعقابه في الآخرة ماثلا أمامه، ولو تصور هذا لامتنع عن الفاحشة؛ وكذلك الذي يهمل في الطاعة أيضاً، لم يذكر الله وعطاءه للمتقين، ولو ذكر ذلك لما تكاسل عن طاعة الله، ولذلك يقول الحق: ﴿ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ﴾ فمن يستغفر لذنبه فقد ذكر الله.

## الصغيرة مع الصغيرة تصير كبيرة!

وموقف العلماء من الفاحشة فيه اختلاف، بعض العلماء قال: إنها الكبيرة من الكبائر، وظلم النفس صغيرة من الصغائر، وقال بعض: إن الفاحشة هي الزنا؛ لأن القرآن نص عليها، وما دون ذلك هو الصغيرة، ولكن رسول الله ﷺ قال: **«لَا كَبِيرَةَ مَعَ الِاسْتِغْفَارِ، وَلَا صَغِيرَةَ مَعَ الْإِصْرَارِ»** فلا يجوز للإنسان أن يتجاوز

(١) [آل عمران: ١٣٥].

عن أخطائه ويقول: هذه صغيرة وتلك صغيرة؛ لأن الصغيرة مع الصغيرة تصير كبيرة، وحين ننظر إلى قول الله تعالى: ﴿ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾ نجد أن الذي فعل الفاحشة ظالم لنفسه، لأنه حقق لنفسه شهوة عارضة، وأبقى على نفسه عذاباً خالداً.

## الاختلاف بين فعل الفاحشة وظلم النفس

وفي قوله سبحانه: ﴿أَوۡ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ﴾، العطف ب (الواو) لا ب (أو)؛ لأن الله يريد أن يوضّح لنا الاختلاف بين فعل الفاحشة وظلم النفس، لأن الذي يفعل الفاحشة إنما يحقق لنفسه شهوة أو متعة ولو عاجلة، لكن الذي يظلم نفسه؛ يذنب الذنب ولا يعود عليه شيء من النفع؛ فالذي يشهد الزور على سبيل المثال إنه لا يحقق لنفسه النفع، ولكن النفع يعود للمشهود له زوراً، إن شاهد الزور يظلم نفسه لأنه لبّى حاجة عاجلة لغيره، ولم ينقذ نفسه من عذاب الآخرة، أما الإنسان الذي يرتكب الفاحشة فهو قد أخذ متعة في الدنيا، وبعد ذلك ينال العقوبه في الدنيا والآخرة، لكن الظالم لنفسه لا يفيد نفسه، بل يضر نفسه؛ فالذي هو شر أن تبيع دينك بدنياك؛ إنك في هذه الحالة قد تأخذ متعة من الدنيا، ووقت الدنيا قليل، والحق قال: ﴿قُلۡ مَتَٰعُ ٱلدُّنۡيَا قَلِيلٞ﴾، وهناك من يبيع دينه بدنيا غيره، وهو لا يأخذ شيئاً ويظلم نفسه.

## لا تجريم إلا بنص ولا عقوبة إلا بتجريم

ويقول الحق: ﴿فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ومعنى (ذنب) هو مخالفة لتوجيه منهج الله، فقد جاء أمر من المنهج (افعل) و(لا تفعل) ولم ينفّذ الأمر، ولا يسمى ذَنباً إلا حين يعرفنا الله الذنوب، ذلك هو تقنين السماء. وفي مجال التقنين البشري نقول: لا تجريم إلا بنص ولا عقوبة إلا بتجريم، وهذا يعني ضرورة إيضاح ما يعتبر جريمة؛ حتى يمكن أن يحدث العقاب عليها، ولا تكون هناك جريمة إلا بنص عليها أي أنه يتم النص على الجريمة قبل أن يُنص على العقوبة، فما بالنا بمنهج الله؟ إنه يعرفنا الذنوب أولاً، وبعد ذلك يحدد العقوبات التي يستحقها مرتكب الذنب.

## سأرتكب الذنب، وأستغفر بعد ذلك!

ولنتنبه إلى قول الله: ﴿وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾﴾ إذن فالاستغفار ليس أن تردف الذنب بقولك: أستغفر الله لا. إن على الإنسان أن يردف الذنب بقوله: أستغفر الله وأن يصرّ على ألا يفعل الذنب أبداً، وليس معنى هذا ألا يقع الذنب منك مرة أخرى؛ إن الذنب قد يقع منك، ولكن ساعة أن تستغفر تصرّ على عدم العودة، إن الذنب قد يقع، ولكن بشرط ألا يكون بنيّة مُسبقة، وتقول لنفسك: سأرتكب الذنب، وأستغفر لنفسي بعد ذلك، إنك بهذا تكون كالمستهزئ بربّك، فضلا على أنك قد تصنع الذنب ولا يمهلك الله لتستغفر.

## ما هذه المسألة؟

﴿أُوْلَٰٓئِكَ جَزَآؤُهُم مَّغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَجَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾[1]

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى ما سبق، وحين ننظر إلى الصفقة في الآخرة نجد أنها مع إله لا يحتاج إلى عملك، ومع أنه لا يحتاج إلى عملك جعل لعملك أجراً؛ ما هذه المسألة؟ هو ليس محتاجاً إلى عملك، ويعطيك أجراً على عملك ويقول لك: إن هذا الأجر هو الحد الأدنى!؟ ولي أنا أن أضاعف هذا الأجر!؟ ولي أن أتفضل عليك بما فوق الأجر!! إذن، فالحاجة من جهة واحدة هي جهتك أنت أيها العبد، أنت تحتاج إلى خالقك وهو لا يحتاج إليك، ومع ذلك يعطيك الإله الحق الأجر لا على قدر العمل فقط، ولكن فوق ذلك بكثير، إن الذي تعمل عنده من الناس يوما واحدا قد يعطيك أجرة يوم ولا يزيد عن ذلك قرشا واحدا، ولكنك حين تأخذ الأجر من يد الله فإنه يعطيك أجراً لا ينتهي؛ فهو القائل: ﴿وَنِعۡمَ أَجۡرُ ٱلۡعَٰمِلِينَ ١٣٦﴾.

---

(١) [آل عمران: ١٣٦].

## ما لا اختيار فيه للإنسان!

﴿قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُمۡ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ١٣٧﴾[1]

﴿خَلَتۡ﴾: تعني مضت، أي حصلت واقعا في أزمان سبقت هذا الكلام، و(السنن) هي الطرق التي يصرّف الله بها كونه بما يحقق مصلحة ذلك الكون؛ إن الأرض مسخرة لخدمة الإنسان، والحيوانات أيضا مسخرة لخدمتك لا باختيارك، ويترك الله للإنسان أشياء ليبقى له فيها الاختيار، فإذا ما نظرنا إلى الكون وجدنا أن ما لا اختيار فيه لشيء يسير على نظام لا تصادم فيه، والذي فيه اختيار للإنسان هو الذي يختل، لماذا؟

## مثال ذلك:

لو نظرنا إلى وسيلة مواصلات من الحيوانات كالجمال أو الخيل أو الحمير، فإننا نجدها تسير في طريق واحد، وتتقابل جيئة وذهابا فلا يحدث تصادم بين حمار وحمار، ولا قتل لراكب أحد الحمارين، إن الحيوانات يتفادى ويتحامى بعضها بعضاً حتى لو كان الراكب نائماً، ومهما كان الطريق مزدحماً فالحيوانات لا تتصادم؛ لأن ذلك من نطاق تسخير الله للحيوان، ولننظر إلى الإنسان حين تدخَّل ليصنع وسيلة مواصلات، صنع الإنسان أنواع السيارات يقودها

---

(١) [آل عمران: ١٣٧].

الإنسان، ومع أن الإنسان هو الذي يقود السيارات، وبرغم ذلك بدأت تأتي المخالفات والمصادمات والحوادث؛ لأن الإنسان تدخل في ذلك، وأنت أيها العبد عندما تطيع الله فإن الأمور في حياتك تسير بانتظام.

## الناس لم تشتك أزمة شمس واشتكوا أزمة طعام

إن الناس لم تشتك يوما أزمة شمس، ولم يشتكوا أزمة هواء، لكن لماذا اشتكوا أزمة طعام؟ لأن الإنسان له دخل في إنتاج الطعام، فالكون مخلوق بحق، ومعنى أنه مخلوق بحق أن كل شيء في الوجود يؤدي مهمته كما أرادها الله، وإن ترك الإنسان التكليف وأخذ باختياره فإنه يصير إلى باطل، ونتج ما هو باطل، قال تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ٣٩﴾[1]. إن الحق جعل للكون قضايا ثابتة، فلا شيء يعتدي على شيء آخر أبداً، واختيار الإنسان هو الذي يأتي بالفوضى والصدام.

## اعتبروا بمن سبقكم

إذن فقوله سبحانه: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ﴾ يعني: اعتبروا بما سبقكم وانظروا إلى اصطدام الباطل بالحق، أدام وبقى اصطدام الباطل بالحق؟ لا؛ لأن الباطل كان زهوقا، إذن فصراع الحق والباطل قد وقع في أمم قد

---

(١) [الدخان: ٣٩].

سبقتكم، وبقيت لها مساكن، فمن شاء أن يذهب إليها ليتأكد فليذهب، ولا تزال مدائن صالح، ولا تزال هناك آثار عاد، وكل مكان فيه أثر من الآثار، ولذلك يوضح الحق: فإن كنتم تريدون التأكد من ذلك فأنا قد أخبرت، ومن آمن بي فليصدق خبري، ولغير المؤمن ولمن يريد اطمئنان قلبه يقول سبحانه: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾﴾[١].

## ما زلنا نجهل جزيئات في هذا الكون

والسير على الأرض يبقى في حدود رؤيتنا، لكن حين يتكلم الله فرؤية الله أشمل، فهو الخالق لهذا الكون، ونحن ما زلنا نجهل جزيئات في هذا الكون، وما دامت المسألة هي سنن تقدمت، ويريد الله منا أن نعتبر بالسنن المتقدمة، لذلك يقول لنا: ﴿فَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ نسير بماذا؟ إما أن نسير بالانتقال، أو نسير بالأفكار؛ لأن الإنسان قد لا يملك القدرة على السير ويترك هذه المهمة للمكتشفين والرحالة.

## عواصف رملية

فالرحالة مثلاً هم الذين ذهبوا إلى جنوب الجزيرة، ورأوا وادي الأحقاف، ووجدوا أن عاصفة رمل واحدة تطمر قافلة بتمامها، إذن ففيه عواصف وارت

---

(١) [النحل: ٣٦].

الكثير من الأشياء، فعاصفة واحدة تطمر قافلة، فكم من العواصف قد هبت على مرّ هذه القرون؟ والحق سبحانه يخبرنا بإرم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد، أي متفوقة على حضارة مصر القديمة، وفيها أكثر العجائب، فأين هي الآن؟ كم عاصفة مرت على هذه البلاد؟ ولذلك نجد أننا لا نزال جميعاً إلى الآن، حين نريد أن ننقب عن الآثار فلا بد أن نحفر تحت الأرض، لماذا هذا الحفر وقد كانت هذه الآثار فوق الأرض؟ لقد غطتها العواصف الرملية.

## نضرب مثالا

والمثال على ذلك: أنَّك تغيب عن بيتك شهراً واحداً، وتعود لتجد من التراب الناعم ما يغطي أرض البيت على الرغم من إغلاق النوافذ، فماذا تجد من حجم التراب لو غبت عن بيتك عاماً، أو عامين، أو ثلاثة أعوام، رغم إحكام وإغلاق النوافذ والفتحات بالمطاط وخلافه؟ ولكن التراب الناعم يتسرّب ويغطي الأثاث والأرض، وإذا كانت هذه الأمور تحدث في منازلنا، فما بالك بالمنطقة التي فيها أعاصير وعواصف رملية؟ هل تطمر المدن أو لا؟

إن المدن والحضارات تُطمر تحت الرمال؛ لذلك فعندما ننقب عن الآثار فنحن نحفر في الأرض، وهذا نوع من السير في الأرض للرؤية والعظة.

## ماذا يعني ﴿عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾؟

وحين يقول الله: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ ٣٦﴾ فماذا يعني

بعاقبة المكذبين؟ حين تكون أمة قد تحضرت حضارة كبيرة، إن الذي أقام هذه الحضارات ألا يستطيع أن يجعل لهذه الحضارة ما يصونها؟ كيف يتم القضاء على هذه الحضارات الواسعة واندثارها وذهابها؟ لا بد أن ذلك يتم بقوة أعلى منها، بسبب طغيانها وفسادها، فهذه الحضارات رغم تقدمها الرهيب لم تستطع أن تحفظ نفسها من الفناء، إنها القوة الأعلى منها، إنه القّيوم الذي يرى ويتابع كل الخلق، فمن يطغى ويفسد فليلق النهاية نفسها.

## بيان قادم من اللّه!؟

﴿هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾[1]

إن البيانات عندما تصدر، تأخذ قوتها وسطوتها وعظمتها من قوة من أصدرها؛ أنت ساعة تجد ثورة في مجتمع ما فإننا نسمع كلمة (بيان رقم واحد) تهتز له الدنيا، وهو بيان قادم من بشر، فما بالنا بالبيان القادم من الله؟ ومعنى ﴿هُدًى﴾: كما نعرف هو الطريق الموصل للغاية المرجوة، و﴿مَّوْعِظَةٌ﴾ معناها: حمل النفس ترغيباً وترهيباً لعمل الخير بالترغيب، والبعد عن الشر بالترهيب، تلك هي الموعظة، وكل هذه الأشياء عندما جاءت في ثنايا آيات معركة أُحُد، بعد أن أخذنا منها العبرة، والحدث ما زال ساخناً لنأخذ بها في حياتنا، وما دامت المسألة هكذا، فالذي حدث في معركة أُحُد لا ينبغي أن يضعفكم، ولذلك

---

(١) [آل عمران: ١٣٨].

يقول الله سبحانه بعد ذلك: ﴿وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ١٣٩﴾[1]

## قارن الحدث بالغاية من الحدث

والمقصود بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُواْ﴾ أي لا تضعفوا، ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ وقد مات منهم كثير، مات منهم خمسة وسبعون شهيداً، خمسة من المهاجرين، وسبعون من الأنصار، وهذه عملية صعبة وشاقة، وقد حزن رسول الله ﷺ على الشهداء، وغضب لمقتل حمزة ﷺ، وقال: «**لن أُصاب بمثلك أبداً! وما وقفت موقفا قط أغيظ إليّ من هذا**»، فقال الله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾؛ لماذا؟ لأنك يجب أن تقارن الحدث بالغاية من الحدث، صحيح أن القتل صعب، ولكن انظر إلى أين ذهب، وانظر ماذا خلف من بعده، أمّا هو فقد ذهب إلى حياة عند ربه، إن الحياة عندنا لها مقاييس، والحياة عند ربنا لها مقاييس، فهل مقاييسنا أعلى من مقاييسه؟ لا، فلا تحزن عليه بل تفرح له؛ ما دامت الغاية ستصل إلى هذه المسألة.

## ما دمتم على الإيمان فأنتم الأعلون

وقيل في معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡزَنُواْ﴾ أي على ما فاتكم من الغنائم، أو لا تحزنوا على ما فاتكم من النصر لماذا؟ وتأتي الإجابة، ﴿وَأَنتُمُ ٱلۡأَعۡلَوۡنَ﴾ ولذلك

(١) [آل عمران: ١٣٩].

جاء مصداق ذلك حينما نادى أبو سفيان فقال: (اعل هبل) أي أن إلهكم صار عالياً، فقال الرسول لأصحابه: ألا تردون عليهم؟ قالوا: بماذا نرد؟ قال: قولوا لهم: الله أعلى وأجلّ. ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨﴾ فما دمتم على الإيمان فأنتم الأعلون، فقارنوا معركة أُحُد بمعركة بدر، هم قتلوا منكم في أُحُد وأنتم قتلتم منهم في بدر، ولكنكم أسرتم منهم في بدر ولم يأسروا منكم أحداً في أُحُد، وأنتم غنمتم في بدر ولم يغنموا شيئاً في أُحُد، وقد حمى الله مدينتكم مع أنها كانت خالية من الرجال، عدوّكم لم يبق في أرض المعركة، بل أنتم الذين بقيتم في أرض المعركة، وأين ذهب هو؟ لم يكن هناك إلا المدينة، والمدينة ليس فيها أحد، ولم يذهب عدوكم إلى هناك، وإنما ذهب ناحية مكة، إذن فهو الذي هرب، كل ذلك وأنتم الأعلون.

## عندما خالفتم الأمر صار لكم ما صار!

هذا إذا نظرنا إلى معركة بمعركة، وإن نظرنا إلى المعركة نفسها (أُحُد) وندع بدراً وحدها، في ظل قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝١٣٩﴾ لقد ثبتت تلك القضية لأنكم حينما كنتم مؤمنين باتباع أمر الرسول انتصرتم انتصاراً رائعا؛ لأنكم قتلتم في بداية الحرب بضعاً وعشرين من فرسانهم وفيهم صاحب الراية، فأنتم علوتم في أول الأمر، وعندما خالفتم الأمر صار لكم ما صار.

## الحق سبحانه يثبت المؤمنين ويسلّيهم

﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾(1)

المسّ: إصابة بدون حسّ، أي لمس لكنك لا تحس بحرارة، واللمس: هو أن تحس في الشيء حرارة أو نعومة ويحتاج إلى الالتصاق المؤقت، والقَرْح: هي الجراح، إنه سبحانه يثبت المؤمنين ويسلّيهم. ومثال ذلك ما نقوله نحن لواحد إذا أصابته كارثة: إن كان قد حدث لك كذا، فقد حدث لخصمك مثله، إذن فنحن نسليه، والمقصود هنا أن الحق يسلّي المؤمنين: إن يمسسكم قرح فلا تبتئسوا، فليكن عندكم صبر ولْتجتازوا هذا الأمر ولترض به نفوسكم؛ لأن القوم قد مسهم قرح مثله.

## ما معنى المداولة؟

وأطلق الله سبحانه من بعد ذلك قضية عامة: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾. ما معنى المداولة؟ داول أي نقل الشيء من واحد لآخر، ونحن هنا أمام موقعتين؛ غزوة بدر وغزوة أُحُد، وكان النصر للمسلمين في غزوة بدر بالإجماع، أما غزوة أُحُد فلم يكن فيها هزيمة بالإجماع ولم يكن فيها نصر، إذن

(١) [آل عمران: ١٤٠].

فقوله تعالى: ﴿نُدَاوِلُهَا﴾ مع التسليم جدلاً بأن الكفار قد انتصروا رغم أن هذا لم يحدث، فإننا نقلنا النصر منكم أيها المؤمنون إليهم، وإياك أن تفوتك هذه الملاحظة، بأن النصر لم ينتقل إليهم إلا بمخالفة منكم أيها المؤمنون، ومعنى مخالفة منكم، أي أنكم طرحتم المنهج، أي أنكم أصبحتم مجرد ناس مثلهم.

## ما المقصود من قوله: ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾؟

وما دمتم قد صرتم مجرد ناس بدون منهج مثلهم ومتساوين معهم، فإن النصر لكم يوم ولهم يوم، ولنلحظ أن الحق لم يقل: بين (المؤمنين والكافرين)، إنما قال: ﴿بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ أي بينكم وبين قريش، وما دمتم اشتركتم معهم في كونكم مجرد (أناس) فيصبح النصر يوماً لهم ويوماً لكم، والذكي العبقريّ الفطن الذي يحسن التصرف هو من يغلب؛ لأن المعركة هنا تدور بين قوة بشر مقابل قوة البشر، فظهرت عبقرية خالد بن الوليد على عبقرية المقاتلين المسلمين.

## وما المقصود بالأيام؟

وليس المقصود بالأيام ما هو معروف لدى الناس من أوقات زمنية، ولكن المقصود بالأيام هنا هو أوقات النصر والغلبة، إنها مداولة بين الذين مالت أبصارهم إلى الغنائم فتخلخل إيمانهم، ففازت قريش ظاهرياً، ولو ظللتم على إيمانكم لما حدث ذلك أبداً، لكنكم تخليتم عن منهج ربكم، وبذلك استويتم وتساويتم مع غير المؤمنين، وصاحب الحيلة والقوة والعدد والعُدّة يغلب، وبذلك تكون الأيام لهذا مرة ولهذا مرة أخرى.

**نضرب مثلا:**

ما الذي يعوّض كل تلك الإمكانات ويحقق النصر؟ إنك إن تأخذ الله في جانبك فلن يجرؤ مخلوق أن يكون في مواجهة الحق في معركة، لقد قلنا قديماً وعلينا أن نعيها جيداً: إن الولد الصغير حينما يضطهده زملاؤه فيلجأ إلى حِضن أبيه، عندئذ ينصرف كل منهم إلى حاله، لكن أقرانه يستطيعون أن يهزموه عندما يبتعد عن أبيه، فما بالنا ونحن عيال الله نبتعد عنه؟ إن الكفار قادرون على الانفراد بالمؤمنين حينما يتخلى المؤمنون عن منهج الله؛ لأن الله لن ينصر أناساً ليسوا على منهجه، فلو نصر الله أناساً على غير منهجه فإن ذلك يُبطل قضية الإيمان، وعندما نستقرئ القرآن الكريم؛ نجد أن كل خبر عن الإنسان وهو معزول عن المنهج الإلهي هو خبر كله شر، فسبحانه يقول: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢﴾[1]. إن الإنسان على إطلاقه لفي خسر مع نفسه ومع غيره، ولكن من الذي ينجو من الخسران؟ ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾[2].

---

(١) [العصر: ١ - ٢].

(٢) [العصر: ٣].

## هل اللّه لا يعلم الذين آمنوا؟

وبعد ذلك يقول الله سبحانه: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمۡ شُهَدَآءَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٤٠﴾. قد يقول قائل: هل الله لا يعلم الذين آمنوا؟ لا، إنه ﷻ يعلم الذين آمنوا سواء حدثت معركة أو لم تحدث، لكن علم الله الأزلي الغيبيّ لا نرى نحن به الحُجَّة، ولذلك لا تكون الحجَّة ظاهرة بيننا، ولكن حين يبرزُ علم الله إلى الوجود أمامنا فإنه علم تقوم به الحُجة واضحة على من آمن، وعلى من لم يحسن الإيمان، وذلك حتى لا يدِّعي أحد لنفسه أنه كان سيفعل، لكن الفرصة لم تواته، وهكذا تأتي المواقف الاختبارية والابتلاءات ليعلم كل منا نفسه، وتبرز الحُجة علينا جميعا، فقد يدعى البعض أنه لو قامت معركة شديدة فإنهم سوف يصمدون، ولكن عندما تقوم المعركة بالفعل فنحن نرى مَنْ الصّامد ومَنْ هو غير ذلك من المتخاذلين الفارّين؟

### ولنضرب لذلك مثلا:

نحن في حياتنا العادية، نجد أن عميد إحدى الكليات يأتي إلى المدرس ويقول له: نحن نريد أن نعقد امتحانا لنتعرف على المتفوقين من الطلاب، ونمنح كُلا منهم جائزة، فيردّ المدرس: لماذا الامتحان؟ إنني أستطيع أن أقول لك من هم المتفوقون، وأن أرتبهم لك مَن الأول ومَن الثاني وهكذا، لكن عميد الكلية يصرّ على أن يعقد امتحانا حتى لا يكون لأحد حجة، ويختار العميد مدرساً

آخر ليضع هذا الامتحان، وتظهر النتيجة، ويكون توقع المدرس الأول هو الصائب، وهكذا يكون تفُوق هؤلاء الطلاب تفوقا حسب نتائج الامتحان، وإذا كان ذلك يحدث في المستوى البشري، فما بالنا بعلم الله الأزلي المطلق؟ إنه سبحانه لا يقول لنا: أنا كنت أعلم أنكم لو دخلتم معركة ستفعلون كذا وكذا، وكان يمكن أن يجادلوا ويدعوا لأنفسهم أشياء ليست فيهم، لكن الحق يضع المعركة وتكون النتيجة مطابقة لما يعلمه الله أزلا.

## كلمة شهيد لها معانٍ!

ويقول الله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ﴾ وساعة تسمع كلمة ﴿يَتَّخِذَ﴾ هذه؛ اعرف أنها اصطفاء واختيار، فنحن نعرف أن ﴿شُهَدَآءَ﴾ هي جمع شهيد، وكلمة شهيد لها معانٍ متعددة، فالشهيد في القتال هو الذي يُقتل في المعركة، وهذا سيكون حيا ويُرزق عند ربه، وإياك أن تقول: إننا عندما نفتح قبر الشهيد سنجده عظاما وترابا؟ لا، إن الله وضّح أن الشهيد حيّ عنده، وليس حيا عند البشر، وإذا فتح أحد من الناس القبر على الشهيد فسيراه عظاما وترابا؛ فقد جعل الله سبحانه للشهيد حياة عنده لا عندنا. ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[1]. إذن فللشهداء عند ربهم حياة لا نعرف أسرارها، ولكن الله نبهنا أن الشهداء أحياء عند ربهم.

---

(١) [آل عمران: ١٦٩].

## شاهدٌ للدعوة وشهيدٌ عليها

وعندما نتأمل كلمة ﴿شُهَدَآءَ﴾ نجد أنها تعني أيضا الشهادة على الحق الذي قامت من أجله المعركة، فلو لم يعلم هؤلاء أن إقدامهم على ما يؤدي إلى قتلهم خير لهم من بقائهم على حياتهم لما فعلوا، وبذلك يكون الواحد منهم شاهدا للدعوة وشهيدا عليها، ويذيل الله الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾. ومعنى هذا التذييل أن المعركة يجب أن تدور في إطار الحق، ومثلما قلنا: ما دام الناس متخلفين عن المنهج فإن الله لا يظلمهم بل ستدور المعركة صراع بشر لبشر، والقادر من الطرفين هو الذي يغلب، فالحق سبحانه بالرغم من كراهيته للكفر إلا انه لا يُحابي المسلم الذي لا يتمسك بمطلوب الإيمان؛ لذلك قد يغلب الكافر المسلم، ولكن إن تمسك المؤمنون بمطلوب الإيمان فالنصر مضمون لهم بأمر الله.

## الإيمان ليس مجرد كلمة تقال!

﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾﴾[١]

التمحيص: هو تطهير الأشياء وتخليصها من العناصر الضارة، أما المحق فهو الذهاب بها كلها. ويقول الله بعد ذلك: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[٢] إن الإيمان ليس مجرد

(١) [آل عمران: ١٤١].

(٢) [آل عمران: ١٤٢].

كلمة تقال هكذا، بل لا بد من تجربة تثبت أنكم فُتِنْتُم ونجحتم في الفتنة، والفتنة هي الامتحان، إذن فلا تحسبوا أن المسألة سوف تمر بسهولة، ويكتفي منكم أن تقولوا نحن نحمل دعوة الحق، لا. إذا كنتم صادقين في قولكم يلزمكم أن تكونوا أسوة حين يكون الحق ضعيفا؛ ودخول الجنة له اختبار يجب أن يجتازه المؤمن. والحق يقول: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ وعندما نسمع ذلك فعلينا أن نعرف أن الله يعلم علما أزليا مَن المجاهد ومَن الصابر، ولكنه علم لا تقوم به الحُجة على الغير، فإذا حدث له واقع صار حُجة على الغير.

## تمنّى المعارك وحده، هل يحقق النصر؟

﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ ٱلْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾[1]

أي: إن ما كنتم تتمنونه قديما صار الآن أمامكم، فلو أن هذا التمني كان صحيحا في نفوسكم لأقبلتم على الموت كما تقبلون على الحياة، أكنتم تظنون أن تمنّي المعارك وحده يحقق النصر؟ وهل كنتم تظنون أن كل معركة يدخلها المؤمنون لا بد أن يحققوا انتصارا؟ أو كنتم تظنون أن المسألة هي تحقيق انتصار لمجرد التمنّي، فلو أن الأمر هكذا، لدخل كل واحد إلى معسكر الإيمان.

(١) [آل عمران: ١٤٣].

## كلمة (مُحمد) وكلمة (أحمد)

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾[1]

نحن نعلم أن رسول الله ﷺ اسمه (محمد)، وردت في القرآن أربع مرات، وله اسم ثانٍ عرفناه من القرآن، وجاء في الإنجيل هو (أحمد)، وردت في القرآن مرة واحدة، وكلمة (مُحمد) وكلمة (أحمد) مشتركتان في أصل المادة هي الحمد، ونحن نتناول هنا معركة أحُد، فبعد أن انحلّ الرماة عن أمره، اتجه الصحابة هنا وهناك ليفروا، ويتكتل المشركون على رسول الله، لدرجة أن أحدَهم يمسك حجرا ويضرب به النبي ويسيل منه الدم، أما كان الله بقادر أن يُجنِّب رسوله كل ذلك؟ إنه سبحانه قادر، ولكن كل ذلك كان تكريما من الله، ولم يرد سبحانه أن يَحرِم رسوله من لذة المجاهدة، فقد فرّ بعض المقاتلين من المعركة في أُحُد، وكادت ريح الهزيمة تهبّ على معسكر المسلمين، فيقولون: قُتل رسول الله، هذه كلها مواقف لم تكن تأتي وتظهر إلا بهذه المعركة.

## كيف تكونون أقل شأنا من هذه الأمر؟

أما قوله تعالى: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْۚ﴾ وهل انقلب أتباع

---

(١) [آل عمران: ١٤٤].

الرسل السابقين على أعقابهم حينما ماتت رسلهم؟ فكيف تكونون أقل شأنا من هذه الأمم؟ لنفترض أن ذلك قد حدث، فلماذا لا يبقى التوجيه الذي بلغه فيكم رسول الله إلى يوم القيامة؟ الرجل الذي يكون قد صنع خيرا يموت بموته، أيكون قد صنع شيئا؟ لا؛ فالذي يريد أن يصنع خيرا فعليه أن يصنع خيرا يخلفه، لذلك فالزعامات الفاشلة هي التي يكون الفرد فيها زعيما، ثم يموت ونبحث عن زعيم بعده فلا نجد ونتساءل: لماذا حاصر الزعيم أصحابه وزملاءه؟ لماذا خنقهم؟ أكان خائفا منهم؟ ونظل نتمنى أن يكون قد ربَّى الزعيم أناسا، فإذا ما ذهب نجد من يخلفه، فلا يوجد إنسان يضمن حياته.

## هل غاب ذلك عن ذهن الصحابة؟

وساعة تسمع: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ﴾ فهذا يعني أن بعض المعاصرين له كانوا يعتقدون أن محمدا أكبر من رسول ولا يموت، فأوضح الله سبحانه أن محمدا رسول، وقد خلت من قبله الرسل، ولن يخلّد الله أحدا، يعني لا ترتفعوا به أنتم فوق ما رفعته أنا، هل غاب ذلك عن الذهن؟ نعم كان ذلك يغيب عن الذهن بدليل أنه حتى بعد أن نزلت هذه الآية وصارت قرآنا يُتلى، نجد أن سيدنا عمر وهو محدَّث مُلْهَم حينما مات رسول الله يقول: والله ما مات رسول الله، قال عمر بن الخطاب ذلك من هول الفاجعة ونسي الآية، فيأتي سيدنا أبو بكر فيقول: من كان يعبد الله فإن الله حيٌّ لم يمت، ومن كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، وتلا هذه الآية، فقال عمر بن الخطاب: فلكأني لم أقرأها إلا يومئذ!

## كيف يجوز ذلك؟

ومعنى ﴿يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ أي يَرجع، أي أعطى ظهره للمعركة بعد أن كان مواجها لعدوه، وهي مثل قوله: ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾، فهل هذا الرجوع رجوع عن المعركة؟ أو رجوع عن أصل التشريع وأصل الديانة وأصل الرسالة التي جاء بها محمد؟ إنّ هذا يصح، وذلك يصح. فالمنافقون بعد حدوث تلك الواقعة، وبعد ما فشا وذاع في الناس قَتْل الرسول كان لهم كلام، وضعاف الإيمان كان لهم كلام آخر؛ فالمنافقون الذين هم أكثر شرا من الكفار قالوا: لو كان نبيًّا لما قتل! ارجعوا إلى إخوانكم وإلى دينكم! أما الذي آمنوا إيمانا ضعيفا فقالوا: سنذهب إلى ابن أُبَيّ ليأخذ لنا أمانا من أبي سفيان!! وقوله: ﴿أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ قول واضح، إن الموت والقتل مؤدّاهما واحد، وهو الذهاب بالحياة، ذلك أنهم أشاعوا أن النبي قد قُتل، وكيف يجوز ذلك والله قد قال: ﴿وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[1]. وهنا نقول: هل أنت علِمت بأن كل صحابي يكون مستحضرا لكل آيات القرآن، ألا ترى أنهم عندما سمعوا خبر قتله هربوا، وإن كان سيدنا عمر نفسه قد نسي هذه الآية وقت الإعلان عن وفاته!

---

(١) [المائدة: ٦٧].

## هل الموت أمر اختياري؟

﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٥﴾[1]

﴿مَّا كَانَ﴾ أي: ما ينبغي، هذا القول قد يدفع إلى التساؤل: وهل الموت أمر اختياري؟ لا، ولكن تعبير الحق سبحانه له إيحاء؛ فالموت إن أرادته النفس فلن يأتي إلا أن يكون الله قد أذِن بذلك، وإننا نجد في واقع الحياة صورا شتى من هذه الصور، نجد من يضيق ذرعا بهذه الحياة؛ لأن طاقته الإيمانية لا تتسع للبلاء والكدّ في الدنيا فينتحر، إنه يريد أن يفرّ مما لا يقدر على دفع أسبابه، أما الذي يملك الطاقة الإيمانية الرحبة؛ فأي شقاء أو بلاء يقابله يقول: إن لي ربّا، وما أجراه عليّ ربّي فهو المربّي الحكيم الذي يعرف مصلحتي أكثر مما أعلم، ولعل هذا البلاء كفارة لي عن ذنب.

## ماذا عن الانتحار؟

وهذا عكس من يفرّ مما لا يقدر على دفع أسبابه، فيحاول أن يقتل نفسه، وكل منا قد رأى أو سمع عن بعض الذين يريدون ذلك لكن يتم إنقاذهم، كغسيل المعدة لمن ابتلع أقراصا سامة، أو إطفاء حريق من أشعل في نفسه النار، فالمنتحر يريد لنفسه الموت ولكن الله إذا لم يأذن، فلا يبلغه الله هذا، فقد تجد مُنتحرا يريد

---

(١) [آل عمران: ١٤٥].

أن يطلق على نفسه رصاصة من مسدس فلا تنطلق الرصاصة، أو تجد منتحرا آخر يريد أن يشنق نفسه بحبل معلق في السقف فينقطع الحبل، لماذا؟ لا يقبض الحياة إلا من وَهَب الحياة. قد يقول قائل: ولكن هناك المقتول الذي يقتله إنسان آخر، وهنا يرد المثل الشعبي: لو صبر القاتل على المقتول لمات بمفرده، إن اللحظة التي تفارق الروح مادة الجسد موقوتة بأجل محدود، فمرة تأتي اللحظة بدون سبب، فيموت الإنسان حتف أنفه، ويقول أصدقاؤه: لقد كان معنا منذ قليل، إن الكتاب إذا انطوى فقد انتهى الأمر.

## لماذا نعاقب القاتل إذن؟

إذن فقول الله: ﴿كِتَٰبٗا مُّؤَجَّلٗاۗ﴾ يطلق مرة على زمن العمر كله، ومرة يطلق على النهاية النهائية منه، والنهاية النهائية هي الموت الحقيقي، فالقاتل حين ينقُض بُنية القتيل إنما يوافق الأجل المكتوب الذي أراده الله، لكن لماذا نعاقب القاتل إذن؟ نحن نعاقبه لأنه نَقَض بنية إنسان آخر.

## الله يطلق الإذن بالموت

ولنلحظ قوله: ﴿بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ﴾ فهي تدلنا على أن الله هو الذي يطلق الإذن، والإذن يكون للملائكة ليقوموا بهذه المسألة، وما دام كل أمر قد صدر منه فهو سبحانه الذي يتوفى الأنفس، وبعد ذلك فالملك الذي يتوفى الأنفس له أعوان؛ فهو عندما يتلقى الأمر من الله فهو ينقل الأوامر إلى أعوانه ليباشر كل واحد

مهمته، إذن فصيرورة الأمر بالموت نهائيا إلى الله،

وصيرورة الأمر بالموت إلى الملائكة ببلاغ من الله، هذا هو الإذن.

## لماذا أنكرتم هذه؟

أما قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدۡ ثَوَابَ ٱلدُّنۡيَا نُؤۡتِهِۦ مِنۡهَا﴾ ولو كان كافرا، وهذا ينهي عملية أن تقول: إن الكفار حالهم أفضل من حالنا، الكفار متقدّمون ونحن متخلّفون، ألم تأت فترة كان فيها المؤمنون متقدمين جدا؟ لقد جاءت فترة تقدم فيها المؤمنون، وكانوا متقدمين لألف سنة، وهم الدولة الأولى في العالم، وكان الكفار يسمون زمانهم ودولهم بأنها تحيا في عصور الظلمات، لماذا أنكرتم هذه؟ لان التاريخ جاء لنا من ناحية هؤلاء وقد شوّهوه، ولذلك نقول لهم: نحن كنا متقدمين وأنتم والتاريخ يشهد بذلك، أيأخذ الكافر بأسباب الله وأنت يا مؤمن بالله تترك الأسباب ليأخذها هو؟ لا؛ لأن من يعبد الله أولى بسرِّه في الوجود، فكوننا نتركهم يأخذون الأسرار العلمية ولا ننافسهم في هذا المجال، هذا تقصير منا.

## معنى قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن﴾

﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيّٖ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٞ فَمَا وَهَنُواْ لِمَآ أَصَابَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾[1]

---

(١) [آل عمران: ١٤٦].

﴿وَكَأَيِّن﴾ هذه يقولون: إنها للتكثير، والمعنى: كثير من نبي قاتل معه مؤمنون برسالته كما حدث وحصل مع رسول الله. وقوله الحق ﴿رِبِّيُّونَ﴾ أي ناس فقهاء درسوا علوم الربّ فاهمون سبل الحرب، وأيضا تعني أتباعا يقاتلون، وقول الحق: ﴿فَمَا وَهَنُواْ﴾ أي ما ضعفوا، وكأنه سبحانه يقول: أنتم لماذا ضعفتم في موقفكم في غزوة أُحُد وأنتم تقاتلون مع رسول الله، لقد كان الأولى بكم أن يكون حماسكم في القتال معه أشد من حماس أي أتباع نبيّ مع نبيهم؛ وفيه عتاب لهم، وقوله: ﴿وَمَا ٱسۡتَكَانُواْۗ﴾ ماذا تعني؟ الاستكانة: هي الذلة والخضوع.

## فطنوا إلى السبب!

﴿وَمَا كَانَ قَوۡلَهُمۡ إِلَّآ أَن قَالُواْ رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسۡرَافَنَا فِيٓ أَمۡرِنَا وَثَبِّتۡ أَقۡدَامَنَا وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ١٤٧﴾[١]

فكأن ما حدث نتيجة لذنب تقدم ففطنوا إلى السبب، كان المفروض أنهم في معركة، وهذه المعركة أجهدتهم وأنهكتهم، صحيح أنهم لم يضعفوا، وكان المفروض أن يقولوا: يا رب انصرنا أولا، بل قالوا: ﴿رَبَّنَا ٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ فكأنه لا شيء يصيبنا إلا بذنب من الغفلة ارتكبناه، فقد أسرفنا، وأسرفت: يعني أن

(١) [آل عمران: ١٤٧].

تأخذ حاجة ليست ضرورية لقوام حياتك، إنه سبحانه يوضح: أنا حللت لك كذا من النساء، فما الذي جعل عينيك تزوغ وتميل إلى غير ما أحله الله لك؟ أنا أحللت لك كسب يدك، فلماذا أسرفت وطمعت في رزق غيرك؟

## نيشان الذبابة!

قوله تعالى: ﴿وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا﴾ كيف يكون ذلك؟ والمفهوم في المعركة أن الأقدام لا تثبت؟ المعركة تطلب من المقاتل أن يكون متحركا، إذن يكون المعنى: لا تجعلنا نفرّ من أرض المعركة، ولا نترك أرض المعركة أبدا، علينا ألا نبرح أماكننا؛ لأننا ساعة أن نبرحها فهذه أول هزيمة، وفي هذا أمر يَجترئ العدو علينا، فالكفار لم يظلوا في أرض المعركة، بل تركوا وانصرفوا، وهؤلاء المؤمنون ولو أنهم انهزموا إلا أنهم مكثوا في أرض المعركة، وكرّوا وراء أعدائهم وطاردوهم، وقد اهتدى البشر أخيراً إلى هذا المعنى، ففي فرنسا نيشان يسمونه (نيشان الذبابة) لماذا الذبابة؟ لأن الذبابة إن طردتها عن مكان لا بد أن تعود إليه، فكذلك المفروض على القائد ما دام انسحب من منطقة أن يوطّن نفسه على العودة إليها، فيعطوه نيشان الذبابة.

## انتبهوا إلى موطن الضعف فيكم أولا

وما داموا قد قالوا: ﴿وَٱنصُرۡنَا عَلَى ٱلۡقَوۡمِ ٱلۡكَٰفِرِينَ ۝١٤٧﴾ فهم إذن مؤمنون بحق؛ ولذلك فإن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول قولته المشهورة: إنكم

تنتصرون على عدوكم بطاعة الله، فإن استويتم أنتم وهم في المعصية غلبوكم بعُدتهم وعَددهم، ولذلك فالإيمان يتطلب أن تنتبهوا إلى موطن الضعف فيكم أولا، والذي استوجب أن يصيبكم ما أصابكم، حقاً إنكم لم تضعفوا، ولم تستكينوا، وأصابكم من المعركة شيء من التعب والألم، لقد تكلموا عن الذنوب وطلبوا المغفرة وتكلموا عن الإسراف على النفس، فماذا كان العطاء من الله؟

## انتبه: ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ﴾

﴿فَـَٔاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾[1]

أي أن الذي يريد الدنيا فالله يعطيه من الدنيا غنائم وأشياء، ولنا أن نلحظ أن الحق عندما يتكلم هنا عن الدنيا فهو لم يصفها بحُسن أو بشيء، فقط قال: ﴿ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا﴾، لكن عندما تكلم عن الآخرة فهو يقول: ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ ٱلْآخِرَةِ﴾ وهذا هو الجمال الذي يجب أن يُعشق؛ لأن الدنيا مهما طالت فهي متاع وغرور وزخرف زائل، ومهما كنت منعّماً فيها فأنت تنتظر حاجة من اثنتين: إما أن تزول عنك النعمة، وإما أن تزول أنت عن النعمة. ويختم الحق الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾﴾ وقد أحسنوا حين ناجوا ربهم بعدما أصابهم، إنهم سألوا المغفرة، وسألوا أن يغفر لهم إسرافهم في أمرهم، وأن

---

(١) [آل عمران: ١٤٨].

يثبت أقدامهم، وأن ينصرهم على القوم الكافرين؛ لأنهم رأوا أن قوتهم البشرية حين يتخلى عنهم الله تصبح هباءً لا وزن لها.

## المنافق سيستغل الفرصة!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمۡ عَلَىٰٓ أَعۡقَٰبِكُمۡ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ١٤٩﴾(١)

كيف يتأتّى منكم أن تطيعوا الكافرين؟ إنكم وهُمْ من أول مرحلة مختلفون؛ أنتم مؤمنون وهم كفار، والكافر والمنافق سيستغل فرصة الضعف في النفس الإيمانية المسلمة، ويحاول أن يتسلل إليها، مثلما قلنا: إن جماعة من المنافقين قالوا: قُتل محمد، ولم يعد فينا رسول فلنلجأ إلى دين آبائنا، والمؤمنون الذين أصابتهم لحظة ضعف قالوا: نذهب إلى ابن أبيّ وهو المنافق الأول في المدينة، ونطلب منه أن يتوسط لنا عند أبي سفيان ليأخذ لنا الأمان، ولذلك إن كان الموقف يحتاج إلى ناصر فلا تطلبوه من الكافرين، ولكن اطلبوه ممن آمنتم به.

## نحن ضعاف الآن، ماذا نصنع؟

﴿بَلِ ٱللَّهُ مَوۡلَىٰكُمۡۖ وَهُوَ خَيۡرُ ٱلنَّٰصِرِينَ ١٥٠﴾(٢)

---

(١) [آل عمران: ١٤٩].

(٢) [آل عمران: ١٥٠].

قد تجد بشراً كافرين ينصروكم نصراً سطحياً، لا نقول إن هذا نصر، إنما النصر الحقيقي هو النصر الذي يأتي من الله، لماذا؟ لأن النصر أول ما يأتي من ناحية الله فاطمئن على أنك مخلص لله، وإلا ما جاءك نصره، فساعة يأتيك نصر الله فاطمئن على نفسك وأنك مع الله. من الممكن أن يكون هناك ناصر في عرف البشر، وقد قال المؤمنون: يا رب نحن ضعاف الآن، وإن لم نذهب لأحد ليحمينا ماذا نصنع؟ فيوضح لهم الله: إياكم أن تلجأوا إلى الكافرين لأنهم غير مأمونين عليكم، وإن كنتم تريدون أن تعرفوا ماذا سأفعل: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ﴾. فإذا ألقى الرعب في قلوب الكافرين فماذا يفيدهم عَدَدُهم وأموالهم؟ تصير ملكا لكم وتكون غنيمة.

## ألقى الله في قلوبهم الرعب بالفعل!

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾﴾[1]

فساعة قالوا لأبي سفيان: إن محمداً قادم إليك بجيش كثيف من المدينة، وانضم له مقاتلون لم يحاربوا من قبل، وقادم إليك في (حمراء الأسد)، ماذا صنع أبو سفيان وقومه؟ ألقى الله الرعب في قلوبهم وفرّوا، فإذا ما استقر الرعب في القلب نضح على جميع الجوارح تخاذلا، وأصبح التخوف من كل شيء، لذلك

---

(١) [آل عمران: ١٥١].

قال سبحانه: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ فكل قلب به كفر يحتاج إلى إلقاء الرعب فيه، إذن فتأتي نون العظمة في قوله: ﴿سَنُلْقِي﴾ لتستوعب كل هذه القلوب الكافرة؟ هم الذين استحقوا ذلك الرعب، لماذا؟ ﴿بِمَا أَشْرَكُوا﴾ .

## هل وقع الوعد أو لم يقع؟

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾[1]

فهل وقع الوعد أو لم يقع؟ لقد وقع، ومتى؟ فهل يشير الحق في هذه الآية إلى موقعة بدر؟

﴿إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ﴾ أي تُذهبون الحسّ منهم، والحس: هو الحواسّ الخمس، ومعنى أذهبت حسه يعني أفقدته تلك الحواسّ، وقد حدث، وتمكنتم منهم؛ تقتلونهم وتأسرونهم، أو الحسّ: هو الصوت الذي يخرج من الإنسان، وما دام فَقَد الحسّ يعني انتهى، هذا في بدر، أما هنا في أُحُد، فقد جاء فيكم قوله: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ﴾ أي جبنتم ﴿وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ فجماعة قالوا: نظل

---

(١) [آل عمران: ١٥٢].

على الجبل كما أمرنا الرسول، وجماعة قالوا: نذهب إلى الغنائم ﴿وَعَصَيْتُم﴾ أمر الرسول ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ وهي الغنائم،

## المسألة مبسوطة أمامكم بالتجربة

**أما قوله تعالى:** ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ﴾، فالذي أراد مواصلة القتال إنما يريد الآخرة ولم تلهه الغنائم، والقسم الذي أراد الدنيا قال: لنذهب إلى الغنائم، كأنه سبحانه يعطينا العبرة من معركتين: معركة فيها صدق وعد الله، وفعلا انتصرتم، وأيضا صدق وعد الله حينما تخليتم عن أمر الرسول فحدث لكم ما حدث، إذن فالمسألة مبسوطة أمامكم بالتجربة، ليس بالكلام النظري وليس بالآيات فقط، بل بالواقع. ﴿ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ﴾ نعم لأنكم كنتم مشغولين بقتالهم قبل أن تنظروا إلى الغنائم، فلما نظرتم إلى الغنائم اتجه نظركم إلى الدنيا فانصرفتم عنهم، ولم تُجهِزوا عليهم، ولم تتم لكم هزيمتهم وقهرهم.

## أيوجد تحذير أكثر من ذلك؟!

قوله تعالى: ﴿لِيَبْتَلِيَكُمْ﴾ كأنها غزوة مقصودة للابتلاء، فترون منها كل ما حدث، وبعد ذلك نجحت التجربة، فبعد هذه المعركة لم ينهزم المسلمون في معركة قط. ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ لأنه كان لكم وجهة نظر أيضا عندما تصورتم أن المعركة انتهت بسقوط معسكر الكفر، لكن كان يجب أن تذكروا أن

الرسول قال لكم: اثبتوا في مراكزكم وأماكنكم ولو رأيتموهم يدخلون المدينة!

أيوجد تحذير أكثر من ذلك!؟

## لقطة من المعركة، ما كان يصح أن تحدث!

﴿إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾﴾(١)

هنا جاء لهم بلقطة من المعركة، يستحضر الصورة المخزية التي ما كان يصح أن تحدث، ﴿إِذْ تُصْعِدُونَ﴾، وأَصعد: أي ذهب في الصعيد، والصعيد الأرض المستوية حتى تعينه على سرعة الفِرار، وهم ساعة أرادوا أن يفرّوا جَرَوْا إلى الأرض السهلة ومَشَوا، فكل منهم لا يريد أن يتعثر هنا أو هناك، والفارّ لا ينظر هنا أو هناك؛ ليس أمامه إلا الأرض السهلة ﴿وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ﴾ لا يلتفت بعضكم إلى بعض، والأهم من ذلك أن هناك تنبيها من القائد الأعظم وهو الرسول الذي يدعوكم ﴿فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ﴾ أي يناديكم من مؤخرتكم (إليّ عباد الله، إليّ عباد الله) طالبا منكم العودة إلى ميدان القتال ﴿فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ﴾ كأنه يقول: عاقبكم، أنتم غَمَمْتُم الرسول ﷺ بأنكم خالفتم أوامره، فأوقفكم الله هذا الموقف، ولكنه سبحانه يأتي بها مغلفة

(١) [آل عمران: ١٥٣].

بحنان الألوهية وقال: ﴿فَأَثَٰبَكُمۡ﴾ أي: علم الله سبحانه أن هؤلاء مؤمنون فلم يَقْسُ عليهم ﴿لِّكَيۡلَا تَحۡزَنُواْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ﴾ من الغنائم والنصر، كأن الغم الذي حدث إنما جاء ليُخرج من قلبكم لقطة سيل اللعاب على الغنيمة. ﴿وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمۡۗ﴾ من القتل والهزيمة.

## ردع ذاتي لجسم الإنسان

﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيۡكُم مِّنۢ بَعۡدِ ٱلۡغَمِّ أَمَنَةٗ نُّعَاسٗا يَغۡشَىٰ طَآئِفَةٗ مِّنكُمۡۖ وَطَآئِفَةٞ قَدۡ أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ ظَنَّ ٱلۡجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ مِن شَيۡءٖۗ قُلۡ إِنَّ ٱلۡأَمۡرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٞ مَّا قُتِلۡنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوۡ كُنتُمۡ فِي بُيُوتِكُمۡ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡقَتۡلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمۡۖ وَلِيَبۡتَلِيَ ٱللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمۡ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤﴾[١]

صاحب الهم والغم لا ينام أبدا؛ فهو يسهو عن نفسه ويرهق جسمه أكثر، وتكون المصيبة كبيرة عليه، وهنا ينزل الحق فضله عليكم بالنوم؛ لأن أسبابكم لا تساعد أيّا منكم على أن ينام. وكلمة ﴿أَنزَلَ﴾ تدل على أن هذا عطاء عُلوي ليس له شأن بالأسباب المادية ولا بالقوانين البشرية؛ لأن النعاس والنوم حينما يكون ﴿ءَامِنَةً﴾ هو عَرَض من الأعراض التي تطرأ على الأحياء، هذا العَرَض

(١) [آل عمران: ١٥٤].

تستوجبه عمليات كيماوية في نفسك، وهذه العمليات الكيماوية حتى الآن لا يعرفون ما هي، وأقصى ما فُهم منه أنه ردع ذاتي لجسم الإنسان، مثلما يريدون أن يصلوا إليه الآن في مجال الأجهزة الطبية بمجرد فصل تيار الكهرباء آليا عن تلك الأجهزة فهي تتوقف.

## حضن الإسلام وفوضى الجاهلية!!

وفي قوله تعالى: ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ يظهر الفرق بين من تربّى في حضن الإسلام وبين من بقي يعارك فوضى الجاهلية، على سبيل المثال سيدنا عليّ بن أبي طالب، تأتي له امرأة فتقول: يا ابن أبي طالب كيف يعطونني دينارا من ستمائة؟ مورثي خَلَّفَ ستمائة دينار فأعطوني دينارا واحدا، فقال لها: لعله مات عن زوجة، وعن بنتين، وعن أم، الزوجة تأخذ الثُمن (خمس وسبعين دينارا) والبنتان تأخذان الثلثين (أربعمائة دينار) وللأم السدس وهو مائة دينار، ولعل له اثنى عشر أخا وأختا واحدة، أشقاء أو لأب، وأنت هذه الأخت وقد بقي من التركة خمسة وعشرون دينارا توزع على الاثني عشر أخا والأخت، فيكون نصيبك دينارا.

كيف عرف ذلك؟ إنها دقة الحساب عند من تعلم في بيت النبوة.

## القوم الذين نافقوا ماذا كان حالهم؟

ومعنى قوله سبحانه: ﴿أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ أي خرجوا عن صفقة الإيمان، أما المؤمنون نجد أن الله قد أنزل عليهم نعاسا ليؤمّنهم، وهذه رحمة جديدة من

السماء ليُخرج القوم الذين أصابهم الغم على ما فعلوا مما هم فيه، ولذلك قال أبو طلحة: غشينا النعاس ونحن في صفوفنا يوم أحد، فكان السيف يسقط من أحدنا فيأخذه ثم يسقط فيأخذه، إذن هي عملية قسرية، والنعاس حينما ينزل من الله سبحانه يكون عملية إنقاذ من حركة فاتت فرصتها على النفس البشرية فعوضها الله، ولكن القوم الذين نافقوا ماذا كان حالهم؟ لا شك أن الذين جاءوا نفاقا لم يصبهم غم على ما حدث، بل بالعكس، لا بد أن يكون قد أصابهم فرح أو اطمئنان على ما حدث، وهؤلاء لا يكونون أهلا لأن يُنزل الله عليهم أمنة النعاس، بل يتركهم الله لذواتهم؛ لأنهم لم يكونوا في حصن الله باتباع منهج الإسلام أو بالإخلاص لفكرة الإسلام، هؤلاء يسلمهم الله لذواتهم، إذن فلن يُنزل عليهم أمنة النعاس؛ وما دام لن ينزل عليهم أمنة النعاس، فقد أصبحوا في قلق، لماذا؟ لأن نفوسهم قد أهمتهم، ومن أهمته نفسه يبدأ بالقلق، والبلبلة، والاضطراب، وتوهّم الأشياء، والشيء الواحد يتوهّمه على ألف شيء، إذن فنفسه تكون غير مطمئنة، وما دام الإنسان قد شغله همّ نفسه فلا يأتي النعاس أبدا.

## الهمّ أشدّ جنود اللّه

فساعة يدخل الهم على النفس البشرية، هذا أشد جنود الله؛ لأن الهم يدخل على النفس البشرية بأشكال متعددة، فيتصور أموراً معقدة في أمر واحد، ولكن الهمّ

يجول به في كل شكل؛ إن القلق والاضطراب يستبدّان بهم ويصابون بالفزع من كل شيء، فهؤلاء قد أهمتهم أنفسهم، وما داموا قد أهمتهم أنفسهم فقد خرجوا عن صفقة الإيمان، وما داموا قد خرجوا عن صفقة الإيمان فالله يتخلى عنهم، وما دام الله قد تخلى عنهم فعليهم مواجهة المصير.

## ماذا قالوا في نفوسهم؟

وإذا سمعت كلمة ﴿طَآيِفَةٌ﴾ فاعلم أنها جماعة تجمعها فكرة واحدة، ويأتي القول الحكيم هنا ﴿هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ ليبيّن لك ما قالوه في نفوسهم، أي هل انتصرنا أو أخذنا غنائم؟ أو يكون قولهم مقصودا به: أنهم خرجوا إلى المعركة بدون رأينا؛ وما داموا قد قالوا هذا في نفوسهم، أسمعهم أحد؟ لا، ولكن الله أخبر به، وأخبر بما في نفوسهم جميعا بقول واحد، مما يدل على أنهم يطوفون حول فكرة واحدة، فالنضج الوجداني يجعلهم يقولون جملة واحدة، وما داموا سيقولون في نفوسهم فمن الذي سمعهم وهم جماعة؟ إنه الله، فهم يظنون بالله غير الحق مع أنه حق، يقولون: ربنا لم ينصرنا على الرغم من أنه وعدنا بالنصر، وتناسوا العناصر التي جعلها الله أسباباً للنصر، لقد خالفوا أمر الرسول، فلا بد أن ينهزموا، فلا مجاملة لأحد، فالذي يخالف لا بد أن يأخذ جزاءه؛ لكنهم ظنوا بالله ظن الجاهلية.

## هذه هي الفضيحة لهم!

﴿يُخۡفُونَ فِيٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبۡدُونَ لَكَۖ﴾ وهذه هي الفضيحة لهم، فماذا كانوا يريدون أن يكون لهم؟ كانوا يريدون ألا يخرجوا للمعركة فقالوا: لو كان لنا من الأمر شيء واتبعنا منطقنا، لما جئنا الحرب هنا وحصل لنا ما حصل، هذه واحدة، أو: لو كان لنا شيء من النصر الذي وعد الله به محمداً وأصحابه ما قتلنا ها هنا، فعلى الرأيين يصح المعنى، فكأنهم أرادوا أن يعللوا القتل أو الموت بأسباب، ومن الذي قال: إن القتل أو الموت يتعلق بأسباب؟ إن الموت قضية تطرأ لإعدام الحياة، وهي مجهولة السبب ومجهولة الزمان ومجهولة المكان، ومجهولة العمر.

## لماذا ربطتم بين القتل والحرب؟

إذن فما دامت المسألة مجهولة فلماذا ربطتم بين القتل والحرب؟ ألم تروا إنساناً مات أو قُتل وليس في حرب؟ لو أن القتل لا ينشأ إلا في مواقع قتال الحرب لكان لكم أن تقولوا هذا، إنما القتل والموت قضية عامة لها واقع في حياتكم، هذا الواقع لم يرتبط بأرض، ولم يرتبط بزمان، ولم يرتبط بسنّ، ولم يرتبط بسبب، وإنما الموت يأتي لأنك تموت، انتهت المسألة.

## حرصك على الموت أم حِرْص الموت عليك؟!

ولذلك يأتي الرد من الله بأمر واضح: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾. فكأنك أيها الميت قد تكون أَحْرَص على لقاء الموت من حِرْص الموت عليك، بدليل أننا قلنا: إن الإنسان يكون مريضاً، ويلحّ على أن تُجري له عملية جراحية، فيعتذر الطبيب قائلا: عندي عدد كبير من الجراحات فانتظر شهراً، فيأتي له المريض بوساطة لكي يقبل الطبيب إجراء العملية الجراحية ويلحّ عليه، ويُعلي أجر الطبيب، وقد يموت المريض خلال إجراء هذه العملية، إذن فهو يلحّ على الموت أو لا؟ إنه يلح على الموت. ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾ في الصدر يحرص الإنسان على إخفاء الأمر الذي يحبّ أن يحتفظ به لنفسه، ولكن الله ﷻ يفضحهم أمام الناس، ويفضحهم أمام نفوسهم؛ فقد يجوز أن يكونوا مغشوشين في نفوسهم.

## الشيطان لا يستزلّ إلا الضعيف

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا ۖ وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾(١)

عندما نقرأ كلمة ﴿اسْتَزَلَّهُمُ﴾ يعني طلب الزّلل، وهو العثرة والهفوة، أي أن

---

(١) [آل عمران: ١٥٥].

الإنسان يقع في الغلط، إذن فالشيطان طلب أن يزلوا ﴿بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ﴾، كأن الشيطان لا يجترئ على أن يستزل أحداً ممن آمن إلا إذا صادف فيه ضعفا من ناحية، لكن الذي ليس عنده ضعف لا يقوى عليه الشيطان، ساعة يأتي الإنسان ويعطي لنفسه شهوة من الشهوات، فالشيطان يرقّمه ويضع عليه علامة ويقول: هذا ضعيف، هذا نقدر أن نستزِلّه، لكن الذي يراه لا يطاوع نفسه في شيء من التحلل لا يقترب ناحيته أبداً. وعندما يرى الشيطان واحداً تغلبْه نفسه في حاجة فالشيطان يقول: هذا فيه أمل! وهو الذي يجري منه مجرى الدم، أما الملتزم الذي ساعة تُحدثه نفسه بشيء ويأبى؛ فالشيطان يخاف منه، إذن فالشيطان لا يستزل إلا الضعيف، ولذلك فالذي يكون ربه على ذِكْر منه دائماً لا يجترئ عليه الشيطان أبداً.

## ربنا يعفو عن كثير

وكأن قول الله ﴿وَلَقَدۡ عَفَا ٱللَّهُ عَنۡهُمۡۗ﴾ أنه لم يأخذهم بكل ما كسبوا؛ لأن ربنا يعفو عن كثير، لماذا؟ تكريما لمبدأ الإسلام الذي دخلوا فيه بإخلاص، ولكن نفوسهم ضعُفت في شيء، فيُعطيهم عقوبة في هذه ولكنه يعفو عنهم، فهذا هو حق الإسلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٞ ١٥٥﴾.

## كأنهم لم يروا أبداً ميتاً في فراشه؟!

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ إِذَا ضَرَبُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ كَانُواْ غُزّٗى لَّوۡ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجۡعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسۡرَةٗ فِي قُلُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ يُحۡيِۦ وَيُمِيتُۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ ١٥٦﴾[1]

والضرب في الأرض هو السعي، فالذين كفروا يرتّبون الموت والقتل والعمليات التي يفارق الإنسان فيها الحياة على ماذا؟ على أنه ضَرْب في الأرض أو خرج ليقاتل في سبيل الله! وقالوا: لو لم يخرجوا ما حصل لهم هذا! سنردّ عليهم، ونقول لهم: كأنكم لم تروا أبداً ميتاً في فراشه؟ كأنكم لم تروا مقتولا يسقط عليه جدار؟ أو تصيبه رصاصة طائشة! هل كل من يموت أو يقتل يكون ضارباً في الأرض لشيء أو خارجا للجهاد في سبيل الله؟ إذن فهذا حُمق في استقراء الواقع، وبذلك يعطينا الله صورة من حكمهم على الأشياء، فإذا عرفنا أنهم كفروا نقول: هذه طبيعتهم، لأننا نجد أن حكمهم ليس صحيحا في الأشياء الواضحة، وما دام حكمهم ليس صحيحاً أو حقيقيا في الجزئيات التي تحدث، فإذا عرفتم أنهم كفروا فهذا كلام منطقي بالنسبة لهم، فشأنهم أنهم لا يتثبّتون في أحكامهم، فلا عجب إذن أن كانوا كافرين.

(١) [آل عمران: ١٥٦].

## الله سبحانه يصوّر لهم ما يقولونه ليعذّبهم به

قوله تعالى: ﴿أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى﴾ أي في غزوة، ﴿لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ﴾. إذن فالله ﷻ يصوّر لهم ما يقولونه ليعذّبهم به، كيف؟ لأنهم عندما يقولون: لو كانوا عندنا لكنا منعناهم أن يخرجوا أو يُقتلوا، إذن فنحن السبب، وهكذا نجد أنهم كلما ذكروا قتلاهم أو موتاهم يعرفون أنهم أخطأوا، وهذه حسرة في قلوبهم، ولو أنهم ردوها إلى الله لكان في ذلك راحة لهم، ولَمّا كانوا قد أدخلوا أنفسهم في متاهة، ويحدُث منهم هذا حتى نعرف غباءهم أيضاً؛ فهم أغبياء في كل حركاتهم، وفي استقراء الأحداث الجزئية، وأغبياء في استخراج القضية الإيمانية الكلية، أغبياء في أنهم حشروا أنفسهم وأدخلوها في مسألة ليست من شأنهم، فأراد ربّنا ﷻ أن يجعل ذلك حسرة عليهم. ﴿وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ﴾ أي هو الذي يَهَب الحياة وهو الذي يهب الموت، فلا الضرب في الأرض ولا الخروج في سبيل الله هو السبب في الموت، ولذلك يقول خالد بن الوليد رضي الله عنه: لقد شهدت مائة حرب وما في جسدي موضع شبر إلا وفيه ضربةُ سيف أو طعنة رمح، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء.

## بلغوا من الغباء أنهم لم يستتروا

ويختم الحق الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾﴾ فكأنهم قد بلغوا من

الغباء أنهم لم يستتروا حتى في المعصية، ولكنهم جعلوها حركة تُرى، وهذا القول هنا أقوى من ﴿عَلِيمٌ﴾؛ لأن ﴿عَلِيمٌ﴾ تؤدّي إلى أن نفهم أنهم يملكون بعضاً من حياء ويسترون الأشياء، ولكن هل عِلْم الله هو الذي يفضحهم؟ لا، هي صارت حركة واضحة بحيث تُبْصَر للجميع.

## يبتغي الحياة ويترك ما عند الله!

﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ۝١٥٧﴾[1]

والذي يحرص على ألا يخوض المعركة مخافة أن يُقتل، فما الذي يرجّح عنده هذا العمل؟ إنه يبتغي الخير بالحياة، ومادام يبتغي الخير بالحياة، إذن فحركته في الحياة في وهمه ستأتيه بخير، فهو يخشى أن يموت ويترك ذلك الخير، إنه لم يمتلك بصيرة إيمانية، ونقول له: الخير في حياتك على قدر حركتك، أما تمتعك حين تلتقي بالله شهيداً فعلى قدر ما عند الله من فضل ورحمة، وهي عطاءات بلا حدود، إذن فأنت ضيّعت على نفسك الفرق بين قُدرتك وحِكمتك وعِلمك وحَركتك في الكسب؛ وبين ما يُنسب إلى الله في كل ذلك.

## قدّم الموت على القتل

﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ۝١٥٨﴾[2]

---

(١) [آل عمران: ١٥٧].

(٢) [آل عمران: ١٥٨].

قول الحق في الآية الأولى جاء بتقديم القتل على الموت قال تعالى: ﴿وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ﴾ وجاء في هذه الآية بتقديم الموت على القتل قال جل شأنه: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ فقدم القتل على الموت في الآية الأولى لأنها جاءت في المقاتلين، والغالب في شأنهم أن من يلقى الله منهم ويُفضي إلى ربه يكون بسبب القتل أكثر مما يكون بسبب الموت حتف أنفه، أما هذه الآية فقد جاءت لبيان أن مصير جميع العباد ومرجعهم يوم القيامة يكون إلى الله تعالى، وأن أكثرهم تزهق نفسه وتخرج روحه من بدنه بسبب الموت، فلذا قدم الموت هنا على القتل، إذن فكل كلمة وجملة جاءت مناسبة لموقعها.

## رحمة عظيمة فوق مستوى الإدراك

﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾(١)

إن الآية كما نرى تبدأ بكلام إخباري هو ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ﴾ أي بأيّ رحمة عظيمة أُودعت فيك، بأيّ رحمة فوق مستوى الإدراك، فأنت تُبهم الأمر فكأنه شيء عظيم؛ فيكون فوق المستوى الإدراكي، فكأنه سبحانه يريد أن يقول: إن طبيعتك يا محمد طبيعة تتناسب لما يطلب منك في هذه المسألة، هم

---

(١) [آل عمران: ١٥٩].

خالفوك وهم لم يستجيبوا لك حينما قلت: (إليَّ عباد الله، إليَّ عباد الله إني رسول الله)، وهذا شيء يُغضِب، فكأنه يريد أن يُحِنّن رسول الله على أمته؛ فقال له: إياك أن تجازيها على هذا؛ فأنت رحيم لست فظاً غليظ القلب، فلا تَخرج عن طبيعتك في هذه المسألة، مثلما تأتي لواحد مثلا وتقول له: أنت طبيعة أخلاقك حسنة، يعني اجعلها حسنة في هذه.

## النُّصح ثقيل!!

ثم قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ﴾ لماذا؟ لأنك تُخرجهم عما ألفوا من أمور الجاهلية، فهم بحاجة إلى التودّد وإلى الرحمة، ولذلك يقولون للذي ينصح إنسانا، النصح ثقيل؛ هل تنصحه بما يكره؟ لا، إنه في حاجة إلى ملاطفة وملاينة، ونحن نستعمل ذلك في ذوات أنفسنا حين نجد مرضا يحتاج إلى علاج مرّ، فنغلّف العلاج المرّ في غلاف من السكر، بحيث يمر من منطقة الذوق بلطف وانسياب دون أن تحسّ بهذه المرارة.

## المسألة لا تتعلق بك وحدك

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ﴾ أي: وبعد ذلك اعفُ عنهم، فالعفو هو: مَحْو الذنب محوا تاماً، ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ﴾ هل انتهت المسألة؟ لا، فالمسألة لا تتعلق بك وحدك، لأنك لا بد أن تستغفر الله لهم أيضا، فمن الممكن أن يعفو صاحب الذنب، ولكن الله الذي يغفر الذنب لا يعفو، وكأن الله يقول: أنت عفوت فهذا

من عندك؛ لكنه يطلب منك أن تستغفر لأجلهم، كي لا يعذبهم الله عما بدر منهم نحوك.

## المسألة انتهت واستأنفنا صفحة جديدة

﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ عليك أن تشاورهم دائما، فما دام العفو قد رضِيَتْ به نفسك، وما دمت تستغفر لهم ربك، واستغفارك ربك قد تستغفره بعيدا عنهم، وعندما تشاورهم في أي أمر، من بعد ذلك فكأن المسألة انتهت واستأنفنا صفحة جديدة، وأخذنا الدرس والعظة التي ستنفعنا في أشياء كثيرة بعد ذلك، ولذلك تجد بعد هذه المعركة أن الأمور سارت سيرها الصحيح دائما؛ لأن التجربة والتعليم والتدريب قد أثَّر وأثمر.

## المشورة: تلقيح الرأي بآراء متعددة

سيدنا أبو بكر عندما جاءت حروب الردة، ماذا صنع؟ شاور أصحابه، فقال له بعضهم: لا تفعل، فهل سمع مشورتهم؟ لا، لم يسمع مشورتهم، إنما شاورهم، فلإنفاد المشورة حُكم، ولردّ المشورة حكْم، المهم أن تحدث المشورة؛ ونعمل بأفضل الآراء، فالمشورة: تلقيح الرأي بآراء متعددة. إن العين ترى الشيء القريب والشيء البعيد، لكن هذه العين نفسها تعجز عن رؤية نفسها إلا بمرآة، وكذلك شأن المسألة الخاصة بغيرك والتي تعرض عليك، إن عقلك ينظر فيها باستواء ودون انفعال؛ لأنه لا هوى لك، والحق هو الذي يجذبك، لكن مسائلك الخاصة قد يدخل فيها هواك ويُحلّيها لك.

## الجوارح تعمل والقلوب تتوكل

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ وقد عزم رسول الله، ولبس عُدة الحرب، وبعد ذلك يقولون له: لا تخرج! أيدعها؟ لا؛ فالمسألة لا تحتمل التردد. وفائدة الإيمان: أن الجوارح تعمل والقلوب تتوكل، معادلة جميلة، فالجوارح تقول: نأتي بالبذر الجيد، نحرث، ونزرع، ونروي، نضع سماداً، ونفترض أن الصقيع قد يأتي، ونخشى على النبات منه، فنأتي بالبيوت البلاستيكية ونُغطيه، كل هذه عمل الجوارح، وبعد ذلك القلوب تتوكل، وإياك أن تقول: المحصول آتٍ لأنني أحسنت أسبابي، لا، لأن فوق الأسباب مُسَبِّبَها، وهذه فائدة الإيمان، لأنني مؤمن بإله يخلق بأسباب ويخلق بغير أسباب، الأسباب لك يا بشر، أما الذي فوق الأسباب فهو الله، فأنت حين تعمل أخذت بالأسباب، وحين تتوكل ضمنت المسبب وهو الله سبحانه.

## لا تردّ الأسباب ثم تقول: اعمل لي يا رب!

وإياك أن تظن أن التوكل يعني أن تترك الجوارح بلا عمل، لا، فهذا هو التواكل أو الكسل، إنه التوكّل الكاذب، والدليل على كذب من يقول ذلك، أنه يحبّ أن يتوكل فيما فيه مشقة، والسهل لا يتوكل فيه، ونقول للرجل الذي يدّعي أنه يتوكل ولا يعمل: أنت لست متوكلا، ولو كنت صادقا في التوكل إياك أن تمدّ يدك إلى لقمة وتضعها في فمك! كن متوكلا كما تدعي! ودع التوكل يضع لك

اللقمة في فمك! واترك التوكل ليمضغها لك! وطبعا لن يفعل ذلك، ولهذا نقول له أيضا: إن ادعاءك التوكل هو بلادة حسّ إيماني وليس توكلا. فالتوكل معناه: تسليمك زمام أمورك إلى الله ثقة بحسن تدبيره، ومن تدبيره أن أعطاك الأسباب، فلا تردّ يد الله الممدودة بالأسباب ثم تقول له: اعمل لي يا رب!

## هذا ما قدرنا عليه يا رب، ونثق بأنك تنصرنا

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ١٦٠﴾[1]

حينما نقرأ ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ﴾ فقد نسأل: وما هو المقابل؟ المقابل هو ﴿وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ﴾، إذن فأنت دخلت بالأسباب التي قالها الحق ﷻ مؤتمرا بأمر القيادة السماوية التي مُثلت في الرسول المبلغ عن الله، وقد أخذت عُدتك على قدر استطاعتك، إياك أن تقارن عَدَدَك بعدد خصمك، أو تقارن عُدتك بعُدة خصمك؛ فالله لا يكفيك أن تقابل ذلك، وإنما قال: أنت تُعد ما استطعته، لماذا؟ لأنه لو كانت المسائل قدر بعضها لكانت قوة لقوة، لكن الله يريد أن يكون العدد قليلا وتكون العدة أقل، وأن نعترف ونقول: هذا ما قدرنا عليه يا رب، ونثق بأنك يا رب ستضع مع العدد القليل عددا من عندك، فأنت بذلك تضمن نصر الله لك.

(١) [آل عمران: ١٦٠].

## كيف نعرف أننا ننصر اللّه؟

نعرف ذلك عندما تأتي النتيجة بنصرنا، لأنه سبحانه لا يعطي قضية في الكون وبعد ذلك يأتي بالواقع ليكذبها، وإلا فالمسلمون يكونون قد انخدعوا، لأنه لو جاء الدين بقضية ثم يأتي الواقع ليكذبها، فلا بد أن يقولوا: إن الواقع كذب تلك القضية، لكن حينما يجيء الواقع مؤكدا لهذه القضية، عندئذ نحن لا نصدّق في هذه القضية فقط، بل نصدّق كل ما غاب عنا، فعندما تظهر جزئية ماديَّة واقعة محسوسة لتثبت لنا صدق القرآن في قضية؛ فإننا لا نكتفي بهذه القضية، بل نقول: كل ما لا نعلمه داخل في إطار هذه القضية.

## أسرار اللّه في الكون

لذلك، الله تعالى ترك بعض أسراره في كونه، وهذه الأسرار التي تركها في كونه هي أسرار لا تؤدي ضرورات؛ إن عرفناها فنحن ننتفع بها قليلا في الكماليات، ويترك الله بعض الأسرار في الكون إلى العقول لتستنبطها، فالشيء الذي كان العقل يقف فيه قديما يصبح باكتشاف أسرار الله مقبولا ومعقولا، كأن الشيء الذي وقف فيه العقل سابقا أثبتت الأيام أنه حق، إذن فما لا يُعرف من الأشياء يُؤخذ بهذه القضية أو بما أُخِذَ من الغير.

## نضرب مثالا

يقولون مثلا: اكتشف الميكروب على يد (باستير)، لكن ألم يكن الميكروب موجودا قبل (باستير)؟ كان الميكروب موجودا، ولم يكن أحد يراه؛ لأن الشيء إذا دق ولطف لا نقدر أن ندركه؛ فليس عندنا الآلة التي تدركه، ولم نكن قد اخترعنا المجهر(المايكروسكوب) الذي يكبِّر الأشياء الدقيقة آلاف المرات. وكذلك اخترع الناس (التلسكوب)، فبعد أن كان الشيء لا يُرى لبعده، أصبح يرى بوساطة التلسكوب، وإن كان الشيء ضئيلا جدا ولا نراه. و(التلسكوب) يقرب البعيد و(الميكروسكوب) يكبر الصغير، فنرى له حركة وحياة، ونجد له مجالا يسبح فيه، وهذا جعلني إذا حدثني القرآن أن لله خلقا غاب عن الحس لا يدرك من جن وملائكة، فلا أُكذّب ذلك، لأن هناك أشياء كانت موجودة ولم تدخل تحت حسّي ولا إدراكي مع أنها من مادتي، فإذا كانت الأشياء الأخرى من مادة أخرى مثل الملائكة من نور، أو الجن من النار، ويقول لي سبحانه إنهم مخلوقون وموجودون؛ فأنا لا أكذّب ما جاء عن الله؛ لأن هناك أشياء من جنسي كانت موجودة ولم أستطع أن أراها.

## نشعر أن الله تخلى عنّا، لماذا؟

قوله تعالى: ﴿وَإِن يَخۡذُلۡكُمۡ فَمَن ذَا ٱلَّذِي يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعۡدِهِۦۗ﴾ إنه في ظاهر الأمر يكون معنا، لكننا نشعر أنه تخلى عنا، لماذا؟ لأننا نترك بعضا من تعاليم الله، إذن

فهو في المظهر العام معكم كمسلمين، ومن معيّته لكم أن يؤدّبكم على المخالفة، فيخذلكم عندما تخالفون عن أمره، ويختم الله سبحانه الآية بقوله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝١٣﴾ المؤمنون بمن؟ بالله، وما داموا مؤمنين به فمن إيمانهم به أنه إله قادر عالم بالمصلحة، ولا يوجد أحسن من أنك توكّله.

## الغلول: هو الخيانة في الغنائم

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ وَمَن يَغۡلُلۡ يَأۡتِ بِمَا غَلَّ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ۝١٦١﴾(١)

الغلول: هو الأخذ في الخفاء، وأُطلق شرعا على الخيانة في الغنائم، ففي هول المعارك قد يجد المقاتل شيئا ثمينا فيأخذ هذا الشيء خفية، وأيضا كلمة (الغلّ في الصدور) أي إخفاء الكراهية، والله تعالى يقول: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ﴾ لماذا؟ لأن من الجائز أن الرماة في غزوة أحد ساعة رأوا الغنائم أقبلوا عليها؛ ففي معركة بدر كان الذي يعثر على غنيمة يأخذها، وكانت بدر أول معركة، وكان الهدف من ذلك تشجيع المقاتلين، وكان الرسول ﷺ: قد قال: (**من قتل قتيلا فله سلبه**) وظن المقاتلون في أُحُد أن المسألة ستكون مثل بدر، وظن البعض أن الرسول لن يعطيهم غنائم، فيوضّح الله ﷻ بأن هذه مسألة وتلك مسألة أخرى، فمن يفعل مثل هذا يكون قد غَلّ، وساعة تسمع: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّۚ﴾

(١) [آل عمران: ١٦١].

أي أن من طبعه ﷺ، ومن فطرته وسجيته ألاَّ يتأتّى ذلك منه أبدا، لكن الأمر يختلف مع المقاتلين؛ فمن الممكن أن يكون أحدهم كذلك.

## كيف يرضى لنفسه بهذه المهانة!؟

وساعة تسمع ﴿وَمَا كَانَ﴾ أي: وما ينبغي ولا يصح أن يكون ذلك الأمر، ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ كما صورها الرسول ﷺ يأتي يوم القيامة وهو يحمل البعير أو البقرة أو الشاة مثلا، وآهٍ لو كان ما أخذه حمارا فله نهيق!! فالذي أخذه سيفضحه، إذن فمن الممكن في الدنيا أن يأخذها خفية ويغُلّ، لكنه سيأتي في يوم القيامة وهو يحمل ما أخذه على ظهره، ولماذا يكون إخفاء الغنيمة في الحرب شرا؟ لأن المقاتل يعيش أثناء القتال في مهمة أن تكون كلمة الله هي العليا، ويجب أن يكون في مستوى ذلك، فكيف يرضى لنفسه بهذه المهانة وهي إخفاء الغنيمة؟

## ما بالك بالفضيحة؟

﴿ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ﴾ ولنتصور هذه بالنسبة لكل من يخون أمانة أؤتمن عليها، وأنه سيأتي يوم القيامة يحمل عمارة سكنية مثلا لأنه بناها بغير أمانة، أو يحمل أطنانا من البضائع لأنه سرقها، أو يحمل أطنانا من المواد الغذائية أو الأدوية الفاسدة التي استوردها، فكل من سرق شيئا أو خان أمانته سيأتي يوم القيامة وهو يحملها، وإذا كنا نشهد أن شخصا ما لا يطيق أن يفتضح

بين الناس المعاصرين له، فما بالك بالفضيحة التي ستكون لعموم الخلق من أول آدم إلى أن تقوم الساعة.

## لا تنفع فيهم اللعنة أو الشتائم

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦٢﴾﴾[1]

﴿بَآءَ﴾ أي: رجع ﴿بِسَخَطٍ مِّنَ ٱللَّهِ﴾ فكأن الحق يستنطقنا بالقضية لتكون حجة علينا، فالذي يتبع رضوان الله بالطاعة، أيساويه من يرجع إلى سخط الله بالمعصية؟! أفمن يتبع رضوان الله كمن غلّ في الغنيمة وخان في الأمانة؟ و{**السخط**} هو: إظهار التقبيح، لكن إظهار التقبيح قد لا يؤثر في أناس غليظى الإحساس، لا تنفع فيهم اللعنة أو الشتائم؛ لذلك جاء سبحانه بالحكم: ﴿وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ معنى {**مَأْوَاهُ**} أي المكان الذي يأوي ويرجع إليه.

## نلحظ كلمة ﴿دَرَجَٰتٌ﴾ للجنة و(دركات) للنار

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿١٦٣﴾﴾[2]

﴿هُمْ دَرَجَٰتٌ﴾ أي في الآخرة على قدر أعمالهم، ولنا أن نلحظ كلمة ﴿دَرَجَٰتٌ﴾

---

(١) [آل عمران: ١٦٢].

(٢) [آل عمران: ١٦٣].

بالنسبة للجنة؛ لأن فيها منازل ورتبا، أما فيما يتعلق بالنار، فيأتي لفظ (دركات)، فالدركة تنزل، والدرجة ترفع. وبعد ذلك يردفها سبحانه بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ۝٧١﴾ ليُطمئن هؤلاء على أن الله لن تُهدر عنده سيئة بدرت منهم، ونحن نسمع كلمة (يعمل) وكلمة (يفعل) وكلمة (يقول)، والعمل أهم الأحداث، يشمل ويضم القول والفعل معا.

## كأن الله يقول: هل أنا في حاجة إلى إيمانكم؟

﴿لَقَدۡ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمۡ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبۡلُ لَفِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ۝١٦٤﴾[1]

ما هو المنّ؟ المنّ الذي نحن بصدده هو العطاء بلا مقابل، ومنّة الله على المؤمنين تعطينا عطاء على قدر الدنيا وعلى امتداد الآخرة، فتكون هذه منّة كبيرة، والذي يمنّ على الآخر هو الذي يعطيه شيئا يحتاج إليه، فكأن الله يقول: وهل أنا في حاجة إلى إيمانكم؟ في حاجة إلى إسلامكم؟ أصفة من صفاتي معطلة حتى تأتوا أنتم لتكملوها لي؟ لا، إذن فحين أبعث لكم رسولا رحيما بكم، فالمنّة تكون لي وحدي.

(١) [آل عمران: ١٦٤].

## الرسل من البشر لأنهم إلى البشر

وفي قوله تعالى: ﴿إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أكان يبعثه مَلَكا؟ لا، بل بعثه من البشرية؛ كي تكون الأسوة فيه معقولة، فعندما يقول الرسول للإنسان افعل مثلي، فالإنسان عليه أن يطبّق ما يأمره به الرسول، لكن لو كان مَلَكا تقول له: لا أقدر لأنك مَلَك، أنت طبيعتك مختلفة، وكذلك الذين يقولون إن الرسول إله، فالمفهوم في الرسول أن يكون مبلغا عن الله منهجه، وأن يعلن بشريته ويقول: أنا بشر.

## بمجرد أن قال: إني رسول الله صدّقوه

قوله تعالى: ﴿إِذۡ بَعَثَ﴾ و﴿إِذۡ﴾ يعني ساعة، أي حين بعث فيهم رسولا منهم، فقد عمل فيهم منّة وقدم لهم ومنحهم جميلا كبيرا وأنعم عليهم نعمة، ﴿إِذۡ بَعَثَ فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾ فإذا كان بَعْثَ رسولٍ كي يهدي الناس إلى منهج الله يكون نعمة، فماذا إذا كان الرسول ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾؟ إن هذه تكون نعمة أخرى، لأنه ما دام من أنفسهم ومن جماعتهم، هو معروف نسباً وحسباً، ومعروف أمانة، ومعروف صِدقاً، ولم يُتعب أحداً في أن يبحث وراءه: أكذِب قبل ذلك حتى نَعتبر ذلك كذبا؟ أخان قبل ذلك حتى نَعتبر ذلك خيانة؟ لا، هل هو من الناس المدّعين الذين يريدون أن يقيموا ضوضاء من حولهم؟ لا، بل هو معروف من

جميع النواحي، مما لا يتطلب أن تُجهد الناس نفسها في البحث والتحرّي عنه، ولذلك كان هناك أناس بمجرد أن قال لهم: إني رسول الله، آمنوا به، لم يقدّم معجزة ولم يقولوا له: ماذا ستقول أو ماذا ستعمل؟ بمجرد أن قال: إنه رسول الله صدّقوه، فعلى أي حيثية استندوا في التصديق؟ لقد استندوا على الماضي. إذن فقوله: ﴿مِّنۡ أَنفُسِهِمۡ﴾ أي معروف لهم، فلم يأت لهم بواحد سقط عليهم من السماء، وقال: هذا رسول، لا، إنه رسول من جنس ونوع العرب، فساعة أن يتكلم سيفهمونه ولا يحتاجون إلى وساطة أو ترجمة.

## آيات قرآنية وآيات كونية

قوله تعالى: ﴿يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِهِۦ﴾ كلمة ﴿يَتۡلُواْ﴾ يعني يقرأ، وكلمة ﴿ءَايَٰتِهِۦ﴾ تستعمل للأمور العجيبة اللافتة للنظر، إذن فالآيات المقروءة هي القرآن، فالقرآن يفسر آيات الكون، وآيات الكون تفسر آيات القرآن، والرسول جاء يتلو آيات القرآن، وكانت عجيبة عليهم، لكن الآيات الكونية الأخرى التي في الكون يشاهدونها ويرونها؛ فينتهي الإنسان إلى الإيمان بِمَن خلق هذا الكون، وأنت إذا سمعت كلمة ﴿يُزَكِّيهِمۡ﴾ فأنت تعرف أنها من الزكاة، والزكاة أول معانيها: التطهير؛ والتنقية؛ والنماء، والآيات التي جاء بها رسول الله ﷺ إنما جاءت لتزكيهم.

نضرب مثلا:

الرجل يكون ميسور الحال، وعنده أموال وعنده عقارات وعمارات، وبعد ذلك يحبّ لأولاده أن ينجحوا في المدارس، فيشجعهم قائلا لكل منهم: إن نجحت فسأفعل لك كذا، هو لا يريد منهم شيئا لنفسه، فعنده النعمة الكافية، هو يريد فقط مصلحتهم هم.

## هل كانت الحياة في الجاهلية طاهرة؟

إذن فالمكلِّف لن ينتفع بتكليفنا أبدا، فالتنقية لصالحنا والتطهير لصالحنا والنَّماء لصالحنا، والتزكية إنما هي تطهير وتنقية ونماء، ولننظر إلى الحالة التي كانت الجاهلية عليها، هل كانت طاهرة؟ هل كانت نقية؟ هل كانت نامية؟ لم يكن بها وصف من تلك الأوصاف، لأنها جاهلية، فكلهم محكومون بالهوى والجبروت والسلطان والقهر، ونعرف أن أول ما يهتم به الإنسان هو أن يستبقي حياته وبعد ذلك يستبقي نوعه، وبعد ذلك يستديم ما حوله، والتزكية شملت كل أمر من هذه الأمور، تزكية في الإنسان نفسه، في ذاته.

## الكتاب هو القرآن والحكمة هي السنّة النبويّة

﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ﴾ وساعة يقول: ﴿ٱلۡكِتَٰبِ﴾ فهو يقصد الكتاب المنزل إنه القرآن، والحكمة هي السنة وتوجيهات الرسول، وآيات الله معروفة وهي آيات القرآن، والحكمة هي سُنَّة رسول الله ﷺ، إذن فالكتاب هو القرآن،

سيتلو عليهم آيات القرآن وبعد ذلك يعلمهم ما جاء في هذا الكتاب، بعض المفسرين قال: الكتاب يعني الكتابة، فقد كانت الأمة أميّة، وأول عمل زاولوه كتابة المصحف، فالتقى المعنيان.

## ما هو الضلال؟

ويختتم الحق هذه الآية بالقول الكريم: ﴿وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ ما هو الضلال؟ يقولون: ضلّ فلان الطريق أي مشى في مكان لا يوصله للهدف أو للغاية، أو يوصل إلى ضد الغاية، والغاية المرجوّة هي الجنة، وقد يوصل للمقابل وهو النار، هذا هو الضلال المبين، إنه ضلال واضح؛ بدليل أن المخالفات التي جاء الإسلام ليطهر الإنسان منها، يحبّ مرتكبها ألا تُعلم عنه وسط الناس، فالسارق يسرق لكن لا يحب أن يعرف الناس أنه لص، والكاذب يكذب لكن لا يحب أن يعرف الناس أنه كذاب، بدليل أنك عندما تقول له: يا كذاب تكون له صاعقة، إذن فالمخالفة تُفعل وصاحبها لا يريد أن يراها أحد أو يُعرف بها.

## كيف يهزمنا الكفار؟!

﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١٦٥﴾[1]

(١) [آل عمران: ١٦٥].

لماذا تقولون: كيف يهزمنا الكفار؟ لقد حدث لكم ذلك لأنكم خالفتم الرسول الذي منَّ ربكم به عليكم، وآتاكم، وزكاكم، ويعلمكم الكتاب والحكمة، كان مقتضى ذلك أن كل ما يقوله الرسول الذي هو بهذه المواصفات أن تطيعوه، ولا يقولنّ أحدكم: لماذا تحدث هذه الهزيمة؟ ولا يقولنّ أحد لماذا حكاية أُحُد؟ وكيف يهزمنا الكفار؟ إنَّ هذا لا ينسجم مع ما قيل من أن الله مَنّ عليكم وبعث فيكم رسولا، ثم إن أحُداً ليست مصيبة بادئة، بل مصيبة جاءت بعدما أصبتم من أعدائكم مصيبة، ونلتم منهم ضعف ما نالوا منكم، فأنتم بدأتم ببدر؛ قتلتم سبعين وأسرتم سبعين، وهم قتلوا سبعين ولم يأسروا أحداً في (أُحد)، أنتم أخذتم غنائم في بدر، وهم لم يأخذوا أي غنيمة في أُحُد، ما العجيبة في هذه! كان يجب أن تبحثوا في ذواتكم وفي نفوسكم، هل كنتم منطقيين مع إيمانكم ومع قيادة الرسول لكم؟

## هل كنتم على مستوى الإيمان المطلوب؟

أيكون منكم ذلك السؤال وهو ﴿أَنَّىٰ هَـٰذَا﴾، لأن ﴿أَنَّىٰ﴾ معناها استنكار أنَّ هَذَا يحدث، أي من أين أصابنا هذا الانهزام والقتل؟ ونحن نقاتل في سبيل الله؟ وفينا النبي والوحي؟ وهم مشركون ونقول لكم: وهل كنتم على مستوى الإيمان المطلوب؟ إن مستوى الإيمان المطلوب يقتضي منكم أن تنفّذوا ما قاله الرسول، وأنتم لم تكونوا على هذا المستوى الذي كنتم عليه في بدر.

## الله تعالى لا يتغير من أجلكم!

ساعة تسمع ﴿أَنَّىٰ هَٰذَا﴾ فإنها تأتي بمعنى (كيف يحدث هذا)؟ فمرة تكون بمعنى (من أين)؟ ومرة تكون بمعنى (كيف)، والذين دخلوا معركة أُحُد كانوا ينكرون عدم انتصارهم، فأوضح لهم الله: أن الله لا يتغير من أجلكم، ولكن يجب أن تتغيروا أنتم من أجل الله. ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٌ﴾: و﴿لَمَّا ١٩﴾ يعني: حين، أحين تصيبكم أي: أوَقت تصيبكم مصيبة.

## لا يوجد إله آخر يُبطل هذه السنن

وبعد ذلك تُذيّل الآية بقوله سبحانه: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾. فما موضعها هنا؟ موضعها أنه ما دامت لله سنن، وسنن الله لا تتبدل، والله موصوف بالقدرة الفريدة له، فلن يأتي إله آخر ويقول: نُبطل هذه السنن، وما دام لا يوجد إله آخر يقول ذلك فهو سبحانه قدير على كل شيء، ولا توجد قوة تزحزح هذه القضية؛ لأن السنن وضعها الله، فمن الذي يغيّرها؟ إنها لن تتغير إلا بقوة أعلى، ومعاذ الله أن تكون هناك قوة أعلى من قوة الله؛ لذلك يوضّح سبحانه: أنا قدير على أن أصون سنني في الكون، فلا تتخلف ولا توجد قوة أخرى تُحوِّل هذه السنن أو تبدلها.

## سيحدث منكم ما حدث، وستكون النتيجة ما كان!

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ فَبِإِذۡنِ ٱللَّهِ وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾[1]

أي أنه سبحانه قد جمع المؤمنين وجمع الكافرين في أُحُد بإذن منه وبعلمه، والنتيجة معروفة عنده، وأنه سيحدث منكم ما حدث، وستكون النتيجة ما كان، إذن فهذا أمرٌ معلوم، فالمسألة لم تأت بغير علم الله، لا، لقد جاءت بإذن الله دون أَحَدٍ من خلقه أبداً مهما كانت منزلته، ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ١٦٦﴾ وساعة ترى أمراً أجراه الله ليعلم الذين نافقوا، وليعلم المؤمنين، نعرف أن الله عالم بهم قبل أن تقع الأحداث، ولكن علمه لا يكون حجة على الغير إلا إن حدث منه بالفعل؛ لجواز أن يقول: يا رب أنت حاسبتني بعلمك أن هذا سيحدث، لكن ما كنت سأفعله! فيوضّح الحقّ: لا، أنت قد فعلته وصار واقعاً منك، وتقوم به الحجة عليك.

### نضرب مثلا:

وأضرب هذا المثل، أنت كمعلم تقول لواحد من الطلبة: أنت راسب، فيقول لك: لا، لا بد أن تمتحنني، تقول له: أنا أعرف أنك راسب، فيقول لك: أنا لا آخذ بعلمك بل لا بد أن تمتحنني، تقول له: تعال أمتحنك، وتعطيه بعض الأسئلة فيرسب، وهنا يصير علمه برسوبه أمراً واقعاً، وهو كان يعلمه مسبقا، لكنه الآن لا يقدر أن يجادل لأنه صار واقعا محسوساً.

---

(١) [آل عمران: ١٦٦].

## أحداث تظهرهم وتفضحهم

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ وَقِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ قَالُواْ لَوۡ نَعۡلَمُ قِتَالٗا لَّٱتَّبَعۡنَٰكُمۡۗ هُمۡ لِلۡكُفۡرِ يَوۡمَئِذٍ أَقۡرَبُ مِنۡهُمۡ لِلۡإِيمَٰنِۚ يَقُولُونَ بِأَفۡوَٰهِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا يَكۡتُمُونَ ١٦٧﴾[1]

وقوله: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْۚ﴾ أي يجعلهم يظهرون وينكشفون أمام الناس، وإلا لو لم تحدث هذه الأحداث فكيف كنت تعرف المنافق؟ سيستتر نفسه، لا بد إذن أن تأتي أحداث لتظهره وتفضحه، فالمنافق يراوغ؛ لذلك يأتيه الله بأحداث ليظهر على حقيقته، وقد كان.

## لن يقاتلوا في سبيل الله!

كانت المدينة تتعرض للهجوم، وإذا انتصر الكفار فسيدخلون ويأخذون المسلمين أسرى ويفعلون كل منكر!! فقال المسلمون للمنافقين: ﴿تَعَالَوۡاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ **أي** اخرجوا وقاتلوا معنا، وإن لم تخرجوا لتقاتلوا معنا ﴿أَوِ ٱدۡفَعُواْۖ﴾ أي اخرجوا لتدفعوا عن أنفسكم وعن أموالكم وعن نسائكم؛ ادفعوا عنا ولو بتكثير سوادنا وإظهار كثرتنا حتى يظن المشركون أن معنا أناسا كثيرين، لأنهم إذا انتصروا على المسلمين فسيدخلون ويفعلون بنا العجائب، إنه

---

(١) [آل عمران: ١٦٧].

دعاهم إلى القتال على طريق إثارة الحمية والأنفة فيهم، وذلك بعد أن يئسوا من أنهم لن يقاتلوا في سبيل الله، ولما رأوا إصرارهم على عدم الخروج قالوا لهم: اذهبوا أعداء الله، فسيغني الله رسوله عنكم.

## اللسان يقول والقلب ينكر

لقد ادّعى المنافقون أن الخروج من المدينة هو كإلقائهم إلى التهلكة وليس قتالاً؛ لأن القتال تدخله وعندك مظنة أن تنتصر، إنما هذا إلقاء إلى تهلكة وليس قتالاً، لكن قالوا: ﴿لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ﴾ وجاء الرد من الله يفضحهم: ﴿هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾، فقبل ذلك كانوا في نفاق مستور، وما دام النفاق مستوراً فاللسان يقول والقلب ينكر ويجحد، فهم مذبذبون بين ذلك؛ لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء، هذه المسألة جعلتهم أقرب إلى الكفر الظاهر﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ﴾ إذن فالقلب عمله النية، واللسان قد يقول ولا يفعل ما يقول، ولذلك: إن المنافق موزّع النفس، موزع الملكات، يقول بلسانه كلاما وقلبه فيه إنكار، كأنهم يعاملون الله كما يعاملون البشر مثلهم، ولذلك سيكونون في الدرك الأسفل من النار.

## هل يملكون طريق السلامة من الموت؟!

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ قُلۡ فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾[1]

عندما أراد رئيس المنافقين (ابن أُبَيٍّ) أن يخذل جيش المسلمين، وافقه بعض المنافقين ولم يوافقه البعض، هؤلاء الذين خرجوا للقتال والجهاد ولم يوافقوهم ثم قتلوا فرحوا فيهم، وقالوا: لو كانوا أطاعونا ومكثوا في المدينة ولم يخرجوا لما انهزموا ولما قتلوا، وكأن الله يوضح لنا أسلوبهم؛ لذلك سنأخذهم من منطقهم، هم قعدوا وقالوا عن إخوانهم الذين قُتلوا في المعركة والذين هم من جماعتهم: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا﴾ كأن قولا صدر منهم: (لا تخرجوا) ولكن القوم الآخرين الذين هم أقل نفاقا لم يطاوعوهم وخرجوا، فحدث لهم ما حدث، فكيف يردّ الله على هذه؟ انظروا إلى الرد الجميل: أنتم تقولون: ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا﴾، فكأن طاعتكم كانت وسيلة لسلامتهم من القتل، إذن فأنتم تعرفون طريق السلامة من القتل، والذي يعرف طريق السلامة من القتل هل يعرف طريق السلامة من الموت؟ ولذلك يقول الله سخرية بهم: ﴿فَٱدۡرَءُواْ عَنۡ أَنفُسِكُمُ ٱلۡمَوۡتَ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٦٨﴾ وفي ذلك ردّ عليهم من كلامهم ﴿لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾ وما دمتم تعرفون وسيلة للسلامة من القتل فاستعملوا الوسيلة في أن تدفعوا عن أنفسكم الموت!

---

(١) [آل عمران: ١٦٨].

## لقاء الله من أقصر الطرق

الحدث إنما يُحمد ويُذم بالنسبة للغاية منه، فإذا كانت الغاية أن تذهب إلى الاسكندرية مثلا؛ فقد تذهب إليها ماشيا فتحتاج إلى عدة أيام، أو تذهب إليها راكبا طائرة فتصلها في نصف ساعة، وما دامت غايتي أن أذهب إلى الاسكندرية، فالذي يُعجّل لي الزمن ويقلله لأذهب إليها أفضل أم لا؟ إنها الوسيلة الأفضل، وما دامت الغاية أن تذهب إلى لقاء الله وأن تعيش في جواره من أقصر الطرق فهذا أفضل بالنسبة لهم أم لا؟ هذا أفضل، وهكذا نرى أن الناس تنظر للموت نظرة حمقاء، إن موت المؤمن إنما يقرّبه إلى الغاية وهي الجنة، فما الذي يُحزنه!؟

## فرق كبير بين الموت والشهادة

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾[1]

أنتم تخافون الموت، إن هناك فرقا كبيرا بين الموت والشهادة، فالذي يقتل شهيدا لن يمر بفترة موتنا نحن، ولنفهم أنهم أحياء عند ربهم، أي بقانونه سبحانه، فلا تُحكّم قانونك أنت، فأنت لو فتحت القبر ستجد هؤلاء القتلى مجرد أشلاء، هم عندك أشلاء وأموات في قانونك أنت. لكنهم أحياء عند ربهم يرزقون، فالحياة تختلف عن الموت في ماذا؟ إن الإنسان إذا زهقت روحه وفارقت جسده انقطعت حياته،

---

(١) [آل عمران: ١٦٩].

في ظاهر الأمر انتهى، لكن الله سبحانه يريد أن يعطينا مواصفات تؤكد أن الشهيد حيّ، وعلينا أن نفهم أن العندية عندك غير العندية عند الله، فالشهيد حيّ عند ربه، ويُرزق عند ربه رزقا يناسب الحياة التي أرادها له ربه.

## حياة الشهيد ليست في قبره

ونعلم أن الرزق هو الخاصية التي توجد للأحياء، وعندما نقرأ قول الله: ﴿أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ١٦٩﴾ قد يقول قائل: من الجائز أنك تأخذ إنسانا وتُبقيه حيا وتعطيه طعاما وشرابا لكن أهو فرح بموقعه؟ لا، لذلك يجب أن ندرك ونعرف أن حياة الشهيد ليست في قبره ولكنها عند ربه، وهو فَرِح بموقعه ﴿أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١٧٠﴾.

## معنى: ﴿يَسْتَبْشِرُونَ ٤٥﴾

﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ١٧٠﴾[1]

(البِشارَة) عادة هي الفرحة، وهي تبدو عَلَى بشَرة الإنسان، فساعة يكون الإنسان فرحا، فالفرحة تظهر وتُشرق في وجهه، فهي تصنع في وجه الإنسان شيئا من الفرح مما يعطيه بريقا ولمعانا وجاذبية.

---

(١) [آل عمران: ١٧٠].

## يقولون: يا ليتهم يأتون ليروا ما نراه!

العدل يتحقق بين البشر بأن كلا منهم سيموت، ولكن الفضل لمن يُحبهم الله ويختارهم بالاستشهاد، ﴿فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ﴾ وليس هذا فقط، بل إننا نجد الأخوة الإيمانية تقتضي أن يُحبّ المؤمن لأخيه ما يُحبّ لنفسه فقال: ﴿وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم﴾ ولذلك فالشهيد يستبشر بالذي لم يأت من بعده من إخوانه المؤمنين ويقول: يا ليتهم يأتون ليروا ما نراه، فالشهداء يقولون: إنهم سيأتون لنا، وما داموا سيأتون لنا فنحن نُحب أن يكونوا معنا في النعيم الذي نحيا فيه، وكل منهم يشعر بالمحبة لأخيه، لأنه يعلم قول الرسول ﷺ: **«لا يكمل إيمان أحدكم حتى يُحب لأخيه ما يُحب لنفسه»**.

وعن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: **«لمَّا أُصيبَ إخوانُكم بأُحُدٍ، جعلَ اللهُ أرواحَهم في أجوافِ طَيرٍ خُضرٍ تَرِدُ من أنهارِ الجنَّةِ، وتأكلُ من ثمارِها وتأوي إلى قناديلَ من ذهبٍ معلقةٍ في ظلِّ العرشِ، فلمَّا وجدوا طيبَ مأكلِهم ومشربِهم ومقيلِهم؛ فقالوا من يبلِّغُ إخوانَنا عنَّا أنَّا أحياءٌ في الجنَّةِ نُرزَقُ؟ لئلا يزهَدوا في الجهادِ وينكلوا عن الحربِ، فقال اللهُ ﷻ أنا أُبلِغُهم عنكم فأنزلَ اللهُ ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢا﴾»**[1].

(١) صحيح، أخرجه أبو داود وأحمد.

## ردّ اعتبار!!

﴿يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِن بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾(١)

أراد الله ألا يطول أمد الغمّ على مَن ندموا بسبب ما وقع منهم، وألا يطول نشوة الانتصار عند الكفار الذين فرحوا بما أُلحق بالمؤمنين من الضرر في المعركة الأخيرة (أُحُد)، هؤلاء المشركون فرحون، وهؤلاء المسلمون في حزن؛ لأن الله أجرى تلك الأقدار ليُهذب ويُمحّص ويُربي، فيأتي رسول الله والحالة هكذا، ويعلن في الناس ملاحقة قريش في وقعة أُطلق عليها (حمراء الأسد) قائلا: لا يخرجنّ معنا إلا من حضر معنا القتال في أُحُد، ويخرج الرسول إليهم بعدد لا يزيد على عدد المقاتلين الذين كانوا يواجهونهم حتى لا يُقال إنهم جاءوا بمددٍ إضافي، بل بالعكس، فالذين خرجوا لمطاردة الكفار هم الذين بقوا مع الرسول في أُحد، ونقص منهم من قُتل ونقص منهم أيضا الجرحى، لقد كانوا أقل ممن كانوا في المعركة، هم في هذه الحالة استجابوا للرسول، كأن المسألة جاءت ردّ اعتبار لمن شهدوا المعركة؛ حتى لا يضعفوا أمام نفوسهم؛ وحتى لا يجعلوها زلة تطاردهم وتلاحقهم في تاريخهم الطويل، بل يعلمون أن معركة أُحد قد انتهت وعرفوا آثارها.

---

(١) [آل عمران: ١٧٢].

## استجابوا جميعا في لحظة واحدة

وبمجرد إعلان الرسول استجابوا جميعا في لحظة واحدة، وذهبوا إلى (حمراء الأسد)[1]. وكان ما كان، ﴿ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ وهم مُرهقون ومُتألمون ومثخنون بالجراح ﴿مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ﴾؛ وبعد ذلك أرسل الله لهم من جنوده من يُخَذِّلُ هؤلاء القوم ويقول لهم: إن محمدا قد خرج إليكم بجيش كبير ونلحظ أن الله سبحانه يقول هنا: ﴿ٱسْتَجَابُوا۟﴾ وهي تقابل (من خالفوا) أمر رسول الله وهم الرماة، ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ﴾ في الاستجابة ﴿وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾﴾ لأن ما حدث منهم من أمر المخالفة قد أخذوا عليه العُقوبة.

---

(١) غزوة (حمراء الأسد) لم تكن غزوة، ولم تحدث فيها مواجهة، حدثت في السنة الثالثة للهجرة، في صباح اليوم التالي من غزوة أحد، في منطقة تسمى (حمراء الأسد) في ضواحي المدينة، نحو(١٢) كلم جنوب المدينة المنورة، كان هدفها مطاردة قريش ومنعها من العودة للقضاء على المسلمين بالمدينة، ورفع الروح المعنوية للصحابة بعد غزوة أحد، علمت قريش بخروج الرسول محمد(ص) وفضلت الهرب خوفاً من المسلمين الذين بقوا (٣) أيام في حمراء الأسد ثم رجعوا إلى المدينة دون قتال، أصبحت اليوم مخطط سكاني.

## المنافقون يُروّجون إشاعات

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾(١)

المسألة ليست ذلك فقط، المسألة أن المنافقين راحوا يُروّجون إشاعات كاذبة بأن المشركين قد اسْتَدعوا عددا جديدا من كفار مكة وذلك ليخيفوا المؤمنين، فلم يخف مؤمن واحد، وساعة ترى كلمة (الناس) فاعلم أن الإيمان بعيد عنها، فالذين قالوا هم المنافقون، والذين جمعوا هم قريش، وما داموا (أناسا) فمن يغلب فهو يغلب بجهده وشطارته وحسن تصرفه، والمؤمن يتلقى النصر من ربه.

## الشيطان قد يتمثّل ويظهر في لمحات خاطفة!!

قيل: إن الشيطان قد يتمثل على هيئة حشد من الناس ليُرهب المؤمنين، والشيطان من عالم الجن، وعالم الجن يَراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم، وقد أعطاه الله القدرة على أن يتشكل بما يُحب، فله أن يتشكل في إنسان أو حيوان، أو كما يريد، ولكن إذا تشكل فالصورة تحكمه، لأنه ارتضى أن يخرج عن واقعه ليتشكل بهيئة أخرى، فإذا ما تشكل على هيئة إنسان، فقانون الإنسان يسري عليه، بحيث إن كان معك مسدس أو سلاح وتمكنت منه وطعنته يموت، وهذا هو ما رحمنا من تخويفهم لنا، ولذلك تجد أن الشيطان يظهر لمحة خاطفة ثم

---

(١) [آل عمران: ١٧٣].

يختفي، لأنه يخاف أن يكون الإنسان الذي أمامه واعيا بأن الصورة تحكمه، فعندما يتمثل لك بأي شكل تخنقه فيُخنق؛ لذلك يخاف من الإنسان، فلا يظهر إلا في لمحات خاطفة.

## لم يأبهوا لهذا التهديد

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾ لكن التثبت والتمسك بأوامر رسول الله ﷺ يُعزز الإحساس بالقوة؛ لذلك لم يأبهوا لهذا التهديد بل قالوا: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ١٧٣﴾ فلم يهتموا بالعدد، وفي هذا درس لكل مُحارب، فعندما تحارب، فأنت إما أن تكون منصورا بإيمانك بالله وإما أن تكون على العكس، ونلمس ذلك في أن بعضا من الناس جاءوا يصدّونهم ويخذّلونهم، فلم يستطيعوا، بل زادهم هذا القول إيمانا وَقَالُواْ حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل، لقد فطنوا إلى أن قوة الله هي التي تنصرهم، والله حسبهم وكافيهم عن أي عدد من الأعداد، وعندما نتوكل على الله فيما عجزنا عنه فهو نعم الوكيل، لقد نُصروا بالرعب الذي أنزله الله في قلوب أعدائهم، ولم يشتبكوا مع الكفار، فصدق قول الله: ﴿سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ﴾[1].

(١) [الأنفال: ١٢].

## تجرّدوا من نفوسهم إلا أن يقولوا: اللّه كافينا

﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ ١٧٤﴾[1]

ليلة واحدة كانت هي الفارق بين يوم معركة أُحُد ويوم الخروج لملاحقة الكفار في (حمراء الأسد)، ليلة واحدة كانت في حضانة الله وتجربة التمحيص التي مر بها المؤمنون، إنها قد فعلت العجب؛ لأنهم حينما طاردوا الكفار، لم يأبهوا لمحاولات الحرب النفسية التي شنها عليهم الأعداء، بل زادهم ذلك إيمانا وقالوا: حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل، إذن فقد تجردوا من نفوسهم ومن حولهم ومن قوتهم ومن عددهم ومن أي شيء إلا أن يقولوا: الله كافينا وهو نعم الوكيل، لقد عرفوا الأمر المهم، وهو أن يكون كل منهم دائما في حضانة ربه، وقد أخذ صحابة رسول الله هذه الجرعة الإيمانية واستنبطوا منها الكثير في حل قضاياهم. إذن فعلاج الخوف هو أن تقول من قلبك: حَسْبُنَا الله وَنِعْمَ الوكيل، وأن تقولها بحقّها، فإن قلتها بحقها كفاك الله شرّ ذلك الخوف، ليس هذا فقط، لأن الله يقول بعد ذلك ﴿فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ﴾ انظر إلى النعمة والفضل، إنهما من الله، هذه النعمة زادت في أنها غنيمة باردة من تجارة ومكاسب رجعوا بها.

---

(١) [آل عمران: ١٧٤].

## من الذي يخاف؟ وممن يخاف؟

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾[1]

إنها صرخة الشيطان الذي يخوِّف أولياءه، ويَصحُّ أن يصرخ الشيطان صرخته وهو يتمثل في صورة بشر، ويصح أن ينزغ الشيطان بصرخته لواحد من البشر فيصرخُ هذا الإنسان بنزغ الشيطان له، وعندما نقرأ القرآن بدقة إيمانية، فلا بد أن نفهم عن القرآن بعمق، فمن هم أولياء الشيطان؟ أولياء الشيطان في هذا الموقف، إما كفّار قريش، وإما المنافقون أو هما معا، و﴿أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ هم أحبابه الذين ينصرون فكرته، وللوهلة الأولى نجد أن الشيطان مُفترض فيه أن يخوّف أعداءه، فمن الذي يخاف وممن يخاف؟ المفروض أن يُخيف الشيطانُ أعداءه، هذا هو المنطق، فنحن في حياتنا العادية نقول: خوّفت فلاناً من فلان، فالشيطان يحاول هنا أن يتسلط على المؤمنين ويخوفهم من أوليائه الكفار والمنافقين، ونفهم من قول الحق: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ فالله سبحانه يطلب من المؤمنين أن يصنعوا معادلة ومقارنة، أيخافون أولياء الشيطان، أم يخافون الله؟ ولا بد أن يصلوا إلى الخوف من الله القادر على دحر الشيطان وأوليائه.

---

(١) [آل عمران: ١٧٥].

## ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ﴾ ولم يقل: لن يضرّوكم

﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٧٦﴾(١)

كان المنافقون في أول المعركة مُختفين ومستورين، ثم ظهرت منهم بادرة الانخذال في أُحُد، بعد ذلك سارعوا إلى الكفر، فكأن هناك من يلاحقهم بسوط ليتسابقوا إلى الكفر. ﴿إِنَّهُمۡ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۗ﴾ ولم يقل: لن يضروكم شيئا؛ لأن الرسول وصحابته المؤمنين ليسوا طرفاً في المسألة، فعداء الذين يسارعون في الكفر هو عداء لله؛ كأن المعركة ليست مع المؤمنين ولكنها مع الله، وما دامت المعركة مع الله فالمؤمنون جند الله؛ وهم الصورة التي أرادها الله لهزيمة الكافرين: ﴿قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ١٤﴾(٢).

## يدخل معركة مع الله!

لقد أراد معسكر الكفر والنفاق أن يدخل معركة مع الله، ولا توجد قوة قادرة على ذلك، ولهذا يُطمئن الله المؤمنين أكثر، ليزدادوا ثباتاً على الإيمان؛ فعندما تكون المعركة بين بشر وبشر فقد يغلب أحد الطرفين بقوته وعتاده، والمهم

---

(١) [آل عمران: ١٧٦].

(٢) [التوبة: ١٤].

فقط أن يظل المؤمنون في حضانة الله، والرسول يأمل أن يذوق الناس كلهم حلاوة الإيمان؛ لأنه رحيم بالمؤمنين، بل وبالناس جميعا ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ١٠٧﴾ ودليل ذلك فرط حبّ رسول الله بالأمة كلها، ها هو الله سبحانه يقول له: ﴿وَلَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِۚ﴾، إن الرسول يحزن من أجل عِصيانكم، وأنا الذي أواسيه وأقول له: لا تحزن. ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَلَّا يَجۡعَلَ لَهُمۡ حَظّٗا فِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ﴾ وما دامت هذه إرادة الله في ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة، أيكون لهم عمل يصادم مراد ربهم؟ لا. ﴿وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٌ ١٠﴾ لأنهم خالفوه.

## معركة هؤلاء مع ربهم

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلۡكُفۡرَ بِٱلۡإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيۡـٔٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٧٧﴾[1]

في ذلك طمأنة للمُؤمنين، كأنه ﷻ يقول: إن المعركة ليست معركة المؤمنين مع الكافرين، ولكنها معركة هؤلاء مع ربكم، وفي هذا اطمئنان كبير، فالشراء صفقة، والصفقة تقتضي ثمناً، والثمن هنا هو الإيمان، فهل أخذوا الكفر ودفعوا الإيمان ثمناً له؟ وهل معنى ذلك أن الإيمان كان موجوداً لديهم؟ نعم كان عندهم الإيمان؛ هو إيمان الفطرة وإيمان العهد القديم الذي أخذه الله على

---

(١) [آل عمران: ١٧٧].

الذّر قبل أن توجد الأهواء: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ۝١٧٢﴾[1]. وفي الحديث عن أبي هريرة عن رسول الله قال: **«كلُّ مولودٍ يولَدُ على الفطرةِ، فأبواه يُهوِّدانِه أو يُنصِّرانِه أو يُمجِّسانِه»**[2].

## تركوا إيمان الفطرة ودفعوه ثمنا للكفر

وعلى الأقل كان الإيمان والكفر في متناولهم؛ لكنهم أخذوا الكفر بدل الإيمان، لقد تركوا إيمان الفطرة وانسلوا منه ودفعوه ثمنا للكفر، وهم ﴿لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ لماذا؟ لأننا إن افترضنا أن الدنيا كلها قد آمنت فهذا لن يفيد الله في شيء. والحديث القدسي الذي رواه أبو ذر الغفاري، عن رسول الله، **«قال اللهُ تعالَى: يا عبادي! إنِّي حرَّمتُ الظُّلمَ على نفسي وجعلتُه مُحرَّمًا فلا تَظالموا، يا عبادي! إنَّكم تُخطِئون باللَّيلِ والنَّهارِ وأنا أغفِرُ الذُّنوبَ جميعًا ولا أُبالي فاستغفروني أغفِرْ لكم، يا عبادي! كلُّكم جائعٌ إلَّا من أطعمتُ فاستطعِموني أُطعِمْكم، يا عبادي! لم يبلُغْ ضُرُّكم أن تضُرُّوني ولم يبلُغْ نفعُكم أن تنفعوني، يا عبادي! لو أنَّ أوَّلَكم وآخرَكم وجِنَّكم وإنسَكم اجتمعوا وكانوا على أفجرِ قلبِ رجلٍ منكم لم يُنقِصْ ذلك من مُلكي مثقالَ ذرَّةٍ، ويا**

(١) [الأعراف: ١٧٢].

(٢) صحيح ابن حبان.

**عبادي! لو أنَّ أوّلَكم وآخرَكم وجِنَّكم وإنسَكم اجتمَعوا في صعيدٍ واحدٍ فسألوني جميعًا فأعطيتُ كلَّ إنسانٍ منهم مسألتَه لم يُنقِصْ ذلك ممَّا عندي إلَّا كما يُنقِصِ المَخيطُ إذا غُمِس في البحرِ، يا عبادي! إنَّما هي أعمالُكم تُرَدُّ إليكم، فمن وجد خيرًا فليحمَدْني ومن وجد غيرَ ذلك فلا يلومَنَّ إلَّا نفسَه»**[1]. إذن، فلا الإيمان من البشر يزيد الله شيئاً، ولا الكفر ينقص من الله شيئاً.

## العذاب أنواع

فالذين اشتروا الكفر بالإيمان لن يضرّو الله شيئاً، وأكثر من ذلك ﴿لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾﴾. ونحن نجد أن الله يقول مرة في وصف مثوى الكافرين إنه ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١﴾﴾، ومرة أخرى لهم ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠﴾﴾ ومرة ﴿عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٦﴾﴾، لماذا؟ لأن العذاب له صفات وألفاظ متعددة، فقد يُوجد عذابٌ مؤلم، ولكن المُعَّذب يتجلد أمام من يُعذبّه، ويُظهر أنه ما زال يملك بقيّة من جَلَد، إنه يتألم لكنه يستكبر على الألم، فالتجلّد هو نوع من الكبرياء على الواقع، ولذلك يأتي من بعد ذلك قوله تعالى إن لأمثال هؤلاء عذاباً مهيناً، أي إنهم سيذوقون الذّل والألم، ولا أحد فيهم يستطيع التجلد، وهذا النوع من العذاب عظيم في كمّيته وقدره، ومهين في إذلال النفس البشرية وغُرورها.

---

(١) صحيح مسلم.

## ليست المسألة كلمات تُقال هكذا!

فلنعرف أن لكل واحدة معنى، فليست المسألة عبارات تقال هكذا بدون معنى مقصود، وسيُعذّب الله الكافرين عذاباً أليماً وعظيماً ومُهيناً، لأن عذاب البشر للبشر على قدر البشر، لكن عذاب الله يتناسب مع قدرة الله، فهل لنا طاقة بهذا العذاب؟ ليس لنا طاقة به، ولكل وصف مراده حتى يستوعب كل حالات الإهانة من إيلام.

## عُمُره هو أثمن شيء عنده!

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًاۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ١٧٨﴾[1]

عندما نسمع قول الله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ﴾ فهو نهي، وقد نهى الله الكافرين عن ماذا؟ إن الكافر عندما يجد نفسه قد أفلت في المعركة من سيف المؤمنين، وأن عمره قد طال في الكفر، فهو يظن أن الله تركه لخير له؛ لأنه يفهم أن عمره هو أثمن شيء عنده، نقول لمثل هذا الكافر: إن العمر زمن، والزمن وعاء الأحداث، إذن فالزمن لذاته لا يُمَجّد إلا بالحدث الذي يقع فيه، فإن كان الحدث الذي يقع في الزمن خيراً؛ فالزمن خير، وإن كان الحدث الذي يقع في

(١) [آل عمران: ١٧٨].

الزمن شراً، فالزمن شر، وما دام هؤلاء كافرين، فلا بد أن كل حركاتهم في الوجود والأحداث التي يقومون بها هي من جنس الشر، لأنهم يسيرون على غير منهج الله، وربما كانوا على منهج المضادة والمضارة لمنهج الله، وذلك هو الشر، إذن فالله لا يملي لهم بقصد الخير، إنما يملي الله لهم لأنهم ما داموا على الكفر فهم يشغلون أوقات أعمارهم بأحداث شرّيرة تخالف منهج الله، وكل حدث شرّ له عذابه وجزاؤه، إذن فإطالة العمر لهم شر.

## إطالة أعمارهم ليست خيراً لهم!!

(حَسِبَ) و(يحسَب) تأتي بمعنى الظن، والظن كما نعرف أمر وهمي، والله سبحانه يذكّرهم أن ظنونهم بأن بقاء حياتهم هو خير لهم ليست حقاً، بل هي حدس وتخمين لا يرقى إلى اليقين، صحيح أن العمر محسوب بالسنوات؛ لكنه مجرد عن الأحداث، فلا يقال إن إطالته خير أو شر، وإنما يقال: إن العمر خير أو شر بالأحداث التي وقعت فيه، والأحداث التي تقع من الكافر فلا بد أن تكون شراً، حتى ولو فعل ما ظاهره أنه خير، فإنه يفعله مضارة لمنهج الله، وهو سبحانه يقول: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ﴾ ما الإملاء؟ الإملاء هو تمديد الوقت وإطالته، والمقصود هنا أن إطالة أعمارهم بعد أن أفلتوا من سيوف المؤمنين ليست خيراً لهم، ولا يصح أن يظنوا أنها خير لهم، لأن الله إنما يملي لهم ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا﴾، فكل ظرف من الزمن يمر عليهم يصنعون فيه أعمالاً آثمة.

## العقاب المناسب

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۝١٧٨﴾ وتأتي كلمة ﴿مُّهِينٍ ۝٢٠﴾ وصفاً للعذاب مناسبة تماماً؛ لأن الكافر قد يخرج من المعركة وقد تملكه الزهو والعجب بأن أحداً لم يستطع أن يقطع رقبته بالسيف، ويتيه بالعزة، لذلك فالإيلام هنا لا يكفي، لأنه قد يكتم الألم ويتجلد عليه، ولكن العذاب عندما يكون مهيناً فهو العقاب المناسب لمثل هذا الموقف، والمتكلم هنا هو الله، وسبحانه العليم بالمناسب لكل حال.

## أكان الله يترك الأمر مختلطاً هكذا؟

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ۝١٧٩﴾[1]

قبل حادثة أُحُد، كان المنافقون متداخلين مع المؤمنين، أكان الله يترك الأمر مختلطاً هكذا؟ لا، إنه ﷻ لا يقبل ذلك؛ حتى لا يظل المنافقون دسيسة في صفوف المؤمنين، وكان لا بد أن تأتي الأحداث لتكشفهم، إذن كانت أحداث أُحُد ضرورية، فلو أعلم الله رسوله فقط بأمر المنافقين، ولو أعلن الرسول ذلك للمؤمنين دون اختبار واقعي للمنافقين، لكان ذلك مجرد تشخيص نظري للنفاق يأتي من جهة واحدة، وأراد الله أن تأتي حادثة واضحة وتجربة عملية

---

(١) [آل عمران: ١٧٩].

واقعية تبيّن وتظهر الواقع، حتى ينكشف المنافقون، وحتى لا يعترض أحد منهم عندما يوصف بأنه منافق، وحتى لا يكون هذا الوصف مجرد كلام، بل يظهر ما ارتكبوه واقعا عمليا، وبذلك تكون الحجة قوية للغاية.

## المؤمن قادر على نفسه؟

لقد كان المنافقون أسبق الناس إلى الصفوف الأولى في الصلاة؛ فيحرص على ما يندفع المؤمنون إليه، ويخبر الله ﷻ رسوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٠﴾[١]؛ أي لو لاحظت كلامهم لعرفتهم، مثلهم مثل كل المنافقين في الدنيا، تلاحظ في كلامهم شيئا من نفاق؛ فالمؤمن حين يجلس مع جماعة من المنافقين ويأتي وقت صلاة الظهر ويدعو الأذان إلى الصلاة، تجد المؤمن يقول: فلنقم إلى الصلاة، وهنا يسخر المنافق ويقول للمؤمن: (خذني معك للجنة يوم القيامة!) ومثل هذه الكلمة يكون ﴿لَحْنِ ٱلْقَوْلِۚ﴾. أو عندما يدخل مؤمن على جماعة من الناس فيهم منافق، فيستقبل المنافق المؤمن بلهجة من السخرية في التحية، كيف حالك أيها الشيخ فلان؟ أو يطلق على المرأة المتحجبة (شيخة)!! وسيجد المؤمن أناساً يسخرون منه ويتغامزون عليه وذلك من لحن القول الذي يظهر به المنافق، ومثل هذه الأقوال عندما يواجهها المؤمن الواعي تكون وقوداً له وتزيد من إيمانه؛ لأن المؤمن قادر على نفسه؟

---

(١) [محمد: ٣٠].

## المسألة صعبة!!

والمنافق لا يقدر على نفسه؛ مصداقاً لقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجۡرَمُواْ كَانُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يَضۡحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّواْ بِهِمۡ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾ وَإِذَا ٱنقَلَبُوٓاْ إِلَىٰٓ أَهۡلِهِمُ ٱنقَلَبُواْ فَكِهِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذَا رَأَوۡهُمۡ قَالُوٓاْ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ لَضَآلُّونَ ﴿٣٢﴾ وَمَآ أُرۡسِلُواْ عَلَيۡهِمۡ حَٰفِظِينَ ﴿٣٣﴾﴾[1].

والمنافق أو الكافر قد يقول لأهله: لقد رأيت اليوم شيخاً أو رجل دين أو متدينا فسخرت منه وأهنته! ويُطمئن الله المؤمنين، ويعوّض كل مؤمن عما أصابه حين يرد عليهم: ﴿فَٱلۡيَوۡمَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنَ ٱلۡكُفَّارِ يَضۡحَكُونَ ﴿٣٤﴾ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ يَنظُرُونَ ﴿٣٥﴾ هَلۡ ثُوِّبَ ٱلۡكُفَّارُ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾[2]. فالله سبحانه يسأل المؤمنين يوم القيامة: هل قدرنا أن نجازي الكفار والمنافقين الذين سخروا منكم؟ فيقولون: نعم يا رب العالمين، قد جوزوا، إن سخرية المنافقين والكافرين من المؤمنين لها أمد دنيوي ينقضي، ولكن السخرية في الآخرة لا تنقضي أبداً، وعندما نقيسها نحن المؤمنون، نجد أننا الفائزون الرابحون، فلو ترك أي منافق ليتداخل في أحضان المؤمنين، ولا يظهر ذلك للمؤمنين لكانت المسألة صعبة العلاج، لكن الله يكشف لنا واقع المنافقين بتجارب عملية، ويكشفه بحوادث مدويّة فعليه ومخجلة تبيّن أنه منافق، ليقعوا في فخ المؤمنين حتى يكتشفوهم ويعرفوهم على حقيقتهم، حتى لا يقول واحد منهم: لست منافقاً.

---

(١) [المطففين: ٢٩ – ٣٣].

(٢) [المطففين: ٣٤ – ٣٦].

## لو أطلعكم على الغيب، لأنكروا ذلك!

أما قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ﴾ ؛ لأن الله لو أطلعكم على الغيب لتعرفوا المنافقين لأنكروا ذلك، ودافعوا عن أنفسهم وردّوا هذه التّهم، ولذلك يجري سبحانه الوقائع لتكشف المنافق بالنفاق، بإقرار نفسه وإقرار فعله. ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾. إنه ﷻ يختار من رسله من يشاء ليطلعهم على بعض الغيب، أي يعطي الرسول دلالات على المنافقين حتى يزداد الرسول ثقة في أن الله لا يتخلّى عنه، والله برحمته لا يكشف الغيب لكل المؤمنين، فلو اطلع المؤمن على الغيب لفسدت أمور كثيرة في الكون، وَهَبْ أن الله أطلع الإنسان على غيب حياته، فعرف الإنسان ألف حادثة سارة ثم حادثة واحدة مكدرة؛ فإن كدر الإنسان بالحادثة الواحدة المكدرة التي تقع بعد عشرين عاماً يفسد على الإنسان تنعّمه بالأحداث السارة.

## ومع ذلك فالناس تُلحّ أن تعرف الغيب!

وإن كان الإنسان يريد أن يطلع على غيب الناس، فهل يقبل أن يطلع على غيبه أحد؟ فلماذا تريد أيها الإنسان أن تعرف غيب غيرك؟ أيرضى أي واحد منا أن يعرف الناس غيبه؟ لا، إذن فستر المعلومات عن الناس وجعلها غيباً هي نعمة كبرى، ومع ذلك فالناس تُلحّ أن تعرف الغيب، ونرى من يجري على الدجالين والعرافين ومن يدّعون كذباً أنهم أولياء الله، وكل ذلك من أجل أن يعرف

الواحد بعضاً من الغيب، وهنا نقول: ليست مهارة العارف في أن يقول لك ماذا سيحدث لك في المستقبل، لكنها في أن يقول واحد من هؤلاء المدّعين لمعرفة الغيب: إن حادثاً مكروهاً سيقع لك، وسأمنعه أو أدفعه بعيداً عنك! لا أحد يستطيع دفع قدر الله، ولذلك فلنترك المستقبل إلى أن يقع، لماذا؟ حتى لا يحيا الواحد منا في الهم والحزن قبل أن يقع.

## بعضاً من الرسل لا كلّ الرسل!

﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجۡتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُۖ﴾ والله يجتبي من الرسل، أي بعضاً من الرسل لا كل الرسل ليطلعهم على الغيب حتى يعطي لهم الأمان، فهو سبحانه لم يرسلهم ليتخلّى عنهم، لا؛ لذلك يطلعهم على الغيب، وقلنا: إن الغيب أنواع: فمطلق الغيب: هو ما غاب عنك وعن غيرك، ولكنَّ هناك غيباً غائباً عنك وهو معلوم لغيرك، وهذا ليس غيباً.

### مثال ذلك:

إن ضاعت من أحدكم محفظة نقود، وسارقها غير معروف، ومكانها غير معروف، لكن الذي سرقها عارف بمكانها، إذن فهذا غيب على صاحب المحفظة، ولكنه ليس غيباً على السارق والذين شاركوه في السرقة، لأنه ليس غيباً مطلقاً، وهذا ما يضحك به الدجالون على السذج من الناس، فبعض من الدجالين والمشعوذين قد يتصلون بالشيطان أو الجن؛ ويقول لصاحب المحفظة حكاية ما عن الشيء الذي سُرق منه، هؤلاء المشعوذون لا يعرفون الغيب.

## الغيب المطلق

الغيب المطلق هو الذي لا يعلمه أحد، فقد استأثر به الله لنفسه، وأما الأمر المخفي في الكون، وكان غيباً على بعض من الخلق ثم يصبح مشاهداً لخلق آخرين فلا يقال إنه غيب، وأسرار الله التي جاءت على أساسها الاكتشافات المعاصرة، كثير منها جاء مصادفة، فالعلماء يكونون بصدد شيء، ويعطيهم الله ميلاد سر آخر، إذن فليس كل اكتشاف ابناً لبحث العلماء، ولكن العلماء يشتغلون من أجل هدف ما، فيعطيهم الله اكتشاف أسرار أخرى؛ لأن ميلاد تلك الأسرار قد جاء والناس لم يشتغلوا بها، ويتكرم الله على خلقه ويعطيهم هذه الأسرار من غير توقع ولا مقدمات.

## أي: داوموا على إيمانكم

ويستمر سياق الآية ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ﴾ وهو سبحانه يخاطب المؤمنين، معنى ذلك: يا أيها الذين آمنوا داوموا على إيمانكم. ﴿وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩﴾ ولنا أن نتصور عظمة عطاء الله، فالمنهج الإيماني يعود خيره على من يؤدّيه، ومع ذلك فالله يعطي أجراً لمن اتبع المنهج.

## أنت توجِد شيئا من موجود

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾(١)

قوم آخرون ظنوا أن المال الذي يجمعونه هو الخير، فكلما زاد فرحوا، فالمال قد جاءهم من فضل الله، ذلك بأنهم دخلوا الدنيا بغير جيوب، وسيخرجون منها كذلك، ولا أحد فينا قد رأى كفناً له جيوب. ولا أحد فينا قد رأى قماط طفل وليد له جيوب، فالإنسان يدخل الدنيا بلا جيب، ويخرج بلا جيب، وكل ما يأتي للإنسان هو من فضل الله، فلا أحد قد ابتكر الأشياء التي يأتي منها الرزق، وللإنسان جزء من الحركة التي وهبها الله له ليضرب في الأرض، ولكن لا أحد يأتي بأرض من عنده ليزرع فيها، ولا أحد يأتي ببذور من عنده لم تكن موجودة من قبل ويزرعها، ولا أحد يأتي بماء لم يوجد من قبل ليروي به، فالأرض من الله، والبذور عطاء من الله، والماء من رزق الله، وحتى الحركة التي يتحرك بها الإنسان هي من فضل الله، أنت تأخذ المواد الخام الأولية من عند الله، وتبذل فيها الحركة الممنوحة لك من الله، وأنت لا توجِد شيئاً من معدوم؛ بل إنك توجِد من موجود، فكل شيء من فضل الله، حتى عقلك الذي يفكر، من الذي خلقه؟ إنه الله، وجوارحك التي تنفعل من الذي خلقها؟ إنه الله.

---

(١) [آل عمران: ١٨٠].

## نسبة الزكاة أقل كثيرا من الضرائب

فرض الله الزكاة على المؤمنين، فإذا كانت مالا وتجارة فإنها تُدفع مرة واحدة في العام، بعد أن تبلغ النصاب ويحول الحول، أي بعد مرور عام كامل على تحقيق الأرياح وامتلاكها؛ إذا بلغت قيمة معينة، بينما تفرض القوانين البشرية ضرائب على التجار كل شهر وكل عام، فهي ضرائب شهرية وسنوية، وهي باهظة وأعلى بكثير مما يفرضه نظام الزكاة في الإسلام،

فالله سبحانه لا يطلب إلا قدراً بسيطاً من إنتاجك وطاقتك، فثمرة الأرض إن كانت تُروى بماء السماء فعليك عُشر نتاجها، وإن كانت الأرض تروى بآلة أو ساقية أو الموتورات فعليك نصف العشر، والذي يزرع أرضا فإنه يحرثها في يوم ويرويها كل أسبوعين، أما الذي يتاجر في صفقات تجارية فهي تحتاج إلى عمل في كل لحظة، لذلك فإن الحق قدّر الزكاة عليه بمقدار اثنين ونصف بالمائة، إذن فكلما زادت حركة الإنسان قلّل الله قدر الزكاة، وهذه العملية على عكس البشر، فكلما زادت حركة الإنسان عند البشر فإنهم يأخذون منه ضرائب أكثر!!

## التأمين الاجتماعي في أرقى معانيه

وبعد ذلك فأين يذهب الذي يأخذه الله منك؟ إنه يعطيه لأخ لك ولغيره، فما دام سبحانه يعطي أخاً لك وزميلاً لك من ثمرة ونتيجة حركتك، ففي هذا اطمئنان وأمان لك، لأن الغير سيعطيك لو صرت عاجزاً غير قادر على

الكسب، أو يعطي ابنك أو ابنتك أو حفيدك أو قريبك، وفي هذا طمأنينة لأغيار الله فيك، فإن جاءت لك الأغيار فستجد أناساً يساعدونك، وبذلك يتكاتف المجتمع، وهذا هو التأمين الاجتماعي في أرقى معانيه، إذن فهذا كله من فضل الله.

## البخل يكدّس عندهم الأموال!

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ﴾ إن الذين يبخلون بفضل الله يظنون أن البخل خير لمجرد أنه يكدّس عندهم الأموال، وليس ذلك صحيحاً؛ لأن الحق يقول: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ﴾ أي أن ما بخلوا به يصنعه الله طوقاً في رقبة البخيل، وساعة يرى الناس الطوق في رقبة البخيل يقولون: هذا مَنَعَ حقّ الله في ماله، والرسول ﷺ يصور هذه المسألة، حينما يأتي المال الذي منعه وضنّ وبخل به يتمثل لصاحبه يوم القيامة (شجاعاً أقرع) وهو ثعبان ضخم، ويطوق رقبته، إذن فالذي يدّخر بخلاً على الله، فهو يزيد من الطوق الذي يلتف حول رقبته يوم القيامة. ﴿وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾ نعم فلله ميراث السماوات والأرض، ثم يضعها فيمن يشاء، فكل ما في الكون نسبته إلى الله، ويوزعه الله كيفما شاء.

## الصدقة قبل فوات الأوان

إن الإيمان يدعونا ألاّ ننتظر بالصدقة إلى حالة بلوغ الروح الحلقوم، فقد روي عن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله، أيُّ الصدَقة أعظم أجرًا؟ قال: «**أن تصدَّق وأنت صحيح شحيح، تَخشى الفقر وتأمُل الغِنى، ولا تُمهل حتى إذا بلغت الحلقوم قلتَ: لفلان كذا، ولفلان كذا، وقد كان لفلان**»[١]. لأنه عند وصول الروح الى الحلقوم لا يكون له مال، بل ينتقل للورثة سواء رضيت بذلك أم لا.

## قالوا: يا محمد افتقر ربك!

﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ١٨١﴾[٢]

لما نزل قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾ قالت اليهود: يا محمد افتقر ربك، فسأل عباده القرض؟ فأنزل الله ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾. واليهود قبل مجيء الإسلام كانوا يفخرون على العالم بأنهم أهل علم ومعرفة، ويفخرون أيضا على البيئة التي عاشوا فيها أنهم ملوك الاقتصاد كما يقولون الآن عن

---

(١) متفق عليه.

(٢) [آل عمران: ١٨١].

أنفسهم، كل من يحتاج شيئاً من المال يأخذه من اليهود، كانوا يبنون الحصون ويأتون بالأسلحة لتدل على القوة، فلما جاء الإسلام أخذ منهم هذه السيادات والمزايا كلها، ثم تمتعوا بمزايا الإسلام من محافظة على أموالهم وأمنهم وحياتهم، أكان الإسلام يتركهم هكذا يتمتعون بما يتمتع به المسلمون أمناً واطمئناناً، وسلامة أبدان وسلامة أموال ثم لا يأخذ منهم شيئاً؟ لقد أخذ منهم الإسلام الجزية، فلم يكن من المقبول أن يدفع المسلم الزكاة ويجلس اليهود في المجتمع الإيماني دون أن يدفعوا تكلفة حمايتهم.

## قصّة هذه الآية

دخل أبو بكر الصديق معبد اليهود، فوجد ناساً كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له (فنحاص)، وكان من علمائهم وأحبارهم ومعه حبر يقال: (أشيع)، فقال له أبو بكر: ويحك يا (فنحاص)، اتق الله وأسلم، فوالله إنك لتعلم أن محمداً رسول الله، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل، فقال (فنحاص): والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر، إنه إلينا لفقير، ما نتضرّع إليه كما يتضرّع إلينا، وإنا عنه لأغنياء، ولو كان عنّا غنيًّا ما استقرض منا كما يزعم صاحبكم، ينهاكم عن الربا ويعطينا، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا، فغضب أبو بكر فضرب وجه (فنحاص) ضربا شديداً، وقال: والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك، فذهب (فنحاص) إلى

رسول الله فقال: يا محمد أبصر ما صنع بي صاحبك؟ فقال رسول الله ﷺ: ما حملك على ما صنعت يا أبا بكر؟ فقال يا رسول الله: إن عدوّ الله قال قولا عظيما، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء، فلما قال ذلك غضبت لله مما قال فضربت وجَهه، فجحد فنحاص ذلك وقال: ما قلت ذلك، فأنزل الله: ﴿لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ﴾.

## أقرضها لي؛ لا لأنتفع بها، ولكنها لأخيك

هؤلاء لم يفطنوا إلى سرّ التعبير الجميل في قوله سبحانه: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾[1]، فإن هذا القول هو احترام من الله سبحانه لحركة الإنسان في التملك، لماذا احترم الله حق الإنسان في التملك؟ هو سبحانه يريد أن يغري المتحرك بزيادة الحركة، ويحمل غير المتحرك على أن يتحرك، فإن طلب سبحانه شيئاً من هذا المال فهو لا يقول للإنسان: أعطي ما أعطيت لك، بل كأنه سبحانه يقول: إنني سأحترم جهدك وتعبك وعرقك، وسأحترم حركتك، وسأحترم فكرك، وسأحترم جوارحك وطاقاتك وكل ما فيك، فإن أخذتُ منك شيئاً فلن أقول لك أعطني ما أعطيت لك، لكن أقول لك: أقرضها لي؛ لا لأنتفع بها، ولكنها لأخيك، وقد اقترض من غيرك فيما بعد، وذلك لك أنت إذا أصابتك الحاجة، أو لأخيك أو ابنك أو بنتك، أو أحدا من ذريتك، لماذا؟ لأنني

(١) [الحديد: ١١].

أنا الله الذي استدعيت خلقي إلى الوجود، وما دمت أنا الله الذي استدعيت الخلق إلى الوجود فأرزاقهم مطلوبة مني.

## اللّه يقترض من بعض خلقه لبعض خلقه

إن الواحد من البشر عندما يدعو اثنين من أصدقائه، فهو يصنع طعاماً يكفي خمسة أو عشرة أشخاص، وما دام الله هو الذي استدعى الخلق إلى الوجود فهو الذي يكفل لهم الرزق، والله سبحانه يعلم حرص الإنسان على منفعة نفسه، فيغريه بذلك حتى يتحرك، وسينتفع المجتمع بحركته، سواء قصد الإنسان أو لم يقصد، إذن فحين يقترض الله من بعض خلقه لبعض خلقه، فهو سبحانه لا يتراجع فيما وهب.

### نضرب هذا المثل للتوضيح:

نحن البشر قد نضطر إلى هذا الموقف؛ فالواحد منا عندما يعطي أبناءه مصروف اليد، فكل ابن يدّخر ما يبقى منه، وبعد ذلك يأتي ظرف لبعض الأبناء يتطلب مالاً ليس في قدرة الوالد ساعة يأتي الحدث، فيقول الوالد لأبنائه: أقرضوني ما في (حصّالاتكم)، وسأردها لكم مضاعفة، هو الذي أعطاهم هذا المال ثم أخذه لأخيهم المحتاج، لكن لأنه الذي وهب أولاً فلم يرجع في الهبة، لكنه طلبها قرضاً، وعندما يأتي أول الشهر فهو يرد القرض مضاعفاً، فإن كان ذلك ما يحدث في مجال البشر، فما بالنا بما يحدث من خالق البشر؟

## الكتابة توثيق لا يمكن إنكاره

﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾ ولماذا يكتب الله ذلك وهو العالم بكل شيء؟ جاء هذا القول ليدل على التوثيق أيضاً، فعندما يأتي هذا الرجل ليقرأ كتابه يوم القيامة يجدها مكتوبة؛ فالكتابة لتوثيق ما يمكن أن يُنكرونه، وهذا توثيق لا يمكن إنكاره، ولم يفهم ذلك اليهودي أن القرض لله هو تلطف من الله سبحانه، واستدرار لحنان الإنسان على الإنسان، لم يقل الله لك: أعط أخاك، فـﷻ تلطفاً وأدبا مع خلقه يقول: أقرضني؛ لكن أدب بني إسرائيل مع الله مفقود، فقد قالوا من قبل: ﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ غُلَّتۡ أَيۡدِيهِمۡ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْۘ بَلۡ يَدَاهُ مَبۡسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيۡفَ يَشَآءُۚ﴾(١). فإذا كان موقفهم وسوء أدبهم وصل بهم إلى أن يجترئوا على الذات الإلهية، ويقولون: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾ ويقولون: ﴿يَدُ ٱللَّهِ مَغۡلُولَةٌۚ﴾ أفتحزن وتأسى يا محمد على أن يقولوا لك أو لأتباعك أي شيء يسيء إليكم؟ إنها نعمت المواساة من الله لرسوله ونعمت التسلية.

## هذه الكتابة ليست كما نظن!

لقد جاءت كلمة ﴿سَنَكۡتُبُ﴾ حتى يحاسبهم الله بما كَتب عليهم، وليقرأوه بأنفسهم، وليكون حجة عليهم، كأن الكتابة ليست كما نظن فقط، ولكنها

---

(١) [المائدة: ٦٤].

تسجيل للصوت وللأنفاس، كما هو موجود اليوم كاميرات تسجيل بالصوت والصورة، لا يمكن إنكار أي شيء، ويأتي يوم القيامة ليجد شيئا أعظم، يجد كل إنسان ما فعله مسطوراً: ﴿ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴿١٤﴾﴾[1]، بحيث إذا قرأه الإنسان ورآه أو سمعه لا يستطيع أن يكابر فيه أو ينكره ﴿سَنَكۡتُبُ مَا قَالُواْ﴾ وهم قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُۘ﴾ وهذا معصية وتبجّح على الذات الإلهية.

## لماذا قتلوا الأنبياء؟!

ولم يكتفوا بذلك، بل ﴿وَقَتۡلَهُمُ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ﴾ الذين أرسلهم الله لهدايتهم؛ قتلوهم ﴿بِغَيۡرِ حَقّٖ﴾. وقد يتساءل البعض: هل يوجد قتل أنبياء بحق؟! لا، لأن قتل النبيين لا يكون بحق أبداً، وإنما المراد من قوله بيان أن هؤلاء القاتلين قد بلغوا النهاية في الظلم والفجور، لأنهم قد قتلوا أنبياء الله بدون أي مبرر يسوّغ ذلك، وبدون أية شبهة تحملهم على ارتكاب ما ارتكبوا، وإنما فعلوا ما فعلوا لمجرد إرضاء أحقادهم وشهواتهم وأهوائه، فإن قيل: وقتل الأنبياء لا يكون إلا بغير الحق فما فائدة ذكره؟ قلنا: هو للتأكيد، ومعناه أنهم قتلوهم بغير حق عندهم ولا عند غيرهم، وإنما نصحوهم ودعوهم إلى ما ينفعهم فقتلوهم!! ولا شك أن قتل الأنبياء يدل على شناعة جريمة وتوغل في العناد والفجور إلى درجة

---

(١) [الإسراء: ١٤]

تعجز العبارات عن وصفها، لأنه بقتله للدعاة إلى الحق، لا يريد للحق أن يظهر، وإنما يريد أن تكون الرذائل والشرور هي السائدة في الأرض. ﴿وَنَقُولُ﴾ لهم في نهاية المطاف ﴿ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلۡحَرِيقِ ١٨١﴾ والحريق يصنع إيلاماً إحساسياً في النفس، والذوق هو سيد الأحاسيس، لذلك إن الذوق أمر يأتي من داخل الذات؛ لذلك فهو أبلغ في الإيلام.

## هل كل المعاصي من تقديم اليد؟

﴿ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ٥١﴾[1]

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى عذاب الحريق، والله سبحانه لم يظلمهم، لكن أنتم الذين ظلمتم أنفسهم ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ فهل معنى ذلك أن كل المعاصي من تقديم اليد؟ لا، إن هناك معصية للعين، ومعصية للسان، ومعصية للرجل، ومعصية للقلب، ولا حصر للمعاصي، فلماذا إذن قال الحق: ﴿بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾؟ قال الله ذلك لأن الأعمال الظاهرة تُمارس عادة باليد؛ فاليد هي الجارحة التي نفعل بها أكثر أمورنا، وبعد ذلك يخبرنا سبحانه: ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيۡسَ بِظَلَّٰمٖ لِّلۡعَبِيدِ ١٠﴾ لقد أذاقهم عذاب الحريق نتيجة ما كتبه عليهم من قول وفعل، فالقول هو الافتراء باللسان حين قالوا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٞ وَنَحۡنُ أَغۡنِيَآءُ﴾.

---

(١) [آل عمران: ١٨٢].

والفعل هو قتلهم الأنبياء، فهم يستحقون ذلك العذاب، والقضية العامة في الإله العادل أنه ليس بظلام للعبيد.

## المعجزة الحسيّة تنتهي بعد أن تقع لمرة واحدة

﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيۡنَآ أَلَّا نُؤۡمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأۡتِيَنَا بِقُرۡبَانٖ تَأۡكُلُهُ ٱلنَّارُۗ قُلۡ قَدۡ جَآءَكُمۡ رُسُلٞ مِّن قَبۡلِي بِٱلۡبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِي قُلۡتُمۡ فَلِمَ قَتَلۡتُمُوهُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾[1]

هم يدّعون ذلك ويقولون: ربنا قال لنا هذا في التوراة؛ إياكم أن تؤمنوا برسول يأتيكم، حتى يأتيكم بمعجزة ظاهرة، هذه المعجزة الظاهرة هي أن يقدم الرسول قرباناً فتنزل نار من السماء تأكله، هل هذا كان صحيحاً؟ نريد أن نُقبل على القرآن ونتدبر، فكيف نعرف نحن أن الله تقبّل أو لم يتقبّل؟ لا بد أن الله قد جعل للقبول علامة حسيّة، ولذلك كانت معجزاته ﷺ للأنبياء السابقين هي من الأمور الحسية، فالمعجزة التي آتاها الله لإبراهيم كانت نارا لا تحرق، وعصا سيدنا موسى تنقلب حية، وسيدنا عيسى عليه السلام يبرئ الأكمه والأبرص ويُحيي الموتى بإذن الله، والمعجزة الحسية تنتهي بعد أن تقع لمرة واحدة، لكن المعجزة العقلية هي المعجزة الباقية، فكان القرآن الكريم هو المعجزة الباقية وهو الذي يناسب الرسالة الخاتمة.

---

(١) [آل عمران: ١٨٣].

## يكذبون على أنفسهم وعلى رسول الله

وعلمنا في هذه الآية أن القربان تأكله النار، وقد جاءكم رسل قبل رسول الله بالقربان وأكلته النار ومع ذلك كفرتم، فلو كان كلامكم أيها اليهود صحيحاً، لكنتم آمنتم بالرسل الذين جاءوكم بالقربان الذي أكلته النار، وهكذا يكشف لنا الله أنهم يكذبون على أنفسهم ويكذبون على رسول الله، وأنها مجرد (مماحكات) ولجاج وتمادٍ في المنازعة والخصومة، والله سبحانه يأمر رسوله أن يسأل: ﴿فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٨٣﴾؟ هو سبحانه يريد أن يضع لنا قضية توضّح أن عهد المعجزات الحسيّة وحدها قد انتهى، وبلوغ العقل مرتبة الكمال قد بدأ.

## اللّه لا يأتي بالمعجزات وفق أمزجة البشر!

إن الله يريد أن يعلمنا أن الذي يأتي بالآيات هو سبحانه، وسبحانه لا يأتي بالمعجزات على وفق أمزجة البشر؛ لذلك فليس للبشر أن يقترحوا المعجزة، هو سبحانه الذي يأتي بالمعجزة، وفيها الدليل، لماذا؟ لقد كانت كل هذه آيات حسيّة طلبوها، والله يردّ على ذلك حين قال لرسوله، إن الذي منعه من إرسال مثل هذه الآيات هو تكذيب الأولين بها: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾[1]، فحتى هؤلاء الذين قالوا: لن نؤمن حتى تأتي بقربان

---

(١) [الإسراء: ٥٩].

تأكله النار، قد جاءهم من قبل من يحمل معجزة القربان الذي تأكله النار، ومع ذلك كذّبوا، إذن فالمسألة مماحكة ولجاج في الخصومة.

## هم يكذبونني وينكرون آياتي!!

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾(١)

المسألة ليست مسألتك أنت، إنهم يعرفون أنك يا محمد صادق لا تكذب أبداً، وأن هذا الأمر ليس خاصا بك، بل هو راجع إليّ، فلا أحد يقول عنك إنك كذّاب، هم يكذبونني، الظالمون يجحدون وينكرون آياتي، فالله سبحانه يخاطب رسوله ﷺ هنا للتسلية، ويعطيه الأسوة التي تجعله غير حزين مما يفعله اليهود والمكذبون به.

## اللّه تعالى يسلّي رسوله: لا تحزن

ثم جاء المنهج في ﴿وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ ﴿١٨٤﴾﴾ ومعنى ﴿ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾﴾: الكتاب، وهذا دليل على التوثيق أي مكتوب فلا ينطمس ولا يُمحى، إذن فالله ﷻ يسلّي رسوله ﷺ ويوضّح له: لا تحزن إن كذبوك؛ فقد كُذّب رسل من قبلك، والرسل جاءوا بالمنهج وبالمعجزة، وبعد أن يعطي الله للمؤمنين

---

(١) [آل عمران: ١٨٤].

ولرسول الله مناعة ضد ما يذيعه المرجفون من اليهود وضد ما يقولون، حتى لا تفجأنا المواجهات، ويكشف لنا سبحانه بما سيقولون، وبما سيفعلونه، ونحن نفعل ذلك في العالم المادي: إذا خفنا من مرض ما كالكوليرا مثلاً، ماذا نفعل؟ نأخذ الميكروب نفسه ونُضْعِفُه بصورة معينة ثم نحقن به الإنسان السليم؛ كي نربّي فيه مناعة حتى يستطيع الجسم مقاومة المرض.

## الدنيا زمن زائل ينتهي

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَۗ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ١٨٥﴾[١]

هذا المقتول لو لم يُقتل، أكان يموت؟ نقول: نعم؛ لأن المقتول ميّت بأجله، لكن الذي قتله هل كان يعرف ميعاد الأجل؟ لا، إذن فهو يُعاقب على ارتكابه جريمة إزهاق الروح، أمّا المقتول فقد كتب الله عليه أن يفارق الحياة بهذا العمل، إذن فكل نفس ذائقة الموت إما حتف الأنف وإمّا بالقتل، انظروا إلى دقة العبارة: ﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۖ﴾ أي إياكم أن تنتظروا نتيجة إيمانكم في هذه الدنيا، لأنكم إن كنتم ستأخذون على إيمانكم ثوابا في الدنيا فهذا زمن زائل ينتهي، فثوابكم على الإيمان لا بد أن يكون في الآخرة لكي يكون ثوابا لا ينتهي.

---

(١) [آل عمران: ١٨٥].

## لماذا يوم القيامة؟

﴿وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ لماذا يوم القيامة؟ لأن المؤمن ما دام قد مات في المعركة فهو لم ير انتصاراً، ولم ير غنائم ولا أي شيء، فماذا يكون نصيبه؟ إنه يأخذ نصيبه يوم القيامة، ومن نال منها شيئاً في الدنيا بالنصر أو الغنائم، والزهو الإيماني على أنه انتصر على الكفر، فهذا بعض الأجر، إنما الوفاء بكامل الأجر سيكون في الآخرة.

## النار لها جاذبية!

ويقول الحق: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾ أي أن النار لها جاذبية مثل جاذبية المعصية عندما تأخذ الإنسان، ومجرد الزحزحة عن النار، حتى وإن وقف بينهما لا في النار ولا في الجنة فهذا حسن، فما بالك إنْ زُحزح عن النار وأُدخل الجنة؟ وهذا هو السبب في أن النار مضروب على متنها الصراط الذي سنمر عليه، لماذا؟ حتى يرى المؤمن النار وهو ماشٍ على الصراط التي لو لم يكن مؤمناً لنزل فيها، فيقول: الحمد لله الذي نجاني من تلك النار.

## الغرور أن تلهيك متعة قصيرة الأجل

﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ۝٢٠﴾ دنيا كل فرد هي مقدار حياته فيها، ومقدار حياته فيها لا يُعلم أهو لحظة أم يومٍ أم شهر أم قرن، وقصارى الأمر أنها محدودة حداً خاصا لكل عمر، وحداً عاماً لكل الأعمار، والمتعة في الدنيا

على قدر حظ الإنسان في المتع، فهي على قدر إمكاناته، فإذا نظرنا إلى الدنيا بهذا المعيار فإن متاعها يعتبر قليلاً، ولهذا لا يصح ولا يستقيم أن يغتر الإنسان بهذه المتعة، فالغرور أن تلهيك متعة قصيرة الأجل عن متعة عالية لا أمد لانتهائها، فحتى لا يغترّ إنسان في الدنيا فيلهو بقليلها عن كثير عند الله في الآخرة، يجب أن يقارن متعة أجلها محدود وإن طال زمانها بمتعة لا أمد لانتهائها، قارن متعة على قدر إمكاناتك ومتعة على قدر عظيم فضل الله؛ لذلك كانت الحياة الدنيا متاع غرور ممن غُرّ بالتافه القليل عن العظيم الكثير.

## اللّه سبحانه قدّم المال على النفس، لماذا؟

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾[1]

والبلاء في المال بماذا؟ بأن تأتي آفة تأكله، وإن وجد يكون فيه بلاء من لون آخر، وهي اختبارك هل تنفق هذا المال في مصارف الخير أو لا تعطيه لمحتاج، فمرة يكون الابتلاء في المال بالإفناء، ومرة في وجود المال ومراقبة كيفية تصرفك فيه، والحق سبحانه في هذه الآية قدم المال على النفس؛ لأن البلاء في النفس يكون بالقتل، أو بالجرح أو بالمرض، فإن كان القتل فليس كل واحد سيقتل، إنما كل واحد سيأتيه بلاء في ماله.

---

(١) [آل عمران: ١٨٦].

## الأذى الكثير: إيذاء الرسول والاستهزاء بالمؤمنين

قوله تعالى: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾ هما إذن معسكران للكفر: معسكر أهل الكتاب، ومعسكر المشركين، هذان المعسكران هما اللذان كانا يعاندان الإسلام، والأذى الكثير تمثل في محاولة إيذاء الرسول ﷺ، وأذى الاستهزاء بالمؤمنين، وأهل الكفر والشرك يقولون للمؤمنين ما يكرهون، فوطّنوا العزم أيها المسلمون أن تستقبلوا ذلك منهم ومن ابتلاءات السماء بالقبول والرضا.

## متى يكون المال دليل الكرامة؟

يخطئ الناس ويظنون أن الابتلاء في ذاته شرّ، لا، إن الابتلاء مجرد اختبار، والاختبار عرضة أن تنجح فيه وأن ترسب، فإذا قال الله: ﴿۞لَتُبۡلَوُنَّ﴾ أي سأختبركم، كما يقول المدرس للتلميذ: سأمتحنك (فنبتليك) يعني نختبرك في الامتحان، فهل معنى ذلك أن الابتلاء شرّ أو خير؟ إنه شرّ على من لم يتقن التصرف، فالذي ينجح في البلاء في المال يقول: كله فائت، وقلل الله مسئوليتي، لأنه قد يكون عندي مال ولا أُحسن أداءه في مواقعه الشرعية، فيكون المال عليّ فتنة، فالله قد أخذ مني المال كي لا يدخلني النار، فلا المال دليل الكرامة، ولا الفقر دليل الإهانة، ولكن متى يكون المال دليل الكرامة؟ إن جاءك وكنت موفّقاً في أن تؤدي مطلوب المال عندك للمحتاج إليه، وإن لم تؤد حق الله فالمال

مذلة لك وإهانة، فقد أكون غنياً لا أعطى الحق، فالفقر في هذه الحالة أفضل ﴿كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ١٧﴾ وما دمتم لا تكرمون اليتيم فكيف يكون المال دليل الكرامة؟

## أفلا تحثّ من عنده أن يُعطي؟

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ١٨﴾ حتى إن كنت لا تمتلك ولا تعطي أفلا تحثّ من عنده أن يُعطي؟ أنت بخيل حتى بالكلمة، فمعنى تحضّ على طعام المسكين، أيّ تحث غيرك، فإذا كنت تضنّ حتى بالنصح فكيف تقول إن المال كرامة والفقر إهانة؟ ﴿وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ١٩﴾ أي تأكلون الميراث، وتجمعون في أكلكم بين نصيبكم من الميراث ونصيب غيركم دون أن يتحرّى الواحد منكم هل هذا المال حلال أو حرام، فإذا كانت المسألة هكذا، فكيف يكون إيتاء المال تكريماً وكيف يكون الفقر إهانة؟ لا هذا ولا ذاك.

## اسمعوا العلاج!

قوله تعالى: ﴿۞لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾ والذي يقول هذا الكلام: هو الله، إذن لا بد أن يتحقق، فيا ربّ أنت قلت لنا: إن هذا سيحصل وقولك سيتحقق، فماذا اعطيتنا لنواجه ذلك؟ اسمعوا العلاج: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾ تصبر على الابتلاء في المال،

وتصبر على الابتلاء في النفس، وتصبر على أذى المعسكر المخالف من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا، إن صبرت فإن ذلك من عزم الأمور، والعزم هو: القوة المجتمعة على الفعل، فأنت تنوي أن تفعل، وبعد ذلك تعزم.

## الصبر نوعان

المسألة امتحان فيه ابتلاء في المال، وابتلاء في النفس، وأذى كثير من الذين أشركوا ومن الذين أوتوا الكتاب، وذلك كله يحتاج إلى صبر، والصبر نوعان: (صبر على) و(صبر عن)، ويختلف الصبر باختلاف حرف الجر، صبر عن شهوات نفسه التي تزيّن للإنسان أن يفعل هذه وهذه، فيصبر عنها، والطاعة تكون شاقة على العبد فيصبر عليها، إذن ففي الطاعة يصبر المؤمن على المتاعب، وفي المعصية يصبر عن الشهوات والمغريات.

## إياك أن تنفعل

ولكن قوله: ﴿وَلَتَسۡمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُوٓاْ أَذٗى كَثِيرٗاۚ﴾ فهذا تحديد لغريم لك، فساعة ترى هذا الغريم فهو يهيّج فيك دواعي الانتقام، فأوضح الله: إياك أن تمكّنهم من أن يجعلوك تنفعل، وأَجِّلْ عملية الغضب، ولا تجعل كل أمر يَسْتَخِفّك، بل كن هادئا، وإياك أن

تُسْتَخَفَّ إلا وقت أن تتيقن أنك ستنتصر، ولذلك قال: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنۡ عَزۡمِ ٱلۡأُمُورِ ١٨٦﴾. و﴿تَتَّقُواْ﴾ مثل ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ وذلك بأن تضع بينك وبين ما يغضب الله وقاية.

## الذي لم ينسوه كتموه، والذي لم يكتموه حرّفوه

﴿وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ ١٨٧﴾[1]

ونأتي هنا إلى عهد وميثاق أخذه الله على أهل الكتاب الذين آمنوا بأنبيائهم، هذا العهد هو: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾. فما الذي يبيّنونه؟ وما الذي يكتمونه؟ وهل هم يكتمون الكتاب؟ نعم لأنهم ينسون بعضا من الكتاب، وما داموا ينسون بعضاً من الكتاب فمعنى ذلك أنهم مشغولون عنه، لقد كتموا البينات التي أنزلها الله في الكتاب، فالكتم عملية اختيارية، أما النسيان فقد يكون لهم العذر أنهم نسوه، لكنهم يتحملون ذنباً من جهة أخرى، إذ لو كان المنهج على بالهم وكانوا يعيشون بالمنهج لما نسوه، والذي لم ينسوه كتموا بعضه، والذي لم يكتموه لوّوا به ألسنتهم وحرّفوه، وهل اقتصروا على ذلك؟ لا، بل جاءوا بشيء من عندهم وقالوا: هو من عند الله.

(١) [آل عمران: ١٨٧].

## كيف تشتري أنت الثمن؟

وكلمة ﴿لِيَشۡتَرُواْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ﴾ فكيف تشتري أنت الثمن؟ أنت إذا جعلت الثمن سلعة، وما دام الثمن يُجعل سلعة فيكون ذلك أول مخالفة لمنطق المبادلة؛ لأن الأصل في الأثمان أن يُشتري بها، أصل المسألة أنّ نَعْت رسول الله ﷺ كان موجوداً عندهم في الكتب ثم أنكروه، إذن فقوله: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُۥ﴾ يعني لتبيننّ أمر الرسول ﷺ، كما هو موجود عندكم دون تغيير أو تحريف، وعندما يبيّنون أمر الرسول بأوصافه ونعوته فهم يبينون ما جاء حقاً في الكتاب الذي جاءهم من عند الله، وهكذا نجد أن المعاني تلتقي، فإن بيّنوا الكتاب الذي جاء من عند الله، فالكتاب الذي جاء من عند الله فيه نعت محمد، وهكذا نجد أن معنى تبيين الكتاب، وتبيين نعت رسول الله بالكتاب أمران ملتقيان.

## دليل كراهية لوجود شيء يبغضه

﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾ يقال: نبذت الشيء أي طرحته بقوة، وذلك دليل على الكراهية والبغض؛ ومثال ذلك: لنفترض أن واحداً أعطى لآخر حاجة ثم وجدها جمرة تلسعه، ماذا يفعل؟ هو بلا شعور يلقيها بعيداً، والنبذ له جهات، ينبذه يمينه، ينبذه أمامه، ينبذه شماله، أما إذا نبذه خلفه، فهو دليل على أنه ينبذه نبذة لا التفات إليها أبداً، انظر التعبير القرآني ﴿فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ﴾. إن

النبذ وحده دليل الكراهية لوجود الشيء الذي يبغضه، إمعان في الكراهية والبغض، فلو رمى إنسان شيئاً أمامه فقد يحنّ له عندما يراه أو يتذكره، لكن إن رماه وراء ظهره فهذا دليل النبذ والكراهية تماما.

## تظن أنك بالمال تشتري كل شيء!

ويعلق سبحانه على ما يشترونه قائلاً: ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ١٨٧﴾ لماذا؟ لأنك قد تظن أن بالمال وهو الثمن تستطيع أن تشتري به كل شيء، ولكن النقود لا تنفع الإنسان كما تنفعه الحاجة المباشرة؛ لأننا قلنا سابقاً: هب أن إنساناً في مكان صحراوي ومعه جبل من ذهب وليس معه كوب ماء، صحيح أن المال يأتي بالأشياء، إنما قد يوجد شيء تافه من الأشياء يغني ما لا يغنيه المال ولا الذهب، فيكون كوب الماء مثلاً بأطنان من الذهب، ولا يساويه أي مال ﴿فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ١٨٧﴾.

## الذين يفرحون بما أتوا نوعان

﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُواْ بِمَا لَمْ يَفْعَلُواْ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٨٨﴾[1]

الذين يفرحون بما أتوا نوعان: نوع يفرح بما أتاه مناهضاً لدعوة الحق، كالمنافقين

(١) [آل عمران: ١٨٨].

الذين فرحوا بأنهم غشّوا المؤمنين، وتظاهروا بالإيمان، فعاملهم المؤمنون بحق الأخوّة الإيمانية، حدث هذا قبل أن يكشف الله هؤلاء المنافقين للرسول وللمؤمنين، ونوع آخر يفرح لما آتاه وجاء به مناصراً لدعوة الحق، فالفرح الأول هو فرح المنافقين، والفرح الثاني مشروع، ولذلك يقول الحق: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟﴾[1] .

## الفرح الحقيقي الذي لا يعقبه ندم

إذن فلم ينه الله عن مطلق الفرح، ولكن ليفرحوا بفضل الله، إنه سبحانه قد نهى عن نوع من الفرح في مسألة قارون: ﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾﴾[2] . إذن فالفرح في ذاته ليس ممقوتاً، ولكن الممقوت بعض دواعي ذلك الفرح، فدواعيه عند المؤمن أن يفرح بنصر الله، وإعلاء كلمة الحق، ودواعيه الممنوعة أن يفرح بأن يقف أمام مبدأ من مبادئ الله ليدحض ذلك المبدأ، وهذا ما يفرح به الكافر، ولكن الفرح الحقيقي هو الفرح الذي لا يعقبه ندم، لأن الندم بعد الفرح يعطى عاقبة شرّ؛ لأن النادم يتحسر دائما على فعله فهو في غم وحزن.

---

(١) [يونس: ٥٨].

(٢) [القصص: ٧٦].

## إنه فرح أحمق!

فالله سبحانه يريد أن يعطي للمؤمن مناعة، إنكم أيها المؤمنون تواجهون معسكرات تعاديكم، هذه المعسكرات ستفرح بما أتته ضدكم، ولا تحسبنّهم إن فعلوا ذلك بمنجاة من العذاب، وما دام فرحهم سيؤدي بهم إلى العذاب فهو فرح أحمق.

## إتيان العمل ذنب، والفرح به ذنب آخر

وماذا صنع الذين جاء فيهم القول: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ﴾ يحتمل أن يكون المراد هم أهل الكتاب الذين كتموا نعت رسول الله ﷺ، ماذا فعل هؤلاء إذن؟ لقد كتموا أوصاف رسول الله ونعته الموجود في كتبهم وفرحوا بما كتموا، وبعد ذلك أحبّوا أن يُحمدوا بما فعلوا ممن على طريقتهم، إن الإنسان قد يأتي الذنب ولكنّه يندم بعد أن يفعله، ولكنه حين يسترسل فيفرح بما فعل فذلك ذنب آخر، وهكذا صار إتيان العمل ذنباً، والفرح به ذنباً آخر؛ لأنه لو ندم على ما فعله لكان الندم دليلا على التوبة، أما أن يأتي العمل وبعد ذلك يفرح به ثم بعد ذلك الأشد؛ فيحبّ أن يُحمد بما لم يفعل، فذلك من تمام الحمق، إنه جرم وذنب مركب من فعل آثم، ففرح به، فحبّ لحمد على شيء لم يفعله.

## أتوا الذنب، وفرحوا بأنهم أتوه

أكان يجب أن يُحمد بما فعل أو بما لم يفعل؟ إذا قال قائل: إنها نزلت في المنافقين الذين تخلفوا عن رسول الله فالقول محتمل؛ لأن هؤلاء تخلفوا عن الحرب مع رسول الله، وفرحوا بأن متاعب السفر ومتاعب الجهاد لم تنلهم، وبعد ذلك اعتذروا لرسول الله اعتذارات كاذبة، ولو ندموا لكان خيراً لهم، ولم يتّضح للمسلمين كذبهم فحمدوا لهم ذلك الاعتذار، إنهم قد أتوا الذنب، وفرحوا بأنهم أتوه، ونجوا من الحرب، وبعد ذلك فرحوا أيضاً بأنهم أحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، لأن اعتذارهم كان نفاقاً، سواء كان هذا أو ذاك فالآية على إطلاقها: للذين يفرحون بما أتوا من مناهضة الحق وذلك فعل، والفرح به ذنب آخر، والرغبة في الحمد عليه شيء ثالث، إذن فالذنب مركب، فهم يسترون الأمر ويبيّنون نقيضه كي نحمدهم ونشكرهم!

## الإنسان مطبوع على حب الثناء

﴿وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ﴾ وهل المنعي عليهم أنهم يُحبون أن يُحمدوا؟ أو المنعي عليهم والمأخوذون به أنهم يحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا؟ إن المنعي عليهم أنهم يحبون أن يُحمدوا بما لم يفعلوا؛ لأن الإنسان إن أحب أن يُمدح بما فعل فلا مانع، والقرآن حين يعالج نفساً بشرية خلقها الله بملكات، إن الإنسان مطبوع على حب الثناء من الغير، لأن حب الثناء يثبت له وجوداً

ثانيا، ووجودك الثاني هو أن تعبّر عن نفسك بعملك الذي يكون مبعث الثناء عليك، والناس لا تُثني على وجودك، لكنها تثني على فعلك، وما دام الإنسان يحب الثناء فسيغريه ذلك بأن يعمل ما يُثني به عليه، ما يجعله يعمل بإتقان أكثر، وساعة يعمل فإن المحيط به ينتفع من عمله، فلا يَمنع سبحانه حب الثناء كي يزيد في الطاقة الفاعلة للأشياء.

## من لم يشكر الناس لم يشكر الله

وعندما يتساءل من يحب الثناء قائلاً: لماذا كُرّم هذا؟ ويرى أسباب التكريم فيقول لنفسه لأصنعنَّ مثله كي أُكرّم، ولذلك تجد الشباب يتهافت على اللعب بكرة القدم، لماذا؟ لأنهم يجدون من يضع هدفاً يُكرّم، فيقول: أنا أريد أن أضع هدفاً، هذا وإن ديننا الحنيف يدعونا إلى أن نشكر من قدم خيرا أو أسدى معروفا حفزاً للهمم وتشجيعا لبذل الطاقات، وفي الأثر: «**من لم يشكر الناس لم يشكر الله**» إذن فحبّ الثناء من طبيعة الإنسان، ولكي تُغري الناس بأن يعملوا، لا بد أن تأتي لهم بأعمال تستوعب طاقاتهم المتعددة، أما إذا اقتصر إتقان العمل على من لا يحبّون الثناء، فسنقلل الأيدي التي تفعل، ولذلك تجد العمل حيث توجد المكافأة التشجيعية، لكن عندما تجد الناس أن المكافآت لا يأخذها أحد إلا بالتزلف وبالنفاق وبالمحسوبيات، فسيفعلون ذلك، وهكذا تأتي الخيبة.

## ذنبٌ مُرَكّب

أما إذا تمادى، وادّعى أنه قد أتى فعلاً حسناً حتى يناله مدح بدلاً من أن يناله ذم، فذلك ذنب مركب ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ﴾. والمفازة هي المكان الذي يظنّ الإنسان أن فيه نجاته، أي أن في هذا المكان فوزاً، هم يظنون أنهم بمفازة من العذاب برغم أنهم لا يؤمنون بالحق، ولا يؤمنون بسيطرة الله على كل أحوالهم وكل أمورهم، فهم يظنون أن انتصارهم في معركة الدنيا لا هزيمة بعده!

## هذا الوعيد سيتحقق

﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ١٨٩﴾(١)

إنه سبحانه حكم فيما يملك ولا أحد يستطيع أن يخرج من ملكه، وما دام لله ملك السماوات والأرض، فحين يقول: ﴿فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨﴾ فهذا الوعيد سيتحقق؛ لأن أحداً لا يفلت منه، ولذلك يقول أهل العلم: اجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه، واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك، واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه، إذن ف ﴿وَلِلَّهِ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تدل على أن الله حين يوعد فهو سبحانه

---

(١) [آل عمران: ١٨٩].

قادر على إنفاذ ما أوعد به، ولن يفلت أحد منه أبدا، فالمؤمن يفطن إلى النهاية وماذا ستكون؟

## ماذا لو قال: هأنذا قد آمنت؟!

تجد أن الحق سبحانه قال: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍۭ ۝٥﴾[1]. وهذه السورة قد نزلت في عمّ رسول الله ﷺ، وكانت هذه السورة دليلاً على صدقه في البلاغ عن الله، لأن أبا لهب كان كافراً، وكان هناك كفرة كثيرون سواه، ألم يكن عمر بن الخطاب منهم؟ ألم يكن خالد بن الوليد منهم؟ ألم يكن عكرمة بن أبي جهل منهم؟ ألم يكن صفوان منهم؟ كل هؤلاء كانوا كفاراً وآمنوا، فمن الذي كان يُدري محمداً ﷺ أنه بعد أن يتلوا قرآناً في عمه أبي لهب، ويحفظه الكثير من المؤمنين، وبعد ذلك كله من كان يُدريه أن أبا لهب يأتي ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإن كان محمد قال: إنني سأصلى ناراً ذات لهب، فهأنذا قد آمنت، مَن كان يدريه أنه لن يفعل، مثلما فعل ابن الخطاب، وكما فعل عمرو بن العاص، إن الذي أخبر محمداً يعلم أن أبا لهب لن يختار الإيمان أبداً، وبعد ذلك يموت أبو لهب كافرا، وكأن الله يريد أن يؤكد: إياك أن تظن أن ذلك الوعيد يتخلف.

---

(١) [المسد: ١ – ٥].

## ألا تفكر فيمن صنع هذا؟

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾[1]

الإنسان الذي يفاجأ بهذا الكون، فيه سماء بهذا الشكل، وتحتها الكواكب، وأرض مستقرة، بالله ألا يفكر فيمن صنع هذا؟ والله لو أن واحدا استيقظ من نومه ووجد خيمة قد نصبت في الميدان ليلا لوقف ليسأل متعجبا: ما الحكاية؟! فما بالنا بواحد فتح عينيه فوجد هذا الكون المنتظم الذي يعطيه أسباب الحياة؟

### نضرب مثلا للتوضيح:

لو أن إنساناً وقعت به طائرة في صحراء، ولم يجد فيها ماء ولا شجراً ولا أناسا، ولأنه مجهد غلبه النوم، فاستيقظ فوجد مائدة عليها أطايب الطعام، قبل أن يمد يده، ألا يجول فكره فيمن صنع هذه؟ إن دهشته من الحدث تجعله يفكر فيمن جاء بها قبلما يضع لقمة في فمه، رغم أنه جائع، فكذلك الناس الذين فتحوا عيونهم فوجدوا هذا الكون العجيب، هذا الكون الذي نراه جميعا بانتظامه الرائعِ وقوانينه الثابتة؛ الله الذي صنعه، هل قال أحد من البشر أو غير البشر إنني صنعته؟ لا، لم يحدث هذا قط برغم وجود الملاحدة والمفترين على الله، ولذلك جاء قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[2] كأن الله يقول: إن لم

---

(١) [آل عمران: ١٩٠].

(٢) [النمل: ٦٠].

أكن أنا الذي خلقت فمن الذي خلق؟ ولم يجرؤ أحد على أن ينسب الكون لنفسه؛ لأن الكفار والملاحدة لا يستطيعون خلق أي شيء تافه من عدم.

## نضرب مثلا آخر للتوضيح:

ومثال ذلك كوب الماء من الزجاج الذي تركه الله ولم يخلقه على الصورة التي هو عليها، كوب الماء هذا شيء تافه، وقبل أن تتم صناعة الكوب الزجاجي لم يكن هناك شجر يطرح ويثمر أدوات منزلية وأكواباً، بل صنعه إنسان أراد أن يترف الحياة، فإذا كان هذا الشيء الصغير له صانع، ثم نظر إلى الأرض حتى وجد المادة الخام التي عندما تُصهر تعطي هذه الشفافية واللمعان، فجرب في عناصر الأرض فلم يجد إلا الرمل، واكتشف هذه المادة ومزجها بمواد أخرى لصهرها وإذابتها، واحتاجت صناعة الكوب إلى معامل وعلماء، كل هذا من أجل الكوب الصغير الذي قد تستغني عنه، انظر ما يحتاجه لصنعه؟ احتاج طاقات جالت في جميع مواد الأرض، وإمكانات صناعية وأناساً يضعون معادلات كيماوية، فما بالنا بالأشياء الأصلية وكم تحتاج؟ قال الله سبحانه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ هُمۡ قَوۡمٞ يَعۡدِلُونَ ٦٠﴾[1].

---

(١) [النمل: ٦٠].

## مثل آخر للتوضيح:

الإنسان إذا كان قد شرب أطناناً من الماء طَوال حياته، فهل ظلت تلك الأطنان في جسد الإنسان؟ أو أن تلك الأطنان قد خرجت في فضلات الإنسان؟ إن الإنسان لا يختزن إلا الموجود فيه الآن من الماء، والجسم الإنساني به حوالي تسعين بالمائة من مكوناته من الماء، وبعد ذلك يموت الإنسان فيتبخر منه الماء وتنزل بقية العناصر للأرض، إذن فكمية المياه واحدة، ولكنها تخضع لدورة أرادها الله، قال سبحانه: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ٦١﴾[1].

## مثل آخر للتوضيح:

الإنسان عندما يُصاب بحادث خطير، فهو لا يكذب على نفسه، حتى الكافر بالله عندما يجد أن كل الأسباب المادية التي أمامه لا تنفعه، فهو يلجأ ويعترف بأنّ هناك إلهاً واحداً خالقاً فيقول: يا رب، إذن فالله ﷻ يقول: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ٦٢﴾[2]. كل هذه الآيات تؤكد قول الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٖ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ ١٩٠﴾[3]. إنها ظواهر كونية وآيات يتوزع استنباطها على الخلق الذين يملكون البصيرة،

---

(١) [النمل: ٦١].

(٢) [النمل: ٦٢].

(٣) [آل عمران: ١٩٠].

والأخذ بأسباب الله لاستنباط أسرار الله لكل خلق الله المؤمنين إلى أن تقوم الساعة.

## أشهد أن لَكِ رباً وخالقاً

﴿ٱلَّذِينَ يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمٗا وَقُعُودٗا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمۡ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ رَبَّنَا مَا خَلَقۡتَ هَٰذَا بَٰطِلٗا سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾[1]

يجب أن نستقبل النعمة التي خلقتها لنا يا الله بالحق، فإن استقبلها بعض الناس بغير الحق، فإنها تكون وبالاً عليهم، فالنظر إلى السماء هو النظر إلى العلو، والنظر إلى الأرض أيضاً هو تأمل في حكمة الخالق، لكن النظرة إلى السماء تجعل الإنسان يفطن إلى علو الخالق، ولذلك فالعربي الذي استلقى على ظهره نائماً، واستيقظ ففطن إلى لون السماء الأزرق البديع، والنجوم تتلألأ فيها فقال: أشهد أن لَكِ رباً وخالقاً، اللهم اغفر لي، ولقد عرف الرجل متى يدعو الله وكيف يدعو، لذلك غفر الله له.

## ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها

قالت عائشة رضي الله عنها: قام رسول الله إلى قربة فتوضأ، ثم قام فبكى ثم قرأ فبكى، ثم أثنى على الله وحمده فبكى، حتى ابتلت الأرض، ثم جاء بلال، فقال: يا رسول

---

(١) [آل عمران: ١٩١].

الله صلاة الغداة، فرآه يبكي، فقال: يا رسول الله أتبكي وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟ فقال رسول الله: أفلا أكون عبدا شكورا، يا بلال لقد نزل عليّ الليلة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أضاف رسول الله ﷺ: **«فويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها، وويل لمن لاكها بين فكيه ولم يتأملها»**[1].

## القرآن لا يتعارض مع بعضه!!

ها نحن نرى أن مطلوب **{أولي الألباب}**؛ هو أن يذكروا الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم، قال بعض العلماء في تفسير قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ إن المقصود بذلك هو الصلاة، فمن لا يستطيع الصلاة قائماً يصلي قاعدا، ومن لا يستطيع الصلاة قاعدا فليصل مضطجعا، ونقول لهؤلاء العلماء: لقد خصّصتهم هذا المعنى حيث المقام للتعميم، لماذا؟ لأن القرآن لا يتعارض مع بعضه، بل يفسّر بعضه بعضا، وحتى لا يظن المؤمن أن الصلاة هي التي يذكر فيها الله فقط، قال سبحانه: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِكُمْ ۚ فَإِذَا ٱطْمَأْنَنتُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتْ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ كِتَٰبًا مَّوْقُوتًا ﴿١٠٣﴾﴾[2]. كأنّ ذِكْرَ الله أمرٌ متصلٌ واجبٌ في الصلاة وفي غيرها، وبعدها يتفكر المؤمنون في خلق السماوات

---

(١) رواه ابن حبان في صحيحه، أيضا السلسلة الصحيحة للألباني.

(٢) [النساء: ١٠٣].

والأرض، ويعترفون أنه سبحانه لم يخلق هذا باطلاً، ويكون المطلوب أن يقولوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ١٩١﴾.

## الخزي مرتبة أشرّ من عذاب النار

﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾(١)

إنها العظمة، فهم لا يذكرون عذاب من يدخل النار، ولكنهم يذكرون خزي الله لمن دخل النار، وكأن الخزي مرتبة أشرّ من عذاب النار، فمن الذي أعطانا كل هذا الفضل، إنه سبحانه أعطانا توفيقا لذكره، وتوفيقاً لنتفكر في خلق السماوات والأرض، فهل يصح أن نقابله بكفران النعمة؟ وما الذي يحدث بهؤلاء الذين يدخلون النار؟ إنه الخزي ﴿وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ٧٢﴾ أي أنصار يمنعون عنهم هذا الخزي وهذا العذاب.

## ماذا وراء هذا الكون العجيب!

﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ١٩٣﴾(٢)

الإنسان بقلبه وفكره يجب أن يتنبه إلى ما في الكون من آيات، وعليه أن

---

(١) [آل عمران: ١٩٢].

(٢) [آل عمران: ١٩٣].

يستشرف أن وراء الكون أسرار وقوة، ولكن هذه القوة مبهمة في ذهنه، ما هي؟ إنه يرى الكون العجيب فيقول لنفسه: من المستحيل أن يكون هذا الكون بلا خالق! إن وراءه قوة لها حكمة ولها قدرة! هذا قصارى ما يصل إليه العقل، ولكن أيستطيع العقل أن يدرك أن القوة اسمها الله؟ أيستطيع العقل أن يدرك ماذا تطلب القوة منه؟ لا، إذن لابد من رسول يبلغ عن تلك القوة.

## العلم متاهة الفلاسفة

تلك هي الزلة التي وقع فيها الفلاسفة؛ لأن الفلاسفة هم الذين بحثوا وراء المادة، ونحن نعلم أن العلم ينقسم إلى قسمين، قسم مادي قائم على التجربة، وقسم (ميتافيزيقي) يبحث فيما وراء المادة، وهذا العلم متاهة الفلاسفة، إنهم لم يلتقوا، لماذا لم يلتقوا؟ لأنهم يبحثون وراء المادة، وما وراء المادة غيب، والغيب لا يدخل المعمل، لكن المادة تدخل المعمل، والمعمل عندما يعطي نتائج تحليلات لا يجامل في هذه النتائج.

## ماذا عن علم الأهواء والنظريات؟

ولذلك نقول دائما: إننا لا نجد في العلوم المادية فارقا بين علم شيوعي روسي، وعلم أمريكي رأسمالي، فلا توجد كيمياء رأسمالية أو كيمياء شيوعية، ولا توجد كهرباء روسية وأخرى أمريكية، إنها كيمياء واحدة، وكهرباء واحدة لأنها ابنة المعمل وبنت التجربة المادية، ومن العجيب! الذي لا يفطن له الخلق

المغرورون من هؤلاء؛ أننا نجد العلم المادي ابن التجربة والمعمل، والمادة الصماء التي لا تجامل، يحاول كل معسكر أن يسرقه من غيره، ونجد الجواسيس يسافرون من معسكر إلى معسكر ليسرقوا تصميمات الطائرات والصواريخ! وأن بعضهم يتلصص على بعض حتى يعرفوا العلم المادي! لكن ماذا عن علم الأهواء والنظريات؟ إننا نجد أن كل طرف يقيم جدارا حتى لا يخترق علم الأهواء المجتمع، هم يقيمون الحواجز في الأهواء، ولكن في العلم المادي يتحولون إلى لصوص.

## وراء خلق الكون قوة خارقة

إن كل معسكر حريص على العداء مع مذاهب الغير في الحكم والاجتماع والاقتصاد، لكنهم في العلم المادي يسرق بعضهم بعضا؛ لأن المذاهب النظرية تتبع الأهواء، لكن العلم المادي يتبع الحقيقة المعملية التي لا تجامل، إذن فساعة يفكر الإنسان بعقله لابد أن يقول: إن وراء خلق الكون قوة خارقة، وقد عرفها العربي بفطرته فقال: البعرة تدل على البعير والقدم تدل على المسير، أفلا يدل كل ذلك على اللطيف الخبير؟!! إنه دليل فطري، يدلك على وجود القوة، لكن ما اسم هذه القوة؟ لا نعرف.

## ما اسم هذه القوة؟!

النفس تطمع والأذن تستشرف إلى من يدلها على اسم هذه القوة، فإذا جاء

واحد وقال: أنا مُرْسَلٌ من ناحية هذه القوة، وأنَّ اسمها الله، كان من المفروض أن يتهافت الناس عليه؛ لأنه سيحل لها اللغز الذي يشغلهم، لذلك فالمؤمنون يقولون: ﴿رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ﴾(١). كأن ذهن كل واحد فيهم كان مشغولا بضرورة التعرف على الخالق، فآمنوا.

## من أنت أيها الإنسان من منزلة الله؟

وبعد ذلك قالوا: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدۡخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدۡ أَخۡزَيۡتَهُۥۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنۡ أَنصَارٖ ١٩٢﴾(٢). فأول حاجة فكروا فيها هي محاسبة النفس؛ لأن أفاضل الناس يتهمون أنفسهم بالتقصير دائما؛ لذلك قالوا: ﴿رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا﴾. وعندما ننظر إلى معطيات القرآن نجد أن الذنب يحتاج إلى غفران، والسيئة تحتاج إلى تكفير، فحين تفعل المعصية في أمر بينك وبين الله، فأنت لم تسيء إلى الله، فمن أنت أيها الإنسان من منزلة الله؟ لكنك بالمعصية تذنب، والذنب تأتي بعده العقوبة، أما مخالفة منهج الله مع عباد الله فهي سيئة؛ لأنك بها تكون قد أسأت، ومن الذي هداهم إلى معرفة أن هناك فرقا بين الذنب والسيئة؟ وأن الذنب يحتاج إلى غفران، وأن السيئة تحتاج إلى تكفير؟ إنه الرسول ﷺ حامل الرسالة من الله.

---

(١) [آل عمران: ١٩٣].

(٢) [آل عمران: ١٩٢].

## ﴿عَلَىٰ رُسُلِكَ﴾، أي على لسان رسلك

﴿رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾[1]

أي ربنا أعطنا ما وعدتنا على لسان رسلك، ولتسمع قول الله استجابة لهم: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى﴾.

## المسألة ليست بالتمنّي فقط!

﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ۖ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۖ فَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَأُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأُوذُوا۟ فِى سَبِيلِى وَقَـٰتَلُوا۟ وَقُتِلُوا۟ لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ثَوَابًا مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلثَّوَابِ ﴿١٩٥﴾﴾[2]

لم يقل الله سبحانه: استجبت لكم، لكنه جعل الاستجابة هي قبول العمل فقال: ﴿أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَـٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ فليست الحكاية كلاما يقال، إنما يريد الله أن تدخل هذه المسائل في حيز التطبيق والنزوع العملي؛ فالمسألة ليست بالتمني فقط، فقد وضع سبحانه الشرط الواضح وهو العمل، فمن يريد استجابة الله فلابد له من العمل، إن التفكر في بديع صنع الله لا يغني

---

(١) [آل عمران: ١٩٤].

(٢) [آل عمران: ١٩٥].

عن العمل؛ لأن الله سبحانه يريد التفكر فيه وأنت تعمل في أسبابه، فالذين هاجروا من بلادهم ومن أهلهم ومن أوطانهم ومن أحبابهم دون إكراه، فهجرتهم هذه انتقال من مكان إلى مكان جديد، وكان ذلك في سبيل الله، أي: فالذين هاجروا وخرجوا بجزء من إرادتهم، وكذلك الذين أُخرجوا من ديارهم، وقاتلوا في سبيل الله وتحملوا الإيذاء وقُتلوا، هؤلاء ينالون التكفير عن السيئات ويدخلون الجنة.

## الفكر وحده لا يكفي!

نخرج من كل هذا برؤية واضحة هي: أن الفكر وحده لا يكفي، وإذا قال واحد: إن إيماني حسن، فلا تأخذني بالمسائل الشكلية، نرد عليه قائلين: إن الله ليس في حاجة إلى ذلك، ولكنه يطلب منك أن تعمّر الكون بحركتك، وأبرك الحركات وأفضلها أن ترسخ منهج الله في الأرض؛ لأنك إن رسخت منهج الله في الأرض، أدمت للوجود جماله.

## مهما أخذوا فقد أخذوا زينة الحياة!

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَـٰدِ ١٩٦﴾[1]

التقلب يحتاج إلى قدرة على الحركة واتساع طموح، فإذا اتسعت قدرتك على

(١) [آل عمران: ١٩٦].

الحركة وانتقلت إلى بلد آخر، فعندئذ يُقال عن هذا الإنسان: فلان نشاطه واسع، أي أن البيئة التي تحيا فيها ليست على قدرة قدرته، بل إن قدرته أكبر من مكانه، لذلك فإنه يخرج من بلده، وكان ذلك يحدث، فكفار قريش كانوا يرحلون من بلدهم في رحلات خارجها، وهو سبحانه يريد أن يبيّن لنا أن زخارف الحياة قد تأتي لغير المؤمنين، إن كل زخرف هو متاع الحياة الدنيا وهو مرتبط بعمر الإنسان في الوجود، ومهما أخذوا فقد أخذوا زينة الحياة وغرورها؛ إنها حياة لها نهاية.

## عمر الدنيا هو مدة بقاء الفرد فيها

الكافرون قد يأخذون الدنيا العاجلة المنتهية، ولكن المؤمنين يأخذون الآخرة الآجلة التي لا تنتهي، وحين نقارن بين طالب الدنيا وطالب الآخرة، نرى أن الصفقة تستحق أن نناقشها، لا تقس عمر الدنيا بالنسبة لذاتها، ولكن قس عمرها بالنسبة لعمر الفرد في الحياة؛ لأن عمر الدنيا عند كل فرد هو مدة بقائه فيها، فهب أن الدنيا دامت لغيري، فمالي ولها، إن عمر الدنيا قصير بالنسبة لبقاء الإنسان فيها، وإياك أن تقارنها بقولك: إن الدنيا سوف تبقي لملايين السنين؛ لأنها ستظل ملايين السنين لملايين الخلق غيرك، وعمر الدنيا بالنسبة لك هو عمرك فيها، وعمرك فيها محدود، وهذا على فرض أن الإنسان سيعيش متوسط الأعمار، فما بالك وعمرك فيها قد ينتهي في أية لحظة؛ لأن الموت يأتي بلا سنّ

ولا يرتبط بسبب أو بزمان، ولذلك فالإنسان لا يضمن متوسط الأعمار، وعمر الآخرة مستمر لا ينتهي.

## الدنيا؟ هل هناك اسم أحقر من هذا؟

ولم يأت الله لها باسم أقل من اسم الدنيا، فهل هناك اسم أقل وأحقر من هذا؟ إن الذين يغترّون بما يناله الخارجون عن منهج الله من تقلبهم في البلاد عليهم أن يتذكروا أن كل ذلك إلى زوال وضياع، وعلينا أن نقارن التقلب في البلاد بما أعده الله لنا في الآخرة، وساعة تقارن هذه المقارنة تكون المقارنة سليمة.

## يتملكه الغرور، فيأتيه عذاب الله بغتة

وعندما ترى تقلب الكفار في البلاد، فاعلم أنهم لن يأمنوا أن يأخذهم الله في تقلبهم، وفي ذلك يقول: ﴿قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾﴾[1]. والكافر من هؤلاء يتملكه الغرور، وهو يتقلب فيأتيه عذاب الله بغتة، والعذاب يأتي مرة بغتة، ومرة أخرى جهرة، إنه يأتي بغتة حتى يكون الإنسان متوقعا له في أي لحظة، ويأتي جهرة حتى يرعب الإنسان ويخيفه قبل أن يقع، فالموت إن جاءهم بغتة فقد لا يشعرون بهوله إلا لحظة وقوعه، ولكن حينما يأتيهم الموت وهم ينظرون، فهم يرونه وهم في فزع ورعب.

---

(١) [الأنعام: ٤٧].

## لا قدرة لهم على أي شيء

﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ١٩٧﴾(١)

المهد هو المكان الذي ينام فيه الطفل، ومعنى ذلك أن الحق يقلب فيهم في جهنم كما يريد، كما يُقلب الطفل في فراشه دون أن يستطيع المقاومة، لأنه لا قدرة لهم على أي شيء، شأنهم في ذلك شأن الطفل، يزال ملازما لفراشه ومهده حتى يقلبه ويحركه غيره، ويأتي المقابل لهؤلاء وهم المؤمنون: ﴿لَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ لَهُمۡ جَنَّٰتٞ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نُزُلٗا مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۗ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيۡرٞ لِّلۡأَبۡرَارِ ١٩٨﴾(٢) والنزل هو المكان الذي يُعَدّ لنزول الضيف، والنزل حينما تقيمه قدرات بشرية تتراوح حسب إمكانات البشر، وفي إحدى السفريات نزلنا في فندق فاخر، فقال لي زملائي وإخواني: هذا لون من العظمة البشرية، قلت لهم: هذا ما أعده البشر للبشر، فكيف بما أعده الله للمؤمنين؟

## هذه مسألة! فمن الذي أطلع محمداً عليها؟

﴿وَإِنَّ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ لَمَن يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِمۡ خَٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشۡتَرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ١٩٩﴾(٣)

---

(١) [آل عمران: ١٩٧].

(٢) [آل عمران: ١٩٨].

(٣) [آل عمران: ١٩٩].

القرآن لم يتحامل على أهل الكتاب لأنهم عاندوا رسول الله، وواجهوا دعوته، وصنعوا معه كل ما يمكن أن يُحبط الدعوة ويقضي عليها، بل يؤرخ للإيمان تأريخا صادقا أمينا، فساعة يقول الله الحق: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ فيسمعه بعض من أهل الكتاب الذين انشغلوا في أعماقهم بتصديق الرسول، ويعرضون قضية الإيمان على نفوسهم، فإذا ما كانوا كذلك، ماذا يكون موقفهم وهم الذين يفكرون في أمر الإيمان بما جاء به محمد؟ إنهم عندئذ يقولون لأنفسهم: هذه مسألة في أعماقنا، فمن الذي أطلع محمداً عليها؟ إن ذلك دليل على أن محمداً لا ينطق عن الهوى، وأن الله يعلمه بما في نفوسنا مما لم يبرز إلى حيز الوجود، وما دام الحق يخبره بما لم يخرج إلى حيز الوجود فلابد أنه صادق.

## لابد أن يكون في الصبر مشقات

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾[1]

هذه الآية هي ختام سورة آل عمران، يقول الله الحق: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أي استمعوا إليّ يا من آمنتم بي ﴿اصْبِرُوا﴾ وهذا أمر، و﴿وَصَابِرُوا﴾ أمر ثان، و﴿وَرَابِطُوا﴾ أمر ثالث، و﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ أمر رابع. إنها أربعة أوامر، والغاية من

(١) [آل عمران: ٢٠٠].

هذه الأوامر هي ﴿لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝١٠﴾ وأي فَلاَح هذا الذي يقصده الحق ﷻ؟ إنه فلاح الدنيا وفلاح الآخرة؛ فلاح الدنيا بأن تنتصروا على خصومكم، وأن تعيشوا معيشة آمنة مستقرة، وفلاح الآخرة أن تأخذوا حظكم من الخلود في نعيم الجنة، ومادام سبحانه يقول: اصبروا فلابد أن يكون هذا إيذانا بأن فيه مشقة، فالإيمان يؤدي إلى الجنة، والجنة محفوفة بالمكاره؛ لذلك لابد أن تكون فيه مشقات.

## يقتضي أن تصبر على تنفيذ أمر الله

وإذا نظرت إلى تلك المشقات، فإن الصبر يقتضي أن تصبر على تنفيذ أمر الله في فعل الطاعات، وعلى تحمل الألم منه في ترك المعاصي، وإن كان ذلك يمنعك عن لذة شهوة تحبها فإنك تصبر عن تلك الشهوة التي تلحّ عليك، فمجاهدة المؤمن أن يصبر عن الشهوات التي نهى الله عنها، والأشياء التي تصيب الإنسان يصبر عليها، فالمصيبة في النفس يصبر عليها، والأشياء التي يصبر عنها من النواهي هي الشهوات والمتع التي يحرمها الله.

## الفرق بين ﴿ٱصْبِرُواْ﴾ و﴿وَصَابِرُواْ﴾

وكأنه ﷻ يقول: إنني خلقتك وأعلم منازعة نفسك إلى الشهوة، لأنك تحبها فاصبر عنها، والأمور التي في الطاعة إن فعلتها ستورثك مشقة في ذاتك، اصبر عليها، ماذا يعني ذلك؟ يعني أن (اصبروا) غير (صابروا) فاصبر هو أمر في

نفسك ستصبر عليه، ولكن هب أن خصمك صبر أيضاً على إيذائك، وصار عنده جَلَد ليقف أمامك هنا، الله يأمرك هنا بأن تصابره، أي إذا كان عدوك يصبر قليلا فعليك أنت أن تصبر كثيرا، أي أن تجيء بصبر فوق الصبر الذي يعارضك، إذن فالمصابرة تعني إن كان خصمك يصابرك، فأنت تصبر وهو يصبر، فتصبر أنت أكثر، ولهذا تحتاج المسألة إلى أن يتكاتف المجتمع كله على المصابرة.

## ما هو الرباط؟

قوله تعالى: ﴿وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۝٢٠٠﴾ عرفنا الصبر، وعرفنا المصابرة، فما هو الرباط؟ هو أن تُشعر عدوك بأنك مستعد دائما للقائه، هذا هو معنى الرباط، أي أن نكون مستعدين قبل وقوع الهجوم، وساعة تأتي الأمور الداهمة ننطلق لمواجهتها، ولذلك حين يكون عدوك عالما بأنك مرابط له، ومستعد للحركة في أي وقت، يرهبك ويخافك، أما إذا كنت في استرخاء وغفلة؛ فإنه يدهمك، فإلى أن تستعد يكون قد أخذ منك الجولة الأولى.

## إذن فما فائدة الرباط؟

فائدة الرباط أن يُعلَم أنك لم تغفل عن عدوك، وأنك لن تترك العدة والاستعداد له إلى أن يأتي بالمداهمة، ولكن تكون أنت مستعدّاً لها في كل وقت، والرباط لا يكون فقط أن ترابط بالخيل للعدو المهاجم هجوما ماديا، بل المرابطة تعني: الإعداد لكل ما يمكن أن يَرُدَّ عن الحق صيحة الباطل، فمن

المرابطة أن تعد الناشئة الإسلامية لوافدات الإلحاد قبل أن تفد، لماذا؟

لأن المسألة اليوم ليست كلها حربا بالطائرات والصواريخ العابرة للقارات، فقد تكون حربا فكرية تتسرب إلى النفوس من حيث لا تشعر، فإذن لابد أن تكون أيضاً في الرباط الذي يمد المؤمن بقدرة وطاقة المواجهة، بحيث إذا جاءت قضية من قضايا الإلحاد التي قد تفد على المؤمنين، يكون عند كل واحد منهم الحصانة ضدها والقدرة على مواجهتها.

## الرباط ضد مناهج الغرب

آفة المناهج العلمية عندنا اليوم أنهم أخذوا مناهجهم عن الغرب، فدرسوا التاريخ كما يريده لنا الغرب، ودرسوا الطبيعة كما يدرسها الغرب، ونسوا أن لنا دينا يحمينا من كل هذه الأشياء، فعندما يأتيني رجل التاريخ بمنهجه من الغرب، ويقول: إن الثورة الفرنسية هي التي أعلنت حقوق الإنسان، هنا يجب أن تكون عندنا مناعة وترابط، ونقول له: في أي سنة نشأت الثورة الفرنسية؟ لقد نشأت في العصر الحديث، منذ يزيد أو ينقص عن مائتي سنة، وأنتم تجهلون أن الدين الإسلامي جاء منذ أربعة عشر قرنا بحقوق الإنسان، واقرأوا القرآن وما جاء فيه من المساواة بين بني البشر، لا فرق بين أبيض وأسود، وغني وفقير، واحترام الكبير والعطف على الصغير، واحترام الوالدين والأقارب وحق الجار، وحق الزوجة والأخت والبنات، ومساعدة الفقير والضعيف،

وأن لهم الحق في الحياة والعيش بسلام، والحق في امتلاك المال وحماية الممتلكات لغير المسلمين، وحقوق الأقليات والجماعات الدينية الأخرى، فلو أن كل تلميذ حين يسمع أن الثورة الفرنسية هي التي أعلنت حقوق الإنسان، يقول لهم: لا، أنت تعلم أن ذلك حدث في القرن السابع عشر، لكن لماذا لا تلتفت إلى أنه منذ مئات السنين جاء الإسلام بهذا المبدأ، فإذا كنت تجهل تشريع الله فلا يصح أن يؤدي بك هذا الجهل إلى طمس معالم هذا التشريع.

## الرباط ضد النظريات والأفكار المنحرفة

وإذا قال دارس للطبيعة: إن الطبيعة أمدت الحيوان الفلاني باللون الذي يناسب البيئة التي يعيش فيها، حتى لا يفتك به عدوه، وهو بذلك يضلله، نقول له: إن الطبيعة لا تمد، الطبيعة تأخذ إمدادها من الله، لا تقل: إن الطبيعة أمدّت، إذن فالرباط لا يكون بقوة عسكرية فحسب بل بالقوة العلمية أيضا، فخصوم الإسلام قد يئسوا من أن ينتصروا على الإسلام بالصاروخ والطائرة، بعد أن كتّلوا كل قواهم في الحروب الصليبية، ولم يبق لهم إلا أن يَدخلوا علينا من خلال مناهجهم ومن خلال المستشرقين هناك، والمستغربين منا، فينقلوا لنا ثقافات أجنبية بعيدة عن منهجنا، وهم معذورون بالجهل والحماقة، لأنهم لا يعلمون منهج الله في دين الله، إذن فالرباط لابد أن يكون أيضاً في رباط الأفكار، ورباط العلم المادي.

## يقولون: أنتم يا مسلمون تخلفتم!

إن خصوم الإسلام يدخلون على الناس من مداخل متعددة، فيجب أن ننبه الأجيال إليها، يقولون: أوروبا ارتقت حضاريا وأنتم يا مسلمون تخلفتم! نقول لهم: هل كان التخلف مقارنا للإسلام؟ لقد كانت الدولة الإسلامية هي الدولة الحضارية الأولى في العالم لمدة ألف سنة، وأوروبا التي تتشدقون بحضارتها كانت تعيش في العصور المظلمة، إن هؤلاء لم يعرفوا تاريخنا، أو هم يتكلمون لأناس لا يعرفون تاريخهم.

## ما هي الوقاية؟

ويختم الحق الآية بقوله: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٢٠٠﴾. ونعرف أنه حين قال لك: ﴿ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ تساوي أن يقول لك: **{اتق النار}** فمعنى **{اتقو الله}**: أي اجعلوا بينكم وبين غضب ربكم وقاية، ما هي الوقاية؟ أن تطيع، وما هي الطاعة؟ أن تنفذ ما أمر، وأن تنتهي عما نهى، فالذي يفسر التقوى بأنها الطاعة نقول له: نعم لأنها الوسيلة إلى وقايتك من غضب الله وعذابه، فعندما يقال لك: اتق الله، أي اجعل بينك وبين النار التي هي من جنود الله وقاية، أي اجعل بينك وبين غضب الله وقاية، وإذا قال لك: اتَّقِ الله يعني أطعه في أمره وفي نهيه، فما هي الوسيلة لاتقاء النار واتقاء غضب الله؟ إنها الطاعة، فمرة تُفسّر التقوى بالوسيلة ومرة تفسر بالغاية. وقوله: ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠﴾ إن الفلاح إما

أن يكون في الدنيا وإما أن يكون في الآخرة، في الدنيا: بأن ترتفع كلمة الحق وكلمة الإيمان وتنتصروا ولا أحد يذلكم ولا يجعلكم أحد تابعين له، وفي الآخرة تجدون الراحة والأمان في القبر بعد الموت، ثم حياة جميلة في مكان أجمل، إنها الجنة.




د. أحمد حسين الرفاعي
تَفسِيرُ القُرآنِ العَظِيمِ
٢



# تَفسِيرُ القُـرآنِ العَظِيـمِ

## بالأَمثال والمَعاني المعُاصِرة

د. أحمد حسين الرفاعي

القدس

الجزء الثالث





# تفسير القرآن العظيم

## بالأمثال والمعاني المعاصرة

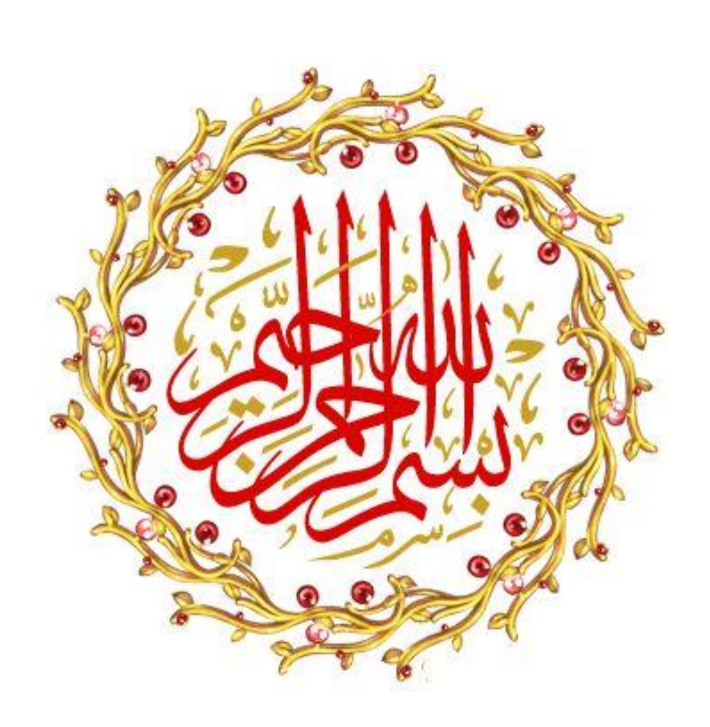


د. أحمد حسين الرفاعي



القدس

(الجزء الثالث)


بسم الله الرحمن الرحيم




## قالوا: أن القرآن كتاب تشريع فقط!

ظهرت على الساحة الأدبية في العصر الحديث أقلام مجترئة على الإسلام والمسلمين، وعقول تظن ظنّ السوء بالدين وشرائعه، وفلاسفة علمانيون، وعباقرة درسوا في بلاد الشرق والغرب، قالوا بأن القرآن كتاب تشريع فقط، لا يشتمل على أدب رفيع معجز، من أجل تجريده من معانيه الدالة على الحقيقة والمجاز والنحو والصرف، فإذا قال الله تعالى: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا ٧٢﴾[1] أخذوا المعنى الظاهر من اللفظ دون المجاز، لتبرز معاني ظلم الله للعباد!! فلا يبقى للنص أساس متين، بل يصير كائنا مستقلا عن قائله، بغية إطلاق العنان لمن أراد التلاعب بالنصوص الأدبية فيضعون لها معاني من عند أنفسهم وتخيّلاتهم، ضمن مكيدة يتم بها القضاء على الثوابت الفكرية الإسلامية، هي أشد شناعة من مكيدة من قال بأن النصوص

---

(١) [الإسراء: ٧٢].

لها ظاهر (وهو القشور) وباطن (وهو اللب) ثم يفترون على الباطن بما يشاءون من ضلالات ينسفون بها أساس الدين من جذوره.

## كيف نرد على هؤلاء؟

إذن، كان لا بد للدارس والباحث المسلم أن يردّ على هؤلاء ويقف لهم بالمرصاد في كل مكان وفي كل عصر، بالأسلوب العلمي المكافئ والبيّن، بحيث يستخرج طائفة من الصور الأدبية القرآنية، ويحللها تحليلا فكريا وأدبيا، وأن يشرحها شرحا بيانيا بأسلوب معاصر، معتمدا على منهج الاستقراء والتحليل والتدبر والتصنيف واكتشاف الخصائص، وإلقائها في محاضرات عامة أو نشرها على مواقع الكترونية عالمية بلغات مختلفة يردّ فيها على ادعاءات المعاصرين بالأدلة والشواهد من الأمثلة القرآنية، ليكون هذا العمل وغيره من الأعمال خدمة مبتكرة وموفّقة، لاكتشاف منهج البيان القرآني في النصوص، ويُضاف إلى المكتبة القرآنية الزاخرة بروائع ودرر هذا الكتاب العظيم.

## إنقاذ البشرية من الأوهام والخرافات

فالله تعالى أنزل هذا القرآن للأحياء ليتخذوه هاديا لهم، يهديهم إلى سعادة الدنيا وفلاح الآخرة إن هم آمنوا به، وفهموه وتدبروه، وتدبروا آياته وعملوا بها، لما فيه أثر في توجيه حياة المسلمين بالأسباب الموجبة لذلك، وبالعلم الشرعي، وعلم اللغة والأدب والنقد والبلاغة والبيان، لإنقاذ البشرية من الأوهام

والخرافات، ومن الجهل بأسرار الله تعالى ونظامه المحكم في خلقه(١)، وهو ﷻ القائل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾﴾(٢).

## تعريف ضرب المثل

جاء في لسان العرب: أن كلمة مِثلهُ أي شِبْهُهُ، وجاء في المعجم الوسيط: أي صار مثله يسدّ مسدّه، ويقال: (مَثّلَ) الشيء بالشيء تمثيلا وتمثالا، أي شبّهه به وقدّره على قدره، وفلان بفلان أي صوّره له بكتابة أو غيرها حتى كأنّه ينظر إليه(٣). فالمثل كما تبيّن، هو الذي يشبّه به حال الثاني بالأول تماما دون تقريب أو تأويل، وهذا التعريف مقصور على الأمثال السائرة، وهو المعنى المتبادر الذي يسبق إلى الذهن عند إطلاق كلمة الأمثال، ولا يشمل النوع الذي يستعمل فيه لفظ (المثل) لتشبيه معقول بمحسوس أكثر وضوحا، وهو الذي يسمى بالمثل القياسي. فالمثل هو الشيء الذي تتضح به المعاني، ويترك معناه أثرا عميقا في النفوس، وأما الضَرْبُ فهو إِيقَاعُ شَيْءٍ على شيْءٍ بَشِدة، وسُمِّيَ به لتَأْثِيرِه في النُّفُوسِ.

---

(١) الطهطاوي، علي، **عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن** (ص١٣-١٨)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(٢) [النساء: ٨٢].

(٣) مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، (ص٨٥٣ و٨٥٤) مكتبة الشروق الدولية، (د.م.ن) ط٤، ١٤٢٥/ ٢٠٠٤.

## علاقة الضرب بالمَثَل

المعنى البياني للضرب هو إظهار أثره في النفوس، فكما يُحدث الضرب صوتا حسيّا فيؤثر على سمع الإنسان ليترقب، فأنه أيضا يُحدث إيلاما في الجسد والنفس فتنفعل أو تغضب، ويقرع حسّها ويُشغلها ويهولها، ويملأ السمع والأبصار والأفئدة، فلا تجد مكانا فيها إلا لما يرى ويسمع ويحسّ، وبما أن هذه الحواس موصولة بالنفس، فهي منافذها الطبيعية على الحياة، تستجيب لكل همسة ولمسة، تصديقا لقوله ﷻ، وهو يردع من لا يخشع لقوته وعظمته: قال تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾[١].

## استنتاج!

ويمكن أن تُخلط الأقوال اللفظية السالفة ذات المعاني المحددة بحيث يُستنتج منها التعريف الآتي: ضرب المثل هو إحداث وإحياء الأثر في لفظ غامض، وكشف المستور منه بقصد بيانه وجلائه وتوضيحه لينتج عنه ردّة فعل تربوية إيجابية في نفوس عامة الناس، فحينما تُضرب هذه الأمثال في كتاب الله ﷻ، فإنها تتناسب مع فطرة الإيمان عنده، فيستقيم حال العبد على الأرض، ويستمدّ منها نور الهداية، لا تزلزله أعاصير الأهواء ولا تضله الشياطين، كالكافر يعيش في نكد، فلا الأرض ترضاه ولا السماء ترعاه.

---

(١) [الحشر: ٢١].

## تعريف المثل اصطلاحاً

عرّف ابنُ قيّمِ الجوزية(١) المثل، فقال: المثل تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس أو أحد المحسوسين من الأخر، واعتبار أحدهما بالآخر(٢).

وقيل: هو نظم من الكلام يعرض نمطا واضحا معروفا من الكائنات أو الحوادث الكونية أو التاريخية عرضا لافتا للأنظار، ليشبه أو يقارن به سلوكا بشريا أو فكرة مجردة أو أي معنى من المعاني بقصد التوضيح أو الإقناع أو البرهان أو التأثير، أو الإقتداء به أو التنفير منه والابتعاد عنه، أو بقصد بيان الفارق بين أمرين متناقضين للأخذ بأحدهما والابتعاد عن الآخر، أو للبرهان

---

(١) هو شمس الدّين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد ابن حريز الزّرعي ثم الدمشقي الفقيه الحنبلي، المفسّر النّحويّ الأصولي، المتكلم، الشهير بابن قيم الجوزية، ولد سنة (٦٩١هـ)، وتفنّن في علوم الإسلام، عارفا بالتفسير وأصول الدّين وعلم السّلوك وكلام أهل التّصوف. [عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد العَكري الحنبلي، أبو الفلاح (المتوفى: ١٠٨٩هـ)، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب،** تحقيق: محمود الأرناؤوط(٨/ ٢٨٧)، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦ م].

(٢) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر (المتوفى: ٧٥١هـ)، **الأمثال في القرآن**، تحقيق: أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، (ص١٥)، مكتبة الصحابة – مصر، ط١، ١٤٠٦ هـ – ١٩٨٦ م.

على صحة أحدهما وبطلان الآخر(١). وقيل: أن يأتي إلى أمر معنوي قد يغيب عن بعض العقول فهمه، فيشخّصُه ويمثله بأمر حسي يعرفه الجميع(٢). ومعنى ضرب المثل، أي أظهره وأشهره، وجعله ينتشر ويذيع ويسير في البلاد، وقيل: هو قول محكي سائر يقصد به تشبيه حال الذي حكي فيه بحال الذي قيل لأجله(٣). فإذا ضربت لها الأمثال صار ذلك الأمر بالمثل كالمعاينة، كالذي ينظر في المرآة فيبصر فيها وجهه، ويبصر بها من خلفه. وجاء في جمهرة الأمثال: إن الكلمة إذا شاعت وانتشرت وكثر دورانُها وشيوعُها على الألسنة تكون مثلا، أما إذا كانت الكلمة صائبة وصادرة عن تجربة ولم تدُرْ وتشيع على الألسنة فتسمى حكمة(٤).

## أنواع المثل

وقد قسّم الدارسون قديما المثل بصورة عامة إلى أنواع(٥)، نوردها بإيجاز مع

---

(١) النحلاوي، عبد الرحمن، **التربية بضرب الأمثال**، (ص١٩)، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط٣، ٢٠١٠م.

(٢) الشعراوي، محمد متولي، **تفسير القرآن**، (٣/ ١٦٩٨)، مطابع أخبار اليوم،(د.م.ن)، ١٩٩٧م.

(٣) النحلاوي، **التربية بضرب الأمثال** (ص١٧).

(٤) العسكري، **جمهرة الأمثال** (١/ ١١).

(٥) ابن قيم الجوزية، **الأمثال في القرآن** (ص٢٠)، سميح عاطف الزين، **الأمثال**(ص ٢٧).

بعض الأمثلة على كل منها وهي:

**أولا:** المثل الموجز السائر، فهو إما شعبي لا تكلّف فيه ولا تصنّع ولا تقيّد بقواعد النحو، بحيث يمليه الواقع في الحياة فيستعمله كل من يمرّ بنفس التجربة.

**ثانيا:** كتابي صادر عن ذوي الثقافة العالية كالشعراء والخطباء، ومنه ما روى أبو هريرة[(١)] رضي الله عنه، قال رسول ﷺ: «**إنّ مِنَ البَيانِ لَسِحْرًا**»[(٢)]، وقولهم: «**كالْمُسْتجيرِ مِنَ الرّمْضاءِ بالنّارِ**»[(٣)]، كمن يفرّ من خطر فيحتمي بخطر أكبر، وقولهم: « **رُبّ أخٍ**

---

(١) كان اسمه في الجاهلية عبد شمس بن صخر، فسماه رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن صخر، وهو مشهور بكنيته أبو هريرة؛ لأنه وجد هرّة فحملها، وهو دوسيّ حليف لأبي بكر الصديق، فقيرا من أهل الصفة، أسلم عام فتح خيبر (سنة ٧هـ) وهو في الثلاثين، وصاحب النبي ﷺ ينهل من علمه وفقهه، فوهبه ذاكرة قوية، فكان يحفظ أحاديثه ومن أكثر رواته. [العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن حجر (المتوفى: ٨٥٢هـ)، **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض (٧/ ١٩٩)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ].

(٢) البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، **صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر)**، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، (٧/ ١٩)، رقم الحديث (٥١٤٦)، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢هـ (د.م.ن).

(٣) النيسابوري، **مجمع الأمثال** (١/ ٣٧٥).

**لك لم تلدْهُ أمّك**»[1] للدلالة على الصديق الوفيّ.

**ثالثا**: المثل القياسي: وهو سرد وصفي أو قصصي، أو تشبيه شيء بشيء لتقريب المعقول من المحسوس لغرض التأديب والتهذيب، أو التوضيح والتصوير، ويجمع ما بين عمق الفكرة وجمال التصوير، ومن ذلك قول العرب: **"مَنْ سَرّهُ بَنُوهُ، ساءَتهُ نَفْسُهُ"**[2]. وقصة هذا المثل أن رجلا وُلِدَ له ثلاثة عشر ولداً، وكلهم شبّ وبلغ سنّ الرجولة، فلما ارتحل مرة ورأى رجالاً معهم أهلوهم وأولادهم، سرّه ما رأى من هيئتهم وما سرّه أهلوهم، ثم ذكر في نفسه أن أبناءه لم يبلغوا ما بلغوا، حتى كبر سنّه ورقَّ عظمُه وضعف جسمُه، ثم أنكر نفسه.

**رابعا:** المثل الخرافي: وهي حكاية ذات مغزى على لسان غير الإنسان لغرض سياسي أو تعليمي أو فكاهي، مما ينسب فيه أفعال البشر إلى الحيوان أو الطير أو الكائن الخارق، ويكون هدفه تعليميا أو عظة أو تحذيرا، فيأتي على شكل قصص أو فرضيات، وخرافات وأوهام كما هو الحال في كتاب (كليلة ودمنة)[3]

---

(١) النيسابوري، **مجمع الأمثال** (١/ ٢٩١).

(٢) الضبّي، المفضل بن محمد بن يعلى، **أمثال العرب**، تعليق إحسان عباس، (ص١٦٦)، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

(٣) هو كتاب حكايات قصيرة على ألسنة الحيوانات والطير ذات مغزى إرشادي، نقل عن الهندية إلى الفارسية، وترجمه ابن المقفع إلى العربية.

لابن المقفع[1]، وغيره من المؤلفات التي استبدلت أشخاصها الآدميين بمخلوقات أخرى، للتدليل على ما قد يصادف الإنسان من قضايا وأحداث تهمه، ويعتقد بأنها مؤثرة على وجوده، كقولهم: **"إِنَّما أُكِلْتُ يَوْمَ أُكِلَ الثَّوْرُ الأَبْيَضُ"**[2].

ومن خلال الدراسة والتعليق على الأمثال وأنواعها المختلفة وتعريفاتها، فإنه يمكن الحكم على صيغة الأمثال التي وردت في هذا البحث بأنها من نوع: المثل القياسي، وهو سرد وصفي أو قصصي، أو صورة بيانية لتوضيح فكرة ما عن طريق التشبيه والتمثيل، وهو تشبيه شيء بشيء لتقريب المعقول من المحسوس من واقع الحال، باستخدام المفردات المعاصرة وتوظيف الأدوات الحديثة لغرض التوضيح والتصوير، أو التأديب والتهذيب.

---

(١) عبد الله بن المقفع (١٠٦ - ١٤٢هـ)، كان أبوه من أصل فارسي، درس الفارسية وتعلّم العربية، رافق الأزمات السياسية في زمن الدولتين الأموية والعباسية، ترجم إلى العربية كليلة ودمنة، وله في الكتب المنقولة الأدب الكبير فيه كلام عن السلطان وعلاقته بالرعية، والأدب الصغير حول تهذيب النفس وترويضها على الأعمال الصالحة. [الذهبي، **سير أعلام النبلاء** (٦/ ٣٣٢) رقم(٩٣٥)].

(٢) النيسابوري، **مجمع الأمثال** (١/ ٢٥) المثل رقم (٨١).

## فائدة ضرب المثل وأهميته

الأمثال ليست حديثة النشأة بل هي عريقة في القدم، وقد رافق المثل تطوّر الثقافات الإنسانية وتفاعلاتها على الرغم من الصراعات الفكرية والمادية المحتدمة بينها عبر القرون الكثيرة، خصوصا في المناطق الأكثر ملتقى لثقافات متنوعة بسبب موقعها الجغرافي، ومن غزو واحتلال، مما جعلها حاضنة لهذه الثقافات، ومنها الأمثال التي ظلت أهم الطرق لتصوير معاناة الناس وأفراحهم من خلال الواقع الذي يعيشونه. والفائدة من ضرب المثل، تبرزان في نقاط كثيرة، من أهمّها:

أولا: أنها تظهر الحقائق البعيدة جدا أنها قريبة جدا، وتوصل إلى أسمى الحقائق وأعلاها بسهولة ويسر[1]، وللتوضيح، يضرب المفكر الداعية عبد الرحمن الميداني[2] مثالا من خلال مدافعته عن نظام الميراث في الإسلام الذي أثار المستشرقون حوله الشبهات، حيث يردّ على هؤلاء في مثال رائع فيقول: **هل**

---

(١) النورسي، بديع الزمان، **المكتوبات** (مجموعة رسائل غير منشورة)، (ص٤٨)، موقع: www.dahsha.com

(٢) الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني (١٣٤٥-١٤٢٥هـ)، ولد في دمشق بحيّ الميدان ونشأ في بيت علم ودعوة، ثم درس في الأزهر الشريف، وعمل في وزارة التربية والتعليم في سوريا، ثم انتقل إلى السعودية بعد عام ١٩٦٧م ليعمل أستاذًا في جامعة أم القرى في مكة قرابة ثلاثين عامًا. [الرابط **Ar.wikipedia.org**]

**يمكننا القول بأنّ مصلحة المياه لم تكن عادلة حينما جعلت الأنابيب التي تمدّدها للمدينة أكبر من الأنابيب التي تمددها للقرية!!** هذا يعني جهل القواعد الهندسية السليمة، والحكمة التي تقتضيها الحاجة في تلبية رغبات كل منهما[١].

ثانيا: التحذير من أمور لا يعلمها الرجل وتُخشى عواقبها مستقبلا، ومن ذلك المثل القديم الذي يقول: **"سمّنْ كلْبك يأكلْك"**. وقصة هذا المثل أنه كان لرجل كلبٌ يسقيه اللبن ويطعمه اللحم ويسمّنه، ويرجو أن يصيد به أو يحرسه، فأتاه يوما وهو جائع، فوثب عليه فأكله[٢].

ثالثا: الحثّ على استئصال الشر واقتلاعه من جذوره حتى لا تقوم له قائمة، قال الشاعر:

**لا تقطعن ذنب الأفعى وترسلها إن كنت شهما فأتبع رأسها الذنبا**[٣]

رابعا: بيان فضل الأدب والعلم، والحضّ على اكتسابهما، حيث قالوا: **"إذا نزل**

---

(١) الميداني، عبد الرحمن حبنكة، **أجنحة المكر الثلاثة** (ص٥١٧)، دار القلم، دمشق، ط١، ١٣٩٥هـ-١٩٧٥م.

(٢) الضبي، **أمثال العرب**، (ص١٦٠).

(٣) أورد هذا البيت: النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق: مفيد قمحية (١٥/ ٢٤٧)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

**بك الشر فاقعد**"[١]، أي: فاحلم ولا تسارع إليه، هذا مثل مشهور معناه: إذا رأيت شرا مقبلا وفتنة ثائرة، فتربّص وتأنّ، حيث قال الشاعر مسكين الدارمي[٢] في هذا المثل:

**ولقد رأيت الشرَّ    ـن الحيّ يبدؤه صغاره**[٣]

أي أن الشرّ إذا ما اندلعت شرارته في الحيّ أو السوق، فإنها تكون بسبب الصبية والجهّال من العامة. وقال بعضهم في الحضّ على طلب العلم وعدم التقاعس عنه: "**أزهدُ الناس في العالم أهلُه وجيرانُه**"[٤]. ومن أمثالهم أيضا في بيان شرف

---

(١) اليوسي، نور الدين الحسن بن مسعود (المتوفى: ١١٠٢هـ)، **زهر الأكم في الأمثال والحكم**، تحقيق: د. محمد حجي، ود. محمد الأخضر (١/ ٧٥)، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

(٢) هو ربيعة بن عامر بن أنيف بن شريح بن عمرو بن عدس بن تميم، كان شاعرا وسيدا وشريفا لقب بمسكين

لقوله عن نفسه: "وإني لمسكين إلى الله راغب"، ودارت بينه وبين الفرزدق مهاجاة، توفي في سنة (٩٠هـ)، في

خلافة الوليد بن عبد الملك. [**الأعلام للزركلي** (٣/ ١٦)].

(٣) ابن سلام، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم الهروي البغدادي، **الأمثال**، تحقيق عبد المجيد قطامش (ص١٥٢)، دار المأمون للتراث، (د.م.ن)، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

(٤) أخرجه ابن شاهين، أبو حفص عمر بن أحمد بن أزداذ البغدادي (المتوفى: ٣٨٥هـ)، **شرح مذاهب أهل السنة**، تحقيق: عادل بن محمد (ص٥٦)، مؤسسة قرطبة، الطبعة

العلم والعلماء: **"إذا زلّ العالِم** – بكسر اللام –، **زلّ بزلته عالَمٌ**– بفتح اللام"(١)، وفي بيان أهمية التواضع بعيدا عن الكبرياء البغيض، حيث قالوا:

**مــا طــار طــير إلا كما طار وقع**(٢)

خامسا: أخذ الحيطة والحذر من عدوّ قديم، أو ممن كان له سابقة في عداوته، وفي ذلك يقول المثل العربي: **"كيف أُعاودك وهذا أثرُ فأسك؟"**(٣)، وقصة هذا المثل أن أخوين كانا في إبل لهما، قريباً منهما وادٍ فيه حيَّة، فقال أحدهما للآخر: لو رعيت في هذا الوادي؟ فقال له أخوه: إني أخاف عليك الحية!! فهبط الوادي فرعى إبله، ثم إن الحية لدغته فقتلته، فقرر أخوه أن يثأر منها ويقتلها، فعرضت عليه الصلح وأن تعطيه كل يوم دينارا، فوافق!! حتى كان من أحسن الناس

---

الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م، موقوفاً على جابر رضي الله عنه. وقال الألباني: لا يصح مرفوعاً ولا موقوفاً. [ينظر: الألباني، السلسلة الضعيفة (٦/ ٢٧٢)].

(١) أبو عُبيد، **كتاب الأمثال** (ص٢٠٧).

(٢) الشافعي، محمد بن إدريس، **ديوان الإمام الشافعي**، تحقيق عبد الرحمن المصطاوي (ص٨٠)، دار المعرفة، بيروت ط٣، ١٤٢٦هـ- ٢٠٠٥م، وقال:

حسبي بعلمٍ إن نفعْ     ما الذلُّ إلا في الطمعْ

مَن رَاقَبَ الله رَجَعْ     عن سوء ما كانَ صنعْ

مَا طَارَ طَير فَارتَفَعْ     إلا كما طارَ وقعْ

(٣) الضبي، **أمثال العرب** (ص١٧٧).

حالاً، ثم فكر في نفسه وقال: كيف ينفعني العيش وأنا انظر إلى قاتل أخي؟ فعمد إلى فأس فأحدّها ثم قعد لها فمرت به، فتبعها فضربها فأخطأها ودخلت الجحر، ووقع الفأس فوق جحرها فأثر فيه، فلما رأت ما فعل قطعت عنه الدينار، فتخوف شرها وندم، فقال لها: هل لك أن نعود إلى ما كنا عليه، فقالت: **"كيف أعاودك وهذا أثرُ فأسِك؟"**.

فالأمم والشعوب لم تضع أمثالها عبثا؛ بل شكّل المثل عندهم فنّاً ثقافياً قديماً، يستمد عراقته من الجذور المشتركة بين الثقافات القديمة، بل كان أقدم فنون الأدب العربي على الإطلاق، وبقي حيا بروحه إلى عصرنا الحاضر، يصور الوقائع والأحداث في حياة العرب، ويستخلص العبر والعظات، شديد الاختصار في تقريب الفكرة من الذهن في أوضح بيان، وإبراز المعاني وكشف الحقائق، بحيث يجعل الخيال كأنه حقيقة، والغائب كأنه حاضر، والوهم كأنه يقين، حتى صار المثل العربي كالعلامة التي يعرف بها الشيء[1].

وللمثل مكانة هامة في الكلام ووظيفته، فالألفاظ لها تأثيرٌ عجيبٌ في الآذان، وتقريرٌ غريبٌ لمعانيها في الأذهان، فقد يكون أقرب إلى تعقله وفهمه وضبطه،

---

(١) الزين، سميح عاطف، **الأمثال** (ص١٢و١٣).

وكلما استُخدمت الأمثال ازداد المعنى وضوحا، فالأمثال شواهد المعنى المراد[1].
وبسبب مكانة الأمثال ودورها، اهتم الباحثون والدارسون بالتأليف فيها قديما وحديثا، فقد جمعوها ورتّبوها وشرحوا غريبها، وبيّنوا القصص التي صدرت عنها والمناسبات التي تُضرب وتُحكى فيها.
وفي عصرنا الحاضر جدّ أمرٌ جديدٌ في صياغة هذه الأمثال؛ وهي تستقي معانيها من الواقع المعاصر وتطوّر الحياة، فالثورة التكنولوجية والتقدم العلمي صار مظهرا من المظاهر التي أثرت في اللفظ والمعنى لهذه الأمثال، فحينما كان السهم يُضرب قديما مثلا لشدة السرعة، صار الصاروخ يضرب اليوم مثلا لذلك بدلا منه، فيُقال: (**جاء مثل الصاروخ**). والناس يحتاجون إلى ضرب الأمثال لمّا خفيت عليهم الأمور والأشياء.

## ضرب المثل في القرآن الكريم

القرآن الكريم هو أفصح الكلام، ومن أقسام فصاحته ضرب الأمثال؛ فقد ورد في القرآن الكريم لتأكيد معنى آية أو بيان غاية، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾[2]، وقد كان بعض السلف

---

(١) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم (١/ ١٨٣)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.
(٢) [العنكبوت: ٤٣].

الصالح، وهو عمرو بن مرة[١] إذا مرَّ بِمَثَلٍ من أمثال القرآن ولم يفهمه يبكي ويقول: "لست من العالمين"[٢]. وقد اشتمل القرآن على بضع وأربعين مثلا[٣]،

## ضرب المثل في الحديث النبوي

من الأمثال التي اتخذت خصائص الحكمة في أحاديث الرسول ﷺ الدالة على التضامن والتكافل ووحدة الشعور والهدف بين جماعة المؤمنين، وعليه إجماع الصحابة، عن النعمان بن بشير[٤] قال، قال ﷺ: **«مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ**

---

(١) عمرو بن مرة بن قيس بن جهينة، كان في عهد النبي ﷺ شيخا كبيرا، وشهد معه المشاهد، يُكنى أبا طلحة وأبا مريم، وكان أول من ألحق قضاعة باليمن. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة**، (٤/ ٥٦٣) رقم (٥٩٧٥)].

(٢) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر الزرعي الدمشقي، **مفتاح دار السعادة**، تحقيق علي بن حسن الحلبي الأثري (١/ ٢٢٦)، دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م.

(٣) ابن قيم الجوزية، **مفتاح دار السعادة**، (١/ ٢٢٦).

(٤) هو النعمان بن بشير بن سعد بن ثعلبة بن جلاس بن زيد الأنصاري الخزرجيّ، يكنى أبا عبد اللهَّ، كان أوّل مولود في الإسلام من الأنصار بعد الهجرة بأربعة عشر شهرا، وروى عن النّبي ﷺ، وعن خالد بن عبد اللهَّ بن رواحة، وعمر وعائشة. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (٦/ ٣٤٦) رقم(٨٧٤٩)].

**بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى»**[1]، فإذا حصل الخلل في جانب من هذا المجتمع انعكس على سائر جوانبه الأخرى، تماما كما لو مرض أحد أعضاء الجسد فتأثرت سائر الأعضاء في أدائها ووظائفها. وعن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِن جُحْرٍ مَرَّتَيْنِ»**[2]، وقد رُوي عن بعض الصحابة أنه حفظ عن النبي ﷺ ألف مثل[3]. وعن جابر بن عبد الله[4] ﷺ قال: قال النبي ﷺ: **«مَثَلِي، وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ كَرَجُلٍ بَنَى دَارًا، فَأَكْمَلَهَا وَأَحْسَنَهَا إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ**

---

(١) النيسابوري، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري، **صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر)**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي (٤/ ١٩٩٩) رقم الحديث: (٦٦ - ٢٥٨٦)، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.ن.

(٢) **صحيح البخاري** (٨/ ٣١) رقم (٦١٣٣)، **وصحيح مسلم** (٤/ ٢٢٩٥) رقم (٢٩٩٨).

(٣) الرامهرمزي، الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الفارسي، **أمثال الحديث المروية عن النبي ﷺ**، تحقيق عبد العلي الأعظمي (ص٦)، الدار السلفية، الهند، ط١ ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

(٤) هو جابر بن عبد الله بن عمرو بن حرام بن كعب، وهما من بني سلمة بن الخزرج، ممن شهد العقبة وهو غلام شاب مع أبيه، بدري نقيب شهدا جميعا أحدا، وعنه ﷺ قال: غزا رسول الله ﷺ إحدى وعشرين غزوة شهدت تسع عشرة. [البغوي، عبد الله بن محمد أبو القاسم البغوي، **معجم الصحابة**، تحقيق محمد الأمين الشنقيطي، (١/ ٤٣٨)، مكتبة دار البيان، الكويت، ط١ (١٤٢١/ ٢٠٠٠)].

**يَدْخُلُونَهَا وَيَتَعَجَّبُونَ وَيَقُولُونَ: لَوْلاَ مَوْضِعُ اللَّبِنَةِ»**[١]. يحمل هذا الحديث مَثَلَ نبوّته ﷺ، وأنه خاتم الأنبياء، وبه تتم حجة الله على خلقه، وفضل رسالته، وبيان دورها وأثرها على البشرية جمعاء منذ بدء الخليقة إلى يوم الدين، مثل ذلك بالبنيان العظيم لكنه ناقص الجمال والكمال، فأكمل الله به دين الإسلام ليشتد ويشدّ بعضُه بعضاً. وعن أبي مسعودٍ عُقْبَةَ بْنِ عَمْرٍو الأنصاري[٢] قال: قال النبي ﷺ: **«إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلاَمِ النُّبُوَّةِ، إِذَا لَمْ تَسْتَحْيِي فَافْعَلْ مَا شِئْتَ»**[٣]. ومعناه: إذا لم تستح من العتب ولم تخش العار، فافعل ما تحدثك به نفسك حسنا كان أو قبيحا، ولفظه أمر ومعناه توبيخ ووعيد، أي إفعل ما شئت تُجازى به[٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«السَّفَرُ قِطْعَةٌ مِنَ العَذَابِ، يَمْنَعُ**

---

(١) **صحيح البخاري** (٤/ ١٨٦) رقم (٣٥٣٤)، **وصحيح مسلم** (٤/ ١٧٩١) رقم (٢٠ - ٢٢٨٦).

(٢) هو عُقبة بن عمرو بن ثعلبة بن الخزرج الأنصاري مشهور بكنيته أبي مسعود البدري، قال الأكثر: شهد العقبة ولم يشهد بدرا ولكن نزلها فنسب إليها. وجزم البخاري بأنه شهدها، كان من أصحاب عليّ، واستخلف على الكوفة ومات فيها سنة أربعين. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (٤/ ٤٣٢) رقم (٥٦٢٢)].

(٣) **صحيح البخاري** (٤/ ١٧٧) رقم (٣٤٨٣).

(٤) الأصبهاني، عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان الأصبهاني، **الأمثال في الحديث النبوي**، تحقيق: عبد العلي حامد (ص٧٢)، الدار السلفية، بومباي - الهند، ط١، (١٤٠٢/ ١٩٨٧).

**أَحَدَكُمْ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ وَنَوْمَهُ، فَإِذَا قَضَى نَهْمَتَهُ، فَلْيُعَجِّلْ إِلَى أَهْلِهِ»**[(١)]، فالمراد هنا مشاق السفر، شبه ذلك بالعذاب، بسبب ما يمنع المسافر من كمال المعيشة ولذتها؛ لما فيه من المشقة والتعب ومقاساة الحر والبرد، والخوف، ومفارقة الأهل والأوطان.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مسعود رضي الله عنه[(٢)]، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رَاكِبٍ قَالَ فِي ظِلِّ شَجَرَةٍ فِي يَوْمٍ صَائِفٍ، ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»**[(٣)].

وعلى الرغم من اللفظ القليل في ظاهر هذا الحديث، إلا أن فيه معاني كثيرة وغزيرة، تغني عن الشرح الطويل والبيان والتفصيل عن حال الدنيا وأحوالها،

---

(١) **صحيح البخاري** (٣/ ٨) رقم (١٨٠٤)، **وصحيح مسلم** (٣/ ١٥٢٦) رقم (١٧٩ - ١٩٢٧).

(٢) هو عبد الله بن مسعود بن الحارث بن مخزوم بن تميم من ولد هذيل، شهد بدرا مع رسول الله ﷺ، ويكنى أبا عبد الرحمن، وكناه الرسول ﷺ ابن أم عبد، وكان على القضاء وبيت المال بالكوفة عاملا لعمر، آخا الرسول ﷺ بينه وبين الزبير، وقال: لقد رأيتني سادس ستة وما على الأرض مسلم غيرنا. [**معجم الصحابة**(٣/ ٤٦١)].

(٣) الطياليسي، أبو داود سليمان بن داود بن الجارود، **مسند أبي داود الطيالسي**، تحقيق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، (١/ ٢٢١) رقم (٢٧٥)، دار هجر، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ - ١٩٩٩ م، و**مسند أحمد** (٧/ ٢٥٩) رقم (٤٢٠٨)، **ضعيف الترغيب والترهيب**، محمد ناصر الدين الألباني، حديث ضعيف رقم (١٨١٢)، الرياض، مكتبة المعارف، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

كتب فيه الفقهاء والمؤرخون وفلاسفة الكتاب من العرب والعجم، وقد أغنى ما في هذا الحديث من عبرة وعظة، عن الحديث بأي حديث[١]!

## الإيمان بالله

الإِيمَانُ بِالله هُوَ إِثْبَاتُهُ والتّصْديقُ بِهِ وَالِاعْتِرَافُ بِوُجُودِهِ، والْقَبُولُ عَنْهُ وَالطَّاعَةُ لَهُ، وَالْإِيمَانُ بِالنَّبِيِّ ﷺ هُوَ إِثْبَاتُهُ وَالِاعْتِرَافُ بِنُبُوَّتِهِ والتّصْديقُ بها، واتِّبَاعه وَمُوافَقَته وَالطَّاعَة لَهُ[٢].

قال تعالى: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّا ۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَـٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَـٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ ۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَـٰلِكُمْ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾﴾[٣]. فالإيمان الحقيقي هو الذي يجب أن يؤثّر على الإنسان ويغيّر صفاته ومبادئه ليصنع إنسانا جديدا يؤمن بالعطاء لا بالتملك وفق المصالح، فإذا آمن الإنسان بالله انقلبت حياته، وتغلغل الإيمان في سلوكه ومشاعره، وجرى منه مجرى الروح والدم، واقتلع جراثيم الأفكار الجاهلية من جذورها،

---

(١) الرامهرمزي، **أمثال الحديث**، (ص٧).

(٢) البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، **شعب الإيمان**، تحقيق: عبد العلي حامد، ومختار أحمد الندوي (١/ ٩٠)، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

(٣) [الحجرات: ١٤].

وجعل منه رجلا غير الرجل، وظهرت فيه روائع الإيمان واليقين والصبر والشجاعة ما حيّر العقل والفلسفة وتاريخ الأخلاق، ولا يزال مبعث حيرة ودهشة إلى الأبد، وعجز العلم عن تعليله بشيء غير صفة الإيمان الكامل[١]!!

## هويةُ الكافر نقائضُ أخلاقية

أما الكفر فهو إعراض عن الخالق ينتج عنه إساءة إلى المخلوق، فالمؤمن يبني حياته بالعطاء مما ينتج عنه الإحسان للمخلوق، والكافر يبني حياته بالأخذ والسلب ولو نتج عن ذلك الإساءة للمخلوق، فهوية المؤمن قيمٌ أخلاقية وهوية الكافر نقائضُ أخلاقية، ولا بد للمؤمن من أن يُوضع في خيار صعب لأجل أن يُضحّي ببعض رغباته من أجل الجنة. وسوف يأتي الكلام على دور المثل عند الشيخ النابلسي في توضيح الأمور العقدية في المطالب العشرة الآتية:

## الإيمان بالله هو الاتجاه الصحيح للبشر

يقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾[٢]، فالإيمان بالله وحده لا شريك له، هو الاتجاه الصحيح والعنوان الواحد والهدف الأسمى للبشر جميعا، وإن مات العبد على غير ذلك

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٥/ ٣١٦٣)، دار الشروق – بيروت – القاهرة، ط(١٧)، ١٤١٢ هـ.

(٢) [آل عمران: ٨٥].

يُحرم من رحمة الله، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾(١). وعن أبي ذر(٢) رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال له: «**مَا مِنْ عَبْدٍ قَالَ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ ثُمَّ مَاتَ عَلَى ذَلِكَ إِلَّا دَخَلَ الجَنَّةَ**»، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «**وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ**»، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «**وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ**»، قُلْتُ: وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ؟ قَالَ: «**وَإِنْ زَنَى وَإِنْ سَرَقَ، عَلَى رَغْمِ أَنْفِ أَبِي ذَرٍّ**»(٣).

## حسرة وندم حيث لا ينفع الندم!!

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح، ذا دلالة كبيرة وجلية لبيان معنى الشرك، وخطورته الشديدة على مصير الإنسان ومستقبله، يقول:

**المثل رقم (١): قد يتجه إنسان إلى مدينة له فيها مبلغ كبير جدا من المال، وقد يرتكب في الطريق إليها آلاف الأخطاء والمخالفات، لكنه يصل في النهاية ويأخذ المبلغ، أما**

---

(١) [النساء: ٤٨].

(٢) جندب بن جنادة بن سكن، أبو ذرّ الغفاريّ، الصحابي الزاهد المشهور الصادق اللهجة. كان من السابقين إلى الإسلام، حيث رماه الناس وقتئذٍ وعذّبوه، فاختبأ بين الكعبة وبين أستارها خمس عشرة يوما ما له من طعام ولا شراب إلا ماء زمزم. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (٧/ ١٠٥) رقم (٩٨٧٧)].

(٣) **صحيح البخاري** (٧/ ١٤٩) رقم (٥٨٢٧)، **وصحيح مسلم** (١/ ٩٥) رقم (١٥٤ - ٩٤).

**الخسارة الكبيرة والخطأ الذي لا يُغتفر هو أن يسير إلى المدينة باتجاه معاكس[١]!**

على الاغلب، يَحكي هذا المثل قصة موظف حكومي أنهى فترة الخدمة بعد مضي ستين عاما من عمره، وعليه أن يتجه في موعد محدد إلى مكان محدّد في مدينة تقع جنوب البلاد لصرف مبلغ عظيم (مكافأة)، وقد اختار طريقا باتجاه الشمال حيث السهولة والانبساط والشهوات، ورفض الاستجابة لأهل الرأي والعقل ممن أشاروا عليه بالاتجاه الصحيح!! وبعد أن وصل الرجل في الوقت المحدد لم يجد شيئا وصار أضحوكة، وقد خسر ستين عاما من العمل الشاق والجهد المتواصل، مع أن هذه الفرصة في حياة هذا الرجل تأتي لمرة واحدة ولا تعوّض، فالخسارة عظيمة، حسرة وندم حيث لا ينفع الندم!! حيث يقول الله تعالى في حق هؤلاء: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣﴾[٢]، ولو أنه سار بالاتجاه الصحيح لوصل في الوقت المحدد واستلم المبلغ، ولو تعرض في طريقه إلى حوادث أو ارتكب مخالفات سير.

## مسئولية تقرّر مصير الإنسان

ويستفاد من هذا المثل: أن مفهوم حرية الاختيار (افعل ما تشاء) التي وهبها الله

---

(١) النابلسي، محمد راتب، **تفسير القرآن الكريم، دروس ومحاضرات صوتية منشورة**، سورة البقرة، درس (١٠)، وآل عمران درس (١).

(٢) [الفرقان: ٢٣].

للإنسان ليست مسئولية تشريف بل هي مسئولية تكليف يُحاسب عليها ويدفع الثمن إذا انحرف عن طريق الصواب، وهي مسئولية خطيرة تقرر مصير الإنسان إما إلى روضة من رياض الجنة أو إلى حفرة من حفر النيران، وهذا الأمر الاختياري يدخل فيه جانب التوحيد، فقد يختار الإنسان في دنياه، ولا فرصة له بعدها في الاختيار أبدا.

## أخطر النتائج

وفيه بيان عام لحدود المغفرة الواسعة التي يرجوها البعض، وأن قول (لا إله إلا الله)، أساس الأعمال الشرعية التي يجب أن ينضبط بها المسلم قولا وعملا، وأن الشرك بالله، بالأقوال أو الأفعال أو النيات، أعظم الخطايا والآثام ينتج عنه أخطر النتائج، كإنكار البعث والحساب والجزاء وهو الأرض الخصبة لارتكاب الجريمة.

## خيانة عظمى

أن إشراك غير الله بالله خيانة عقائدية عظمى، وقد أُخذ هذا المصطلح من القوانين الوضعية التي أقرت ذلك بقصد أو غير قصد!! فأصل الإيمان أن يقرّ البشر بأن الله واحد لا شريك له ليدخلوا بذلك حصن الأمان[1]. عن الحارث

---

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٤/ ٢٢٩٩).

الأشعري[١] أن نبيَّ اللهّ ﷺ قال: «**إن اللهّ ﷻ أمَرَ يَحْيى بنَ زكريّا عليه السلام بخَمْسِ كلماتٍ أنْ يَعْملَ بِهِنّ وأنْ يأمرَ بَني إسرائيلَ أنْ يَعْملوا بِهنّ، أوّلُهُنّ: أنْ تعبُدُوا اللهّ ولا تُشركوا بِهِ شيْئاً فإنّ مِثلَ ذلكَ كمَثلِ رجُلٍ اشترى عَبْداً مِنْ خالصِ مالِهِ بِوَرَقٍ أوْ ذهبٍ فجعلَ يَعملُ ويؤدّي غلّتهُ إلى غيرِ سَيّدِهِ، فأيّكُمْ يَسُرّهُ أنْ يكونَ عَبْدُهُ كذلكَ؟ وإنّ اللهّ خلقكمْ وَرَزقكم فاعْبُدوهُ ولا تشركوا بِهِ شيْئاً!**»[٢].

فالإشراك بالله ظلم للنفس، تظهر فيه تعدّد آلهة البشر في البشر، ويشقى الإنسان من كثرة الخضوع لكل من كان قويا، وقد أعفى الله الإنسان من هذا وأمره أن يخضع ويعمل لواحد فقط، وفي ذلك راحة للمؤمن[٣].

---

(١) هو الحارث بن الحارث الأشعريّ الشاميّ، صحابيّ، تفرّد بالرواية عنه أبو سلام، يُكنى أبا مالك، وقد خلطه غير واحد بأبي مالك الأشعري المعروف، وهو عمرو بن الحارث الّذي روى عنه عبد الرحمن بن غنم حديث المعازف وكل واحد منهما يختلف مع الآخر في اسمه وتاريخ الوفاة. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (١/ ٦٦١) (رقم ١٣٨٩)].

(٢) ابن خزيمة، أبو بكر محمد بن إسحاق السلمي (المتوفى: ٣١١هـ)، **صحيح ابن خزيمة**، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، كتاب الصيام حديث رقم: (١٨٩٥– ١٧٧٨)، المكتب الإسلامي، بيروت، (د.ت.ن)، قال محققه د. مصطفى الأعظمي: إسناده صحيح.

(٣) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (١/ ٤٨٣).

## الشرك بالله يورث الرعب

فالشرك بالله تعالى يورث الرعب في نفس الإنسان ويخيّب ظنه بالذي عبده، يقول الله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ﴾[1].

والرعب أمر معنوي وهو التخوف من كل شيء، وكأن الله تعالى يقول: أنا سأجمع الرعب وأضعه في قلب الكافر، ويبقى به ليصنع الخوف والخذلان، وفي لفظ ﴿سَنُلْقِي﴾ وردت (نون العظمة) وتعني: سننزل هذا الرعب بقدرة وسننزله بحكمة، لأن الإشراك بالله هو الذي جاء لهم بهذا الرعب فلماذا لم يأتوا بشركائهم لينصروهم[2]؟

## الإنسان يعبد من يقدر أن يحميه

أما الشيخ النابلسي، فهو يضرب مثالا رائعا وبسيطا للتوضيح، يظهر فيه حال الاضطراب والقلق الذي يصيب الإنسان إذا أشرك بالله واعتمد على غيره، فيقول:

**المثل رقم (٢): فإذا اعتمد المشرك على ماله يسوق الله له مصيبة لا يحلها المال، وإذا اعتمد على قريب قويّ يُلهم الله هذا القريب بالتخلي عنه، وإذا اعتمد على**

---

(١) [آل عمران: ١٥١].

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٣/ ١٨١٤).

**زوجة وظنّ بأنها تسعده فإنها تعامله أسوأ معاملة، وإذا اعتمد على ابنه فإنه يسافر ويتجنّس، وقد يتزوج وينسى أباه ولا يرسل رسالة...**"[١].

ودليل هذا كله قول الله تعالى: ﴿فَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَكُونَ مِنَ ٱلْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾﴾[٢]، فحقيقة العبادة، أن يعبد الإنسان من يقدر أن يحميه، ولا ينخلع قلبه لتهديد من لا يقوى على نفع نفسه ولا ضرّها؟! وأن يكون مطمئنا بأن الأشياء والحوادث لا تقع إلا عند إرادة الله تعالى لا عند خواصّ المواد، فكل قوةً فاعلة لا تفعل شيئاً إلا إذا أراد الله لها ذلك، ولا يليق بالله ﷻ أن يقع في ملكه ما لا يريد، فالنار لا تحرق بذاتها إلا إذا أراد الله لها أن تحرق، والأفعى لا تلدغ بذاتها إلا إذا أراد الله لها أن تلدغ.

## لا يندم على ما فات ولا يخشى مما هو آت

أضف إلى ما سبق، نعمتا الأمن والطمأنينة في الدنيا والآخرة، هما الجزاء والأجر العظيم للمؤمن إذا اتبع تعاليم ربه ونهج نهجه وأقام على أمره، يقول الله ﷻ: ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾[٣]، أي: لا يضلّ في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، وقيل: لا يضلّ عقله ولا تشقى نفسه، ولا يندم

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٥).

(٢) [الشعراء: ٢١٣].

(٣) [البقرة: ٣٨].

على ما فات ولا يخشى مما هو آت[١]، فلا خوف عليهم مما هم مقبلون عليه ولا هم يحزنون على مفارقة ماض مليء بالحرمان والتكاليف الربانية، وقد نجحوا في هذا الامتحان لأنهم قادمون من دنيا حقيرة، مقبلون إلى مستقبل ينتظرونه سنين وسنين في شوق وحنين؟ ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٣): إنسان يسكن في حيّ فقير ومتواضع جداً، وفي بيت صغير تحت الأرض، مساحته ثمانون متراً، عنده ثمانية أولاد، فإذا انتقل إلى بيت مساحته أربعمائة متر له إطلالة جميلة جداً، هل يجد أهلُه تعبا ومشقة أثناء نقل الأثاث؟ هل هناك انقباض؟ هل هناك ضيق[٢]؟**

## لا علاقة للقلق مع ما يجري!

يقول الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾[٣]، فقد يخلق الله أمناً في قلب المؤمن في ظرف يدعو للقلق وهو لا يدري، وقد يخلق الله قلقا في قلب المؤمن في ظرف يدعو للأمن وهو لا يدري، والكل بيد الله تعالى، والحقيقة أن لا علاقة للأمن أو القلق مع ما يجري في أرض الواقع. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

---

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (١/ ٢٤٠).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٠).

(٣) [الرعد: ٢٨].

**المثل رقم (٤): فقد تسافر إلى بلد في وقت مبكر والعجلة الاحتياطية معطوبة، تسير ساعتين وأنت في أشد حالات القلق، لأنه لو عطبت عجلة أخرى لكانت مشكلة، فكيف لو أن ابنك أصلح هذه العجلة المعطوبة وأنت لا تدري، والعكس صحيح، كيف لو أن العجلة كانت معطوبة وأنت لا تدري، فالأمر يدعو للقلق الشديد وأنت في راحة كبيرة**[١].

فالمنهج السليم الآمن هو أن يستغلّ الإنسان دنياه من أجل آخرته، فإذا عمّر الإنسان آخرته أمِنَ واطمأنّ فلا يخاف الموت، وإذا حسّن حياته في الدنيا وهو على معصية الله، اضطرب من أي حادث وقلق من أي مكروه، وفرّ من الموت فرار الأرنب من الأسد، كما هو حال الشعوب في بلاد الغرب، فقد عمّروا الدنيا حتى صيّروها جنة، فكيف يتركونها إلى سؤال القبر؟ هذا خوف وقلق واضطراب، وموت يسبق الموت!!

## حينما يُجبَر الإنسان على عمل تسقطت قيمته

والمنهج في الإسلام، أن الإكراه في الدين يُلغي الطمأنينة النابعة منه، يقول الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾[٢]، فحينما يُجبَر الإنسان على عمل ما فإنه تسقطت قيمته، وحينما يقوم به اختياراً وطواعيةً تنضج ثماره وتعظم قيمتُه. ويضرب

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٤٤).

(٢) [البقرة: ٢٥٦].

الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٥): لو أمسك شخصٌ حاجة ثمينة بيده، وهاجمه آخر معه مسدس فأعطاه إياها، فهل يشعر أنه قدَّم هديةً أو عملا صالحاً[١]؟!**

بل يشعر بأنّه مقهور ويمتلئ غيظاً!! أما لو جاء إلى إنسان وقدَّم له هديةً، فكلما التقى به استبشر وتألق وجهه، لأنه فعل معه معروفاً عن طيب نفس وعن طيب خاطر.

## الإيمان ترقية المؤمن من السفه

يقول الله ﷻ: ﴿وَمَن يَرۡغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبۡرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفۡسَهُۥۚ﴾[٢].

السَّفَاهَةَ: هِيَ سخافة العقول عند بعض الناس، مع كونهم لا يعلمون أَنَّهُمْ كَذَلِكَ إِمَّا حَقِيقَةً أَوْ مَجَازًا، تَنْزِيلًا لِإِصْرَارِهِمْ عَلَى السَّفَهِ مَنْزِلَةَ عَدَمِ الْعِلْمِ بِكَوْنِهِمْ عَلَيْهِ، وَأَنَّهُمْ مُتَّصِفُونَ بِهِ، وَلَمَّا ذَكَرَ اللهُ هُنَا السَّفَهَ نَاسَبَهُ نَفْيُ الْعِلْمِ عَنْهُمْ لِأَنَّهُ لَا يَتَسَافَهُ إِلَّا جَاهِلٌ[٣]، يقول الإمام الشافعي[٤]

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨٥).

(٢) [البقرة: ١٣٠].

(٣) الشوكاني، محمد بن علي اليمني (المتوفى: ١٢٥٠هـ)، **فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير** (ص ١/ ٥١)، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.

(٤) هو الإِمَامُ مُحَمَّدُ بنُ إِدْرِيْسَ بنِ العَبَّاسِ المُطَّلِبيُّ الشَّافِعِيُّ المَكِّيُّ (١٥٠-٢٠٤هـ). ولد في غزة في فلسطين، ونَشَأَ يَتِيْماً فِي حجرِ أُمِّهِ التي تَحَوَّلَتْ بِهِ إِلَى مَكَّةَ، وهو صاحب

يُخاطبني السّفيهُ بكلّ قبحٍ فأكرهُ أنْ أكونَ لهُ مُجيبًا
يزيدُ سفاهةً فأزيدُ حلمًا كعودٍ زادهُ الإحراقُ طيبًا[1]

وقال رحمه الله:

إذا نطق السفيه فلا تُجِبْهُ فخيرٌ من إجابته السكوتُ
فإنْ كلّمْته فرّجت عنه وإن خلّيته كَمدًا يموتُ[2]

فالإيمان بالله وعبادته ترقية المؤمن، وتقوية صلة الخالق بالخلق، وقد جاءت الآيات مقرونة بين أمر العبادة وخلق السماوات والأرض وقوة المؤمن، أما الشرك يعني أن يحتقر الإنسان نفسه لأنه جهل سبب وجوده، فالشرك مقرون بالضعف والسّفه وتحقير النفس الإنسانية،

## إذا احتقر الدين فإنه يحتقر نفسه

يقول الشيخ النابلسي في بيان هذا المعنى: فإذا رفض الإنسان المنزل أو التجارة، وعافهما واحتقرهما فهو احتقار القوي للضعيف، وهو أمر عادي، أما إذا احتقر الدين فهذا عكس الأول لأنه يحتقر نفسه[3]، كما يبين الشيخ النابلسي في هذا المثل:

---

المذهب الشافعي ومؤسس علم أصول الفقه الإسلامي، أفتى في الناس وَهُوَ ابْنُ خَمْسَ عَشْرَةَ سَنَةً. [الذهبي، **سير أعلام النبلاء** (٨/ ٢٣٦) رقم(١٥٣٨)].

(١) الشافعي، ديوان الإمام الشافعي (ص٢١).

(٢) المصدر نفسه (ص٣٥).

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤٥).

**المثل رقم (٦): إذا عرضوا على شاب دراسة جامعيَّة عُليا تنتهي بشهادة محترمة ومنصب هام، ولكنه اختار أن يشتغل في جمع القمامة من الطرقات!!**[١].

فإذا رفض شاب دخول الجامعة مع أنه يمتلك إمكانات ذلك واختار جمع العمل في جمع النفايات، فهو كمن يجهل نفسه أنها مخلوقة للعمل الجاد والشرف العظيم فيلجأ للعمل الدوني، كمن يتملّص من ولائه لله تعالى وفي هذا شرف عظيم، فيلجأ للشهوات والمعاصي والطرقات ثم إلى السجون، معنى هذا أنه احتقر نفسه. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر للتوضيح، فيقول:

**المثل رقم (٧): إذا خيّروا إنسانا بين وعاء من فخار كبير الحجم، ثمنه عشرون ليرة، وجوهرة صغيرة ثمنها مائة وخمسون مليون دولار، فاختار وعاء الفخار!! هذا جاهل ومحتقر لذاته**[٢].

## المؤمن محسوبٌ على اللّه

سُئل الشيخ الشعراوي وهو في لندن: كيف وصلت إلى المكانة التي حباك الله بها؟ فقال: "لأنني محسوب على الله"[٣]، فالذي حمل وعاء الفخار وترك الجوهرة

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤٥).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) النابلسي، **كلمات مضيئة ولقاءات مثمرة مع الشعراوي**، الرابط: [nabulsi1/13books/kalimamodea/intro.php].

كالذي سفه نفسه وأدار ظهرا للعبادة والإيمان، واحتقر نفسه في البحث عن شهوات المال والنساء، واختار الانحراف عن منهج الله إلى مخالفة القانون، والتهرب من رجال الشرطة والتشرّد والضياع، وهو جاهل في حق نفسه ظالم لها ومحتقر لذاته، وقد أحالها مختارا وطائعا لأداة بيد جهةٍ منحرفةٍ توقع الأذى بنفسه والناس. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لبيان ذلك فيقول:

**المثل رقم (٨): إذا رأينا إنسانا يحرق مليون دولار في مدفأة فإنه بلا شك سفيه، وإذا رأينا إنسانا آخر يضيّع وقته ساعاتٍ كثيرة على المسلسلات ومتابعة الأفلام والألعاب الرياضية ولعب النَرد أو حديثٍ فارغٍ طوال الليل فهو أشدّ سفاهة[1]!!**

ليس عاقلا، الرجل الذي يحرق ماله بيديه أمام عينيه عن طيب خاطر، لا شك بأنه سفيه كائنا من كان!!

## أيهما أكثر قيمة وثمن الوقت أم المال؟

ولكن ما علاقة الذي يضيّع وقته بالسفاهة؟؟ هل الوقت له قيمة وثمن كالمال؟ يقول الشيخ النابلسي في مثل جميل لتوضيح هذا المعنى:

**المثل رقم (٩): الذي يُصاب بمرضٍ خطير، فإنه قد يبيع بيته وكل ما يملك من**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤٨).

**أجل أن يطيل الأطباء في عمره أياما[١]!!**

فهو كمن يشتري الساعات والأيام بأغلى ثمن، معنى ذلك أن الوقت أثمن من المال، فالذي يُبدّد المال يُتَّهم بالسّفه، والذي يبدّد الوقت هو أشدّ سفاهةً، والرجل السياسي الكاذب سفيه يصفق له السفهاء، أضاع وقته وماله ودنياه وهو يمتطي منابر الخطابة، يظن نفسه مصلحا اجتماعيا أو سياسيا، أو يدلي تصريحا على الشاشات ويُمضي وقته الطويل بالتمثيل والكذب، يقول الشيخ النابلسي:

**المثل رقم (١٠): لو سافر شاب إلى بلد أجنبي لكي يحصل على شهادة الدكتوراه على أن يعود إلى بلدة ليتقلد أعلى منصب، فنسي مهمته الأساسية وتسكع في الطرقات واندسّ في الملاهي، ألا يُعدّ هذا سفيها[٢]؟**

فالرجل السياسي المنافق سفيه، نسي مهمته في هذه الحياة القصيرة، وهو لا يدري بأنه يخسر نفسه يوما بعد يوم، حاله كحال هذا الشاب تماما.

## الإيمان يرشد إلى سرّ وجود الإنسان

الإيمان بالله وحده يرشد الإنسان إلى سر وجوده على الأرض، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ٢١﴾[٣].

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤٨).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٧).

(٣) [البقرة: ٢١].

فقد تتحرك ملايين البشر كل يوم، يعملون أعمالا مختلفة من كسب الأموال وتحقيق الغايات وممارسة الشهوات، ولا يعلم أحدهم لماذا خلقه الله!! ومن أجل ذلك يضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح، يرشد فيه الإنسان إلى البحث عن سر وجوده في هذه الدنيا، فيقول:

**المثل رقم (١١): إذا ذهبت إلى بلد بعيد ونزلت في أحد الفنادق، وفي الصباح تناولت الفطور ولبست ثيابك، بعدها قد تسأل نفسك: إلى أين سأذهب؟ لماذا جئت إلى هذا البلد؟ ما سرّ وجودي هنا؟**[١]

فإذا كان الهدف من هذا السفر هو التجارة وكسب المال فالطريق إلى المصانع والمؤسسات، وإذا كان الهدف هو السياحة فالطريق إلى المطاعم والأسواق، وإذا كانت الغاية طلب العلم فالطريق نحو الجامعات، فالإنسان إذا عرف موقعه وموقع الهدف الذي يسير إليه فهذه نعمة عظيمة، وإذا كان لا يعرف فالأمر سهل، لأن ربّه الذي خلقه وهو الخبير العليم، يخبره ويقول له: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾[٢]، ويقول تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾[٣].

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٩).

(٢) [الذاريات: ٥٦].

(٣) [مريم: ٦٥].

## الهدف الأسمى لوجود الإنسان على الأرض

هذا أمرٌ من الله تعالى للإنسان بأن يتجه لّه وحده بالعبادة وعمارة الأرض كما أمر، وهذا هو الهدف الأسمى لوجود الإنسان على الأرض، ليحسّ أنه أقوى المخلوقات لأنه موصول بخالقها، وهذا كله مصدر قوة للضمير، كما أنه مصدر حذر وتقوى، وعامل من عوامل تربية الشخصية، ويضرب الشيخ النابلسي مثلا رائعا للتقريب، يبرز فيه أهمية تحديد هدف واضح، لا بد أن يسعى إليه الإنسان في هذه الدنيا ليستقيم وينجو، فيقول:

**المثل رقم (١٢): قد يسافر طالب للدراسة إلى بلد أجنبي للحصول على شهادة الدكتوراه، من المفروض أن يقصد هدفا واحدا وهو الجامعات والمكتبات، أما إذا دُهش هناك بالحريّات والشهوات، وضلّ عن هدفه الحقيقي، وأمضى يوما في مسرح، ويوما في سينما، ويوما مع الأصدقاء والصديقات، ولم ينتسب إلى جامعة، فقد أخفق وفشل، وضلّ عن الطريق وأخطأ؛ لأنه ما عرف سرّ وجوده هناك[١]!!**

## الشرك ليس معناه أن تعبد إلها صنما

فالإغراءات وطرق الضلال تَحرِفُ الإنسان عن سر وجوده على الأرض، وهو إرضاء الله وعبادته، والشرك هو أن ترى مع الله أحدا، وليس معناه أن تعبد إلها

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٩).

صنما، أمّا أن تخضع لإنسان تطيعه فقد جعلته إلها، يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ﴾ (١). إن الإيمان بالله هو نقطة التحول في حياة البشرية من العبودية لشتى القوى وشتى الأشياء وشتى الاعتبارات، إلى عبودية واحدة لله تتحرر بها النفس الإنسانية من كل عبودية، وترتفع بها إلى مقام المساواة مع سائر النفوس في الصف الواحد أمام المعبود الواحد، ثم ترتفع بها فوق كل شيء وكل اعتبار.

## يترك الإنسان أهواءه ويبحث عن الحقيقة

فالمنهج الرباني الحقّ أن يترك الإنسان أهواءه ويجتهد ويبحث عن الحقيقة، من أجل أن يتقرب إلى ربه وينال بها رضاه، وتقصر الطريق على الإنسان حينما يعلم ببساطة أن الحقيقة في ميزان الله تعالى هي الإسلام، يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُۗ﴾(٢). وفي قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَلۡبِسُواْ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ﴾(٣). قال المفسرون: الحق هو الإسلام، والباطل غيره من الأديان والعقائد(٤)، ويقول ﷻ:

---

(١) [البقرة: ١٧٠].

(٢) [آل عمران: ١٩].

(٣) [البقرة: ٤٢].

(٤) الطبري، **جامع البيان** (١/ ٥٦٨)، أيضا: ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي (المتوفى: ٣٢٧هـ). **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: أسعد

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾[1]. فقول البعض هذا حلال وهذا حرام حين يقولونها بلا دليل أو نص فهو الكذب بعينه الذي يفترونه على اللهّ، ليقودوا بها الأتباع الجهلة ويحققوا بها الأطماع الكثيرة، وليتّجروا بها في سوق الأفكار المنحرفة، فتاوى كثيرة وخطيرة تُشترى منهم وتباع لغيرهم، تصل إلى حدّ ارتواء النفوس وإشباع الشهوات! ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (١٣): حينما يريد إنسان أن يبيع بيته، ورأى أمامه دلالاً، وقال له: ثمنه ثلاثة ملايين، هل يبيعه على الفور؟ لا، إنما يسأل دلالاً ثانياً وثالثاً ورابعاً وخامساً[2]!!**

## إذا راقت له فتوى لا يسأل أحداً آخر!

أما إذا راقت له فتوى شرعية يقرأها في مجلة وتتفق مع مصالحه فإنه لا يسأل أحداً آخر، فبعض الناس يكتفي بفتوى من عالمٍ واحد، ينتقيه وفق هواه وعلى مزاجه، يقول: يوجد معي فتوى قرأتها في مقالة أو مجلَّة أو سمعتها في إحدى

---

محمد الطيب (١/ ٩٨)، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة،١٤١٩هـ.

(١) [النحل: ١١٦].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣١).

الفضائيات ويقسم بالله على ذلك!! وكأن الحديث في الدين والجرأة على الشرع والتوقيع عن الله تعالى في الأرض بغير علم صار مباحا لكل الناس، يقول أحد علماء السلف في توضيح هذه الفكرة: **(إذا كنت تاجرا لا تكتفي بسؤال المختص بذلك سؤالا عارضا ومجملا، وإنما تدقق وتحاسب، وتقارب وتسأل أكثر من واحد، لِمَ في أمور الدين تتهاون وتتساهل، هل أمر دينك أهون عليك من أمر دنياك، إنك إن كنت كذلك فما أخسرك وما أضلك!!)** [1]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر للتقريب:

**المثل رقم (١٤): من يجرؤ أن يكتب على بيته الدكتور فلان اختصاصي في أمراض القلب وهو جاهل لا يقرأ ولا يكتب، من يجرؤ أن يكتب المهندس فلان أو المحامي فلان وهو أمّيّ [2]؟**

من الملاحظ أنَّ كثيراً من الناس يجرؤون على التحدث في أحكام الفقه والإفتاء من دون أن يطلبوا العلم أو يعرف أصول العقائد وأصول الدين، أو من دون أن يفهم القرآن أو يقرأه!!

---

(١) عباسي، الشيخ عيد، **الدعوة السلفية** (ص٢٣) الإسكندرية، دار الإيمان،٢٠٠٢م.

(٢) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (١٩).

## معنى ﴿ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾

الإيمان بالله يعني: أن الله أعظم من كل شيء، وأكبر من كل شيء، وليس كمثله شيء، يقول الله تعالى: ﴿وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ﴾(١). وعبارة ﴿ٱللَّهِ أَكۡبَرُ﴾ تعني أن أوامر الله أعظم من أوامر التنظيمات السياسية أو الحزب الحاكم أو الزوجة، أو مدير العمل أو نظام العائلة والعشيرة، يقول الشيخ النابلسي للتوضيح والدلالة على هذا المعنى:

**المثل رقم (١٥): لو رسم أحدهم خارطة لسوريا ووضع العاصمة دمشق على الساحل وادعى أنه ذو ثقافة!! هذه غلطة كبيرة ولا فائدة من قوله وعلمه**(٢).

هذا المثل يجسّد صورة الإنسان الذي يقول كلمة واحدة فيُكشف منها أنه جاهل وأحمق، كالذي لا يعقل ما يسمع ولا يفهم ما يقول، فقد وصف الله ﷻ هؤلاء بقوله: ﴿كَمَثَلِ ٱلَّذِي يَنۡعِقُ بِمَا لَا يَسۡمَعُ إِلَّا دُعَآءٗ وَنِدَآءٗۚ﴾(٣)، هذا حال من يسمع قول **(الله أكبر)** ولا يتأثر أو يتعظ به، هم كالجمادات لا حياة فيها، فهم لا يعقلون شيئا ولا يفهمون!! وهذا تمثيل حال المسلمين حينما يسمعون نداء: **(الله أكبر)** ملايين المرات في العواصم والمدن والأحياء، والشعوب فيها تعبد الأنظمة وتقدس الشهوات!!!

---

(١) [العنكبوت: ٤٥].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٩).

(٣) [البقرة: ١٧١].

## يتصاغر هذا الإنسان حتى يكاد يذوب!!

فالسماوات والأرض معروضتان للإنسان، يراهما ليقيس نفسه بهما، وحينما يعلم حقيقة الأبعاد بالسنوات الضوئية، والأحجام والقوى الحقيقية التي استطاع علم البشر الضئيل أن يكشف عنها، يتصاغر هذا الإنسان ويتضاءل حتى يكاد يذوب!! فأين قوله: **(الله أكبر)** الذي يردده كل يوم، وقوله يخالف فعله وينكره، ويكشف عن جهل وحماقة فكره. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (١٦): إذا قال أحدهم أنه درس الطب، ثم قال إن كثرة الملح في الطعام تعالج الضغط في الجسم، هذا الإنسان جاهل لا فائدة من علمه ولا يفهم ما يقول، وليس عنده ثقافة طبية**[١].

فالبصير هو الذي يحسب قدرته وقيمته ويقيسهما بقدرة الله، فلا يتطاول ولا ينتفخ ولا يتعاظم، والأعمى الذي يخطئ تقدير نفسه وما يحيط به، ويتخبط هنا وهنالك من سوء التقدير، كحال من يسمع أو يردد **(الله أكبر)** مرات ومرات دونما فهم أو تقدير، لذا فإنه يتطاول ويتكبر وينتفخ[٢]!!

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٩).

(٢) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٥/ ٣٠٩٠).

## معنى العروة الوثقى

ومن هذا المعنى يُستنبط معنى العروة الوثقى وهي الإيمان بالله بأقوى سبب، قال الله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾[1]. جاء في التفاسير أن العروة الوثقى هي الإيمان، وقيل: الإسلام، وقيل: لا إله إلا الله[2].

وقال ابن كثير: أي استمسك من الدين بأقوى سبب، وشبّه ذلك بالعروة الوثقى التي لا تنفصم، فهي في نفسها مُحكمة مُبرمة قوية، وربْطها قويٌّ شديدٌ[3]، وهي رديف قول ﴿اللَّهِ أَكْبَرُ﴾؛ فكلتاهما تعني الرجوع إلى الله، والاعتماد عليه بالقول والفعل.

## حبل نجاة يستنجد به الضعفاء والتائهون

وإذا كانت {العروة الوثقى} هي الدين والإيمان بالله لا انفصام لها، فكأنها هذا الدين حبل نجاة يتدلّى ليستنجد به الضعفاء والتائهون من الناس. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لتوضيح هذا المعنى بجلاء فيقول:

**المثل رقم (١٧): أحياناً يُلقى لإنسانٍ حبلٌ متينٌ يمسك به فينجو، وأحياناً وفي**

---

(١) [البقرة: ٢٥٦].

(٢) الطبري، **جامع البيان** (٥/ ٤٢١).

(٣) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (١/ ٦٨٣).

**الحالات الصعبة، تأتيه طائرة هليكوبتر فتمدّ له حبلاً متينا، يمسك به فترفعه شيئاً فشيئاً لينجو"[١].**

## مثل آخر للتوضيح:

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً بسيطا آخر مختلفاً، استوحاه من صناعة بعض الشاحنات لبيان هذا المعنى وتوضيحه فيقول:

**المثل رقم (١٨): يوجد لبعض الشاحنات عروة في نهايتها من أجل أن تجَرَّ مقطورة، هذه العروة لها اختصاص نادر؛ وهي صناعة متميِّزة من أقوى وأمتن أنواع الفولاذ؛ لأن المقطورة تزن عشرين طنًا، ولو أن هذه العروة تفلَّتت لوقع حادث مخيف، فهذه عروة وثقى"[٢].**

## التقاء الشيخين بضرب الأمثال

يُلاحظ من قراءة هذين المثلين التقاء الشيخ النابلسي مع الشيخ الشعراوي في استخدام كلمة (الحبل المتين) للنجاة من الهلاك من خلال توضيحهما معنى (العروة الوثقى)، فالشيخ الشعراوي استخدم اللفظ والمعنى نفسه في هذا السياق، وكذلك التقاء الشيخين بضرب الأمثال لبيان هذا المعنى بصناعة المركبات

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨٥)، الشعراوي، **تفسير القرآن**، (١٩/ ١١٧٠٩).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨٥).

والأدوات المستخدمة فيها والمتميزة بالمتانة، ويلاحظ أيضا بأن درجة التقارب في صياغة هذه الأمثال بين الشيخين في الشكل والمضمون جلية وواضحة(١).

## الإيمان يقرر سلوك الإنسان ومصيره

الإيمان بالله يعني إيثار الآخرة على إغراءات الحياة الدنيا، وهذا التوجّه خطير وهام لأنه يقرر سلوك الإنسان ومصيره، فهو إما إلى الجنة وإما إلى النار، يقول تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلۡبَنِينَ وَٱلۡقَنَٰطِيرِ ٱلۡمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلۡفِضَّةِ وَٱلۡخَيۡلِ ٱلۡمُسَوَّمَةِ وَٱلۡأَنۡعَٰمِ وَٱلۡحَرۡثِۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسۡنُ ٱلۡمَـَٔابِ ١٤ ۞قُلۡ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيۡرٖ مِّن ذَٰلِكُمۡۖ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتٞ﴾(٢).

وقد كان رسول الله ﷺ أزهد الناس في الدنيا وأعظمهم لها ازدراء، يبدو ذلك في سيرته، فعَنْ عَبْدِ اللهَّ بن مسعود رضي الله عنه قَالَ: اضْطَجَعَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ عَلَى حَصِيرٍ فَأَثَّرَ الْحَصِيرُ بِجِلْدِهِ فَجَعَلْتُ أَمْسَحُهُ عَنْهُ وَأَقُولُ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللهَّ، أَلَا آذَنْتَنَا فَنَبْسُطُ لَكَ شَيْئًا يَقِيكَ مِنْهُ تَنَامُ عَلَيْهِ فَقَالَ: **«مَالِي وَلِلدُّنْيَا مَا أَنَا وَالدُّنْيَا**

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨٥)، الشعراوي، **تفسير القرآن**، (١٩/ ١١٧٠٩).

(٢) [آل عمران: ١٤، ١٥].

**إِنَّمَا أَنَا وَالدُّنْيَا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا»**[1]. وحينما خُيِّرَ الرسول ﷺ في آخر عمره بين الدنيا وبين الصيرورة إلى الله ﷻ، اختار الثانية.

## إيثار الحياة الدنيا هو أساس كل بلوى

قال في الظلال: إن إيثار الحياة الدنيا هو أساس كل بلوى، وعن هذا الإيثار ينشأ الإعراض عن الذكرى، لأن الذكرى تقتضي أن يحسبوا حساب الآخرة ويؤثروها وهم يريدون الدنيا ويؤثرونها، والله تعالى يقول: ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝١٧﴾[2]، أي: منها، وفي ظل هذه الحقيقة، يبدو إيثار الدنيا على الآخرة حماقة وسوء تقدير، لا يقدم عليها عاقل بصير[3]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لإيضاح هذه الحقيقة، على درجة كبيرة من القبول والإقناع، فيقول:

**المثل رقم (١٩): إذا خُيّرت أن تركب سيارة فخمة لربع ساعة فقط أو تمتلك دراجة هوائية، إنك بالتأكيد تختار أن تمتلك الدراجة، فما بالك إذا خيّرت بان تركب دراجة هوائية لربع ساعة أو تمتلك سيارة فخمة جدا؟!**[4].

---

(١) الطياليسي، **مسند أبي داود الطيالسي** (١/ ٢٢١) رقم (٢٧٥).

(٢) [الأعلى: ١٧].

(٣) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٦/ ٣٨٩٤).

(٤) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٢٨)

## يظنون بأن الآخرة شيء بعيد!

إن من يمتلك مئات المليارات في الدنيا فهو فقير؛ لأنها ثروة قليلة إلى محتويات الجنة، ومن يمتلك أغلى سيارة في العالم فهي مجرد ذكرى لأنه مفارقها، ولكن كون الحياة الدنيا شيء ملموس ومشاهد والآخرة إيمان بالغيبيات، فإننا نجد الناس ينشغلون بأمور الحياة الدنيا ويستعدون لها، كما أنهم يعتقدون خطأ بأن الآخرة شيء بعيد مما أدى إلى تناسيهم لها، مع أن حقيقة الحياة الدنيا ما هي إلا مزرعة يغادرونها ليقطفوا منها الثمار في وقت لاحق، يقول الله تعالى لبيان هذه الحقيقة: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[(١)]. فالدنيا عالم مليء بالشهوات المؤقتة، ومشحونة بالمتاعب، يجمع الإنسان فيها حصاد أعماله ليسير بها إلى عالم آخر ليُحاسب، لذا كان عليه أن يحذرها للسلامة من العقاب!!

## إما أن يُحاسَب وإما أن يُعاقَب

فإذا كانت هذه المساكن الفاخرة التي يرضونها مشبوهة، ويتملكها سيادته وفخامته غصبا على أعين أصحابها بحماية القانون، وإذا غلبت هذه المؤثرات

---

(١) [التوبة: ٢٤].

على الصحوة في نفس هؤلاء، في حين لا تراقبه عين ولا تصله يد القانون، فقد يتحول هذا الإيمان الفطري في لحظة ما إلى نفس لوامة عنيفة بفعل الإيثار، فيدفعه أن يعترف بذنبه أمام القانون، ويعرّض نفسه للعقوبة مطمئنا مرتاحا، استخفافا للدنيا وإيثارا للآخرة[1]!!

## سقف لكل شيء من الشهوات

فالمنهج السويّ هو أن يوازن الإنسان بين الدنيا فيأخذ ما يحتاج، والآخرة فيعطيها ما تستحق، والله تعالى يقول: ﴿فَمَا مَتَـٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝٣٨﴾[2]، والإنسان يحكمه سقف لكل شيء من الشهوات من دون استثناء ولو ملك الدنيا، ويستمتع فيها بقدر طاقته المحدودة ليصل إلى درجة الإشباع، هذا هو حال الدنيا وحال الشهوات والاستمتاع فيها. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً من واقع الحال للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٢٠): الشهوات في الدنيا لها حدّ الإشباع يستوعبها الإنسان حسب قدرته الجسدية، أمّا في الجنة فلو تخيل هذا الإنسان بأن يأكل مليون تفاحة يستمتع بطعمها دون أن تدخل إلى جوفه، فلا يصل إلى درجة الإشباع، ولا ينتهي الاستمتاع بها إلى الأبد[3]!!**

---

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٥/ ٣١٦٣).

(٢) [التوبة: ٣٨].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٠).

فقد يستمتع الإنسان بألف امرأة دون أن يخسر شيئا من طاقته، فلا إشباع، ويبقى الاستمتاع بقدر قدرات الله تعالى بلا حدود، لا كما هو الحال في الدنيا، فالله ﷻ خلق المؤمن للجنة يستمتع فيها أبدا سرمديا.

## حروب طاحنة بين الحق والباطل

قال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾﴾[1]. فالإيمان بالله حق والكفر به باطل، والصراع بينهما مستمر، وهي معركة لا تنطفئ نيرانها، وقد تشتد أحيانا إلى حروب طاحنة، وقد تهدأ إلى الحوار والدعوة، فأهل الباطل يجهلون الحق أو يكتمونه، فالحق هو الأمر الحقيقي الثابت الذي تعتدل به موازين حركة الحياة، وهو الأمر العدل لا يتغير ولا يتناقض، ولا عبث فيه ولا لعب، إنه الأمر الثابت الذي لا يتأثر بمكان ولا بزمان، ولا يقبل الزوال والعدم، والباطل خلافه وعكسه[2]، ومهما تقدم العلم فلن يهز حقيقة

---

(١) [البقرة: ٤٢].

(٢) الطبري، **جامع البيان** (١٧/ ٥٣٧)، (١٢/ ٣١٠). الرازي، محمد بن عمر الملقب بفخر الدين الرازي (المتوفى: ٦٠٦هـ)، **مفاتيح الغيب**، (٤/ ١١٢)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ، ابن عادل، أبو حفص سراج الدين عمر الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٧٥هـ)، **اللباب في علوم الكتاب**،، تحقيق: عادل عبد الموجود (٩/ ٥٠٤)، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ - ١٩٩٨م، حقي، إسماعيل حقي بن مصطفى الإستانبولي الخلوتي (المتوفى: ١١٢٧هـ)، **روح البيان** (٧/ ١٠)، دار الفكر، بيروت، (د.ت.ن)].

دينية، ولن تجد في كتاب الله آية واحدة منه تخالف الثابت القطعي من العلم التجريبي، وكتال الله تعالى لا يقبل الحذف ولا الإضافة، فكلمة الحق تعني أن الله تعالى خلق الكون ليبقى والباطل ليزول، وللتوضيح يضرب الشيخ النابلسي مثلاً فيقول:

**المثل رقم (٢١): قد نبني جناحاً في معرض من القماش، لأنه سيبقى أسبوعين فقط، وقد أنشئَ هذا الجناح في المعرض أصلا ليزول، أما حينما نبني وزارةً من الحَجَر، فهذه الوزارة بُنيت لتبقى**[١].

## الباطل يزول بطبعه عاجلا أم آجلا

يقصد الشيخ النابلسي من ضرب هذا المثل أن الباطل يزول بطبعه عاجلا أم آجلا ولا يطول، وشبّه ذلك بالقماش الذي يبلى سريعا ولا يدوم، وشبّه الحق بالحجر الثابت الصامد الصلب الذي يبقى ويدوم، وكم من نظرياتٍ كثيرة باطلة انتهت وسوف تنتهي إلى الزوال، وكم من المذاهب الوضعية الباطلة انهارت وأصبحت في الوَحْل، أو رفضها الناس واحتقروها لأنها تتنافى مع أصل الفطرة الإنسانية.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (١٤).

## التمنّي بضاعة الحمقى!

يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾[1]. فالأصل في الإيمان هو العمل الصالح واتباع أوامر الله لا بالتمني، والله ﷻ لا يحاسب عباده بالتمنِّيات، فهي لا تقدِّم ولا تؤخِّر في حساب العبد، ولا يرقى بها عند الله شيئا، بل هذه بضاعة الحمقى والأمم السابقة من اليهود، يقول الله تعالى: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٧٨﴾﴾[2]، ويقول ﷻ: ﴿وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾﴾[3].

## خيال وأحلام اليقظة!

فالأماني جمع أمنية، وهي أن تعلق نفس الإنسان بخيال جميل ليس له سند من الواقع يوصله إلى تحقيقه، فبعض الناس يدعي بأن التمني يروّح عن النفس لحظة ما وإن لم يتحقق!! أو حينما تتعلق بأمل كاذب تعيش معه أياما في نوع من السعادة وإن كانت وهمية!! لكن الصدمة التي ستلحق بهذا الإنسان بعد ذلك ستدمره

---

(١) [آل عمران: ٣١].

(٢) [البقرة: ٧٨].

(٣) [البقرة: ١١١].

وتقضي عليه، لأنها خيال وأحلام اليقظة لا تقوم على أرضية من الواقع، كحال اليهود حينما وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعۡدُودَةٗۚ﴾[١]، ثم يأتي الرد من الله سبحانه: ﴿قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدًا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ﴾[٢]، فكل هذه أماني خادعة؛ لأن منهج الله واحد على الناس أجمعين، وهو أن من انتسب للإسلام فليعمل عملا صالحا يتفق مع تعاليمه بنيّة صادقة، أما الشيخ النابلسي فإنه يضرب مثلا بسيطا للتوضيح، فيقول:

**المثل رقم (٢٢): فإذا تمنّى الطالب النجاح ولم يدرس!! وإذا تمنّى الإنسان الغنى ولم يعمل! وإذا تمنّى الرجل أن يكون عالماً ولم يطلب العلم! فهذه كلها بضاعة الحمقى[٣]!!**

## لا ثمرة لها سوى الخيبة والتخلف!!

فلا جدوى للوصول لأيّ من هؤلاء دون رصيد من عمل، ولو ظل يحلم بالأمنيات ورسم الخطط فلا ثمرة لها سوى الخيبة والتخلف!! وقد ورد في الأثر أن علوّ الهمة من الإيمان، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه[٤] قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ

---

(١) [البقرة: ٨٠].

(٢) [البقرة: ٨٠].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤٢).

(٤) هو أنس بن مالك بن النضر بن ضمضم بن زيد بن حرام بن جندب، أبو حمزة الأنصاري الخزرجي خادم رسول اللهَّ ﷺ عشر سنين، وأحد المكثرين من الرواية عنه،

ﷺ: «يَا أُمَّ حَارِثَةَ إِنَّهَا جِنَانٌ، وَإِنَّ حَارِثَةَ فِي الْفِرْدَوْسِ الأَعْلَى، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَّ فَسَلُوهُ الْفِرْدَوْسَ»(١).

## فليصطبر المؤمن

والعمل الجاد قد يتخلّله المشقة، فالصبر والمشقة على العبادة نوعان: صبر على مشقة الطاعات، مثل القيام من الفراش في أصعب الظروف لصلاة الفجر، تصديقا لقوله تعالى: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ﴾(٢)، وصبر عن المعاصي باتقاء الشهوات ولجم النفس عنها، فليصطبر المؤمن عليهما؛ لأن التكليف الشاقّ يدلّ على حلاوة الطاعة؛ ويُخرج نفس المؤمن عمّا ألفتَ من الاعتياد، وعندما يأتيه أمر فيه مشقة يقول: إنما يريد لي بها الله حسن الجزاء(٣).

---

شهد بدرا وهو طفل صغير فلم يذكروه، ثم شهد الفتوح، ثم قطن البصرة ومات بها سنة تسعين. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (١/ ٢٧٥) رقم (٢٧٧)].

(١) ابن حبّان، محمد بن حبان التميمي، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط (٣/ ٢٣٨) رقم (٩٥٨)، بيروت، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤١٤هـ–١٩٩٣م. وقال الألباني: سنده صحيح على شرط مسلم. [ينظر: **سلسلة الأحاديث الصحيحة**، محمد ناصر الدين الألباني (٤/ ٤٢٦)، الرياض، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ– ١٩٩٥م].

(٢) [طه: ١٣٢].

(٣) السعدي، عبد الرحمن بن ناصر، **تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان**، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق (ص٣٥٤)، مجمع الملك فهد للطباعة، مؤسسة الرسالة (د.م.ن) ط١، ١٤٢٠هـ –٢٠٠٠م.

## التوبة ليست كلمة تقال!

يقول الله ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيۡهِمۡ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ۝١٦٠﴾[1]. والتوبة ليست كلمة تقال، إنما هي عزيمة في القلب يتحقق مدلولها الإيجابي بالإيمان والعمل الصالح، ويتجلى أثرها في السلوك العملي في عالم الواقع[2].

ومن موجبات التوبة الصحيحة انكسار يحصل للقلب بين يدي الرب، لا يشبهها شيء ولا تكون لغير المذنب، فعَنْ أَبِي طَوِيلٍ شَطَبٍ الْمَمْدُودِ[3] رضي الله عنه أَنَّهُ أَتَى رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ رَجُلا عَمِلَ الذُّنُوبَ كُلَّهَا، فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهَا شَيْئًا، وَهُوَ فِي ذَلِكَ لَمْ يَتْرُكْ حَاجَةً وَلَا دَاجَةً إِلَّا أَتَاهَا، فَهَلْ لَهُ مِنْ تَوْبَةٍ؟ قَالَ: **«فَهَلْ أَسْلَمْتَ؟»** قَالَ: أَمَّا أَنَا فَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: **«نَعَمْ، تَفْعَلُ الْخَيْرَاتِ، وَتَتْرُكُ السَّيِّئَاتِ، فَيَجْعَلُهُنَّ اللهُ لَكَ خَيْرَاتٍ كُلَّهُنَّ»**، قَالَ: وَغَدَرَاتِي وَفَجَرَاتِي؟ قَالَ: **«نَعَمْ»** قَالَ: اللهُ أَكْبَرُ، فَمَا زَالَ

---

(١) [البقرة: ١٦٠].

(٢) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٤/ ٢٣٤٦).

(٣) هو أبو طويل الكنديّ، يُقال له صُحبة، رُوي أنه أتى النّبيّ ﷺ وهو شيخ كبير فقال: أرأيت رجلا عمل الذنوب كلها، فهل له من توبة؟ والشّطب يعني في اللغة الممدود، فظنّه الرّاوي اسما. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (٣/ ٢٨٢) رقم (٣٩٣٠)].

يُكَبِّرُ حَتَّى تَوَارَى[١]. وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«اللهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ أَحَدِكُمْ، سَقَطَ عَلَى بَعِيرِهِ، وَقَدْ أَضَلَّهُ فِي أَرْضِ فَلاَةٍ»**[٢].

## نضرب مثلا للتوضيح:

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً بليغا يشمل الكثير من المعاني الفقهية والبيانية المتعلقة بهذا الحكم، للحضّ على التوبة والرجوع إلى الله، ومدى سهولة ذلك وبساطته في الإسلام، ليشمل كل ما سبق من الفوائد والشواهد فيقول:

**المثل رقم (٢٣): إذا كان بيت الإنسان في قيد الحجز، ومحلُّه التجاري محجوز، وسيَّارته محجوزة، وعنده أراضٍ محجوزة، وعنده مستودعات كلها محجوزة، ورصيده البنكي محجوز، ومدين بقيمة ثمانين مليوناً، كل شيء يملكه في قيد الحجز أو المصادرة، فلو أتيح له أن يلغي هذا الحجز وهذه المصادرة في لحظة، وأن يعود إلى تملُّك كل أمواله بكلمة! فهل يتردَّد ثانية واحدة[٣]؟؟**

هذا الأمر معقول، فكل هذه الأحكام والقيود والقرارات الصعبة تنزاح بكلمةٍ

---

(١) الطبراني، أبو القاسم سليمان بن أحمد، **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، (٧/ ٣١٤) رقم (٧٢٣٥)، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، الطبعة الثانية. قال الألباني في السلسلة الصحيحة (٧/ ١١٦٣): هو على شرط الصحيح.

(٢) **صحيح البخاري** (٨/ ٦٨) رقم (٦٣٠٩)، **وصحيح مسلم** (٤/ ٢١٠٢) رقم (١ - ٢٦٧٥).

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤٥).

واحدة! يقول: يا رب لقد تبت إليك، فيقول الله ﷻ: عبدي وأنا قد قَبِلت!! فالتوبة تبدأ بالنية الصادقة والندم والإقلاع عن المعصية، وتنتهي بالعمل الصالح الذي يثبت أن التوبة صحيحة وجادّة، ولملء الفراغ بعمل مضاد وحركة مضادة، وإلا حنّت النفس إلى الخطيئة بتأثير الفراغ الذي تحسّه بعد الإقلاع[1].

## الإيمان بأسماء الله وصفاته

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ۝١٤٣﴾[2]، ويقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ ۝٧٠﴾[3]. ويقول عز من قائل: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝١٩٦﴾[4]. فهذه وغيرها من الأسماء والصفات التي وضعها ربنا لنفسه لا تُعرف بالعقل وحده، أما إذا نظر القارئ إلى صفات الخلق وتدبّرها فإنه يتعرف عليها؛ لأنه تعالى خلق الكون بحكمة وتدبير وقدرة، فإذا قال ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝١٨﴾[5]، فإننا نرى أثر ذلك في حركة الكواكب التي تسير منسجمة، وكل

---

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٥/ ٢٥٨٠).

(٢) [البقرة: ١٤٣].

(٣) [النحل: ٧٠].

(٤) [البقرة: ١٩٦].

(٥) [النور: ١٨].

كوكب يدور في فلكه لا يصطدم بآخر، وهذا دليل على أن الكواكب قد خلقت بحكمة وعلم، وحينما يقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ۝٣٤﴾[1]، فليس هناك ثمة خللٌ ولا نقصٌ ولا اضطرابٌ في صناعة الآفاق والأنفس، ليدلّ هذا على أسماء الله وعظيم صفاته ودورها مجتمعة في كمال خلقه وإبداع صنعه. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٢٤): قد تخفى على الطبيب أعراض مرض خطير عند المريض، أما لو كان الأب هو الطبيب ورأى علامات المرض على ابنه، فلا بدَّ أن يعالجه، لأن الأب الطبيب يتمتَّع برحمةٍ وعلمٍ، فهو عالم ورحيم، يجمع بين رحمة الأب وعلم الطبيب في آن واحد**[2].

### نضرب مثلا آخر للتوضيح:

ويضرب الشيخ الشعراوي[3] مثلاً قريبا للمعنى السابق إذ يقول: **أنت تقول: " زيد"**

---

(١) [لقمان: ٣٤].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٩٤).

(٣) هو الشيخ محمد متولي الشعراوي، عالم معاصر، ولد عام (١٩١١م) بمحافظة الدقهلية بمصر، وحفظ القرآن الكريم في الحادية عشرة من عمره، وظهرت فيه علامات الذكاء منذ الصغر في حفظه للشعر والمأثور من القول والحكم، التحق بالأزهر وانشغل بالحركة الوطنية ضد الإنكليز ويلقى بالخطب مما عرضه للاعتقال

**فيعرف السامع أن هذا اسم عَلَمٍ على شخص اسمه زيد، ثم له صفات أخرى، كأن يكون تاجراً، أو عالماً، أو مهندساً، لكن الاسم العَلَم هو زيد، وهو الذي لا يشترك معه أحد من معارفك فيه، لكن الصفات الأخرى قد يشترك معه فيها غيره**[1].

فإن اسم (الله) تعالى يتفرّد به رب العزة وحده، ولا يطلق به على غيره، وله أسماء وصفات أخرى كالرحيم والقوي والغفور، وهذه قد تُطلق ويتصف بها غيره، ويتضح من ضرب هذه الأمثال للشيخين النابلسي والشعراوي، بروز صفة التناسق في اللفظ والمعنى، فالشيخان استخدما أمثالا من واقع الحياة المعاصرة، أما من حيث اللفظ فقد ظهر استخدام مسميات الحِرف والصناعات كالطبيب والتاجر والمهندس، ومن حيث المعنى فقد اتفقا على اشتراك أصحاب هذه الحِرفِ بصفاتٍ مشتركةٍ أخرى يمتاز بها صاحب كل حرفة، لبيان وتوضيح الفرق بين الأسماء والصفات لذات الله تعالى.

---

أكثر من مرة، حصل على العالمية عام (١٩٤٠م) وانتقل إلى العمل في السعودية عام ١٩٥٠ ليعمل أستاذاً للشريعة في جامعة أم القرى، ثم سافر إلى الجزائر سبع سنوات قضاها في التدريس، ثم وزيرا للأوقاف المصرية عام ١٩٧٨م. الرابط: [**محمد متولي** الشعراوي/ar.wikipedia.org/wiki].

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٧/ ٤٤٨٣).

## الحكمة من إرسال الرسل

يقول الله ﷻ: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾[1]. ما كان الله ليخلق الخلق ثمَّ يدعهم في جهالةٍ، فمنهج الله تعالى في خلقه أن يخلق الخلق ويرسل الأنبياء والرسل ليهديهم ويرشدهم، يوم كان الناس أمة واحدة من أسرة آدم وحواء وذريتهم، وكانوا على نهج واحد وتصور واضح، وهذه حالة المجموعة البشرية الصغيرة الأولى قبل اختلاف التصورات والاعتقادات، حتى نمت هذه الأسرة وتعددت وكثر أفرادها وتفرقوا، حينئذ اختلفت التصورات وتباينت، وتعددت المناهج وتنوعت المعتقدات، وعندئذ بعث اللهّ النبيين مبشرين ومنذرين.

## ما كان اللّه أن يخلْق الخلق ويتركهم!

فمن الرسل سيِّد الرسل محمد ﷺ، ومنهم أولو العَزم، وآخرون صِدِّيقون، وعلماء عاملون، ودعاةٌ مجاهدون، وهؤلاء كلُّهم مسخَّرون لتعريف الناس بالحق، وما كان لله أن يخْلق الخلق وأن يتركهم من دون تعليم أو توجيه، فهذا

---

(١) [البقرة: ٢١٣].

يتناقض مع صفة الله الرحيم العادل؛ بل إن الله ﷻ يقول: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ١٥﴾[١]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٢٥): أب جالس في بيته يراقب ابنه الصغير وهو يقترب من المدفأة، هل يبقى ساكتاً؟ أم ينطلق ينصحه ويبعده[٢]؟**

## أخطار محدقة بالكون؟

فكما أن إرسال الأنبياء والرُسُل من لوازم كمال الله تعالى، فإن من بَدَهيَّات الأبوَّة أن ينصح الأب ابنه، وأن يأمره وأن ينهاه، فإنْ بقي ساكتاً والأخطار محدقة بالابن فهذا الأب تنقصه صفات الأبوّة، فما بالنا بالله خالق الكون ومكوناته، فالواجب على المؤمن أن يتأثر وينفعل بما يسمع أو يقرأ في رسالات الرسل ويستجيب لها. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لبيان حال من يكذّب رسالات الرسل أو يُعرض عنها، فيقول:

**المثل رقم (٢٦): هل من الممكن لإنسان أن تأتيه رسالة ولا يفتحها؟ هل من الممكن لإنسان أن يمزِّق الرسالة قبل أن يفتحها[٣]؟**

---

(١) [الإسراء: ١٥].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٤)، **وآل عمران**، الدرس (٢).

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٤).

## لو أن رسالة هامة وخطيرة نزلت من الفضاء!

وللتوضيح، يمكن أن يُقال: لو أذاعت وسائل الإعلام خبرا عظيما، بأن رسالة هامة وخطيرة باللغة الإيطالية نزلت من الفضاء الخارجي تخصّ سكان الأرض يدّعون فيها القوة الخارقة، فيها من التهديد والوعيد للبشر، فكيف يكون مدى الاهتمام الإعلامي لهذه الرسالة، وكيف تكون ردّة الفعل الرسمية عند الحكومات، والإثارة الشعبية بين سكانها، وكيف يشعر الإيطاليون بأنفسهم أمام الشعوب الأخرى والعالم؟

## الإسلام مفخرة لكل العرب

فمنهج المسلم يمثّل منهج الإسلام، وسفيره لكل شعوب الأرض، والإسلام مفخرة لكل العرب حيث نزل القرآن بلغتهم، لذا كان عليهم مسؤولية الاطلاع على القرآن، وفهم معانيه ومعرفة أحكامه، ومعرفة سرَّ خلق الإنسان وغاية وجوده في هذه الأرض، وليس ثمة عذر بأن يقول: لا يوجد عندي وقت للقراءة!!

## صفات الرسل

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ ٣٣﴾[1]. لقد شاءت الإرادة الإلهية أن تبعث رسلاً بين الحين والآخر؛

---

(١) [آل عمران: ٣٣].

لتصل البشرية إلى الحقيقة، وكان هؤلاء الرسل ينقلون تعاليم ربهم، ويَدْعون إلى منهجه، ويخاطبون الناس على قدر عقولهم، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وهم صادقون في كل أحوالهم، أمناء يستحيل عليهم الغش والخيانة، يتصفون بالفطنة والذكاء، وسرعة البديهة وحسن التصرف، معصومون من الذنوب والخطايا، ومن الخطأ في أمر التبليغ، صابرون في تحمل الأذى لأداء الطاعات والواجبات، عقيدتهم واحدة، ومصدر وحيهم واحد، ودعوتهم واحدة، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ۝٢٥﴾[1]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح، فيه بيان بعض الصفات المحدّدة للرسل، ولا يتصف بها إلا الرسل، فيقول:

**المثل رقم (٢٧): حينما تضطر إحدى الدول أن تعيّن سفيراً لها في دولة ما، ينبغي أن تكون مواصفات هذا السفير ممتازة، ومن أسرة راقية، وذا هيئة مُرضية وذكاء فطري، لأنه سيمثل أمّة، وسينطق بلسان دولة، وسيعبّر عن ثقافة شعب[2].**

بالطبع لن ترسل هذه الدولة شخصاً أميّا جاهلاً؛ بل ترسل شخصاً متميّزاً بصفات محدّدة، يتعايش معهم ويخاطبهم بلغة عقولهم، فهم ينتقون أفضل

(١) [الأنبياء: ٢٥].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٤) **وآل عمران**، الدرس (١٢).

الناس لأنه يمثِّل أمَّة، والرسل عليهم الصلاة والسلام منذ آدم إلى محمد عليهم جميعاً صلاة الله وسلامه، يُبعثون حينما تعمّ الغفلةُ عن منهج الله، ويستحوذ الخطر والانحراف أمر التوحيد.

## وضعوا كلاما من عندهم وقالوا هو من عند الله!

ومن الواجب على الرسل تبليغ رسالة ربهم إلى الناس وعدم كتمانها؛ لأن ذلك بمثابة عدم تبليغها، يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ﴾[1]. وتوعّد ﷻ من يكتمون العلم الإلهي الذي أنزله إليهم فقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡتُمُونَ مَآ أَنزَلۡنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلۡهُدَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِي ٱلۡكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلۡعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلۡعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ١٥٩﴾[2]. فأهل التحريف والتأويل الفاسد، والتغيير في المعارف والحقائق، لا يخافون الله، وهؤلاء وصفهم الله تعالى بقوله: ﴿وَإِنَّ مِنۡهُمۡ لَفَرِيقٗا يَلۡوُۥنَ أَلۡسِنَتَهُم بِٱلۡكِتَٰبِ لِتَحۡسَبُوهُ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ﴾[3]، ولم يقتصروا على ذلك؛ بل وضعوا كلاما من عندهم وقالوا هو من عند الله ! كما ورد في قول الله ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ﴾[4]،

---

(١) [المائدة: ٦٧].

(٢) [البقرة: ١٥٩].

(٣) [آل عمران: ٧٨].

(٤) [آل عمران: ٧٨].

وكان يجب عليهم أن يطيعوا الله تعالى، ولكن أغلبهم آثر العصيان وحرفوه ونسبوه إلى الله ﷻ: ﴿وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٨﴾[1].

## خطورة كتمان العلم

وقد ورد في شرعنا الحنيف الترهيب من كتمان العلم؛ فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أنه قَالَ: «**مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ عِنْدَهُ فَكَتَمَهُ أَلْجَمَهُ اللهُ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[2]. ويضرب الشيخ النابلسي مثالا من واقع الحياة، لتوضيح خطورة إسرار العلم، وبيان أثر كتم التعليمات وخطورة ذلك على الآخرين، وأن ذلك جريمة، فيقول:

**المثال رقم (٢٨): فلو فرضنا أن معملاً كيميائياً للمواد الخطرة فيه ألف عامل، وفيه تعليمات دقيقة لسلامة العمال، فلو أن أحد الموظفين كتم هذه التعليمات متعمدا وحصل انفجار أودى بحياة العمال، أليست هذه أكبر جريمة[3]؟؟**

---

(١) [آل عمران: ٧٨].

(٢) أخرجه **أبو داود** في سننه (٣/ ٣٢١)، برقم: (٣٦٥٨). **والترمذي** في سننه (٥/ ٢٩)، برقم (٢٦٤٩). **وابن ماجه** في سننه (١/ ٩٧)، برقم: (٢٦٤). والحاكم في **المستدرك** (١/ ١٨٢) برقم (٣٤٥)، وغيرهم. وإسناده صحيح كما قال الألباني في صحيح الترغيب والترهيب (١/ ٢٨).

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥٧).

## الأحبار والرهبان حذفوا وزادوا على هواهم!

هذا الذي يكتم ما أنزل الله، ويستخدم التحريف بالزيادة والنقصان، كالأحبار والرهبان حرفوا الكلمات والآيات، والتفسير بالرأي المنهيّ عنه، يزوِّر ويؤوّل على هواه من غير علم، يحذف منه ما هو أساسي، ويدخل فيه من الحروف أو الحركات، ومن هؤلاء بعض المسلمين الكذبة، ممن شوَّه هذا المنهج حتى لم يعد صالحاً لسلامة الناس ولا لسعادتهم، فكفر الناس به وابتعدوا عنه، كل ذلك من أجل كسب الجاه والمنصب والمال، ومن ثم يكون قد أجرم في حق الخلق جميعاً، ويضرب الشيخ النابلسي مثلا للتقريب فيقول:

**المثال رقم (٢٩): لو كان عند إنسان قطعة ألماس ثمنها مائة وخمسون مليون دولار، وباعها بمائة ليرة، ألم يبعها بثمنٍ بخس[١]؟!**

## فتاوى وتصريحات لإرضاء سيادته وفخامته!

هذا مثال الإنسان الغافل حينما يشتري المتع المؤقتة بأغلى ثمن دون أن يدري، فقد بلغ الأمر إلى التحريف والتأويل، وما هو أخطر من ذلك لمّا تجرّأ (السادة) علماء السلاطين! عباقرة هذا العصر وكل عصر! على الافتراء والكذب على الله بالفتاوى الضالة والمضلة؛ لإرضاء جناب السلطان من أجل مكاسب، وكأنهم بذلوا الذهب والألماس مقابل متعة رخيصة وملهاة مؤقتة، إنها سعادة أبدية

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٤٦).

باعها أصحابها بمنصب رفيع أو فيلا فخمة أو سيارة فاخرة! ويضرب الشيخ النابلسي مثالا من الواقع لحال هؤلاء، فيقول:

**المثال رقم (٣٠): كل إنسانٍ سكت عن الحق إرضاءً لجهة ما، أو كتم الحق ونطق بالباطل إرضاءً لقويّ حفاظاً على زعامة أو مكانة، وحقق من هذا السكوت مكاسب، هذا الإنسان كالمنديل تُمسَح به أقذر الفضلات ثم يلقى في سلة المهملات[١]!!**

## الولاء لله مع تعدد الرسل

يقول الله ﷻ: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١٢٩﴾[٢]، ويقول الله ﷻ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ٢٥﴾[٣].

فالوحي الرباني هو المصدر الأوحد للتعاليم، يتلقى منه البشر التصور الصادق الكامل والشامل لحقيقة الوجود الإنساني كله وغايته، ليدخل به الناس في السلم كافة مع هذا الكون ومع فطرتهم بعضهم مع بعض، وفي سعيهم ونشاطهم

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥٧).

(٢) [البقرة: ١٢٩].

(٣) [الأنبياء: ٢٥].

ونموهم ورقيّهم المهيأ لهم في هذه الحياة الدنيا. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً جليّا من حياتنا اليومية، يوضّح فيه معنى وحدة المصدر والدعوة، فيقول:

**المثل رقم (٣١): مؤسسة كبيرة في دولة، لها مدير عام تابع لوزير، ورئيس هذه الدولة نقل الوزير إلى مكان آخر وعيّن وزيرا آخر، فهل يستطيع مدير هذه المؤسسة أن يقول: أنا لا أتلقى أوامري إلا من الوزير السابق؟ معنى ذلك أن ولاءه للملك غير صحيح!**[(١)].

إن دلالة الولاء لرئيس الدولة، هي الانصياع للوزير الجديد وتعليماته الجديدة مهما كانت متعارضة أو متوافقة للتعليمات السابقة للوزير السابق، لأن مصدر هذه التعليمات هو رئيس الدولة، والولاء له يستدعي الولاء لوزيره الجديد، فلا يعقل لأي مسلم أن يكون مسلما أصلاً إلا إذا آمن بالأنبياء السابقين واحداً واحِداً، وهذا يستدعي الإيمان بالنبي الأخير الذي ختم الله به الرسالات جميعا.

## معنى الولاية لله

فعبادة المؤمن هي الولاء لله تعالى في كل الأمور، في كل حركة وسكنه، اتباعا لقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[(٢)]. فالوَلِيُّ هو الناصِرُ وقيل: المُتَوَلِّي لأُمور العالم والخلائق هو القائمُ بها، ومن أَسمائه ﷻ: الوالي وهو مالِكُ الأَشياء

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٢٤).

(٢) [البقرة: ٢٥٧].

جميعها المُتَصَرِّفُ فيها[١]. وكلمة (وليّ) من (وَلِيَ) أي: جاء الشيء بعد الشيء يليه من غير فاصل؛ فهو الأقرب له، فإذا عثرتْ قدما إنسان فإنه ينادي الأقرب منه؛ فهو أول من يفزع إليه، وهو الذي سينجده ويأخذ بيده من تلقاء نفسه، والله تعالى هو وليّ المؤمن بالمحبة والعطاء، فهو يعطي عطاءً غير محدود، وولايته لا تنتهي[٢]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٣٢): لو أن شابا يعيش في كنف ورعاية أب عظيم، قوي وغنيّ ومشهور، يهتم به ويراقب تصرفاته وحركاته، ويحاسبه على كل صغيرة وكبيرة، ويتوّعده إذا أخطأ، بينما شاب آخر أمضى حياته في الطرقات وأماكن اللهو بلا مربّ، مطارد ومتهم بالسرقة والزنا! يقضي وقته يوما في السجن وآخر في المستشفى، ويعيش كالدّابة المنفلتة، يأكل ويشرب ويتمتع كالأنعام بل هو أضلّ، لا رقيب عليه ولا حسيب، ولا ولاية ولا حماية[٣]!!**

نفهم من ضرب هذا المثل، أن أساس ولاية الله للعبد هو الرقابة الإلهية والاعتقاد بالجزاء الأخروي، وهذان اعتقادان ثابتان عند جميع الرسل، وحقيقتان كبيرتان تشكلان الأساس الروحي والعملي للإنسان المسلم وسلوكه، وبدونهما تتحول القيم الإنسانية إلى مفردات ميتة لا حياة فيها ولا حركة.

---

(١) ابن منظور، **لسان العرب** (١٥/ ٤٠٥).

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٢/ ١١١٨).

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (١٣)، والدرس (٨٥).

## الإنسان يحتاج إلى رقابة

فالإنسان يحتاج إلى رقيب لينضبط بكل ما يُرضي الله، وينسلخ عن كل ما يسخطه، حينها ينشأ الإنسان في التربة الصالحة فينبت فيها نباتا حسنا، عضواً منتجاً، ومواطناً صالحاً، وقد قالوا قديما: "إن من له أبٌ لا يحمل همّا" أوَ ليس الذي له ربّ أولى بالاطمئنان؟ تصديقا لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوۡلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلۡكَٰفِرِينَ لَا مَوۡلَىٰ لَهُمۡ ۝١١﴾[1]. ويضرب الشيخ الشعراوي مثلا للتقريب فيقول: **كان الإنسان منا وهو طفل جاهل إذا ما ضايقه أمر يلجأ إلى أبيه، فما بالنا اليوم ونحن كبار وعقلاء إذا ما ضايقنا أمر لا نلجأ إلى الله؟** لقد كان ﷺ إذا حزبه أمر قام إلى الصلاة[2]. فلا بد من الإيمان بالله، وهو الغاية المشتركة من إرسال الرسل جميعا، ليوضع الميزان والتعريف الصحيح للقيم، والتصور الثابت للخير وللشر، وهذا ما يحققه الإيمان، بإقامة تصورٍ صحيحٍ للوجود وعلاقته بخالقه، حينئذ تعبّر أفعال الإنسان وتصرفاته عن تقوى الله ومرضاته وإتباع تعاليمه، وتجنب فعل السوء والقبائح[3].

---

(١) [محمد: ١١].

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٧/ ٣٩٢٧).

(٣) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (١/ ٤٤٧).

## حال ربّ الكون

يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ﴾[١]، فهذا المشهد يصوّر حال ربّ الكون وهو ﴿وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ كيف يأخذ بأيدي عباده ليخرجهم من ظلمة الشرود والتيه، والكبر والطغيان، والشك والقلق، وظلمات شتى لا حصر لها، وكلها ظلمات! بينما الطاغوت ولي الذين كفروا، يأخذ بأيديهم فيخرجهم من النور إلى هذه الظلمات كلها! ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً من واقع الحال يشرح صورة الولاية لله فيقول:

**المثل رقم (٣٣): رجل كبير يمتلك ألف ليرة، بينما طفل صغير لا يحمل فلسا، لكنه ابن أكبر غني بالعالم**[٢]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلا آخر في ذات السياق فيقول:

**المثل رقم (٣٤): جندي عادي أبوه قائد الجيش التحق بثكنة عسكرية، فإذا هدّده جنديّ آخر فلمجرد أن يضعف يكون أحمقا، فأبوه قائد الجيش، والأمر كله بيده**[٣].

**المثل رقم (٣٥): شخص ما، يمتلك سكينا وتوَعدك، وآخر يمتلك أسلحة فتّاكة ومتطورة وقال لك: أنت في حمايتي**[٤].

---

(١) [البقرة: ٢٥٧].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥٦).

(٣) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٥٢).

(٤) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، الدرس (١٨).

فالغنيّ الحقيقيّ في الأمثال السابقة هو الطفل لأنه غنيٌّ بغنى أبيه!! والقوي الحقيقي هو الجندي العادي لأنه قوي بقوة أبيه، كما أن المؤمن غني وقوي بغنى وقوة ربه الذي يتولاه، فالقوة له تعالى والأمر كله بيده، ولا يغفل عن هذه الحقيقة إلا جاهل سخيف.

## المؤمنون كالبنيان العظيم

والولاء بين المؤمن والمؤمن يجعل أمة المؤمنين كالبنيان العظيم، يسدّ ذرائع الشرّ ويمنع الفساد عند باقي الأمم إذا ما حاولت نشره، يقول الله تعالى: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[1]، وعن أبي هريرة ﵁ قال: قال رسول الله ﷺ: **«إن الله ﷻ قال: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ»**[2].

ومنهج الله تعالى في الكون هو الإيمان المطلق بأن ينصر الله أولياءه في الحياة الدنيا والآخرة، على مرّ الأزمنة واختلاف الأمكنة على الرغم من تقلب الرسل واختلافهم، تصديقا لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ ١٧٣﴾[3]، ويقول ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾[4].

---

(١) [التوبة: ٧١].

(٢) **صحيح البخاري** (٨/ ١٠٥) رقم (٦٥٠٢).

(٣) [الصافات: ١٧٣].

(٤) [محمد: ٧].

## ذهبت عقائد هؤلاء وبقيت عقيدة الإيمان

فالوعد واقعٌ، وكلمة اللهّ قائمة على الرُّغم من تكذيب المكذبين والتنكيل بالدعاة، فقد ذهبت عقائد هؤلاء وبقيت العقائد التي جاء بها الرسل، وما تزال غالبة منصورة مهما رصد لها الشرق والغرب من قوى الحديد والنار، والدعاية والافتراء، والحرب والدمار، والأحداث هذه كلها تتحرك وفق تقدير الله، ثم تنتهي نتائجها إلى الوعد بالنصر لأولياء الله والغلبة والتمكين لهم، ثم تجد أن هذه رسالة تطمين لكل إنسان قال: (أنا مع الله) واتبع منهجه، وكانت ثقته بكلام ربه كاملة[1]، وللتوضيح يضرب الشيخ مثلا فيقول:

**المثل رقم (٣٦): أحيانا يكون للرجل قضية عند المحامي مضى عليها سنوات ودفع له مئات الألوف، ثم يقول له المحامي في لحظة: نجحت القضية!! يقول الرجل: كيف؟ يقول المحامي: وجدت النصّ الفلاني في المادة رقم كذا في محكمة النقد[2]!!**

يتساءل الشيخ النابلسي: هل من المعقول أن أربع كلمات مطبوعة في كتاب تملأ قلب المحامي وقلب صاحب القضية تصديقا وثقة؟! وأيهما أشد مصداقية، نص قانون مطبوع في كتاب أم وعد خالق السماوات؟

---

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٥/ ٣٠٠١).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٢).

## جنديته لله ناقصة!!

فالمسلم حينما يكون جنديا لله لا يُهزم، وإن لم ينتصر فليعلم علم اليقين أن جنديته لله ناقصة!! إذ أنه لم يؤدّ ما عليه لله ليأخذ ما له! فحينما يكون مؤمنا حقا ومخلصا حقا لا بدّ أن ينتصر[١]. فالأصل أن يكون ولاء المؤمن لله على كل الأحوال رغم تعدد الرسل؛ أخاً للمؤمن كالبنيان المرصوص؛ يشدّ بعضه بعضاً، لا يشتمه ولا يسبّه ولا يحقره، يستر عليه عيوبه وأخطاءه، لا يطعن في المؤمنين أو يقلل من شأنهم، فيقول: لا أحد جيِّد، أو يقول: كل الناس يسرقون، ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٣٧): لو سُئل طالب كسول: أين وظيفتك؟ يقول: لم نكتب الوظيفة يا أستاذ، هو طالب واحد ويتكلم باسم جميع طلاب الصف[٢]؟**

فكلَّما وسَّع المؤمن صاحب المعصية دائرة التقصير والفسق والفجور فإنه يرتاح، والطالب الكسول يحبّ أن يوسِّع دائرة التقصير كي يرتاح، يقول بما لا يعلم، ويطعن دون أن يعلم كي يرتاح، ويتمنَّى أن يقصِّر كل الطلاب كي يستأنس ويستعيد توازنه مع نفسه.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٢).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٢).

## الأسئلة كلها صحيحة

أما إذا كانت الكتب والتشريعات التي جاء بها الرسل متفاوتة حسب عصورها وأقوامها، إلا أنها صالحة ومناسبة لأهلها وأصحابها في زمانهم، يقول الله ﷻ: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾(١). ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح من الواقع الأكاديمي فيقول:

**المثل رقم (٣٨): قد يُعطَى طالب في الصف الثالث الابتدائي سؤالاً في الرياضيات، يختلف عنه في الصف السادس، ويختلف عنه في الصف السابع، ويختلف عنه في الصف العاشر، ويختلف عنه في الدكتوراه**(٢).

فالأسئلة كلها صحيحة، وكل سؤال منها صاغه المدرس بما يناسب ويتوافق مع المستوى الذي حُدّد له، وكل أمة من الأمم لها منهج حياة، ولها مستوى ودرجة في العلم والثقافة تختلف عنها في الأمم الأخرى، ولكنها صحيحة توافقها وتتناسب معها للنهوض بها دينيا واجتماعيا وأخلاقيا وتربويا.

## معجزات الرسل

قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ﴾(٣). فإذا كان الإنسان يؤمن إذا أراد

---

(١) [المائدة: ٤٨].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٤٠).

(٣) [الحديد: ٢٥].

ويرفض إذا أراد، فأي شيءٍ في هذا الكون يدلُّه على الله، إذْ إن المعجزات الحسِّية في وقتها لا تقدِّم ولا تؤخِّر؛ وإنما هي حُجّة، فهذا الكون أعظم معجزة، فمن لم يؤمن به وبقوانينه فلن يؤمن بخرق قوانينه، وللدلالة على عدم استحكام معجزات الرسل في نفوس هؤلاء، وجزئية تأثيرها في عقولهم، بدعوى إيثارهم الأهواء والمصالح، يضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٣٩): هذه المعجزات وقعت مرة واحدة، ولن تقع مرة ثانية، شبَّهها بعض علماء التوحيد كعود الثقاب تألق مرة واحدة ثم انطفأ، فأصبح خبراً يصدّقه مَن يصدّقه، ويكذّبه مَن يكذّبه**[١].

وأكبر شاهد أن يرى قوم موسى عليه السلام البحر طريقاً يبساً إذ نجاهم الله من فرعون، فبدل أن يشكروه طلبوا من موسى أن يعبدوا صنماً!! وكذلك الناقة في قوم صالح، بدل أن تحثّهم على الإيمان عقروها!

## تفضيل بعض الرسل على بعضٍ

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ﴾[٢]، أما تفضيل الرسل بعضهم على بعض في قوله تعالى: ﴿۞تِلۡكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾[٣]، فهذا تفضيل في ميزان الله تعالى لا عند البشر، فليس من الصواب

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٩١).

(٢) [البقرة: ١٣٦].

(٣) [البقرة: ٢٥٣].

أن تُوازن بين نبيٍّ ونبيّ، والأمر أخطر وأعزّ من تقييم البشر وتقديرهم. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لبيان هذه الفكرة وتوضيحها من واقع التجارب البشرية فيقول:

**المثل رقم (٤٠): ليس من شأن طفلٍ صغير في الصف الثالث الابتدائي، ولا من صلاحيَّاته، ولا من إمكاناته أن يقارن بين عالميْ ذرَّة[(١)]!!**

## الذكر والأنثى، كالليل والنهار

كما يقول الله ﷻ: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾[(٢)]، فالمنهج في الإسلام أن كلا من المرأة والرجل يختلف عن الآخر بلا أفضلية، وهما جنس واحد مخلوق من نوعين، ولكل نوع له مهمات وخواصّ، وجمال وكمالٌ لأداء مهمته، فالمرأة مبرمجة بأن تكون زوجةً وأمّاً، والرجل مبرمج بأن يكون زوجاً كاسباً للرزق، ويتضح ذلك عندما نقرأ قول الله ﷻ: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ ۝١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ۝٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلْأُنثَىٰٓ ۝٣﴾[(٣)]، كأن الذكر والأنثى مثل الليل والنهار متساندان متكاملان[(٤)]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لبيان أهمية الفروق الفردية لكل من

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٩٥).

(٢) [آل عمران: ٣٦].

(٣) [الليل: ١-٣].

(٤) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٩/ ٥٢٣٠).

الرجل والمرأة بلا أفضلية، وصلاحية كل منها للآخر وحاجته له، يقول:

**المثل رقم (٤١): المركبة المُخَصَّصة لنقل الركاب، تجد المساحة فيها أكبر للركاب وصغيرة للحاجات والبضائع! أما المركبة المخصصة أصلاً للنقل التجاري، فالمساحة فيها أكبر للبضائع وأقلّ للسائق ومعاوِنِه، فكل مركبةٍ لما صنعت له[1]!!**

هل المركبة الأولى سيئة أم الثانية؟ وأيها أفضل وأكمل؟ أم أن كل واحدة منها مركبة تحمل المزايا الكاملة لما صُنعت له؟

## التفضيل لا يقتضي الأفضلية

فالتفضيل لا يقتضي الأفضلية إذا كان بداعي حكمة اقتضتها الحاجة، وثمة حكمةٌ بالغةٌ لا يعلمها إلا الله ﷻ اقتضت أن يفضل هذا الرسول على ذاك، وتعني هذه العبارة في القرآن الكريم كذلك أن واحداً من هؤلاء الرسل يكون مفضَّلاً تارةً ومفضولاً تارةً أخرى في الوقت الواحد. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح، من واقعنا الذي نعيشه في حياتنا اليومية، فيقول:

**المثل رقم (٤٢): طبيب له ابن في الشهادة الثانوية، يأتي إلى أستاذ الرياضيات ليعطي ابنه بعض الدروس، فهو بحاجة إلى هذا الأستاذ، وهذا الأستاذ لو أنه مرض، يقف إلى باب الطبيب منهكا ويطلب العلاج، فهو بحاجة إلى الطبيب[2].**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٩٢).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨٢).

فكل من الاثنين: الطبيب والأستاذ مفضَّل تارة ومفضول تارةً أخرى؛ إذْ سخَّر الله بعضهم لبعض، وفضّل بعضهم على بعض في أوقات مختلفة.

## توافق في اللفظ والمعنى بين الشيخين!

أما قوله تعالى: ﴿وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍۚ﴾[1]، فيعني رسولَ الله ﷺ. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح والدلالة على هذا المعنى، فيقول:

**المثل رقم (٤٣): أب عنده ثلاثة أولاد، قال لواحدٍ منهم: سأهديك قلماً، وقال للثاني: سأهديك ساعةً، ثم قال: وبعضكم سأهديه هديةً ثمينةً جداً، فمَن هذا هو البعض؟ هو الثالث[2]!!**

فهذا ترتيب رتبيٌّ وليس زمنيّاً، فكأن الله ﷻ جعل من رسالة النبي ﷺ الخاتمة المتوازنة التي تجمع الأطراف كلها وهي في الوسط، ويبدو واضحاً هنا أن هذا المثل للشيخ النابلسي مقتبس بالشكل والمضمون من تفسير الشيخ الشعراوي؛ حيث ذكر في خواطره في السياق نفسه المثل الآتي: **أنت أعطيت لولدك قلماً عادياً، ولولدك الثاني قلماً مرتفع القيمة، ولولدك الثالث ساعة، أما الولد الرابع فاشتريت له هدية غالية جداً، ثم تأتي للأولاد وتقول لهم: أنا اشتريت لفلان قلماً جافاً، ولفلان قلم حبر، واشتريت لفلان ساعة، وبعضهم اشتريت له هدية**

---

(١) [البقرة: ٢٥٣].

(٢) المصدر نفسه.

**ثمينة، فـ(بعضهم) هذا قد عُرف بأنه الابن الرابع الذي لم يُذكر اسمه، فيكون قد تعيّن وتحدّد**[١].

يُلاحظ التوافق إلى حدٍّ كبيرٍ في اللفظ والمعنى بين الشيخين الكريمين، فالشيخ النابلسي اقتبس في المثل الذي أورده مفردات بعينها من المثل الذي ضربه الشيخ الشعراوي، وذِكْرُ القلم والساعة يدلاّن دلالة واضحة على هذا الاقتباس.

## كثرة الأنبياء في الأمة!

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ٢٠﴾[٢]. إن كثرة الأنبياء والرسل في أمة ما يدلّ في الحقيقة على كثرة فسادها؛ لأن الرسل إنما يجيئون لتخليص البشريةِ من فسادها وأمراضها. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح والدلالة على هذا الرأي فيقول:

**المثل رقم (٤٤): الطالب الكسول يأتي له أبوه بعشرات الأساتذة، والذي معه مرضٌ عُضال قد يأتي له أقرباؤه بعشرات الأطبَّاء، فكثرة الأنبياء الذين أرسلهم الله إلى بني إسرائيل لا تعني أنهم مفضَّلون؛ بل تعني أنهم مشاكسون**[٣].

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٢/ ١٠٧٣).

(٢) [المائدة: ٢٠].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٤).

فكلما كثُرَ الرسلُ والأنبياءُ دلّ ذلك على أن القومَ قد انحرفوا بمجرد ذهابِ الرسولِ عنهم، ولذلك كان لا بُدَّ من رسول جديد، وليقطع اللهُ ﷻ عليهم الحجةَ يومَ القيامةِ. ويضرب الشيخ الشعراوي مثلاً في ذات السياق فيقول: **تماماً كما يكون المريض في حالةٍ خطرةٍ فيكثر أطباؤه بلا فائدةٍ...**"[1]. يُلاحظ التشابه الواضح بين المثلين للشيخين الشعراوي والنابلسي، وأن الشيخ النابلسي تأثر بالشيخ الشعراوي[2]، وسمع له، واقتبس منه الكثير، كما سيرد في هذا البحث ما يدلّ على هذه الحقيقة.

## معنى الإيمان بالغيب

قال الله تبارك تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾[3]، وقال ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾[4]. ما كان من شأن اللهّ ﷻ أن يُطلع البشر على الغيب الذي استأثره لنفسه، فهم ليسوا مهيئين بطبيعتهم التي فطرهم عليها للاطلاع على

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١/ ٤٤٤).

(٢) فهو أستاذه، وقد التقى به مرتين في داره في القاهرة في عامي (١٩٩٠م،١٩٩٦م)، **كلمات مضيئة ولقاءات مثمرة مع الشعراوي**، انظر الرابط [nabulsi1/13books/kalimamodea/intro.php]

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٧).

(٣) [البقرة: ٣].

(٤) [آل عمران: ٤٤].

هذا الغيب إلا بالقدر المحدد، فجهازهم البشري، العقلي والحركي الذي أعطاه اللهّ لهم ليس مهيّأً على أساس استقبال هذا الغيب إلا بمقدار، وقد خلقه الله هكذا لحكمة تناسب وظيفة أدائه الخلافة في الأرض، وهي لا تحتاج للاطلاع على الغيب إلا بهذا القدر، ولو اتصلت وظائف الإنسان مع الغيب بلا حدود لتحطّم، لأنه ليس معدّا لاستقبال هذا الغيب إلا بالمقدار الذي يصل روحه بخالقه والكون، وأبسط ما يقع له حين يعلم مصائره كلها بأن يتعطل ويظلّ قلقا مشغولا بهذه المصائر، فلا يحرك يداً ولا رجلاً في عمارة الأرض! من أجل ذلك لم يكن من شأن اللهّ سبحانه، ولا من مقتضى حكمته، ولا من مجرى سنته، أن يطلع عباده على الغيب إلا بالقدر المحدود.

## ما هو الغيب؟

ذكر الله ﷻ في كتابه الكريم في مواضع كثيرةً عبارة ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾[1]، فعالم الشهادة هو ما تشاهده وما تسمع به، وما تشمّه وما تحسّ به، وهناك معرفة عقلية تحتاج إلى آثار مادية يستنبط منها العقل حقائق الأشياء، فالشيء إذا ظهرت عينه أو ظهرت آثاره، فسبيل معرفتها الحواس الخمس كالوزن والشكل واللون والرائحة والملمس، والحيّز والطول والعرض

(١) [الأنعام: ٧٣].

والارتفاع، فهذا هو اليقين الحسّي[١]. ويضرب الشيخ النابلسي أمثلةً للدلالة والتوضيح، فيقول:

**المثل رقم (٤٥): أمامك وعاءان مغلقان فأيها فارغ وأيها ممتلئ؟ تحمل أحدهما تراه خفيفا ثم تحمل الآخر فتراه ثقيلا، هذه حاسة إدراك الثقل بالحواس إلى الدماغ ليصدر حكمه على الأشياء[٢].**

**المثل رقم (٤٦): تمشي في طريق ترابي تجد أثر عجلتين، تقول: مرت هنا مركبة، ولعلها صغيرة لقلة المسافة بين العجلتين، أو شاحنة إذا كانت المسافة أكبر، أو خفيفة الوزن إذا كان الأثر ضعيفا، أو ثقيلة الوزن إذا كان الأثر عميقا، فعن طريق العقل أيقنت كل ذلك[٣].**

**المثل رقم (٤٧): الرائحة مثلا، هي إحدى وسائل إدراك الأشياء بالعقل، فلو أن فأرة ماتت تحت السرير فأنت لا تسمع صوتها ولا ترى جثتها ولكن تشتم أثرها ورائحتها[٤].**

**المثل رقم (٤٨): أما إدراك ذات الله تعالى وهو الأهم، فالله ﷻ لا تدركه الأبصار لكن الكون كله من آثاره، فعن طريق العقل نتعرف على الله تعالى بهذه**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٧).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٤).

(٣) المصدر نفسه،.

(٤) المصدر نفسه.

**المخلوقات، فعالم الغيب هذا شيء غابت عينه وبقيت آثاره[١].**

## المؤمن بالغيب، يؤمن باللّه ولا يراه

وأهم ما يمتاز به الإنسان المؤمن بالغيب، أنه يؤمن بالله ولا يراه، وللدلالة على هذا المعنى، يضرب الشيخ النابلسي هذه الأمثال فيقول:

**المثل رقم (٤٩): إذا كنت أمام جدار ورأيت وراء الجدار دُخان، وعلمت أن القاعدة تقول: (لا دخان بلا نار) فإن عقلك يحكم من أثر الدخان على وجود النار مع أنك لم تر النار، هذا أحد أنواع الغيوب، لأنه شيء غاب عنك وله آثار[٢].**

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر من واقع الممارسة الإنسانية اليومية، بل واللحظية، فيه فائدة وعبرة عظيمة للدلالة على هذا المعنى، فيقول:

**المثل رقم (٥٠): وكذلك الكهرباء فهي لا ترى بالعين، لكن يُرى أثرها وهو تألق المصباح، أو إصدار صوت، أو حركة من جهاز، أو الألم الذي تحدثه عند اللمس[٣].**

وهذا هو البصير العقلي، كأن يعتمد العقل على الأثر ويحكم منه على المؤثر، أو

---

(١) المصدر النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٤).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه، الدرس (١٧).

يرى النظام فيكتشف المنظم، يرى الحكمة فيعرف الحكيم، يعرف آثار العلم فيعرف العالِم، يعرف آثار القدرة والقوة فيعرف القادر القوي.

## الشيخان النابلسي الشعراوي مرة أخرى

ويبدو أن الشيخ النابلسي استوحى هذا المثل شكلا ومضمونا من خواطر الشيخ الشعراوي، فقد استدلّ الأخير بالكهرباء وتأثيرها في الأجهزة الصناعية على وجود الروح للدلالة على وجود الله تعالى، حينما ضرب مثالا للتقريب فقال: **الروح تشبه الكهرباء، فأنت لم ترها ولم تسمعها ولم تشمّها ولم تذقها، لكنها تدير حياة جسمك كله، وقد جعلها الله تعالى دليلا في النفس البشرية للدلالة على وجود إله لا تدركه الأبصار**[1].

## الأشياء تُعرف بآثارها

فإذا كان الإنسان لم ير الكهرباء بعينها فإنه يعرفها بآثارها، فيَستدلّ عليها حينما يضيء المصباح أو تدور المروحة، وإذا انكسر المصباح فلا تجد النور منه لأن جسم المصباح تهدّم، كذلك الروح لا تظهر إلا في الجسد الذي له مواصفات خاصة، فعندما ينهدم الجسم (كالجسد المقتول) فلا تجد الروح الوعاء الذي تظهر فيه فيحدث الموت. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للدلالة على وجود

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٤/ ٢١٦٥).

الشيء دون أن تراه العين البشرية، أو تدركه الحواس، فيقول:

**المثل رقم (٥١): عندما تظهر أعراض المرض على المريض: كارتفاع درجة حرارة الجسم، وقيء وإسهال، يخبر الطبيب المريض بأنه يحمل الجرثوم الفلاني في الأمعاء، أو الفايروس الفلاني، مع أنه لم يشاهده، ولكن أثره دلّ العقل على ذلك**[1].

## مرة أخرى يظهر الاقتباس في اللفظ والمعنى

وتظهر مرة أخرى دلائل الاقتباس في اللفظ والمعنى بين الدعاة والعلماء، وتأثُّرُ الشيخ النابلسي بالأمثال الواردة في خواطر الشيخ الشعراوي، للدلالة على شواهده في توضيح المعاني وتقريب الألفاظ في ذات السياق، فيقول: **فالجراثيم والفايروسات مثلا موجودة في الكون تؤدي مهمتها منذ بداية الخلق، وكان الناس يشاهدون آثار الأمراض في أجسادهم من ارتفاع في الحرارة وحمى وهم يجهلون السبب، فقدرة العين البصرية أقل من أن تدرك هذه المخلوقات الدقيقة**[2].

فالكون من آثار الله ﷻ، ودور العقل أن يعرف الله من خلال هذا الكون، ولو أعمل الإنسان عقله في الكون للوصول إلى الله تعالى بجهد قليل جدا بالمقارنة مع جهوده في البحث العلمي لعرف الله ﷻ بسهولة.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٤).

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١/ ١٢٨).

## هل يُعدّ هذا غيبا؟

ثم يتساءل الشيخ النابلسي: نسمع أن موجة باردة ستؤثر على البلاد خلال اليومين القادمين، فهل يُعدّ هذا غيبا؟ الجواب: هذا ليس غيباً؛ بل هو واقع، هو غيب عندنا وواقع في بلاد أوروبا، فالرياح لها اتجاه ولها سرعة، وهذا ليس غيبا بالمعنى الذي استأثر الله به نفسه، بل هو غيب سمح الله للإنسان أن يكشفه بالاتصالات اللاسلكية وعن طريق الأقمار الصناعية وبما سيكون بعد يومين[1].

## الخبر النقلي قطعيّ الثبوت

أما لو تخيل الإنسان شيئا غابت عينه وآثاره، ولم يستطع العقل أن يعرفه، كالماضي السحيق، وقصة خلق الإنسان والكون، وماذا بعد الموت، والجنة والنار والحساب، والجن والملائكة، هذه كائنات ليس لها آثار، فالحواس معطلة والعقل معطل أيضا، لذا يُقال: لا سبيل إلى معرفة ذلك إلا بالخبر الصادق، يقول الله ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۚ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلَٰمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴿٤٤﴾﴾[2]، فلا بد من الإيمان بالخبر المتواتر لأنه يحدد مصير الإنسان والشعوب ويتعلق به مستقبل

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٤).

(٢) [آل عمران: ٤٤].

الأمم، كقول الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝٥٩﴾[1]، وقيمة هذا الخبر من قيمة قائله الذي يقول: ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ۝٨٧﴾[2]. هذا القائل هو الله تعالى، وكل قول يخالفه فهو كذب، يجب عدم تصديقه، ولو قالوا بأن الحفريات في المكان الفلاني تقول كذا وكذا، أو أن أصل الإنسان قرد، وأن طبقات الأرض وعلم الجيولوجيا يدل على كذا، فإنه يُردّ عليهم بقول الله الذي خلقهم وخلق السماوات والأرض: ﴿۞مَّآ أَشۡهَدتُّهُمۡ خَلۡقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَا خَلۡقَ أَنفُسِهِمۡ﴾[3].

## لا أحد شهد بداية العالم؟

وكل خبر يتناقض مع حقيقة قرآنية يجب أن يُؤمن بأنه كاذب، فليس ثمة أحد شهد خلق آدم؟ أو شهد بداية العالم؟ هذا موضوع إخباري ولا سبيل لمعرفته إلا بالخبر الصادق من عند خالق السماوات والأرض، لذا كان على البشر أن يردّوا آلاف القصص والإدعاءات والنظريات، ويؤمنوا بما قاله الله ﷻ، وهو أصدق القائلين. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لبيان قيمة الخبر الصادق وتأثيره على النفوس، وتصديقه بطريق الإقناع فيقول:

(١) [آل عمران: ٥٩].

(٢) [النساء: ٨٧].

(٣) [الكهف: ٥١].

**المثل رقم (٥٢): لو أنّ شيخا كبيرا لم يُعرف عنه الكذب، جلس مع مجموعة من التجار في السوق وقال: اشتريت هذا المحل التجاري منذ أربعين عاما بسعر خمسة آلاف ليرة، فردّ عليه طفل صغير ابن عشرة أعوام وقال: هذا الكلام خطأ!!**

مَن الأولى بالتصديق؟ الشيخ أم الطفل الصغير؟ وكيف يكون الحال إذا عُلم بأن الطرف الأول في القصة هو العزيز الجبار، وهو الله تعالى، وأن الطرف الثاني علماءٌ وفلاسفة تتلمذوا على كتب الإلحاد والخيال والخرافة أمثال داروين[1] وغيره، أو أناسٌ سياسيون وأصحاب قوانين ونظريات اقتصادية واجتماعية تتبدل وتتغير حسب المصالح والأهواء، وهي تستند على إنكار الأديان، وإخراج الإنسان من فطرته، أو حرمان الفرد من التملك، أو الإباحية الجنسية تبعا للانفعالات والشهوات؟ يقول الله تعالى: ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ﴾[2]، فالآية تعني أن كل خبر أو قصة وردت مخالفة للقرآن فهي باطل وكذب، وأن هناك آخرين يقصّون الأنباء بالباطل، وما أكثرهم قديما، وما أكثرهم حديثا، وملة الكفر واحدة!

---

(١) ولد في انجلترا عام (١٨٠٩م) لعائلة علمية وتوفي عام (١٨٨٢م)، عالم تاريخ طبيعي بريطاني، والده الدكتور روبرت وارنج داروين، وكان جده عالماً ومؤلفاً، اكتسب داروين شهرته كواضع لنظرية التطور، درس التاريخ الطبيعي والطب واللاهوت.

انظر الرابط: [ar.wikipedia.org/wiki/ تشارلز داروين]

(٢) [الكهف: ١٣].

## الناسخ والمنسوخ عقيدة إيمانية

يقول الله ﷻ: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ١٠٦﴾[1]. النسخ في القرآن هو استبدال حكم آية بحكم آخر، ويكون في الأوامر والنواهي فقط، ولا يكون متعلقا بالاعتقادات التي ترجع إلى ذات الله تعالى وصفاته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وأصول العبادات والمعاملات[2]، واقتضت حكمة الله سبحانه أن يشرّع أحكامًا لحكمة يعلمها، ثم ينسخها لحكمة تستدعي ذلك النسخ، إلى أن استقرت أحكام الشريعة أخيراً، وأتمّ الله دينه.

## النسخ يتلاءم مع أحوال الناس

وهناك ثلاث حالات للنسخ، آيةٌ يُلغى رسمها وحكمها، وآية يُلغى رسمها ويأتي حكم آخر من مثلها، وآيةٌ يبقى رسمها ويأتي حكمٌ آخر خيرٌ من الأول[3].

---

(١) [البقرة: ١٠٦].

(٢) القطان، مناع، **مباحث في علوم القرآن** (ص٢٢٥) ط١٣، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

(٣) للمزيد من الفائدة والأمثلة على كل حالة منها، ينظر: السيوطي، جلال الدين، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: أحمد بن علي (٤/ ٥٣)، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥ه/ ٢٠٠٤م. أيضا: القطان، مناع، **مباحث في علوم القرآن**، (٢٢٣-٢٣٧).

وهذا التعديل الجزئي الذي يتلاءم مع أحوال الناس في فترة النزول هو لصالح الأمة، ولتحقيق خير أكبر تقتضيه أطوار حياتها، والله خالق الناس ومرسل الرسل ومنزل الآيات، وهو الذي يقدّر هذا التناسب ولا يعجزه شيء.

## أمثلة النسخ في القرآن

وقد وردت في كتب المفسرين أقوالٌ مختلفة وكثيرة في معنى النسخ فقالوا: ما نبدّل من آية، وما نمْحُ من آية، وما نثبت خطها ونبدل حكمها، ما نُنْسِكَ يا محمد، وما نترك من القرآن، يعني: تُرِكَ فلم ينزل على محمد ﷺ، وقيل: نسخها قبضها، وقبضها يعني رفعها، مثل قوله: (الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة)، وقوله: (لو كان لابن آدم واديان من مال لابتغى لهما ثالثًا)[1]. قال ابن جرير[2]: "ومن القرآن ما قد نسخ وأنتم تقرءونه، وهو ما ينقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره، وذلك أن يُحَوَّلُ الحلالُ حرامًا والحرام حلالا والمباح

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (١/ ٣٧٥)(١/ ٥٢١).

(٢) محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الشهير بالإمام أبو جعفر الطبري (٢٢٤-٣١٠هـ)، نسبته إلى طبرستان، وهو مؤرّخ ومفسّر وفقيه، وأكبر علماء الإسلام تأليفا، وصاحب أكبر كتابين في التفسير والتاريخ، اتهموه بالتشيّع ظلما وظلّ محاصرًا في بيته حتى تُوفّي. [الذهبي، **سير أعلام النبلاء** (١١/ ١٦٥) رقم (٢٦٩٤)].

محظورًا، والمحظور مباحًا"[١]. وقال القرطبي[٢]: معرفة هذا الباب أكيدة، وفائدته عظيمة، لا يستغني عن معرفته العلماء، ولا ينكره إلا الجهلة الأغبياء؛ لما يترتب عليه من النوازل في الأحكام، ومعرفة الحلال من الحرام[٣].

## أمثلة النسخ في الحديث

ومن أمثلة النسخ في الحديث الشريف ما رواه بُرَيْدَةُ[٤] عن النبي ﷺ أنه قال: **«نَهَيْتُكُمْ عَنْ زِيَارَةِ الْقُبُورِ فَزُورُوهَا، وَنَهَيْتُكُمْ عَنْ لُحُومِ الأَضَاحِيِّ فَوْقَ ثَلاثٍ،**

---

(١) الطبري، **جامع البيان** (٢/ ٤٧٢).

(٢) محمد بن أحمد بن أبي فرح الانصاري الخزرجي المالكي أبو عبد الله القرطبي، صاحب مصنف التفسير المشهور (الجامع لأحكام القرآن)، و(التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة)، ولد في قرطبة بالأندلس، وتعلم القرآن الكريم واللغة العربية، فقيهًا ومحدثًا ورعًا وزاهدًا متعبدًا، انتقل إلى أسيوط بمصر وبقي فيها حتى وافته المنية عام (٦٧١هـ). [السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **طبقات المفسرين**، تحقيق: علي محمد عمر (ص: ٩٢)، مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٣٩٦هـ].

(٣) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** (٢/ ٤٤).

(٤) بريدة بن الحصيب بن عبد الله بن الحارث الأسلمي، من أكابر الصحابة. أسلم قبل بدر، ولم يشهدها. وشهد خيبر وفتح مكة، واستعمله النبي ﷺ على صدقات قومه. وسكن المدينة. وانتقل إلى البصرة، ثم إلى مرو فمات بها سنة ٦٣ هـ. [الذهبي، **سير أعلام النبلاء** (٢/ ٤٦٩). الزركلي، **الأعلام** (٢/ ٥٠)].

**فَأَمْسِكُوا مَا بَدَا لَكُمْ، وَنَهَيْتُكُمْ عَنِ النَّبِيذِ إِلا فِي سِقَاءٍ، فَاشْرَبُوا فِي الأَسْقِيَةِ كُلِّهَا، وَلا تَشْرَبُوا مُسْكِرًا»**(١). ويضرب الشيخ النابلسي أمثلةً للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (٥٣): طبيب وصف دواء لمريض، ثم بدا له بعد حين بأنه لا يصلح له، فأمره أن يلغيه وأن يستبدله بدواء آخر**(٢).

هذا النسخ بهذا المعنى لا وجود له في القرآن، لأن علم الله تعالى أزليّ، ففي اللحظة التي أصدر الله تعالى فيها الحكم، يعلم سبحانه أن لهذا الحكم وقت محدود ينتهي فيه ليحل مكانه حكم جديد.

## النسخ يقتضي التدرّج بالتشريع

ولكن المعالجة تقتضي أن يحدث ذلك بالتدريج، وليس معنى ذلك أن الله سبحانه قد حكم بشيء ثم جاء واقع آخر أثبت أن الحكم قاصر فعدل عنه، إذ لا يمكن أن يبدو لله شيءٌ لم يكن بادياً له من قبل. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً من الواقع؛ لبيان معنى النسخ وتوضيحه فيقول:

**المثل رقم (٥٤): أحيانا يأمر الطبيب المريض أن يأخذ حبَّات أسبرين لتمييع الدم، بعد هذه المرحلة يقرِّر الطبيب إجراء عملية قلب مفتوح لهذا المريض،**

---

(١) **صحيح مسلم** (٢/ ٦٧٢) رقم (١٠٦ - ٩٧٧).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٤٠).

**فيأمر الطبيبُ المريضَ بإلغاء تناول الأسبرين[١]!**

فالطبيب يأمر بنوع من الدواء في مرحلة ما تناسب مصلحة المريض، ثم يلغيه في مرحلة أخرى وفق مصلحته أيضا، ثم يأمر بنوع آخر من الدواء حفاظا على سلامته في مرحلة زمنية معينة ومحددة تتلاءم مع إتمام العلاج ونجاحه، ثم يلغيه بانتهاء هذه المرحلة حفاظا على حياته!! فإجراءات الطبيب المختلفة وأوامره المتناقضة هذه كلها مبرمجة سلفا، وتلائم صحة المريض في مراحلها المختلفة والمتجددة.

## علم اللّه الغيبي يظهر للناس

يقول الله ﷻ: ﴿أَمۡ حَسِبۡتُمۡ أَن تَدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ وَلَمَّا يَعۡلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمۡ وَيَعۡلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٢﴾[٢]، ويقول تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[٣]، ويقول الحق تعالى: ﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِ﴾[٤]. فلا بدّ من تجربة أو ابتلاء يُثبت أن حامل الدعوة يُمتحن، ولا يُكتفى منه إطلاق الشعارات والتصريحات عبر وسائل الإعلام، وأمام الشاشات ليقول إنه يحمل دعوة

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٤٠).

(٢) [آل عمران: ١٤٢].

(٣) [آل عمران: ١٤٠].

(٤) [الحديد: ٢٥].

الحق، فقد يلزم ذلك أن يكون مجاهدا صابرا وأسوة حينما يكون الحق ضعيفا؛ ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح من الحياة اليومية للبيان والدلالة على هذا المعنى فيقول:

**المثل رقم (٥٥): لو أننا قلنا لطالب في منتصف العام الدراسي: أنت راسب! فإنه يقيم الدنيا ولا يقعدها، لكن حينما تظهر النتيجة بعد الامتحان وينال علامة الصفر نقول له: أنت راسب، حيث تقوم عليه الحجّة ويسكت**[١].

ويظهر أن الشيخ النابلسي اقتبس هذا المثل شكلاً ومضموناً من تفسير الشيخ الشعراوي الذي يقول في خواطره في هذا السياق نفسه: **نجد أن الجامعات في كل أنحاء الدنيا تقيم الامتحانات لطلابها، فهل أساتذة الجامعة الذين علّموا هؤلاء الطلاب يجهلون ما يعرفه الطالب ويريدون أن يحصلوا منه على العلم؟ طبعا لا، ولكن ذلك يحدث حتى إذا رسب الطالب في الامتحان، وجاء يجادل، واجهوه بإجابته فيسكت، ولو لم يُعقد الامتحان لادّعى كل طالب انه يستحق مرتبة الشرف**[٢].

## عمل مادّي يشهد على صاحبه

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر على هذا السياق؛ للتأكيد والدلالة على هذا الرأي فيقول:

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٣٨).

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١/ ٧٠).

**المثل رقم (٥٦): مدرّس بارع عنده خبرة عظيمة، نظر في أحد طلابه قبل الفحص وقال: هذا الطالب لا ينجح[١]!!**

وحينما يرسب الطالب بعد الامتحان يُقال: إن علم المدرس الكشفي قد أصبح علماً وحجّة لأنه تحقّق، فالله ﷻ يعلم، وعلم الله وحده لا يكفي لإيقاع الثواب والعقاب، ولا بدّ من عمل مادّي يشهد على صاحبه أمام الخالق والخلق ليستحق به الجزاء، وتشهد عليه جوارحه فيعترفنّ ويُعاقب، تصديقا لقول الله تعالى: ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾[٢].

ويبدو أن الشيخ النابلسي اقتبس هذا المثل لفظاً ومعنىً من خواطر الشيخ الشعراوي في هذا السياق حيث يقول: **نحن في حياتنا العادية نجد أن عميد إحدى الكليات يطلب من المدرس عقد امتحان ليتعرف على المتفوقين من الطلاب، ويمنح كلا منهم جائزة، فيردّ المدرس بأنه يستطيع كشف المتفوقين دون هذا الامتحان، وأن يرتّبهم الأول فالثاني فالثالث وهكذا، لكن عميد الكلية يُصرّ على أن يعقد امتحانا حتى لا يكون لأحد حجّة**[٣]. ويضرب الشيخ الشعراوي مثلاً آخر على نفس السياق للتوضيح فيقول: **حينما نقول للمدرس مثلاً: أعطنا نتيجة هؤلاء التلاميذ فيقول من واقع خبرته بهم: هذا ناجح، وهذا**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٣٨).

(٢) [الأنفال: ٤٢].

(٣) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٣/ ١٧٨٤).

**راسب، وهذا الأول، وهذا كذا**[١]. ولو اختبره معلمه لنجح فعلا أو رسب فعلاً، لذا كان من الضرورة أن يلتزم الطالب عاما دراسيا كاملا يؤدي فيه الامتحانات ويستلم النتيجة ليشهد على نفسه بالنجاح أو الفشل ولا يتّهم أستاذه، والله الصبور لا يعجل بالعقوبة، فقد طغى فرعون وقد علم ربه مسبقا أن لا خير فيه، لكنّ الله مكّنه في الأرض وابتلاه سنوات طويلة حتى وصل الذروة ليقرّ بعمله وجبروته، ثم أخذه أخذ عزيز مقتدر.

## معنى الإيمان باليوم الآخر

قال الله ﷻ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾[٢]. الإيمان باليوم الآخر ركن من أركان الإيمان، وبدونه تتحول حياة الناس إلى غابة يأكل فيها القوي الضعيف، ويستغل فيها الغني الفقير، وهذا هو الحال في عالم اليوم؛ فهو عالم لا يؤمن باليوم الآخر، وكل ما يُقال من ضمير يقظ أو وازع داخلي فهو كلام غير واقعي ولا معنى له، والإنسان لا يستقيم حاله إلا حين يعلم أن الله يعلم ويُحاسِب، والناجي من يُحاسِب نفسه على عمل الدنيا حساباً عسيراً، فيكون حسابه يوم القيامة يسيراً.

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١٨/ ١١٠٦٥).

(٢) [البقرة: ١٧٧].

## اليوم الآخر يدخل في حسابات الإنسان اليومية

فاليوم الآخر يجب أن يدخل في حسابات الإنسان اليومية بل واللحظية، على كل حركة وكل سكنه وكل نظرة وكل كلمة، وأن هذه سوف تدخل في ميزان أعماله وسوف يسأل عنها يوم القيامة ويحاسب عليها، ويطرح الشيخ النابلسي سؤالاً بدهيَّ الإجابة، للدلالة على تأثير الإيمان باليوم الآخر على سلوك الإنسان المسلم وأعماله فيقول: لماذا ينجح الزواج الإسلامي، ويدوم طويلا أكثر من أي زواج آخر بالمقارنة مع الزواج في بلاد الغرب[1]؟ الجواب: لأن الله بين الزوجين، فكل طرف يخشى أن يظلم الطرف الآخر وهما يعلمان أن الله يحاسب كليهما في كل لحظة على كل كبيرة وصغيرة، فلا خيانة زوجية ولا تسيّب، وكلاهما يخشى الله ويخافه ويرجو رحمته، وكلاهما يرتقيان إلى الله، فيزداد التفاهم والوئام بينهما بسبب إيمانهما بالله واليوم الآخر.

## حقيقة واقعة مُطبقة عليه في النهاية!

يقول الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجۡمَعَنَّكُمۡ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ لَا رَيۡبَ فِيهِۗ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا ﴿٨٧﴾﴾[2]. فالإيمان باليوم الآخر حقيقة واقعة، وإن تعاظم الإنسان عن هذه الحقيقة، أو لم يحتمل سماعها، أو لم يحتمل التذكير بالآخرة، أو

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١).

(٢) [النساء: ٨٧].

ذكر الموت، وهذه كلها حقائق مُطبقة عليه في النهاية، شاء أم أبى، فهو غبي غباء النعامة حينما غمست رأسها عن رؤية عدوّها فاطْمأنّت وأوقعت نفسها في المصيدة. ويضرب الشيخ النابلسي أمثالا لبيان حال هؤلاء الضالين، وحال الخطر الذي ينتظر مصيرَهم فيقول:

**المثل رقم (٥٧): فقانون الجاذبية والسقوط الحرّ مثلا، إذا تجاهله الإنسان وسخر منه واحتقره وكذبه، وألقى بنفسه من الطائرة بلا مظلة! كيف سيكون مصيره[1]؟.**

فإذا تجاهل أحد هؤلاء ذكر الموت واليوم الآخر وهما حقيقتان واقعتان، فقد غفل عن نقطةٍ هامةٍ وهي قوانين الطبيعة التي يؤمنون بها حتما، وهي واقعة عليهم وإن لم يؤمنوا بها، مطبقة عليهم شاءوا أم أَبَوا.

**المثل رقم (٥٨): إذا قال طبيب للمريض أنت بحاجة إلى عشرة تحاليل، فهل يستطيع المريض أن يناقش الطبيب[2]؟**

وإذا تجرّأ المريض وخالف أوامر الطبيب، فهل ينجو من عاقبة المرض؟ فالأَولى للمؤمن الذي يؤمن بالله واليوم الآخر يقينا، أن يستجيب لأوامر الله تعالى تصديقا، وأن يجتنب نواهيه تحريما، دونما شك أو تردد لضمان السلامة يوم الوعد الحق.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١).

(٢) المصدر نفسه.

## المحاسبة الذاتية

المقصود بالمحاسبة الذاتية أن يحاسب الإنسان نفسه بنفسه؛ بهدف تعديل سلوكه، وتأتي عادة بعد عمل فيه انحراف بقصد التوبة والشعور بالارتياح، فالمؤمن يحاسب نفسه على ما صدر منه على أساس أنه يخشى الله ربه، وغير المؤمن لا يحاسب نفسه فهو يخشى الناس ولا يخشى الله، يقول الله تعالى: ﴿يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ﴾[1]. فالكيّس من دان نفسه وحاسبها وشدّد عليها، والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنّى على الله الأماني، ومن لم يحاسب نفسه في الدنيا فهو في غفلة. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب من الحياة اليومية فيقول:

**المثل رقم (٥٩): إذا سافر إنسان إلى بلدٍ مجاورٍ ووجد على حدود هذا البلد تفتيشاً دقيقاً، ولا يمكن لأيِّ أمرٍ مهما كان صغيراً أن يمرّ إلا بمحاسبة دقيقة، فهل يشتري شيئا هناك[2]؟**

فالقضية ليست أن البضاعة رخيصة، ولكن تكمن في نقلها على النقاط المرحلية عند الحدود ومراكز التفتيش، فإنه هناك يدفع الثمن ويعاقب، والمؤمن كذلك يؤمن بالرقابة الإلهية والمحاسبة الذاتية في الأعمال والأقوال، والحساب عند الانتقال من مرحلة إلى أخرى،

---

(١) [النساء: ١٠٨].

(٢) المصدر نفسه.

## البوابة الكترونية!

والإيمان باليوم الآخر هو بمثابة البوابة الالكترونية، إنها نقطة تفتيش دقيقة جدا تمر عليها أعمال الإنسان كلها، ويُحَاسَب عليها، ويحاسِب فيها نفسه على كل كبيرة وصغيرة، فيها غربلة الأعمال بشكل دقيق، لا ينجو منها شيء ولو كان بحجم الذرّة، وللتوضيح يضرب الشيخ النابلسي مثلا يقول:

**المثل رقم (٦٠): هل تستطيع أن تفعل مخالفةً أمام ضابط الشرطة؟ هل تقتل طفلاً؟ هل تهدم بيتاً؟ هل تسرق مالاً؟ هل تقطع إشارة مرور حمراء؟ هل تحتال على أحد؟ هذا مستحيل[١]!!**

فلو نظر الناس إلى خالقهم في السماء، وخافوه كما خافوا ضابط الشرطة على الأرض لما وُجدت محكمة الجنايات، ولا أجهزة أمن، ولا سجون، وانحصر السلوك المجتمعي والفردي في كسب المال وفي إنفاقه، وفي ممارسة الحركات والشهوات الحلال فقط، فينضبط المؤمن ذاتيا.

## هذه قصة الخلق مع الخالق

ويُكشف من ضرب هذه الأمثال عن دور المحاسبة الذاتية في تقوية إرادة المؤمن وزيادة الثقة بينه وبين خالقه، إذا قدم عملا طيبا ترتاح له النفس ويرضاه الضمير، فالعمل الطيب يلغي المألوف كله، ويتجاوز مسلسل الرتب

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٥٤).

والمناصب. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر فيقول:

**المثل رقم (٦١): جنديٌّ عاديٌّ التَحَقَ بالخدمة حديثا، يحلم بأن يقابل قائد الجيش، ولكن الأمر مستحيل، ولكن لو وجد هذا الجندي ابن القائد يكاد يغرق في مسبح ونجح في إنقاذه، فإنه في اليوم التالي يجرؤ بأن يدخل ويقابل هذا القائد**[١].

أما لو أساء هذا الجندي أو تشاكس مع ابن هذا القائد في الملعب مثلا، وضربه ضربا مبرحا وهو لا يعرف أنه ابن القائد، ثم عرف في اليوم التالي وطلبه القائد إلى مكتبه، فهل يجرؤ هذا الجندي بالدخول إلى مكتبه؟ هذه قصة الخلق مع الخالق؛ فالإنسان حينما يمارس الغش والكذب والسرقة، وظلم ذوي القربى، والأحقاد وابتزاز أموال، فهو لا يمرّ بمرحلة الانسجام مع تعاليم ربه، ولا يصطبغ بالكمال، ولا يتصل بالله إلا إذا عمل عملا صالحا، واطمأنت نفسه بالمحاسبة الذاتية.

## الزهد في الدنيا

يقول الله ﷻ: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾﴾[٢]، وقال تعالى:

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٣).

(٢) [آل عمران: ١٤].

﴿قُلْ مَتَاعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ﴾[١]، فالزهد في الإسلام من الموضوعات التي تشغل بال كثير من الناس، وقد جاء تعريف الزهد عند علماء اللغة بأنه عدم الرغبة، والزهد في الشيء خلاف الرغبة فيه، والزاهد هو العابد[٢]. والزهد هو خلوّ القلب من التعلق بغير الرب، أو هو برودة الدنيا من القلب وعزوف النفس عنها، والزاهد هو من يترك كل شيء يُشغل عن الله، ويخرج حب الدنيا من قلبه فلا يُشغله شيء سوى الحق[٣]. يقول تعالى: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتُهَا ۚ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠﴾[٤].

## القناطير المقنطرة، ثروة لا تساوي شيئا!

يستنتج القارئ من هذه الآية أن من يمتلك القناطير المقنطرة هو فقير إلى الله تعالى، وهي ثروة لا تساوي شيئا مع مكونات الجنة ونعيمها. ويضرب الشيخ

---

(١) [النساء: ٧٧].

(٢) مجمع اللغة العربية، **المعجم الوجيز**(ص٧)، مصر، وزارة التربية والتعليم، ١٩٩٤م.

(٣) الأعرابي، أبو سعيد، **الزهد وصفة الزاهدين**، تحقيق: خديجة كامل(١/ ٢٣)، دار الكتابة المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

(٤) [القصص: ٦٠].

النابلسي مثلاً بليغاً وواضحاً، استوحاه من تجارب الحياة اليومية فيقول:

**المثل رقم (٦٢): إذا خُيِّرتَ بين أمرين: أن تركب سيارة فخمة لربع ساعة، أو تمتلك دراجة هوائية**[١].

إن الإنسان العاقل سيختار بالتأكيد أن يمتلك الدراجة، فما باله إذا خُيِّر بأن يركب دراجة هوائية لخمس دقائق أو يمتلك سيارة فخمة؟!! هذا حال الدنيا القصيرة الحقيرة مع حال الآخرة الطويلة ذات البهجة.

### نضرب مثلا آخر للتوضيح:

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر على ذات السياق فيقول:

**المثل رقم (٦٣): إذا خيّرْنا إنساناً بأن نعطيه مليوناً لمدة شهر يذهب أينما يشاء، ويأكل ويشرب حيثما يشاء، ويجلس مع أية امرأة يشتهي، وبعدها يُمضي عشر سنوات في السجن مع الأشغال الشاقة**[٢].

إنها الدنيا فلا يعبأ الإنسان بها، فأسعد الناس بها أرغبهم عنها، وأشقاهم فيها أرغبهم فيها.

## طريق تنتهي بالأخطار!

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لبيان إغراءات الحياة الدنيا، والنتائج الخطيرة المترتبة على اختيار هذه الإغراءات طالما اعتمدها الإنسان واتخذها منهج حياته،

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٨).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٥٨).

فيقول:

**المثل رقم (٦٤): أمامك طريقان؛ طريقٌ معبّدةٌ ومريحةٌ، وأخرى صاعدةٌ وشاقةٌ، فيختار الإنسان بالفطرة الطريق الأولى، ولكن يجد في أولها لوحة كُتب عليها: هذه الطريق تنتهي بالأخطار، بينما الطريق الصاعدة تنتهي بالسلامة والأمان، فأيّ طريق يختار[1]؟**

وهذه اللوحةُ هي مجرد لوحةٍ شاخصةٍ لا توقيع عليها، ولا توثيق لما فيها من المعلومات، لكنها تكفي أن تقلب سلوك القارئ مئة وثمانين درجة وتعكس موازينه، فكيف يكون حاله إذا كان التوثيق أسفل هذه اللوحة باسم خالق الكون، وهو رب العالمين، وخاتمه وتوقيعه!!

## نضرب مثلا آخر للتوضيح:

**المثل رقم (٦٥): لو أن بلداً من البلدان فيه قانون إيجار غريب، بحيث يستطيع مالك البيت أن يطرد المستأجر في أية لحظة من دون إنذار، بحيث يُمنع أن يأخذ شيئاً من ألبسته أو أثاثه، هل من المعقول أن يضع هذا المستأجر كل ثروته وكل ما لديه في هذا البيت، هل من المعقول أن يملأه بالأنوار والثريّات والأجهزة الكهربائية وأدوات الزينة، وهو مُعرّضٌ إلى أن يخسر كل شيء في ثانية واحدة[2]؟؟**

فإذا كان ليس من المعقول أن يُؤْثر الإنسان بيتا سيغادره في أية لحظة من دون

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٣٥).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٥٦).

إنذار أو مكتسبات، كذلك ليس من المعقول أن يُؤْثر هذه الدنيا التي سيغادرها في طرفة عين دون سابق إنذار، وأن يجعلها أكبر همه ومبلغ علمه، فهي دار من لا دار له، ولها يسعى من لا عقل له.

## الحساب وعد حقّ لا أوهام

يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٣﴾﴾[١]، أي: اتقوا ربهم فخافوا عقابه، فأطاعوه بأداء فرائضه وتجنبوا معاصيه، واتَّقَوْا مَا حَرَّمَ اللهُ[٢]، ويقول الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٥﴾﴾[٣]، فقد ينحرف الإيمان أو يختلّ توازنه عند مجموعة من الناس، فيحاولون أن يستعيدوا ثقتهم بأنفسهم لاسترجاع هذا التوازن بعقيدةٍ زائغةٍ، كما هو الحال عند بعض المنحرفين الذين تعاظموا أمام المنتقدين وقالوا: نحن أمة محمد مرحومة!! نحن لنا شفاعة رسول الله يوم الحساب!! أو أن كل من اسمه محمدا أو من يموت يوم الجمعة فإنه يدخل الجنة!! ويركنون إلى ذلك ويطمئنون له، ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لبيان حال هؤلاء الفرق الضالة فيقول:

---

(١) [البقرة: ١٠٣].

(٢) ابن أبي حاتم، **تفسير القرآن العظيم** (١/ ١٩٦). الطبري، **جامع البيان** (٢/ ٤٥٧).

(٣) [فاطر: ٥].

**المثل رقم (٦٦): تصوَّر طالباً كسولاً قال له زميله: هذا الأستاذ يُعطي الأسئلة قبل الامتحان بأسبوع، فارتاح الطالب الكسول ارتياحاً تاماً، وقضى العام الدراسي كله في اللعب، فلما ذهب للأستاذ قبل الامتحان وطلب منه الأسئلة، اكتشف فجأةً بأنّ صديقه يكذب[١]!!**

هذا الطالب الكسول غرّه كلام صديقه الضالّ والمضلّ، شأنه في ذلك شأن كل من يتعلَّق بعقيدةٍ زائغة وفاسدة يركن إليها، فلا الشفيع ينفعه ولا التعويض المالي يرفعه، ولا يطلب الأمور من غير طريقها، والإنسان حينما يقف أمام ربه ﷻ، عليه أن يكون مستعدا للسؤال والإجابة معا.

نضرب مثلا آخر للتوضيح:

**المثل رقم (٦٧): تصور إنسانا له دعوى عند قاضٍ والحكم خطير جداً، قال له شخص: "القاضي يرتشي!!"، فهكذا ظنّ، وتوهَّم وهْماً فارتاح، فلَمَّا جاء ليدفع للقاضي، زجره وطرده وحكم عليه بالأشغال الشاقة[٢]!!**

**المثل رقم (٦٨): لو أن إنسانا يمتلك شيكا مزوَّرا بمائة ألف دولار، يظنّ بأنه يمتلك مبلغاً ضخماً، إنها ثروة ضخمة، إنه يعيش مرتاحا في بحر من الوهم الكبير[٣]!!**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣١)، والدرس (٣٢) **سورة آل عمران**، درس (٩).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣١).

(٣) المصدر نفسه.

## قصة طريفة وعجيبة!

ثم يضرب الشيخ النابلسي قصة طريفة وعجيبة وذا فائدة عظيمة في هذا السياق، فيقول:

**المثل رقم (٦٩): أن إنساناً عنده دابّة يعمل عليها، فلما ماتت بنى عليها بناءً، وأعطى اسماً لوليٍّ من اختراعه، وجاءه الناس بالهدايا والإكراميات، وعاش في بحبوحةٍ ما بعدها بحبوحة، فقناعته بالذي يفعله أشد من قناعة الذي يجادله، ولكن هذا الدخل الكبير لن يجعله يقرُّ بالواقع، لأنه متنفعٌ بهذا الافتراء، كالمتنفع بفكرةٍ معينة أو مذهبٍ معين، فالمتنفع لا يُناقش، لأنه استخدم عقله لغير ما خلق له**[1].

## مواجهة الحقيقة أفضل من الوهم

فالحقيقة ولو كانت مزعجةً أحياناً، إلا أن مواجهتها أفضل من الوهم الكاذب المريح، فهي تتعلّق بالواقع لا بالأوهام؛ يواجهها المؤمن بشجاعة، ويصل بها إلى النجاة وبَرّ الأمان. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للدلالة على هذا المعنى فيقول:

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥)، **وآل عمران** الدرس (١٠)، **وآل عمران** الدرس (١٩).

**المثل رقم (٧٠): كالإنسان المصاب بمرض عُضال يهرب من واقعه فلا يذهب للفحص أو العلاج، ويكذِّب هذا المرض ليعيش في وهْمٍ مريح، فيتفاقم المرض ثمَّ يفاجأ بالهلاك**[1].

أمّا لو أن المريض قَبِلَ هذه الحقيقة المُرَّة بشجاعة وعالج نفسه من البداية، لكان خيراً له من أن ينكر هذا المرض، أو يمنّي نفسه بالأماني الكاذبة فيهلك.

## أصحاب الأماني كالذي يضحك على نفسه!

أو مرتكب المعصية والمداوم عليها، ويكرر قول الله تعالى بأنه (أرحم الراحمين) ويدّعي بأنه من أصحاب هذه الرحمة، فأصحاب الأماني يفترون ما يشاءون، ثم يصدِّقون ذلك كالذي يضحك على نفسه، أو كإنسان اختلق مجموعة عقائد زائفة وفاسدة، ثم تعلق بها واتخذها حجّة، واطمأن لها وسلّم لها عنقه لتحدّد مصيره ومستقبله!! بينما الواقع هو عكس ذلك، فالإنسان يحاسب على كل كبيرة وصغيرة، وكل شيء عمله الإنسان موثّق عند الله في سجلات لا يعلم حجمها ولا ماهيتها إلا هو، ويضرب الشيخ النابلسي مثلا للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (٧١): يوجد في كثير من البلاد المتقدِّمة صفحة بالكمبيوتر لكل مواطن، تسجَّل عليه مخالفة السير، ويسجل عليه تخلفه عن دفع دين، فكل حركاته وسكناته، وأعماله ومخالفاته مسجَّلة عليه، فإذاً أراد أن يسافر عليه أن**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٢).

**يسدّد، وإذا أراد أن يتوظّف عليه أن يسدِّد[١]!!**

هذا مثل آخر من واقع الحياة للدلالة على حقيقة الحساب في الآخرة وحتمية وقوعه، فإذا كان هذا الحال هو واقع إجراءات في الدول والحدود بينها، وهو تسجيل لكل شيء، وهو علم الإنسان المخلوق والمحدود، وهذه إنجازاته العجيبة والمتطورة، فكيف بالله العليم الخبير الذي لا يغفل عن شيء؟

## الشفاعة حقّ أم وَهْم؟

يقول الله ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا يُؤۡخَذُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ۝٤٨﴾[٢]. الشفاعة لغة: جعل الوتر شفعًا، أما اصطلاحًا: فهو التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة، والشفاعة الحسنة هي التوسط بالقول في وصول إنسان إلى منفعة دنيوية أو أخروية، أو إلى الخلاص من مضرّة، وتكون بلا مقابل[٣]، وقد تكون الشفاعة يوم القيامة أملاً كاذباً يركن إليه الكثيرون بغير حق، فمنهم من يتخذ الشفعاء من الذين

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٤٠).

(٢) [البقرة: ٤٨].

(٣) ابن عثيمين، محمد بن صالح بن محمد العثيمين، **تعليق مختصر على كتاب لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد** (ص١٢٨) مكتبة أضواء السلف، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

اتخذوهم أنداداً لله في الحياة الدنيا، يأتمرون بأمر البشر وضلالاتهم، وهؤلاء لا تنفعهم شفاعة الشافعين، ويُحكم عليهم يوم القيامة بأشد العذاب. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٧٢): هناك مخالفات في الدنيا تسوَّى بمبلغ من المال، ثمنها فرضاً مائة ألف أو مليون، ولكن لو أن إنساناً ارتكب خيانة عظمى فلا بُدَّ من أن يُعدم، هذه مخالفة لا ينفع فيها الجزاء النقدي**[١].

## لا بُدَّ أن يكون له رصيد من الطاعات

فحينما يصعب على إنسان قضاءُ مصلحة يقول له صاحبه: اذهب إلى فلان؟؟ بسبب أن له عنده فضلاً مسبقاً لا يستطيع معه أنْ يردّ له طلباً، فلا بُدَّ لمن يشفع أن يكون له رصيد من الطاعات يسمح له بالشفاعة، فإذا كانت المسألة مع الله سبحانه يوم القيامة، يأتي إنسان صالح ليشفع عند الله لإنسان أسرف على نفسه، فلا بُدَّ أن يكون هذا الإنسان المشفّع من الصالحين حتى تقبل شفاعته عند الحق ﷻ، ويبدوا أن الشيخ النابلسي اقتبس هذا المثل شكلا ومضمونا من تفسير الشيخ الشعراوي، حيث ذكر في خواطره أمثالاً عديدة في ذات السياق للتقريب والدلالة على هذا المعنى حيث يقول:

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤٣).

**المثل رقم (٧٣): نجد قائد الثورة أو الانقلاب تتم محاكمته بالإعدام بتهمة الخيانة العظمى، ولا تنفع فيه شفاعة الشافعين، فما بالنا بالذي يخرج عن نطاق الإيمان كليا ويُشرك بالله؟ سبحانه لا يغفر ذلك أبداً، ولكنه يغفر ما دون ذلك**[١].

نضرب مثلا آخر للتوضيح:

**المثل رقم (٧٤): لو أن حاكما غضب على أحد من الناس وقرر أن ينتقم منه، فيأتي صديق الحاكم يحاول أن يشفع للمحكوم عليه، فإذا فشلت الشفاعة يعرض فدية، فإذا فشلت فإن الحُكم سيكون نافذا**[٢].

هذا متعلق بالمشفّع وحدود شفاعته ومدى صلاحيتها، وما له من منزلة وشأن عند الحاكم، وأن ذلك كله مرهون بقدر خطورة الذنب الذي ارتكبه المجرم، وكل شيء بحساب، والموت على الكفر أخطر هذه الذنوب، يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كُفَّارٞ فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡ أَحَدِهِم مِّلۡءُ ٱلۡأَرۡضِ ذَهَبٗا وَلَوِ ٱفۡتَدَىٰ بِهِۦٓۗ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٩١﴾[٣].

## أخطر المحطات في حياة البشر!

قال الله تعالى: ﴿وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ٥٩﴾[٤]. يمتاز اليوم الآخر

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٥/ ٢٦٣٤).

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١/ ٣١٧).

(٣) [آل عمران: ٩١].

(٤) [يس: ٥٩].

بأخطر المحطات والمواقف في حياة البشر، حيث يواجه الإنسان مصيره عند ساعة الذروة، وهي ساعة الفرز، يوم يُساق المؤمنون أفواجا إلى الجنة تصديقا لقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾[(١)]، حيث يتلقى الكافر التحقير فينعزل بعيدا عن المؤمنين منفردا على حِدة، متذللا في تهكم وتأنيب ملائكة العذاب، يوم يقول الله تعالى واصفا حال أهل الضلالة: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ﴾[(٢)].

## ساعة الفصل!

ولبيان الفرق بين حال الناس المختلط في الدنيا، وحال التميّز والانفراد لهم في الآخرة، وإيضاح هذه الصورة ذات الأهمية، فإن الشيخ النابلسي يضرب أمثالا للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٧٥): نجد كل الطلاب في ساحة المدرسة أثناء الدوام يرتدون اللباس النظامي، يدخلون الصفوف معا، يستريحون ويلعبون ويضحكون معا، أما عند النتائج فإننا نرى طالبا يكاد يرقص من الفرح، وطالبا يبكي من شدة الألم**[(٣)].

فالطلاب أثناء الدوام مختلطون ويرتدون اللباس النظامي الواحد دون تميّز،

---

(١) [الزمر: ٧٣].

(٢) [الزمر: ٧١].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤٣).

يستريحون ويلعبون ويضحكون معا، أما عند النتائج فإن مدير المدرسة يقرع الجرس فيتجمع الطلاب جميعا في الساحة في صفوف منتظمة بطريقة عفوية دون أن يتدخل أحد من المدرّسين، كل طالب من هؤلاء يعرف الصف الذي يخصّه، من الصف السابع أو الثامن أو العاشر وهكذا، ويبدأ المدير بتوزيع الشهادات تنازليا حسب النتائج، الأول فالثاني فالثالث، حينئذٍ يتميّز الطلاب يمينا وشمالا، ناجحين وراسبين، مسرورين وحزانى، وهكذا، يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ ۞﴾، ﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ۞﴾[1] ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ ۞﴾، ﴿يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ۞﴾[2].

## صورة بيانية تعكس حال الأمم والشعوب

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر على الأمر ذاته فيقول:

**المثل رقم (٧٦): لاحظ مثلاً الطلاب، ينجح الطالب من الصف السابع إلى الثامن، وفي الصف التاسع يتميّز الطلاب إما تعليم عام، وإما مهني، ثم عاشر وحادي عشر ثم ثاني عشر، فعلاماته في هذه الشهادة مصيرية، وهي ستحدد مصيره في الحياة، فإذا حصل على علامات طبّ صار طبيباً، وإذا حصل على علامات مهندس صار مهندسا، وإذا حصل على علامات صيدلي، أو أتى**

(١) [الحاقة: ١٩-٢١].

(٢) [الحاقة: ٢٥ – ٢٧].

**بعلامات شريعة، أو حقوق أو علوم أو رياضيات، حيث تحدّد حرفته ومكانته الاجتماعية، ويتحدد مصيره الأبدي**[١].

هذه الصورة البيانية تعكس حال الأمم والشعوب يوم القيامة، كيف يتفرقون ويتميّزون، منهم السعيد ومنهم الشقيّ، ومنهم في الفردوس الأعلى في الجنة، ومنهم في الدرك الأسفل من النار، وحينما حدَّث النبي ﷺ أصحابه أن سيلقاهم على الحوض يوم القيامة قَالُوا يَا نَبِيَّ اللهِ أَتَعْرِفُنَا؟ قَالَ: «**نَعَمْ لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لأَحَدٍ غَيْرِكُمْ؛ تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ آثَارِ الْوُضُوءِ**»[٢].

## خيار وقت

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ١٢٦﴾[٣]، ويقول الله عز وجل: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَاۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِۚ﴾[٤]. فالحياة الدنيا حين تقاس بمقاييسها وتوزن بموازينها، قد تبدو في العين أمرا عظيما هائلا، ولكنها حين تقاس بمقاييس الوجود وتوزن بميزان الآخرة فإنها تبدو شيئا زهيدا تافها، فهي إما أن تكون لعبا ولهوا وزينة وتفاخرا وتكاثرا، وإما أن تكون عملا وعبادة وتكاليفا، يحاسِب العبد نفسه فيها

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٩)

(٢) صحيح البخاري (١/ ٣٩) رقم (١٣٦)، وصحيح مسلم (١/ ٢١٧) رقم (٣٧ – ٢٤٧).

(٣) [البقرة: ١٢٦].

(٤) [البقرة: ١٤٨].

حسابا عسيرا قبل أن يُحاسَب، عَنْ أَبِي بَرْزَةَ الأَسْلَمِيِّ[1]، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهَّ ﷺ: «**لا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ عُمُرِهِ فِيمَا أَفْنَاهُ، وَعَنْ عِلْمِهِ فِيمَ فَعَلَ، وَعَنْ مَالِهِ مِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ وَفِيمَ أَنْفَقَهُ، وَعَنْ جِسْمِهِ فِيمَ أَبْلاهُ**»[2]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٧٧): دخلت إلى غرفة فيها مليون قطعة ذهبيَّة، ومليون قطعة نحاسية، ومليون قطعة من حديد، قلنا لك: أنت مخيّر، اختر ما شئت في ربع ساعة فقط[3]!**

فالحياة الدنيا هذه ربع ساعة يأخذ منها الإنسان ما يشاء للآخرة، فالذي أخذ قطعة الذهب يكون ذكياً، والذي انشغل بقراءة مجلَّة أو حضور مسلسل أو حديث فارغ هو مخيَّر أيضا، له أن يختار ما يشاء في ربع ساعة فقط، له أن يختار أطيب شيء وأثمن شيء، ولكن تنتهي الفرصة عندما يُسحب مقهورا من

(١) هو نضلة بن عبيد الأسلميّ، مشهور بكنيته (أبو برزة)، هو الّذي قتل هلال بن خطل تحت أستار الكعبة بأمر رسول الله، كان إسلامه قديما، وشهد فتح خيبر، وفتح مكّة وحنينا، وروى عن النبيّ صلى اللهَّ عليه وآله وسلم وعن أبي بكر، روى عنه ابنه المغيرة وآخرون، مات بخراسان سنة أربع وستين. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (٦/ ٣٤١) رقم (٨٧٣٧)].

(٢) سنن الترمذي، (٤/ ٦١٢)، رقم (٢٤١٧)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤٩).

الغرفة إلى خارجها.

**نضرب مثلا آخر للتوضيح:**

ويضرب الشيخ النابلسي أمثالا للتقريب والدلالة على فوات الفُرص وانتهاء الوقت لقبول الأعذار فيقول:

**المثل رقم (٧٨): لو أقام أحد الأغنياء وليمة تشمل أرقى أنواع الطعام، ثم آلمه سِنُّهُ ألماً شديدا، فلو أنه استرجع بذاكرته الطعام الذي أكله في الوليمة السابقة فإنه لا يذكره[١]؟؟**

وهكذا حينما يلقى الإنسان ربّه، فإذا رأى مقامه في الجنة، حينئذٍ ينسى حياته المفعمةً بالمتاعب في الدنيا، وإذا رأى مقامه في الجحيم، فإنه ينسى السعادة وأسبابها في الدنيا ولو بلغت إلى الذروة. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٧٩): طالب سهر الليالي، درس دراسةً مجهدةً، فلما أحرز الدرجة الأولى في الامتحان أنسته فرحته كل متاعبه[٢].**

فكما أن الألم وشدائده قد يُنسي الإنسانَ فرحتَه، فإن الفرحة وبهجتها الشديدة قد تُنسيه أحزانه وآلامه، والمسألة في كلا الأمرين مسألة وقت، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«يُؤْتَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَنْعَمِ أَهْلِ الدُّنْيَا مِنَ الْكُفَّارِ،**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٤٤).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٥٠)

فَيُقَالُ: اغْمِسُوهُ فِي النَّارِ غَمْسَةً، فَيُغْمَسُ فِيهَا، ثُمَّ يُخْرَجُ، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: أَيْ فُلانُ هَلْ أَصَابَكَ نَعِيمٌ قَطُّ؟ فَيَقُولُ: لا، مَا أَصَابَنِي نَعِيمٌ قَطُّ، وَيُؤْتَى بِأَشَدِّ الْمُؤْمِنِينَ ضُرًّا وَبَلاءً، فَيُقَالُ: اغْمِسُوهُ غَمْسَةً فِي الْجَنَّةِ، فَيُغْمَسُ فِيهَا غَمْسَةً، فَيُقَالُ لَهُ: أَيْ فُلَانُ هَلْ أَصَابَكَ ضُرٌّ قَطُّ، أَوْ بَلاءٌ، فَيَقُولُ: مَا أَصَابَنِي قَطُّ ضُرٌّ، وَلا بَلاءٌ»[1].

## لا إيمان بعد فوات الأوان

فالخيار مع الإيمان خيار وقت، إما أن تؤمن في الوقت المناسب أو لا تؤمن وتخسر كل شيء، يقول الله تعالى: ﴿تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ١٤١﴾[2]. وقال الله ﷻ: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ٩٩ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾[3]. ويقول ﷻ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ٢٢﴾[4]. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثٍ: صَدَقَةٌ جَارِيَةٌ، وَعِلْمٌ يُنْتَفَعُ

---

(١) أخرجه **ابن ماجه في سننه** (٢/ ١٤٤٥) برقم (٤٣٢١). وقال الألباني: هذا إسناد صحيح على شرط مسلم. [ينظر: **سلسلة الأحاديث الصحيحة** رقم (١١٦٧)].

(٢) [البقرة: ١٣٤].

(٣) [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

(٤) [ق: ٢٢].

بِهِ، وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعُو لَهُ»[١].

## رأى الحقيقة التي كان ينكرها

يوم يتمنى الإنسان أن يرجع إلى الدنيا وهو ما يزال يحتضر، لأنه رأى الحقيقة التي كان ينكرها ويُكذِّب بها، والذين يشاهدون حال الموتى ساعة الاحتضار يروْنَ منهم إشارات تدلّ على أنهم يروْنَ أشياء لا نراها نحن، كُلٌّ حَسْب حاله وخاتمته[٢]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح من واقع الحال، فيقول:

**المثل رقم (٨٠): طالب أدّى امتحانا فنال صفرا في المواد كلها ورسب، وبعدها رجع إلى البيت وقرأ الإجابات كلها بالتمام والكمال وفهمها، وتقدم بطلب إلى وزير التربية يرجو فيه إدراجه مع الناجحين، متى عرف الإجابات الصحيحة؟ بعد الامتحان[٣]!!!**

## يغادر الدنيا صفر اليدين!

يُستفاد من ضرب هذا المثل، بيان حال الإنسان الكافر حينما يغادر الدنيا صفر اليدين ثم يُفاجأ بعد الموت بالحقيقة المذهلة يراها معاينة، فيطلب العودة إلى

---

(١) أخرجه **مسلم في صحيحه** (٣/ ١٢٥٥)، برقم (١٦٣١). **والترمذي في سننه** (٣/ ٦٥٢)، برقم (١٣٧٦)، وغيرهما.

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١٦/ ١٠١٤٨).

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٩).

الدنيا ليعمل صالحا، ولكن هيهات، هيهات!! ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لبيان هذه الحقيقة وتقريبها للأذهان فيقول:

**المثل رقم (٨١): إذا ظهر إعلان بالجريدة: أنه من يرغب في شراء سيارة مرسيدس جديدة بمبلغ عشرة آلاف!! عليه أن يحجز خلال أربعة أيام فقط، ستجد مليون شخص ينتظرون ويتدافعون فوق بعضهم، لأنها فرصة ذهبية لا تعوض**[١].

**المثل رقم (٨٢): إذا دخلت إلى غرفة فيها مليون قطعة ذهبيَّة، ومليون قطعة ذهبية أخرى من عيار أقل، ومليون قطعة نحاسيَّة مُغَمَّسة بالذهب، ومليون قطعة نحاسية بلا ذهب، ومليون قطعة من أخسّ المعادن، قلنا لك: اختر ما شئت، أنت مخيّر**[٢].

فكلمة مخيّر في هذا الوقت المحدود واللحظات النادرة الحدوث، ذات معاني خطيرة ومصيرية، فله أن يختار ما يشاء، وله أن يختار أطيب الأشياء وأثمن الأشياء وأدوم الأشياء، ولكن في وقت محصور ومحسوب بدقة، وبعد أن ينتهي هذا الوقت الدقيق تنتهي معه كل الفرص المتعلقة به.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٤٩).

(٢) المصدر نفسه.

## اليوم الآخر بعثٌ اضطراري

يقول الله ﷻ: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾(١). فالإيمان باليوم الآخر يعني رجوع الإنسان إلى الله القوي الجبّار في آخر لحظة من حياته الدنيا مضطرا على كلّ أحواله، طائعا لربه كان أم عاصيا له، يُساق إلى الحساب الشديد ذليلا هزيلا ضعيفا، مدفوعا إلى المسير في اتجاه واحد، يقول الله تعالى: ﴿وَٱقۡتَرَبَ ٱلۡوَعۡدُ ٱلۡحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَٰخِصَةٌ أَبۡصَٰرُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَٰوَيۡلَنَا قَدۡ كُنَّا فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا بَلۡ كُنَّا ظَٰلِمِينَ ۝٩٧﴾(٢). ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٨٣): فهذا الذي ركب طائرةً وفي ظنه أنها تقلُّه من نيروبي إلى أمستردام، فإذا بها تقلُّه إلى أنقرة وهو مطلَوب هناك، ماذا حصل له؟ وأي مصير ينتظره(٣)؟**

يبرز هنا عنصر المفاجأة التي تبهت المفجوئين! لا تطرف أعينهم من الهول الذي فوجئوا وفُجعوا به، وهو تفجّع المفجوء الذي تتكشف له الحقيقة المروعة بغتة فيذهل ويشخص بصره فلا يطرف، ويدعو بالويل والهلاك، ويعترف ويندم،

(١) [التغابن: ٧].

(٢) [الأنبياء: ٩٧].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥٤).

ولكن بعد فوات الأوان! حينئذ، يصدر الحكم القاطع من الله القوي العزيز الذي لا مردّ له[1].

## الدنيا مزرعة الآخرة

الحياة الدنيا في الأصل أنها مزرعة الحياة الآخرة، يزرع فيها الإنسان بذور الخير أو الشر ليحصد ثمارها عند الحساب بين يديّ ربه يوم القيامة، في كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة، يقرؤون كتابهم فلا يُظلمون فتيلا، فمن زرع خيرا يوشك أن يحصد طمأنينة وأمنا، ومن زرع شرا فيوشك أن يحصد ندامة، ولكل زارع مثل ما زرع، فليغتنم العبد الأيام القلائل لتلك الأيام الطوال، قال الشاعر:

أما والله لو علم الأنام لِما خلقوا لما غفلوا وناموا
ممات ثم قبر ثم حشر وتوبيخ وأهوال عظام
ونحن إذا أمرنا أو كأهل الكهف أيقاظ نيام[2]

---

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٤/ ٢٣٩٩).

(٢) وردت هذه الأشعار في: الذهبي، شمس الدين، **كتاب الكبائر**، (ص: ١٣٣)، دار الندوة الجديدة، بيروت، (د.ت.ن). أيضا: ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن، **مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي**، تحقيق: طلعت بن فؤاد الحلواني (٤/ ٤٤١)، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر (د.م.ن)، (١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م)، ولم يرد اسم قائلها أو ترجمته في المصادر الأخرى حسب ما أعلم.

يقول الحق ﷻ: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ ۝٩٤﴾[١]، فالعمل الصالح في الحياة الدنيا هو السبب الحقيقي لإرضاء الله تعالى بهدف دخول الجنة، وهو مطمع كل إنسان عاقل ذي لبّ مستنير. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٨٤): طالب سافر إلى بلد غربي لينال شهادة الدكتوراه، هناك مليون خيار أمامه؛ قد يُمضي وقتاً في الحديقة، وقد يُمضي وقتاً في دار سينما، وقد يُمضي وقتاً مع الأصدقاء والصديقات[٢]!!**

فإذا كان هدف الطالب من السفر أن ينال شهادة الدكتوراه، عليه أن يقضي وقته في الجامعات والمكتبات، كما إذا كان الهدف الحقيقي للإنسان في الحياة أن يعبد الله بقصد أن ينال رضاه ليكون ذلك سببا في دخول الجنة، أما إذا انشغل فيها بالمحرمات وتلهّى بالمغريات وضاعت ساعاته وأيامه بين هذه وتلك، خرج من الدنيا بلا هدف ودخل في الآخرة خائبا مذموما مدحورا. فالعبرة ما يحصده المؤمن في النهاية، وقد يحزن ويتعب في البداية ثم يسعد ويرتاح وهذا هو الفائز، فالبطولة أن يستعدّ الإنسان في يومه ليرتاح في غده.

---

(١) [الأنبياء: ٩٤].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨٢).

## اليوم الآخر جزاء وحساب

يقول الله ﷻ: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفۡسٖ مَّا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ٢٨١﴾(١). فالحياة الدنيا دار عملٍ بلا جزاء، واليوم الآخر دار جزاءٍ بلا عمل، والكيّس من دان نفسه قبل أن يُدان، ومن حاسب نفسه في الدنيا حسابا عسيرا فإنه يُحاسب في الآخرة حسابا يسيرا. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٨٥): الطالب يقضي في العام الدراسي هُدْنَة، قد يدرس وقد لا يدرس، قد يجتهد وقد لا يجتهد، هو مخيّر، أما بعد الامتحان آخر العام يأتي يوم النتائج، فإما نجاح وتفوّق وسعادة، وإما رسوب وفشل وشقاء**(٢).

ففي الامتحان يفرز الطلاَّب ويتميز الناس، والناس مخيّرون في هذه الدنيا يقضون زمن هدنةٍ، والموت يقطع هذه الهدنة، ويعمل للمؤمن جردًا في سجلاته وأعماله، وينبذ أية عقيدة لا توافق الكتاب والسنة، فتظهر الأخطاء بالاعتقاد التي يقابلها الأخطاء في السلوك، يقول الله ﷻ: ﴿يَوۡمَ تَشۡهَدُ عَلَيۡهِمۡ أَلۡسِنَتُهُمۡ وَأَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢٤ يَوۡمَئِذٖ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلۡحَقَّ﴾(٣).

---

(١) [البقرة: ٢٨١].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٩٠)

(٣) [النور: ٢٤-٢٥].

## الكافر يوم القيامة ليس له اختيار

هذا الدين عظيم، يحافظ على سلامة الناس ومشاعرهم إلى هذا الحدِّ؟ إنه دين الله ومنهجه الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة في حركة الحياة إلا ووضع لها أحكاماً وآداباً، وهذه الأحكام لا يمكن عزلها عن حركة الحياة وحصرها في مسائل العبادات وحدها؟ يقول الله ﷻ: ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا ۝٤٩﴾[1]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٨٦): تجاوز شخص القانون فبعثوا له المخالفة فقال: أنا لم أرتكب أية مخالفة، وعندما رأى صورة سيارته مع التاريخ والسرعة سكت، الصورة أسكتته، لذلك فإن الله تعالى يعرض للمخالفين يوم الحساب صور المخالفات**[2].

فإذا كان اللسان في الدنيا يتكلم وينطق، فإن المتكلم في الحقيقة هو صاحبه؛ لأنه ما تحرَّك إلا بمراده، فاللسان مجرد آلة خاضعة لإرادته واختياره، أمَّا في الآخرة فسوف ينطق اللسان على غير مراد صاحبه؛ لأن صاحبه ليس له اختيار، ففي الآخرة تتعطل إرادته وسيطرته على جوارحه كلها، فتنطق وتتحرك بإرادة الله وقدرته.

---

(١) [الكهف: ٤٩].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٣).

## هذا الجزاء متفاوت

ومع أن اليوم الآخر هو يوم الجزاء إلا أن هذا الجزاء متفاوت، قال الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾[١]، فحينما يرتكب الإنسان ذنوبا بدرجات متفاوتة، فإن أعماله الصالحة تكون متفاوتة كذلك، قال تعالى: ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾[٢]، وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾[٣].

## الإيمان يزيد وينقص

ولا يمكن لأحد من الخلق أن ينسب الكمال لنفسه، حتى الذين يبذلون أقصى جهدهم في الطاعة لا يصلون إلى درجة الكمال، فالكمال لله وحده، فإذا كان الإيمان يزيد وينقص، فإن هذا بسبب الأعمال الصالحة فإنها تزيد أحيانا وتنقص أحيانا أخرى، والأجر يتبع العمل ومرتبط به، وعلى هذه الأساس فليتنافس المتنافسون. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٨٧): إذا كانت الشعبة في الصف المدرسي متفوقة كلها، فإننا نقرأ النتائج لا لنعرف من نجح ومن رسب، بل نقرأ النتائج لنعرف من هو الأول،**

---

(١) [الملك: ٢].

(٢) [الفتح: ٤].

(٣) [التوبة: ١٢٤].

**ومن هو الثاني، ومن هو الثالث**[١].

فقد حثنا رسول الله ﷺ إلى الطموح في أسمى صوره وعلو الهمّة في أبرز معانيها، وزرع فينا حب التميّز والتفوّق، والحصول على المكانة العالية.

## لا تقبل الحدّ الأدنى!

فالتواضع والزهد في الدنيا لا يعنيان إطلاقا أن يقبل الإنسان المسلم الحد الأدنى، فالطموح عام وشامل في حياة المسلم حتى في درجات الجنة، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: **«إِنَّ فِي الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجَةٍ، أَعَدَّهَا اللهُ لِلْمُجَاهِدِينَ فِي سَبِيلِ اللهِ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللهَ فَاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فَإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ - أُرَاهُ - فَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَنِ، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنْهَارُ الجَنَّةِ»**[٢].

## الهدى والضلال

الهدى هو الهدف والطريق الصحيح والواضح، وهو ايضاً الدلالة على الطريق الموصّل للغاية من أقرب الطرق، وعكس الهدى هو الضلال[٣]. وفي وصف

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، الدرس (٣٥).

(٢) صحيح البخاري (٤/ ١٦) رقم (٢٧٩٠).

(٣) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١٣/ ٨١٥٥).

المتقين يقول الله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ﴾[١]، أي: أنهم على نور من ربهم، وبرهان واستقامة، بتسديد الله إياهم، وتوفيقه لهم[٢].

## أنواع الهداية

والهداية على أنواع:

**النوع الأول:** الهداية العامة المشتركة بين الخلق جميعا، ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِيٓ أَعۡطَىٰ كُلَّ شَيۡءٍ خَلۡقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ٥٠﴾[٣]، أي أعطى كل مخلوق صورته وشكله المناسب، ثم هداه إلى ما خَلَقَه له من الأعمال والغرائز والفطرة، وهي تعمّ الحيوان والنبات أيضا. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً من واقع الحال للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٨٨): إذا جاع الإنسان فإنه يبحث عن الطعام، وإذا أكل وكان الطعام فاسداً تقيّأ[٤].**

**المثل رقم (٨٩): يتحرك البلعوم خلال النوم حركة معقدة وعجيبة، بحيث يغلق المزمار القصبة الهوائية إغلاقاً تاماً، ويفتح طريق المريء ليتم ابتلاع قطرات اللعاب!![٥].**

---

(١) [البقرة: ٥].

(٢) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (١/ ١٧٢).

(٣) [طه: ٥٠].

(٤) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣).

(٥) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣). انظر: بريان فارد، **موسوعة جسم الإنسان**، الغذاء وعملية الهضم (ص٢٠).

هذه هداية، فالجهاز الهضمي بالغ التعقيد، ويهدي إلى المصلحة العامة والمشتركة بين مخلوقات الله مجتمعة[١].

**المثل رقم (٩٠): لو دخلت جرثومة إلى الجسم، فإن جهاز المناعة المكتسب يرسل عناصر استطلاعية تتصل بالجرثومة، فتهيئ العقد الليمفاوية سلاحا مضادا ليقاتله[٢].**

**المثل رقم (٩١): آلية المص عند المولود الذي يسحب الهواء ليأتي الحليب، إنها آلية معقدة[٣].**

يتضح مما سبق، أنها أمثلة تدل على هداية عامة مشتركة بين الخلق جميعا، وهي هداية مصالح تبدو واضحة عند الإنسان والحيوانات سواء، من دون تعليم أو تدريب، فسبحان الله الذي خلق الإنسان في أحسن تقويم!!

## هداية البيان

**والنوع الثاني**: هدايةُ البيان، للدلالة والتعريف بالخير والشر، وتوضيحُ طريقي النجاة والهلاك، وهذا النوع من الهداية هو من عمل الأنبياء ثم العلماء والدعاة

---

(١) فارد، بريان، **موسوعة جسم الإنسان**، الغذاء وعملية الهضم (ص٢٤).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣)، أيضا: بريان فارد، **موسوعة جسم الإنسان**، الغذاء وعملية الهضم، (ص٢٤).

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣).

المصلحين من بعدهم والمسلمين كافة، وهم بذلك مبلِّغونَ لا مُكرِهون، ويقول ﷻ مخاطبا الرسول الكريم في هذا البيان: ﴿فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ﴾[١]، والخطاب للنبي ﷺ أي تُبلّغُ وتُعلّمُ وتَدُلّ، وقد يهتدي الإنسان بعد ذلك وقد لا يهتدي. وقال ابن جرير الطبري[٢] في توضيح قوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾[٣]، قال: وعلى الله أيها الناس بيان طريق الحقّ لكم، فمن اهتدى فلنفسه، ومن ضلّ فإنما يضلّ عليها، ومعنى: ﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ قال: والجائر منها: اليهودية والنصرانية، وغير ذلك من ملل الكفر كلها[٤]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٩٢): إذا نظرت إلى شارع مزدحم بالناس والسيارات، تجد الحركة إلى كل اتجاه، كل إنسانٍ يسعى إلى هدف، هذه حركة بسبب دوافع وشهوات، وهذه الحركة جاء منهج الله ليضبطها ويجعلها في صالح الإنسان، فالسعيد والناجي هو**

---

(١) [آل عمران: ٢٠].

(٢) محمد بن جرير بن يزيد الطبري، أبو جعفر(٢٢٤ - ٣١٠ هـ)، المؤرخ المفسر الإمام. ولد في آمل طبرستان، واستوطن بغداد وتوفي بها، له أخبار الرسل والملوك (تاريخ الطبري) و(جامع البيان في تفسير القرآن وهو ما يُعرف بتفسير الطبري ) [**الأعلام** للزركلي (٦/ ٦٩)].

(٣) [النحل: ٩].

(٤) الطبري، **جامع البيان** (١٧/ ١٧٤).

**الذي تطابق هدفه مع المنهج والهدف الذي رسمه الله له[١].**

## المَلَك يُلهم والشيطان يوسوس

فكلمة هدى تعني حركة نحو الهدف، وهذا الهدف إما أنه من صنعِ البشر وإما أنه من الله ﷻ، فهو ثنائي القطبية ولا يوجد حلٌّ وسط، فالمَلَك يُلهم والشيطان يوسوس، ولا بدَّ أن يستجيب الإنسان لأحدهما لأنه كائن متحرك، فإذا كان من صنعِ الإنسان فالأغلب أنه خطأ، ويُصاب الإنسان بخيبة أمل حينما يكتشف أنه عاش عمراً مديداً ضل فيه سواء السبيل، والناجح هو الذي يسأل الله تعالى عن الهدف والطريق إليه، وقد أنزل الله تعالى هذا القرآن ليدلُّنا عليه، وعلى منهجنا: إفعل ولا تفعل. فالهدى: كل شيء يدلك على الله إن أردت الهدى، وإن لم ترد الهدى فلن تبلغه، يقول الله تعالى: ﴿فَإِن لَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكَ فَٱعۡلَمۡ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهۡوَآءَهُمۡۚ﴾[٢].

## شهوات الإنسان سبب حركاته

فالإنسان خلقه الله حركيّاً بطبعه؛ حينما أودع فيه شهوات يسعى للحصول عليها وامتلاكها، فحاجته إلى الطعام تدفعه للزراعة وتربية الحيوان، وحاجته

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣) والدرس (٥٧).

(٢) [القصص: ٥٠].

إلى المال تدفعه للعمل، وحاجته إلى المرأة تدفعه للزواج، وغير ذلك من الحاجات الكثيرة التي تكمّله. ويضرب الشيخ النابلسي مثلا للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (٩٣): تجد أن في بال كل إنسان هدفاً يتحرك إليه بسبب شهواته، أما لو وضعنا الكأس في مكانه مئات السنين فلا نجده يتحرك؛ لأنه لا يحتاج إلى شيء يكمّله، إذن الإنسان حركي، وسبب هذه الحركة شهواته**[(١)].

## يُستوحى من هذا المثل سؤالان:

الأول: ما هو الهدف الذي ينبغي أن يسعى إليه الإنسان؟

الثاني: من هي الجهة المخوّلة بأن ترسم هذا الهدف؟

الإنسان في الأصل غير مؤهّل بأن يرسم لنفسه هدفا، وإذا رسم لنفسه هدفا فقد يكون غير صحيح، وقد يكون وعرا وشاقا، فحينها اعتمد أناس على العقل وقدّسوه إلى درجة الحماقة كان سبب دمارهم، وقدّس أناس العادات والتقاليد فكانت سبب تخلفهم، وبعضهم قدّس الشهوة والمادة أو الروح، وبعضهم قهر النفس، وادعت شعوب أنها شعب الله المختار في الأرض فقهرت بقية الشعوب، فكانت الأهداف كلها منقطعة وغير صحيحة.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣).

**وللإجابة عن السؤالين السابقين:**

١- إن الهدف الحقيقي للإنسان المؤمن أنه مخلوق للجنة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢﴾[1].

٢- وأن خالق الإنسان وحده الذي يقدر أن يرسم له هذا الهدف، قال تعالى: ﴿قُلۡ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلۡهُدَىٰۗ﴾[2]، أي: الهدى الحقيقي والاستقامة الحقيقية، وليس الأمر كما زعم الآخرون، وغير ذلك ما هو بهدى إنما هو هوى[3]، وقال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٣٨﴾[4].

٣- وأن الطريق إلى هذا الهدف هو طاعة الله ﷻ، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦﴾[5]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب من واقع الحال فيقول:

---

(١) [البقرة: ٨٢].

(٢) [البقرة: ١٢٠].

(٣) الطبري، **جامع البيان** (١١/ ٤٥٥)، أيضا: ابن أبي حاتم، **تفسير القرآن العظيم**، (٤/ ١٣٢٢). أيضا: الزمخشري، **الكشاف** (١/ ١٨٣).

(٤) [البقرة: ٣٨].

(٥) [الذاريات: ٥٦].

**المثل رقم (٩٤): وصل رجل أعمال إلى مدينة، وكان الهدف أن يلتقي بشركة ولا يعرف أين هي، إذن هو يحتاج إلى من يرشده ويوصله**[١].

نفهم أن الرجل المقصود في هذا المثل هو الإنسان، وأن الشركة التي يهدف الوصول إليها هي الجنة، فهو بحاجة إلى من يدله عليها ويرشده إليها، وهم الأنبياء والرسل والكتب السماوية، فإذا استهدى بذلك نجا ونجح.

## نستهدي الله بالهدف والطريق قبل فوات الأوان

فلا بد إذن أن نستهدي الله بالهدف والطريق الموصلين في الوقت المناسب وقبل فوات الأوان، عن أبي ذر رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال فيما يرويه عن ربه عز وجل: «**يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلا مَنْ هَدَيْتُهُ، فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ**»[٢]. ويطرح الشيخ مثالاً آخر ذا دلالة توضيحية، فيقول:

**المثل رقم (٩٥): إنسان يقود سيارته إلى مدينة بعيدة، لم يلتفت إلى مشير الحرارة؛ لأنه منغمس في حديث ممتع مع صديقه، فارتفعت، واحترق المحرِّك، فما قولك لو كان المؤشر يصدر صوتاً**[٣]**؟**

إذا كان المؤشر يُصدر صوتاً كان خيار النجاة أقوى، فيمكن للسائق أن يرى

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٤).

(٢) **صحيح مسلم** (٤/ ١٩٩٤) برقم (٢٥٧٧).

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣).

ويمكن له أن يسمع، فما قولنا إذا أعطى الله تعالى الإنسان السمع والبصر والفؤاد من أجل أن يهتدي إلى طريق النجاة، ويحمي نفسه من المخاطر، ويميز الخبيث من الطيب، والنافع من الضارّ، فهل يبقى له بعد ذلك أيّة أعذار؟؟

## صراع قائم بين الحق والباطل

فقد تعددت التفسيرات البشرية لحركة التاريخ الإنساني، (ماركس)[1] مثلا يرى بأن هذه الحركة صراع بين الطبقات، و(همنغتون)[2] يرى بأنها صراع بين الحضارات، و(داروين)[3] يرى بأنها صراع من أجل البقاء، في حين أن التفسير القرآني يقرر أن حركة التاريخ الإنساني يحكمها صراع بين الحق والباطل، يقول

(١) كارل ماركس (١٨١٨م-١٨٨٣م)، كان فيلسوفا ألمانيا، سياسيا، وصحفيا ومنظّرا اجتماعيا، ولد لعائله يهودية، قام بتأليف العديد من المؤلفات، إلا أن نظريته المتعلقة بالرأسمالية وتعارضها مع مبدأ أجور العمال هو ما أكسبه شهرة عالمية. انظر الرابط: [ar.wikipedia.org/wiki/كارل ماركس]

(٢) صموئيل همنغتون، أمريكي، (١٩٢٧م-٢٠٠٨م)، أستاذ علوم سياسية، درس في جامعة يال، وهو أستاذ بجامعة هارفرد، اشتهر ببحوثه في انقلابات الدول، ثم أطروحته بأن الحرب العالمية الكبرى القادمة ستكون بين قوتين عظيمتين في العالم هما: العالم الغربي والإسلام، وبيان مخاطر ذلك على الولايات المتحدة. انظر الرابط: [ar.wikipedia.org/wiki/ صموئيل همنغتون]

(٣) سبقت ترجمته.

الله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُواْ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾[١]، ويقول ﷻ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾[٢]، ويقول رب العزة: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا﴾[٣]، فهذا الصراع قائم بين الأفراد تارة وبين الجماعات تارة، تبدأ كلاماً أو مشادة بين شظايا الألسن، ثم تصير دماء وآلامًا وقهراً، يقول في الظلال في سياق التعليق على الأية الأخيرة: انه مشهد حيّ ومتحرك للهدى والضلالة الذي ينتاب من يتفرق إحساسه بينهما فيذهب في التيه، إنه مشهد ذلك المخلوق التعيس لا يدري أين يتجه، ولا أي الفريقين يجيب! إنه العذاب النفسي حتى ليكاد يُحسّ ويُلمَسُ من خلال التعبير[٤]!

## هذا النوع من الهداية لا يملكه إلا الله

**النوع الثالث**: وإذا قبل الإنسان الهداية الأولى والثانية هُدي إلى هداية ثالثة توفيقا من الله تعالى، ليستوعب الحق ويقبل به ويشرح صدره للإسلام، وهذا

---

(١) [الكهف: ٥٦].

(٢) [محمد: ٣].

(٣) [الأنعام: ٧١].

(٤) سيّد قطب، **في ظلال القرآن** (٢/ ١١٣٢).

النوع من الهداية لا يملكه إلا الله تصديقا لقوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾(١)، ومن ذلك قوله ﷻ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾(٢)، وبذلك يظهر الفرقُ بين الدلالة الثانية وهي من عمل الأنبياء والصالحين، والثالثة وهي من عمل الله تعالى وحده، ومع بيان الاختلاف في معنى الآيتين، فإنه يظهر الفرق في تفسيرهما، ويزول كل لَبْسٍ وغموض، أي أن الله يغفر لمن أراد المغفرة لنفسه وسأل عنها، ويعذب من أراد العذاب لنفسه بالأعمال الموجبة لذلك(٣). ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لتقريب ما سبق فيقول:

**المثل رقم (٩٦): أعطى طبيبٌ مريضًا تعليمات مشدّدة في الحِمْية والانتظام على الدواء وممارسة الرياضة، لكن المريض أهمل هذه التعليمات، حتى تطور المرض وتفاقم إلى مرحلة الخطر**(٤).

فالذي اختار هذه النتيجة هو المريض نفسه، لأنه أهمل تعليمات الطبيب وهذا اختياره، مما دعا الطبيب إلى إصدار الأمر بإجراء العمليات الجراحية وشق القلب والتسبب في أوجاع وآلام شديدة وأخطار جديدة.

---

(١) [البقرة: ٢٧٢].

(٢) [فاطر: ٨].

(٣) الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي، الشهير بأبي حيان، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق: صدقي محمد جميل (٤/ ٦١٢)، دار الفكر، بيروت (الطبعة: ١٤٢٠هـ).

(٤) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٥٣).

## الفساد

قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾[1]. فقد خلق الله الملائكة من عقل بلا شهوة، وهم يعبدون الله دائما دون ارتكاب المعاصي، وخلق الحيوان من شهوة بلا عقل، وهمّه بطنه وفرجه فقط، لذا فإنه لا يحاسب وهو غير مكلف، أما الإنسان فقد خلقه من عقل وشهوة، خلقه من طين الأرض ونفخ فيه من روحه، فيه نوازع أرضية وميول علوية، فإذا غلبت الأولى أخلّ بالأمانة، وإذا غلبت الثانية فسد، وكلتاهما تسير بالإنسان المنحرف عن منهج الله تعالى إلى الهاوية، يقول ﷻ: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ ﴿٣١﴾﴾[2]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب عن هذا الفساد ويقول:

**المثل رقم (٩٧): الفساد كالمركبة، والشهوة فيها هي كالمحرك وقوة الاندفاع، والمنهج هو المِقود، فلو كانت هذه المركبة تنطلق بسرعة عالية في طريق مليئة بالانعطافات والظلام وبلا مقود، فلا بدَّ أن تهوي به في الوادي وتتحطم**[3].

---

(١) [البقرة: ١١-١٢].

(٢) [الحج: ٣١].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣).

فكلما تحركت الشهوة في الإنسان عشوائياً وبلا ضوابط، رافقها العدوان على أعراض الناس وأموالهم، وأي عدوان فإن مصيره دائما هو العقاب، والمقود هو إتباع شريعة الله تعالى، أوامره ونواهيه، والمؤمن حينما يستقيم على أمر الله فإنه يتّقي عقابه ﷻ، وعقل الإنسان إنما أراده الله سبحانه له ليردعه عن الحركة التي فيها هَوى، ويحقق بها شهوة ليست له، ونتائجها متعبة له ولمن حوله[1].

## الإيمان والعقل والعلم

يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾[2]، وقال الله ﷻ: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾﴾[3].

تدل هذه الآيات على أن للعقل دور هام في التفكر لمعرفة الله تعالى والتوصل إليه عن طريق مخلوقاته، إلا أن العقل وحده غير كاف للحكم والتوصل لهذه الحقيقة

---

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١٠/ ٦٢٣٢).

(٢) [البقرة: ١٦٤].

(٣) [آل عمران: ١٨].

دون هداية ترشده، فبعض الشعوب قدّسوا العقل إلى درجة الغباء فظهرت الأمراض والأوبئة والانحلال والفساد، وفهموا أن العقل بحاجة إلى هداية تكون مرشدا ودليلا، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٢٠﴾[1].

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً من واقع الحال للدلالة على هذا المعنى فيقول:

**المثل رقم (٩٨): إنسان له عيون مبصرة وحادّة، وخلال فحص عند طبيب العيون نجده يجيب على جميع اتجاهات الحروف (على شكل حرف C)حتى المتناهية في الصغر في آخر سطر، ويحصل على العلامة القصوى مائة بالمائة، فلو أن نفس هذا الإنسان جلس في غرفة مظلمة لا يوجد بها ضوء يرى به الأحرف، فما قيمة العينين الحادتين[2]؟**

## لا قيمة للعقل الإنساني دون هداية ترشده

فلا قيمة للعينين الحادتين إطلاقا من دون ضوء يكون وسيطاً وهادياً بينهما وبين اللوحة، وقد يستوي بهما الأعمى والبصير!! كذلك لا قيمة للعقل الإنساني التام من دون وحي يهديه ويرشده، فالعالم الغربي قائم على العقل والعبقرية فقط، ولو قدم إنجازات مادية مذهلة، لكنه هبط اجتماعيا وأخلاقيا، فمرض

---

(١) [البقرة: ١٢٠].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٧).

الإيدز والجريمة، والتفكك الأسري والانحلال الأخلاقي، وانتشار المخدرات والأزمات الاقتصادية وجرائم الحروب من دلائل هذا الهبوط، فهو إنسان يتحرك وفق عقله فقط بعيدا عن نور الله. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً من واقع الحال فيقول:

**المثل رقم (٩٩): يمشي سائق مركبة في طريق مظلم فيجد لوحة: هنا تقاطع خطر، ولوحة ثانية: هنا جسر، ولوحة ثالثة: هنا حفريات، ولكن لو كان يمشي في وضح النهار، فإنه يراها أمامه واضحة رؤية حقيقية مباشرة[1].**

وكذلك المؤمن، حينما يمتلك النور والهدى من الله ﷻ، لكان يمتلئ قوى كامنة كثيرة وإبداعات عظيمة، دونما حاجة إلى لوحة ترشده أو أية تعليمات تحتمل الصواب أو الخطأ.

## مثال آخر للتوضيح:

ويضرب الشيخ النابلسي مثلا آخر من واقع الحال للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (١٠٠): الطيّار في الليلة الظلماء أو في حال الضباب ينزل وِفق تعليمات جهاز اللاسلكي على الأرض، فكلما انحرف مترا، يُعطَى تعليمات معينة للعودة إلى المسار الصحيح، أما إذا كانت الشمس ساطعة، والطريق واضحا فلا يحتاج إلى هذه التعليمات، إنه ينزل معتمداً على الرؤية الواضحة[2].**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٣٧).

(٢) المصدر نفسه.

فكيف إذا كانت الرؤية الواضحة، وهي نور الشمس في هذا المثل، هي نور الله تعالى وبصيرة منه، ترى الأشياء حقيقة لا خيالا، تراها واقعا لا أصواتا ورناتِ الأجهزة اللاسلكية التي إن تعطلت فإن الدمار سيحلّ بالطائرة ومن عليها!

## الدين أساس القيم الأخلاقية؟

كما أن استخدام العقل وحده دون هداية وإرشاد من الوحي الإلهي قد ينتهي بالإنسانية إلى الدمار، ويبرهن الشيخ النابلسي على هذا القول فيقول:

**نجد كبار العلماء يصنّعون القنابل الخطيرة، ويهدّدون البشر بأنهم قادرون على تدمير الكون بلا رحمة، لكن القيم الأخلاقية تمنع العقل من عمل ذلك**[1].

فكيف إذا علمنا بأن الدين أساس هذه القيم الأخلاقية؟ وأن الدين والأخلاق أساسهما العقل المستنير بنور الله، وأن العقل يحتاج كما أسلفنا إلى وحي وإرشاد وتوجيه للقيم البناءة، وخلاف هذا المنهج يحيل العقل إلى أداة للموت والدمار، ونشر الفساد والأخطار! فعقل الإنسان والتفكر في خلق الله ﷻ هو الأصل للإيمان بالله والتصديق به.

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٧).

## يجب أن يفكر من أوجد هذا الكون؟

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾[1]، عن عائشة[2] رضي الله عنها، عن رسول الله ﷺ أنه قال في هذه الآية: «وَيْلٌ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَفَكَّرْ فِيهَا»[3]. فالإنسان حينما جاء إلى هذا الكون العظيم وجده مُعَدّا إعداداً مثالياً للحياة عليه، فكان يجب أن يفكر من الذي أوجد هذا الكون؟

## يقولون ببساطة: ماذا يعني خلق الله؟

فالإيمان ضرورة فطرية وضرورة عقلية أيضا، فخلْق الله تعالى ومخلوقاته، يدل عليها عقل الإنسان إن هو بحث عن الحقيقة وأراد الوصول إليها، يقول تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾[4]، ولكن إذا عطّل

---

(١) [آل عمران: ١٩٠].

(٢) عائشة بنت أبي بكر الصديق، الصحابي الجليل، أم المؤمنين، وزوج النبي ﷺ، ولدت في قبل البعثه بأربع سنين تقريبا، وروت العديد من الأحاديث عن الرسول الكريم ﷺ، بلغ عددها (٢٢١٠) منها (٣١٦) في الصحيحين. توفيت سنة (٥٨ هـ). [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (٨/ ٢٣١) رقم (١١٤٦١)].

(٣) **صحيح ابن حبان** (٢/ ٣٨٧) رقم (٦٢٠). قال الألباني في السلسلة الصحيحة رقم (٦٨): إسناد جيد.

(٤) [البقرة: ٢٦].

الإنسان عقله في البحث عن الحقيقة، فإنه لن يجدها ولو مكث عمره كله في أعظم المراصد الفلكية والبحوث العلمية، ولو اكتشف بنفسه عجائب خلق الله وتحقق منها فإنه لن يؤمن، يقول الله تعالى في حق هؤلاء: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ﴾[١]، فهؤلاء يتعامون عن عجائب خلق الله تعالى ويقولون ببساطة: ماذا يعني خلق الله؟ قال الحسن البصري[٢]: "إن أحدهم لينقر الدرهم بطرف ظفره فيذكر وزنه ولا يخطئ، وهو لا يحسن يصلي"[٣]، ساهون عن الآخرة جاهلون بها! ولا يتفكرون فيها ولا يعملون لها! كأنهم أجسام بلا عقول. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (١٠١): آلة تصوير متطورة جدا ثمنها مليون ليرة ولكنها دون بطارية[٤]!!**

---

(١) [البقرة: ٢٦].

(٢) الحسن بن الحسن البصري، تابعي جليل، حفظ القرآن في العاشرة من عمره، يكنى أبا سعيد، ولد قبل سنتين من نهاية خلافة عمر بن الخطاب في المدينة، وكانت أمه تابعة لخدمة أم سلمة فرضع منها وتربى في بيت النبوة، وكانت تخرجه إلى الصحابة فيدعون له، ودعا له عمر بن الخطاب فقال: "اللهم فقّهْهُ في الدين وحبّبه إلى الناس". توفي سنة (١١٠هـ). [ابن سعد، **الطبقات الكبرى**(٧/ ١١٥)].

(٣) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (٦/ ٣٠٥).

(٤) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٤).

بينما آلة تصوير بسيطة ورخيصة!! أراد صاحبها أن يستخدمها فوضع فيها البطارية أو الذاكرة، فإنه يستفيد منها ويلتقط المناظر التي أمامه.

## إما أن يرتقي وإما أن يهوي

فقد يكون الإنسان شديد الذكاء وعبقريا، ويمتلك معلومات مذهلة، وآيات وأدلة تقشعر لها الأبدان، ومع ذلك لا يستفيد منها لأنها لا تعنيه في الوصول إلى الحقيقة، فالعبرة أنه لو أراد الحقيقة فإنه يتأثر بها ويصل إليها، وإذا لم يردها فلن يصل إليها ولو كان عالما!! بدليل قوله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًاۚ﴾[1]، فالحديث في الآية عن البعوضة، وهي ذات الشاهد في الآية، يرفضها إنسان ويهتدي بها آخر، فالأول يستهزئ والثاني يخشع ويخشى، فإما أن يرتقي وإما أن يهوي. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر للتوضيح، فيقول:

**المثل رقم (١٠٢): الأول تجده يبحث عن الحقيقة، وإذا سمع عن عظيم قدرة الله في خلقه يبكي!! والثاني يسألك: كم وصل سعر الدولار اليوم[2]؟**

وكأن هذا الموضوع لا علاقة له به! لا يهمّه أن يعرف الله أو أن يصل إليه، فالذي يهمّه شأن الدنيا، كالبيوت والسيارات والتجارة، والأرباح والشهوات!! فالأول هنا والثاني هناك، ولكل إنسان وجهة هو موليها وفق تفكيره وهواه!!

---

(١) [البقرة: ٢٦].

(٢) المصدر نفسه.

## رفض الأديان بحجة أنه عقلاني!

معالم الاختلاف جوهرية يستحيل معها اللقاء على شيء في منتصف الطريق، لأن أصل الاختلاف في جوهر الاعتقاد ولبّ التصور، وحقيقة المنهج وطبيعة الطريق[1]، فالعقل يفتقر إلى التفكير السليم ليستدل على الخالق من خلال خلقه، وبعض الشعوب رفض الأديان بحجة أنه عقلاني؛ عقله هو دينه وهو الحكم!! والصحيح أنه جهلاني لأنه يفتقر إلى التفكير السليم. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (١٠٣): لو أن إنساناً يمتلك عينين حادتين وأمامه منظر جميل في مكان مظلم، ما قيمة العينين؟ لو جلس أعمى في غرفة، وجلس معه إنسان له عينان حادتان، وأطفئ المصباح، ألا يستويان تماماً[2]؟**

فالمصباح الذي ذكره الشيخ في هذا المثل هو النور الرباني الذي يحتاجه كل إنسان، سواء كان إنسانا جاهلا أو كان ذا لبّ حكيم يتوصل به إلى الهدف المرجوّ، وبدون هذا النور فإن هذا العالم العاقل لا يرى الأشياء على حقيقتها ولو تحسّسها عن طريق التجربة كما يدّعي العلمانيون.

---

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٦/ ٣٩٩٢).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٧).

## قد ينتهي الأمر إلى الدمار!!

ويقول الشيخ النابلسي في مثال آخر للتوضيح: فإن قيل: لا قيمة للعينين من دون نور يكون وسيطا ليرى من خلاله اللوحة، كذلك العقل، لا قيمة له من دون وحيٍ يرشده، فإنسان يتحرَّك وفق عقله فقط لا وفق منهج الله ﷻ، فهو منحرف وشاذ بفعل الشهوات والمصالح والأطماع، فهؤلاء يصنّعون القنابل الذرية والنووية والهايدروجينية، والأسلحة الكيماوية والبيولوجية، ويهددون البشر والكون والحياة بسبب استخدام العقل فقط، وقد ينتهي الأمر إلى الدمار!! لكن القيم الأخلاقية قد تمنع أحيانا العقل من ذلك، فكيف إذا علمنا بأن الدين هو أساس الأخلاق[1]؟

## الإيمان بوجود الخالق عن طريق العقل

أما عن العقل والنقل، يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩٠﴾[2]، ويقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخًاۚ﴾[3]،

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٧).

(٢) [آل عمران: ١٩٠].

(٣) [غافر: ٦٧].

ويقول تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾[1].

فالمنهاج القرآني يقدم الإيمان بوجود الخالق الواحد وعظمته وعظيم خلقه عن طريق العقل على الإيمان بالنقل وبالرسالة التي حملت إلى الناس هذا النقل، وذلك لأن الإيمان بصدق النقل متوقف على الإيمان بصدق الرسول ﷺ، والإيمان بصدق الرسول متوقف على الإيمان بوجود من أرسل هذا الرسول، فلا بد من الإيمان أولا بوجود الخالق الذي بعث الرسول وأنزل عليه الكتاب، وطريق ذلك هو العقل الذي يتدبر المصنوعات، فيؤمن بالصانع القدير لهذه المصنوعات، قال الله ﷻ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾[2].

## النص المأثور يعطّل العقل مطلقا

فإذا آمن وصدّق الإنسان بالخالق إيمانا مطلقا، انتقل إلى نصوص الوحي لتعميق هذا الإيمان وترسيخه، وترجمته إلى سلوك وعبادات ومعاملات، والنص المأثور في هذه المرحلة يعطل العقل مطلقا، لكن لو كان هذا النص غير مأثور وغير موثق، أو كان من أهل الإلحاد؛ علماء وباحثون، أو أصحاب نظريات فكرية خالفت حقيقة دينية، فوجب على الإنسان تركها والتخلي عنها فورا، وعدم التصديق بها، لأنه لا بد وأن كل ذلك يخالف الواقع المحسوس

(١) [البقرة: ٧٣].

(٢) [الذاريات: ٢٠-٢١].

ولو بعد حين، والدليل على ذلك الردّ على أصحاب الافتراءات والنظريات الفاسدة في قول الله تعالى: ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾(١)، ويقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾﴾(٢). ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب والدلالة على وجوب التصدي والردّ على هؤلاء فيقول:

**المثل رقم (١٠٤): تجد كتاب أطلس في أضخم دار نشر في أمريكا، ثمنه عشرات الألوف، ووجدت دمشق على ساحل البحر! وأنت ابن الشام! هل تصدقهم؟ فالواقع أقوى من أيّ نصّ**(٣).

## النصّ هو الحقيقة، والواقع هو الكون

فالنصّ من عند الله تعالى هو الوحي والنقل بالمأثور، وهو الحقيقة المطلقة، والواقع هو الكون والخلق، وكل من النقل والواقع يدلان على وجود الله تعالى وعلى عظيم خلقه، وليس من حق العقل أن يكون حكما على النقل ليقبل به أو يرفضه على هواه. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر من حياتنا المعاصرة لزيادة التوضيح فيقول:

---

(١) [الكهف: ٥١].

(٢) [آل عمران: ٦٥].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٤٢).

**المثل رقم (١٠٥): لو مات عالم قبل مئة عام ثم خرج من قبره وقيل له: هذا قرص (CD) واحد يحوي أكثر من ألف كتاب، ويمكن الحصول على أية معلومة من أي كتاب منها بالضغط على زر[1]!!**

**ويقول الشيخ أيضا:**

**المثل رقم (١٠٦): أو قيل له: من الممكن أن نبعث رسالة خطية أو صوتية إلى أقصى مكان في العالم خلال ثانية واحدة[2]!!**

هذه الأمور لا يصدقها عقل، ولكنها حقائق ملموسة تمثل حقبة زمنية أو عصر معيّن، يلزم العقل التصديق بها للدلالة على عظيم صنع الإنسان وتطور حياته، كما أن الكون والمخلوقات حقائق محسوسة ومشاهدة بالعين تدل على وجود الله وعظيم خلقه، فإن مَشاهد يوم القيامة، والجزاء والحساب، والجنة والنار، وعذاب القبر، حقائق وغيبيات وردت بالنصّ المأثور، ولا خيار للعقل البشري إلا التصديق بها. ويضرب الشيخ الشعراوي مثلاً على نفس السياق للدلالة على دور التفكر في التوصل إلى عظيم خلق الله فيقول:

**المثل رقم (١٠٧): لو ضاع إنسان في سيارة يعبر بها الصحراء، حتى نَفَذ الزاد والشراب وأيقن بالهلاك، ثم أخَذَتْه سِنَةٌ من النوم، بعدها استيقظ ليجد مائدة فيها أطيب الطعام وألذّ الشراب، ألا ينبغي قبل أن يأكل أن يسأل مَن الذي**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٧).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٧)..

أعدَّها وهيَّأها[١]؟!

فكما ينبغي على الإنسان التصديق بالآيات الكونية المحسوسة والمشاهدة بالعين، وقد وردت بالنص المأثور واستوعبها العقل البشري، ينبغي على العقل البشري كذلك التصديق والإيمان بالغيبيات التي وردت بالنص المأثور.

## الضلال الاختياري والإضلال الجزائي

الإضلال الجزائي مبنيّ على الضلالِ الاختياري، فحينما يعزو الإنسان ضلاله إلى الله فقد انحرف عن منهج الله وضلّ، فإذا وُجد في القرآن آيةٌ يُفهم منها أن الله أضل الإنسان، فهذا هو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالُواْ قُلُوبُنَا غُلۡفُۢۚ﴾[٢]، أي نحن لا نهتدي، فردّ عليهم رب العزة: ﴿بَل لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفۡرِهِمۡ﴾[٣]، أي بسبب كفرهم بالله وجحودهم بالنعمة، فالسَّبَبَ فِي نُفُورِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ إِنَّمَا هُوَ أَنَّهُمْ لُعِنُوا بِمَا تَقَدَّمَ مِنْ كُفْرِهِمْ وَاجْتِرَائِهِمْ، وَهَذَا هُوَ الْجَزَاءُ عَلَى الذَّنْبِ بِأَعْظَمَ مِنْهُ[٤]، وقوله تعالى:

---

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن**، (٨/ ٤٩٨٤).

(٢) [البقرة: ٨٨].

(٣) [البقرة: ٨٨].

(٤) تفسير الطبري (٢/ ٣٢٨)، تفسير القرطبي (٢/ ٢٥).

﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٧﴾[١] وقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿كَيۡفَ يَهۡدِي ٱللَّهُ قَوۡمٗا كَفَرُواْ بَعۡدَ إِيمَٰنِهِمۡ﴾[٣]، لأن عدم هدايتهم راجع إليهم، فهم لا يريدون أن يهتدوا بسبب كذبهم وعنادهم، وحبّهم للدنيا وشهواتها، وهذا الضلال كله باختيارهم ولم يكن مفروضا عليهم.

## إذا خلق الله الإنسان كافراً فكيف يُحاسب؟

فإذا عصى الإنسان ربه عزا الأمر إلى الله فيقول: الله كتب عليَّ هذا! وإذا تاب واستقام وعمل الصالحات يقول: انتبهت لحالي، تبت وصحوت!! لماذا يعزو الإيجابيات لنفسه ويعزوا السلبيات إلى الله ﷻ؟ هذا كلام غير منطقي[٤]! فإذا خلق الله ﷻ الإنسان كافراً وكتب عليه ذلك فكيف يُحاسب؟ وكيف يُفهم قول الله ﷻ: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡ﴾[٥]، وإذا توهّم المؤمن في أية لحظة بأنه مسيَّر فقد انتهى التكليف وألغيت الأمانة، وألغي الثواب والعقاب، وألغيت الجنة والنار!! نعوذ بالله من هذا الكلام كله!!

---

(١) [البقرة: ٢٦٤].

(٢) [آل عمران: ٨٦].

(٣) [آل عمران: ٨٦].

(٤) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣١).

(٥) [الكهف: ٢٩].

## يدّعي بأن الله كتب عليه الكفر!

إذن فلا بد للإنسان من بذل الجهد؛ لاتباع هدى الله تعالى؛ لضمان الأمن والسعادة في الحياة الدنيا والآخرة، وإلا فإنه يحيا كالأعمى والأصم، ثم يدَّعي بأن الله كتب عليه الكفر وما أراد له الهداية، كالمثل الذي يضربه الشيخ النابلسي للتقريب، فيقول:

**المثل رقم (١٠٨): طالب في الجامعة لم يداوم إطلاقاً، ولم يقدمْ امتحاناً ولم يشترِ كتابا ولم يلتقِ بأستاذ، والجامعة قدَّمت له الإنذار تلو الإنذار تدعوه إلى الدوام والانضباط، فأصرّ على موقفه ولم يستجب، وتمّ فصله تجسيدا لرغبته، حينئذ يقول: هذه الجامعة ما أرادت لي أن أدرس[1]!!**

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر من واقع الحال لبيان هذا المعنى فيقول:

**المثل رقم (١٠٩): أب له عدد من الأبناء، وطموحه أن يدرسوا جميعا بلا استثناء، ليكونوا في أعلى مقام، لكن أحد هؤلاء مصرّ على ترك عناء الدراسة واللجوء إلى العمل الشاق وكسب المال!! حاول معه أبوه بالإكرام وهيأ له الأساتذة والكتب والدورات والأجهزة، ثم بالتهديد والوعيد، وبعد محاولات يائسة تيقّن الأب أن ابنه لا يمكن أن يدرس، فسحب منه الكتب والأجهزة،**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٥ و٨٤)، وآل عمران النابلسي، الدرس (٤).

**ودفعه إلى العمل الشاق، هل هذا العمل تجسيد لرغبة الابن؟ أم هو قهر له؟** [١].

فهذا هو الإضلال الجزائي المبني على ضلالٍ اختياري، وأنَّ فصل الطالب من الجامعة أو عقاب الأب لابنه الكسول هو تجسيدٌ لرغبته وتنفيذٌ لإرادته، لأنه لم يكترث ولم يأبهْ بالإنذارات الأكاديمية ونتائجها الحتمية.

نضرب مثلا آخر للتوضيح:

**المثل رقم (١١٠): أحياناً تدخل إلى مدرسة نموذجية ذات إدارة ممتازة ومناهج رائعة، وقيم وأساليب تربوية عالية، فإذا عاقبت أحد الطلاب المشاكسين يُقال: منهاج هذه المدرسة قائم على تعذيب الطلاب** [٢]**!؟**

فالمنهاج الحقيقي والهدف الأسمى من إنشاء هذه المدرسة، هو أن يكون طلابها علماء وحكماء، وأن يكونوا قادة وقدوة للأمة، أما حينما ينحرف أحد الطلاب فيها أو يشاغب، فلا بدّ أن يعاقب، وإلا فإن الفساد والفوضى ينتشران في هذه المدرسة.

## لا إكراه في الدين!

يقول الله تعالى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [٣]، ويقول ﷻ:

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٥٣).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٢٩).

(٣) [البقرة: ٢٥٦].

﴿أَفَمَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِ كَمَنۢ بَآءَ بِسَخَطٖ مِّنَ ٱللَّهِ﴾[1].

فالله تعالى يريد قلوباً تأتي له بعامل الاختيار والمحبة والرضا التام، لا بالإكراه والسخط، مع استطاعته وهو الخالق الأكرم أن يخلق البشر على هيئة غير قابلة للمعصية، كما خلق الملائكة، وأن يهديهم كما هدى كل الأجناس تُسبّح بحمده.

## حينما يميل الإنسان إلى هواه!

والله سبحانه لا يبدأ إنساناً بأمر يناقض تكليفه، لكن الإنسان حينما يميل إلى هواه يتخلى الله عنه فيندفع إلى الهاوية، فلا أحد يمكنه أن يغلب الله، فقد يُرى الرجل الذي أسرف على نفسه في تناول المحرمات كالخمر مثلاً، فتتلف عنده الكبد، فيحرّم عليه الطبيب الخمر مع صنوف كثيرة من الطعام والشراب!! ومن أسرف على نفسه في تناول صنف معين من الطعام كالسكّر مثلاً تعطل البنكرياس في جسده، ومن يقترف فاحشة الزنا أصيب بالإيدز، الخ...[2]!! فالإنسان يندفع إلى ذلك كله مختاراً، سواءٌ كان يعلم أو لا يعلم أنه مخالفٌ لمنهج ربه وتعاليمه، وهو يمر في امتحان يحصد وحده نتائجه. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً من واقع الحال للتقريب فيقول:

---

(١) [آل عمران: ١٦٢].

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن**، (٥/ ٢٨٠٨).

**المثل رقم (١١١): صيدلي يحتاج موظفاً لينوب عنه، فأراد أن يمتحنه، يضع الأدوية كلها أمامه ليوزِّعها حسب خبرته، هذه الخزانة للفيتامينات، وهذه للمضادات الحيوية، هذه للسموم، وهذه للمقويات، هذا الموظف يجب أن يكون على علمٍ بالأدوية وخصائصها، فلو أمسك مادة من السموم ليضعها في خزانة الفيتامينات فإنه لن يمنعه، وسامحه له هو إزاغته، لأنه لو منعه ما امتحنه[١]!**

## إن أصاب فقد اهتدى، وإن أخطأ فقد ضلّ

لقد سمح له بالعمل مختارا وفق التعليمات التي درسها، وقد يصيب وقد يخطئ، فإن أصاب فقد اهتدى، وإن أخطأ فقد ضلّ، فلا بُدَّ أن يكون حرا طليق الحركة، من أجل أن يُعاقب على ارتكاب معصية أو يُثاب على العمل صالح.

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (١١٢): هل من الممكن أن يقف أستاذ مراقب فوق رأس كل طالب خلال الامتحان ويقول له: هذه الإجابة خطأ، اكتب هكذا[٢]؟**

فالامتحان الحقيقي أن يكتب الطالب في ورقة الإجابة ما يشاء مختارا تبعا لجهوده في الدراسة، ووفقا لعلمه وفهمه، فإذا توافقت مع الإجابة الصحيحة فأنه ينجح بحق، وإذا اختلفت فإنه يرسب بحق.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٤)، درس (٥٣).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٥).

## نجاح مضحك لا قيمة له!!

**المثل رقم (١١٣): تماما حينما تهدف الجامعة أن ينجح كل طلابها بتفوق، تعطيهم أوراقاً مطبوعاً عليها الجواب الصحيح، يكتب الطالب اسمه ورقمه فقط، وتكون النتيجة عامة: نجح كل الطلاب بامتياز(١)!!.**

هذا نجاح مضحك!! لا قيمة له عند رئيس الجامعة ولا عند الناس ولا عند الطلاب أنفسهم، فالعظمة في الجامعة أن تأتي النتائج وفق الأسباب والمُقدمات لكل طالب حسب جهوده وتفوقه، فالله ﷻ خلق الخلق والأعمال ودعاهم إلى العمل الجادّ، وأمرهم بالهدى وترك لهم اختيار الطاعة أو المعصية، وتلقّي الجزاء العادل في نهاية المطاف، بقوله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾(٢)، فيا لهول الكلمة! ويا لحسم التوجيه(٣)!

## يدعوه إلى الإيمان دون أن يُجبره

فالإنسان مخلوق مخيَّر في اتباع الهدى والسلوك، يحذّره ربه تعالى من عاقبة الكفر والعصيان ويدعوه دوما إلى الإيمان، ويحثّه عليه ويرغّبه فيه، ولكن دون أن

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٥).

(٢) [المطففين: ٢٦].

(٣) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٢/ ١٠٧٨).

يجبره، يقول الله تعالى: ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ﴾[١].

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً من واقع الحال للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (١١٤): أبٌ بسيطٌ، طموحه أن يكون ابنه متعلِّماً، هل يُعقل أن يمنع ابنه من تأدية الامتحان ليرسُب؟ هذا مستحيل[٢]!!.**

هذا تناقض الإرادات!! فإذا كان هذا لا يُقْبَل بحقِّ الإنسان فكيف يُقْبَل بحق الواحد الديَّان؟ وكيف تتناقض إرادة الله ﷻ وهو القائل: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[٣].

## أمر عجيب حقا!

**المثل رقم (١١٥): أيعقل أن يأمر مدير مؤسسة موظفاً بأن يسافر إلى حلب، فيتهدّده ويعاقبه في اليوم التالي لأنه غاب عن الدوام[٤]!!**

إنه أمر عجيب حقا! أن يُصدر المدير أمرا للموظف، ثم يعاقبه في اليوم التالي على تنفيذه!! فإذا كان هذا الظلم لا يليق بالبشر فكيف يليق برب البشر أن يعاقب العباد على ارتكاب معصية، أو أمرٍ قضى به دون أن يكون لهم فيه حق

---

(١) [البقرة: ١٤٨].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٥).

(٣) [النساء: ٢٧].

(٤) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٢٣).

الاختيار، قال الحلاج[١]:

ألقاهُ في اليمّ مكتوفاً وقال له ... إيّاكَ إيّاك أن تبتلّ بالماء![٢]

## هذا الظلم، كيف يليق بخالق البشر؟؟

لذا، كيف ينبغي إذا قدَّر الله معصية على عبده وهو عاجز عن دفعها أو حجب عنه التوبة، أن يعذِّبه؟ أو كتب عليه الإيمان المطلق، وحجب عنه المعاصي دون اختيار أنَ يُدخله الجنَّة؟ ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (١١٦): هل من الممكن أن نعطي طالباً أوراق الأسئلة والإجابة الكاملة بخط الأستاذ قبل الامتحان بيومين، ونقول له: اكتب اسمك ورقمك فقط، ونقيم له حفلاً تكريميَّاً عظيماً لأنه نال الدرجة الأولى على كل الطُلاَّب[٣]!!**

(١) هو الحسين بن منصور الحلاج فيلسوف، عدّه البعض في كبار المتعبدين والزهاد وعدّه آخرون في زمرة الزنادقة والملحدين، أصله من بيضاء فارس، ونشأ بواسط العراق، وظهر أمره سنة (٢٩٩هـ) فاتّبع بعض الناس طريقته في التوحيد والإيمان. توفي سنة (٣٠٩ هـ). [ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد (المتوفى: ٦٨١هـ)، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس (٢/ ١٤٠) رقم (١٨٩)، دار صادر – بيروت، ١٩٩٤م].

(٢) الحلاج، الحسين بن منصور الحلاج، **ديوان الحلاج**، تحقيق محمد باسل عيون السود (ص١٢٢)، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١٩٩٨،١م.

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٤).

هذا شيء مضحك!! فإذا نجح، فهذا نجاح تلقائيّ ليس له معنى للكفاءة إطلاقاً؛ لأن هذا الطالب لم يدرس ولم يستعدّ، بينما طالب آخر مُنِع قسرا من أداء الامتحان ورسب، فوبَّخه أستاذه أشدَّ التوبيخ، هذا التوبيخ فيه ظلم للطالب ولا معنى له أيضا!! فإذا كان هذا الظلم لا يليق بالبشر فكيف يليق بخالق البشر؟؟

### نضرب مثلا آخر للتوضيح:

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (١١٧): مدير مدرسة، جمع الطلاَّب في أول يوم من أيام العام الدراسي، وقرأ عليهم أسماء الناجحين والراسبين في آخر العام سلفاً، وقال: انطلقوا وادرسوا[١]!!**

على هذا الحال لن يدرس أحدٌ، ولن يعود للدراسة معنىً، وحينما يؤمن الإنسان أن الله خلق فيه الهدى من دون سببٍ أو سعي وجهد منه لاتباعه، فإنه لن يعرف الله ولن يحاول الوصول إليه، تصديقا لقوله تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾﴾[٢]، فجواب الشرط في هذه الآية هو الاتباع، وهو ضروري لمعرفة الله تعالى وطلب هداه للحصول على رضاه، كما أن الهدى القسري ليس له قيمة، قال

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٥).

(٢) [البقرة: ٣٨].

تعالى: ﴿لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ﴾(١)، أما الهدى الحقيقي فهو الذي يأتي عن اختيار ورغبة، فقد أراد الله من عبده أن يسعى إليه محبّا شكورا، لا أن يكون مقهوراً ومنقادا بالاستقامة القسرية.

## عن طريق الكشف لا عن طريق الإجبار

الله ﷻ مضطلع على الغيب، فيكشف ما سيكون في هذا الكون وما سيكون عليه حال الإنسان حسب اختياره، إن كان على الهدى أو إن كان على الضلالة، يقول تعالى: ﴿۞وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ ٥٩﴾(٢)، ويقول تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ فَمِنكُمۡ كَافِرٞ وَمِنكُم مُّؤۡمِنٞۚ﴾(٣)، قال شمس الدين القرطبي: وَقَالَ الزَّجَّاجُ(٤)، وَهُوَ أَحْسَنُ

---

(١) [الرعد: ٣١].

(٢) [الأنعام: ٥٩].

(٣) [التغابن: ٢].

(٤) هو ابراهيم بن السري بن سهل، أبو اسحق الزجاج (٢٤١-٣١١هـ)، عالم بالنحو واللغة وهو تلميذ المبرّد، ولد ومات في بغداد، كان في شبابه يصنع الزجاج فسمي بذلك، طلبه وزير المعتضد مؤدبا لابنه الذي أصبح وزيرا مكان أبيه، فأصاب الزجاج بذلك ثروة عظيمة. [**الأعلام للزركلي** (١/ ٤٠)].

الأَقْوَالِ، وَالَّذِي عَلَيْهِ الْأَئِمَّةُ وَالْجُمْهُورُ مِنَ الْأُمَّةِ: إِنَّ اللهَ خَلَقَ الْكَافِرَ، وَكُفْرُهُ فِعْلٌ لَهُ وَكَسْبٌ، وَخَلَقَ الْمُؤْمِنَ وَإِيمَانُهُ فِعْلٌ لَهُ وَكَسْبٌ، وَالْكَافِرُ يَكْفُرُ وَيَخْتَارُ الْكُفْرَ، لِأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدَّرَ ذَلِكَ عَلَيْهِ وَعَلِمَهُ مِنْهُ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يُوجَدَ مِنْ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا غَيْرُ الَّذِي قَدَّرَ عَلَيْهِ وَعَلِمَهُ مِنْهُ، فهذا لَا يَلِيقَ بِاللهِ تَعَالَى، وَفِي هَذَا سَلَامَةٌ مِنَ الْجَبْرِ وَالْقَدَرِ[1]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً من واقع الحال للتقريب فيقول:

**المثل رقم (١١٨): لو أن مدرساً متمرسا له خدمات في مدرسة تزيد عن خمسين عاماً، وقبل موعد الامتحان بشهر قال: هذا الطالب لا ينجح، وهذا الطالب يكون الأول على الصف، وهذا الطالب يأخذ علامةً عالية في الرياضيات، وهذا الطالب يأخذ علامة عالية في التاريخ[2]!!**

ليس غريبا أو عجيبا أن تأتي هذه النتائج وفق ما توقع هذا المدرس المتمرس مسبقا، وعن طريق الكشف لا عن طريق الإجبار، فتأتي النتائج وفق ما قرر دون أن يجبر أحداً على الاجتهاد أو يتدخل في مشيئة أحد، وهذا المدرس من البشر فكيف مع خالق البشر؟

(١) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** (١٨/ ١٣٣).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨٤).

## كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق الخلق

فالله تعالى كتب مقادير كل شيء قبل أن يخلق الخلق، عَنْ أَبِي حَفْصَةَ(١)، قَالَ: قَالَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ(٢) لابْنِهِ: يَا بُنَيَّ، إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ حَقِيقَةِ الْإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ يَقُولُ: **" إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُّ الْقَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ قَالَ: رَبِّ وَمَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ "** يَا بُنَيَّ إِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ يَقُولُ: **«مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي»**(٣). وعَنْ عبد الله بن عمرو بن العاص(٤) رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ، يَقُولُ: **«كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ**

---

(١) هو حبيش بن شريح الحبشي الملقب (أبو حفصة)، قيل: هو من الصحابة وقيل من التابعين، وهو معروف يروي عن عبادة بن الصّامت. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (٢/ ١٧٢) رقم (٢٠٧٤)].

(٢) هو عبادة بن الصّامت بن قيس بن أصرم بن فهر بن قيس بن ثعلبة بن غنم شهد بدرا وكان أحد النقباء بالعقبة، وشهد المشاهد كلّها بعد بدر، وهو أول من ولى قضاء فلسطين، كان حليف يهود بني قينقاع فخلع حلفهم وتبرّأ إلى اللهَّ ورسوله منهم. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (٣/ ٥٠٥) رقم (٤٥١٥)].

(٣) أخرجه **أبو داود في سننه** (٤/ ٢٢٥) برقم (٤٧٠٠). وقال الألباني: إسناده صحيح. [ينظر: **سلسلة الأحاديث الصحيحة** (٥/ ٥٦٧)، وحديث رقم (١٣٣)].

(٤) هو عبد اللهَّ بن عمرو بن العاص، كنيته أبو محمد، كان طوالا أحمر، عظيم السّاقين، أبيض الرأس واللحية، وعمي في آخر عمره، وله في الصّحيحين قصة مع النبيّ ﷺ حين نهاه عن مواظبة قيام الليل وصيام النهار وأمره بصيام يوم بعد يوم، وبقراءة القرآن في كل ثلاث. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (٤/ ١٦٥) رقم (٤٨٦٥)].

الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»(١).

## خلاصة القول

خلاصة القول: إن معنى قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾(٢)، يعني علم الله الأزليّ في خلقه، والحكم على العبد مسبقا تبعا للحال الذي يصير إليه وِفق عمله وكسبه، بناءً على العلاقة المجازية المرسلة التي تقول: (اعتبار ما سيكون)، أي: (عَلِمَ اللهُ فكتب).

## إذا رفض الإنسانُ الهداية، لن يهتدي

فليجتهد العبد في الطاعة وفعل الخير واتباع الهدى من أجل الوصول إلى الله ﷻ، وهو الذي يدعو عباده دوما إلى الإيمان والتوبة، وإصلاح العلاقة ما بينهم وبينه، يقول ﷻ: ﴿فَمَن تَابَ مِنۢ بَعۡدِ ظُلۡمِهِۦ وَأَصۡلَحَ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَتُوبُ عَلَيۡهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ٣٩﴾(٣). ويضرب الشيخ النابلسي مثلا من واقع الحال للتوضيح فيقول:

---

(١) صحيح مسلم (٤/ ٢٠٤٤) رقم (١٦ - ٢٦٥٣).

(٢) [التغابن: ٢].

(٣) [المائدة: ٣٩].

**المثل رقم (١١٩): لو أن سائقا يتّجه إلى مدينة حمص، وأمامه طريقان متشابهان ومتباعدان، ورأى رجلا فسأله: من أين حمص؟ فأجابه: من هنا، فردّ عليه: جزاك الله خيراً، فقال الرجل: انتظر يا أخي، أعطيك معلومات أخرى، بعد خمسين مترًا تجد منحدرا خطرا، ثم تجد جسرا، ثم... ثم...**"[١].

فهذا الرجل أعطى السائق جملة من المعلومات بسبب قبوله لها، ودليلا آخر مفصّلا، وأرشده إلى الطريق، ولكن لو رفض السائق هذه النصائح وقال للشرطي: أنت كذاب، لما كان بالإمكان أن يعطيه أية معلومة ولما أرشده، فإذا رفض الإنسانُ هداية الله تعالى وأحكام الدين فلن يهدي الله قلبه، ولن يشرح صدره للإيمان، وحينما يرفض أصل الدين فإنه يُحرم من هذا الخير كله، وهذا معنى الإضلال الجزائي، وهذا تصديقٌ لقوله ﷻ: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَـٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٨٦﴾﴾"[٢].

## مثال آخر قريب في اللفظ والمعنى

ويظهر جليّا من ضرب هذا المثل أن الشيخ النابلسي تأثر بالشيخ الشعراوي، فقد ورد في خواطر الأخير في التفسير في ذات السياق مثالا قريبا في اللفظ

---

(١) النابلسي، **تفسير البقرة**، الدرس (٨٤).

(٢) [آل عمران: ٨٦].

والمعنى، حيث يقول: **إنسان يسافر إلى الإسكندرية ثم يلتبس عليه الطريق، وبعد ذلك وجد شرطيا فسأله: أين الطريق إلى الإسكندرية؟ فيشير الشرطي قائلا للسائل: هذا هو الطريق الصحيح إلى الإسكندرية، فإذا شكر هذا الإنسان الشرطي وصدّقه فإنه يأسر قلب الشرطي فيزيد من إرشاداته للسائل ويوضح له بالتفصيل الدقيق كيف يصل إلى الطريق الصحيح، وينبّهه على أية عقبة قد تعترضه، وإن زاد السائل في شكره للشرطي، فإن ذلك يأسر وجدان الشرطي أكثر، ويتطوع ليركب مع السائل ليوصله إلى الطريق، شارحا له ما يجب أن يتجنّبه من عقبات، وبذلك يكون الشرطي قد قدّم كلّ المعونة لمن شكره، لكن لو أن رجلا آخر سأل الشرطي عن الطريق فكذّبه من الأصل، فإن الشرطي يتجاهل هذا الموقف ويتجاهل هذا الرجل**[1].

## الله ﷻ، هل يترك عباده؟

ومن مستلزمات كمال الله ألا يدع عباده معطَّلين عن الأمر والنهي والمعرفة، فلا بدَّ أن يبلِّغهم، وقد خلقهم في الدنيا ليعملوا عملاً صالحاً، فما من قومٍ إلا وأرسل الله لهم نبياً يرشدهم إلى ما ينفعهم ويهديهم إلى ما يسعدهم، ويدفع عنهم الأخطار، قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ۝٧﴾[2]، ويضرب الشيخ

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن**، (٣/ ١٥٩٨).

(٢) [الرعد: ٧].

النابلسي مثلاً من واقع الحال للتقريب فيقول:

**المثل رقم (١٢٠): أب يراقب ابنه الصغير يتحرَّك حركة عشوائية أمام المدفأة، لا بد أن يحذِّره وأن يبيِّن له**[١].

فالأب يرشد ويوجّه ويحذّر وينذر، ويُمسك بيد ابنه ويبعده عن المدفأة حبا له وشفقة عليه، ولا بدّ من استجابة الابن الفطريّة لهذه التوجيهات، وإذا أصرّ فإنه يمنعه ويعاقبه، وربنا ﷻ تولَّى هداية الخلق حيث قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ۝١٢﴾[٢].

## حربٌ مع اللّه!

معركة أهل الضلالة ليست مع المؤمنين؛ إنما هي مع الله تعالى، وما دامت كذلك فالمؤمنون جند الله؛ قال تعالى تصديقا لهذا المعنى: ﴿وَلَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِۚ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ﴾[٣]، ولم يقل ﷻ: لن يضروكم شيئا، فعداء الذين يسارعون في الكفر والضلالة هو عداء لله تعالى، ولهذا يُطمْئِنُ الله أهل الهداية ليزدادوا ثباتاً على الإيمان في قوله تعالى: ﴿لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْۚ﴾[٤]، ليبقى المؤمنون في حضانة الرحمن[٥]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً من واقع

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٢).

(٢) [الليل: ١٢].

(٣) [آل عمران: ١٧٦].

(٤) [المائدة: ١٠٥].

(٥) الشعراوي، **تفسير القرآن**، (٣/ ١٨٨٣).

الحال للتقريب فيقول:

**المثل رقم (١٢١): لو جاء رجل بمطرقة وكسر زجاج مركبته الذي ثمنه ستون ألفًا، من ضرّ؟ لم يضر أحدًا، لقد ضرّ نفسه[١]!!**

فإذا ظنّ هذا الرجل أنه اتخذ موقفًا أو انتقم، أو نقض عهده مع الله، إنما هو في الحقيقة انتكس على نفسه؛ لأن الله غنيّ عنه، فيكون قد نقض عهده مع سلامته ومستقبل سعادته، ومهما بلغ أعداء الإسلام من قوة وقدروا على إيذاء المسلمين، فهذا بلاء وقتي يقع بإذن اللهّ وحكمةٍ يريدها وليست ضرا حقيقيا لمنهج اللهّ وسنّته ونظامه، فينتهي هذا الضرر بهم إلى الخيبة والدمار، كما تنتهي الماشية التي ترعى النبات السام[٢]!

## البلاء

يقول الله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ ١٥٧﴾[٣].

فلا بُدَّ من حصول الألم لكل نفس سواء آمنت أم كفرت، ولا يطمع أحد أن

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٣٩).

(٢) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٦/ ٣٣٠٠).

(٣) [البقرة: ١٥٥-١٥٧].

يخلص من المحنة والألم، فحياة الإنسان قائمة على المشاقّ وركوب الأخطار، والمرء يتقلب في زمانه في تحوّل النعم واستقبال المحن، وهذا آدم ﵇ سجدت له الملائكة ثم بعد ذلك يُخرج من الجنة!

## يُبتلى المؤمن ليُهذَّب لا ليُعذَّب

وما الابتلاء إلا عكس المقاصد وخلاف الأماني ومنع الملذات، والكل يتجرع مرارته حتماً، ولكن ما بين مقلّ ومستكثر، يُبتلى المؤمن ليُهذّب لا ليُعذَّب، فِتنٌ في السراء ومحنٌ في الضراء، والمكروه قد يأتي بما هو محبوب، والمرغوب قد يأتي بما هو مكروه، فلا يأمن المؤمن بأن توافيه المضرّة من جانب المسرّة، ولا ييأس بأن تأتيه المسرة من جانب المضرة، قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ﴾[1].

## لا يجزع المؤمن بالمصائب

وينبغي على المسلم أن يوطّن نفسه على المصائب قبل وقوعها، ليهُنْ عليه الأمر حين وقوعها، ولا يجزع بالمصائب لأن البلايا لها أمدٌ محدودٌ وينتهي، والمؤمن الحازم يثبت للعظائم فلا ينطق بالشكوى لسانه، وليخفف المصاب على نفسه بوعد الأجر العظيم من الله.

---

(١) [البقرة: ٢١٦].

## غاية الأمر أن يصبر أيام قليلة

وكتمان المصائب والأوجاع والصبر عليها من شيم النبلاء، وما زال العقلاء يظهرون التجلد عند المصاب لئلا يتحملوا مع النوائب شماتة الأعداء، فالمصيبة إن بدت لعدو سرَّ بها وفرح، والصبر على البلاء يسرع زواله، وغاية الأمر صبر أيام قلائل، وما هلك الهالكون إلا من نفاذ صبرهم، والصابرون مُجزون بخير الثواب، قال تعالى: ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾[1]، بل وإن أجورهم مضاعفة لقول الله ﷻ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾[2]. وما منع الله المُبتلى إلا ليعطيه، ولا ابتلاه إلا ليعافيه، ولا امتحنه إلا ليصطفيه، يبتليه بالنعم وينعمه بالبلاء، والمهزومُ من هزمَته نفسُه، ومن لم يرضَ بالقضاء فليس لدائه دواء، والعيشُ مضمون، والرزقُ مقسوم، والهموم لا تدوم، ومن أراد أن تدوم له السلامة والعافية من غير بلاء فما عرف التكليف ولا أدرك التسليم.

## تعريف البلاء

البلاء معناه: التجربة والاختبار، وجمعه "بلايا". وهو على ثلاثة أوجة: نعمة

---

(١) [النحل: ٩٦].

(٢) [القصص: ٥٤].

واختبار ومكروه[١].

ويُقال بَلِيَ الثوبُ بلاءً؛ أي خَلُقَ، وبلاهُ السفر؛ أي أبلاهُ السفرُ، وبلوتُه؛ اختبرتهُ كأني أخلَقتُهُ من كثرة اختباري له، وأبليتُ فلاناً إذا اختبرتَه، وسُمي الغمُّ بلاءً من حيث إنه يُبلي الجسم، وسُمي التكليف بلاءً لأنه مشقة على البدن واختبار له[٢]. فالبلاء والفتنة والامتحان والاختبار كلها كلمات مترادفة، ورد في لسان العرب: بَلَوْتُ الرجلَ بَلْواً وبَلاءً وابْتَلَيْته اخْتَبَرْته وبَلاهُ يَبْلُوه بَلْواً إذا جَرَّبَه واخْتَبَره، والبلاء يكون بالخير والشر، يقال: ابتليته بلاء حسنا وبلاء سيئا، والله تعالى يبلي العبد بلاء حسنا ويبليه بلاء سيئا، والجمع البلايا[٣].

## أشدّ الناس بلاء هم الأنبياء

والبلاء يرافق المؤمنين في كل مراحل حياتهم، وأشد الناس بلاء هم الأنبياء، عَنْ مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ[٤] بْنِ مَالِكٍ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِّ أَيُّ النَّاسِ

---

(١) السجستاني، أبو بكر محمد بن عزيز، **غريب القرآن**، تحقيق محمد أديب عبد الواحد جمران (١/ ١١٧)، دار قتيبة، (د.م.ن) ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م.

(٢) الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر، **مختار الصحاح**، تحقيق: محمود خاطر (١/ ٧٣) مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة، ١٤١٥ – ١٩٩٥.

(٣) ابن منظور، **لسان العرب** (١٤/ ٨٣، ٨٤).

(٤) هو مصعب بن سعد بن مالك بن كلاب القرشيّ، وقد روى عن أبيه سعد بن أبي وقاص ﷺ، وهو أحد العشرة وآخرهم موتا، وهو أول من رمى بسهم في سبيل اللهَّ،

أَشَدُّ بَلَاءً؟ قَالَ: «**الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ، فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الرَّجُلُ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ دِينُهُ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ**»[١].

## المؤمن، كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه

ويُفهم من هذا الحديث أن المؤمن مثل كفتي ميزان، كلما زيد في إيمانه زيد في بلائه، فالابتلاء سنة الله في الأرض ولا بدّ منه، فالدنيا دار ابتلاء وامتحان، وقد تعرضت جميع المجتمعات البشرية للامتحان عبر مراحل التاريخ، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾[٢]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لتقريب معنى البلاء من واقع الحياة فيقول:

**المثل رقم (١٢٢): تُمتحن المركبة في الطريق الصاعدة فقط، لأنها مهما كانت ضعيفة وهزيلة فإنها تسير بطلاقة في الطريق السهل المستوي، أما في الطريق**

---

فتح العراق وبنى الكوفة، وكان مجاب الدعوة، مات سنة (٥١هـ). [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (٣/ ٦١) رقم (٣٢٠٢)].

(١) **صحيح ابن حبان** - مخرجا (٧/ ١٦١) رقم (٢٩٠١)، **سلسلة الأحاديث الصحيحة** (١/ ٢٧٣) رقم (١٤٣)، وقال الترمذي: " حديث حسن صحيح "، وقال الألباني: سنده جيد رجاله كلهم رجال الشيخين.

(٢) [العنكبوت: ٢-٣].

**الصاعدة والصعبة فلا تصمد إلا المركبة القوية**[١].

فالإيمان الحقيقي عند المؤمن لا يظهر عنده بالابتلاء الإيجابي إنما يظهر بالابتلاء السلبي، كما أن المركبة لا تظهر قوة محركها في الطريق الهابطة، إنما تظهر في الطريق الصاعدة، لذا، تمتحن المركبات عادة بالطريق الصاعدة فقط ليظهر ضعفها. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (١٢٣): فكما يؤمن الطالب أن الامتحان من خصائص المدرسة للخروج من مرحلة إلى مرحلة أعلى، فإن الدنيا كذلك**[٢].

فالامتحان الذي يقصده الشيخ في هذا المثل فيه مشقة وشدّة على النفس، فإن صبر العبد وشكر فقد نجح وحصل على الشهادة، ليقرّ العبد ويشهد على نفسه أمام الخالق والخلق، ويرى عمله واقعا حاصلا يستحقّ عليه الجزاء، تصديقا لقوله تعالى: ﴿قَالُواْ شَهِدْنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَا﴾[٣].

## ﴿كَلَّا﴾ أنتما كاذبان!

وأما قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾[٤]، إذ نجد من

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥٠).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) [الأنعام: ١٣٠].

(٤) [الفجر: ١٥ – ١٦].

الناس من يقول: ﴿رَبِّيٓ أَكۡرَمَنِ ١٥﴾ بالنعمة والمال، ونجد منهم من يقول: ﴿رَبِّيٓ أَهَٰنَنِ ١٦﴾ بالفقر، والحق تعالى يقول لكليهما: ﴿كَلَّاۖ﴾[١]، أنتما كاذبان! فليست النعمة دليل الإكرام وليس سلب النعمة دليل الإهانة، ولكن الإكرام ينشأ حينما تستقبل النعمة والرخاء بالحمد والشكر، وحينما تستقبل الفقر والشدة بالصبر[٢].

## هل الابتلاء خير أم شر؟

يقول الله ﷻ: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾[٣]. يظن معظم الناس أن البلاء شرّ، ولكنه في الحقيقة ليس كذلك، لأن الابتلاء هو امتحان إن نجح فيه العبد فهو خير له وإن رسب فيه فهو شر له، فالابتلاء مقياس لاختبار الخير والشر، والذي ابتلى هو الله سبحانه وهو الرب، والرب معناه المربّي الذي يأخذ من يربيه بأساليب تؤهله إلى الكمال المطلوب منه، ومن أساس التربية أن يَمْتحن المربّي من يربّيه ليعلم هل نجح في التربية أم لا[٤]؟ ويضرب الشيخ النابلسي أمثالا للتوضيح فيقول:

---

(١) [الفجر: ١٧].

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن**، (٧/ ٤٤٢٢).

(٣) [الأنبياء: ٣٥].

(٤) الشعراوي، **تفسير القرآن**،(١/ ٥٦٩).

**المثل رقم (١٢٤): إذا تقدم شخص ما إلى امتحانات كثيرة في الجامعة، ونال أخيرا على أعلى الشهادات وتربّع على أعلى المناصب، وله دخل مرتفع بسبب هذه الشهادات، فهل تلك الأيام العصيبة التي دخل فيها الامتحان كانت شرا له؟ بالتأكيد لا، فلولا هذا الامتحان والسهر الطويل والتعب لما نال هذه الشهادة وهذا المنصب وهذا الدخل[1].**

**المثل رقم (١٢٥): شاحنة تحمل طناً واحداً بأجرة كبيرة، وبإمكانها حمل خمسة أطنان بأجرة أكبر، فحمّلناها بدلاً من الطن خمسة أطنان[2].**

هذه تجارة رابحة أضعافا مضاعفة، وهذه الصورة لبيان حالة مصائب الرفع، فمصائب الأنبياء والمؤمنين مصائب دفع ورفع، ومصائب العصاة والمذنبين مصائب قصم وردع. يُستدل من هذا المثل على أن الإنسان حينما يبذل الصبر والجهد وهما من المشقة، وفيما يُجرى عليه من أحداث وما يقع به من بلاء فلا يضجر ولا يسخط؛ فإن هذا ليس شرا له إذا أراد أن يرتقي، لأن الله تعالى لا يرفع قضاء الشدّة عن عبده حتى يستسلم له ويرضى به، فالله تعالى لا مُجبر له.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥٠).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥١).

## المكابح في المركبة من أجل سلامتها

**المثل رقم (١٢٦): لو سأل سائل: لمِ صُنعت المركبة؟ الجواب: من أجل أن تسير، نقول: أليس فيها مكابح تمنع سيرها؟ أليست مكابحها تتناقض مع سبب صنعها[1]؟؟!**

فكيف صنعت المركبة لتسير وفيها مكابح تمنع سيرها!! وهل المكابح خير أم شر؟ هي خير، لأن الصانع أوجد هذه المكابح من أجل سلامتها وسلامة أصحابها واستمرار عملها، فتكون آليّة تحكّم فعالة وهامة للتوجيه والسيطرة على جميع أجزاء المركبة الأخرى، وإذا أساء استخدام البعض هذه الآلية فإنها تكون وسيلة تعطيل وإعاقة عن الحركة.

## إذا بدر منه أيّ انفعال أو تذمّر!

وقد يُستوحى مثالٌ من مجمل الأمثال التي ضربها الشيخ النابلسي في هذا المجال في عدة دروس فيُقال:

**المثل رقم (١٢٧): إذا قررت شركة عالمية ترقية أحد الموظفين إلى منصب هام، فلا بد أن يكون أفضلهم وأكثرهم احتراما عند المدير، ثمّ أن يمرّ هذا الموظف في عدد من الامتحانات العلنية والسرية تقررها الشركة كالتعرض لاختبار القدرات، والصبر على تحمل المشاق وساعات العمل الطويلة وضبط النفس عند الشدائد.**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥١).

فإذا نجح هذا الموظف بالتكيّف مع هذه الضغوط والشروط واجتياز هذه الاختبارات بنجاح، وقبلها جميعا طائعا دون تذمّر أو تردد، تقرر إعلان ترقيته إلى المنصب الهام في احتفال كبير وكان ذلك خيرا له، وإذا بدر منه أي انفعال أو تذمّر، أو سوء استجابة لأي أمر منها، فإنه يرسب في الامتحان ويخسر هذا المنصب، وكان ذلك شرا له، كذلك المؤمن إذا أراد رَفْع البلاء عن نفسه ويرتقي، فليرض بهذا البلاء دون تردد أو تذمّر أو انفعال، وإذا لم يُرفع عنه فليعلم أن مكان الرّضى من نفسه لم يكُنْ مقبولاً، فقد يرضى بلسانه ولكن قلبه لا يزال ساخطاً ضَجِرا[1].

## نضرب مثلا آخر للتوضيح:

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً أخر للتوضيح، فيقول:

**المثل رقم (١٢٨): حين تريد أن تُعدّ إنسانا ليكون قائدا عسكريا لا بدّ أن تمتحنه بالجوع والعطش، والصبر على الشدائد، ليكون أهلا لهذه الوظيفة[2].**

ورحلة المؤمن الداعية إذا كانت مع الأعداء فهي اشدّ ابتلاءً، فالعدو حينما يكيد بالداعية وينتقده على كل كبيرة وصغيرة، ويقف له بالمرصاد، فإنه يضبطه ويهذّبه، ويدفعه ليكون على أحسن أحواله، فترتفع درجته عند ربه، يقول الشاعر:

عُداتي لهم فضلٌ عليَّ ومنّةٌ فلا أعدمَ اللهُ ليَ الأعاديا

---

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن**، (١٣/ ٨١٣٤).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥١).

هُـمُ بحثـوا عـن زلتـي فاجتنبتُهـا     وهمْ نافسوني فاكتسبتُ المعاليا[1]

## أنواع البلاء

البلاء نوعان: الأول بلاء الشر والشدة، والثاني بلاء الخير والرخاء والسّعة، والدليل على هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿وَنَبۡلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلۡخَيۡرِ فِتۡنَةٗۖ﴾[2]، كأن يُقدِّر الله ﷻ على عبدٍ من عباده الغنى والصحة، ويرزقه من البنين مما يكون مدعاة للفخر والتباهي والإستعلاء، فالآية الكريمة دلّت على نوعي البلاء: بلاء الشر والخير معاً[3]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[4]، قال ابن كثير في التفسير: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم﴾ أي اختبرناهم: ﴿بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ أي بالرخاء والشدة، والرغبة والرهبة، والعافية والبلاء[5].

---

(١) وردت هذه الأبيات دون ذكر قائلها في كتاب: السخاوي، محمد عبد الرحمن السخاوي، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** (٩/ ١٥٠) مكتبة دار الحياة، بيروت – لبنان، (د.ت.ن)، ولم يعثر الباحث بعد البحث والتنقيب لها على قائل.

(٢) [الأنبياء: ٣٥].

(٣) الرازي، **مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير** (١٤/ ٣٤٢) و(١٧/ ٢٢٠).

(٤) [الأعراف: ١٦٨].

(٥) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم**، (٣/ ٤٩٨).

## لماذا الحروب الأهلية؟ ؟ ولماذا القهر؟

وقد يُقدِّر الله تعالى على عبدٍ من عباده الفقر أو الجوع، أو الخوف أو المرض، وفقدان الأصحاب والأحبّة [1]، ودليل هذا النوع من البلاء قوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُم بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلۡخَوۡفِ وَٱلۡجُوعِ وَنَقۡصٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿۞لَتُبۡلَوُنَّ فِيٓ أَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ﴾[3]. ويذكر الشيخ النابلسي توضيحا من واقع الحياة لتقريب معنى هذه النصوص ومدلولاتها فيقول: إذا كان الله خلقنا ليُسعدنا فلماذا الزلازل؟ ولماذا الفيضانات؟ ولماذا الأعاصير؟ ولماذا الصواعق؟ ولماذا الحروب الأهلية؟

---

(١) الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور(٥/ ٢٩٤)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٢ هـ/ ٢٠٠٢م.أيضا: البغوي، الحسين بن مسعود بن الفراء، **معالم التنزيل في تفسير القرآن**(المتوفى: ٥١٠هـ)، تحقيق: عبد الرزاق المهدي(٣/ ٢٤)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.أيضا:الخازن، علاء الدين علي بن محمد أبو الحسن (المتوفى: ٧٤١هـ)، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، تحقيق: تصحيح محمد علي شاهين، (٤/ ٣١٠)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

(٢) [البقرة: ١٥٥].

(٣) [آل عمران: ١٨٦].

ولماذا القهر؟ ولماذا المجاعة؟ ولماذا المرض[١]؟ إن الجواب على كل هذه الأسئلة كلها تلخِّصه أيةٌ واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢١﴾[٢]، فإن أيّ ألمٍ وأيّ همّ، وأية مصيبة، أو بيت مُتعب أو زوجة مزعجة، ومجمل ما يصيب الإنسان، هو بمثابة مكابح في مركبة توقفه عند حدود السلامة والنجاة، كما ذكر الشيخ النابلسي في مثال سابق.

## هل التكاليف الشرعية قد تكون بلاء؟

نعم، قد يكون البلاء شرعيا تكليفيا؛ كالجهاد في سبيل الله وما يترتب عليه من مشقة وجراح وآلام، والهجرة ومفارقة الأهل والأوطان، والصلاة في أوقاتها، والزكاة والحج والصيام، وغيرها من العبادات التكليفية الشرعية التي تستلزم بذل الجهد، واجتناب المنهيات التي نهى الشارع عنها، وحمل النفس على مخالفة الهوى للفوز برضاء الله والجنة[٣]، والدليل على هذا النوع من البلاء قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾[٤]، وقوله تعالى:

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥٢).٨٨

(٢) [السجدة: ٢١].

(٣) الخازن، **لباب التأويل في معاني التنزيل** (١/ ٤٢).

(٤) [النازعات: ٤٠-٤١].

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾[1].

نضرب مثلا للتوضيح:

في قصة الثلاثة الذين تخلفوا عن الجهاد في غزوة تبوك، وما لاقوه من بلاء وشدة من مقاطعة الأحبّة لهم في الله بأمرٍ من النبي ﷺ، في حين تُعرض على أحدهم دنيا الكافرين وزينتها ومناصبها فيأباها[2]، ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح، في الصبر على هذا النوع من البلاء فيقول:

**المثل رقم (١٢٩): كم حاملة طائرات توجهت نحو الشرق الأوسط من أجل أن تشنّ عدواناً قوياً على بلاد المسلمين؟؟ ألم يقل لنا الناس عبر وسائل الإعلام والمحطات الفضائية، ووكالات الأنباء، والتصريحات[3]:** ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ۝١٧٣﴾[4].

وهكذا تتضافر مثل هذه الصور الرفيعة على إعلان ميلاد تلك الحقيقة الكبيرة في تلك النفوس العظيمة، إنها حقيقة الاتكال على الله حق التوكل، وهي لا تعرف إلا اللهّ وكيلا، وترضى به وحده وتكتفي، وتزداد إيمانا به في ساعة

---

(١) [محمد: ٣١].

(٢) تنظر القصة كاملة في تفسير الطبري (١٤/ ٥٣٩).

(٣) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٤٨).

(٤) [آل عمران: ١٧٣].

الشدة، وتقول في مواجهة تخويف الناس لهم بالناس: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ١٧٣﴾[١]، لأنها لا تخاف إلا الله تعالى.

## كيف يكون المال والأولاد بلاءً؟

أما بلاء الخير والسِّعَة، فهذا ما يدلّ عليه قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[٢]، فالأموال والأولاد تكون فتنة وبلاء عظيم حينما تُشغل صاحبها عن ذكر الله، وعن القيام بالتكاليف الشرعية[٣]، وهذا ما دلّ عليه قول الرسول ﷺ عندما جَاءَه الْحَسَنُ[٤] وَالْحُسَيْنُ[٥] يَسْتَبِقَانِ إِلَيه فَضَمَّهُمَا إِلَيْهِ، ثُمَّ

(١) [آل عمران: ١٧٣].

(٢) [الأنفال: ٢٨].

(٣) الخازن، **لباب التأويل في معاني التنزيل** (١/ ٤٢)، أيضا:الرازي، **مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير** (١٢/ ٤٠١).

(٤) الحسن بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي (٣هـ - ٥٠هـ)، سبط رسول الله وحفيده وريحانته وسيد شباب أهل الجنة، كنيته أبو محمد، أبوه علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين وابن عم رسول الله ﷺ، وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ. [العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ٦٠) رقم (١٧٢٤)].

(٥) الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي القرشي (٤-٦١هـ) سبط النبي محمد ﷺ وحفيده، و يلقب بسيد شباب أهل الجنة، كنيته أبو عبد الله، أبوه علي بن أبي طالب رابع الخلفاء الراشدين وابن عم رسول الله ﷺ، وأمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ، قتل في معركة كربلاء في العراق عام (٦١هـ). [العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة (٢/ ٦٧) رقم (١٧٢٩)].

قَالَ: «**إِنَّ الْوَلَدَ مَبْخَلَةٌ مَجْبَنَةٌ**»(١). وهذا الحديث من قبيل التحذير والتنبيه؛ أي لا يحملنَّك ولدك وتعلقك به على البخل وقت الإنفاق، أو يحملنك على الجبن وقت النفير والجهاد، فإن هذا من قبيل البلاء بالخير والرخاء والسعة، وهو أشدّ وطأة على نفس الإنسان، وأكبر خطرا على مستقبله واستقرار حياته.

## البلاء بالخير والرخاء أشدّ وطأة

ويُستوحى من دروس الشيخ النابلسي في هذا السياق مثالا للتقريب من واقع الحياة فيُقال:

**المثل رقم (١٣٠): إذا كانت قوة المحرك في المركبة تُمتحن في الطريق الصاعدة لضمان قدرتها وكمال قوتها**- كما قال الشيخ النابلسي في مثال سابق- **فإن سلامة المكابح تُمتحن في الطريق المنحدرة أيضا، لضمان تماسكها وعدم انحرافها، وإلا فإنها تنزلق وتتحطم، وهذا أشد وطأة وخطرا عليها وعلى من فيها من الطريق الصاعدة.**

أما الابتلاء العظيم والفتنة الكبيرة للمؤمن، أن يجد أمما ودولا غارقة في الرذيلة

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (٢/ ١٢٠٩)، برقم (٣٦٦٦). وأحمد في مسنده (٢٩/ ١٠٤)، برقم (١٧٥٦٢). والطبراني في المعجم الكبير (٣/ ٣٢) برقم (٢٥٨٧). والحاكم في المستدرك (٣/ ١٧٩) برقم (٤٧٧١). وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وسكت عنه الذهبي، وصححه الألباني. [ينظر: صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٤٠٠)، رقم (١٩٨٩)].

وهي مع ذلك غنية وقوية، راقية ومتحضرة في مجتمعها وحياتها، يتمتع الفرد بالرعاية والحماية، وهي مشاقة ومعاندة لله!! إنها فتنة النفس والشهوة وجاذبية الأرض وثقلة اللحم والدم والرغبة في الجاه والمال والسلطان ومجاراة أهل الزمان! فإذا أبطأ النصر اشتدت الوطأة على المؤمن وأهل الاستقامة ولم يثبت إلا من عصم الله[1]، وسيأتي توضيح هذا مع الأمثال في مقاصد البلاء.

## أطماع النفس والشهوة

ومنه اجتناب المال الحرام وهو قادر على تحصيله، وطلب الصيد وقت الإحرام، والدليل على هذا النوع من البلاء قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَيَبۡلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَيۡءٖ مِّنَ ٱلصَّيۡدِ تَنَالُهُۥٓ أَيۡدِيكُمۡ وَرِمَاحُكُمۡ لِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ﴾[3]، فمال اليتيم بلاء شديد على من وُكِّلَ به؛ وذلك أن اليتيم ضعيف لا يقوى على محاسبة موكله ومساءلته، لذا فإن النفس البشرية التي تصنع الشر يأتي من داخلها ما يستنكر هذا الشر فتعود من ذاتها إلى الخير، والنفس الأخرى هي الأمارة بالسوء وهي التي لا تعيش إلا في الشر، حتى إذا فسد المجتمع

---

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٥/ ٢٧٢٠).

(٢) [المائدة: ٩٤].

(٣) [الإسراء: ٣٤].

وأصبحت النفوس في هذه البلدة أمّارة بالسوء انطبق عليها قول الحق سبحانه: ﴿فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ١٦﴾[1]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للدلالة والتقريب لهذا المعنى من أعماق كتب التاريخ، وبالتحديد من أواخر العهد العباسي، فيقول:

**المثل رقم (١٣١): ورد في كتب الأدب في العصر العباسي ذكر الجواري والغلمان والخمور، وبعد هذا الانحراف ظهر الغزاة من الشرق أمثال (هولاكو) و(جنكيز خان)[2]، وقد سُئل مرة (تيمورلنك)[3]: من أنت؟ فقال: أنا غضب الرب[4]!!**

---

(١) [الإسراء: ١٦].

(٢) هولاكو خان بن تولي خان بن جنكيز خان ملك التتار ابن مَلَكِ التَّتَارِ (١٢١٧-١٢٦٥م)، وَهُوَ وَالِدُ مُلُوكِهِمْ، وقد كان هولاكو ملكاً جباراً فاجراً كفاراً، اجتاح جيشه بغداد عاصمة الخلافة العباسية.، قتل من المسلمين شرقاً وغرباً مَا لَا يَعْلَمُ عَدَدَهُمْ إِلَّا الله، وكان لَا يَتَقَيَّدُ بِدِينٍ مِنَ الْأَدْيَانِ. [ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر (المتوفى: ٧٧٤هـ)، **البداية والنهاية**، تحقيق: علي شيري (١٣/ ٢٨٨)، دار إحياء التراث العربي، (د.م.ن) ط١، ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م].

(٣) قائد أوزبكي (١٣٣٦-١٤٠٥م)، قاد حروبا شرسة أدّت إلى مقتل العديد من المدنيين وإلى اغتنام مجتمعات بأكملها، خرّب مدن العراق والشام، وتقدم بجيش قوامه (٣٠٠) ألف جندي والتقى بالجيش العثماني بقيادة (بايزيد) في معركة هائلة عُرفت باسم (معركة أنقرة عام ١٤٠٢م) وانهزم بايزيد هزيمة ساحقة، ووقع في الأسر هو وأحد أبنائه، ومات قهرا عام(١٤٠٣م). [مقتطفات من كتاب: عَلي محمد محمد الصَّلاَّبي، **المغول [التتار] بين الانتشار والانكسار**، الأندلس الجديدة، مصر، ط١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م].

(٤) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٥).

فالخلفاء العباسيون عاشوا قرونا زاخرة ومزدهرة في العلم والأدب والسياسة والفتوحات حينما التزموا تعاليم دينهم وخشية ربهم، دون أن يحيدوا أو ينحرفوا، وبعد أن فتحت لهم الدنيا بالسعة والرخاء أساؤوا التعامل مع هذا البلاء العظيم، وتعامت أبصارهم عن إدراكه وعميت بصيرتهم عن فهمه، فغاصوا في وحل هذا المستنقع حتى الأذنين، وغاصت خيل المغول في دماء المسلمين إلى الركب، وعجزوا أن يجتازوا هذا الابتلاء بنجاح!!

## ما الغاية من البلاء؟

يبتلي الله تعالى من يشاء من عباده بما يشاء من أنواع البلاء لحِكَمٍ جليلةٍ، منها:

**أولا: رفع مقام العبد ودرجته عند ربه يوم القيامة:**

كالبلاء الذي ينزل بساحة الأنبياء والصديقين والشهداء، يقول الله ﷻ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾[1]، وعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللَّهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ**»[2]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلا للتوضيح فيقول:

---

(١) [البقرة: ٢١٤].

(٢) أخرجه **الترمذي في سننه** (٤/ ٦٠١) رقم (٢٣٩٦) وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ، وفي سلسلة الأحاديث الصحيحة (١/ ٢٧٦) رقم (١٤٦)، قال الألباني: سنده حسن، ورجاله كلهم ثقات.

**المثل رقم (١٣٢): لاحظ نفسك، تمشي في الطريق فرأيت ابنك وابن أخيك وصديق لهما، كلهم قد أساؤوا الأدب، ينشأ عندك انفعال كبير تجاه ابنك أولا، وينشأ انفعال أقلّ تجاه ابن أخيك، أما الثالث فلا تأبه له**[١].

هذه المعالجة تكشف عن حكمة بالغة وعظيمة، فالانفعال الذي قد يسلكه الأب تجاه ابنه يكون شديدا وقد يضربه ضربا موجعا بهدف ردعه فيصلح تأديبه وترتفع درجته، وهو أشدّ من ذاك الانفعال تجاه ابن أخيه فقد يقول له: سأخبر أباك، أما صديقهما فحالة الانفعال تكون أقل لأنه لا علاقة له به!!

ولعل هذا المثل للشيخ النابلسي مقتبس لفظا ومعنى من تفسير الشيخ الشعراوي، حيث يقول في خواطره: **فالإنسان إذا ما دخل منزله ووجد في صحن المنزل أطفالاً يلعبون بشراسة، منهم ابنه وابن الجار، وطفل آخر لا يعرفه، فيتجه فوراً إلى ابنه ليصفعه، ويأمره بالعودة فوراً إلى الشقة، أما ابن الجار فلن يأخذه إلا بكلمة تأنيب، أما الطفل الذي لا يعرفه فلن يتكلم معه**[٢].

## الربّ الجبّار يعاقب العصاة في ضربة واحدة

ويعاود الشيخ النابلسي سرد الأمثال من واقع الحال للتقريب والتوضيح، واستخراج المعاني المستورة من الألفاظ والسطور لبيان معنى الرفع والترقية من

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٥١).

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن**، (٥/ ٢٧٣٧).

البلاء، فيقول:

**المثل رقم (١٣٣): مدير مؤسسة أراد تعيين موظفين، أحدهما بعيد والآخر ابنه الشخصي، يجعل الموظف البعيد تحت التجربة ستة أشهر ويُسجل له الأخطاء دون محاسبة، حتى إذا تراكمت عليه عاقبه بالطرد من العمل مرة واحدة، أما لو كان هذا الموظف ابنه، تجده يحاسبه على الأخطاء أولا بأول ولا يصبر على تراكمها، فيرشده: هذا خطأ يا بنيّ، لا تفعل كذا وافعل كذا، فلا يدع ابنه بلا توجيه، بسبب المحبّة والرحمة بينهما**[١].

فالرب القوي الجبار يحصي الأخطاء ويعاقب عليها العصاة الجبابرة في ضربة واحدة، ضربة عزيز مقتدر بلا رحمة، أما الرب القوي الرحيم فهو يعالج الأخطاء عند العصاة التائبين أولا بأول، يسوق لبعض خلقه الشدائد ليرفع درجاتهم، ويقتر عليهم في الرزق أو يصيبهم بالجفاف أو حكم قاهر. ويضرب الشيخ النابلسي مثلا آخر للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (١٣٤): لو أن طالبا اعتاد أن يغشّ في الامتحان ولم ينكشف، يستمرئ هذه الطريقة فلا يدرس، ويأخذ شهادته زورا، هل هذا ينفعه؟ أم يؤذي الناس بها؟** [٢].

أما إذا كُشف هذا الطالب مبكراً، وتلقى عقاباً أليماً منذ البداية، وارتدع عن هذا

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥٢).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٤٩).

العمل الخطير والحرام، فإن في هذا خيرا عظيما، ورفع درجات وحماية له وللمجتمع.

## البلاء تطهير العبدَ وتكفير ذنوبه

كالبلاء الذي ينزل بالعصاة من أهل التوحيد، فإذا جاء يوم القيامة يكون طاهراً ونظيفاً من الخطايا والذنوب، يقول الله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمْحَقَ ٱلْكَٰفِرِينَ ١٤١﴾[١]، يمحّص أي يكفر عنهم من ذنوبهم إن كان لهم ذنوب، وإلا رُفعَ لهم في درجاتهم بحسب ما أصيبوا به، وقيل: ليطهّرهم من ذنوبهم ويزيلها عنهم[٢]. عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﵁ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِّ ﷺ: **«لا يَزَالُ الْبَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ فِي نَفْسِهِ وَمَالِهِ وَوَلَدِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَّ وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ»**[٣]. وعن أم سلمة[٤] ﵂ قالت

---

(١) [آل عمران: ١٤١].

(٢) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (٢/ ١٢٦).

(٣) أخرجه **الترمذي في سننه** (٤/ ٦٠٢)، برقم (٢٣٩٩)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وأخرجه **الحاكم في المستدرك** (١/ ٤٩٧) رقم (١٢٨١)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ. وأخرجه **أحمد في مسنده** (١٣/ ٢٤٨)، برقم (٧٨٥٩). وصححه الألباني في **السلسلة الصحيحة** (٥/ ٣٤٩)، رقم (٢٢٨٠).

(٤) هند بِنت أَبِي أمية بنِ المغِيرة بنِ عبد الله بنِ عمر بنِ مَخزوم بنِ يَقَظَةَ بنِ مرة المخزومية، بِنت عم خالِدِ بنِ الوليد سيف الله؛ وبِنت عم أَبِي جهل بنِ هِشَامٍ، من المهاجرات

سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«ما ابتلى الله عبدا ببلاء وهو على طريقة يكرهها إلا جعل الله ذلك البلاء كفارة وطهورا ما لم ينزل ما أصابه من البلاء بغير الله ﷻ، أو يدعو غير الله في كشفه»**[١]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر للتقريب في ذات السياق فيقول:

**المثل رقم (١٣٥): يتحول الفحم إلى الماس من شدّة الضغط والحرارة، فإذا ضُغط الفحم ضغطاً شديدا، وأصابته حرارة عالية جداً، فإنه يصبح ماسًا، فالضغط الشديد والحرارة الشديدة يقلبان الفحم إلى ماس**[٢]**!!** كذلك الحداد حينما يطرق قطعة من الحديد الصمّاء فيؤلمها من أجل أن يصنع منها آلة مفيدة،

---

الأولِ، وكانت من أجمل النساء و أشرفهن نسباً، وآخر من مات من أمهات المؤمنين. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (٨/ ٣٤٢) رقم(١١٨٤٩)].

(١) ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد المعروف بابن أبي الدنيا (المتوفى: ٢٨١هـ)، **المرض والكفارات**، تحقيق: عبد الوكيل الندوي، (ص: ٥١)، الدار السلفية – بومباي، الطبعة الأولى، ١٤١١ هـ-١٩٩١م، وقال حديث حسن، أيضا: ورد في صحيح الترغيب والترهيب الشيخ الألباني رقم (٣٤٠١)، وقال حديث حسن.

(٢) النابلسي، تفسير سورة آل عمران، درس (٤٠)، فقد يتحول الفحم إلى ماس إثر ضغط وحرارة شديدتين جدا، قد يحتاج ذلك وقتا طويلا، فكلاهما يتكون من الكربون! ويشترك معهما في ذلك الغرافيت! انظر الرابط: [mawhopon.net/ver_ar/news].

والنجار ينحت الخشب فيؤلمه من أجل أن يكون أكثر جمالا"[1]، فهذا الضغط يؤدّب المؤمن.

## المؤمن ينضبط بالشدائد والأهوال

فالمؤمن الحقّ حينما تراه منضبطا، ما كان كذلك إلا بعدما ساق الله له من الشدائد المتتابعة، حتى أصبح أديباً ومتواضعاً ورحيماً، ويظهر في السيرة النبوية ما يدلّ على ابتلاء الله لرسوله من الأهوال والشدائد، حتى وصل الأمر إلى ابتلائه في شرف زوجته الطاهر عائشة رضي الله عنها، وقد صبر على ذلك كله طائعا لأمر ربه، وقد سئل رسول الله ﷺ: ما هذا الأدب يا رسول الله؟ قال: «**أدّبني ربّي فأحسن تأديبي**»[2].

---

(١) محمد أحمد الراشد، **صناعة الحياة**، (ص١١)، ط١، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٤م.

(٢) السلمي، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين (المتوفى: ٤١٢هـ)، **آداب الصحبة**، تحقيق: مجدي فتحي السيد(ص١٢٤)، دار الصحابة للتراث، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ– ١٩٩٠م، ولم يحكم صاحب الكتاب عليه بشيء، وقد ورد في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، الشيخ محمد ناصر الدين الألباني(١/ ١٧٣) رقم (٧٢)، قال الألباني: حديث ضعيف، قال ابن تيمية في " **مجموعة الرسائل الكبرى** (٢/ ٣٣٦): معناه صحيح، ولكن لا يعرف له إسناد ثابت.

## البلاء ينزل عقوبة وانتقاماً

وهذا النوع من البلاء يشمل الظالمين من الكفرة، والظالمين من المسلمين، وقد تكون هذه المصائب والعقوبات على نوعين:

الأولى: مصائب قصم وردعٍ، وهذه للكفار والعصاة من المؤمنين، يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَآ أَرَدۡنَآ أَن نُّهۡلِكَ قَرۡيَةً أَمَرۡنَا مُتۡرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيۡهَا ٱلۡقَوۡلُ فَدَمَّرۡنَٰهَا تَدۡمِيرٗا ﴿١٦﴾﴾[1]، عَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«إِذَا اسْتَحَلَّتْ أُمَّتِي خَمْسًا فَعَلَيْهِمُ الدَّمَارُ، إِذَا ظَهَرَ التَّلَاعُنُ، وَشَرِبُوا الْخُمُورَ، وَلَبِسُوا الْحَرِيرَ، وَاتَّخَذُوا الْقِيَانَ، وَاكْتَفَى الرِّجَالُ بِالرِّجَالِ، وَالنِّسَاءُ بِالنِّسَاءِ»**[2].

## يدُ الله تعمل في الخفاء

يقول الله تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي ٱلۡبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٞ قَلِيلٞ ثُمَّ مَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾[3]، يقول الشيخ النابلسي: **قد يقول قائل: ما بال هؤلاء الغربيين ينعمون بالرخاء والقوة والسيادة علينا ونحن أمة لا إله إلا الله؟؟** يردّ الشيخ النابلسي على هذا السؤال بالمثل الآتي:

---

(١) [الإسراء: ١٦].

(٢) أخرجه البيهقي في **شعب الإيمان** (٧/ ٣٢٩) رقم (٥٠٨٦). وقال الألباني: "حديث حسن لغيره". [ ينظر: **صحيح الترغيب والترهيب** رقم (٢٠٥٤)].

(٣) [آل عمران: ١٩٦-١٩٧].

**المثل رقم (١٣٦): شابّان أحدهما ليس له من يرعاه، وليس له أبٌ يربّيه، يعيش في الطرقات ويسرق، ويرتكب الفواحش ويتنعّم بالحياة ولا يبالي، وبعد سنوات، يدخل السجن مع الأشغال الشاقة، أما الآخر فهو يتلقّى شدَّة ورقابة بالغة من أبيه، يؤدّبه ويعاقبه، فيكون له مستقبلٌ باهر[1].**

فإذا كان الكافراً يقصف ويدمِّر بلاد المسلمين فهذه خطة الله ﷻ، أي أن الله سمح له أن يفعل هذا لحكمةٍ أرادها، يقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعْضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ۝١٢٩﴾[2]، فالظالم ينتقم الله به ثم ينتقم منه، ويد الله وحدها تعمل في الخفاء، وقد يزيد أمّة عنفوانا وقوة ويرفعها عزا وشأنا ليقسمها، فلو أن حجرا صغيرا وقع من علوّ ذراع ما أحدث ذلك له ضررا، أما لو أن صخرة كبيرة وقعت من علوّ شاهق فإنها تتحطم.

## كيف يرتقي المؤمن بالمصائب؟!

الثانية: مصائب دفعٍ ورفعٍ وترقية، وهذه رفع درجات للمؤمنين، فالإنسان قد يلقي الحياة بأوجاعها وأثقالها، فلكي يكون قويا ويتغلب عليها، عليه أن يصبر ويجتازها الواحدة تلو الأخرى، فكل مشكلة تقابله هي بمثابة عقبة وحجر عثرة في طريق حياته، فلا يقلق وقد تعلّم للتوّ كيف ينجو ويبقى يرتفع خطوة

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٨).

(٢) [الأنعام: ١٢٩].

واحدة إلى الأعلى فالأعلى. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (١٣٧): حينما يشتدّ الأب على ابنه في سنيّ الدراسة ليكون متفوقا، هذه القسوة وهذا الخيار: إما أن تدرس وإما أن أحرمك من كذا وكذا، لم يلغ خيار الابن ولكن دفعه إلى أن يختار الأفضل، فربنا ﷻ يدفعنا بالابتلاء إلى أن نختار الأفضل والصواب**[١].

فهذا الابن مخير إما أن يدرس أو لا يدرس، ولكن الأب المربي الحكيم الرحيم به يقول له حرصا عليه إن لم تدرس فأمامك كذا وكذا ليدفعه إلى اختيار الأفضل، دفعه إلى الترقية، ولولا أن الله يسوق لعباده من الشدائد لما اتجه الناس إلى طريق الإيمان، تصديقا لقول الله ﷻ يخاطب عباده المؤمنين: ﴿إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾[٢].

## اللّه الرحيم هو ربّ الناس جميعا

ويبدو مرة أخرى أن الشيخ النابلسي اقتبس معنى هذا المثل من تفسير الشيخ الشعراوي في هذا السياق حيث يضرب في خواطره مثلين، يقول:

**المثل الأول: الوالد يعطي ابنه جنيهاً ويقول له: اشتر ما تريد، ولكن لاحظ أنك إن اشتريت شيئاً مفيداً فسأكافئك، وإن اشتريت شيئاً فاسداً كالألعاب النارية**

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٨).

(٢) [التوبة: ٣٩].

**فسأعاقبك**[١].

**المثل الثاني: نجد الإنسان منا حين يرحم ولده دائماً يفسد الولد، وإن لم يقسُ عليه مرة فأبوّته ناقصة، إذن، فلا يمكن أن يكون المهيمن على الخَلق رحيماً فقط، وإنما يجب أن يكون قاهراً أيضاً؛ لأن الموقف قد يتطلب القهر**[٢].

فالأب هو ربّ الأسرة، وهو حريص على سلامة أبنائه ويتابع سلوكهم، ويحذرهم ويمنعهم ويعاقبهم، بالترغيب تارة والترهيب تارة أخرى، والله العزيز الرحيم هو ربّ الناس جميعا، وهو حريص على سلامتهم ويتابع سلوكهم ويردعهم إذا ما انحرفوا حفاظا على كيانهم ومستقبلهم، عن أبي هريرة ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إِنَّمَا مَثَلِي وَمَثَلُ النَّاسِ كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَوْقَدَ نَارًا، فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ جَعَلَ الفَرَاشُ وَهَذِهِ الدَّوَابُّ الَّتِي تَقَعُ فِي النَّارِ يَقَعْنَ فِيهَا، فَجَعَلَ يَنْزِعُهُنَّ وَيَغْلِبْنَهُ فَيَقْتَحِمْنَ فِيهَا، فَأَنَا آخُذُ بِحُجَزِكُمْ عَنِ النَّارِ، وَهُمْ يَقْتَحِمُونَ فِيهَا**»[٣].

---

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٤/ ٢٥٠٧).

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٦/ ٣٥٤٩).

(٣) **صحيح البخاري** (٨/ ١٠٢) رقم (٦٤٨٣)، **وصحيح مسلم** (٤/ ١٧٨٩) رقم (٢٢٨٤).

## تجرُّونهم بِالسَّلاسِلِ ليدخلوا الجنة!

وهذا يذكرنا بقول رسولنا الكريم عن أبي هريرة رضي الله عنه في قوله ﷻ: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(١)، قال: «تَجُرُّونَهُمْ بِالسَّلاسِلِ فَتُدْخِلُونَهُمُ الْإِسْلَامَ»(٢)، والإنسان المؤمن العاقل يُقبل على الله بسلاسل الإحسان لا بسلاسل الامتحان.

ويَضرب الشيخ النابلسي مثلاً من واقع الحياة للدلالة على هذا المعنى فيقول:

**المثل رقم (١٣٨): كم من إنسان أصيب بمرض عضال حمله على طاعة الله وتاب توبة نصوحا، وكم من الذين اهتدوا إلى الله بسبب شدائد أصابتهم، وهذه الشدائد هي النعم الباطنة، فإما أن تأتي ربك طائعا وإما أن تأتيه مُكرها**(٣).

## يسوق له الشدائد ليحمله على الطاعة!

فالطاعة بنوعيها، الذاتية والإجبارية، كلاهما يبعث في نفس المؤمن التوبة واللجوء إلى الله تعالى، فالشدائد إذا حملت الإنسان على الطاعات انقلبت إلى نعم باطنة، وهذا معنى قول الله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾(٤).

---

(١) [آل عمران: ١١٠].

(٢) **المستدرك** على الصحيحين للحاكم (٤/ ٩٤) رقم (٦٩٨٩)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ.

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٨).

(٤) [لقمان: ٢٠].

فالإنسان حينما يكون مخيّرا وقد أعطاه الله تعالى العقل والبصيرة ليسترشد بهما، فإذا عصى الله أو انحرف عن جهل ويسعى جادا وجاهدا للرجوع والتوبة، فإنه تعالى يسوق له الشدائد ليحمله على ذلك، فالمصائب متفاوتة وذات درجات، تقع على المؤمن العاصي بحسب معصيته، تزكية وإعانة له على التوبة. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (١٣٩): الطبيب مثلا يعطي المريض دواء خفيفا عيار خمسة عشر، وهو أقل تأثيرا ومشقة على جسم المريض، فإذا لم يستفد المريض رفع الطبيب العيار إلى خمسمائة، وهذا الرقم أعظم تأثيرا ومشقة على جسم المريض، ثم إلى ألف، ثم أكثر من ذلك، هذا العذاب المتصاعد في العلاج له مضاعفات أشدّ، ويعطي المستوى الأعلى إذا لم يؤثر المستوى الأقل**[١].

فالأمراض والأوجاع إذا أصابت الإنسان المؤمن فهي ترقية وتوبة إلى الله ﷻ، أما إذا أصابت الإنسان الغير مؤمن فهي عقاب، وهذا شيء ثابت، فمصائب الكفار ردع وقصم، ومصائب المؤمنين دفع ورفع.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٥).

## تمحيص النفوس

قال الله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾[١]. وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾[٢]. وتأتي أهمية هذا التمحيص عند عملية فرز الرجال كلٌّ إلى ما يناسبه من عمل وموقع ومركز، خصوصا عند فرز قيادات العمل الإسلامي واختيارها؛ إذ لا بد للقيادي أن يكون قد مرّ بمرحلة بلاء واختبار وتمحيص تُظهر صدق إيمانه وصدق ولائه لهذا الدين، ودرجة كفاءته لموقعه القيادي الذي تقلده! ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح من واقع الحياة فيقول:

**المثل رقم (١٤٠): هناك جهاز يمتحن قوة تماسك خلطة الاسمنت، فهناك مكعب إسمنتي يُمسَك من أعلاه، وهناك كفة ميزان في أسفله تُوضع عليها الأثقال تباعاً، فعلى أي وزن انكسر تكون هذه قوة مقاومته**[٣].

هذا مثل كل مؤمن يمتلك قوة تماسك، وقد يفقدها بضغط معين، فسيدنا بلال وُضع على الرمال الحارّة أيام الصيف وعلى صدره صخرة، وسيدنا سعد بن أبي

---

(١) [آل عمران: ١٤٢].

(٢) [محمد: ٣١].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (١٦).

وقاص ضغطت عليه أمه، فكلاهما صبر، وكلاهما وطّن نفسه بأنه في دار ابتلاء، فكانت قوة تماسكهما عجيبة.

### نضرب مثلا للتوضيح:

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر للتوضيح على ذات السياق فيقول:

**المثل رقم (١٤١): نجد في نظام المهندسين قاعدة اسمها التحميل، مثلاً شرفة بناية فيها بعض الشقوق توحي بأنها غير آمنة! فماذا يفعل المهندس لاختبارها؟ يضع عليها عددا من البراميل المملوءة بالماء، فإما أن تقع وإما أن تصمد[١]!!**

فالله سبحانه إذا أراد بالمؤمنين خيرا فإنه يكلفهم عملا عظيما، ويستخلفهم في الأرض ويجعلهم قادة للأمم، ومن أجل ذلك لا بدّ أن يمتحنهم بالشدائد، ويتحقق الفرز لكي ينتج عنه معرفة الصالح من الطالح، والقوي من الضعيف، يقول الله تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢﴾[٢].

## اللّه يضع كل إنسان في مكانه الصحيح

**المثل رقم (١٤٢): طالب يرتدي ثياب المدرسة، فهو عند الناس طالب علم، لكن قد يكون طالبا مجتهدا أو غير مجتهد، قد يداوم أو لا يداوم، قد يغش في**

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٥٠).

(٢) [العنكبوت: ٢].

**الامتحان، وقد تكون كل علاماته أصفارًا، أو قد يكون مطرودًا، فالأمور مختلطة[١]!!**

**المثل رقم (١٤٣): شابٌّ يدّعي أنه بارٌّ لأمّه سنوات طويلة، وأنها أغلى كائن في حياته، فإذا تزوج ونشب خلاف بين امرأته وبين أمّه انحاز إلى امرأته وقسا على أمه[٢]!!**

فالله ﷻ تكفل أن يحجّم عباده، وأن يضع كل واحد منهم في مكانه الصحيح، فإذا كان الشخص تحت المعالجة فإنه ﷻ لا يكشفه بل يستره ويعطيه فرصة لكي يتوب مع علمه تعالى بحقيقته قبل أنْ يبتليه، فليس الهدف العلم بحقيقته لأن الله يعلم، إنما الهدف من اختباره أنْ يُقرّ العبد بما عُلِم عنه، فيُحاسب بحق.

## أيصبر ويثبت أم يرتدّ؟

أي ما يكون فتنة لصاحبه؛ أيصبر ويثبت على الحق أم يرتد عن دينه، وينزلق في أوحال الباطل، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾[٣]، كأن يتعرض للبلاء بالسجن عند الحكام الظالمين، أو يصيبه تعذيب أو أذى، أو ملاحقة ومطاردة، أو حرمان من وظيفة

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٥٣).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) [العنكبوت: ١٠].

أو عمل، انقلب على عقبيه وارتد عن دينه ليتفادى هذا الأذى ويجعله كعذاب الله الشديد يوم القيامة، فيرتد عن دينه، قال القرطبي في التفسير: "جزع من ذلك كما يجزع من عذاب الله، ولا يصبر على الأذية في الله"(١)؛ حيث تراهم لأدنى بلاء ينزل بالأمة يبادرون الإسراع إلى حلق لحاهم، وخلع الزيّ الدال على تديّنهم، واعتزال الجمعة والجماعات، واعتزال صلاة الفجر، ومقاطعة الأخلاء من الإخوان الملتزمين من ذوي الدين والخلق!! ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (١٤٤): خيَّرناك مثلاً بين أن تأخذ جوهرة ثمنها مئة وخمسين مليون دولار، وبين أن تأخذ فحمة ثمنها قرشين، فاخترت الفحمة(٢).**

## تربية الخالق للخلائق

فالمؤمن، يُضغط في بعض الأحيان ضغوطاً شديدة ومتواصلة، وكل واحدة من هذه الضغوط ينمّي فيه صفة راقية، تجده بعد ذلك حليماً وأديباً وعفواً، صفوحاً وكريماً وشجاعاً، هذه الصفات كلها نتائج التربية الإلهية، تربية الخالق للخلائق، والكيّس من دان نفسه، عن قتادة(٣)، قال النبي ﷺ: **«لا يُصيبُ ابنَ**

---

(١) القرطبي، **الجامع لأحكام القرآن** (١٣/ ٣٢٩).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥٤).

(٣) قتادة بن دعامة السَّدوسي، أبو الخطاب (٦١هـ - ١١٨هـ) عالم في العربية واللغة وأيام العرب والنسب، محدث ومفسر وحافظ وعلامة، كان ضريرًا أكمه، كان أحفظ أهل

**آدمَ خدْشَ عُودٍ، ولا عَثْرَةَ قدَمٍ، ولا اختلاجَ عِرْقٍ إلا بذنبٍ، وما يَعفو عنه أكثر»**[1]، وللدلالة على هذا المعنى، يقول الشيخ النابلسي:

**فإذا نجح الطبيبُ في علاج ابنك، يجب أن تعتقد بأن الله ألهمه وأطلعه على المرض، ووفقه في تشخيصه وسمح الله للدواء أن يفعل فعله**[2]**، فهذه فتنة أرادها الله له؛ هل يشكر الله صاحب الفضل الحقيقي بالشفاء، أم يشكر الطبيب المعالج؟** وهذا القول قريب في اللفظ والمعنى لما أورده الشيخ الشعراوي في خواطره على ذات السياق، حيث يقول:

**ولذلك تجد مثلا كبار الأطباء يحتارون في علاج مريض، ثم يُشفى على يد طبيب ناشئ حديث التخرج**[3]**!!**

## الدنيا دار شقاء لا دار رخاء!

**المثل رقم (١٤٥): الدنيا دار ابتلاء، فقد تكون الزوجة جيّدة والأولاد غير جيّدين، أو يكون الأولاد جيّدون والزوجة غير جيّدة، أو تكون الزوجة والأولاد**

---

البصرة لا يسمع شيئا إلا حفظه؛ وكان ثقة مأمونًا حجة في الحديث، وروى له أصحاب الكتب الستة وغيرهم. [ابن سعد، **الطبقات الكبرى** (٧/ ١٧١) رقم(٣١٣٩)].

(١) الطبري، **جامع البيان** (٨/ ٥٥٨) رقم (٩٩٦٩)، وحكم عليه الألباني في سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة (٤/ ٢٧٩) رقم (١٧٩٦) وقال: حديث ضعيف.

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨٣) آل عمران (٢٧).

(٣) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١/ ٣٦١).

**جيّدون والدخل غير جيّد، أو يكون كل ما سبق جيّد والصحة غير جيّدة**[(١)].

فقد شاءت حكمة الله أن تكون فتنة الدنيا بأنها دار التواء لا دار استواء، فمن عرفها لم يفرح لرخاء ولم يحزن لشقاء لأن كليهما مؤقت زائل، وقد جعل الله بلاء الدنيا لعطاء الآخرة سببا، فيأخذ ليُعطي ويبتلي ليَجزي، ومن أشهر ما قيل في ذلك، قول الأديب الشهير أبي البقاء صالح بن شريف الرّنديّ[(٢)] في نونيّته:

| | |
|---|---|
| لكـلّ شيء إذا مـا تـمّ نقصـان | فـلا يُغـرّ بطيـب العـيش إنسـانُ |
| هـي الأمـور كمـا شـاهدتها دُولٌ | مـن سرّه زمـن سـاءته أزمـانُ |
| وهـذه الـدار لا تُبقـي عـلى أحـد | ولا يـدوم عـلى حـال لهـا شـانُ[(٣)] |

## البلاء ينزل أحيانا لدفع بلاءٍ أشد وأعظم

أي أن البلاء أحياناً ينزل بالعبد ليدفع عنه بلاءً أشد وأكبر قد لا يعلمه، والله

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٣٨).

(٢) هو أبو البقاء صالح بن يزيد بن أبي القاسم الرندي الأندلسي (٦٠١هـ-٦٨٤هـ) هو من أبناء رندة بالأندلس وإليها نسبته، عاصر الفتن والاضطرابات التي حدثت في بلاد الأندلس وشهد سقوطها في يد الأسبان، وهو من حفظة الحديث والفقه، وكان بارعا في نظم الكلام ونثره. [**الأعلام للزركلي** (٣/ ١٩٨)].

(٣) المقَّري، أحمد بن محمد التلمساني، **نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق د.إحسان عباس (٤/ ٤٨٧)، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ.

تعالى يعلمه، كما في قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾[1]. فالقتال وما يترتب عليه من قتل وجراحات وآلام هو بلاء عظيم، ولكنه شُرع لدفع بلاء أشد وأعظم؛ وهو استيلاء الكفار الظالمين على بلاد المسلمين وأموالهم ومقدساتهم وأعراضهم، وهذا الشر لا نعلمه والله يعلمه، يقول الله ﷻ: ﴿۞ وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٧﴾﴾[2]، فكم من خيرٍ يتمناه الإنسان ويسعى له، ثم يتبين له فيما بعد أنه كان شراً محضاً، وأن الخير في أن الله تعالى لم يقدّره له فيحمده على ذلك.

## كم من شرّ تكرهه هو لك خير!

وكم من شرٍّ يكرهه الإنسان ويحذره، ثم يتبين له أنه كان خيراً، وما أكثر القصص والشواهد الدالة على ذلك! عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «**عَجِبَ رَبُّنَا مِنْ قَوْمٍ يُقَادُونَ إِلَى الْجَنَّةِ فِي السَّلَاسِلِ**»[3]. ويضرب الشيخ النابلسي

---

(١) [البقرة: ٢١٦].

(٢) [الشورى: ٢٧].

(٣) أخرجه **أبو داود سننه** (٣/ ٥٦)، برقم (٢٦٧٧). **وابن حبان في صحيحه** (١/ ٣٤٣)، برقم (١٣٤). **وأحمد في مسنده** (١٣/ ٣٨٨)، برقم (٨٠١٣). وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: "إسناده صحيح على شرط مسلم".

مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (١٤٦): فالله ﷻ قد يصيب جسد عبده مرضاً خطيرا لأنه يحبّه، لأن هذا المرض لا بدّ منه لشفاء هذا العبد من مرض نفسي أخطر[١].**

وقيل: «لو اطلعتم على الغيب لرضيتم بالواقع»[٢]، فالله تعالى لا يصدر عنه إلا الحكمة والعدل المطلق، عَلِمَ من علم وجهل من جهل. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب للدلالة على هذا المعنى فيقول:

**المثل رقم (١٤٧): أب رحيم، طبيب عالم وجراح، يرى أثر التهاب الزائدة على ابنه ولا بدّ من إجراء عملية فورية، يأمر مساعده بأن يفتح بطن الابن، فكيف يكون الحال لو أن رجلا رحيما جدا ولكن ليس عالما وطبيبا، وقف يراقب سكوت الأب ورضاه التام وهو يشاهد جسد ابنه يُقطّع بالمشارط[٣]؟؟**

فهو لا يدري بأن نتيجة هذا الألم وهذه الجراح سكون وشفاء.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، الدرس (٤٢).

(٢) ورد هذا القول في تفسير الألوسي بين علامتي تنصيص دون ذكر قائله. [الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني (المتوفى: ١٢٧٠هـ)، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق: علي عبد الباري عطية (٢/ ١١١)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، الدرس (٤٢)، درس (٤٩).

## لا تُعرف حكمة المصائب إلا من نتائجها

وقد يصاب الإنسان بمصيبة كبيرة يستقيم بعدها على أمر الله، فلا تُعرف حكمة المصائب إلا من نتائجها، فهي في أثناء وقوعها عظيمة ومؤلمة، لكن لولا هذه المصيبة وعظمتها لما كان الإنسان بهذا الحال، وفي خواطره يضرب الشيخ الشعراوي مثلاً قريبا في الأسلوب والمعنى للمثال الذي ساقه الشيخ النابلسي، في ذات الموضوع، فيقول: **قد يعالج الرجل ذراع ولده المكسورة عند طبيب غير مجرّب وتلتئم العظام في غير مكانها، فيذهب الرجل بابنه إلى طبيب ماهر فيكسر يد الطفل مرة أخرى ليعيد وضع العظام لتنمو في مكانها الصحيح**[1]**!!**

إن الكسر الثاني في ظاهره ألم وقسوة، ولكن في حقيقته سلامة وشفاء، وإذا كان الله يُجري على المؤمن قَدَر المرض، ذلك ليُجري عليه حسن الخاتمة فضلا منه، وهو سبحانه خبير بمواطن الداءات.

## لو تُركوا على هواهم عاشوا في شقاء!

فنقاط الضعف عند الإنسان كالجوع والفقر والمرض والضعف، إذا ابتلي المؤمن بها وصبر عليها كانت سبب لجوئه إلى الله، فقد أوجدها ربه له كي يشدّه إليه ويقربه منه، فتنقلب المحنة إلى منحة!! ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر فيقول:

---

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٦/ ٣٥٤٥).

**المثل رقم (١٤٨): أبٌ يضرب ابنه الطفل ويقسوا ويُشدّد عليه من أجل الاجتهاد، ومعاودة الدوام والتفوّق في المدرسة**(١).

فلو ترك الله الناس على هواهم بلا مصائب أو ابتلاء أو تأديب، لاسترسلوا في هذه الدنيا ولنسوا الله تعالى وغفلوا عنه، ثم يقودهم هذا كله إلى الشقاء والعذاب وخسارة الدنيا والآخرة.

## بلاء ينزل بالإنسان يذكّره بربه

فمن مقاصد البلاء وغاياته أن يُعيد ذوي الطغيان والمعاصي إلى رشدهم وصوابهم، ممن لا تؤثر بهم الموعظة ولا الكلمة، وما أكثر هذا الصنف من الناس في هذا الزمان! فيحتاج إلى بلاء ينزل بساحته يذكّره بربه فيُعيده إلى الرشد والصواب، قال تعالى: ﴿فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾﴾(٢)

ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾﴾(٣).

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح والتقريب فيقول:

**المثل رقم (١٤٩): لا يمكن لإنسان أن يتلقى ضربة بعصا ثم يحقد على العصا، ينبغي أن يبحث على الضارب الذي استخدم هذه الأداة**(٤).

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥١).

(٢) [الأنعام: ٤٢].

(٣) [الأعراف: ١٦٨].

(٤) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، الدرس (٤٨).

فكل أدوات القمع والردع والشر في الكون يمكن أن توصف بأنها عِصِيٌّ بيد الله، سواء كانوا رجالا أقوياء، أمراضا وجراثيم وفيروسات، زلازل وأعاصير، حروبا أهلية، هدم وحرق وجفاف، ولد عاق، أي شيء يزعج الإنسان فهو أدوات تأديبية وكأنها عصيّ بيد الله ﷻ، وحينها تستحق أية أمّة تأديبا فإنه يأتيها من مصادر عديدة، قد يأتيها زلزالاً أو بركاناً، وقد يأتيها عدواناً خارجياً أو حروباً أهلية، لا قيمة لهذا التنوع في التأديب، لكن الخطورة أن هذه الأمة فعلت ما يوجب التأديب.

## امتحان في كل عام مرة أو مرتين

يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾[1]، فالكرة تُردّ إلى مصدرها بالقوة والصرامة التي انطلقت منها، وعلى البادئ أن لا يحقد على أحد وأن لا يندب حظه، فلا حظ في دين الله، إنما هو طاعة واجتهاد وِفق ما شرع الله تعالى. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (١٥٠): فلو أن شابا أرعناً أساء إلى ابن رجل محترم، فإنه يوقفه عند حدّه، ويشتكي عليه كي يردعه ويمنعه عن عنفوانه، لكن لا يحقد عليه[2].**

---

(١) [آل عمران: ١٦٥].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، الدرس (٤٨).

فالمؤمن كلما أصابته ضائقة يراجع حساباته الداخلية، ويقف موقفاً حكيماً مع الناس وإصلاح علاقاته معهم بما يتلاءم وسلامة الطرفين، يقول الله تعالى: ﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾[١]، وكذلك فإن ربنا ﷻ يعمل لنا امتحاناً في كل عام مرة أو مرتين، تصديقا لقوله تعالى: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِى كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ ١٢٦﴾[٢]، فالإنسان إما أن يسقط فيه وإما أن يرقى، وهكذا.

## إذا خاف تاب، ويعود أقوى مما كان

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح من واقع الحياة فيقول:

**المثل رقم (١٥١): مثل المؤمن كآلة كهربائية غالية الثمن، وهي معرّضة للأعطال الفنية المفاجئة والمدمّرة، لذلك تجد الصانع يضع في مركز هذه الآلة وصلة ضعيفة جدا يسمونها مصهرا (فيوز)، فإذا تعرضت الآلة للضغط أو الخطر انقطعت الوصلة وانقطع عنها التيار الكهربائي[٣].**

وبالتالي، فإن الصانع يحفظ هذه الآلة بطريقة أو بأخرى من الأخطار، وهكذا الإنسان، عنده (فيوز) هو الخوف، فمتى جاءت مصيبة ينهار ويتراجع، ثم

---

(١) [آل عمران: ١٧٩].

(٢) [التوبة: ١٢٦].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤٤).

يدعو الله تعالى ويتوب له ويلجأ إليه، ثم تعود إليه قوّته ليبدأ حياته من جديد في طاعة ربّه أقوى مما كان، ولو أنه لم يَخَفْ فإنه يتجرّأ ولا يبالي، ولا يدعو الله ولا يتوب، فكلما اشتد الخوف، يصير ذلك الخوف تعجيلاً للابتلاء، فيستحقون به مزيدا من الثواب، ولذلك لما سئل أحد العلماء: ما ملخص دعوتك؟ قال: هما كلمتان، نأتي الله ركضا: إما طواعية أو بمصيبة.

## إظهار من يشكر ممن يَكفر

وهذا متعلق ببلاء الخير والسعة والرخاء دون بلاء الشدة والشر، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ۝٧﴾[1]. أي لئن شكرتم النعمة والفضل ورددتم ذلك كله لله، فإنه تعالى يزيدنكم من فضله وعطائه، ولئن جحدتم هذه النعمة ورددتم ذلك لأنفسكم فجزاؤكم العذاب الشديد. وقال تعالى: ﴿فَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَٰهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍۭ ۚ بَلْ هِىَ فِتْنَةٌ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٩﴾[2]. فالأمر ليس كما زعم هذا الجاهل المغرور، فهذه النعمة بمثابة اختبار وابتلاء أيشكر أم يكفر، وهل سيحمله هذا البلاء على الدخول في الطاعة والعبادة لله ﷻ أم سيزيده عصياناً وطغياناً.

---

(١) [إبراهيم: ٧].

(٢) [الزمر: ٤٩].

## كأنه يُجري فحصا يبتلي فيه ربه!

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (١٥٢): لو أن كل من دفع مائة ليرة صدقة يأخذ مساءً ألف ليرة، تجد صفاً طويلا أكثره منافقين وكفارا، يقول لك أدفع مائة وآخذ ألفاً[١]!!**

فلو أن الجزاء الحسن جاء عقب العمل الصالح مباشرة، والعقاب جاء عقب العمل السيئ مباشرة لألغِي الاختيار، فقد يعصي الإنسان ربه في لحظة ما وينتظر العقوبة فلا تأتيه فيظن أن الله راضٍ عنه، وكأن هذا الإنسان الجاهل يُجري فحصا يبتلي فيه ربه ﷻ، هل يجازيه بالعقوبة أو الثواب، فيحكم على نفسه من هذه النتائج!!

## الذي لا يعرف الله لا يعقل ولا يصبر

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح والتقريب، جميلا ومؤثرا، فيقول:

**المثل رقم (١٥٣): المؤمن الصابر على البلاء كالمريض عند طبيب الأسنان يقلع السن دون تخدير، فالمريض مطمئن وراض بما أصابه، يتمسك المريض بالكرسي ويتحمّل الألم الشديد في صبر عجيب، يهلل ويسبح الله ويسترجع، ثم إذا انتهى الطبيب، استراح المريض وشكر الطبيب[٢].**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٣٨).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤٩)، والدرس (٥١).

أما لو كان المريض رجلا منفعلا أو جاهلا لملأ الدنيا صراخا وشتائم، فكل إنسان يعرف الله تجده مؤمنا عاقلا صابرا، والذي لا يعرف الله تجده لا يعقل ولا يصبر، ولا يتحمَّل هذا الألم، فالتحمُّل دليل معرفة، فمعنى الصبر أنه يعرف الله ويعرف حكمته، ويعرف رحمته ويعرف عدله، ويعرف أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان، لهذا تصبر.

## يرى الثراء في أيدي الفجّار!!

أما حال ابتلاء المؤمن بالفقر والكافر بالغنى، كما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ۝٣٣﴾[1]، فهذا ما هو أشد فتنة للمؤمن، حينما يرى الثراء في أيدي الفجّار في قوة وسطوة واستعلاء، بينما أيدي الأبرار خالية، وهم في عسر ومشقة وابتلاء، ولكن الله تعالى يكشف عن زهادة بعض القيم وهوانها عليه، وما يدّخره للأبرار الأتقياء[2].

---

(١) [الزخرف: ٣٣].

(٢) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٥/ ٣١٨٨).

## الأخذ بالأسباب

ذكر ابن تيمية[١] أن بعض السلف كان يقول: "الالْتِفَات إِلَى الأَسْبَاب شرك فِي التَّوْحِيد، ومحو الْأَسْبَاب أَن تكون أسبابا نقص فِي الْعقل، والإعراض عَن الأَسْبَاب بِالْكُلِّيَّةِ قدح فِي الشَّرْع، وَإِنَّمَا التَّوَكُّل الْمَأْمُور بِهِ مَا يجْتَمع فِيهِ مقتضي التَّوْحِيد وَالْعقل وَالشَّرْع"[٢]. يقول الله ﷻ لبيان ضرورة الأخذ بالأسباب، مخاطبا السيدة مريم عليها السلام: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾[٣]، بعد أن وصف حالها بقوله ﷻ: ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾[٤]، فالله تعالى يأمر مريم أن تحرك جذع النخلة الذي يعجز عن تحريكه سواعد الرجال الأقوياء، وهي المرأة النفساء، في قمة إجهادها النفسي والبدني، يُطلب منها العمل والاجتهاد والأخذ

---

(١) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام، المشهور بابن تيمية وهو اسم جدته، أحد علماء الحنابلة ولقبه «شيخ الإسلام». عاصر هجوم المغول على دمشق وكان متحمسا للجهاد، قرأ الحديث والتفسير، وكان من مذهبه التوفيق بين المعقول والمنقول، سُجن في مصر والشام بسبب آرائه السياسية، ومات معتقلا بقلعة دمشق. توفي سنة (٧٢٨ـ). [**الأعلام للزركلي** (١/ ١٤٤)].

(٢) ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد (المتوفى: ٧٢٨هـ)، **التحفة العراقية في الأعمال القلبية**، (ص ٥٢)، المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٩هـ.

(٣) [مريم: ٢٥].

(٤) [مريم: ٢٣].

بالأسباب طلبا للرزق، وقد كان رزقها من قبلُ يأتيها من دون أدنى مشقة أو تعب، تصديقا لقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٣٧﴾[1]، وهذا من عظيم البلاء والشدّة للعباد الصابرين في وقت المحنة.

## فلق البحر بضربة عصا!

كذلك قصة نبي الله موسى عليه السلام حينما خاطبه ربه: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا﴾[2]، وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ۝٦٣﴾[3] هذه الأحداث العظيمة، كخروج الماء من الحجر أو انفلاق البحر إلى طودين عظيمين، كان بسبب حركة يسيرة (ضربة عصا)، لكن العقل البشري لا يمكنه تصديق هذه الأحداث ونتائجها العظام دون مسبّبات، وأن عظمة هذه النتائج من عظمة الله تعالى الذي ينصر عباده الصالحين.

---

(١) [آل عمران: ٣٧].

(٢) [البقرة: ٦٠].

(٣) [الشعراء: ٦٣].

## هذا كذب، لأنه لم يستعدّ

فقد يقصّر المؤمن في بذل جهدٍ ما، ويبقى متخلفا في موقعه الوظيفي أو مستواه المادي أو مكانته الاجتماعية ثم يقول: ابتلاني الله بالفشل، ويعزوا تقصيره وسوء عمله وضعف إدارته وإرادته إلى القضاء والقدر، هذا كذب لأنه لم يستعد، بل إن الفشل يكون في العادة جزاء التقصير. ويضرب الشيخ النابلسي أمثلة للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (١٥٤): إذا وضعت دواء ساما قريبا من أيدي الأطفال وحصل مكروه، ثم قلت: ابتلاني الله!! فالجواب: لا، هذا تقصير، هذا الدواء السام يوضع بعيدا عن الأطفال**[١].

**المثل رقم (١٥٥): لو أن مأخذا كهربائيا تجده مكشوفا بالحمام يشكل مصدر خطر وموت، نقول: سبحان الله، مات بأجله**[٢]**!!!**

**المثل رقم (١٥٦): طبيبٌ يحاور إحدى الممرضات في غرفة الطوارئ، يطلب من المريض وهو في حالة الخطر أن ينتظر ساعة، مات المريض، ثم نأتي ونقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، قضاء الله وقدره**[٣]**!!**

**المثل رقم (١٥٧): تفَّاحة غير مغسولة يقول لك: كل وسمِّ الله، لا يضر مع اسمه**

---

(١) النابلسي، محمد راتب، **خطبة الجمعة** رقم (١١٦٨).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) المصدر نفسه.

**شيء، سمِّ الله ولا تخفْ، هذا كلام غير شرعي[1]!!**

**المثل رقم (١٥٨): الابن مريض، ويقول أبوه: سلَّمته لله، هذا موقف غير إسلامي أبداً، هذا موقف فيه جهل، خذه إلى أحسن طبيب وأعطه العلاج، وادفع صدقة، وبعدها قل: يا ربي سلَّمته لك[2].**

فالتوكل: أن يؤمن الأب بأن له وكيلاً يقوم بمهام أموره بالشيء الذي لا يقوى عليه ويعجز عن القيام به، فيقول بصدده باطمئنان: "وكلت فلاناً ينجزه لي"، أي: أنه يكِلُ أموره من ائتمنه على مصالحه في حالة ضعفه وعجزه، مع علمه وثقته التامة بقدرة الآخر على القيام به، وغير ذلك فإنه يتنافى مع هذا المعنى.

## اللّه الذي خلق الكون، خلق فيه أسباباً

فالحق ﷻ الذي خلق الكون، وخلق فيه أسباباً تؤدي إلى مسبَّبات ليأخذ كل ذي حق من بني الإنسان حقه ولا يُظلمون فتيلا[3]. وَرُوِيَ عَنْ مُعَاوِيَةَ بْنِ قُرَّةَ[4]، أَنَّ

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٣٤).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الشعراوي، **تفسير القرآن**، (٨/ ٤٥٧٣).

(٤) مُعَاوِيَةُ بنُ قُرَّةَ بن إياس بن هلال بن رِئَابٍ، أَبُو إِيَاسٍ المُزَنِيُّ البَصْرِيُّ، وَالِدُ القَاضِي إِيَاسٍ، من التابعين، حَدَّثَ عَنْ عَلِيِّ بنِ أَبِي طَالِبٍ، وَابْنِ عُمَرَ، وَغَيْرِهِم. وَقَالَ تَمَّامُ بنُ نَجِيْحٍ، عَنْ مُعَاوِيَةَ بنِ قُرَّةَ، قَالَ: أَدْرَكْتُ سَبْعِيْنَ مِنَ الصَّحَابَةِ لَوْ خَرَجُوا فِيْكُمُ اليَوْمَ

عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺ، أَتَى عَلَى قَوْمٍ فَقَالَ: "مَا أَنْتُمْ؟" فقَالُوا: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فقَالَ: " بَلْ أَنْتُمُ الْمُتَّكِلُونَ[(١)]، أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُتَوَكِّلِينَ؟ رَجُلٌ أَلْقَى حَبَّةً فِي بَطْنِ الْأَرْضِ، ثُمَّ تَوَكَّلَ عَلَى رَبِّهِ "[(٢)]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلا للتوضيح في هذا المعنى فيقول:

**المثل رقم (١٥٩): طالب لم يدرس طيلة العام ولم ينجح ثم يقول: لا والله، ليس لي حظ بالنجاح هذه السنة[(٣)]!!**

هذا تقصير، سواء في الدراسة، أو في التجارة، أو في كل حركات الإنسان، في صحَّته، في علاقاته، عليه أن يأخذ بالأسباب وكأنَّها كل شيء، ويتوكَّل على الله وكأنَّها ليست بشيء.

## الدعاء يردّ القضاء

يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[(٤)]، وقال الله ﷻ:

---

مَا عَرَفُوا شَيْئاً مِمَّا أَنْتُم فِيْهِ إِلَّا الأَذَانَ، ولد يوم الجمل ومَاتَ سَنَةَ ثَلاَثَ عَشْرَةَ وَمائَةٍ. [الذهبي، **سير أعلام النبلاء** (٥/ ١٥٣) رقم (٥٥)].

(١) وَقَوْلُهُ " الْمُتَّكِلُونَ ": يَعْنِي عَلَى أَمْوَالِ النَّاسِ.

(٢) البيهقي، **شعب الإيمان** (٢/ ٤٢٩).

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٣٤).

(٤) [البقرة: ١٨٦].

﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُاْ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ﴾[(٢)] فهم لشدة كفرهم وقسوة قلوبهم لا يتضرعون إلى الله بالدعاء والاستغفار والإنابة ليكشف عنهم الضراء! وسنة الله تعالى في هؤلاء الدمار والهلاك والزوال، ولو بعد حين. فالدعاء لون من الطلب، وحين يتوجه المؤمن إلى الله طالبا أن يعطيه، فإنه يدعو بِذِلّة الداعي أمام عزة المدعو، والطلب إن كان من أدنى إلى أعلى قيل دعاء، وإذا كان من مساوٍ إلى مساوٍ قيل طلب، وإذا كان من أعلى إلى أدنى قيل أمر"[(٣)].

## إذا كان اللّه معك فمن عليك؟

والدعاء يخفف من البلاء، فعندما تكون علاقة المؤمن طيبة مع ربه فإنه يكون مستجاب الدعوة، ويكون أكبر خصم له في قبضة الله، والأساس في هذا قول القائل: (فإذا كان الله معك فمن عليك؟ وإذا كان الله عليك فمن معك؟)

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لتقريب هذه الحقيقة وبيانها فيقول:

**المثل رقم (١٦٠): لو أن معركة بين سيارات كهربائية، ألعاب أطفال بالأعياد، يديرها مشرف بيده مفتاح الوصل والقطع، فإذا قطع الكهرباء وقف كل شيء،**

---

(١) [الفرقان: ٧٧].

(٢) [الأنعام: ٤٣].

(٣) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١/ ٣٦٤).

**فكيف إذا كانت علاقتك مع هذا المشرف قوية إذا اقترب الخصم عليك وقطع المشرف الكهرباء عن المجموعة كلها في الوقت المناسب لك، وتعطل كل شيء[1]؟؟**

عن ابن عباس[2] رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: **«تَعَرَّفْ إِلَى اللهِّ فِي الرَّخَاءِ يَعْرِفْكَ فِي الشِّدَّةِ، وَإِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللهَّ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهَّ»**[3].

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لبيان حاجة الإنسان بشكل دائم إلى أن يكون على أهبة الاستعداد لهول الصدمات والمفاجآت، وامتصاص الضربات فيقول:

**المثل رقم (١٦١): قد يهاجم جرثوم الجسم، لكن لكي نهيء هذا الجسم إلى مقاومة الجرثوم فإننا نعطيه مصلاً مضادّاً، فإذا ما حدثت هجمةٌ شرسةٌ قويَّةٌ في**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥٠).

(٢) عبد اللهَّ بن العباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، أبو العباس، ابن عم رسول اللهَّ صلى اللهَّ عليه وآله وسلّم وقال فيه: «اللَّهمّ فقّهه في الدّين وعلّمه التّأويل»، وكان يقال له: حبر العرب وترجمان القرآن، مات بالطائف سنة ثمان وستين للهجرة، وقد بلغ إحدى وسبعين سنة. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (٤/ ١٢١) رقم (٤٧٩٩)].

(٣) أخرجه **أحمد في مسنده** (٥/ ١٨)، برقم (٢٨٠٣). **والطبراني في الكبير** (١١/ ١٢٣)، برقم (١١٢٤٣). وقال الشيخ شعيب الأرناؤوط: "حديث صحيح".

**المستقبل يكون السلاح والأجهزة المناعية في الجسم جاهزةً لتقوم بدورها**[(١)].

فالله تعالى يخوّف عبده ليستعدّ، حتى إذا جاء الخطرُ الحقيقيُّ يجد نفسه قوياً صامداً لا ينهار، ولأن من طبيعة الإنسان أنه يخاف على مصالحه، وقد وجد أمنه عند الله، فإنه إذا خاف يلجأ إليه منقادا من تلقاء نفسه.

## أيهما أهون الابتلاء بالخير أم بالشر؟

يبدو أن الابتلاء بالشر أهون على المبتلى من الابتلاء بالخير، فالأوّل امتحانٌ مباشرٌ يدركه عامة الناس، وقد ينتبهوا لذلك ويستعدوا له، وكل ما يقع على المؤمن من مصيبة أو فقد عزيز أو نقص في مال أو نفس فإنه يدرك بأنه مبتلى ومختبر فيلجأ إلى ربه يسأله اللطف والتخفيف والتعويض قائلا كما علمه ربه: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ ١٥٦﴾[(٢)]. أما الابتلاء بالخير فهو امتحان غير مباشر، ولا يدرك حقيقته إلا القليل ممن صدق إيمانه، وصفتْ بصيرته، لكل ما أنعم الله عليه من الصحة والقوة والعقل، والمال والجمال، والزوجة والأولاد، فبلاء الرخاء أكثر وطأً على صاحبه من بلاء الشدة.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥٠).

(٢) [البقرة: ١٥٦].

## بلاء الرّخاء أخطر وأشدّ

فالشدة غالباً ما تحمل صاحبها على الرجوع واللجوء إلى ربه، فيُمدّهُ بالصبر والثبات، بينما بلاء الخير والرخاء يحمل صاحبه على الطغيان والظلم والتعدي، وعلى النسيان وقساوة القلب، والركون إلى الدنيا وزينتها ومتاعها، فيقع ذليلاً في أسرها فلا يستطيع الخلاص منها بدليل قوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾[1]، ويقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن يُنَزِّلُ بِقَدَرٍ مَّا يَشَآءُ ۚ إِنَّهُۥ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرٌۢ بَصِيرٌ ۝٢٧﴾[2]. لذا نجد أن النبي ﷺ قد خاف على أمته فتنة وبلاء الخير أكثر من فتنة الشدة، عن عمرو بن عوف الأنصاري[3] قال: قال رسول الله ﷺ: **«فَوَاللهِ مَا الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنِّي أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»**[4]، ويضرب مثالاً للتوضيح، فيقول:

---

(١) [سبأ: ١٣].

(٢) [الشورى: ٢٧].

(٣) عمرو بن عوف بن زيد بن ملحة، أحد البكّاءين، وجاءت عنه عدة أحاديث وكثير ضعّفوه، كان قديم الإسلام، أول غزوة شهدها الخندق، مات في زمن معاوية. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (٤/ ٥٥٢) رقم(٥٩٣٨)].

(٤) صحيح البخاري (٥/ ٨٥) رقم (٤٠١٥)، وصحيح مسلم (٤/ ٢٢٧٣) رقم (٦ - ٢٩٦١).

**المثل رقم (١٦٢): فالله سبحانه، حينما ولّى إنسان مدير دائرة أو مدير مستشفى أو مدير جامعة، أو مدير مؤسسة، هذا امتحان تكليف له لا تشريف، هو ابتلاء فردي ليراك هل تعدل في عملك أم تظلم؟ هل تقرب أقرباءك أم تقرب أصحاب الكفاءة فقط[١]؟**

## احذر أن وراء هذه حكمة وابتلاء

فإنْ ألقت الدنيا على الإنسان كنوزها فليحذر أن وراء هذه حكمة وابتلاء، كالقوة الجسدية وكثرة العدد والنصر على الأعداء، كما ابتلي المسلمون في حنين، فأصابهم الغرور والتراخي والإعجاب ولم يشكروا الله أو يحتفظوا على مقومات النصر، بل اعتمدوا على كثرتهم لا على الله وخسروا المعركة!! يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا﴾[٢]، ليدل ذلك على أن الابتلاء بالخير أشد وطأة، فالكثيرون يصبرون على المرض والضعف، وقليلون يصبرون على الابتلاء بالقوة والغنى، أو يكبحون جماح القوة الهائجة في كيانهم وأوصالهم، كثيرون يصبرون على الفقر والحرمان فلا تتهاوى نفوسهم ولا تذل، وقليلون يصبرون على الثراء والوجدان، وما

---

(١) النابلسي، محمد راتب، **خطبة الجمعة الابتلاء وأنواعه**، رقم (١١٦٨) يوم: (٨/ ١٠/ ٢٠١٠)، الموقع الرسمي..

(٢) [التوبة: ٢٥].

يثيرانه من شهوات وأطماع! كثيرون يصبرون على التعذيب والإيذاء فلا يخيفهم، وقليلون يصبرون على الإغراء بالثروات والمناصب(١)!

## النفاق مكر وخديعة!

يقول الله ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨﴾(٢)، ويقول ﷻ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ۝٢٠٤﴾(٣). فإذا كانت صفة المؤمن الوضوح والجرأة في قول الحق واتباعه، حينما آمن بالله العظيم وضحّى من أجل هذه القناعات، فهو بذلك يكون قد انسجم مع الحقيقة وامتزج بالخير والعطاء، أما الكافر فهو واضح وجريء أيضا، يكفر بالله مُنْعِماً ومُستحِقاً للعبادة، ولو آمن به وجودا وخالقا، فهو غير منسجم مع الحقيقة، ولكنه منسجم مع نفسه، وشرُّهُ محدودٌ؛ لأنه مكشوف والناس يحذرونه ويتقونه.

---

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٤/ ٢٣٧٧).

(٢) [البقرة: ٨].

(٣) [البقرة: ٢٠٤].

## انفصام شخصية!

أما الإنسان الخطر فهو الإنسان المنافق لأنه غامض، له ظاهر وله باطن، له أخلاق وأفعال يظهرها في الجلاء، وأخلاق وأفعال أخرى مختلفة في الخفاء، متلوّن يقول ما لا يفعل، ويوهِم المؤمنين بأنه مؤمن وهو مع الكفار، له حالة أشبه بحالات انفصام الشخصية، تجد ظاهره يغلي وَرَعًا وله معاصٍ كثيرة يفعلها، يطرح أسئلة وقضايا أمام الناس ليظهر أنه مؤمن ليكسب مكاسبهم، فكان النفاق أخطر شيء في حياة المؤمنين، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: **«آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ»**[1]. والمنافقون قسمان: قسم جاهل في أمر دينه ويمكن إصلاحه، ومن هؤلاء حالات ممن عاصروا النبي ﷺ، تابوا فتاب الله عليهم، وقسم ثانٍ منتفع بكفره، وهذا النوع لا ينتفع بأية موعظة، ولا فائدة من إصلاحه.

## يتقمّص دور الرجل الصالح دائما

فالنفاق تمثيل من أجل الحصول على شيء، يتقمّص دور الرجل الصالح دائما ولا يتمثل دور الرجل السيِّء، ويُقنع من حوله فيُصدّقوه، ثم يُصدّق نفسه بأنه حقق مكاسب عظيمة ولكن يكون هو الخاسر، لقول الله تعالى:

---

(١) صحيح البخاري (١/ ١٦) رقم (٣٣)، وصحيح مسلم (١/ ٧٨) رقم (١٠٧).

﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩﴾[1]

ويضرب الشيخ النابلسي أمثالاً للتقريب، فيقول:

**المثل رقم (١٦٣): تصوروا إنسانا عمره أربعون سنة يقنع طفلا عمره خمس سنوات بأنه أغنى رجل في العالم، سواء أقنعه أم لم يقنعه ماذا يفعل هذا الطفل أمامه[2]؟؟**

فإذا توهّم المنافق بأنه عبقري وبارع يغلب الناس بأفكاره ونفاقه، فهو في الحقيقة أحمق؛ لأن الذي يخدعه لا يملك له ضرّاً ولا نفعاً، والله أعلم بحاله من نفسه، يقول الشيخ النابلسي موضحاً هذا المعنى من خلال المثل التالي:

**المثل رقم (١٦٤): رجل عنده ذكاء وحيلة، ادعى أنه يحمل أعلى شهادة في البلد، وأقنع الناس كلهم بذلك فصدّقوه ونجحت الخطة، وهو أمّيّ لا يقرأ ولا يكتب، هل يستطيع هذا الرجل أن ينتفع بأميته[3]؟**

## ما قيمة هذه الكذبة وما قيمة هذا النجاح؟

فإذا نجحت الخطة بأن يكون أمام الناس عالما كبيرا، لكنها لم تنجح بأن ينقذ نفسه من خطورة الجهل، وسوف يتعرض لامتحانات وأسئلة صعبة لن تنجّيه

---

(١) [البقرة: ٩].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٧).

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٦).

من ملاحقة المحيطين به والمجتمع، فالمنافق يكذب من أجل الجاه والصيت، وهو يعمل من أجل الدنيا دائما، ولا تهمه الآخرة بأي حال من الأحوال.

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح من واقع الحياة فيقول:

**المثل رقم (١٦٥): لو أن إنسانا معه كيلو من المعدن الرخيص لا يساوي قرشا، وأقنع الناس بذكاء وجهد وحيلة أن هذا المعدن ذهباً!! فصدقه الناس وعظّموه! من الخاسر؟؟ الناس أم هو[1]؟؟**

## يخدع نفسه في كل الأحوال

فالمنافق اطمأن إلى قناعة هؤلاء الذين صدّقوه، وهي في الحقيقة قناعة لا تساوي شيئا، وهو يخدع نفسه في كل الأحوال، كالنعامة إذا غمست رأسها في الرمل اطمأنت وهدأت في مكانها، فأكلها الوحش، من الخاسر؟؟ هل خدعت عدوها أم خدعت نفسها؟ والمنافق يكذب على الناس ليصل إلى هدفه، ويخدعهم وهو لا يدري أنه يخدع نفسه! ويضرب الشيخ النابلسي أمثالا للتوضيح في ذات السياق فيقول:

**المثل رقم (١٦٦): قال الابن لأبيه: هذه ثلاث دجاجات وهي في الواقع دجاجتان، قال له أبوه: أنا آكل واحدة وأمك تأكل واحدة، وأنت تأكل الثالثة،**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٦)

**من هو الخاسر[١]؟**

**المثل رقم (١٦٧): لو دُعي إنسان إلى وليمة، ووجد طعاماً لذيذاً يشتهيه وهو يتلوى جوعاً، فأوهم الذي دعاه مفاخرةً ومكابرةً منه بأنه أكل قبل ساعة طعاماً أفضل منه، فاعتذر الداعي ورفع الطعام من أمامه وكفّ عن دعوته، من منهما خدع الآخر[٢]؟**

بل من منهما خدع نفسه وحرمها من أطيب الطعام؟ فهذا هو الحمق بعينه، فكيف إذا كانت هذه العلاقة مع الله الذي لا تخفى عليه خافية، فلا يتظاهر بما ليس فيه، فنواياه تكون مكشوفة، وخواطره واحتيالاته.

## في نظر الأول إنجازاً وفي نظر الثاني سخافةً!

**المثل رقم (١٦٨): دخل شخص على محام يجلس على كرسي مكتبه، فكر المحامي أن يرفع من شأن نفسه، فأجرى عدة مكالمات هاتفية مع شخصيات هامة ليخدع الزبون، يقول: يا سيادة القاضي، يا سيادة النائب العام، القضية نجحت، ثم سأل المحامي الزبون عن حاجته فقال: أنا موظف شركة الاتصالات جئت لإصلاح خط الهاتف[٣].**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٦).

(٢) المصدر نفسه

(٣) المصدر نفسه.

فقد توهّم المحامي أنه ارتفع أمام الزبون (موظف الاتصالات) لكنه في الحقيقة سقط، فالخسارة أن يوهم إنسانٌ إنساناً آخر بشيء قد يكون في نظر الأول إنجازاً ويكون في نظر الثاني سخافةً، أو يظن نفسه ذكيّاً ونبيهاً إلى درجة عالية قد تصل إلى الغباء!! ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً رائعا للتقريب فيقول:

## فرصةٌ عظيمةٌ!!

**المثل رقم (١٦٩): يُروى أن سائقاً شابّاً ركبت معه فتاة، سألها إلى أين؟ أجابت: إلى حيث تشاء!! فهم السائق قصْدها وعدّ هذا فرصةً عظيمةً، وبعد قضائه معها ساعةً مليئةً بالمعاصي، أعطته رسالةً، ومعها خمسة آلاف دولار، قرأ الرسالة فوجد فيها: مرحباً بك في نادي الإيدز!! فقد نقلت له المرض!! ثم ذهب ليصرف المبلغ فإذا به مزوّر فدخل السجن[١]!!**

فأعداء الله حينما كشفوا أن هذا الدين أقوى وأكبر من أن يُواجَه بالقاذفات، أرادوا أن يخرّبوه من داخله عن طريق ارتكاب المعاصي والفجور، فأوكلوا هذه المهمّة الخطيرة إلى من يُغيّر في عقيدة المسلمين ويبتدع فيها باسم الإسلام، فيحلّلون الاختلاط والزنا، ويصفون الزواج الحلال بأنه تراثٌ بالٍ، يقولون بأن البنوك والفائدة مشاريع استثمار حضارية، وأن قطع يد السارق سلوك وحشيّ ولا بد من وسيلة ردع أخرى!!

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٦)

## فاسدون يَدّعُون أنهم مصلحون!

يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾﴾[1].

المنافقون فاسدون ويَدّعُون بأنهم مصلحون، وهذا مقياسهم، فالفساد هو إخراج الشيء عن صفاته الأساسية، فقد أفسدوا المراعي الطبيعية التي خلقها الله للدواب إلى خليط أعلاف من طحين اللحوم والجيف والدم المجفّف وقالوا عنها (بروتين)، وهي أشياء كلها محرمة أدت إلى جنون البقر وهو في الأصل سببه جنون البشر، أفسدوا طبيعة المأكولات بإضافة الأسمدة الكيماوية والهرمونات الضارة، أفسدوا الألبان بشتى أشكالها بانتزاع القيمة الغذائية منها واستخدامها في منتوجات لها مسمّيات أخرى.

## أفسدوا وسائل الإعلام

أفسدوا ما يُطبع وما يُنشر وما يُبَثّ، أفسدوا النفوس والأسرة والعلاقات، أفسدوا الهواء والاتصالات وبثّ المحطات الكثيرة التي لوّثت حياة الشعوب وعاداتها وقيمها، أفسدوا المدرّس بإضاعة الوقت في الحصة على حساب التلاميذ؛ أفسدوا ليالي رمضان بالمسلسلات والأفلام العاطفية الخليعة، أفسدوا الشباب والشابات بالمواقع الالكترونية الإباحية، أفسدوا طهارة النفوس والمعاني السليمة فيها.

---

(١) [البقرة: ١١].

## أفسدوا كل شيء!!

غيّروا خلق الله وأفسدوا حال الإنسان والحيوان والنبات، أفسدوا الصناعة والزراعة والأفكار والعقائد ليصلحوا حال جيوبهم وأرصدتهم ومعيشتهم، فكل شخصية وكل حرفة وكل وظيفة وكل صناعة لها طريق لإفسادها، يقول الشيخ النابلسي[1]:

**فإفساد الماء أن نغيّر طعمه أو لونه...**

**وإفساد الفتاة إخراجها عن خطّ العفّة والحياء...**

**وإفساد الموظف إخراجه عن خدمة المواطنين...**

**وإفساد القاضي قبوله الهدية والرشوة...**

**وإفساد المحامي هو أن يكذب على موكليه...**

**وأفسدوا الأنهار والينابيع الصالحة للشرب بالروافد السوداء (المجاري)، فأخرجوها عن طبيعتها التي خلقها الله لها...**

**أفسدوا المزروعات والثمار بالهرمونات المسرطِنة والمحرّمة والمهرّبة دوليا لمضاعفة الإنتاج وتحسين الألوان وزيادة الأرباح والأموال!!**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٦).

## لا يلجأ إلى منهج الله أبدًا

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً واضحاً لبيان خطورة اللجوء إلى حلول تخالف منهج الله تعالى في التعامل مع الأشياء وإفسادها في الحياة والكون فيقول:

**المثل رقم (١٧٠): لو أن هذا الفاسد يملك آلة غالية الثمن شديدة التعقيد كثيرة الربح وتعطلت، إلى من يلجأ هذا المنافق لإصلاحها؟ إنه يلجأ إلى الشركة التي صنعته، يلجأ إلى الخبير، إلى تعليمات الصانع، إلى النشرة المرفقة مع هذه الآلة، فهو مركّب في أعماقه أنه لا يجوز التصرف إلا مع هؤلاء**[١].

هذا الفاسد يعتمد على الخبير والمصلح الحقيقي في الأمور التي تخصّه، أما عندما يتعلق الأمر بإصلاح الأمة وأمورها فهو لا يلجأ إلى منهج الله أبدا، لا يلجأ إلى المُصلح الحقيقي، بل يلجأ إلى خبير من الشرق أو باحث من الغرب!!

## الخلوة وعاء الفساد

يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا خَلَوْاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ١٤﴾[٢]. هذه صورة واقعة في طبائع هذا النوع من المنافقين الذين لا يجدون في أنفسهم الشجاعة ليواجهوا الحق بالإيمان الصريح، أو بالإنكار الصريح، يلجئون إلى الخلوة، وهم في الوقت ذاته يتخذون لأنفسهم مكان المترفع على جماهير الناس

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٧).

(٢) [البقرة: ١٤].

وعلى تصورهم للأمور! ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (١٧١): هل من الممكن لإنسان أن يغشّ الحليب أمام الشاري؟ فالغش عادة ما يتم في خلوة، غرفة ثانية، مكان مظلم وصوت منخفض**[١].

## كلّ عمل منحرف يحتاج إلى خلوة

**المثل رقم (١٧٢): يمشي الرجل مع زوجته مُطْمئِنّاً هادئ البال، أما لو كان هذا الرجل يمشي مع فتاة وسمع همسا تجد أن كل شيء فيه يرتعد، فكل شيء منحرف يحتاج إلى خلوة**[٢].

يبدو أن الشيخ النابلسي اقتبس هذا المثل من خواطر تفسير الشيخ الشعراوي، حينما أورد الأخير مثالا على هذا السياق، متطابقا في اللفظ والمعنى فيقول:

**رجل يجلس مع زوجته في منزله وطرق الباب طارق، ماذا يحدث؟ يقوم الرجل بكل اطمئنان، ويفتح الباب، ويُصرّ علي ضيفه أن يدخل، وتقوم الزوجة بإعداد الطعام أو الشراب الذي سيُقدّم للضيف، أما إذا كان الإنسان مع زوجة غيره في شقته وطرق الباب طارق، يحدث ارتباك عنيف، ويبحث الرجل عن مكان يخفي فيه المرأة التي معه، ويطفئ الأنوار ويمنع الأصوات**[٣].

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٧)..

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١/ ١٥٩).

فإذا كان كل عمل منحرف يحتاج إلى خلوة، فإن كل عمل منضبط وسليم يفعله صاحبه تحت ضوء الشمس، على مرأى الناس جميعا وهو مطمئن.

## الإيمانُ مبدأٌ لا سلعةٌ

يقول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦﴾[1]، فالأصل أن يحتفظ المؤمن بمبادئه وقيمه الدينية، لا أن يستبدلها بالمال أو الوظيفة والمنصب، فيكتشف بعد فوات الأوان أنه خسر أغلى ما يملك بأبخس ثمن، لجهله وسوء تصرفه، وظنه بهذه الصفقة الخاسرة، ثم تنقلب إلى ثمن غال يدفعه ندما وحسرة يوم لا ينفع الندم!!

## من هو أشقى الناس؟

فأشقى الناس هو المتفلت من الالتزام والانضباط، وهذا حال المنافق، يدعو الناس إلى الطاعة ويشترى بآيات الله ثمنا قليلا، تصديقا لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗا﴾[2]، قال ابن كثير[3] في معنى هذه الآية: لا

---

(١) [البقرة: ١٦].

(٢) [البقرة: ٤١].

(٣) هو إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير الدمشقي، المعروف بابن كثير، ولد في سوريا ودفن في دمشق عام (٧٧٤هـ)، فقيهٌ ومفتٍ ومحدثٌ، وحافظ ومفسر ومؤرخ، وعالم بالرجال، أشعري المذهب، ومؤلف البداية والنهاية وتفسير القرآن العظيم، وكان قد فقد بصره في آخر حياته. [**الأعلام للزركلي** (١/ ٣٢٠)].

تعتاضوا عن الإيمان بآياتي وتصديق رسولي بالدنيا وشهواتها، فإنها قليلة فانية، وقد سُئِل الحسن البصري عن قوله تعالى: ﴿وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا﴾[1]، قال: الثمن القليل هو الدنيا بحذافيرها[2]. ويضرب الشيخ النابلسي أمثالا مؤثرة يوضح فيها حال هؤلاء، وهو حال من يمتلك الشيء الثمين ليسيء استخدامه في غير مكانه، فيقول[3]:

**المثل رقم (١٧٣): هل من الممكن أن يمتلك أحد ما سبيكة ذهب وزنها كيلوغرام ويعملها مجرفة للتراب؟! هل من المعقول أن تجعل هذه المادة الثمينة الغالية أداة رخيصة بالبيت؟!!**

**المثل رقم (١٧٤): هل من المعقول أن تشتري كمبيوترا بخمسين ألفا فتعمله طاولة؟!**

**المثل رقم (١٧٥): هل من المعقول أن تستعمل ورقة الألف ليرة لإشعال المدفأة؟!**

ويُمكن أن يُقال: **هل من المعقول أن تُستخدم نصوص الدين لغير مرادها كما يستخدمها المنافقون، والتلاعب بها لأجل منصب مؤقت في الدنيا الحقيرة؟ أو جاه زائل مهما طال؟ وهو في الأصل منهج الإنسان من الله، وطريقه إلى جنة عرضها السماوات والأرض!!**

---

(١) [البقرة: ٤١].

(٢) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (١/ ٢٤٣).

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٢٢).

## أخطر الأمور على الإطلاق

إن أخطر الأمور على الإطلاق، أن يفتي الإنسان فتوى باطلة أو خلاف ما يعلم، ليقبض الثمن عاجلا في الدنيا، فيعاقب ويخسر الثمن الحقيقي والجزاء الأوفى بين يدي ربه آجلا عند الحساب، فهم يجدون لكل معصية فتوى إرضاء لأصحاب الشهوات، وهذا حال المنافق، وهذا حال من اشترى بآيات الله ثمنا قليلا قاصدا متعمدا وهو يعلم!! ويضرب الشيخ النابلسي حال هذا المنافق الذي يخسر الشيء الثمين جدا بالشيء الرخيص جدا، يقول:

**المثل رقم (١٧٦): لو معك ورقة نقدية بمائة ألف دولار، وقلبتها على وجهها الأملس الأبيض، فظننتها ورقة عادية، وكتبت عليها رقم هاتف، ثم مزقتها ورميتها في سلة المهملات، وأنت لا تدري[١]!!**

## تعامَلَ على هواه ومصالحه السخيفة!

وهذا حال من يتعامل مع شرع الله وقوانينه، حينما تعامل معه على هواه ووفق مصالحه السخيفة المؤقتة، فيخسر على كل أحواله، ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً جديدا من هذا الواقع للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (١٧٧): أحد سماسرة البيوت صلى العشاء أمام المشتري باتجاه الشمال لتسهيل بيعه[٢]!!**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٢٢).

(٢) المصدر نفسه.

فمن أجل أن يبيع السمسار هذا البيت باع معه أجر صلاة العشاء، ليوهم المشتري أن اتجاه هذا البيت قِبْلي لتسهيل بيعه!! وهو في هذه الحالة، كمن أحال قيمة البيت وأجر الصلاة إلى سلعة وباعهما معا للمشتري، وقبض الثمن لهما في صفقة واحدة، ليحصل على مكاسب دنيوية عاجلة، ويا ليته كان ثمنا مستحِقّا!!

## المتاجرة بالدين ليست اختراعا حديثا

فالواجب على المؤمن أن يرفع هذا الدين إلى السماء بعيدا عن وحل الأرض وتجارتها ومناصبها وزينتها، وأن يكون من المجموعة التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾[1]. فالمتاجرة بالدين وقيمه السماوية ليست اختراعا حديثا، لأن الطبيعة الاستغلالية التي تكبّل الإنسان بالمادة ومشتقاتها هي طبيعة جشعة، من شأنها أن تستفيد من كل فرصة في سبيل تحقيق مطامعها، ولبيان الفارق الكبير بين حال المنافق الذي يشتري الدنيا، وحال المؤمن الذي يشتري الآخرة، يضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح فيقول:

---

(١) [البقرة: ٢٠٧].

**المثل رقم (١٧٨): إذا قلنا لشخص: تمتع بمائة مليون خلال سنة، وسوف تدخل إلى السجن لتمضي عشرات السنوات مع التعذيب، هل يقبل هذا[1]؟**

فكيف إذا كانت سنوات قليلة في دنيا مزعجة مليئة بالمتاعب، مقابل ملايين كثيرة من السنين في جنة جميلة جذابة، مليئة بالأمان والسعادة وما تشتهيه نفسه!!

## معادلة حسابية والخاسر الوحيد

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر للتوضيح، أشبه بالمعادلة الحسابية، فيقول:

**المثل رقم (١٧٩): طبيبٌ ناشئٌ يعمل في قريةٍ، يفتقد إلى البيت والزوجة والعيادة، وجاءته جريمة قتل متعمّدة، وطلب منه القاتل كتابة تقرير بأن سبب الوفاة هو موت طبيعي مقابل عشرة ملايين ليرة[2]!!**

فالمقتول في الأصل يملك مائتي مليون استولى عليها القاتل، دفع منها عشرة فقط للطبيب واستولى على الباقي، فالثمن الذي قبضه الطبيب قليل جدا بالمقارنة مع البضاعة المُباعة، فهو الذي ضحى بالقناعات والمبادئ واشترى بدينه ثمنا قليلا، وهو الخاسر الوحيد الذي دفع الثمن الحقيقي لهذه الجريمة.

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٧).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٢٢).

## جعل معصية الله هي الثمن!

فالذي يشتري بآيات الله ثمنا قليلا، كمن جعل معصية الله هي الثمن وباع نعيم الآخرة بالمتع الزائلة! فحينما يأخذ الإنسان أقل مما يعطي يكون هذا قلب للصفقة وهذا يأتي بالخسارة دائما، فالأثمان دائما تدفع والسلعة تؤخذ، ولكن في هذه الحالة جعل الثمن المدفوع مشترى، وتنكّر لعهده مع الله ليبقى مالُه ومركزُه، فالشاري في العادة يبيع سلعة ليكسب مالا أكثر منها قيمة، أما هنا فإنه كمن يبيع سلعة ذات قيمة عظيمة مقابل قروش قليلة، فحجم المال الذي اكتسبه لا يساوي شيئا مهما بلغ مع قيمة هذه السلعة وهي الجنة؛ ليس كمثلها شيء، وهذا هو الحمق بعينه!!

## الموت النهاية الحتمية لجميع البشر

يقول الله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾[1]. فالنهاية الحتمية لجميع البشر في هذا الكون هو الموت، فهو يسلمنا لحياة ثانية، والذي يستكبر عن الموت كمن دخل في صفقة خاسرة؛ لأن ملك الموت لم يأت بالموت من عنده، بل أخذ التلقي من الله، فالأمر الأعلى يصدر من الله تعالى، وأمر التوسّط بينه وبين البشر للمَلَك، وأمر التنفيذ للرسل. ويضرب الشيخ النابلسي عددا من الأمثال في بيان حقيقة الموت ودوره في تهذيب النفوس البشرية فيقول:

---

(١) [آل عمران: ١٨٥].

**المثل رقم (١٨٠): الإنسان يعيش في هذه الدنيا كالسجين المحكوم عليه بالإعدام، تناله يد السجّان في أية لحظة مهما طالت مدة التوقيت**[١].

**أو كالأغنام في حظيرة الجزار تنتظر مصيرها المحتوم، ينتقي منها كل يوم واحدة أو اثنتين، لكن الدّور دوّار على البقيّة**، قال الشاعر يصف هذه الحقيقة:

الناس في غفلة عما يراد بهم ... كأنهم غنم في دار جزار[٢]

فالموت هو قرار الخالق صدر في حق المخلوق في الوقت المحدّد، كما أن حكم الإعدام قرار القاضي النهائي في حق المتهم، وفي كلا الموقفين ينتظر الإنسان ساعة التنفيذ، فحين ينتهي موعده وأجله فلا يجد خيارا لما ينتظره إلا الصبر والتسليم لأمر ربه وقضائه مهما طالت هذه المدة، فما أجدر الأحياء أن يحسبوا حساب هذا المذاق! إنه الموت الذي هو نهاية كل حيّ، وهو عاقبة المطاف للرحلة القصيرة على الأرض، ثم يرجع الجميع إلى اللهّ.

## الموت على دين الإسلام

قال الله ﷻ: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٣٢﴾[٣]. يأمر الله ﷻ عباده بأن لا

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤٤).

(٢) ورد هذا الشعر في **مجلة المنار** (١/ ٢١٤)، محمد رشيد رضا (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، ومجموعة من المؤلفين، ولم يذكر اسم قائله أو ترجمته، ولم يرد في مصدر آخر حسب ما أعلم.

(٣) [البقرة: ١٣٢].

يموتوا إلا بشرط لازم، وليس لأحد من الخلق أن يختار متى يقع الموت عليه، لذا يتوجه الإنسان إلى الأمر الذي يملك فيه الاختيار، وهو أن يحرص على أن يكون دائما على دين الإسلام، فإن صادفه الموت في أية لحظة يكون مسلما، وكأن الحق سبحانه يقول لعباده: تمسكوا بإسلامكم؛ لأنكم لا تدرون متى يقع عليكم الموت. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (١٨١): لو فرضنا أن تذكرة طائرة ثمنها ألف دولار، ونظام هذه الشركة يوجب بأنك لو تخلَّفت عن ركوب الطائرة لمدّة دقيقة واحدة قبل الإقلاع فإنك لا تستردُّ قيمة هذه التذكرة؟ لا شك أن الحريص على ثمن هذه التذكرة لا بدّ أن يقف وراء الباب ويستعدّ قبل الموعد المحدّد**[1].

فالأولى أن يستعدّ الإنسان لملك الموت وكأنه ينتظره خلف الباب ليقبضه، فلا أحد يعرف متى يأتيه الموت وقد يكون في أية لحظة، فإذا عجز الإنسان عن ردَّ هذا الزائر الرهيب، وهذا بديهيّ، فينبغي إذن أن يكون مستسلما وجاهزا ومُستعدّا.

### نضرب مثلا آخر لتوضيح:

**المثل رقم (١٨٢): لو أنّ إنسانا مكلفا بالقيام بعمل هام وخطير ومصيري في ساعة محدّدة، هذا الأمر مفروض عليه وليس باختياره، فمن شدّة حرصه على**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤٦) **تفسير سورة آل عمران**، درس (٢٨).

**تأدية هذا العمل، فإنه يقف محتاطا ومنتظرا قبل الموعد**[١].

وما دام الموت كذلك، فينبغي ألاّ يأتي ذوي البصائر إلا وهم محتاطون، دائموا الاستعداد له، ينظم المؤمن علاقاته كلها: المالية والاجتماعيةً، فإذا جاء الموت رحّب به وكأنه على موعد معه، فالقاسم المشترك بين حياة الصحابة الكرام أنهم كانوا في أسعد لحظاتهم حينما يأتيهم الموت.

## الموت حدث خطير

إن حدث الموت أخطر من حدث الحياة، لأنه يحدّد مصيرها، فالإنسان بعد أن يولد يجد أمامه خيارات كثيرة، وأول هذه الخيارات أغلاطه وذنوبه التي يمكن أن يتوب منها، أما حينما يأتي الموت فلا ينفع نفساً إيمانُها إن لم تكن آمنتْ من قبل، فقد تأتي على المحتضر ساعةٌ يقول فيها: لم أر خيراً قط، من شدة الآلام التي ينتابه!! ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب وبيان خطورة هذه المرحلة فيقول:

**المثل رقم (١٨٣): الموت سفر وانتقال، فماذا أعد الإنسان لهذا السفر، وهل يسافر إنسان دون استعداد**[٢]**؟؟.**

فالاستعداد للسفر يتطلب أمورا عديدة وهامة، ولو نسي المسافر واحدة من

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٢٨).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٦١).

هذه الضرورات التي تُعيقُ مروره على الحدود أو المطارات، والممرات الدولية، لطار عقله، فما باله إذا كان هذا السفر لمرّة واحدة وبلا رجعة؟؟ ويذكر الشيخ النابلسي عظة لبيان خطورة هذا الخيار فيقول:

كثير من الناس، قد يكون الذي بقي من عمره أقل من الذي مضى، ويقول بأن عمره الذي بقي، فما الذي يمنع بأن يمضي هذا العمر المتبقّي هو أيضا كلمح البصر كالذي سبقه؟؟ ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لبيان مدى اقتراب الموت والأجل للإنسان من حيث لا يدري فيقول:

**المثل رقم (١٨٤): في المطار بوابات للمغادرين تُسمّى (GATE)، تقرأ البوابة رقم كذا، وكل واحد من البشر له بوابة يخرج منها من الدنيا إلى الآخرة؛ هناك بوابة حادث سير، وبوابة مرض قلب، وبوابة مرض سرطان، ولا بدّ من الخروج من إحدى هذه البوابات عاجلا أم آجلا، وهي سبب الموت لكل إنسان[١].**

## يُفاجأ بموتٍ لم يخطر له على بال

فأحياناً يتوهَّم الإنسان الموت عن طريق القلب، أو يتوهَّمه في مكان الخَطَر، فإذا هو يموت بحادث، أو يُفاجأ بموتٍ لم يخطر له على بال[٢]، تصديقا لقول الله ﷻ:

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٤).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨١)

﴿قُلۡ إِنَّ ٱلۡمَوۡتَ ٱلَّذِي تَفِرُّونَ مِنۡهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمۡۖ﴾[١]. فأيّ إنسان يتوهم أنه يمتلك الوقت الكافي لتسوية أموره وأعماله، ولكن تقع الصدمة كما تقع الفأس في الرأس حينما يقع الفراق في لحظة، فيكون هذا الإنسان حائرا وعاجزا عن تحقيق هذه الأولويات، يقول الله مخاطبا هؤلاء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ﴾[٢]، ويقول رب العزة يصف حال فئة أخرى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلۡمَوۡتُ قَالَ رَبِّ ٱرۡجِعُونِ ۝ لَعَلِّيٓ أَعۡمَلُ صَٰلِحٗا فِيمَا تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾[٣].

## الناس في غفلة، فإذا ماتوا انتبهوا

فأيّ حدث أعظم من هذا الحدث، وأيّ خطر أشدّ من هذا الخطر، وأيّة غفلة يفيق منها الإنسان حينما يُفارق أهله وماله ودنياه في لحظة، ليقف أمام محكمة الجنايات حيث يُحاسَب فيها عن عمله كله، فيتذكر حينئذٍ قول القائل: الناس في غفلة، فإذا ماتوا انتبهوا، وفي ذلك قال الشاعر:

النـاس في غفلـةٍ والموت يـوقظهمْ　　　ومـا يفيقـون حتَّـى ينفـد العُمُـرُ

---

(١) [الجمعة: ٨].

(٢) [البقرة: ٢٥٤].

(٣) [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

ويرجعـــون إلى أحــــلام غفلتِهِــــمْ كَـأَنَّهُمْ مَـا رَأَوْا شَـيْئًا وَلَا نَظَـرُوْا[1]

## العبادات

العبادة في اللغة من الذلة، يقال: طريق مُعَبّد، أي: مذلل، وأَصل العُبودِيَّة الخُضوع والتذلُّل[2]. وفي الشرع: عبارة عما يجمع كمال المحبة والخضوع والخوف، وهذا كمال الطاعة والإخلاص لله تعالى[3]. وعرفها ابن تيمية ﷺ بأنها اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة[4]. وقال سيد قطب[5]: "هي صلاة وصلة مستمرة بالله تعالى، لا يقطعها الترك والإهمال

---

(١) وردت هذه الأبيات وغيرها في كتاب: ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن (المتوفى: ٥٩٧هـ)، **صيد الخاطر**، تحقيق: حسن المساحي سويدان (ص: ١٢٠)، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، (١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م)، ولم يذكر اسم قائلها أو ترجمته، ولم أجدها في مصدر آخر حسب ما أعلم.

(٢) ابن منظور، **لسان العرب** (٣/ ٢٧٣).

(٣) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (١/ ١٣٤).

(٤) ابن عثيمين، محمد بن صالح، **القول المفيد على كتاب التوحيد** (ص٧) مكتبة الإيمان، المنصورة،(د.م.ن)، (د.ت.ن).

(٥) سيد قطب، إبراهيم حسين الشاذلي (١٩٠٦-١٩٦٦م)، كاتب وأديب ومنظر إسلامي مصري، ولد في أسيوط مصر، وحفظ القرآن الكريم، والتحق بدار العلوم ثم معلما في وزارة المعارف، وابتعثته الوزارة إلى أمريكا لمدة عامين، تحول عضوا في

والكسل، لا توصل أو تقطع حسب المزاج!"[١]، ويُحتجّ بقول رسول الله ﷺ عن عائشة، رضي الله عنها، أنه قال: «**وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ مَا دَامَ وَإِنْ قَلَّ**»[٢].

## ما غاية العبادة؟ وما الداعي لها؟

أما غاية العبادة فهو امتثال أمر الله تعالى، والداعي لها الأمر الإلهي، ونتيجتها نيل رضاه سبحانه، وثمراتها وفوائدها فهي أخروية؛ إلا أنه لا تنافي العبادة إذا منحت ثمرات تعود فائدتها إلى الدنيا، بشرط ألا يقصد في طلبها الدنيا[٣]، وهي في الأصل تنفيذ أمر الله: هذا حلال وهذا حرام، يقول الله للعبد: افعل هذا فيفعل، ويقول: لا تفعل هذا فلا يفعل، يقول له، قبّل هذا الحجر فيقبله طائعا، ويقول له: ارجم هذا الحجر فيرجمه طائعا، ورحمة الله تعالى تقتضي أن الأشياء المباحة كثيرة جدا، فهي لا تعدّ ولا تُحصى، وأن الأشياء المحرّمة قليلة جدا ومحصورة[٤].

---

مكتب إرشاد جماعة الإخوان المسلمين، وحوكم بتهمة التآمر على نظام الحكم، وأعدم عام ١٩٦٦م. [**ويكيبيديا، الموسوعة الحرة**].

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٦/ ٣٦٩٩).

(٢) صحيح البخاري (٧/ ١٥٥) رقم (٥٨٦١).

(٣) النورسي، سعيد، **مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان**، ترجمة إحسان الصالحي (ص ٥٦ – ٥٧)، القاهرة، سوزلر للنشر، ط١ ٢٠٠٣م.

(٤) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٧).

## أسرار العبادة

والعبادة ذات أسرار، ومن أسرارها أنها زاد الطريق، ومدد الروح، وجلاء القلب، وحيثما كان تكليف كانت العبادة هي مفتاح القلب لتذوّق هذا التكليف في حلاوة وبشاشة ويسر[١].

## ابتلاء اللّه للعباد

فالمنهج في الإسلام، أن يكون كسب الحلال صعباً وكسب الحرام سهلاً، ابتلاء من الله للعباد، فالتحريم والتحليل لا يكونان إلا بأمر من اللهّ، فلو كان الحرام صعباً والحلال سهلاً لأقبل الناس جميعاً على الحلال وألغي الاختيار. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب، يقول:

**المثل رقم (١٨٥): تجد امرأة تخدم بالبيوت ثماني ساعات بثلاثمائة ليرة، أما المومس فتأخذ ثلاثة آلاف في خمس دقائق[٢]!!**

فالناس كائناتٌ أودعت فيهم الشهوات، وهم يتحركون بمقتضى هذه الشهوات، وقد أنزل الله تشريعاً ومنهجاً لضبط هذه الحركة، افعل ولا تفعل، فالدافع إلى الطعام والشراب مثلا يدفع الإنسان إلى العمل الحلال ليشتري بأجرته طعاماً حلالا يأكله، وهذا هو المنهج الذي يسعد به الإنسان في الدنيا

---

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (١/ ١٤٢).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥٥).

ويقبض ثمنه الجنة في الآخرة، أما إذا سرق الطعام فهذا العمل وهذا الطعام يكون حراما[(١)].

## العبادة قناعة من الأعماق

يجب أن يُعبد اللهُ من الأعماق، في سكون وطمأنينة لا في قلق واضطراب، فلا يغضب أو ينفعل إذا أصابته عثرة، وما أكثر العثرات التي تصيب الإنسان في حياته، لذا يدعو اللهُ تعالى في مواطن كثيرة في كتابه العزيز عبادَه إلى الصبر على العبادة والطاعة، يقول تعالى في آخر سورة آل عمران: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٢٠٠﴾﴾[(٢)]. وقد ضرب الله تعالى مثلا يصف حال هؤلاء العباد الخاسرين، يقول رب العزة: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١١﴾﴾[(٣)].

هذا الذي يعبد الله على حرف، وهو الحدّ الفاصل بين طرفي الكفر والإيمان، فإن صلحت له دنياه وماله وولده أقام على العبادة، وإن فسدت وتغيرت أو أصابته فتنة وشدة وابتلاء وضيق، انقلب على العبادة وتشاءم.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥٧).

(٢) [آل عمران: ٢٠٠].

(٣) [الحج: ١١].

## توضيح معنى هذه الآية

قال مجاهد[(١)] أي: على شك، فإن أصابه خير أي: رخاء وعافية اطمأن به واسْتَقَرَّ، وأن أصابته فتنة أي: عذاب ومصيبة انْقَلَبَ وارتد على وجهه كافرا، وقال ابن جُرَيج[(٢)]: كان ناس من قبائل العرب ومن حولهم من أهل القرى يقولون: نأتي محمدا، فإن صادفنا خيرا من معيشة الرزق ثبتنا معه، وإلاّ لحقنا بأهلنا، وقال قتادة[(٣)]: إن كثر ماله وكثرت ماشيته اطمأنّ وقال: لم يصبني في ديني هذا منذ دخلته إلا خيرا، وإن ذهب ماله وذهبت ماشيته انقلب على وجهه وقد خسر الدنيا والآخرة[(٤)]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح من

(١) هو مُجَاهِدُ بْنُ جَبْرٍ، ويكنى أبا الحجاج مولى قيس بن السائب المخزومي، وكان يَقُولُ: عَرَضْتُ الْقُرْآنَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ ثلاثين عرضة، وَكَانَ فَقِيهًا عَالِمًا ثقة كثير الحديث، مَاتَ وَهُوَ سَاجِدٌ بِمَكَّةَ سَنَةَ ثَلاثٍ وَمِائَةٍعن ثَلاثًا وَثَمَانِينَ سَنَةً. [ابن سعد، **الطبقات الكبرى**، (٦/ ١٩) رقم (١٥٤١)].

(٢) هو عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ الْعَزِيزِ بْنِ جُرَيْجٍ ويكنى أبا الوليد، وكان جريج عبدا لأم حبيب بنت جبير، وكانت تحت عبد العزيز بْنِ عَبْدِ اللهِّ بْنِ خَالِدِ بْنِ أُسَيْدٍ بن أبي العيص بن أمية فنسب إلى ولائه، وولد عبد الملك بن عبد العزيز عام الجحاف سنة ثمانين، وَمَاتَ فِي أَوَّلِ عَشْرِ ذِي الْحِجَّةِ سَنَةَ خَمْسِينَ وَمِائَةٍ وَهُوَ ابْنُ سِتٍّ وَسَبْعِينَ سَنَةً، وَكَانَ ثِقَةً كَثِيرَ الْحَدِيثِ جِدًّا. [ابن سعد، **الطبقات الكبرى**(٦/ ٣٧) رقم (١٦٢٢)].

(٣) هو قَتَادَةُ بْنُ دِعَامَةَ بن عزيز بن عمرو بن ربيعة بن عمرو بن الحارث ابن سدوس، السَّدُوسِيُّ البصري الأكمه، كان تابعيا وعالما كبيرا، وكان يكنى أبا الخطاب. وكان ثقة مأمونًا ومن أنسب الناس، ولد سنة ستين للهجرة، وتوفي بالعراق سنة سبع عشرة ومائة. [ابن سعد، **الطبقات الكبرى** (٧/ ١٧١) رقم (٣١٣٩)].

(٤) الطبري، **جامع البيان** (١٨/ ٥٧٦).

واقع الحياة فيقول:

**المثل رقم (١٨٦): إذا سمع الرجل في المسجد كلمةً سخيفةً لا تعجبه، يترك من أجلها الصلاة ولا يعود، هل من المعقول أن يترك مقعده في كلية الطب أو الهندسة من أجل كلمةٍ يسمعها[١]؟!**

**ونحن نتساءل أيضا؟**

هل من المعقول أن يترك أحدٌ وظيفته من أجل خلاف يقع مع زميله؟!

هل من المعقول أن يترك أحدٌ مصنعه أو بضاعته من أجل خلاف مع زبون؟!

فإذا كان لا يفعل هذا عاقل حتى لا يخسر الدنيا، فكيف يترك دينه ليخسر الدنيا والآخرة؟! ويضرب الشيخ النابلسي مثلا للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (١٨٧): تجد ابن الرجل يتردد إلى الجامع، فإذا نجح ابنه بتفوق فإنه يُحبّ الجامع وشيخ الجامع، ويقول له: يا بني خذ أخاك معك إلى الجامع، وإذا رسب ابنه عزا كل أخطاء ابنه للشيخ والجامع[٢]!!**

هذا الرجل يميل مع مصالحه على كل الأحوال كمن يعبد الله على حرف، ويطمع بأن تسير الأمور وفق انفعالاته وعلى هواه!! ولم يأخذ بالأسباب وكأنَّها كل شيء، ولم يعتمد على الله وحده وكأنها ليست بشيء!!

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٩).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٣٥).

## صلته بالله شكليّة!

ويقترب كلام الشيخ النابلسي إلى حدٍّ كبير من مثل ضربه الشيخ الشعراوي حيث قال: **فالذي يعبد الله على حرف، كالذي على طرف العسكر والجيش، فإن أحسَّ بالأمان والنصر والغنيمة سكن واطمأن، وإلاَّ فرّ وطار على وجهه**[1]**!!**

تجد مقاومة هذا الجندي هشَّة؛ لأن، وعلمه هزيلٌ، وإرادته ضعيفةٌ، وسرعان ما يتقلب بين الكفر والإيمان، يحكّم نزواته ولا يحكّم عقله، مرة تجده هنا ومرة تجده هناك حسب مصلحته وأهوائه ورغباته وانفعالاته العصبية!! هكذا دوما هي العبادة التي تكون على تردد وسرعه، ومن غير خشوع واطمئنان أو تركيز وإتقان، والإنسان إذا مارس عبادة ما فريضة أو نافلة، فإن أجرها في النهاية له، والله غنيّ عن عباده.

## العلم بالدّين عبادة

يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[2]، فالعبادة تعنى طلب العلم، أي اعرف الله من خلقه،، فالأمر الرباني ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ يعني أطلب العلم أيها الإنسان من أجل أن تعرف من تعبد، فهو يرجوه ويخافه، وينفق ماله من أجله،

---

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٤/ ٢٢٩٣).

(٢) [البقرة: ٢١].

وجديرٌ به أن يعرف من هو الله؟ يقول تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾(١)، وقوله ﷻ: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ١١٤﴾(٢).

فأول العلوم الواجبة على كل مكلف هو العلم بلا إله إلا الله، قال أبو حيان الأندلسي(٣): "العلم يسبق القول والإقرار"(٤)، وقال النسفي(٥): "أمر الله

---

(١) [محمد: ١٩].

(٢) [طه: ١١٤].

(٣) محمد بن يوسف بن علي بن يوسف ابن حَيَّان الغرناطي الأندلسي الجياني، أثير الدين، أبو حيان. من كبار العلماء بالعربية والتفسير والحديث والتراجم واللغات. ولد في إحدى جهات غرناطة، ورحل إلى مالقة. وتنقل إلى أن أقام بالقاهرة. وتوفي فيها، بعد أن كف بصره. اشتهرت تصانيفه في حياته وقرئت عليه. من كتبه (البحر المحيط)، و(النهر الماد من البحر)، وغيرها كثير. توفي سنة ( ٧٤٥ هـ). [**الأعلام للزركلي** ٧/ ١٥٢].

(٤) الأندلسي، **تفسير البحر المحيط** (١٠/ ٧٣).

(٥) هو العَلاَّمَةُ المُحَدِّثُ، أَبُو حَفْصٍ، عُمَرُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ أَحْمَدَ بنِ لُقْمَانَ، النَّسَفِيُّ الحَنَفِيُّ، مِنْ أَهْلِ سَمَرْقَنْدَ، وَهُوَ مُصَنِّفُ "تَارِيخِهَا" المُلَقَّبِ بِالقَنْد، وَنَظَمَ "الجَامِعَ الصَّغِيْرَ"، وَكَانَ صَاحِبَ فُنُوْنٍ، أَلَّفَ فِي الحَدِيْثِ، وَالتَّفْسِيْرِ، وَالشُّروطِ، وَلَهُ نَحْوٌ مِنْ مائة مصنف، فَإِنَّهُ وُلدَ نَحْوَ (٤٦١هـ)، مَاتَ بِسَمَرْقَنْدَ سَنَةَ (٥٣٧هـ). [الذهبي، **سير أعلام النبلاء** (١٤/ ٤٩٤) رقم (٤٨٧٥)].

بالعلـم قبل العمـل"[١]،

وقال السعدي[٢]: "لا بد من طلب العلم لإقرار القلب ومعرفته"[٣]. فلو طرح الإنسان العلم من حياته، لكانت الدنيا قصرا من الرمال يأتي المطر فيهدمه كله في لحظة!! ولو كان علم الإنسان بلا عمل، لكانت الحياةُ كلُّها حبراً على ورق، وكلاماً بلا توثيقٍ!! ولو بقيت علومُ الأرض كلاماً صوتيّاً دون تدوين ما وُجِدَ في عصرنا منها شيءٌ!!

## كيف يمكن أن نعبد الله بلا علمٍ؟!

فالعلم الشرعي وعاء العمل الصالح وتربته الخصبة. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لتوضيح دور العلم الشرعي وأهميته في دعم السلوك ومجموع النشاط الإنساني، فيقول:

**المثل رقم (١٨٨): أما الذي يقول: ليس عندي وقت فراغ لأحضر مجلس علم وأعرف الله!! هذا كما لو أن إنسانا سافر إلى بلد أجنبي بعيد لنيل درجة**

---

(١) النسفي، **مدارك التنزيل** (٣/ ٣٢٧).

(٢) هو الشيخ أبو عبد الله عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله بن ناصر السعدي من آل سعدي أحد قبائل تميم، ولد عام (١٣٠٧هـ)، تربى يتيما ولكنه نشأ نشأة حسنة، وكان قد استرعى الأنظار منذ حداثة سنه بذكائه ورغبته الشديدة في التعلم. انظر الموقع الرسمي للشيخ السعدي: [www.binsaadi.com].

(٣) السعدي، **تفسير السعدي** (ص ٧٨٧).

**الدكتوراه، وحينما وصل هناك قال: لا يوجد عندي وقت فراغ لأذهب إلى الجامعة أو أحضر المحاضرات أو أقرأ الكتب! هذا شيء عجيب!! إذاً لماذا أنت هنا؟ ولماذا جئت إلى هنا[١]؟**

والعلم الذي أمر الله به الناس جميعاً فرض عين على كل إنسان بالغ عاقل، ولا يمكن لنا أن نعبد الله تعالى عبادةً صحيحةً إلا بالعلمِ الشرعيِّ الذي أَمَرَنَا الله به.

## بالعلم يعرف كيف ينجو من العثرات

ولتوضيح هذا يضرب الشيخ النابلسي مثلاً فيقول:

**المثل رقم (١٨٩): لو أن إنساناً أميّاً جاهلاً لا يقرأ ولا يكتب قرأ عليه إنسانٌ آخرُ نَصّاً من صفحةٍ ولم يقرأ منها كلمةً واحدةً بشكلٍ صحيحٍ، بحيث تختلط الألفاظ وتختلف المعاني، والأول لا يعرف، يهزّ رأسه ويقول: ما شاء الله! أما لو كان لديه علم باللغة العربية لعدّ له ثمانين غلطة في الصفحة[٢].**

كذلك الإنسان، لا يعلم ذنبه إلا إذا طلب العلم الشرعي، ويعرف به كيف ينجو من العثرات، وكيف يعالج مرضه، فالعلمُ الشرعيُّ أساس العمل الصالح.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٩).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٤٥).

## العلم الشرعي جهاز المعرفة ومقياس الذنوب

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح من واقع الحياة اليومية فيقول:

**المثل رقم (١٩٠): لا يمكن أن تعالج ضغطك المرتفع إلا عن طريق القياس بواسطة الجهاز أوَّلاً؛ لتعلم أنه مرتفع، ثم الإقلاع عن الأملاح والأغذية الضارّة ثانيا، ثم تناول العلاج والحبوب المناسبة ثالثا**[١].

كذلك العلم الشرعي في حياة الإنسان؛ فهو جهاز المعرفة، ومقياس الذنوب؛ فهو يبدأ بالتوبة إلى الله أولا، ثم الإقلاع الفوريّ عن المعصية ثانيا، ثم العزم على أن لا يعود إليها ثالثا، وهو إصلاح للماضي والحاضر والمستقبل.

## مسؤولٌ من بلدٍ عربيٍّ!

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر على سبيل الدعابة للدلالة على ضرورة العلم الشرعي إلى جانب علوم الدنيا عند العظماء وسادة القوم فيقول:

**المثل رقم (١٩١): حجَّ مسؤولٌ من بلدٍ عربيٍّ، وفي طريق العودة قال: ليت القائمين على هذه الشعيرة يجعلونه على مدار السنة دفعاً للازدحام**[٢]**!!**

هذا الرجل صار أضحوكةً؛ لأنه جاهلٌ في الدين جهلاً مطبقاً، فقد يكون الإنسان تربّى في بلاد الغرب، وهو مثقَّفٌ أعلى ثقافة ويتقلّد أعلى منصب في

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٤٥).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٨).

بلده، وهو جاهلٌ بالعلم الشرعي، فيشرب الخمور ويزني بالنساء ويرتكب المعاصي جهلا منه في تعاليم دينه، فينزلق في مستنقع السّباب والشتائم من عامة الناس وخاصتهم، فلا يبقى له اسم ولا منصب، ولا تقوم له قائمة!!

## ثمة فرقٌ بين الإحصاء والعدّ

والعلم أن نعرف اسم (الله) تعالى، وهو الاسم الذي اختاره الله لنفسه شاملاً لكل صفات الكمال الأخرى من الأسماء الحسنى: مثل القادر، والسميع، والبصير، والحي، والقيوم، والقهار، والخالق، كلها صفات صارت أسماء مطلقة لله، عن أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: **«إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الجَنَّةَ»**[1]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب والتوضيح من مجال التعليم الأكاديمي فيقول:

**المثل رقم (١٩٢): يقول قائل: في صفِّي خمسون طالباً، هذا عَدّ، أما الإحصاء فأن تعلم حقيقةَ كل طالب؛ مستواه العلمي، والثقافي، والأخلاقي، والديني، وضعه العائلي، كل ما يتعلَّق في شؤون هذا الطالب**[2].

وثمةَ فرقٌ بين الإحصاء والعد؛ فالعدُّ هو المعرفة العامة، أو ما يُسمّى بالمنهج

---

(١) صحيح البخاري (٣/ ١٩٨) رقم (٢٧٣٦)، وصحيح مسلم (٤/ ٢٠٦٣) رقم (٢٦٧٧).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (١).

الوصفي للظاهرة، أما الإحصاء فهو أخصُّ منه؛ لأنه العدّ على سبيل التفصيل والاستقصاء، والتعمق في جمع المعلومات، وهو ما يُسمّى بالمنهج التحليلي[(١)].

## الإنسان يسأل عن كل عظيم، أفلا يسأل عن ربه

والله تعالى قد دلّ على نفسه، وأخبرنا بأنه الذي خلق، وما دام أن كل أثر لا يكون إلا بمؤثر، وما دام الذي خلق وأبدع قد عرّف على نفسه ولم تنشأ معارضة له من غيره قديما ولا حديثا، لذا فإن خبره هو الحق، وقوله هو الصدق ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّاۚ وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا ١٢٢﴾[(٢)]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (١٩٣): قد يسأل إنسان: من رئيس هذه الدائرة؟؟ أو من رئيس هذا المستشفى؟؟ أو من رئيس هذه الجامعة؟؟ فيقال له: فلان، بعد أن يعرف ذلك يقول: كيف هو؟ كيف أخلاقه؟ هل هو جيد؟ هل هو عالم؟ هل هو مخلص؟ هل**

---

(١) الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي (المتوفى: ١٠٩٤هـ)، **الكليّات، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية**، تحقيق: عدنان درويش، ومحمد المصري (ص٥٩)، مؤسسة الرسالة (د.ت.ن). أيضا: نكري، الأحمد، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول (المتوفى: ق ١٢هـ)، **دستور العلماء**، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون، تعريب: حسن هاني فحص(١/ ٣٨)، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

(٢) [النساء: ١٢٢].

**هو اختصاصي؟ هل هو حازم ونزيه[١]؟**

يُستبان من هذا المثل الذي ضربه الشيخ النابلسي، إن الإنسان من طبعه أن يسأل دائما عن عظيم الأشياء والمشاهير، فيسأل عن الحاكم الفلاني، أو العالم الفلاني، أفلا يسأل هذا الإنسان عن ربّه الذي خلقه وخلق الأكوان من حوله؟ والأشياء دقيقها وعظيمها؟ أفلا يستحق هذا الربّ العظيم ساعة تدبّر وتفكّر؟ أو ساعة خشوع ولحظة اعتراف؟

## يعبدوا اللّه بالفهم والعلم والتدبّر

وقد تبدو العلاقة وثيقة بين هذا المثل للشيخ النابلسي في اللفظ والمعنى، والمثل الذي ضربه الشيخ الشعراوي في ذات السياق حيث يقول: **إذا كانت البشرية قد عرفتْ مَنْ صَنَعَ المصباح وتاريخ صُنعه، وأين ولد وأين عاش وأين تعلّم، فما بالنا بالذي صنع الشمس والنجوم والأرض والإنسان[٢]؟**

وللدلالة على عظيم خلق الله وإبداعه، وحقه على عباده أن يعبدوه بالفهم والعلم والتدبّر، يقول الشيخ الشعراوي: **وإذا كان صانعُ أتفهِ شيءٍ في حياة الإنسان يذهب إلى وزارة الصناعة في بلده لتسجيل اختراعه ليستفيد منه، فما بالنا بالذي خلق الكون كله، لا ليستفيد منه صانعه، بل ليستفيد منه خلقه[٣]!!**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨٣).

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٦/ ٣٤٩٩).

(٣) المصدر نفسه.

## اللّه وحده هو خالق هذا الكون

هذا إلهٌ عظيم، والإنسان يسأل دائما عن عظيم، ومن بيده الأمر ومَنْ يُصدره، من أجل أن يطيع أوامره، فالركام الذي كان يرين على ضمير الإنسان في الجاهلية كان ناشئا عن غموض حقيقة التوحيد، ومن غلبة الخرافة والأسطورة عليها، فجاء الإسلام وبرزت أهمية صفات اللهّ ﷻ في الضمير الإنساني.

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب والدلالة على هذا الواقع فيقول:

**المثل رقم (١٩٤): حينما تستمع إلى مسؤول يصرّح: عيَّنّا وزيرًا للمالية، فمَن الذي يقول هذا؟ بالتأكيد رئيس الوزارة، تعرفه مِن كلامه، ولو قال شخص: راقبت نظام الشارع في المدينة، فمعنى هذا أنه مراقب السير في البلديّة**[(١)].

وحينما يقول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾[(٢)]، يعني أن القائل هو الله، ولا يملك أن يقول هذا الكلام إلا أن يكون إلهاً عظيماً موجوداً قويّاً ومسيطراً على الخلق والأحداث، وأنّ أحداً غيره تعالى لم يدّع خلق هذا الكون منذ الأزل، مما يؤكد أن الله وحده هو خالق هذا الكون دون أدنى شك[(٣)].

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨٣).

(٢) [إبراهيم: ٣٢].

(٣) المصدر نفسه.

## لا بدّ أن يتعرف الإنسان إلى ربّه

ويظهر جليا أن الشيخ النابلسي اقتبس معنى هذه الأمثال من تفسير الشيخ الشعراوي في هذا السياق، حيث يقول في خواطره: **هب أننا وجدنا حافظة نقود، فعرضناها على الموجودين فلم نجد لها صاحباً، ثم جاء واحد كان معنا وخرج، وقال: يا قوم بينما كنت أجلس معكم ضاعت حافظة نقودي، ولما لم يدّعِها واحد منّا لنفسه فهي إذن حافظته هو**(١).

هذا هو التصور الإسلامي الذي يقوم على أساس أن كل شيء قائم على معرفة الله بالعلم الشرعي المتواتر، وتدبّر عظمة خلق الله عن طريق العقل، فلا بدّ من مجلس علم يتعرف فيه الإنسان إلى ربّه، ليظلّ ضمير المسلم ووجوده مرتبطٌ به وحده، يقول الله ﷻ: ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ۝١١٧﴾(٢).

## أسرار صفة واحدة!

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لبيان عظيم قدرة الله تعالى في خلق السماوات والأرض، فيقول:

**المثل رقم (١٩٥): نحن إذا أردنا أن نبني بيتاً فقد نحتاج إلى سنوات لشراء**

---

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٢/ ١٠٨٨).

(٢) [البقرة: ١١٧].

**أرض، وسنوات لاستصدار التراخيص، وحفر الأرض، وإنشاء الدعائم والهيكل**[١].

يبدو في هذا المثل بيان أسرار صفة واحدة من صفات الله تعالى وهي صفة الخالق، وفيه اقتباس في اللفظ والمعنى من المثل الذي ضربه الشيخ الشعراوي في السياق نفسه حيث يقول: **إن أراد إنسان مثلا أن يبني عمارة قد لا يجد الأرض، فإن وجد الأرض قد لا يجد العامل الذي يبني، فإن وجده قد لا يجد مواد البناء، فإن وجد هذا كله قد تأتي الحكومة أو الدولة وتمنع البناء على هذه الأرض، أو أن تكون الأرض ملكا لإنسان آخر فتقام القضايا ولا يتمّ البناء**[٢].

لكن الإله العظيم إذا قال: كن، فالوقت معدوم بينها وبين أن ترى بناءً عظيما كاملا أو جبالا شامخة! وهكذا يصدر الكون عن خالقه بكل هذه العظمة بتوجيه الإرادة المطلقة، وذلك هو السر الذي لم يكشفه الإدراك البشري، فالطاقة البشرية غير مهيأة أصلا لإدراكه، ولا يلزمها في وظيفتها التي خلقت لها وهي خلافة الأرض وعمارتها[٣].

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (١٥).

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١/ ٥١٧).

(٣) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (١/ ١٠٦).

## هذه الحقيقة تدلّ على حقيقة أخرى

فمنهج الله ﷻ في الكون والحياة أنه: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ﴾(١)، لتدل هذه الحقيقة على حقيقة أخرى، هي أنه تعالى كما خلق الخلق بالحق، فقد ملكهما كذلك بالحق، بدليل قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلۡكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾(٢)، وقوله تعالى: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾(٣). ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لتوضيح هذه الحقيقة وتقريبها للذهون، وبيان أبرز الفروق بين المُلكية الإلهية وملكية الإنسان في الدنيا، فيقول:

**المثل رقم (١٩٦): قد تقول: هذا الموظف لي! يعني تملكه استخداماً، وعلاقتك معه محدودة بساعات العمل، أما أن تكون مسيطراً على كل أجهزة جسمه، أو على بيته وحياته الخاصة ومستقبله وأولاده، فهذا غير ممكن، ولو أنه رفض البقاء فله الحرية**(٤).

فالملكية التي يتصف بها الإنسان في الدنيا، مهما كانت عظيمة فإنها تمتاز بالجزئية، فأغنى أغنياء العالم لا بدّ أن يرجع فقيرا في يوم ما، إما بمفارقة ماله له بسبب عارض ما، وإما بسبب مفارقته لماله عند الموت في لحظة ما.

---

(١) [النحل: ٣].

(٢) [البقرة: ١٠٧].

(٣) [البقرة: ٢٥٥].

(٤) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٢٩).

## اعتراف من المخلوق بالحاجة إلى الخالق

العبادة في الأصل معناها الخضوع والتذلل كما سبق، وهي اعتراف من المخلوق الضعيف بالحاجة إلى الخالق القوي في كل وقت، يقول الله ﷻ يصف حال الإنسان داعيا متذللا: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَاۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢٨٦﴾﴾[١]، فحينما يستيقظ الإنسان من غفلته ليتأمّل ويتدبّر، ويرجو ربه، لا بد أن يرتجف ويخشع ويسجد ويشكر، حين يكون في الشدة ليبدله منها يُسرا، وحين يكون في الرّخاء ليحفظ عليه النعماء. ويضرب الشيخ النابلسي مثلا على ضعف الإنسان، ومدى حاجته واستجدائه لربه في أقل شيء، فيقول:

**المثل رقم (١٩٧): إذا أردت أن تفهم هذه الحقيقة جيِّداً، فما عليك إلا أن تغلق أنفك بإصبعيك دقيقة واحدة، بعدها، تجد نفسك سخيفا أكثر من أية سخافة، تجد نفسك تستجدي كل من حولك[٢]!!**

أين عظمة هذا الإنسان ونفوذه وجبروته في لحظات الضعف؟ يحتاج إلى شيء غاية في الوفرة والبساطة؛ حفنة من الهواء لا تساوي قرشا، وما أكثر هذه

---

(١) [البقرة: ٢٨٦].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (١٣).

اللحظات كلما تقدم به السن واقتربت المسافة بينه وبين النهاية والقبر!!

## يجد نفسه ضعيفا وسخيفا وحقيرا!

فالأصل في العبادة أن يتوجه الإنسان إلى من هو أعلى وأعلم وأقوى، ليجد نفسه في أصعب اللحظات، تكاد تخرج روحه من جسده كالشوكة تنزعها من خيط الحرير، أو يجد نفسه ضعيفا وسخيفا وحقيرا، فهو إما أن يتنازل عن ملكه وعرشه من أجل شربة ماء أو للتخلص منها، أو للتخلص من فيروس خبيث تمكّن في دمه!! فإذا كان الإنسان لا يحتمل فليستقم على أمر الله"[1].

## ذهبت واحدة، وبقيت اثنتان

لذا، كان المنهج الرباني في محاسبة العصاة، هو الندم والاستغفار على الذنب، والشكر والطاعة له، وهما سببان في تأخير العذاب عنهم، يقول الحق ﷻ: ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا ﴿١٤٧﴾﴾[2]، ويقول ﷻ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾﴾[3]. هذه ثلاثة: الشكر والاستغفار ومكث الرسول فيهم، فذهبت واحدة، وبقيت اثنتان، قال ابن عباس: كان فيهم

---

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٤/ ٢٣١١).

(٢) [النساء: ١٤٧].

(٣) [الأنفال: ٣٣].

أمانان: النبي ﷺ، والاستغفار، فذهب النبي ﷺ وبقي الاستغفار(١). ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (١٩٨): لو أن ابنا رسب في امتحان الرياضيات، وكان أبوه يطمح أن يكون عالما كبيرا، فغضب الأب وقرّر أن يعاقبه بشدة، فإذا رأى الأب ابنه نادما ومعتذرا، وقد ترك الأكل والشرب وصار في همّ وغمّ عظيمين، هذا السلوك من الابن (الندم والاستغفار) يؤخر عقاب الأب وربما يصرف النظر عنه(٢).**

## الكِبَرُ جرثومة تقتل صاحبها ببطء

فالكِبَرُ جرثومة قاتلة، والإنسان الذي يسيطر عليه الكبرياء يعيش مرضا خبيثا يقتله ببطء دون أن يدري، حتى جمال المرأة وقوة الرجل يتلاشيان إذا خالطهما الكبرياء والتعالي، لأن عظمة الإنسان كالفقاعة الفارغة، تنتفخ ثم ينفجر جدارها الهش في لحظة، وهذه قصة إبليس مثلٌ وعبرة، قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٣٤﴾﴾(٣).

---

(١) الطبري، **جامع البيان** (١٣/ ٥١١).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٠).

(٣) [البقرة: ٣٤].

## الاستعلاء عدوّ الإنسان الخطير

فمنهج الله بين خلقه، أن الاستعلاء أو الاستكبار يقطع الصلة ما بين العبد وربه، فالمستكبر يرى في الحق عدوّه الخطير، ويستغل الناس ويبسط عليهم جناح طغيانه، يقول الله تعالى: ﴿لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾﴾[١]، وعن عبد الله بن مسعود[٢]، عن النبي ﷺ قال: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**»[٣]، فالقليل من الكبر ولو كان مثقال ذرّة، فإنه يُفسد كل شيء إذا خالطه. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً من طبيعة الأطعمة والأشربة لوصف هذه الحالة فيقول:

**المثل رقم (١٩٩): عندك كيلو لبن، وجاءك خمسة وعشرون ضيفًا، يمكن أن تضيف على هذا الكيلو خمسة كيلو من الماء وأن تقدمه شرابًا مقبولا عند الجميع، أما لو وضعت في كيلو اللبن قطرة واحدة من النفط، فإنه يفسد ولا يمكنك أن**

---

(١) [الفرقان: ٢١].

(٢) عبد اللهَّ بن مسعود بن غافل الهذليّ، من السّابقين إلى الإسلام، وممّن شهدوا بدرا، وأحد المبشّرين بالجنّة، أقرب الناس هديا برسول اللهَّ ﷺ، معلّم أهل الكوفة وقاضيها، ومؤسّس طريقتها، كان يسير من الاعتداد بالرّأي حيث لا نصّ من كتاب أو سنّة، فقيه في الدين عالم بالسّنة، وليَ بيت المال بالكوفة، وقدم آخر عمره المدينة ومات بها في خلافة أمير المؤمنين عثمان- رضي الله عنه سنة (٣٢هـ). [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (١/ ٥٧)].

(٣) صحيح مسلم (١/ ٩٣) رقم (١٤٧).

**تشربه**[١]**؟**

هذا الحال يشبه حال القلب إذا دخله مثقال ذرة من كبر، فهو يفسد ويستعلي، ويكره ويغضب، ومعصية الكبر عظيمة وخطيرة ويصعب أن يتوب منها الإنسان، إنها معصية إبليس الذي قال الله فيه: ﴿إِلَّآ إِبۡلِيسَ أَبَىٰ وَٱسۡتَكۡبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ٣٤﴾[٢].

## الجزاء في الآخرة

الجزاء في شرع الإسلام: إما دنيوي وإما أخروي، والجزاء الأخروي مردّه إلى الله تعالى، إن شاء عذب العاصي وأن شاء غفر له، تصديقا لقول الحق ﷻ: ﴿رَّبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِكُمۡۖ إِن يَشَأۡ يَرۡحَمۡكُمۡ أَوۡ إِن يَشَأۡ يُعَذِّبۡكُمۡۚ﴾[٣]، عن عبادة بن الصّامت ﷺ، قال: كُنَّا عِنْدَ النبيِّ ﷺ فقالَ: «**أَتُبَايِعُونِي عَلَى أَنْ لاَ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ شَيْئًا، وَلاَ تَزْنُوا، وَلاَ تَسْرِقُوا، فَمَنْ وَفَى مِنْكُمْ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَعُوقِبَ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ، وَمَنْ أَصَابَ مِنْهَا شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ فَسَتَرَهُ اللَّهُ، فَهُوَ إِلَى اللَّهِ إِنْ شَاءَ عَذَّبَهُ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُ**»[٤].

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٥).

(٢) [البقرة: ٣٤].

(٣) [الإسراء: ٥٤].

(٤) صحيح البخاري (٦/ ١٥٠) رقم (٤٨٩٤)، وصحيح مسلم (٣/ ١٣٣٣) رقم (١٧٠٩).

## لا قيمة لأية تعليمات إذا لم يتبعها محاسبة

ولا قيمة لأية تعليمات إذا لم يتبعها جزاء أو عقاب، حتى الصحابة الكرام لو أنهم انتصروا حينما عصوا أمر رسول الله ﷺ يوم أحد لسقطت قيمة الطاعة إطلاقاً، وهذا شأن تربوي، فحينما لا يحاسب المقصر ولا يكافأ المحسن تسقط القيم، ويسقط الباعث لها والخوف منها والطمع فيها. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٢٠٠): لو أن مدرساً أعطى تعليمات وخالفها طالب فلم يعاقب، سقطت قيمة هذه التعليمات، ولو أن مدرسا كلف طلاباً بوظيفة، وفي اليوم التالي استوى عند المدرس الذين كتبوا والذين لم يكتبوا، لن يكتب هذه الوظيفة في اليوم الثالث أحد[١]!!**

### نضرب مثلا آخر للتوضيح:

يبدو أن الشيخ النابلسي أقتبس هذا المثل من خواطر الشيخ الشعراوي في التفسير حينما قال: **ومن ذلك مثلاً ما نُجريه من الامتحانات للطلاب آخر العام لنميِّز المجدّ من الخامل، وإلا تساوى الجميع ولم يذاكر أحد، ولم يتفوق أحد؛ لذلك لا بُدَّ من مبدأ الثواب والعقاب لتستقيم حركة الحياة، فإذا كنا نُجري هذا المبدأ في الدنيا، فلماذا نستنكره في الآخرة[٢]؟**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٤١).

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١٩/ ١١٧٠٩).

يُلاحظ مما سبق في المثلين السابقين للشيخين الكريمين، التشابه في اللفظ والمعنى، فقد أورد الأخير مثلا متطابقا على نفس السياق، وكأن الشيخ النابلسي اقتبس هذه المعاني من أستاذه الشيخ الشعراوي كما هو الحال في أمثلة سابقة.

## أجر عظيم يتلاءم مع عظمة الله

وقد خصّ الله تعالى الإيمان والعبادة بأجر عظيم، يتلاءم مع عظمة الله تعالى وعطائه، يقول ﷻ: ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾[1]، فهذا النعيم الذي ناله المؤمن حينما ذكر الله تعالى جنات كثيرة وليس جنة واحدة، هو بسبب إيمانه واستقامته وانشغاله باتباع أوامر الله ونواهيه، والصبر على العبادة. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح، فيقول:

**المثل رقم (٢٠١): إذا درس طالبٌ دراسةً طويلةً ومتعبةً، ونال بها أعلى شهادة، وصارت له مكانة عظيمة ودخل كبير، تجد صاحبه الكسول يتساءل بعد مرور الوقت عن سبب هذا النجاح العظيم[2]؟**

يتساءل الشيخ النابلسي: أين كان الأول عندما كان الثاني يلعب في الأزقة والشوارع؟ كان مشغولا في شهوات الدنيا؟ يقول: عندي ازدحام أعمال

(١) [البقرة: ٢٥].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (١٣).

ومواعيد، ويتنصّل دائما من حضور أي مجلس علم يتعرف فيه إلى الله تعالى[١].

نضرب مثلا من حياة الريف اليومية:

ويبدو أن الشيخ النابلسي تأثّر في هذا المثل بالشيخ الشعراوي الذي ضرب مثلاً قريباً، استوحاه من حياة الريف اليومية، حيث قال: **كنا نرى بعض الفلاحين يقضي يومه في حقله مهملَ الثياب رثَّ الهيئة، لا يشغله إلا العمل في زرعه، وآخر تراه مُهنْدماً نظيفاً يجلس على المقهى سعيداً بهذه الراحة، حتى إذا ما جاء وقت الحصاد وجد العامل ثمرة تعبه، ولم يجد الكسول غير الحسرة والندم**[٢].

## ما هو عظيم أجر الإيمان والعبادة؟!

ويظهر عظيم أجر الإيمان والعبادة أنه تعالى قد تكفل به في الدنيا والآخرة، يقول الله ﷻ: ﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۚ وَإِن تُؤۡمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمۡ أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٧٩﴾[٣].

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً من واقع الحال في توضيح قوله تعالى: ﴿أَجۡرٌ عَظِيمٞ ١٥﴾ فيقول:

**المثل رقم (٢٠٢): إذا قال طفل صغير لإنسان: أجرك عندي! ماذا يعطيه؟ أما**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (١٣)

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١٦/ ٩٦٦١).

(٣) [آل عمران: ١٧٩].

**إذا قال له ملك: أنا سأكرمك! فالملك لا يعطي مائة ليرة ولكنه يعطي قصرا، أو مركبة فخمة، أو منصباً رفيعاً، فكيف إذا قال لك ذلك ملك الملوك، الله ﷻ[١]؟!**

فإذا كان عطاء الملك في هذه الدنيا قصراً كبيراً، أو مركبةً فخمةً، فإن عطاء الله تعالى ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، مع علمنا بأن التفاوت في خيرات الأرض ملحوظٌ بين الناس بحسب وسائلهم وأسبابهم واتجاهاتهم وأعمالهم، ومجال الأرض ضيق ورقعة الأرض محدودة من جميع أطرافها وجوانبها، فكيف بهم في المجال الواسع، وفي المدى المتطاول؟ كيف بهم في الآخرة التي لا تزن فيها الدنيا كلها عند الله جناح بعوضة[٢]؟

### الله تعالى يضرب مثلا للتوضيح:

ويضرب الله ﷻ في بيان هذا العطاء العظيم مثلاً قريباً إلى العقول، يتعايش معه بنو الإنسان من الطبقة المزارعة، وتتفهمه باقي الطبقات في المجتمع، يقول الله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾﴾[٣]، قال ابن كثير في تفسيره: هذا المثل أبلغ في النفوس من ذكر عدد السبعمائة، فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينمّيها الله ﷻ لأصحابها كما ينمي الزرع

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤٢).

(٢) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٤/ ٢٢١٩).

(٣) [البقرة: ٢٦١].

لمن بذره في الأرض الطيبة"[١].

## المعنى الذهني ينتهي إلى عملية حسابية

إن الدستور في الإسلام لا يبدأ بالفرض والتكليف؛ إنما يبدأ بالحضّ والتأليف، ويستحثّ المشاعر والانفعالات في الكيان الإنساني، فالزرع الذي يعطي أضعاف ما يأخذه، فإنه يُعطي هذه الصورة الموحية مثلا للذين ينفقون أموالهم في سبيل اللهّ، والمعنى الذهني للتعبير ينتهي إلى عملية حسابية، وهي تضاعف الحبة الواحدة إلى سبعمائة حبة!! ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (٢٠٣): لو أن مدرّسا خصوصيا لابن الملك ووعده الملك أن يكافئه، فإن المعلم ينتظر مكافأة عظيمة، بيتا كبيرا أو سيارة فخمة، ومن المستحيل أن يطالبه بالأجرة، ألف ليره مثلا، لأنه بهذا يخسر المكافأة العظيمة"[٢].**

هذا المثل قريب في معناه مما أورده الشيخ الشعراوي في خواطره في هذا السياق حيث قال: **كما لو أنكَ استخدمت أجيراً فقير الحال بمائة جنيه في الشهر مثلاً، وقبض المبلغ آخر الشهر وانتهى الأمر، فكيف يكون حاله لو أعطيته عشرة جنيهات أخرى"[٣].**

فالمشهد الحيّ الذي يعرضه الشيخان النابلسي والشعراوي في ضرب الأمثال

---

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (١/ ٦٩١).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٧).

(٣) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١٨/ ١١١٥٩).

السالفة الذكر، حيث يضاعف أجرة الدرس أو العمل!! فهذا حال المؤمن مع ربه، فالله تعالى يضاعف لمن يشاء بلا عدة ولا حساب، إنه الإنفاق العظيم الذي يرفع المشاعر الإنسانية ولا يحط من قدرها، إنفاق لا يؤذي كرامة إنسان ولا يخدش شعوره كما الحال عند بني البشر[١].

## ذروة العبادة هي العمل الصالح

وكما أن الناس اعتادوا أن أجراً زائداً على الأجر الأصلي فإن الله تعالى يعطي الأجر مع زيادات عليه، وأعظم تلك الزيادات على الإطلاق هي لقاء الله تعالى، والنظر إلى وجهه الكريم، تصديقا لقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرۡجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلۡيَعۡمَلۡ عَمَلٗا صَٰلِحٗا﴾[٢]، ويقول الله تعالى: ﴿۞لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٞۖ﴾[٣]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب على عطاء الله العظيم لعباده فيقول:

**المثل رقم (٢٠٤): الإنسان قد ينتظر سنوات وسنوات ولا يستطيع أن يقابل ملكا في الدنيا ولو بذل ماله كله، ولكن ملك الملوك يقول لنا إن ثمن اللقاء معه هو عمل صالح، يملأ قلوبنا أمنا وطمأنينة وسعادة ورضا[٤].**

---

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (١/ ٣٠٦).

(٢) [الكهف: ١١٠].

(٣) [يونس: ٢٦].

(٤) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٢).

يُستنتج من هذا المثل أن ذروة العبادة هي العمل الصالح، وأن ذروة الأجرة على العمل الصالح زيادة وصلت إلى رؤية وجه الله الكريم، هؤلاء الذين أحسنوا كل شيء: أحسنوا العمل، والاعتقاد، والعبادة، وأحسنوا الحديث، وتربية الأولاد، والتعامل مع الناس، وأحسنوا الصناعة، والتجارة، وحافظوا على أعراضهم، وأوطانهم، وأماناتهم، وأخلصوا نواياهم وضمائرهم، عرفوا الصراط المستقيم فسلكوه، وأدركوا القانون الكوني المؤدي إلى دار السلام"[1].

## الإنسان حين يرقى عند الله

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً جليا ومؤثرا على أهمية العمل الصالح إذا قام به المؤمن لقاء تنفيذ أوامر الله وفق النوايا الحسنة، وضحّى بنفسه وماله ووقته من أجل ابتغاء مرضاته، فيقول:

**المثل رقم (٢٠٥): هل يستطيع أن يدخل جندي عادي ليلتقي مع قائد اللواء؟ مستحيل!! لكنه إذا رأى ابن هذا اللواء يشرف على الغرق، فألقى بنفسه وأنقذه، ففي اليوم التالي يدخل هذا الجندي على قائد اللواء، فيقف له ويرحب به ويقدم له ضيافة"[2].**

فالمؤمن حينما ينفق نفسه أو ماله في سبيل الله، وحينما يمسح دمعة عن خد بائس،

---

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٣/ ١٧٧٩).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٥٥).

أو يشبع جائعاً، أو يقضي حاجة إنسان يعرفه أو لا يعرفه، فإنه يرقى عند الله تعالى.

## الطريق إلى الله سهل

يمتاز الطريق إلى الله تعالى بأنه سهل، فما على العبد إلا أن يَصْدُق الله تعالى فيَصْدُقه، ويبادر إلى التوبة النصوح، فالتائب من الذنب كمن لا ذنب له، يقول الله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾[1]، وللدلالة على هذه الحقيقة، يضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٢٠٦): قد تجد إنساناً قويا جداً، بيده أشياء كثيرةٌ، لكن لا طريق إليه، وليس بالإمكان أن تقابله! ولا أن تتصل به! ولا أن تدعوه! ولا أن تطلب منه شيئاً! فما قيمة قوّته[2]؟**

فأيّ مانع يمنع العبد من الوصول إلى الله القوي الجبار، وهو الذي يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل، ويَفرحُ بتوبة عبده إذا ما دعاه؟؟

(١) [الزمر: ٥٣].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤٥).

## العبادة سبب وليست ثمن

العبادة والعمل الصالح سببان لدخول الجنة وليس ثمنا لها، وليس بمقدور العباد أن يمتلكوا ثمن الجنة، وأما السبب الحقيقي لدخول الجنة هو رحمة الله تعالى، وهو القائل: ﴿فَمَن زُحْزِحَ عَنِ ٱلنَّارِ وَأُدْخِلَ ٱلْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾(١)، بدليل الفعل المبني للمجهول، لذا علّمنا رسول الله ﷺ أن دخول الجنة لا يكون بالأعمال وحدها، ولكن بفضل الله ورحمته ومغفرته، حتى مع الأنبياء والصالحين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**لَنْ يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجَنَّةَ**»، قَالُوا: وَلاَ أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لاَ، وَلاَ أَنَا، إِلا أَنْ يَتَغَمَّدَنِي اللهُ بِفَضْلٍ وَرَحْمَةٍ**»(٢).

## العقل يرفض أن يحدث شيء بلا سبب

فكل عمل الإنسان في الدنيا مهما بلغ هو سبب لدخول الجنة وليس ثمنا لها؛ لأن العقل يرفض أن يحدث شيء بلا سبب. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (٢٠٧): لو أن إنسانا غادر منزله، فإنه يغلق الأبواب ويطفئ الأنوار، فإذا رجع بعد أيّام ووجد الإضاءة متألّقة، تجده يضّطرب!! لا يقبل عقله أن**

---

(١) [آل عمران: ١٨٥].

(٢) صحيح البخاري (٧/ ١٢١) رقم (٥٦٧٣).

**يحدث ذلك من دون فاعل**[١].

يقول الله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ أَحۡسَنَ مَا عَمِلُواْ وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمۡ فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾[٢]، هذا يدلّ على أن دخول الجنة يأتي برحمة الله فقط، وأن الأعمال الصالحة ما هي إلا سبب لدخول الجنة، ولبيان هذه الحقيقة، يضرب الشيخ النابلسي أمثالا رائعة ومقنعة للإيضاح والتقريب، فيقول:

**المثل رقم (٢٠٨): بيت ثمنه مائة مليون، إذا دفع إنسان ثمن مفتاحه عشر ليرات، ودخل البيت وسكنه فهل يقول: أنا اشتريت البيت بعشر ليرات!!**[٣]

**المثل رقم (٢٠٩): لو أن أباً وعد ابنه إذا أخذ الشهادة الثانوية بتفوق أن يعطيه سيارة حديثة وفخمة، فهذا الشاب تفوّق وأمسك كشف العلامات وذهب مباشرة إلى بائع السيارات، وقال له: أعطني هذه السيارة!!**[٤]

إن شهادة الطالب لا تصلح بأن تكون ثمنا للسيارة الفخمة، لكنها سبب تملك هذه السيارة، فالأب هو الذي دفع ثمنها ووهبه إياها فضلا منه، كذلك الجنة، فالمؤمن لم يدفع ثمنها ولكنه بذل سبب دخولها وهو الإيمان والعبادة والعمل الصالح.

**معنى ذلك على قولين:**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٣٥).

(٢) [الأحقاف: ١٦].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٢٨).

(٤) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٢٩).

والأصل أن جهد المؤمن بالعبادة والعمل الصالح هو سبب لرضى الله ودخول الجنة والنجاة من النار، ويضمن ذلك كله مغفرة الله ورحمته، فأما قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٧٢﴾[1]، فقد اختلف العلماء في معنى ذلك على قولين[2]:

أحدهما: أنه هذا العمل هو الذي تقبّله الله من صاحبه برحمة منه، وأن العمل الذي لا يُدخل صاحبه الجنة هو الذي لم يتقبله الله، فيكون دخول الجنة برحمة الله، والنجاة من النار بعفو الله أيضا.

والثاني: أن الباء في قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ۝٤٣﴾ هي باء السببية، وقد جعل الله تعالى لكل شيء سببا، وجعل العمل سببا لدخول الجنة برحمته تعالى، لا ثمنا لها.

## أعبد الله، ولا تسأل لماذا؟

يقول الله ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ۝١٠٢﴾[3]، ويقول الله ﷻ: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِيٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ۝٦٥﴾[4].

---

(١) [الزخرف: ٧٢].

(٢) الحنفي، صدر الدين ابن أبي العز، **شرح العقيدة الطحاوية**، تحقيق: أحمد شاكر (ص٤٩٥) وزارة الشؤون والأوقاف – السعودية، ط١، ١٤١٨هـ. أيضا: عمر سليمان الأشقر، **الجنة والنار**(ص٧٨)، دار النفائس عمان، ط٧،(١٤١٨/ ١٩٩٨).

(٣) [آل عمران: ١٠٢].

(٤) [النساء: ٦٥].

فالعبادة هي طاعة العبد أوامر الله ورسوله واجتناب نواهيهما دون شك أو تردد، فما قال له الله: افعل فإنه يفعل، وما قال: لا تفعل فإنه لا يفعل، دونما جدال أو أن يسأل عن السبب أو يسأل لماذا، لأن الآمر هو الله ﷻ، وأن الجدال يكون عادة بين طرفين متساويين في القدرات، يلتف كل واحد منهما على الآخر ليطوّقه بالحجة ويصل معه إلى الحق. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح والتقريب من واقع الحياة فيقول:

**المثل رقم (٢١٠): حينما تتلقى أمرا من زميلك وهو مساوٍ لك في الوظيفة والمقام والعلم والقدرة والمرتبة، فقد تسأله ما السبب، قد تجادله، قد تسأله لماذا، أما حينما تتلقى أمرا من المسئول عنك في العمل فإنك لا تسأله عن السبب، ولا تجادله[1]!!**

فكيف إذا كان الآمر هو الله الخالق، والمأمور هو الإنسان المخلوق، فمن الواجب عليه أن يبادر إلى التنفيذ دون أن يسأل كيف ولماذا، هذا هو معنى عبادة الإنسان ربه، فلا شيء مقدّس عنده إلا أمر الله واتباع منهجه، فكما أَمَرَه يَفعل.

## انتهى دور العقل وجاء دور النقل!

ويضرب الشيخ النابلسي مثلين للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (٢١١): إن الجندي ينفذ أمر القائد، ولا يمكنه بأي حال من الأحوال**

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٩).

**أن يسأل عن السبب! انتهى دور العقل وجاء دور النقل**[1].

**المثل رقم (٢١٢): أيضا، المريض ينفّذ أمر الطبيب المشرف عليه، دون أن يجادله أو يسأله عن السبب، وقد يخجل أن يفعل ذلك**[2]**!!**

فالأساس هو طاعة الله تعالى، والملائكة حينما سجدوا لآدم فقد سجدوا لأمر الله بالسجود لآدم، وفرق كبير بين السجود لمخلوق وبين السجود لأمر الله، لأن العبادة هي طاعة المخلوق للخالق في أوامره ونواهيه، ومن ضعف الإيمان أن نضع قضايا التشريع على بساط البحث، ويقتضي عقد الإيمان للذين آمنوا أن يتلقوا التحريم والتحليل من الله تعالى دون شك أو تردد.

## الإنسان يريد لنفسه النفع العاجل

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح على نفس السياق، فيقول:

**المثل رقم (٢١٣): إذا جلس الأب على المائدة والابن جائع وقال له: يا بني لا تأكل! فإذا كان هذا الابن يعرف حكمة أبيه، ومحبته ورحمته له، فإنه ينصاع للأمر دون أن يسأل أو يفهم ما السبب**[3]**؟!**

فالأوامر أحيانا تأتي بما فيه مشقة يُطلب من المؤمن أن يفعلها، والنواهي تأتي

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٩).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٩).

(٣) المصدر نفسه.

عن أمور محبّبة إلى نفس المؤمن يجد مشقة أن يتركها، ذلك أن الإنسان يريد لنفسه النفع العاجل، والله ﷻ يريد له النفع العاجل والآجل.

## بطولة المؤمن أين تكمن؟

ويبدو أن الشيخ النابلسي اقتبس معنى هذا المثل من تفسير الشيخ الشعراوي الذي ذكر في خواطره الأمثال التالية:

**الأول: فأنت ساعة تعاقب ابنك بأمر من الأمور، فتحرمه من المصروف أو تحرمه من أكلة شهية، فإن ذلك العقاب ليس ضاراً في ذاته، إنما إغراقك إياه بما يحب ويطلب هو الأمر الضارّ له[1].**

**الثاني: تماما كالطفل الصغير يفتح فمه لتناول الدواء المرّ وهو كاره، ولكن هل أعطيته الدواء كرها فيه، أو أعطيته ذلك حبّا فيه ورحمة له[2]؟**

فبطولة المؤمن أن ينصاع لأمر الله ولو لم يفهم الحكمة، لأن الحكمة إذا انكشفت وتوضّحت فقد الأمر قيمته التعبُّدية واتّبعه المؤمن طمعاً للمصلحة فقط، لكن الله يُريد المؤمن عبداً له خالصا مخلصا، قريبا منه باتباع أوامره واجتناب نواهيه.

---

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٢/ ٧١٦).

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١/ ٤٦٦).

## المقدّس في الإسلام هو أمر اللّه

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (٢١٤): إنسان عادي يريد أن يتقرب لإنسان مهمّ، يزوره ويقدّم له هدية، ويرعى له أموره، فهذه وسائل تقرب البشر إلى البشر، أما إذا أردت التقرب إلى الله ﷻ، فأكبر وسيلة لذلك أن تأتمر بما أمرك به، وأن تنتهي عما نهاك عنه**[(١)].

إن مبدأ المؤمن تعظيم أمر الله دونما تردد أو سؤال، سواء اتفق هذا الأمر مع مصالحه أو تعارض، فالسجود لآدم وتقبيل الحجر الأسود، كان لأمر الله تعالى لا لذاتها، فلا مكان ولا زمان ولا شخص مقدَّس في الإسلام؛ لكن المقدَّس هو أمر الله تعالى.

## اجتناب الحرام، أشدّ أنواع التحريم

اجتناب الحرام في العبادة أبلغ من التحريم، بل هو أشد أنواع التحريم، فآدم وحواء تجاوزا مسألة القرب من الشجرة، في أمره تعالى لهما: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ﴾[(٢)]، إلى الأكل منها، فلو أنه حاذر وحافظ على المسافة ولم يقترب منها كما أمره الله لما وقع في المعصية.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٧٥).

(٢) [البقرة: ٣٥].

## أشد الشهوات الزنا

ومن أشد الشهوات إيقاعاً للعبد في المعاصي الزنا، الذي تثور ثائرته بالخلوة، وإطلاق البصر، ومتابعة المشاهد على الشاشة، كل ذلك يثير هذه الشهوة، وكل ما يقرّب من هذه الشهوة فهو حرام، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ﴾(١)، فلا بد من المحافظة على المسافة للمحاذرة من الوقوع في المعصية، والمعنى الإجمالي لما سبق: لا تقترب من المعصية، اجعل بينك وبينها مسافة، كن أنت في جانب والمعصية في جانب آخر، فلو أن الإنسان جلس في مجلس خمر ورأى السُّكارى قد سعدوا وضحكوا فقد تراوده نفسه على شرب الخمر، فالأمر بالاجتناب أبلغ(٢).

### نضرب مثلا للتوضيح:

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح من واقع الحياة اليومية، رائعا ومقنعا، فيقول:

**المثل رقم (٢١٥): تيار كهربائي خطِر قوته ثمانية آلاف فولت، له دائرة جذب نصف قطرها ثمانية أمتار، فإذا دخل الإنسان هذه الدائرة فإنها تجذبه وتجعله فحماً أسوداً، فلو أن وزير الكهرباء أراد أن يضع إعلاناً تحذيرياً فهل يقول: ممنوع مسّ**

---

(١) [الإسراء: ٣٢].

(٢) الشعراوي، **تفسير الشعراوي**، (٥/ ٣١٦٦).

**التيار أم يقول: ممنوع الاقتراب منه[١]؟؟**

فلا بدّ من أن يدع الإنسان بينه وبين هذا التيار (الخطر) هامش أمان، لا بد أن يحتاط ويجعل بينه وبين المعصية مسافة تحميه وتحفظه، فالتبرج والإغراء والاختلاط المثير، والكلمات والإشارات والحركات والضحكات الفاجرة، هي بمثابة ثمانية آلاف فولت، لها دائرة جذب، إذا دخل الإنسان هذه الدائرة فإنها تجذبه وتجعله فحماً أسوداً، كلها فواحش تحيط بالفاحشة الكبيرة وتوصل إليها!

## على الإنسان أن يحتاط

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (٢١٦): لو تصوّرنا نهرا جارفا يُنذر من وقع فيه بالهلاك، له شاطئ مائل، تعلوه طحالب رطبة وزلقة تُنذر من يمشي عليها بالانزلاق والضياع، إذن، ممنوع أن تقترب من هذا الشاطئ لئلا تقع في النهر[٢]!!**

فالاقتراب من هذا الشاطئ ممنوع لوجود مخاطر كبيرة وعلى الإنسان أن يحتاط، ومسافة الاحتياط هي عرض الشاطئ، وبسبب أن هذه الفواحش لها إغراءات وجاذبية كبيرة تضعف معها إرادة الإنسان، كان النهي عن مجرد الاقتراب منها سدا للذرائع، لذا حرمت النظرة الثانية بعد الأولى غير المتعمدة، والتعطر

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (١٥، ٦٣).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (١٥).

للمرأة في الطريق، فهذا الدين لا يريد أن يعرّض الناس للمزيد من الفتنة ثم يكلف أعصابهم المزيد في المقاومة! فهو دين وقاية وحماية قبل أن يقيم الحدود ويوقع العقوبات، وربك أعلم بمن خلق، وهو اللطيف الخبير[(١)].

## الحلّ أن نبتعد عن الأسباب

فلا بد أن نجعل بيننا وبين الزنا مسافة، ونجعل بيننا وبين أكل مال اليتيم هامش أمان، نجعل إشارة تحذير وانتباه لأنفسنا حتى لا نصل ونقع في الحرام دون أن ندري، فالشهوات لها قوة جذب يضعف الإنسان أمامها في كثير من الأوقات، والحل في جميع هذه الأحوال أن نبتعد عن الأسباب، فكم من لحظة اندفاع كانت سببا دمار أسرة، وكم من لحظة انفعال أكل صاحبها أصابعه ندما وحسرة.

## العبادة ضمان سلامة الإنسان

يقول الله ﷻ: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ١٨٤﴾[(٢)]، ويقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ﴾[(٣)].

فالأوامر والنواهي في الإسلام ضمانٌ لسلامة الإنسان وليست حداً لحريَّته، يظهر هذا

---

(١) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٣/ ١٢٣١).

(٢) [البقرة: ١٨٤].

(٣) [المائدة: ٦].

في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُواْ مِمَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ حَلَٰلٗا طَيِّبٗا﴾[1]، هذه دعوة إلى الناس كافة للاستمتاع بالطيبات التي أحلها اللهّ، وأن يأكلوا من مختلف الطعام الحلال؛ لأن فيه السلامة والفائدة للجسم والعقل، وليس في هذا حدٌ لحريتهم، بل يجدوا فيه اللذة والاستمتاع والقوة، هذا شيء ثابت.

## وصفات طبية نصّ عليها القرآن!

وخلاف ذلك فقد حرّم الله تعالى على عباده ما فيه ضرر على سلامتهم، في قوائم نصّ عليها القرآن، هي أشبه بالوصفات الطبية، حيث يقول رب العزة: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَيۡتَةَ وَٱلدَّمَ وَلَحۡمَ ٱلۡخِنزِيرِ﴾[2]، ﴿وَٱلۡمُنۡخَنِقَةُ وَٱلۡمَوۡقُوذَةُ وَٱلۡمُتَرَدِّيَةُ وَٱلنَّطِيحَةُ﴾[3]، ويقول تعالى: ﴿وَيَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡمَحِيضِۖ قُلۡ هُوَ أَذٗى فَٱعۡتَزِلُواْ ٱلنِّسَآءَ فِي ٱلۡمَحِيضِ وَلَا تَقۡرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطۡهُرۡنَۖ﴾[4]، أما إذا غيّر الإنسان هذه الثوابت وعبث في أمر الله على هواه دون أثارة من علم، فقد تنقلب السلامة ضررا والعافية سقما والحرية قيدا،

---

(١) [البقرة: ١٦٨].

(٢) [البقرة: ١٧٣].

(٣) [المائدة: ٣].

(٤) [البقرة: ٢٢٢].

يؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ ۖ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ۝٥٩﴾[1]. وعن جابر[2] رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إِذَا اسْتَجْنَحَ اللَّيْلُ، أَوْ قَالَ: جُنْحُ اللَّيْلِ، فَكُفُّوا صِبْيَانَكُمْ، فَإِنَّ الشَّيَاطِينَ تَنْتَشِرُ حِينَئِذٍ، فَإِذَا ذَهَبَ سَاعَةٌ مِنَ العِشَاءِ فَخَلُّوهُمْ، وَأَغْلِقْ بَابَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَأَطْفِئْ مِصْبَاحَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَأَوْكِ سِقَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَخَمِّرْ إِنَاءَكَ وَاذْكُرِ اسْمَ اللهِ، وَلَوْ تَعْرُضُ عَلَيْهِ شَيْئًا**»[3]. وفي الحديثِ: أخْذُ الحَيطةِ والحذَرُ مِن كلِّ ما يضُرُّ.

## إذن، لا بد من رادع يردعه

فقد درج الإنسان بأنه سيّد هذه الأرض ابتداء، وأنه غير مقيّد بعهد من اللهّ

---

(١) [يونس: ٥٩].

(٢) هو جابر بن عبد اللهّ بن عمرو بن حرام بن كعب بن غنم بن سلمة الأنصاري السّلميّ، يكنى أبا عبد اللهّ، وأبا عبد الرحمن، وأبا محمد، أحد المكثرين عن النبيّ ﷺ، وروى عنه جماعة من الصّحابة، وله ولأبيه صحبة، شهد العقبة، وقد غزا مع رسول اللهّ ﷺ إحدى وعشرين غزوة، مات سنة أربع وسبعين، وعاش أربعا وتسعين سنة. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (١/ ٥٤٦) رقم (١٠٢٨)].

(٣) صحيح البخاري (٤/ ١٢٣) رقم (٣٢٨٠)، وصحيح مسلم (٣/ ١٥٩٥) رقم (٢٠١٢).

وغير ملزم بإتباع أوامره!! وأنه حرٌّ في حصوله على المال والبحث عن الشهوات، ولا اعتبار بأن يتأذى ملايين البشر إذا لم يؤذِ نفسه، إذا لم تتدخل القوانين الوضعية للحد من ذلك!! إذن لا بد من رادع يردعه، ولا بد لمؤثر قوي في نفسه يرشده، ومبرمج على تأمين سلامته وصلاح أمره وأمر البشرية، يتلقاه بالقبول والرضى والطمأنينة دون شك أو تردد في ذلك. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب من واقع الحياة فيقول:

**المثل رقم (٢١٧): إذا رأيت لوحة في الطريق كُتِبَ عليها "حقل ألغام ممنوع الاقتراب"، فهل تحقد على من وضع هذه اللوحة؟ أم تشكره لأنه أراد سلامتك[(١)]؟؟**

هذه النواهي حقل ألغام وأخطار فلا تقترب منها، هذه العولمة لنشر الدمار وقتل الشعوب ونهب الثروات، هذه السيطرة على المال والاقتصاد لنشر الجوع والفقر، الخمر والمخدرات، مرض الإيدز، جرائم السرقة والسلب، فحينها تفهم أوامر الدين على أنها ضمان لسلامة البشرية، عندئذٍ تفهم العقول حقيقة أوامر الله ﷻ، فالنفع والضرر عائدين على الخلق لا عليه سبحانه، وهو سبحانه يريدنا طائعين حتى نحقق السلامة لأنفسنا وللبشرية أجمع.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥٥).

## الطلاق صمّام أمان

والتشريع يضمن سعادة الإنسان في نطاق الأسرة، فإذا نفرَ أحد الزوجين من الآخر وضعف دور المودّة والرحمة، واستُنفذت هذه المراحل واستحالتْ بينهما العِشرة، وأصبح من الحكمة مفارقة أحدهما الآخر، شرع حكم الله الطلاق ليكون حلاً. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٢١٨): الطلاق كالوعاء البخاري، له صمام أمان؛ لئلا ينفجر، فإذا ارتفع الضغط داخل هذا الوعاء إلى درجة غير محتملة، يخرج البخار من هذا الوعاء عن طريق صمام الأمان دون أن ينفجر**[١].

هذا المثل الذي ضربه الشيخ النابلسي، يتطابق في اللفظ والمعنى مع المثل الذي أورده الشيخ الشعراوي، ولعلّه مقتبس منه، يقول الشيخ الشعراوي في هذا السياق: **فالذين يصنعون المراجل البخارية يجعلون في تلك المراجل متنفسا حتى يمكن أن يخفف الضغط الزائد إن وجُد فلا يفجّرها، وقد يصمّمون داخلها نظاما آليا لا يتدخل فيه العقل بل تحكم الآلة نفسها**[٢].

وقد جعل الله الطلاق أبغض الحلال، لا يُلْجَأ إليه في المجتمع المسلم إلا في حالات نادرة، فهو كصمَّام الأمان ويعمل عمله كما أوضح الشيخان الكريمان،

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٧٨).

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٢/ ٩٧٨).

ويوفر السلامة لنفسه ولمن أحاط به قبل وصول الخطر إلى الذروة بلحظة واحدة!!

## وظيفة الرّسل ودورهم في إقرار الأمن

ويضرب الشيخ الشعراوي مثلاً للتقريب، لبيان وظيفة الرسل ودورهم في إقرار الأمن والسلامة، وتوجيه الإنسانية وتوفير السعادة لها فيقول: **حين تسافر تجد من يقول لك: أنصحك أن تسلك الطريق الفلاني، تجدك سعيداً مرتاح البال، كذلك الحق حينما أرسل الرسل بالمنهج الصحيح، وسار عليه المؤمنون ليجدوا الجنة والنعيم**[1].

يُلاحظ من هذا المثل للشيخ الشعراوي التشابه الواضح في المعنى بينه وبين ما سبقه في الأمثال السابقة للشيخ النابلسي، وكلاهما يتفقان على نتيجة واحدة؛ هي أن وحي السماء جاء ليدفع الإنسانية نحو السعادة والسلامة.

## اتباع منهج آخر يتفق مع هواه

يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ﴾[2]، فالمنهج القرآني في العبادة هو طريق الخير والسلامة للكون والإنسان، فيه الهُدى والوقاية من الشر لمن لم يقع فيه، وفيه علاج لَمَنْ وقع فيه، وضع للبشر قوانين فيها صيانة

---

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٧/ ٤١٤٤).

(٢) [آل عمران: ١١٠].

حياتهم، حينئذ يكون من المنطقيِّ أن يسمع المؤمن كلام ربه الذي رسم له الخطة الثابتة والمنهج الصواب للسعادة الأبدية في الدنيا والآخرة، ولا خيار له في اتباع منهج آخر يتفق مع هواه، بل لا بُدَّ أن يتبع منهج ربه ﷻ ويستسلم له دون سؤال أو تردد وإن تعارض مع شهواته الكثيرة، أو تضارب مع أطماعه المادية. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (٢١٩): لو تصورنا جهازاً طبياً غالياً ومعقداً أراد صاحب تشغيله لأول مرة باجتهاده فإنه لن ينجح، فهو يحتاج إلى تعليمات التشغيل من الشركة (الكاتالوج)، أو مساعدة مندوب الشركة المصنعة، ولو حاول تشغيله من دون هذه الوسائل فإنه سيعطبه، أليست هذه التعليمات هامة لسلامة الجهاز نفسه[١]؟**

## الإنسان أعقد آلة في الكون

فالإنسان في حقيقته أعقد آلة في الكون، وفي طبيعته شهوات وأطماع وغرائز، وهذه لها قوى دافعة، حب المال والتملك والطعام والنساء والأولاد والمنصب وهذه القوى إذا كانت من دون منهج يضبطها فإنها تكون مدمّرة لصاحبها وللمجتمع وللبشرية جمعاء، وهي بالمقابل إذا استُخدمت مع تعاليم المنهج فإنها تكون قوى خيّرة وعظيمة، ويظهر جليّا أن الشيخ النابلسي اقتبس هذا المثل من تفسير الشيخ الشعراوي الذي يقول في خواطره: **وقد ضربنا المثل بالآلة**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٢)، الدرس (٦٢).

**المصنوعة بأيدي البشر؛ إن المهندس الذي صمّمها يضع لها قانون صيانة ما، ويضع قائمة تعليمات عن كيفية استعمالها؛ وهي تتلخص في «افعل كذا» و«لا تفعل كذا»، ويختار لهذه الآلة مكانا محددا، وأسلوبا منظما للاستخدام، إذن فوضع قائمة بالقوانين الخاصة بصيانه واستعمال آلة ما وطبعها في كراسةٍ صغيرةٍ، هي لفائدة المنتفع بالصنعة هذا في مجال الصنعة البشرية فما بالنا بصنعة الله ﷻ[١]؟**

## حينما تجد (كتالوج) باللغة العربية!

وهذا ينطبق على الحياة والكون، فهذه القوى بحاجة إلى وحي (كتاب) من السماء، ورسول مبلغ في الأرض، يقول الشيخ النابلسي في مثل شبيه آخر مؤكدا ما ورد في المثل السابق:

**المثل رقم (٢٢٠): عندما تمتلك آلة بالغة التعقيد غالية جداً، وتجد معها كتاب تعليمات (كتالوج) باللغة العربية، يصيبك سرور ما بعده سرور، تقرأه بشغفٍ عجيب[٢]!!**

فالقرآن نزل باللغة العربية رحمة بالناس وتسهيلا على حملة الرسالة العرب في قرون كثيرة، ولو نزل هذا القرآن بالفرنسية أو الإيطالية لوجدوا فيه اختلافا كثيرا، وانتهى إعجازه اللغوي والأدبي، وما بقي لأمة العرب شأن ولا قيمة،

---

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٣/ ١٤١٨).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٢).

وما فهموه إلا بالترجمة وشقّ الأنفس، فكيف يتدبرونه ويعملون به ويتخذونه منهج حياة؟

## آلة بالغة التعقيد غالية الثمن

كما لو اشترى الإنسان آلةً بالغة التعقيد غالية الثمن عظيمة النفع، وصلت من أقصى دول العالم بلا كتاب تعليمات، ولو استعملها بلا (كتالوج) أعطبها، هذا يدلّ أن كتاب التعليمات أهم من الآلة نفسها؟ لذلك قال الله تعالى: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ٤﴾[1]، فهل يعقل أن يعلّم الله القرآن للإنسان قبل أن يخلقه؟ يعني أن هذا ترتيبٌ رتبيٌّ وليس ترتيباً زمنياً، أي أن رتبة وضرورة تعليم الإنسان أهم وأولى من خلقه، ولا معنى لحياة الإنسان من دون منهج يسير عليه، فالمنهج عند الله أولى للإنسان من خلقه[2]، لأن الإنسان حينما يمتلك منهجا سليما ورؤية صحيحة، فإن ذلك يمنعه من أن يقع في الأخطار، تماماً كالمثل الذي يضربه الشيخ النابلسي للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (٢٢١): لو أنك تركب مركبة والطريق وعر جداً، فيه حُفر ووديان سحيقة، والليل مظلم، فإن كان معك مصباح يُريك العقبات والحفر والأخطار**

---

(١) [الرحمن: ١-٤].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٢) **وآل عمران** الدرس (٤٨).

**فأنت في سلام**[١].

فالمصباح الذي يقصده الشيخ النابلسي في هذا المثل هو منهج الإسلام، الذي يضيء طرقا مظلمة ومتعددة في اتجاهات كثيرة؛ بهدف تخطي العقبات والحفر التي تشكل الأخطار في هذا الطريق.

## منع الرزق لا يُعدّ عقابا

ومن أشكال السلامة والأمان في المنهج الرباني للإنسان أن عطاء الله تعالى النعمة العظيمة لبعض عباده لا يكون إكراماً على كل الأحوال، وأن منعه الرزق وتقتيره على البعض الآخر ليس حرمانا وعقوبة؛ فقد يكون هذا العطاء أو هذا الحرمان رحمة ومصلحة للناس ولكن أكثرهم لا يعلمون، أو يكون ابتلاءً واختباراً عظيماً للإنسان هل يشكر أم يكفر. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب من واقع العمل الطبي فيقول:

**المثل رقم (٢٢٢): فهذا أب طبيب يحبّ ولده محبة شديدة، فيمنعه بقسوة بالغة من أكلة يحبّها**[٢]**!!**

هذه الأوامر والتعليمات المحددة من الأب بحرمان الابن من الطعام اللذيذ لا يُعدّ عقابا ولا إهانة، بل محبة به وسلامة له، ورد عن رسول الله ﷺ أنه قال: عَنْ

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٦٢).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (١٠).

أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ[١]، ﷺ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: **«إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيَحْمِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ الدُّنْيَا وَهُوَ يُحِبُّهُ كَمَا تَحْمُونَ مَرِيضَكُمُ الطَّعَامَ وَالشَّرَابَ تَخَافُونَ عَلَيْهِ»**[٢].

## الصلاة أرقى مراتب العبادة

يقول الله تعالى: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾[٣].

فالصلاة فريضة بدنية يقوم بها المخلوق للخالق، وهي أرقى مراتب العبادة، وفرض متكرِّر وركن هام من أركان الإسلام الخمسة الذي لا يسقط بأي حال على مدى عمر الإنسان، فالشهادتان ينطق بهما المسلم مرَّةً في العمر حينما يعلن إسلامه، والزكاة تسقط عن الفقير وتُؤدَّى في العام مرَّةً، والصيام يسقط عن

---

(١) هو سعد بن مالك بن سنان بن عبيد بن ثعلبة بن الأبجر الخدري الأنصاري (١٠ق، ٧٤هـ)، أبو سعيد الخدري، صحابي جليل، لازم النبي ﷺ، استشهد أبوه يوم أحد وهو ابن ثلاث عشرة سنة، شهد الخندق وبيعة الرضوان والمشاهد الأخرى، روى عن الرسول ﷺ (١١٧٠) حديثا، وكان يلازم المسجد النبوي كثيرا. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (٣/ ٦٥) رقم (٣٢٠٤)، **معجم الصحابة** للبغوي (٣/ ١٨)].

(٢) النيسابوري، **المستدرك على الصحيحين** (٤/ ٢٣١)، قال الحاكم صحيح الإسناد. وقال الألباني: حديث صحيح. ينظر: **صحيح الترغيب والترغيب**، للألباني، رقم: (٣١٧٩).

(٣) [العنكبوت: ٤٥].

المريض والمسافر ويؤدَّى في العام مرَّةً، والحجُّ يسقط عن المريض والفقير ويؤدَّى في العمر مرَّة!

## المحافظة على الصلاة

يقول الله ﷻ: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ﴾[1]، ويقول ﷻ: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ ۝٣٤﴾[2]، ويقول الله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ ۝٢٣﴾[3]. وعَنْ حُذَيْفَةَ بن اليمان[4] رضي الله عنه قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا حَزَبَهُ[5] أَمْرٌ صَلَّى»[6]. ويضرب

---

(١) [البقرة: ٢٣٨].

(٢) [المعارج: ٣٤].

(٣) [المعارج: ٢٣].

(٤) هو حذيفة بن اليمان العبسيّ، من كبار الصّحابة، كان أبوه قد أصاب دما فهرب إلى المدينة، فحالف بني عبد الأشهل، فسماه قومه اليمان، لكونه حالف اليمانية. وتزوّج والدة حذيفة، وشهدا أحدا فاستشهد بها، قال: لقد حدّثني رسول اللّٰه ﷺ ما كان وما يكون حتى تقوم الساعة، وفي الصّحيحين قيل بأنه صاحب السرّ الّذي لا يعلمه غيره؟ يعني حذيفة، وشهد فتوح العراق وله بها آثار كثيرة. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (٢/ ٣٩) رقم (١٦٥٢)].

(٥) حزبه: أي نابه وألمّ به أمر شديد.

(٦) أخرجه **أبو داود في سننه** (٢/ ٣٥) رقم(١٣١٩). **وأحمد في مسنده** (٣٨/ ٣٣٠) رقم (٢٣٢٩٩). وحسنه الألباني في **صحيح وضعيف سنن أبي داود** رقم (١٣١٩)].

الشيخ النابلسي مثلاً لبيان معنى اللجوء إلى الله تعالى بالصلاة إذا حزب المؤمن أمر أو اشتدّت عليه شدّة فيقول:

**المثل رقم (٢٢٣): إذا دخلتَ إلى دائرة رسمية من أربعة طوابق لتأخذ تأشيرة خروج، وفي كل طابق خمسون موظفًا، والموظف الموكّل بهذه التأشيرة هو المدير العام، وطلبك لا يمكن أن يتحقق إلا به، فهل تلجأ إلى غيره[1]؟**

فالمحافظة على الصلاة تنهي كل الشبهات العقائدية؛ والعبد يكون أحوج ما يكون إلى الصلاة واللجوء إلى ربه ساعة ضيقه وشدته، فيستسلم له وينسى دنياه، وعلى معنى وسياق المثل السابق يضرب الشيخ الشعراوي مثلاً فيقول:

**إن الولد الذي يضربه أصحابه يذهب إلى أبيه، كذلك زوجتك إذا أغضبْتها تذهب إلى أهلها، فكيف لا يذهب العبد إلى ربه وقت شدّته وكربه[2]؟**

وثمة علاقة ورابط بين المحافظة على الصلاة وبين الخشوع فيها، فإذا كانت العبرة بالهيئة والكيفية، فهي كذلك بالخشوع والطمأنينة، واستحضار عظمة الله حينما يقف المسلم بين يديه.

---

(١) النابلسي، محمد راتب، **أحاديث رمضان** (١٤٢٥هـ) الدرس (٤٥-٦٤) بتاريخ: ٧/ ١١/ ٢٠٠٤م.

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٣/ ١٧٤٧).

## الخشوع في الصلاة

يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ۝٢﴾[1]. فإذا كانت العبادة توجّه لله، وتعلق به في كل نشاط الحياة، والصلاة أكمل صورة في هذا النشاط، فهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وبها يرتبط المؤمن مع ربه باستقامته وخشوعه، وطاعته وصدقه، وأمانته وإخلاصه، وتتجمّع هذه الأدوات للاتصال بالله إلى الحد الذي تثمر فيه ثمارها في المشاعر والسلوك، ليصبح الخط ساخناً مع الله ﷻ، وإلا فما هي إلا حركات وكلمات[2]!!

ويضرب الشيخ النابلسي أمثالا للتوضيح والدلالة على ضرورة الخشية والخشوع في الصلاة وإن أدّاها بأركانها، فيقول:

**المثل رقم (٢٢٤): تصوّر هاتفاً رائعاً ومتطوراً، لكن بدون حرارة، فإنه لا يفيد، يصبح قطعةً صمّاء من البلاستيك، أما حينما تسمع صوتاً (طنينا) يعني أن الخط ساخن ومفتوح، وشتان بين الأمرين[3]!!**

---

(١) [المؤمنون: ٢].

(٢) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٤/ ٢٣٥٧).

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤١).

## الصلاة الشكلية!

**المثل رقم (٢٢٥): قد تجد مركبةً فخمةً جداً، مطليةً بطلاءٍ رائعٍ زاهٍ، ومقاعد فخمة، ومرايا نظيفة، وأبواب فارهة، ولكن ليس فيها محرك**[١].

فمن السهل أن يقيم المؤمن صلاته الشكلية، لكن العبرة أن يقيمها بطاعته لله أولاً، وبالنية الصادقة، وبغضّ بصره عن محارم الله، وبالصدق والأمانة في المعاملات[٢].

## الصلاة الصحيحة كالبناء المتكامل

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر للتوضيح، لبيان ضرورة هذه المقوّمات وأهميتها فيقول:

**المثل رقم (٢٢٦): عندما يُقام بناء يحتاج إلى مقومات، ويحتاج إلى رخصة، ويحتاج إلى حفر أساسات، ويحتاج إلى جسر إسمنتي، ويحتاج إلى حماية وأبواب قوية، ويحتاج إلى أثاث**[٣].

فإذا كانت هذه مقومات البناء، وهي ثابتة لا تختلف مع تغيّر المناخ والأزمنة ولا يصلح إلا بها، وبدونها فإنه سيكون ضعيفا متصدعا ومعرّضا للهدم، فالأولى أن تكون مقومات الصلاة مبادئ ثابتة لا تصلح إلا بها، كأركانها

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨٠).

(٢) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٤/ ٢٣٣١).

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤١).

وشروطها على أساس إخلاص ولاء المسلم لربه ورسوله وعقيدته وجماعته، والنهي عن الفحشاء والمنكر، هذه كلها مقومات هي أساس النشأة للفرد والجماعة المسلمة.

## المداومة على الصلاة بلا خشوع!

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للدلالة على أهمية هذه الصفة، وبالأخص صفة الخشوع فيقول:

**المثل رقم (٢٢٧): إذا حافظ الطالبُ على الدوام في الجامعة، ولكنه لم يدرس ولا كلمة، فما قيمة هذا الدوام؟ فالمحافظة على الدوام في الجامعة لا يعني الحضور فقط[١]!!**

وقد نهج الشيخ النابلسي في هذا المثل نهج الشيخ الشعراوي في توضيح هذا المعنى القرآني، وكأنه يتفق معه أو ينقل عنه أو يقتبس منه في اللفظ والمعنى، فقد ذكر الشيخ الشعراوي في خواطره في هذا السياق: **لا تقول لولدك: اذهب إلى المدرسة واحضر الدرس فقط؛ فهذا أمر مفروغ منه!! ولكن توصيه بأن يجلس أمام المعلم باهتمام ويستمع إليه بإنصات**[٢].

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨٠).

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١٦/ ٩٩٦١).

## أتستكثر أن تُفرِّغ قلبك لربك خمس دقائق؟!

ثم يتساءل الشيخ الشعراوي مستهجنا: أتستكثر على ربك أن تُفرِّغ له قلبك وأن تستحضره خمس دقائق من أجل الصلاة؟ تستمد منه الطاقة والمعونة، وتقتبس من أنواره وأسراره؟ وقد تركك باقي الوقت تفعل ما تشاء[١]؟ فجوهر الموضوع هو الحالة التي ينبغي أن يكون عليها المؤمن في صلاته، فالخشوع أن يكون القلب مطمئناً ساكناً فلا ينشغل بشيء غير الصلاة؛ وما دام في حضرة ربه فلا ينبغي أن ينشغل بشيء سواه، قال ابن العربي[٢]: إن اللهّ تعالى أمر عباده بالصلاة، وفرض فيها الخشوع استكمالا للعبادة، وألزم الجوارح السكون واللسان الصمت إلا عن ذكر اللهّ تعالى، ونصب البدن إلى جهة واحدة، ليكون ذلك أنفى للحركات، وأبعد للخواطر، وعينت له جهة الكعبة تشريفا له[٣].

---

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١٦/ ٩٩٦١).

(٢) محمد بن عبدالله بن محمد المعافري، المشهور بالقاضي، أبو بكر ابن العربي الإشبيلي المالكي، الحافظ عالم أهل الأندلس، ولد في إشبيلية سنة (٤٦٨هـ)، رحل إلى الشام وقرأ القراءات وأصول الفقه والحديث ومسائل الخلاف، واتسع في التفسير والأدب والشعر والتاريخ،وصنّف كتبا، ولي قضاء إشبيلية، ومات في فاس سنة(٥٤٣هـ) ودفن فيها. **[الأعلام للزركلي(٦/ ٢٣٠)].**

(٣) ابن العربي، أبو بكر محمد بن العربي، **أحكام القرآن**، تعليق محمد عبد القادر عطا (١/ ٥٤) دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت.ن).

## حُكم الخشوع في الصلاة

والخشوع واجب ضروري لتعقل معاني الصلاة ومناجاة الرب تعالى، وتذكّر اللهّ والخوف من وعيده، وتدبر آيات القرآن وتفهم معانيها، وحينئذ يتخلص غالبا من وساوس الشيطان ومحاولة شغل الفكر وصرف المصلي عن صلاته، لكن جمهور العلماء لم يشترطوا الخشوع في الصلاة للخروج من عهدة التكليف، وإنما هو شرط لتحصيل الثواب عند الله تعالى(١). وعَنْ سعيد بْنِ الْمُسَيَّبِ(٢) أنه رأى رَجُلاً يَعْبَثُ بِلِحْيَتِهِ فِي الصَّلَاةِ فَقَالَ: «إِنِّي لأَرَى هَذَا لَوْ خَشَعَ قَلْبُهُ خَشَعَتْ جَوَارِحُهُ»(٣). والمؤمن الخاشع هو الطائع لله، الممتنع عن المحرمات الصابر على

---

(١) الزحيلي، وهبة بن مصطفى الزحيلي، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، (١٨/ ١١)، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية،١٤١٨هـ.

(٢) سعيدُ بنُ الْمُسَيّب بنُ حُزنٍ الَمخزُوميّ؛ كان منَ الْمُتحنينَ فلمْ تأخذهُ في الله لومة لائمْ، صاحبُ عبادةٍ وجَماعةٍ وعفّةٍ وَقناعةٍ، كَانَ رَأْسَ مَنْ بِالْمدِينَةِ فِي دَهْرِهِ وَالْمُقَدَّمَ عَلَيْهِمْ فِي الْفَتْوَى وكَانَ يُفْتِي وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللهَّ ﷺ أَحْيَاءٌ، وَيُقَالُ عنه فَقِيهُ الْفُقَهَاءِ وعَالِمُ الْعُلَمَاءِ، قَالَ: إِنْ كُنْتُ لأَسِيرُ اللَّيَالِيَ وَالأَيَّامَ فِي طَلَبِ الْحَدِيثِ الْوَاحِدِ، وحينما سُئِلَ عَنْ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللهَّ قَالَ: لا أَقُولُ فِي الْقُرْآنِ شَيْئًا. [ابن سعد، **الطبقات الكبرى** (٢/ ٢٨٩)].

(٣) الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق الصنعاني، **المصنف**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي (٢/ ٢٦٦) رقم (٣٣٠٨) و(٣٣٠٩)، المجلس العلمي- الهند، بيروت، الطبعة الثانية(١٤٠٣هـ). **وسلسلة الأحاديث الضعيفة** والموضوعة (١٣/ ٥٢٤) رقم (٦٢٤١).

الأقدار، والخشوع يجعل الإنسان يستحضر عظمة الله سبحانه ويعرف ضآلة قيمة نفسه ومدى عجزه أمام خالق الكون، والحق ﷻ يقول: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾[1].

## تعريف الزكاة

الزكاة لغة من قولهم: زكا الزَّرع أَي نما، وكلُّ شيء يَزْكو فهو يزداد ويَنْمو، وزَكاةُ المال تطهيره، فالزكاة هي: البركة والنماء والطهارة والصلاح[2]. والزكاة شرعا: اسم لما يخرجه الإنسان من حق الله تعالى إلى الفقراء، وسميت زكاة لما يكون فيها من رجاء البركة وتزكية النفس وتنميتها بالخيرات، قال الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[3]، وهي أحد أركان الإسلام الخمسة، وقُرنت بالصلاة في اثنتين وثمانين آية، وقد فرضها الله تعالى بكتابه وسنة رسوله ﷺ وإجماع أمته[4].

## الربا ظاهره زيادة وحقيقته نقص

وقد سميت الزكاة لأنها في ظاهرها نقص وفي حقيقتها زيادة، والربا ظاهره

---

(١) [البقرة: ٤٥].

(٢) ابن منظور، **لسان العرب** (١٤/ ٣٥٨). **المعجم الوسيط** (١/ ٣٩٨).

(٣) [التوبة: ١٠٣].

(٤) سابق، السيد، **فقه السنة** (١/ ٢٣٥) دار الفتح للإعلام العربي، (د.م.ن)،(د. ت.ن).

زيادة وحقيقته نقص، وفي ذلك يقول الله جل تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِ﴾(١)، فبسبب أن الإنسان يحبّ ذاته، أمره الله تعالى بكفايتها أولا ثم بالإنفاق على من سواها، عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «خَيْرُ الصَّدَقَةِ مَا كَانَ عَنْ ظَهْرِ غِنًى، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ»(٢). والإنسان يحتاج إلى المال ليحصل على ضروريات الحياة وكمالياتها فيطمئنّ على حاضره ومستقبله، وقد قال رسول الله ﷺ: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي، مَالِي، قَالَ: وَهَلْ لَكَ، يَا ابْنَ آدَمَ مِنْ مَالِكَ إِلا مَا أَكَلْتَ فَأَفْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ؟»(٣).

## لم يقُلْ: يُقرض فقيرا، وإنما قال: يُقرض اللّه

والمال في الحقيقة عائد لله تعالى، فإذا طلب من عبده المؤمن أن يعطي أخاه الفقير قَرْضا على أنه لا يردُّه، إنها يتولى ربه ﷻ رَدَّه، فيقول: ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾(٤)، ولم يقُلْ سبحانه: يقرض فقيرا، وإنما قال يُقرِض الله، حفاظا على كرامة الفقير ومشاعره. ويضرب

---

(١) [البقرة: ٢٧٦].

(٢) صحيح البخاري (٢/ ١١٢) رقم (١٤٢٦)، وصحيح مسلم (٢/ ٧١٧) رقم (٩٥ - ١٠٣٤).

(٣) صحيح مسلم (٤/ ٢٢٧٣) رقم (٣ - ٢٩٥٨).

(٤) [البقرة: ٢٤٥].

الشيخ الشعراوي مثلاً لتقريب هذا المعنى فيقول: **لو أرادَ والد أنْ يُجري لأحد أبنائه الفقراء عملية جراحية، فيقول لأولاده الأغنياء: أقرضوني من أموالكم لأجري الجراحة لأخيكم، وسوف أردُّ عليكم هذا القرض**[١].

فمن حق العبد الفقير الذي استدعاه ربه للوجود أنْ يرزقه إن كان محتاجا، ويتكفّل له بحفظ ماء وجهه وكرامته، على أن تصل نسبة الأرباح للمتصدق إلى عشرة أضعاف إلى سبعمائة ضعف إلى أكثر من ذلك لمن يشاء!

## الزكاة في حقيقتها نموّ وزيادة

يقول الله تعالى: ﴿خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[٢]، فالصدقة تطهر الإنسان من الغفلة التي قد تصيبه، وتُزكِّيه من الدنس والخطيئة، وشاء الله سبحانه أن تكون الزكاة في حقيقتها نموّاً وزيادة وإن بدت في ظاهرها نقصا، وهي عكس الربا الذي قد يكون ظاهره زيادة ولكنه يمحق البركة، فالنماء أن ينمو المال إلى مراتب الكمال في طهارة وتزكية وبركة، والتكليف الرباني يأمر الإنسان بأن ينفق المال، والطبع البشري يقتضي أن يكنزه، فإذا وافق الإنسان شهوته فإنه ينحرف ويشقى، وإن خالفها وأنفق المال فإنه يرقى عند ربه،

---

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١٨/ ١١٠١٨).

(٢) [التوبة: ١٠٣].

ويكون ذلك ثمن الجنَّة، بدليل قول الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ۝٤١﴾[1]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب للدلالة على معنى النماء والزيادة في مال الزكاة، فيقول:

**المثل رقم (٢٢٨): لو فرضنا أن إنساناً عنده صندوق حديدي وله فتحة، فكلما زاد من مصروفه شيء وضعه في هذا الصندوق، فهل هذا الذي وضعه في الصندوق خَسِرَهُ؟ فالصندوق كله له، فكيف إذا كان كل شيء يدفعه في هذا الصندوق سيتضاعف مرّات ومرّات**[2].

## صندوق التكافل الاجتماعي

يظهر التأثّره الشديد في كلمات هذا المثل الذي ضربه الشيخ النابلسي، بالمثل الذي أورده الشيخ الشعراوي في خواطره عند تقريب هذه الفكرة، حيث قال:

**والصدقة في الإسلام شأنها شأن صندوق التكافل الاجتماعي، أو صندوق التأمين في شركات التأمين، فإذا ما ضاقت أسباب الرزق بأحد الشركاء وشكا الكِبَر والعجز يقولون له: لا تحزن فأنت في مجتمع مؤمن متكافل، وكما طلبنا منك أنْ تعطي غيرك وأنت واجد، طلبنا من غيرك أنْ يعطيك وأنت مُعْدم**[3].

---

(١) [النازعات: ٤٠-٤١].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨٨).

(٣) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١/ ٤٣٠).

فالشيخان الكريمان استخدما في مثاليهما كلمة (صندوق) لبيان المعنى المستور في هذا السياق، والله يحدّد جزاء الحسنة بأن ثوابها عشر أمثالها، ونيّة معطي الحسنة هي التي يمكنها أن تضاعفها إلى سبعمائة أو أكثر، وأن عطاءه غير محدود ولا ينفد، والحق ﷻ يعطي مثلاً لذلك في قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ٢٦١﴾[1].

## ما هو القصد من الصدقة؟

الصدقة عبادة، لذا تجب نيّة التقرب إلى الله وقصد امتثال أمره عند دفع، ومن أجل أن يُفهم هذا المعنى على حقيقته، يضرب الشيخ النابلسي مثلاً للحثّ بأن تكون النفقة مطلقة لله، خالصة لوجهه الكريم، دون انتظار الأجر المباشر المضاعف، يقول:

**المثل رقم (٢٢٩): قد تجد صديقاً لك، عزيزاً عليك، وابنه معه، وفي جيبك قطعة حلوى، إنَّك تقدِّم هذه القطعة لابنه الصغير، إكراماً لأبيه**[2].

فقطعة الحلوى التي قدّمها الرجل للطفل الصغير، كانت بنيّة التقرّب إلى الأب وهو يترقب منه مكافأة في المستقبل، هذا المعنى يتمثل حينما تُحسن إلى عبدٍ من

---

(١) [البقرة: ٢٦١].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨١).

عباد الله، فهذا الإحسان هو بمثابة قرضٍ لله ﷻ، ليرجو منه ﴿أَضْعَافًا كَثِيرَةً﴾[1]، وهذا شأن المؤمن في الدنيا، يتصدق من ماله في غناه على المخلوق من أجل الخالق، فيضاعفه له الخالق يوم لا ينفع مال ولا بنون.

## ردّ الرصيد له أضعافا يوم القيامة!

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب من واقع الحياة فيقول:

**المثل رقم (٢٣٠): تصور مَلِكاً عظيما قال لإنسان فقير: أقرضني درهماً واحدا وخذ مكانه قصراً، أو أقرضني درهماً وخذ مكانه منصباً، أو أقرضني درهماً وخذ مكانه ثروةً، فإذا أحجم هذا الإنسان الفقير عن أن يقرض المَلِك درهماً، فهو أحمق[2]!!**

فإقراض العبد لربه هو سببٌ لإكرام الربّ له، ورد الرصيد له أضعافا مضاعفة يوم القيامة! ويضرب الشيخ الشعراوي مثلاً واضحا وجليا قريبا من هذا المعنى فيقول: **وإذا كانت الأرض وهي مخلوقة لله تعطيها أنت حبة فتعطيك سبعمائة، فماذا يعطي خالق هذه الأرض[3]؟**

(١) [البقرة: ٢٤٥].

(٢) المصدر نفسه.

(٣) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٧/ ٤٠١٩).

## ما هي الصدقة المقبولة؟

يقول الله تعالى: ﴿لَن تَنَالُواْ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[١]، فحينما يقدِّم الإنسان ثياباً بالية أو طعاماً تعافه النفس، فإن هذا ما يتناقض مع كمال الإيمان ورضا الرحمن. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح من الحياة اليومية فيقول:

**المثل رقم (٢٣١): امسك الآن قبضةً من رمل ما لها قيمة عندك وأعطها فقيرًا! هل ترقى؟، أما إن أعطيته ألف ليرة وأنت في أمسّ الحاجة إليها، وتحلّ بها مشكلات كثيرة فأنفقتها في سبيل الله، حينئذ ترقى**[٢].

فالنفقة منها ما يكون مقبولا عند الله ومنها ما يكون مرفوضا، وتداعي المعاني في النفس الإنسانية قد يجعل الإنسان يسأل: ما هي الصدقة المقبولة؟ يأتي الجواب صريحا من ربّ العزّة بأنها الصدقة التي تحبّها نفس المتصدق، والصدقة التي يرفضها الله هي التي تعافها نفس المتصدق.

## أيهما أفضل: الإسرار أم الجهر بالصدقة؟!

قال الله ﷻ: ﴿إِن تُبْدُواْ ٱلصَّدَقَٰتِ فَنِعِمَّا هِيَ ۖ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا ٱلْفُقَرَآءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾[٣]، وقد يكون الإشهار في دفع الزكاة والصدقات

---

(١) [آل عمران: ٩٢].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٦).

(٣) [البقرة: ٢٧١].

مخصوصا في مواقف وأمكنة مناسبة، يحبّب أن تُعلن فيها الأسماء والأرقام، لقول الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ﴿٢٦﴾﴾[١]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب من الحياة اليومية فيقول:

**المثل رقم (٢٣٢): لو زرت مريضاً ومعك هدية، أنت ماذا تفعل؟ تضع بطاقة على الهدية، ليعلم الذي زرته أن هذه الهدية منك**[٢].

فالإنسان المُنفق يكون حريصا بالعادة أن يُخبر عن نفسه، وهذا ما تدلّ عليه الآية، فهي تُعالج أمرهم وتستدرجهم بإخراج أموالهم، ليكون ذلك تشجيعا لهم على الإنفاق، فالمؤمن إذا أنفق نفقة في سبيل الله يكون مطمئنا أشد الطمأنينة بأن الله يعلم، مما يُبعده أشدّ البعد عن النفاق، وجمع الإيصالات، واستجداء المديح، وإذا كان الله يعلم فغيره إن علم أو لم يعلم فهو عنده سيَّان، قال ابن كثير: "فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها؛ لأنه أبعد عن الرياء، إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به، فيكون أفضل من هذه الحيثية"[٣].

---

(١) [المطففين: ٢٦].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨٨).

(٣) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (١/ ٧٠١).

## تنفع الفقراء سواء سرا أو جهرا

والله تعالى يريدنا أن نتصدق، والفقير سينتفع بهذه الصدقة سواء كانت نية المتصدق لله فيُخفي صدقته، أم من أجل الشهرة والسمعة فيُظهرها ليُرضي بشرا، فالصدقة ينتفع بها الفقراء سواء أراد صاحبها أم لم يُرد، وفي ذلك كله خير[١]. عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ[٢] ﵁ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهَّ ﷺ، يَقُولُ: «**الْجَاهِرُ بِالْقُرْآنِ كَالْجَاهِرِ بِالصَّدَقَةِ، وَالْمُسِرُّ بِالْقُرْآنِ كَالْمُسِرِّ بِالصَّدَقَةِ**»[٣]. وعن أبي هريرة ﵁ أن النبي ﷺ قال: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُّ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الإِمَامُ العَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي المَسَاجِدِ، وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللهَّ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ:**

---

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١/ ٦١٨).

(٢) هو معاذ بن جبل بن عمرو بن أوس، أبو عبد الرحمن الأنصاريّ الخزرجيّ، كان من أفضل شباب الأنصار حلما وحياء وسخاء، جميلا وسيما، إمام الفقهاء، وكنز العلماء، شهد العقبة، وبدرا، والمشاهد كلها، دعا له الرسول ﷺ: «حفظك اللهَّ من بين يديك ومن خلفك» وأمّره على اليمن، وكانت وفاته بالطاعون في الشام سنة سبع عشرة، وعاش أربعا وثلاثين سنة. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (٦/ ١٠٧) رقم (٨٠٥٥)].

(٣) أخرجه **أبو داود سننه** (٢/ ٣٨)، برقم (١٣٣٣). **والترمذي في سننه** (٥/ ١٨٠)، برقم (٢٩١٩). وغيرهما. وصححه الألباني في **صحيح وضعيف سنن أبي داود** رقم (١٣٣٣)].

**إِنِّي أَخَافُ اللهَّ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفى حَتَّى لاَ تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَّ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»(١).

## منه ما يناسبه السِّرّ ومنه ما يُناسبه الجَهْر

فالإنفاق بشتى أنواعه خير، فمنه ما يناسبه السِّرّ ومنه ما يُناسبه الجَهْر، والإنفاق سرّاً خير منه جهراً، وأبعد رياءً ومَنّا، فالمنّ هو أن يتطاول المنفق على من أحسن إليه بإحسانه، ويريه أنه أوجب عليه حقا له، وأنه أصبح صاحب فضل عليه حتى يصل الأمر إلى حدّ الأذى، كما يقول الشاعر:

وإنِ امــرءاً أســدى إليّ صــنيعة          وذكَّرنيهـــا مَـــرَّةً لَلَئـــيمُ(٢)

## الربا معادلة خاسرة

يقول الله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِيَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۝٢٧٨﴾(٣)، يقول الله تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَـٰتِ﴾(٤)، فالربا

---

(١) **صحيح البخاري** (١/ ١٣٣) رقم (٦٦٠)، **وصحيح مسلم** (٢/ ٧١٥) رقم (١٠٣١).

(٢) ورد هذا في كتاب الزمخشري، **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار**، تحقيق: عبد الأمير مهنا (٥/ ٣١٧)، مؤسسة الأعظمي للمطبوعات، بيروت،١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م، ولم يذكر اسم قائله، ولم أجد له قائلا في المصادر الأخرى حسب ما أعلم.

(٣) [البقرة: ٢٧٨].

(٤) [البقرة: ٢٧٦].

في اللغة هو الزيادة، يقال أربى فلان على فلان إذا زاد عليه، وهو في الشرع الزيادة في أشياء مخصوصة من مال أو غيره، وهو محرم بالكتاب والسنة والإجماع[١]، فالمال قد يحترق أو يُصادَر بأمر الله وتقديره، وهناك من تخسر صناعته، ومن الناس الذي يفقد أعزّ ولده، هذه قوانين مستنبطة من حركة الحياة وتجربتها، ولا يُرجع الأمور إلى أسبابها إلا العارفون بدين الله من ذوي العقل والبصيرة، بحيث إذا طُبّق هذا الأمر بالآلات الحاسبة فإن الربا ينمِّي المال، بينما الصدقة تنقصه، فالآية تنصّ على عكس الحساب المألوف في الرياضيات، وللتقريب يضرب الشيخ النابلسي مثلاً رائعا لبيان هذا المعنى، يقول:

**المثل رقم (٢٣٣): لو أن إنساناً أصابته جراحٌ عميقة على خده الأيمن، فذهب إلى طبيب تجميل، فقال له: أنزعُ لك قطعةً من خدك الأيسر وأضعها على خدِّك الأيمن[٢]!!**

هذا المثل يبيّن حال الإنسان الذي يتعامل بالربا، فما يخرج من مأزق حتى ينزلق في مأزق أشدّ، ويبقى حاله هكذا حتى يهلك المال وأهله.

---

(١) المقدسي، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، **المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل الشيباني**، (٤/ ١٣٣) دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى،١٤٠٥ه.

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٦٤).

## الدعوة

يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾﴾[1]، فالدعوة الإسلامية: هي دعوة لتوحيد الله أساسها كتاب الله وسنة رسول الله، وبيان ما فيهما من تشريعات، وهي الطريق الواضح الآمن للبشر جميعا إلى الله، فقد أرسل الله تعالى الرسل وأنزل الكتب لبيان الأمر الذي خلق الله من أجله الخلق وإيضاحه للناس حتى يعبدوا الله على بصيرة، فالرسل هم أول دعاة للبشر، واقتدى بهم من جاء بعدهم من الدعاة[2].

## فرض كفاية وسنّة مؤكدة

وقد دلّت الأدلة من الكتاب والسنة على وجوب الدعوة إلى الله ﷻ، وأنها من الفرائض، فهي فرض كفاية في حق أهل القطر وسنّة مؤكدة في حق الباقين، قال الله ﷻ: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾﴾[3]، وهي فرض عين على كل مسلم في حدود

---

(١) [يوسف: ١٠٨].

(٢) ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله، **الدعوة إلى الله وأخلاق الدعوة** (ص٥)، الرياض، إدارة البحوث العلمية والافتاء، ط٤، (١٤٢٣/ ٢٠٠٢).

(٣) [آل عمران: ١٠٤].

ما يعلم، وأول ما يعلم صار مكلفا ومسئولا عن نقل هذا العلم إلى الآخرين بشتى الطرق، إما باللسان وإما بوسائل تقنية أخرى حديثة، فلا بدّ أن تدعو[1]، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ[2] ﷺ قال: قال النَّبِيُّ ﷺ: **«فَواللهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِهُدَاكَ رَجُلا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرِ النَّعَمِ»**[3].

## الداعية الحكيم

أما أركان الدعوة فهي تشمل تعريف الداعية، والصفات والآداب التي ينبغي أن تتوفر فيه؟ وما يدعو إليه، والوسائل والأساليب التي تستخدم في نشر الدعوة وتبليغها؟ فإن لم يَصلح المجتمع كله فعلى الإنسان أن يُصلِح نفسه ويَصطلح مع الله، ويقيم الإسلام في بيته وفي عمله ولا يبالي، فالداعية الحكيم هو الذي يدعو إلى أركان الإسلام وأصول الإيمان والإحسان، ويُبيّن للناس ما جاء في القرآن والسنة من العقائد والعبادات والمعاملات والأخلاق بالتفصيل والشرح والتوضيح، ومجمل القول أن الشريعة الإسلامية تدور على ثلاثة

---

(١) المصدر نفسه (ص١٤).

(٢) هو سهل بن سعد بن مالك بن خالد بن ثعلبة بن حارثة بن عمرو بن الخزرج بن ساعدة الأنصاريّ السّاعدي، من مشاهير الصّحابة، يقال: كان اسمه حزنا فغيّره النبيّ ﷺ، روى عن النّبيّ ﷺ، مات سنة (٩١هـ) وقدعاش مائة سنة. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (٣/ ١٦٧) رقم (٣٥٤٦)].

(٣) **صحيح البخاري** (٤/ ٤٧)، برقم (٢٩٤٢).

مصالح، هي:

الأولى: درء المفاسد عن ستة أشياء: الدين والنفس والعقل والنسب والعرض والمال.

الثانية: جلب المصالح في كل الميادين وسدّ الذرائع المؤدية إلى الضرر.

الثالثة: التحلي بمكارم الأخلاق ومحاسن العادات.

## الخطاب غير المباشر

أسلوب الخطاب غير المباشر للشخص المدعوِّ يشتمل أحياناً على حكمةٍ عظيمةٍ في مجال الدعوة إلى الله تعالى، فالخطاب المباشر أقل تأثيرا من الخطاب الغير مباشر، فإذا أردت أن تنصح إنسانا بشكل مباشر، فإنه يدافع عن نفسه في أغلب الأحيان، ويعد ذلك انتقاصا من قدره، أما إذا كان المخاطِب جهة ثالثة، فالطريقة في توجيه الخطاب تكون أكثر فاعلية وأكثر تأثيراً[1]. وقد وظّف الشيخ النابلسي هذا الأسلوب في مواقع كثيرة في تفسيره، وضرب أمثلة على ذلك؛ منها:

**المثل رقم (٢٣٤): لو أن شابا يعمل المعاصي، وألقى عليه أبوه مواعظ ونصائح وخطابات فقد لا يستجيب، أما إذا حدّثه عن شاب وقع في شيء مشابه لما وقع فيه الابن، ودفع ذاك الشاب ثمناً غالياً، فإن تأثير هذا الكلام يكون عليه أكبر**[2].

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢١).

(٢) المصدر نفسه.

## (إياك أعني واسمعي يا جارة)

فالمعاصي التي وقع بها بنو إسرائيل قد يقع بها المسلمون، وهي بالتالي معالجة لهم، يقول الله ﷻ: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ وَمِن تَحۡتِ أَرۡجُلِهِمۚ﴾[١]، يعني: لو أقام المسلمون أحكام القرآن وأوامر الدين ونواهيه لوجدوا خيرا كثيرا وأنزل الله عليهم من السماء قَطْرَها، فأنبتت لهم به الأرض حبّها ونباتها، فأخرج ثمارَها"[٢]. ففي هذه الآيات قصص عن الأمم الماضية، تحمل في معانيها أسلوبا دعويا وتوجيها تربويا مؤثرا، فالقرآن لا يخاطب المسلمين بشكل مباشر بل يحدّثهم عن أمم انحرفت فدفعت ثمن انحرافها باهظا، وكما يقول المثل: "إياك أعني واسمعي يا جارة[٣]"

---

(١) [المائدة: ٦٦].

(٢) الطبري، **جامع البيان** (١٠/ ٤٦٣).

(٣) قال ذلك سَهْل بن مالك الفَزَاري، عشق امرأة من طيّ، فخاطبها:

يَا أُخْتَ خَيْرِ الْبَدْوِ وَالْحَضَارَهْ    كَيْفَ تَرَيْنَ فِي فَتَى فَزَارَهْ

أَصْبَحَ يَهْوَى حُرَّةً مِعْطَارَهْ    إِيَّاكِ أَعْنِي وَاسْمَعِي يَا جَارَهْ

فأجابته نظماً فقالت:

إِنِّي أَقُولُ يَا فَتَى فَزَارَهْ    لاَ أَبْتَغِي الزَّوْجَ وَلاَ الدَّعَارَهْ

وَلاَ فِرَاقَ أَهْلِ هذِي الْجَارَهْ    فَارْحَلْ إِلَى أَهْلِكَ بِاسْتِخَارَهْ

**[الميداني، مجمع الأمثال (١/ ٤٩) رقم (١٨٧)].**

## أسلوب النداء للإثارة

قال الله ﷻ: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَوۡفُواْ بِعَهۡدِيٓ أُوفِ بِعَهۡدِكُمۡ وَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ ٤٠﴾[البقرة: ٤٠]، فاستخدام أسلوب النداء والخطاب المباشر للتعظيم والإثارة، وقد خاطب الله تعالى بني إسرائيل بصيغة النداء فقال: ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾[1]، فإسرائيل هو سيدنا يعقوب عليه السلام، ومعناه في العبرية (عبد الله)، وفائدة هذا: أي أنكم انحدرتم من نسل نبي الله يعقوب بن نبي الله إسحق بن نبي الله وخليله أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، وأنتم لستم أوفياء مثلهم.

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح، فيقول:

**المثل رقم (٢٣٥): تماما كما تثير نخوة شاب فتقول له: أنت ابن فلان وأبوك عالم كبير وكريم، فلم أنت تفعل ذلك[2]؟**

حيث تظهر فائدة أسلوب النداء واضحة في تنبيه المستمع؛ لاستشعار صفات الجمال والفخر والعزة الموجودة في شخص المنادى أو في نفسه، فيتأثر بذلك ويسرع بالاستجابة.

## كثرة الأنبياء والرسل في الأمة!

كثرة الرسل والأنبياء في قوم أو جنس من البشر لا يعني الأفضلية لهم، وإذا

---

(١) [البقرة: ٤٠].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢١).

كان الأنبياء الذين جاؤوا إلى بني إسرائيل كثرا فهذا لا يعني أنهم أمة مختارة، خلاف لما يُفهم من ظاهر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا﴾[١]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلا للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٢٣٦): تماما إذا كان الأساتذة الذين يعلِّمون طالباً واحدا كثيرين فهذا دليل على بلادته وكسله وليس على تفوِّقه[٢].**

يُفهم من ضرب هذا المثل أن كثرة الدعاة لأي قوم أو أمّة، ليس دليلا على تفوقها وتفضيلها على بقية الأمم حاضرا ومستقبلا، بل هو دليل على كسلها وتخلفها وكثرة انحرافها عن الصواب، فهي عاقّة وبحاجة دوما إلى الهداية والمتابعة، وهذا حال بني إسرائيل على مرّ الأزمنة والعصور.

## إذا احتقر أخاه فكأنما احتقر نفسه

يقول الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾[٣]. الجماعة المسلمة، لفظ يشير إلى الكيان البشري القائم على المنهج الإسلامي، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**الصَّوْمُ يَوْمَ تَصُومُونَ، وَالفِطْرُ يَوْمَ تُفْطِرُونَ، وَالأَضْحَى يَوْمَ**

(١) [المائدة: ٢٠].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢١).

(٣) [آل عمران: ١٠٣].

**تُضَحُّونَ**[١]»[٢]. والتزام الجماعة مطلب أساسي في وحدة الأمة وقوتها، ونصرة الحق ونشره، وأن المسلم أخو المسلم، لا يحقره ولا يخذله، فإذا احتقر الرجل أخاه فكأنما احتقر نفسه، وإذا طعن بأخيه فكأنما طعن بنفسه. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٢٣٧): لو أن إنساناً يجلس في لقاء يحوي خمسين شخصاً، وقال: أبي فعل أمراً قبيحاً، وأبي فعل كذا وكذا، فقد طعن بنفسه من دون أن يشعر، فإذا ذمَّ الإنسان أقرب الناس له كأنه ذمَّ نفسه وهو لا يشعر**[٣].

## المجتمع المسلم مثل الجسد الواحد

فمثل المجتمع المسلم في ذلك مثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالمرض والشكوى، وللتقريب يضرب الشيخ النابلسي مثلاً فيقول:

**المثل رقم (٢٣٨): مثلاً احترق بيت في آخر الحيّ، فالبيت الأول سوف ينجو إذا خرج لإطفاء ذلك الحريق، أما إذا قال: أنا لا علاقة لي، بيتي لا يوجد فيه حريق فعندها سيصل الحريق إلى بيته، ويحترق الحيّ كله**[٤].

---

(١) مَعْنَى هَذَا: أَنَّ الصَّوْمَ وَالفِطْرَ مَعَ الجَمَاعَةِ وَعُظْمِ النَّاسِ.

(٢) سنن الترمذي (٣/ ٧١) رقم (٦٩٧) قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ.

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٢).

(٤) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، الدرس (٣٠).

## التعاون والتكافل بين أفراد المجتمع

**المثل رقم (٢٣٩): تصوَّر أباً له أولاد، فالذي يعتدي على أحد أولاده كأنه اعتدى على الأب**[١].

لذلك ينطلق المؤمن من حقيقة أن الخلقَ عيالُ الله، فبقدر محبَّتك لله تنفع عياله، وبقدر محبَّتك لله تُحسن إليهم، وتلقي في قلوبهم الأمن والسكينة، وتسعدهم وتعطيهم، والدعوة إلى الله هي صورة التعاون والتكافل بين أفراد المجتمع والوقوف مع الآخرين في مواقفهم الصعبة، ومساندتهم ماديا ومعنوياً، ومناصرة الضعيف على القوى، ورد الظالم عن ظلمه، والمسلم حينما يستقيم على أمر الله، يكون في ظل الله ومأمنه.

## العفو والصبر

يقول الله ﷻ: ﴿فَٱعۡفُواْ وَٱصۡفَحُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦٓۗ﴾[٢]، ويقول الله ﷻ: ﴿فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ فَٱعۡفُ عَنۡهُمۡ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾[٣]، ويقول تعالى:

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٣).

(٢) [البقرة: ١٠٩].

(٣) [آل عمران: ١٥٩].

﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩﴾[1]. فالأصل في الداعية المسلم أن يصفح ويعفو ويصبر على الجاهلين،، فإنه ما زاد الله عبدا بعفو إلا عزّا، وما انتقم أحدٌ عزّة لنفسه دون دينه إلا إلا ذلّ، قال المفسرون في قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرۡهُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِۖ﴾، أي: تطييباً لقلوبهم، فيريهم أنه يسمع منهم ويستعين بهم، وإن كان الله ﷻ قد أغناه عنهم، وَلَكِنْ أَرَادَ بذلك الأمر أَنْ يَسْتَنَّ بِهِ مَنْ بَعْدَهُ لأهميته[2].

## حلاوة وطمأنينة

وفي الصفح والعفو والصبر حلاوة وطمأنينة، وشرف النفس وعزها ورفعتها عن تشفّيها بالانتقام ما ليس منه في الانتقام، فمن الناس من يتمسك بحقه فلا يسامح ولا يعفو، قال جعفر الصادق: "لأن أندم على العفو عشرين مرّة أحبّ إليّ من أن أندم على العقوبة مرة واحدة"[3]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (٢٤٠): لو أن طبيباً اختصاصياً بالأمراضِ الجلديَّة جاءه مريض**

---

(١) [الأعراف: ١٩٩].

(٢) ابن أبي حاتم، **تفسير القرآن العظيم** (٣/ ٨٠١). الطبري، **جامع البيان** (٧/ ٣٤٣).

(٣) النمري، يوسف ابن عبد البر، **أدب المجالسة**، تحقيق: سمير حلبي (ص١١٦) مصر، دار الصحابة للتراث – طنطا، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ– ١٩٨٩م.

**مصاب بمرض جلدي خطير ومزعج ومنفّر، هل يحقد عليه ويطرده؟ أم يشفق عليه ويساعده[١]؟**

هذا حال الداعية المؤمن العاقل حينما يُعامل أصحاب المعاصي، فالجاهل في حقيقته مريض يحتاج إلى طبيب حكيم، وهو منحرف يحتاج إلى مؤدّب كثير الصبر، وهو حقود بسبب إعراضه عن تعاليم الله تعالى ويحتاج إلى تربية نفسية تهدي قلبه.

## التخلية ثم التحلية

فالداعية المسلم العاقل يتفحّص ماهيّة المعاصي عند المنحرِف وأسباب ارتكابها، وأسباب إعراضه عن الله تعالى فيعالجها، يقول الشيخ النابلسي موضحا:

**المثل رقم (٢٤١): الطبيب الماهر يبحث عن السبب الخفيّ والحقيقي لارتفاع الحرارة، فإذا كان السبب التهاباً عالج الالتهاب فانخفضت الحرارة، أما إذا عالج الأعراض فقط فإن المرض يعود لأن الأصل موجود، كذلك الداعية[٢].**

والداعية كالطبيب؛ يبحث عن أسباب المعصية فيجتثّ بذورها، ليمرّ العاصي في مرحلة التخلية ثم التحلية، ثم الانسجام في تعاليم دين الله تعالى وشرعه.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤١).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤١).

## التسهيل والتدرّج

يقول الله ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾(١)، ويقول الله ﷻ: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ٢٨﴾(٢). فالدعوة تحتاج إلى التسهيل وعدم التنفير، وقد أمرنا النبي ﷺ بالتيسير في أمرنا كله ونهانا عن التعسير، عن أنس بن مالك، عن النبي ﷺ قال: «**يَسِّرُوا وَلاَ تُعَسِّرُوا، وَبَشِّرُوا، وَلاَ تُنَفِّرُوا**»(٣). فهذا هو منهج التيسير، وهو منهج نبوي محمدي قرآني، لأن القرآن نفسه ربط أحكامه بالتيسير واليسر، فحينما تحدث عن الصيام ذكر رخص الإفطار، وكذلك في أحكام الطهارة، وفي التيمم، قال الله ﷻ: ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجۡعَلَ عَلَيۡكُم مِّنۡ حَرَجٖ﴾(٤)، ويذكر الشيخ النابلسي قصصا طريفة من صور النشاط الدعوي، تصلح أن تكون أمثالا للتقريب والدلالة على هذا المعنى، فيقول:

**المثل رقم (٢٤٢): أسلم أحد الأعاجم في مصر فعلّمه شيخ أزهري أحكام المياه ستة أشهر حتى نَفَرَ من الإسلام، ثم التقى بعالم أزهري آخر فقال له: الماء الذي**

---

(١) [البقرة: ١٨٥].

(٢) [النساء: ٢٨].

(٣) **صحيح البخاري** (١/ ٢٥) رقم (٦٩).

(٤) [المائدة: ٦].

**تشرب منه توضَّأ منه، اختصر له ستة أشهر من الوقت والجهد بكلمة واحدة[(١)].**

نضرب مثالا آخر للتوضيح:

**المثل رقم (٢٤٣): دعا أحدهم عدداً من غير المسلمين إلى الإسلام فأسلموا، كلهم رجال، أمرهم أول شيء بالطّهور(الاختتان)، فرفضوا الدخول في هذا الدين[(٢)]!!!**

فالقرآن حينما نزل منجّماً بالتدريج، والله تعالى قادر أن فرض الأحكام الشديدة دفعة واحدة، وآيات التحريم كذلك، وهذه حكمة الله ﷻ، لذلك تحتاج الدعوة إلى التدرُّج كما هو الحال في نسخ الأحكام في بعض الآيات، فبقاء الآيات المنسوخة تُقرأ إلى هذا الزمان، قدوةٌ وتعليمٌ للداعية بأن يأخُذ الأمر بالتدرّج، لا أن يأخذه بالشدَّة والعُنف.

## الاجتهاد الخاطئ!

الداعية قدوة للأمة، وهو مرآة الإسلام، وعلى الداعية بذل قصارى جهده في معرفة الحق، لقوله تبارك تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُمۡ﴾[(٣)]، فليحذر العالم الداعية من الاجتهاد الخاطئ بأن يقلد الباطل أو يداريه، فإذا انحرف وقلّد،

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤٢).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٤٠).

(٣) [التغابن: ١٦].

وجامل الشاردين عن الله ﷻ فيقول في نفسه: آخذ شيئاً مما عندهم أو استفيد منهم!! فقد انزلق وضاع. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٢٤٤): إذا بلعت السفينة من ماء البحر شيئاً، فإن البحر سوف يبتلعها كلَّها**(١).

فليحافظ الداعية المؤمن على استقامته وعلى طهارته وعلى صفاء قلبه، وعلى طاعته لله ﷻ، فأن يبذل المؤمن دنياه لدينه فهذه مداراة مقبولة ومرغوب بها، أما أن يقدم دينه قربانا لدنياه فهو الخاسر الأكبر.

## تحذير من الذنوب

يقول الله ﷻ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾(٢). وعلى الدعاة التنبيه إلى الذنوب والمعاصي، ومحاربتها بأنواعها بالتناصح على تجنّبها، والحضّ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا دورهم، وخلاف ذلك قد يكون سببا في سخط الله وعقوبته، والدعاة العلماء هم قادة هذه المعركة الشرسة مع دعاة الانحراف والتمدّن المزعوم، فلو تصوَّرنا إباحية العالم مع وجود مرض الإيدز، فكيف تكون هذه الإباحية من دون هذا المرض؟ ويضرب الشيخ النابلسي قصة قديمة حديثة، تصلح أن تكون مثالا من واقع التجربة الجامعية، للتقريب

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٤٢).

(٢) [الروم: ٤١].

والدلالة على هذا المعنى، فيقول:

**المثل رقم (٢٤٥): في سنوات الخمسينات، رسموا عندنا في الجامعة لوحة رمزية لشاب وفتاة تحت عنوان: "احذر غضب الله"، واليوم رسموا نفس اللوحة تحت عنوان "احذر الإيدز"(١)!!**

فقد كان الناس قبل خمسين عاما يجتنبون المعاصي، ويبتعدون عن الزنا؛ مخافة غضب الله تعالى، واليوم فبدل أن يخاف الشابّ ربه، وبدل أن يلبس تاج العفة، فهو يخاف مرض الإيدز!

## الداعية المسلم كمثل مندوب المبيعات!

فالداعية المسلم يقوم بأكرم مهمة، وحسبه شرفاً أنه يقوم بتكليف من الله ﷻ، فهو حامل رسالة الله إلى البشرية كلها على مدى العصور والأجيال، ويدعو نفسه بالمحاسبة الذاتية الدائمة، ومجاهدة النفس والدعاء، وتلاوة كتاب الله وتدارس منهاجه وتدبّره. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لبيان دور الداعية الحقيقي في الحياة فيقول:

**المثل رقم (٢٤٦): الداعية المسلم مثله كمثل مندوبي المبيعات لدى بعض الشركات، يأتون إليها في الساعة الثامنة، فيأخذون التعليمات ويذهبون طوال النهار يبيعون**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥٢).

**ويروّجون بضائع هذه الشركة، وفي المساء يأخذون عمولتهم من الأرباح**[(١)].

تماما كما يأتي المسلم إلى المسجد يسمع تعاليم الإسلام، ثم ينطلق إلى البيت والعمل والشارع من أجل نشرها وتعميمها، مئات التعليمات في العلاقات الاجتماعية ونظام الأسرة، مع الجيران والزملاء في الوظيفة، حتى تصير هذه التعاليم ممارسة يومية يؤديها المسلم تلقائيا من ذاته.

## الداعية وتعلم اللغات

الداعية المسلم الغيور على نشر الدعوة، حريص على تعلم اللغات الحية في العالم، حيث لا يصح أن يتواصل هؤلاء الدعاة مع شعوب العالم بلغة الاشارة!! والإعداد للبرامج الدعوية في العواصم والمدن الأوروبية والأمريكية، وتعديل الصورة المروّعة للإسلام لدى عامة الناس، وتقديم المنح الدراسية للشبان الغرب في بلاد الإسلام ومخالطة المسلمين في بلادهم، وافتتاح المعاهد في المدن الغربية الكبيرة؛ لتكون مراكز استقبال للدعاة المسلمين وملاذاً لهم، لا مراكز اعتقال، لتكون هذه المعاهد بمثابة المنارة التي تنير بنور الإسلام الصحيح؛ لما لها من دور بالغ الأهمية في نشر قيم الإسلام المتسامح وتعليم اللغة العربية، ومواجهة تيارات الغلوّ والجهل. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لبيان فضل تعلّم وتعليم اللغات فيقول:

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٦١).

**المثل رقم (٢٤٧): سمع شخص من اليابان عن الإسلام فقال: إن الله ظلمنا لأن هذا الدين باللغة العربية، قيل له: لماذا تعلمت اللغة الإنجليزية؟ قال: من أجل التجارة!! قيل له: وإذا أردت الحقيقة والجنّة فتعلَّمْ اللغة العربية[١]!!**

فكيف يتعلم هؤلاء الأعاجم اللغة العربية ومعاني القرآن، وأهل القرآن العرب يجهلون الوسيلة لذلك، وهم عاجزون عن أدائها إلى حد كبير، فكم من أبٍ مسلمٍ حرص على أن يكون ابنه عالماً من علماء المسلمين، وداعية من الدعاة الصادقين، ولكنه لم يحرص على دراسة لغة أخرى إلى جانب العربية، وكم منهم تعلّم ابنه طبيباً أو مهندساً في بلاد الغرب، وتعلم لغة أجنبية، ولم يستخدم هذه اللغة في نشر الإسلام أو الدفاع عنه[٢].

## علماء كل مائة عام

يقول الله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾[٣].

المنهج الإيماني: أن يبعث الله على رأس كل مئة عام من يجدد للأمة أمر دينها، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ إِلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا**»[٤]. فكلما انحرف الناس عن جادة الدين الذي

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨٦).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (١٢).

(٣) [البقرة: ٢٥٧].

(٤) أخرجه **أبو داود في سننه** (٤/ ١٠٩)، برقم (٤٢٩١). **والحاكم في المستدرك** (٤/ ٥٦٧)، برقم (٨٥٩٢). وصححه الألباني في **السلسلة الصحيحة** (٢/ ١٤٨) برقم (٥٩٩)].

أكمله الله لعباده، بعث إليهم علماء ودعاة يبصّرونهم بكتاب الله وسنة رسوله الثابتة، ويجنّبهم البدع ويحذرهم محدثات الأمور، ويردّهم عن انحرافهم إلى الصراط المستقيم، بينما الإسلام نفسه محفوظ بحفظ كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾[1].

ويضرب الشيخ النابلسي أمثالا للتوضيح، لبيان طبيعة هذا التجديد فيقول:

**المثل رقم (٢٤٨): حينما نأتي ببناءٍ حجريٍ قديم تراكمت عليه الأتربة والغبار حتى أصبح أسود اللون، فإذا أزلنا هذه الطبقة السوداء، رجع الحجر أبيضا ناصعا، فهذا هو التجديد في الدين**[2].

ويقول الشيخ في مثال آخر:

**المثل رقم (٢٤٩): إذا أردنا أن نجدِّد البناء ليس معنى ذلك أن نضيف عليه غرفةً، ولا أن نحذف منه طابقاً، التجديد هو أن نزيل عن هذا البناء كل ما أضيف عليه**[3].

ويقول في مثال آخر:

**المثل رقم (٢٥٠): اذهب إلى نبعٍ صافٍ عذبٍ زلال تجده أسوداً كالليل من كثرة ما أضيف على هذا النهر من مياهٍ عادمة سوداء**[4].

---

(١) [الحجر: ٩].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٧).

(٣) المصدر نفسه..

(٤) المصدر نفسه.

فإن أرادت الأمة جوهر الدين فلتعُد إلى أصوله، وإلى كتاب الله وسُنَّة رسوله، مصداق ذلك حديث النبي ﷺ: «**إِنِّي قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ شَيْئَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُمَا: كِتَابَ اللهِ وَسُنَّتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ**»[1].

## المنهج الإنساني الصحيح مصدره القرآن

تعاليم القرآن الكريم هي مصدر المنهج الصحيح الذي ينبغي أن يلتزم الإنسان به على الأرض ليحيا حياة آمنة، وهي من عند الله، أنزلها على العباد بواسطة رسله وكتبه من أجل العلم والعمل بها، يقول ﷻ:﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾[2]، وحينما يتعلم المؤمن كلام الله فلا شيء يعلو على هذا الهدف لأنه يتعرف على منهج الله، افعل ولا تفعل، هذا حرام وهذا حلال. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب، فيقول:

**المثل رقم (٢٥١): يتباهى الطالب بأنه تلميذ المدرس الفلاني، أو العالم الفلاني، أو الشيخ الفلاني، يقول: علمني الأستاذ الكبير، فكلما كان قدر المعلم كبيرا كان افتخار الطالب بعلمه أكبر، فماذا يقول إذا كان المعلم هو الله ﷻ[3]؟**

---

(١) أخرجه **الترمذي في سننه** (٥/ ٦٦٣)، برقم (٣٧٨٨). **وأحمد في مسنده** (١٧/ ١٦٩)، برقم (١١١٠٤). **والنسائي في الكبرى** (٧/ ٣١٠)، برقم (٨٠٩٢). وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير وزيادته (١/ ٤٨٢) برقم (٢٤٥٧).

(٢) [آل عمران: ٣].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٨)

## كتبٍ من صنع البشر!!

انفرد علم الإنسان المسلم وتميّز بأن مصدر علمه من علم الله تعالى، وهو يختلف عن علم البشر، فقد علم الله الأنبياء بالوحي، وأول بشر تلقى العلوم من الله تعالى هو آدم ﷺ بدليل قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾[١]، وقد جاء في التفاسير نقلا عن ابن عباس رضي الله عنه في تفسير هذه الآية: "علم آدم الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارف بها الناس: رجل ودابة وأرْض وسهلٌ وبحر وجبل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها"[٢]. وهذا مدعاة للتفاخر والتباهي لأهل القرآن وعلومه بلا منازع، فالشقي هو الذي جاء إلى الدنيا وخرج منها ولم يفهم كلام الله تعالى، وما أتعس الذي أمضى حياته كلها مع كتبٍ من صنع البشر؛ في الأدب والشعر والقصة وعلوم الحياة الدنيا!

## القرآن فيه شفاء ورحمة

قال الله ﷻ: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴿٨٢﴾﴾[٣]. فالقرآن فيه شفاء ورحمة بإقرار الله ﷻ، وفي كل حال

---

(١) [البقرة: ٣١].

(٢) الطبري، **جامع البيان** (١/ ٤٥٦). أيضا: ابن أبي حاتم، **تفسير القرآن العظيم** (١/ ٨٠). أيضا: ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (١/ ٢٢٨).

(٣) [الإسراء: ٨٢].

تبقى حاجة الكون والإنسان ضرورة قصوى لهذا الكتاب العظيم. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للدلالة على أهمية القرآن وعلومه للعقل كحاجة الماء والغذاء للجسم، فيقول:

**المثل رقم (٢٥٢): كيف أنّ شرب الماء فرضٌ على الجسم كي يبقى حياً، وكيف أنّ استنشاق الهواء فرضٌ على الجسم كي يبقى حياً، وكيف أن تناول الطعام فرضٌ على الجسم كي يبقى حياً، كذلك فرضٌ على النفس أن تستوعب هذا الكتاب لأنه منهجها، ولأنه سبيل سلامتها وسعادتها، ولأنه دستورها، ولأن فيه تِبْيان كل شيء**[١].

جاء في الظلال: **هذه التربة من الأرض معلومة الصفات، وإذا أخذها الناس فإن أقصى ما يصوغونها لبنة أو أداة، ولكن الله تعالى يجعل من هذا التراب نباتا وحياة نابضة، تنطوي على سرّ لا يستطيعه البشر، وهكذا القرآن، حروف وكلمات يصوغ منها الناس كلاما وأوزانا ويجعل الله منها قرآنا وفرقانا ونورا، وهذا الفرق بين الكافر الخامد والمؤمن النابض**[٢].

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٩) **وآل عمران للنابلسي**، درس (٣).

(٢) سيد قطب، **في ظلال القرآن (١/ ٣٨)**.

## لا بدّ من كتاب يخبرنا عن أسرار هذا الكون

وبما أن الأصل في المنهج الإيماني أن يلتزم المسلم بتعاليم القرآن، كان لا بد من استيضاح المقاصد والمعاني بهدف التدبر والاستنتاج والاكتشاف، واستخراج المنهج من أصوله ليسترشد به ويهتدي، ويتمثل ذلك كله في قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢﴾[1]، وهو مرجع المسلم في كل ما يعوزه ليحفظ نفسه في الحياة الدنيا، ويرشده لمستقبل آمن في الآخرة، يقول الله تعالى: ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾[2]، لذا، تبدو حاجة الإنسان إلى فهم هذه التفاصيل ضرورية وهامة لكل ما سبق. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٢٥٣): لو دخلت بناءً جامعياً، قد تستنبط من خلال التأمل فيه حقائق كثيرة، إتقان المهندسين للبناء واتصالهم مع الإدارة، القاعات والمدرّجات والحدائق والملاعب والمختبرات، أنظمة التكييف، قد تستنتج أن جهدا كبيرا وأموالا طائلة قد أنفقت على إقامة هذه الجامعة، ولكن، مهما تأمل الفاحص في هذا البناء الواسع لن يستطيع معرفة أية تفاصيل داخلية[3].**

لن يستطيع أن يستنبط كم كليّة في هذه الجامعة؟ وما هي شروط التسجيل

---

(١) [البقرة: ٢].

(٢) [يوسف: ١١١].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٢).

والقبول في كل كلية؟ وما هي أقسام الكليات؟ والمواد المقررة في كل قسم؟ ما هو النظام الداخلي؟ إذن، لا بد من كتاب! دليل الجامعة لشرح هذه التفاصيل! تقرأه لتعرف عن ذلك كله!! كذلك الكون، فإذا تأمل الإنسان العاقل في الكون، عرف أن له خالقا ومربيا يمدّ مخلوقاته بما يحتاجونه، هذا كله يستنبطه بالتأمل، أما عن أسباب خلقه ووجوده، وعن طريق السعادة والأمان، والسلوك السوي المتلائم مع خلقه وفطرته، والتمييز بين الخير والشر، والفضائل والرذائل، وما يجوز عمله وما لا يجوز، فهذا يحتاج إلى بحث واكتشاف، ويخبرنا به الخبير العليم في الكتاب! يقول الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[1].

## شكليات وكتابات قرآنية على الجدران

منهج الإسلام الحقيقي أنه علم وعمل، يصدّق ويُترجم كلا منهما الآخر، نجد مثلاً بنوداً في كسب المال وفي إنفاقه، وبنودا في الزواج والطلاق ونظام الأسرة، وبنودا في الجلوس والمجالس، والحِرف، والسفر والإقامة، وقوانين الحرب والسلم والعلاقات الدولية، وهو منهج تفصيلي كامل، أما حينما تكون هذه البنود بعيدة عن التطبيق، فالمنهج الإسلامي يتحوّل إلى شكليات برّاقة، وكتابات قرآنية على الجدران. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب، فيقول:

---

(١) [الأنعام: ٣٨].

**المثل رقم (٢٥٤): لو تصورنا حاسوبا طبيا متطورا جدا ثمنه ثلاثون مليونا، يضع صاحبه عليه نقطة دم، فيعطيه سبعة وعشرين تحليلا في كبسة زر واحدة، قدرته على العمل عالية، ويشكل مصدر دخل هائل لصاحبه، هل يمكن لصاحبه أن يعطّله أو يستعمله طاولة[١]؟؟**

هذا تعطيل خطير من قبل إنسانٍ جاهلٍ في التعامل مع جهازٍ عظيمٍ، وفريدٍ ونادرٍ صُنع خصيصاً من أجل خدمة البشرية، وهكذا يلجأ الإنسان إلى هواه وغاياته العوجاء، ومصالحه الهوجاء؛ لتعطيل منهج الله تعالى وتعاليمه، لتضيع بذلك الأهداف العظيمة للأشياء، وتفقد القيم معانيها ومحتواها.

### نضرب مثلا آخر للتوضيح:

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر من واقع الحال للتوضيح، فيقول:

**المثل رقم (٢٥٥): أيستخدم إنسانٌ سبيكة من الذهب الخالص أداة منزلية[٢]!؟**

إنها خسارةٌ عظيمةٌ لصاحبها، وسخافةٌ أعظمُ حين يجهل أداةً غاليةً وثمينةً جداً تساوي مئات الملايين ليستخدمها أداة في مطبخ، وهكذا الحال حينما يعطل أصحاب الأهواء قول الله تعالى ومنهجه وتشريعاته، يقولوا تارة بأنها قديمة لا تتلاءم وقضايا العصر، وتارة يهاجمون عقوبة قطع اليد، أو الجلد والرجم، أو الميراث، فهم يقبلون بعض هذه الأحكام ويمقتون بعضها، مع أن هذه

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٦٢)

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٧١).

الأحكام تصدّ الظالم وتنصر المظلوم وتحكم بالعدل في كل الأحوال، فكيف لو كانت خلاف ذلك!؟

## الإسلام مائة ألف بند في العبادات والمعاملات!

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح استوحاه من صناعة المركبة، فيقول:

**المثل رقم (٢٥٦): هذا الدين منهج كامل، كهذه المركبة تحتاج من أجل أن تمشي إلى محرِّك، وإلى عجلات، وإلى وقود، ومقود، ومنبّه، وكهرباء، وفرش، وإضاءة، أما إذا اشترى الإنسان عجلات فقط، فهذه ليس سيارةً[1]!!**

فكلُّ أداةٍ مما سبق تمثّل جزءاً هامّاً وضروريّاً من السيارة، ولا يفيد أحدها إذا استخدمت منفردة دون غيرها، ولا تُسَمَّى المركبة باسمها المألوف والمعروف إلا إذا استوفت كل هذه الأدوات، فمن أجل أن تصل إلى الله ﷻ وتصطلح معه، لا بُدَّ من أن تستكمل منهجه من عناصر الدين كلها دون استثناء أحد منها أو استجلاب آخر غريب عنها، فالإسلام مائة ألف بند في العبادات والمعاملات، وكل واحدة من هذه البنود تشكل لبنة في بناء الأمن والطمأنينة في المجتمع، فالعلم والعمل هو أن يُؤْثِرَ المؤمنُ ربه على شهواته ليصل إلى مرتبة عالية عند الله، وهما طريقان شاقّان للوصول إلى الجنة.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٢).

## كيف إذا أضيف إلى اسمك كلمة مؤمن؟

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (٢٥٧): حتى تضع إلى جانب اسمك حرف دال؛ الدكتور فلان، كم سنة تدرس؟ ومع كم أستاذ تلتقي، وكم من كتاب تقرأ؟ وكم بحث تعيد صياغته؟ وكم بلد تسافر؟ فكيف إذا أضيف إلى اسمك كلمة مؤمن، المؤمن فلان[١]؟**

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر للدلالة على أهمية العلم والعمل من أجل تحقيق اللقب الوظيفي، والوصول إلى درجة الذروة والتفوق، يقول:

**المثل رقم (٢٥٨): لو سمعت أن ملكًا تم تنصيبه في بلد بعيد، تقول متحسّرا: لماذا لم أكن أنا مكانه؟ مستحيل أن تكون مكانه؛ فأنت لست من ذاك البلد، وليس عندك مؤهلات لهذا المنصب الرفيع[٢]!!**

ومن أجل أن تكون مؤمنا يجب عليك أن تكون أولا من أهل الإيمان، والإيمان الحقيقي أن يؤمن العبد بالله إيمانا يحمله على الطاعة الحقيقية، وبأن لا يخالف قوله فعله، يقول الله تعالى: ﴿خُذُواْ مَآ ءَاتَيۡنَٰكُم بِقُوَّةٖ وَٱسۡمَعُواْۖ قَالُواْ سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾[٣]. فإذا قالوا: ﴿سَمِعۡنَا وَعَصَيۡنَا﴾ أي: قالوا بلسانهم سمعنا،

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٣٩).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٣٩)

(٣) [البقرة: ٩٣].

وكأنهم قالوا بنيّاتهم وقلوبهم عصينا، بسبب أنهم لم ينفذوا ما قالوا، والله تعالى يريدهم أن يسمعوا سماع طاعة وعمل، ولكنهم سمعوا ولم يفعلوا فكأن عدم فعلهم معصية، فهم يخالفون أمر الله ويكذبون عليه[1]، فكيف يكون هذا المخالف عالما إن لم يكن عاملا ولو حمل أرقى الشهادات العلمية؟

## سلوكه المنحرف يناقض هذا الوصف!!

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (٢٥٩): إذا ادعى إنسان بأنه مطّلع على مقالات ونشرات تبيّن أضرار التدخين وهو يمارس التدخين، فهذا معلوماته لا قيمة لها، ولن يصدقه أحد**[2].

فكيف يكون هذا المخالف عاقلاً ويدعي الفهم إذا كان العقل والفهم لم يردعاه عن آفة التدخين!! فالإيمان الحقيقي حينما تؤمن بالله إيمانا يحملك على طاعته، وعلى تحري الحلال وترك الحرام، أما الإيمان الشكلي فلا قيمة له. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٢٦٠): لو أصيب إنسان بمرضٍ جلدي لا يُعَالَج إلا بالتعرُّض لأشعَّة الشمس، فلو بقي في غرفةٍ مظلمةٍ سنوات وأشعَّة الشمس ساطعةٌ خارج الغرفة، وقال: أنا مؤمنٌ بأن الشمس ساطعةٌ ولكنه لم ينتفع بها، فلا قيمة لإيمانه**

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١/ ٤٦٧).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٥٤)

**بهذه الحقيقة**[١].

فلو أنه عَلم عِلم اليقين بذلك وأقر بلسانه وبقلبه ولكن دون أن يعمل به فما قيمة علمه وإقراره؟؟ والإنسان إذا أقرّ أن الله خلق الكون ولم يأتمر بما أمر، ولم ينته عما نهى، فلا قيمة لهذا الإيمان؟

قال صاحب الزبد[٢]:

وعالمٌ بعلمه لم يعملن معذَّبٌ من قبْل عُبَّاد الوثن[٣]

## حرية الاختيار

منهج الله هو اتباع أوامر الله تعالى ونواهيه: افعل ولا تفعل، وهذه لا بدّ لها من استيعاب العلم الشرعي وتطبيق عملي دقيق واتباع جادّ وملتزم، ليأخذ بيد

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣١)

(٢) هو الإمام الشيخ العالم أحمد بن الحسين بن حسن بن رسلان، صاحب كتاب متن الزبد في الفقه على مذهب الإمام الشافعي ﷺ، ولد في الرملة بفلسطين سنة (٧٧٣هـ)، وتوفي في بيت المقدس سنة (٨٤٤هـ)، كان أعظم أهل عصره اتباعا للسنة، ومنارا يهتدي به السالكون، وإمام الناسكين، يحبه الناس. [شمس الدين السخاوي، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** (١/ ٢٨١). **الأعلام للزركلي** (١/ ١١٧)].

(٣) ورد هذا الشعر في **الدُّرَرُ السَّنِيَّةُ في الأجوبة النجدية**، تأليف علماء من نجد، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم(١/ ٩٧) و(١٢/ ٢٦٥)، ط٦، د.م.ن، (١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م).

المؤمن إلى برّ الأمان، وإلا فاتباع طريق الهوى والأهواء، والمصير بعدها إلى الهاوية، يقول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾[1] ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٢٦١): هناك أمرٌ تكليفيٌّ وهناك أمرٌ تكويني، والأمر التكليفي طريق سالك لكن في أوله لوحةٌ كُتِبَ عليها ممنوع المرور[2]!**

فالطريق إلى القتل والسرقة وشرب الخمر سالكة، ولكن الإشارة في أول هذه الطريق تحذّر السائق بعدم الدخول، فهو إما أن ينصاع للأوامر فيُسلم ويفوز بالجنة، وإما أن يُخالِف فيُعذّب. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (٢٦٢): طالب في المدرسة، هو مخيَّر، فهو إما أن يدرس وينجح، فيقام له احتفال تكريمي، وإما أن يرسب فيوبّخ[3]!!**

ففي كلا الأمرين اختيار، إما اجتهاد يتبعه تكريم، وإما فشل يتبعه توبيخ، وكل منهما يُحاسب عن نتيجة اختياره.

---

(١) [القصص: ٥٠].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٢).

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٢).

## الاختيار الخاطئ يودي إلى الهاوية

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر للتوضيح، فيقول:

**المثل رقم (٢٦٣): فالمركبة حين يقودها سائق متدرب ومنضبط بالقوانين وإشارات المرور يصل إلى المكان بأمان وسهولة، أما إذا كان السائق جاهلا ولا ينضبط بالقوانين فإنها تودي به إلى الهاوية[١]!!**

فالأمان والخطر في هذا المثل ناتج عن أداء السائق ومتعلق به، لأنه مكلف باستيفاء الشروط القانونية اللازمة لأداء هذا العمل، والانتباه وأخذ الحيطة والحذر، وهذه كلها أمور اختيارية.

## لا معنى للإنسان الذي تصرعه الشهوات

وفي مثال توضيحي آخر ذي صيغة مختلفة في اللفظ واختيار المفردات، مع توافق في القصد والمعاني، يقول الشيخ:

**المثل رقم (٢٦٤): أهمية المنهج في حياة البشر كالمركبة ولها مقود، فإذا كان هذا المقود سليما وقويا ومضبوطا، فإنه يوصلها إلى برّ الأمان[٢].**

فإذا أصاب مقود هذه المركبة خلل واضطراب، يخرج ضبطها عن سيطرة السائق، فتصطدم بالبشر والحجر والشجر، فيؤذي السائق نفسه ويؤذي غيره،

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٢).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣).

فالإنسان والمركبة يحتاج كلاهما إلى منهج سليم ينضبطان به ليصلان إلى برّ الأمان، وتعاليم القرآن هي ذاتها المنهج الحق للإنسان، ولا معنى للإنسان الذي تصرعه الشهوات الكثيرة من غير هذا المنهج، يقول الشيخ النابلسي في مثل آخر للتقريب، للدلالة والتأكيد على ما سبق من أمثلة:

**المثل رقم (٢٦٥): إن حياة الإنسان بلا منهج كالمركبة بلا سائق، تنطلق بسرعة عالية في طريق كله منعطفات، واد سحيق عن يمين، وواد سحيق عن شمال[١]!!**

## فأي مصير ينتظر هذه المركبة؟

فأي تصوّر يمكن للإنسان أن يتصوره! مركبة مندفعة بلا سائق وبلا أنوار، وتنطلق بسرعة عالية بين منعطفات وأودية سحيقة!! فأي مصير ينتظر هذه المركبة وهؤلاء المنحرفين عن منهج الله السويّ الواضح، يتحاكمون إلى شيء آخر وإلى منهج آخر غير ما أنزل الله تعالى، لا ضابط ولا ميزان لهم، بل لا يقفون عند ميزان مضبوط أبدا! وهم لا يفعلون هذا عن جهل ولا عن ظن، بل هو العمد والقصد[٢]. قال الغزالي[٣]: "يا نفس، لو أن طبيبا حذرك من أكلة

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٢).

(٢) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٢/ ٦٩٤).

(٣) محمد بن محمد بن محمد الغَزَالي الطوسي(٤٥٠ - ٥٠٥ هـ)، أبو حامد، حجة الإسلام: فيلسوف، متصوف، له نحو مئتى مصنف، مولده ووفاته في الطابران (قصبة طوس،

تحبينها لا شك أنك تمتنعين، أيكون الطبيب أصدق عندك من الله؟ إذا ما أكفرك!"[(١)].

## الإنسان إذا تحرك بلا منهج فهو كالدّابة!

فالأصل في نشاط الإنسان أنه يتحرك بدافع من شهواته إما وفق منهج وإما بلا منهج، فهو حرّ الاختيار، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾[(٢)]، فإذا تحرك الإنسان وفق منهج إيماني فهو منضبط بما أمر الله به، أما إذا تحرك بلا منهج فهو مضطرب كالدّابة المتفلتة، يضع الأشياء في غير مكانها، ويقيس الأمور على هواه ووفق مصالحه دون النظر إلى عواقب الأمور.

---

بخراسان)، رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر، وعاد إلى بلدته، نسبته إلى صناعة الغزل (عند من يقوله بتشديد الزاي)، أو إلى غَزَالة (من قرى طوس) لمن قال بالتخفيف، من كتبه (إحياء علوم الدين) و(تهافت) و(الاقتصاد في الاعتقاد). [**الأعلام للزركلي** (٧/ ٢٢)].

(١) الغزالي، محمد بن محمد الغزالي أبو حامد، **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت(٣/ ٣٨٠) (٤/ ٧) (٤/ ٤٠) (٤/ ٥٠).

(٢) [الإنسان: ٢-٣].

## السكر والملح ومسحوق الغسيل!

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً من واقع الحياة فيقول:

**المثل رقم (٢٦٦): السكر مثلا مادة مفيدة وهامة، والملح مادة مفيدة وهامة، ومسحوق الغسيل كذلك، فلو طبخت طعاما غاليا جدا وأضفت إليه مسحوق غسيل فهل يؤكل؟؟ قطعا لا، علما بأن المواد كلها مفيدة وهامة[١]!!**

فالمنهج الصحيح، أن نضع كل مادة وأداة في دائرة الاستخدام الصحيح، أما إذا كان هذا الإنسان مبصرا من غير بصيرة، فإنه قد يضع الشيء مكان الشيء فيفسد كل شيء على السواء.

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر فيقول:

**المثل رقم (٢٦٧): الفتاة التي وهبها الله جمالا، فنجاحها أن يكون جمالها لزوجها فقط، أما إذا تطلعت إلى عمل في المجال الفني كي يستمتع بجمالها كل الناس فقد سقطت ورسبت[٢]!!**

إن جمال الفتاة أو مسحوق الغسيل ليسا شرّاً؛ بل الشرُّ سوء استخدامهما، كذلك نجد أن وسائل الإعلام المتعددة؛ كالتلفزيون، ومواقع الإنترنت، والصحف والمجلات، والهاتف، كلها أدوات مفيدة وهامة، ولكن الشر فيها يكمن في سوء الاستخدام.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥١).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٦).

## المنهج الإلهي متوافق مع الفطرة الإنسانية

فمنهج الله تعالى يتوافق مع فطرة الإنسان، بحيث لو انحرفت هذه الفطرة عن هداية الله ومنهجه تضيقُ نفسه وتشقى روحه، تصديقا لقول الله تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾[1]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لبيان هذا المعنى فيقول:

**المثل رقم (٢٦٨): إذا دخلت إلى بيتك، وجدت مفتاح الكهرباء على ارتفاع متر ونصف، وهو ارتفاع مناسب من أجل إضاءة البيت، ما قولك لو أن هذا المفتاح في أعلى الحائط وتحتاج إلى سلم عند كل إضاءة!! أو كان في أسفل الحائط ولا بُدَّ أن تنبطح في كل مرة[2]!!**

هذا يعني شقاء صاحب البيت إذا أراد إنارة الغرفة في كل مرة، فالإسلام هو دين الفطرة، وليس أقدر من كتاب الله تعالى على بناء الأنفس والمجتمعات على الفطرة، وإعادة بنائها على موازينها السليمة، أو ترميمها إذا حصل فيها انحراف أو ضلال!

---

(١) [الأنعام: ١٢٥].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٥٧).

## لولا الفطرة لما تاب أحد من ذنبه

وكما أن الأدوات في المنزل توافقت مع حاجة الإنسان ورغبته كما ذكر الشيخ النابلسي في المثل السابق، ولو كانت هذه الأدوات في غير مكانها لاستحالت حياته إلى شقاء، كذلك فطرة الإنسان، فإنها تتوافق مع العفة والصدق، وتحبّ الوفاء، ويعجبها الإحسان والرحمة، ولولا الفطرة لما تاب أحد من ذنبه، فالمنحرف يتألم ويندم ويبكي، وإذا أخطأ عذبته فطرته، ذلك بسبب التوافق التام بين الفطرة ومنهج الله.

## منهج الله يتفق مع خلق الإنسان

وعن النواس بن سمعان الأنصاري[١] رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن البرّ والإثم فقال: **«الْبِرُّ حُسْنُ الْخُلُقِ، وَالْإِثْمُ مَا حَاكَ فِي صَدْرِكَ، وَكَرِهْتَ أَنْ يَطَّلِعَ عَلَيْهِ النَّاسُ»**[٢]. فالبرّ والهدى ما اطمأنّت إليه النفس وهدأت معه الجوارح، لأن

---

(١) هو النواس بن سمعان بن خالد بن عمرو بن قرط بن عبد الله بن أبي بكر بن كلاب العامري الكلابي، معدود في الشاميين، له ولأبيه صحبة وحديثه عند مسلم في صحيحه، يقال: إن أباه سمعان بن خالد وفد على النبي ﷺ وأعطاه نعليه وزوّجه أخته، فلما دخلت عليه تعوّذت منه فتركها. [الأصبهاني، **معرفة الصحابة** (٣/ ٢٠٤)].

(٢) صحيح مسلم (٤/ ١٩٨٠) رقم (١٤ - ٢٥٥٣).

ذلك هو منهج الله الذي يتفق مع خلق الإنسان، وهو هُداه الذي يتوافق مع فطرة النفس البشرية، ويسير معها جنبا إلى جنب أينما سارت. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٢٦٩): لو جئنا بخريطة مجسّمة لسوريا وصببنا عليها جبسا، ينتج عن ذلك قالبٌ متوافقٌ مائة بالمائة، يمكن أن نقول بأنه المنهج الإلهي والخريطة هي النفس الإنسانية، فالمنهج الإلهي مع فطرة النفس متوافقان توافقا عجيبا"[1]!!**

فالعفة مثلا لا تحتاج جهداً كبيراً عند لقاء شاب مع أخته أو زوجته، بينما يكون القلق بادياً عند لقاء عشيقين سرّاً؛ لأن الأول يتوافق مع فطرة الله تعالى في خلق الإنسان، والثاني يختلف معها؛ وفيه تبديل لخلق الله"[2]، تصديقا لقوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِۚ﴾[3].

## توافق منهج الله مع فطرة الإنسان

فالتوافق الفطري بين مصلحة الفرد وقوانين الشرع، دَعَوَا العقلاء إلى الاحتكام إليها لا إلى القضاء الوضعي ما يدلّ على توافق منهج الله تعالى مع فطرة الإنسان، ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لزيادة التوضيح والإقناع، فيقول:

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٢)

(٢) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٥/ ٢٦٨٨).

(٣) [الروم: ٣٠].

**المثل رقم (٢٧٠): لو أن شركة عالمية صنعت مليون سيارة، فكل الأجهزة وقطع الغيار واحدة في أي مكان في العالم، فإذا اشتريت أية قطعة منها فإنها تأتي في المكان الصحيح، لأن الصانع واحد، والقياسات كلها واحدة[1].**

فما دام الصانع واحداً فالقياسات كلها متلائمة ومؤتلفة، ولا يتعارض أحدها مع الآخر أو مع المجموع، والمنهج فيها كأنه سلسلة دقيقة، كل حلقة فيها تشكل لبنة ترتكز عليها أختها ليكتمل البناء فيصير صرحا شامخا.

## دين الإسلام تستقيم به حياة كل البشر

الرسالة المحمدية أعظم لبنة يستقيم بها دين الله في الأرض، وتستقيم به حياة كل البشر، وتعتدل بها الشرائع السماوية الأخرى المنسوخة. ويضرب الشيخ مثالا آخر للتوضيح في ذات الموضوع فيقول:

**المثل رقم (٢٧١): فني ميكانيك يعمل في إصلاح السيارات، نزع قطعةً من المركبة وقال: لا لزوم لها! قيل له: ولكن لا يُصدّق أن هناك خمسة آلاف مهندس في شركة عريقة جداً عمرها مائة سنة كلهم مخطئون، وأن تكون أنت أفهم من هؤلاء جميعا[2]!!**

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٤).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥٥).

### نضرب مثلا آخر للتوضيح:

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٢٧٢): عندك جهاز كمبيوتر أصابه خلل، وبجانب بيتك محلّان؛ محل صيانة كمبيوتر وبقّالة، هل يمكن أن تدفع هذا الجهاز لصاحب البقالة[١]؟**

## اللّه خالق البشر خبير في أمورهم

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لمن يرد أن ينقذ نفسه من الانزلاق وفوضى التخبّط فيقول:

**المثل رقم (٢٧٣): لو كان لديك جهاز كمبيوتر وأصابه خلل، فأنت تذهب به إلى الخبير، تقول له: افعل ما تريد، فأنت مع الخبراء مستسلم، ومع الأقوياء مستسلم[٢].**

يظهر أن الشيخ النابلسي اقتبس هذين المثلين من تفسير الشيخ الشعراوي، حيث ورد في خواطره في هذا السياق: **إنه من الحمق أن يصنع صانع صنعةً ما، ثم ينسى أن يضع لها قانون الصيانة، والإنسان في حدود صناعته لا ينسى ذلك، فما بالنا بالحق سبحانه بطلاقة قدرته[٣]؟**

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥٥).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٤٦).

(٣) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٣/ ١٦٥٥).

فمن يرد أن ينقذ نفسه من الانزلاق وفوضى التخبّط، ويفوز بالسلامة والطمأنينة الحقيقية، فعليه أن يخضع لمنهج الله في (افعل) و(لا تفعل). ويضرب الشيخ الشعراوي مثلاً آخر فيقول: **إن المهندس الذي يصنع التليفزيون هو الذي يضع له قانون التحكم والصيانة، أو ما يسمى (الكتالوج)؛ لأنه هو الذي صمم الآلة، وهو الجدير بأن يضع لها قانون صيانتها، فيعلمنا: المفتاح هذا لكذا، وهذا للصورة، وهذا للصوت، إن الذي خلق الإنسان هو الذي يضع له قانون صيانته المتمثل في «افعل ولا تفعل»**[1].

وقد يُتوصّل من ضرب هذه الأمثال إلى استنباط عام؛ أنه لا يُصدّق أن مخلوقاً يصيب والتشريع يخطئ، فالله هو الخالق وهو الخبير، فكما أن جهاز الكمبيوتر إذا أصابه خلل يدفعه صاحبه للخبير المختص، ولا يدفعه لصاحب البقالة أو بائع الخضار، لأن هذا ليس من اختصاص أيّ منهما، فالعبرة أنه كلما ازداد إيمان الإنسان بالله ازداد تعظيمه لشرع الله، وهذه حكمة أرادها الله.

## خالق الإنسان في العالم كله إله واحد

وللدلالة على هذا المعنى، يذكر الشيخ النابلسي مثلاً آخر للتوضيح، من مجال الطب والدواء فيقول:

**المثل رقم (٢٧٤): طبيب يدرس الطب في أمريكا، والدواء مصنَّع في كندا،**

---

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٤/ ٢١٣١).

**والمريض في اليابان، فيأخذ المريض هذا الدواء فيسكن ألمه[١]!!**

فالسبب أن بنية خلق الإنسان في العالم واحدة، وفطرتهم وحاجاتهم واحدة، فالعبرة في تشابه الخلق من حيث البُنية والتطابق التام في البناء والتصميم بين كل البشر، وهذا سرّ نجاح الطب البشري وتطوّره المتراكم.

## يختل توازنه وتضطرب حواسّه

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للدلالة على السجيّة الأخلاقية المتلائمة والفطرة البشرية فيقول:

**المثل رقم (٢٧٥): إذا سُرِقَ قلمٌ في صفّ، واشتكى صاحبه إلى الأستاذ، فأغلق الأستاذ الباب وفتَّش الطلاَّب طالبًا طالبًا، ثمَّ أخرج هذا القلم من جيب أحد الطلاب، تضطرب حواسّه، ويمتقع لونه، ويذوب من الخجل[٢]!**

أما لو حصل هذا الطالب على شهادة تقدير فإنه يستبشر ويتلألأ وجهه، لأنه هكذا فُطِر؛ فحينما يعصي الله، أو يرتكب إثماً أو معصية، أو شهوة لا تتفق مع منهج الله، يختل توازنه الخارجي والداخلي، ولا يستعيدهما إلا بالصلح مع الله، والتوبة إليه وطاعته.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٥).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٢).

## الإنسان مبرمج بالفطرة

فالانسان مبرمج بالفطرة التي فطره الله عليها، لا يحيد أو يلتوى عنها، فإن حاد عنها اضطربت حواسه وتنغّصت حياته، وأصبح يعيش في شقاء، وللدلالة على هذا المعنى يضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (٢٧٦): المركبة مصمّمة لتمشي على طريقٍ سهل ومُعَبَّد، فإذا سار السائق في طريق وعر سمع لها أصواتا واضطرابا، وقد تتعطل!! أما المدرّعة فهي مصمّمة لتمشي على طريقٍ متعرّج وعر، فلا تتحطم لأنها استعملت وفق أصل تصميمها[١]!!**

فالشاهد في هذا المثل، أن الخطأ يكتشفه الإنسان ذاتياً بفطرته السليمة، كما يشعر بالحرج والضيق إذا حاك الإثم في صدره، وكما يضطرب سائق المركبة إذا سار على طريق وعر لا يتناسب وتصميم المركبة، فالإنسان مبرمج بالفطرة على حب الخير، والمؤمن تهمّه تعاليم دينه واتباع منهجه طائعاً مختاراً، حذراً يترقّب أمر ربّه باهتمام، ويُحاسِب نفسه قبل أن يُحاسَب.

## النفس المؤمنة تترقب حالها بحذر

ويستوحي الشيخ النابلسي مثلاً في توضيح حال هذا المؤمن، فيقول:

**المثل رقم (٢٧٧): لو أن إنسانا يعاني ضغطاً مرتفعاً في دمه وأراد أن يجري**

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٢)، والدرس (٤٧).

**فحصاً، تجد عينيه على المؤشّر يترقب النتيجة!! تكاد عيناه تخرجان من مكانهما ليرى مكان المؤشّر"[1]!!**

كذلك النفس الإنسانية المؤمنة؛ حينما تكتمل اطمئنانا إذا اجتمعت مع فطرتها على حُبّ الكمال والعدل والإحسان، تترقب حالها بحذر وهي تطبّق تعاليم ربها المتلائمة مع خلقها، فإذا سالت نقطة ماء في زور الصائم عند الوضوء في شدة الحرّ فإنه يحاول إخراجها بكل قواه، ولو خرجت معها روحه حتى لا يضيع أجره، أما إذا ارتكب معصية تجده يراقب من حوله باهتمام شديد ويسرع بالاختفاء.

## الإيمان الفطري يلزمه علم شرعي

وكما أن الإيمان الفطري يتوافق مع حاجة الإنسان ورغباته، إلا أنه يلزمه علم نافع وعمل صالح من أجل تلبية هذه الرغبات، يقول الله ﷻ: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾﴾[2].

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٢).

(٢) [البقرة: ١٧٧].

فالإيمان الفطري بالله تعالى منهج رباني يلزمه علم نافع وجادّ، وقد تميّز هذا الدين بالزخم الروحي والقيم الرائعة والسلوك المنضبط، ثم مع مرور الزمن تراخى الناس وأصبح الدين شكلاً، وصار يفرغ من مضمونه شيئاً فشيئاً، حتى صار فلكلوراً ورقصاً وأناشيد، وشهادات عليا، وألقاباً علميةً، ومؤتمراتٍ ومكتبةً إلكترونية.

## كشف الصورة وبيان أسرارها

ويضرب الشيخ النابلسي أمثالاً للتقريب والدلالة على حقيقة أحوال المسلمين في هذا الزمان، فيقول:

**المثل رقم (٢٧٨): كطالب المدرسة؛ ملابسه نظيفة، وشكله أنيق، ودفاتره مرتبة وجذّابة، ولكن هذا الطالب كسول، استحق في كل الدروس أصفاراً[1]!!**

ومن أجل كشف الصورة وبيان أسرارها الكامنة خلف هذه الألوان البراقة والمدهشة، ومدى تباهي الأمة الإسلامية بأمجادها وتاريخها دون العمل على إحياء وإعادة هذه الأمجاد، ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح في سياق هذا المعنى فيقول:

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٧).

## أمة مشرّدة ضعيفة تتباهى بأمجادها!

**المثل رقم (٢٧٩): لو أن ابناً جاهلاً لا يقرأ ولا يكتب، وله أبٌ عالِمٌ كبير، أمضى هذا الابن حياته في مدح أبيه أمام الناس، هل يرتقي[١]؟**

فكثير من الناس مؤمنون بالفطرة، يحتفلون بالمولد النبوي ويدّعون محبّة الرسول محمد ﷺ، ولكن تجد أعمالهم خارج المسجد مخالفة لسنّة نبيّه، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَى صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»[٢]، وعَنِ ابن عَبّاسٍ رضي الله عنهما أَنّ النّبِيّ ﷺ قَال: «**لَوْ يُعْطَى النَّاسُ بِدَعْوَاهُمْ، لادَّعَى نَاسٌ دِمَاءَ رِجَالٍ وَأَمْوَالَهُمْ**»[٣]، فكلَّ إنسانٍ يدّعي ما يريد ويقولَ ما يشاء، غير أن الحقائقَ تكذِّبَ ذلك القولَ أو تصدِّقُه، قال الحسن البصري رحمه الله: "زعم قومٌ أنـهم يحبّون اللهَ فابتلاهم الله بهذه الآية: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ﴾[٤]"، وقال بعض الحكماء: "ليس الشأن أن تُحِبّ، إنما الشأن أن تُحَبّ". وقال ابن كثير رحمه الله في الآية السابقة: "هذه الآيةُ الكريمة حاكمةٌ على كل من ادّعى محبة الله وهو على غير الطريقة

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٧).

(٢) **صحيح مسلم** (٤/ ١٩٨٧)، (٢٥٦٤).

(٣) **صحيح مسلم** (٣/ ١٣٣٦)، رقم (١٧١١)، ومعنى الحديث: أي بما يدّعيه البعض، بسبب التمنّي والتشهّي والأطماع، لاختلطت الحقوق والأموال والدماء وضاعت.

(٤) [آل عمران: ٣١].

المحمدية، فإنه كاذبٌ في دعواه حتى يتّبع الشرعَ المحمدي والدينَ النبوي في جميع أقوالِه وأفعالِه"(١).

## تقليد زائف لا قيمة له!

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً من واقع الحال للدلالة على أن التقليد الزائف لا قيمة له دون عمل نافع وجادّ، فيقول:

**المثل رقم (٢٨٠): لو أن إنساناً يحمل أعلى الشهادات في العالَم، وله مائة كتاب من تأليفه، وعنده خادم يخدمه، وفي غيبة هذا العالِم الكبير جاء هذا الخادم وقفز وجلس على كرسيٍّ سيده، هل يرقى(٢)؟**

لا يرقى أبداً، ولو أمسك الهاتف كما يمسكه سيده، وامتلك قلما ثمينا، وتلفظ بألفاظ أجنبية، ومصطلحات، وارتدى ثوباً أبيضاً، هذا شيء لا يقدِم ولا يؤخِّر، لأنه لم يتهيّأ صعود الجبال، بل تهيّب من ذلك فعاش أبد الدهر بين الحفر، فالإيمان الفطري على هذا الحال لا يكفي، أما إذا أخذ الثانوية، ودخل الجامعة، ونال الشهادة فعلاً، فقد بدأ يسلك طريق سيّده.

---

(١) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (٢/ ٣٢).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٣٧).

## الفصل بين العمل الحقيقي والعمل الهزلي

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر للدلالة والفصل بين العمل الجادّ والعمل الهزل، فيقول:

**المثل رقم (٢٨١): لو جلست مع رجل حصل على شهادة دكتوراه فخرية خلال احتفال تكريمي أقيم له في بلد مجاور، وبالمقابل جلست مع رجل حصل على شهادة دكتوراه حقيقية درس وعمل لها ثلاثين سنة[١]!!**

هذا الرجل يستحق أن يُكرّم بجدارة، فالمنهج الملائم لواقع الأمة المعاصر هو العلم النافع المرتبط بالعمل الصالح بهدف النهوض بالأمة، لا تنصيب الشهادات الأكاديمية على الجدران،

## مجرد طقوس وشعائر!

ثم يضرب الشيخ النابلسي مثلا للتوضيح، يتابع فيه كشف حقيقة هذه الصورة الخادعة، فيقول:

**المثل رقم (٢٨٢): تصوّر!! أربع محلات تجارية خالية من البضاعة تماما، وتوجد لافتات مضيئة ومدهشة على أبواب هذه المحلات، واحدة كتب عليها ألبسة جاهزة، وأخرى مواد غذائية، وأخرى مطرزات وأجواخ، مجرد لافتات فقط وليس في هذه المحلات أية بضاعة تباع، ويوجد صراع ومنافسة بين أصحاب**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٩).

**هذه المحلات[١]!!**

فالإيمان الفطري يلزمه العمل الجاد في نصرة الإسلام وأهله، وجهد وجهاد لتحقيق هذا النصر، وحمايته بعد تحقيقه، وهو ليس مجرد تصور اعتقادي ولا مجرد طقوس وشعائر تعبدية، أو أصواتا في القاعات أو صراخا على المنابر[٢].

## المؤمن الحقيقي

ثم ظهرت الحاجة ماسّة إلى المؤمن الحقيقي الذي يرتدي أخلاق الإسلام، ويصلي الجماعة، وينطق بالحق ولا تأخذه في الله لومة لائم، وينتمي إلى الإسلام مضمونا لا شكلا ومظهرا، بل يتميّز بأنه عضو فعال في المجتمع، منضبط على الدوام في المدرسة القرآنية، أشهر أساتذتها الرسول محمد ﷺ. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لبيان صورة هذا المؤمن فيقول:

**المثل رقم (٢٨٣): إذا رأيت شاباً يعجبك أدبه وذكاؤه وعلمه، وأخلاقه ونظافته، تسأل متعجبا: هذا الشاب خريج أية مدرسة[٣]!؟؟**

بالتأكيد ستكون الإجابة جاهزة، إنها مدرسة الإيمان، إنها مدرسة القرآن، مدرسة الرسول محمد ﷺ.

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٧).

(٢) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (٢/ ٨٥٨).

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤٧).

## المؤمن كذلك له رتبة إيمانية

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر للتقريب، استكمالاً وامتداداً للمثل السابق فيقول:

**المثل رقم (٢٨٤): حينما يرتدي الملك ثياباً يُعَبِّر فيها عن رتبته الملكية، أو يرتدي ضابط كبير ثياباً خاصة فهو يُعَبِّر بها عن رتبته العسكرية، فالمؤمن كذلك، يرتدي إزاراً وكساءً غير مخيطين يُعبّر فيهما عن رتبته الإيمانية**[١].

هذا حال المؤمن خريج مدرسة الإسلام والقرآن، كل المؤمنين سواء، الملايين يلتقون جميعا في يوم عظيم، في وقت واحد في مكان واحد، يتضرعون لربهم العظيم، ينتظمون في صفوف كما تنتظم الملائكة، لا يكتفي أحدهم بالإيمان الفطري، فهو صادق لا يكذب ولا يحتال ولا يظلم، ورع ومؤدّب، وخاشع متواضع، ويعفو ويصفح، وكل هذه الكماليات التي وهبها ربه تعالى له، هي من أثر اتصال هذا المؤمن بالله ﷻ.

## الشيطان يعترف!

فالمنهج في القرآن، أن الإنسان يحاسب على عمله، خيرا كان أم شرا مهما بلغ، وأن تبرير قيام الإنسان بالمعصية بأنها من عمل الشيطان هي ذريعة واهية

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، الدرس (٢٦).

ومرفوضة عند الله ﷻ، تصديقا لقوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيۡطَٰنُ لَمَّا قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمۡ وَعۡدَ ٱلۡحَقِّ وَوَعَدتُّكُمۡ فَأَخۡلَفۡتُكُمۡۖ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيۡكُم مِّن سُلۡطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوۡتُكُمۡ فَٱسۡتَجَبۡتُمۡ لِيۖ فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُمۖ﴾[1].

فالشيطان يعترف للبشر يوم الحشر الأعظم؛ بأنه لم يكن له في الدنيا سلطان قوة ولا سلطان إقناع، ويقول لأتباعه: لا تتهموني وتجعلوني (شماعة) تُعلِّقون عليّ أخطاءكم؛ فقد خالفتُ أمر ربي من قبلكم؛ ولم يكن لي عليكم سلطان سوى أن دعوتُكم فاستجبتم لي، وأنِّي حرَّكْتُ فيكم نوازع أنفسكم على المعصية فتحرَّكت[2]!!

## هذا الكلامَ مضحكٌ!

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح، للدلالة على سخافة الإنسان باتباعه دعوة الشيطان لارتكاب المعاصي والجرائم بحق نفسه وحق غيره، فيقول:

**المثل رقم (٢٨٥): هل يستطيع أحد بأن يقدّم شكوى للشرطة ضد آخر بدعوى أنه أوقعه في حفرة؟**

**يسأله المحقق: هل دفعك إلى هذه الحفرة؟ فيقول: لا!**

**يسأله المحقق: هل وضعك فيها بيده؟ فيقول: لا!**

---

(١) [إبراهيم: ٢٢].

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١٢/ ٧٤٨٨).

**ثم يسأله المحقق: هل أشهر عليك سلاحا لتقع فيها؟ فيقول: لا!**

**فيسأل المحقق: لماذا تشتكي عليه إذا؟**

**يقول المشتكي: لأنه قال لي إنزل، فنزلت[١]!!**

لعل هذا الكلامَ مضحكٌ ؛ فالمُلُوم في العادة هو مَنْ أقبل على المعصية لا مَنْ أغوى بها، والعقاب يقع على المذنب.

## الدعاء منهج عبادة

الدعاء في الإسلام، هو منهج وعبادة تقوم على سؤال العبد ربَّه والطلب منه، وهي عبادة من أفضل العبادات التي يحبّها الله خالصةً له، يقول الله ﷻ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِۖ فَلْيَسْتَجِيبُواْ لِى وَلْيُؤْمِنُواْ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾﴾[٢]، عَنْ سَلْمَانَ الفَارِسِيِّ[٣] عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، قَالَ: «**إِنَّ اللَّهَ حَيِيٌّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ**

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢٠).

(٢) [البقرة: ١٨٦].

(٣) اسمه (روزبه)، وقيل:(مابه بن يوذخشان)، وأصله من بلاد فارس (أصفهان،إيران)، وهو صحابي دخل الإسلام بعد بحث وتقصي عن الحقيقة، دان بالمجوسية ولم يقتنع بها، واستمر متنقلا حتى وصل إلى المدينة فاعتنق الإسلام، وهو الذي أشار على الرسول ﷺ حفر الخندق، مات سنة(٣٦هـ) ودفن في بغداد. [العسقلاني، **الإصابة في تمييز الصحابة** (٣/ ١١٨) رقم(٣٣٦٩)].

**يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ»**(١)، وعَنْ سَلْمَانَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: **«لَا يَرُدُّ القَضَاءَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيدُ فِي العُمْرِ إِلَّا البِرُّ»**(٢)، قال الشوكاني(٣): "ومعنى الحديث أن الله ﷻ قد يقضي على عبده قضاء مقيداً بأن لا يدعوه، فإذا دعاه اندفع هذا القضاء عنه بأمر الله، وفيه دليل على أنه سبحانه يدفع بالدعاء ما قد قضاه على العبد"(٤). وقال المباركفوري(٥): "القضاء هو الأمر

---

(١) أخرجه **الترمذي في سننه** (٥/ ٥٥٦) رقم (٣٥٥٦) قال الترمذي: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. **وابن ماجه في سننه** (٢/ ١٢٧١) برقم (٣٨٦٥). وصححه الألباني في **صحيح الجامع الصغير وزيادته** (١/ ٣٦٢) رقم (١٧٥٧).

(٢) أخرجه **الترمذي في سننه** (٤/ ٤٤٨) رقم (٢١٣٩). **والطبراني في الكبير** (٦/ ٢٥١)، برقم (٦١٢٨). وصححه الألباني في **السلسلة الصحيحة** (١/ ٢٨٦) برقم (١٥٤).

(٣) محمد بن علي اليمني الشوكاني، فقيه مجتهد من كبار علماء اليمن وصاحب كتاب نيل الأوطار، ولد ببلدة شوكان باليمن ونشأ في صنعاء، وتلقى العلم على شيوخها، حتى صار عالًما كبيرًا، اشتغل بالقضاء والإفتاء وكان داعية إلى الإصلاح والتجديد، توفي بصنعاء، من مصنفاته: نيل الأوطار في الحديث؛ فتح القدير في التفسير. توفي سنة (١٢٥٠هـ). [**الأعلام للزركلي** (٦/ ٢٩٨)].

(٤) الشوكاني، محمد بن علي **تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين**،(ص٣٠،٢٩) دار النشر، دار القلم، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م.

(٥) محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري (ت:١٣٥٣هـ)، عالم مشارك في أنواع من العلوم، ولد في بلدة مباركفور من أعمال أعظمكره، ونشأ بها، وقرأ العلوم العربية والمنطق والفلسفة والهيئة والفقه وأصول الفقه على علماء كثيرين، من مؤلفاته: السنن

المقدّر، وتأويل الحديث أنه إن أراد بالقضاء ما يخافه العبد من نزول المكروه به فيتوقاه، فإذا وُفّق للدعاء دفعه الله عنه، فتسميته قضاء مجاز على حسب ما يعتقده المتوقّي عنه"[1].

## كلّ هؤلاء الأقوياء بيد اللّه

فالأمر كله بيد الله، كما أن أمر كل هؤلاء الأقوياء بيد الله، فإما أن يسمح لهم بأن يصلوا إلى الضعفاء، أو لا يسمح لهم، يقول الله تعالى: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔاۗ﴾[2]، فلو أرخى الله الحبل لهم بطشوا بهم، ولو شدَّ الحبل عليهم أبعدهم عنهم، فهو آخذ بأعناقهم ونواصيهم لا يتحركون دون إذنه قيد أنملة، يقول الحق ﷻ: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾[3]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً

---

في مجلدين، وتحفة الأحوذي في شرح سنن الترمذي. [عمر بن رضا بن محمد راغب بن عبد الغني كحالة الدمشق (المتوفى: ١٤٠٨هـ)، **معجم المؤلفين**، (٥/ ١٦٦) دار إحياء التراث العربي، مكتبة المثنى، بيروت (د.ت.ن)].

(١) المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمن، **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، (٦/ ٢٨٩)، دار الكتب العلمية – بيروت.

(٢) [الأنعام: ٨٠].

(٣) [هود: ٥٦].

يوضح فيه هذا المعنى فيقول:

**المثل رقم (٢٨٦): أنت أمام خمس وحوش مخيفة، ولكن كلها مربوطة مع مدرّب قوي يملكها، ويسيطر عليها، أنت ممَّن يجب أن تخاف من الوحوش أم ممَّن يملكها[1]؟**

## خط ساخن متّصل بينك وبين اللّه

فثمة خط ساخن يجب أن يكون سالكا ومفتوحاً وهو الاتصال بالله، فإذا كان الله مع عبده فأقوى خصم في الأرض في قبضة الله، وإن لم يكن الله معه فأضعف خصم يقوى عليه. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح، استوحاه من مجال الصناعات الثقيلة، فيقول:

**المثل رقم (٢٨٧): في معامل الحديد رافعاتٌ ضخمة تحمل عشرات الأطنان، أساسها جذب المغناطيس الكهربائي، وليس من قوة تستطيع نزعها من هذه الرافعة، ولكن إذا ضغط العامل زراً بقدر لمح البصر وقطع الكهرباء عن الرافعة، فإن كل شيء في الرافعة ينفلت ويقع[2]!!**

فأية جهة قد يراها الإنسان قوية مهما كانت، فالذي منحها القوة هو الله، وفي أية لحظة (بكلمة كن) يحرمها من هذه القوة، ويجعلها في أسفل سافلين، يقول

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (١).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (١٠).

الله ﷻ: ﴿وَإِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمۡ كَيۡدُهُمۡ شَيۡـًٔاۗ﴾(١).

نضرب مثلا آخر للتوضيح:

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر للدلالة على هذا المعنى فيقول:

**المثل رقم (٢٨٨): أنت واقف في مكان بين ثلاثة جدران حديدية، وأمامك مكعب حديدي بحسب مساحة الفراغ تماماً، وهو متجه إليك بقوة كبيرة، والموت محقق، والانسحاق محقق، لكن هناك زر في الخارج، إن ضغطه أحد فإنه يوقف تقدم هذا المكعب(٢)!**

إذن، عليك أيها الإنسان المبتلى بالدعاء، وما من مؤمن دعا ربه إلا أكرمه بطريقة أو بأخرى، والعاجز هو الذي يعجز عن الدعاء، عن أبي هريرة ﷺ: أن رسول الله ﷺ قال: «**يَنْزِلُ رَبُّنَا ﷻ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الآخِرُ يَقُولُ: مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ، مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ، مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ**»(٣).

## لا تقل: لماذا لم يَستجب الله لي؟

وحينما يستعدّ الأذكياء من المؤمنين للنهوض في وقت الذروة من الليل، وتُضبط المنبّهات في الثلث الأخير منه ليقولوا في تضرع وخفية: يا رب، يا رب،

---

(١) [آل عمران: ١٢٠].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٥٦).

(٣) **صحيح البخاري** (٢/ ٥٣) رقم (١١٤٥)، **وصحيح مسلم** (١/ ٥٢١) رقم (٧٥٨).

قد يخطيء أحدهم الطريق إلى فهم الخير، وقد تكون إجابة ربه الملائمة هي عدم الاستجابة، لذلك يجب ألا يقول حين لا تُجاب دعوته: لماذا لم يَستجب الله لي؟ فالجواب: لقد استجاب الله له بأن نحَّى عنه حماقة هذا الدعاء وما يجهل الشر فيه. ويضرب الشيخ الشعراوي مثلاً للتوضيح فيقول: **قد يطلب منك ابنك الصغير أن تشتري له مسدساً، وهو يظن أن ذلك خير له، لكنك تؤخر طلبه وتقول له: فيما بعد سأشتري لك المسدس، وتماطل ولا تأتيه بالمسدس، فهل عدم استجابتك له هو منع الخير عنه**[1]؟

فمَنْ يقول: لقد دعوت ربي فلم يستجب لي، يُقال له: لا تكن قليل الفطنة، فمن الخير لك أن لا تُجاب إلى ما طلبت، فالله يعطيك الخير في الوقت الذي يريده.

## يقول: يا رب، يا الله

وقد يكون سبب تأخير الاستجابة ارتباط الإنسان بمسائل يحبّها، وما دامت لم تأت فهو يقول دائماً يا الله، وهذا الدعاء يُحبّ الله أن يسمعه من عبده، فإذا أحبّ الله دعاء عبده ابتلاه ليظل يقول: يا رب، يا الله. ويضرب الشيخ الشعراوي مثلاً رائعا من الواقع الأسري للدلالة على هذا المعنى فيقول: **قد يُعطي الأب ابنه مصروف اليد كل شهر، ويغيب الابن طوال الشهر ولا يحرص على رؤية والده، لكن الأب حين يعطي لابنه مصروف اليد كل يوم، فالابن**

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٢/ ٧٨٤).

**ينتظر والده، وعندما يتأخر الوالد قليلاً فإن الابن يقف لينتظر والده على الباب يلحّ عليه ويرجوه؛ لقد ربط الأب ابنه بالحاجة ليأنس برؤياه[١]!!**

فلا يجعل الله حظ الإنسان المؤمن من الدعاء أن يُجاب بما دعا ورجا، إنما كان حظه من الدعاء بما هو أهمّ وأعظم، وهو أن يربطه بمحبته، ويحميه من كل سوء، وأن يحفظه من كل شر، تصديقا لقول الحق ﷻ: ﴿قُلْ مَا يَعْبَؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَآؤُكُمْ﴾[٢]، فالألوهية تقتضي الحكمة التي تعطي صاحب الدعاء خيراً يناسبه بمقاييس من يجيب الدعاء لا بمقاييس صاحب الدعاء.

## الاختلاف في الأمّة

منهج الاختلاف بين الناس ثلاثة أنواعٍ:

**الأول:** اختلافٌ طبيعي، سببه نقص المعلومات، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟﴾[٣]، هذا الخلاف الطبيعي لا يُمدح ولا يُذَم، فقد يختلف علماء الأمة لنقص المعلومات وهم صادقون ومخلصون. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً من واقع الحال للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (٢٨٩): نحن بيوم وقفة سمعنا صوت مدفع، يا ترى هل هو صوت**

---

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (٢/ ٧٨٧).

(٢) [الفرقان: ٧٧].

(٣) [يونس: ١٩].

**مدفع العيد أم هو تدمير بالجبل؟ أم طريق فيه صخرة ففجّروها**(١)**؟**

لقد وقعت الأمة في خلاف، وبدأت كل مجموعة من الناس تتوقع السبب، وتجد له مبررا لتقنع الآخرين برأيها، أما إذا سمعوا في نشرات الأخبار أن يوم غدٍ هو يوم العيد، فإن هذا الخبر الصادق يحسم الخلاف.

**الثاني:** اختلاف البغي والحسد، وهذا اختلاف سيء ونتائجه خطيرة، فبعد أن جاء النبيون وأُنزلت عليهم الكتب، فبدل أن يصدقونها فإنهم يكذبونها فيختلفوا، وتنشأ الحروب والصراعات قرونا كثيرة، يقول الله تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ﴾(٢)، وهذا الاختلاف الذي يدفع الناس إلى الانحراف عن منهج الله تعالى، والإيمان به وكتبه ورسله، لأجل البحث عن مكاسب وتحطيم الخصوم، فينتج عنه ويلات الانقسامات بين الشعوب والأمم، فهذا اختلاف بغيٍ وعدوانٍ وحسد، وهذا خلافٌ يبغضه الله ﷻ، حيث يقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ﴾(٣).

**الاختلاف الثالث:** الاختلاف المحمود، وهو اختلاف التنافُس، كالمنافسة في

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٤٠).

(٢) [آل عمران: ١٩].

(٣) [الأنعام: ١٥٩].

تحصيل العلم، وتأليف الكتب، وبناء المساجد، والدعوة إلى الله تعالى، حيث يقول ﷻ: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ ۝٢٦﴾[1]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح على هذا النوع، فيقول:

**المثل رقم (٢٩٠): اختلف العلماء أيّ العلوم أفضل، هذا اختصَّ في التفسير، وهذا في الفقه، وهذا في الحديث، وهذا في العقائد، وهذا في خدمة الخلق، وهذا في إطعام الجائعين، وهذا في تأسيس الجمعيات الخيريَّة...**[2].

هذا الاختلاف كلَّه مقبول، وفيه خير للأمة جمعاء، وهو أشرف ما تنافس فيه المتنافسون، وأفضل ما بذلت في الجهود لطلب العلم النافع والعمل الصالح، وهو الروح التي تمدّ الجسد بالحيوية والعطاء.

## الشهوات

الشهوات في منهج الله تعالى، إما أن تكون طريقا للإنسان إلى الجحيم وإما إلى جنات النعيم، وكلما يشتهي الإنسان يرتقي إلى الله مرتين، مرةً بامتناعه عن شهوةٍ حرام، ومرةً بممارسة شهوةٍ حلال، ولا بدّ من ضوابط لتحكم هذه وتلك، فإما شهوات في قنوات أحلها الله تعالى، وإما يعيش الإنسان متفلتا ومندفعا تحكمه مصالحه وأهواؤه، وتحكمه ضوابط شيطانية وشهوات محرمة،

(١) [المطففين: ٢٦].

(٢) المصدر نفسه.

وقد تصل به هذه الأهواء إلى الهاوية. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٢٩١): الشهوة كالوقود السائل في السيارة؛ فإذا أودع في المستودعات الآمنة وسال في الأنابيب المحكمة، وانفجر في الوقت المناسب وفي المكان المناسب، ولَّد حركةً نافعة، وإذا خرج عن مساره، دمَّر المركبة ومَن فيها!**[١].

وهناك حرية الانتصار على هوى النفس والانطلاق من أسر الشهوة، والتصرف بها في توازن تثبت معه حرية الاختيار والتقدير الإنساني، تصديقا لقول الله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠﴾[٢].

## يحترق قلبه ندما وحسرة

فكلما تساهل إنسان في كلمة أو في نظرة يُشبع بها رغباته وشهواته الحيوانية بلا ضابط فإنه يهبط مستواه بها عند الله، وإذا تكرر ذلك يهبط مرة أخرى إلى أن يصل أدنى مستوى[٣]، ثم تأخذه بعد ذلك الحسرة والندم على ما ضيّع في حق الله تعالى. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لبيان حال من يضيّع فرصة هامة وسانحة ثم يحترق قلبه من الندم والحسرة، فيقول:

---

(١) الشعراوي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٦).

(٢) [النازعات: ٤٠].

(٣) ابن كثير، **تفسير القرآن العظيم** (٧/ ٦٠).

**المثل رقم (٢٩٢): الذي يؤلمك أشد الألم، أن يباع بيت بثمن بخس، وأنت تملك هذا الثمن، ولأسباب تافهة ترفّعت عنه، ثم تضاعف سعره إلى مائة ضعف، وأنت في أمسّ الحاجة إليه، يقول: احترق قلبي، لِمَ لمْ أشترِ هذا البيت[1]!!**

فالمقصود من ضرب هذا المثل، بيان مشهد الاحتضار ومواجهة الموت، وطلب الرجعة إلى الحياة الدنيا لتدارك ما فات، وإصلاح ما ترك وراءه من عمل وأهل ومال لاهثا وراء شهواته وأهوائه، ويؤكد هذا المعنى قول الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ﴾[2]، فهذه الكلمة لا فائدة منها بعد أن مضى وقت الكلام والأمنيات، وقد فات الأوان، فلا إخلاص فيهما ولا نوايا صادقة، بل إنهما ردّة فعل في موقف رهيب، بعد ارتكاب الموبقات والندم على ممارسة الشهوات، وهذا النوع من الكلام يُقال في لحظة الضيق ليس له في القلب من رصيد!

## حمل الأمانة

قال الله ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةًۖ﴾[3]، فالملائكة

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٣٩).

(٢) [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

(٣) [البقرة: ٣٠].

مخلوقات عابدة تسبّح الله دائما ولكنها غير مكلفة كالإنسان، فإذا نجح الإنسان في حمل هذه المهمة، فاق فضله وتكريمه عند الله كل المخلوقات، حينما حمل الأمانة دون غيره كما جاء في قوله تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾﴾[1]، فالإنسان بذلك، يتذبذب بين أن يكون في عليّين فوق الملائكة المقربين وبين أن يكون أسفل سافلين، وبين هذه وهذه جدٌّ واجتهاد في عبادة الله تعالى، وتسارع في التقرب إليه مع وجود الشهوات والنزعات والأهواء وحرية الاختيار. ويضرب الشيخ النابلسي مثلا للتوضيح، فيقول:

**المثل رقم (٢٩٣): إذا عرضنا على إنسان بأن يقود قطارا بأجرة قليلة لأنه ذو قيادة سهلة لوجود سكة، ثم عرضنا على أخر بأن يقود شاحنة كبيرة بأجرة أعلى، وعلى ثالث بأن يقود طائرة بأجرة عالية جدا[2].**

فكل واحدة من هذه تحتاج إلى استعداد ومقوّمات متفاوتة، وكل منها يقتضي أجرا بما يناسبها، فالأجر يكون على قدر التعب والمسؤولية والمشقة التي يبذلها الإنسان في أداء التكاليف.

---

(١) [الأحزاب: ٧٢].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٧).

## الثمن: تفضيله على سائر الخلق

وقد عرض الله على المخلوقات بأن يحملوا أمانة أنفسهم وأن يكونوا عبادا مخلصين له قائمين بأمره، ويصبروا على العبادة ويتحملوا من أجلها المشاق مع وجود النوازع والشهوات ليقبضوا أحسن أجر وأغلى ثمن. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً آخر للتوضيح والدلالة على هذا المعنى فيقول:

**المثل رقم (٢٩٤): لو عرض أبٌ على ولده الأول بأن يعمل بأجرة بسيطة، وحثّ الثاني للحصول على أعلى شهادة في العالم، بالطبع الأول يبقى على حاله، والثاني يحتاج إلى سفر وأموال وجامعات، وسهر وتعب، وتعلم لغات ومواجهة أخطار، ولكنه إذا قبل هذا العرض فالنتيجة راحة ومكانة عظيمة في المجتمع**"[١].

كذلك الإنسان إذا قبل حمل الأمانة ومسؤولية التكليف، كان الثمن تفضيله على سائر خلقه، بعد أن أشفقت السماوات والأرض عن حملها، والله تعالى يقول: ﴿۞وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ وَرَزَقۡنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلۡنَٰهُمۡ عَلَىٰ كَثِيرٖ مِّمَّنۡ خَلَقۡنَا تَفۡضِيلٗا ٧٠﴾[٢].

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٧).

(٢) [الإسراء: ٧٠].

## الآفاق والأنفس

يقول الله ﷻ: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾[1]. إن عظيم خلق الله تعالى في الكون يدلّ على عظيم قدرته وملكوته، وعظيم نعمه على الإنسان، بهدف تسخير ذلك لخدمتهم والانتفاع بها، فكل نعمة من نعم الله تعالى إذا استخدمها الإنسان استخداما صحيحا وفق ما أراد الله تعالى في كتابه وسنّة نبيّه فقد شكر ربه عليها، وإذا استخدمها بغير ذلك فقد كفر وجحد بها.

## أرادها أحكاما وضعية من صنع البشر!

والله ﷻ حينما هدى عبده بخلق الكون فلم يعبأ به، ثم هداه بالقرآن فلم يتدبر آياته ولم يعتبر ولم يحكم بها، بل أرادها أحكاما أرضيةً ووضعية من صنع البشر، وهذا من الكفر بالنعمة، فتبديل النعمة أن يستخدمها لغير ما أراد الله ﷻ، يقول الله تعالى في حق هؤلاء: ﴿وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢١١﴾﴾[2]، فقد يُعطي الله الرجل طلاقة اللسان، فإن استخدمها في الدعوة إلى الله وإصلاح ذات البين فهذه نعمة، وإن استغلها في كسب المواقف بالإقناع الزائف وجمع أموال الناس بالحرام فقد كفر بهذه النعمة.

---

(١) [فصلت: ٥٣].

(٢) [البقرة: ٢١١].

ويضرب الشيخ النابلسي أمثالا للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٢٩٥): أيمكن لإنسان أنْ يشتري جهازًا معقدًا جداً؛ كمبيوتر مثلاً ثمنه ثلاثون مليونًا، ثم يستخدمه طاولة؟ إنه يكون حينئذ قد كفر بالنعمة**[١].

فالنعمة تحمل معناها الكامل حينما تكون طريق الإنسان إلى الله المنعم، وما لم ينتقل الإنسان بالنعمة إلى المنعم فليس مؤمنا، فالإنسان المادي مفتاحه النعمة، وحبّه لله يكون تبعا لهذه النعمة، أما المؤمن فلو أعطاه الله أو منعه فإن حبة لله ثابت لا يتغير.

## لفتة جميلة

قال الله ﷻ: ﴿وَءَاتَىٰكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُۚ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآۗ﴾[٢]، ففي هذه الآية لفتة جميلة ذكرها الله تعالى في قوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ فقد ذكر ﷻ لفظ النعمة مفردة وكأنها واحدة، ثم قال: ﴿لَا تُحْصُوهَآۗ﴾ وهي هنا كثيرة، ولبيان وتقريب هذا المعنى يضرب الشيخ النابلسي مثلاً فيقول:

**المثل رقم (٢٩٦): هل يمكن أن أعطيك ليرة واحدة وأقول لك: عُدّها؟ فالواحد لا يعدّ، أما المجموعة من الليرات فيمكن أن أقول لك: عدّها**[٣].

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٧١)

(٢) [إبراهيم: ٣٤].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢١)

هذا يعني تعظيم فضل النعمة التي أنعمها الله على عباده وإن كانت واحدة، وأن بركة هذه النعمة الواحدة كثيرة لا تعّد ولا تحصى، نعمة البصر ونعمة السمع ونعمة الحركة ونعمة النوم، فكل واحدة من هذه النعم فوائدها وبركاتها لا تنتهي، فكيف إذا كانت نعم كثيرة لا تُعدّ ولا تُحصى، وإذا كان الإنسان عاجزاً عن إحصائها فلا بدّ أن يكون عاجزاً عن شكرها من باب أولى، يقول الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضۡلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ۝٦١﴾[١].

## الإيمان نصفان: نصفه صبر ونصفه شكر

فالإيمان بالله يوجب الشكر على نعمه الكثيرة، قال الشيخ العلامة ابن قيّم الجوزيه ﵀: الإيمان نصفان: نصفه صبر ونصفه شكر، وأن جميع ما يلقى العبد المؤمن لا يخلو من نوعين كلاهما خير له: الأول: النعم، فالعبد محتاج إلى ذكرها وشكرها والتحدث فيها، والثاني: المصائب التي تحلّ بالعبد، فتأخذ الأحبّة وتهلك الأموال وتضعف الأبدان، فلا يجزع بل يصبر وينتظر الفرج[٢]، وهذا تصديق لقوله تعالى: ﴿فَٱصۡبِرُوٓاْ أَوۡ لَا تَصۡبِرُواْ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡۖ إِنَّمَا تُجۡزَوۡنَ مَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ۝١٦﴾[٣]، فأكثر الناس يتمتع بنعم الله ويتقلبون فيها دون أن يشكروها،

---

(١) [البقرة: ٢٤٣].

(٢) ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر الزرعي، **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، تحقيق: أبو أسامة الهلالي (ص٥)، دار ابن الجوزي، السعودية ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

(٣) [الطور: ١٦].

بل هم ساهون غافلون كما قال تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ۝١٣﴾(١)، ويقول الله ﷻ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾(٢).

## لا تتباهى بالخلق وتنسى الخالق

فالشكر لله اعتراف له بالنعمة، وينبغي أن يتم ذلك باللسان واليد والقلب جميعا لأنه جدير بهذا الشكر ويستحقه. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٢٩٧): شاب حصل على شهادة تفوق من الجامعة، مع مرتبة الشرف، فاشترى له أبوه سيارة فخمة، هل من الممكن عمل احتفال ضخم تكريماً له لأنه صار يمتلك سيارة فخمة(٣)!!**

فقد خلق الله الإنسان بيديه في أحسن تقويم، ومنحه العقل والذكاء للحصول على شهادة عليا، ومنحه القوة والجمال ليكتسب منها المال والعزة والجاه، هذه النعم كلها من الخالق وليس للمخلوق فيها من جهد، أو أن يتباهى ويتفاخر بها ويقيم لها الاحتفالات، بل يشكر الله عليها. ويضرب الشيخ الشعراوي مثلاً قريبا في اللفظ والمعنى للمثال السابق، فيقول: **فأنت حين ترى زهرة جميلة غاية**

---

(١) [سبأ: ١٣].

(٢) [إبراهيم: ٧].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤٥).

**في الإبداع فإنك تمتدح هذا الخلق فتقول: ما أجمل هذه الزهرة أو هذه الجوهرة أو هذا المخلوق، ولكن المخلوق الذي امتدحته لم يعط صفة الجمال لنفسه، فالزهرة لا دخل لها أن تكون جميلة أو غير جميلة، والجوهرة لا دخل لها في عظمة خلقها، وكل شيء في هذا الكون لم يضع الجمال لنفسه، وإنما الذي وضع الجمال فيه هو الله ﷻ، فلا نخلط ونمدح المخلوق وننسى الخالق[1]!!**

فمنهج الله ﷻ في خلقه يقتضي من عباده الحمد، لان الله أنزل منهجه ليُري خلقه طريق الخير ويبعدهم عن طريق الشر، فالحمد لله مرات ومرات، الذي أوجد في الكون ما يذكّرهم بعظمة الخالق ودقة الخلق.

## الآفاق

الآفاق: النواحي، واحدها أفق، وأفق السماء ناحيتها المتصلة بالأرض (فيما يبدو للعين)، وقيل: الأفق ما ظهر من نواحي الفلك وأطراف الأرض، وهو الخط الذي ينتهي عنده امتداد البصر، بحيث تبدو السماء وكأنها متصلة بالأرض أو بالبحر، وقد جاء في التفاسير معنى الآفاق أي أقطار السماوات والأرض[2].

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١/ ٥٨).

(٢) ابن منظور، **لسان العرب** (٦/ ١٧١). الزبيدي، **تاج العروس** (٢٥/ ١٢). حسنين محمد مخلوف، **كلمات القرآن**، تفسير وبيان (ص٤٨٢)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان،١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

## الأرض

يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾[(١)]، والفِراش إنما سُمّي فراشا لتوفر مقومات الراحة فيه، فهو ليّن ومريح ويتناسب مع قوام الجسم، وكذلك الأرض جعل الله فيها أسباب الاستقرار والاستمرار، فهي كالفراش تتلاءم مع راحة الإنسان وحاجاته ورغباته. فهذا الكون العظيم الفسيح لا يعلم حدوده إلا الله تعالى، أرضه وسماؤه وما فيهما وما بينهما، ثرواته وخيراته، فالأرض هي الكوكب الذي يعيش عليه البشر، وحولها كواكب أخرى منطفئة كالقمر والمريخ، كل شيء خلقه الله في هذا الكون سخره لخدمة الإنسان على الأرض بدليل قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[(٢)]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للدلالة على هذا التخصيص فيقول:

**المثل رقم (٢٩٨): أنت تقيم وليمة بوجود ضيف شرف، وهو من أقيمت الوليمة على شرفه، تدعو معه صديقه أو جاره أو ابنه، لكن الأساس هو الضيف الأول، وقد صنع هذا الطعام خصيصا لهذا الضيف، ولو طرق الباب ودخل ضيف جديد يبقى هذا الطعام صنع خصيصا للضيف الأول وليس للثاني، هذا معنى التخصيص لكلمة** ﴿خَلَقَ لَكُم﴾[(٣)].

---

(١) [البقرة: ٢٢].

(٢) [البقرة: ٢٩].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٦).

## المسكن الوحيد للكائنات الحية

فالأرض كوكبٌ يَسْبَحُ في الفضاء، وتسمى الكرة الأرضية، وهي ثالث الكواكب بعداً عن الشمس بعد كل من عطارد والزهرة، والمسكن الوحيد لملايين الأنواع من الكائنات الحية بما فيها الإنسان، وورد اسمها في القرآن عشرات المرات، واقترن اسمها مع السماوات في آيات كثيرة على سبيل التفكر في عظيم خلق الله ﷻ، ويتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾[1].

## الأرض تسبق الوجود الإنساني

وقد وضع الله تعالى في الأرض أقواتها إلى يوم القيامة، وجعل النعمة فيها تسبق الوجود الإنساني، فعندما خلق الله الإنسان كانت النعمة موجودة تسبقه وتستقبله فلا يتعب ولا يشقى، ولو أن النعمة لم تسبق الوجود الإنساني وخلقت بعده لهلك الإنسان في أيام حياته الأولى، وهذا يستحق الحمد والشكر[2].

---

(١) [آل عمران: ١٩١].

(٢) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١/ ٥٦).

## هل الأرض كروية أم مسطحة؟

ساد الاعتقاد في الماضي بأن الأرض مسطحة، ولم يكتشف الإنسان كروية الأرض إلا في العصور الوسطى، رغم أن علماء المسلمين جميعا أجمعوا على أن الأرض كروية، قال ابن حزم الأندلسي(١): "إن أحدا من أئمة المسلمين لم ينكروا تكوير الأرض؛ بل إن البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها"(٢).

## التصادم بين الحقيقة القرآنية والحقيقة العلمية!

إن القرآن كلام الله المتعبد بتلاوته إلى يوم القيامة، ومعنى ذلك أنه لا يجب أن يحدث تصادم بينه وبين الحقائق العلمية في الكون، لأن القرآن الكريم لا يتغير ولا يتبدل، ولو حدث مثل هذا التصادم لضاعت قضية الدين كلها، ولكن التصادم يحدث من شيئين: عدم فهم حقيقة قرآنية أو عدم صحة حقيقة علمية، فإذا لم نفهم القرآن جيدا وفسرناه بغير ما فيه حدث التصادم، وإذا كانت

---

(١) هُوَ عَلِيُّ بنُ أَحْمَدَ بنِ حَزْمِ الأَنْدَلُسِيُّ، الفَارِسِيُّ الأَصْل، الأَدِيْبُ والوَزِيْرُ الظَّاهِرِيُّ، وُلِد بقرطبة سَنَةَ (٣٨٤هـ)، رُزِقَ ذَكاءً مُفرطًا، وهو مَوْلَى الأَمِيْر يَزِيْدَ المَعْرُوف بيَزِيْد الخَيْر، جَدّهُ أَوَّلُ مَنْ دَخَلَ الأَنْدَلُس فِي صحَابَة ملك الأَنْدَلُس عَبْدِ الرَّحْمَنِ بن مُعَاوِيَةَ بنِ هِشَامٍ؛ المَعْرُوف بِالدَّاخل. توفي سنة (٤٥٦هـ). [الذهبي، **سير أعلام النبلاء** (١٨/ ١٨٥)].

(٢) ابن حزم، علي ابن حزم الظاهري الأندلسي، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**،(٢/ ٧٨) مكتبة الخانجي، القاهرة، د.ت.ن.

الحقيقة العلمية كاذبة حدث التصادم.

## كيف لا نفهم الحقيقة القرآنية؟

سنضرب مثلا لذلك ليعلم الناس أن عدم فهم الحقيقة القرآنية قد تؤدي إلى تصادم مع حقائق الكون، الله ﷻ يقول في كتابه العزيز: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾[1] والمدّ معناه البسط، ومعنى ذلك أن الأرض مبسوطة، ولو فهمنا الآية على هذا المعنى لا تّهمنا كل من تحدّث عن كروية الأرض بالكفر، خصوصا أننا الآن بواسطة سفن الفضاء والأقمار الصناعية قد استطعنا أن نرى الأرض على هيئة كرة تدور حول نفسها، نقول: إن كل من فهم الآية الكريمة ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ بمعنى أن الأرض مبسوطة لم يفهم الحقيقة القرآنية التي ذكرتها هذه الآية الكريمة، ولكن المعنى يجمع الإعجاز اللغوي والإعجاز العلمي معا، ويعطي الحقيقة الظاهرة للعين والحقيقة العلمية المختفية عن العقول في وقت نزول القرآن.

## أقال أي أرض؟ لا

عندما قال الله سبحانه: ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ أي بسطناها، أقال أي أرض؟ لا، لم يحدد أرضا بعينها بل قال الأرض على إطلاقها، ومعنى ذلك أنك إذا وصلت إلى

---

(١) [الحجر: ١٩].

أي مكان يسمى أرضا تراها أمامك ممدودة أي منبسطة، فإذا كنت في القطب الجنوبي أو في القطب الشمالي، أو في أمريكا أو أوروبا أو في افريقيا أو آسيا، أو في أي بقعة من الأرض، فأنك ترها أمامك منبسطة، ولا يمكن أن يحدث ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية، فلو كانت الأرض مربعة أو مثلثة أو مسدسة أو على أي شكل هندسي آخر، فإنك تصل فيها إلى حافة! ولا ترى أمامك الأرض منبسطة، ولكنك ترى حافة الأرض ثم الفضاء، ولكن الشكل الهندسي الوحيد الذي يمكن أن تكون فيه الأرض ممدودة في كل بقعة تصل إليها هي أن تكون الأرض كروية، حتى إذا بدأت من أي نقطة محددة على سطح الكرة الأرضية، ثم ظللت تسير حتى عدت إلى نقطة البداية، فإنك طوال مشوارك حول الأرض ستراها أمامك دائما منبسطة، وما دام الأمر كذلك فإنك لا تسير في أي بقعة على الأرض إلا وأنت تراها أمامك منبسطة، وهكذا كانت الآية الكريمة ﴿وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَٰهَا﴾ لقد فهمها بعض الناس على أن الأرض مبسوطة دليل على كروية الأرض، وهذا هو الإعجاز في القرآن الكريم، يأتي باللفظ الواحد ليناسب ظاهر الأشياء، ويدل على حقيقتها الكونية، ولذلك فإن الذين أساءوا فهم هذه الآية الكريمة وأخذوها على أن معناها أن الأرض منبسطة، قالوا هناك تصادم بين الدين والعلم، والذين فهموا معنى الآية الكريمة فهما صحيحا قالوا إن القرآن الكريم هو أول كتاب في العالم ذكر أن الأرض كروية، وكانت هذه الحقيقة وحدها كافية بأن يؤمنوا، ولكنهم لا يؤمنون.

## القائل هو الله

وهكذا نرى الإعجاز القرآني، فالقائل هو الله، والخالق هو الله، فجاء في جزء من آية قرآنية ليخبرنا إن الأرض كروية وأنها تدور حول نفسها، ولا ينسجم معنى هذه الآية الكريمة إلا بهاتين الحقيقتين معا، هل يوجد أكثر من ذلك دليل مادي على أن الله هو خالق هذا الكون؟

## حقيقة قرآنية أخرى

ثم يأتي الله ﷻ ليؤكد المعنى في هذه الحقيقة الكونية، لأنه سبحانه يريد أن يُري خلقه آياته فيقول: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفَّٰرُ ۝٥﴾[1]. وهكذا يصف الله ﷻ بأن الليل والنهار خلقا على هيئة التكوير، وبما أن الليل والنهار وُجدا على سطح الأرض معا فلا يمكن أن يكونا على هيئة التكوير، إلا إذا كانت الأرض نفسها كروية، بحيث يكون نصف الكرة مظلما والنصف الآخر مضيئا، وهذه حقيقة قرآنية أخرى تذكر لنا أن نصف الأرض يكون مضيئا والنصف الآخر مظلما، فلو أن الليل والنهار وُجدا على سطح الأرض غير متساويين في المساحة، بحيث كان أحدهما يبدو شريطا رفيعا، في حين يغطي الآخر معظم المساحة ما كان الاثنان معا على هيئة

---

(١) [الزمر:٥].

كرة، لأن الشريط الرفيع في هذه الحالة سيكون في شكل مستطيل أو مثلث أو مربع، أو أي شكل هندسي آخر حسب المساحة التي يحتلها فوق سطح الأرض، وكان من الممكن أن يكون الوضع كذلك باختلاف مساحة الليل والنهار، ولكن قوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِ﴾ دليل على أن نصف الكرة الأرضية يكون ليلا والنصف الآخر نهارا، وعندما تقدم العلم وصعد الإنسان إلى الفضاء ورأى الأرض وصورها، وجدنا فعلا أن نصفها مضيء ونصفها مظلم كما أخبرنا الله ﷻ.

## الأرض مليئة بالآيات، ولكننا لا نتنبه!

فإذا أردنا دليلا آخر على دوران الأرض حول نفسها لابد أن نلتفت إلى الآية الكريمة في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى ٱلۡجِبَالَ تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ صُنۡعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِيٓ أَتۡقَنَ كُلَّ شَيۡءٍۚ إِنَّهُۥ خَبِيرُۢ بِمَا تَفۡعَلُونَ ۝٨٨﴾[1]. عندما نقرأ هذه الآية ونحن نرى أمامنا الجبال ثابتة جامدة لا تتحرك نتعجب، لأن الله ﷻ يقول: ﴿تَحۡسَبُهَا جَامِدَةٗ﴾ ومعنى ذلك أن رؤيتنا للجبال ليست رؤية يقينيه، ولكن هناك شيئا خلقه الله ﷻ وخفى عن أبصارنا، فمادمنا نحسب فليست هذه هي الحقيقة، أي أن ما نراه من ثبات الجبال وعدم حركتها ليس حقيقة كونية، وإنما إتقان من الله ﷻ وطلاقة قدرة الخالق، لأن الجبل ضخم كبير بحيث لا يخفى عن أي عين، فلو

---

(١) [النمل: ٨٨].

كان حجم الجبل دقيقا لقلنا لم تدركه أبصارنا كما يجب، أوأننا لدقة حجمة لم نلتفت إليه هل هو متحرك أم ثابت، ولكن الله خلق الجبل ضخما يراه أقل الناس إبصارا حتى لا يحتجّ أحد بأن بصره ضعيف لا يدرك الأشياء الدقيقة، وفي نفس الوقت قال لنا أن هذه الجبال الثابتة تمر أمامكم مر السحاب، ولماذا استخدم الحق ﷻ حركة السحب وهو يصف لنا تحرك الجبال؟ لأن السحب ليست ذاتية الحركة، فهي لا تتحرك من مكان إلى آخر بقدرتها الذاتية، بل لابد أن تتحرك بقوة تحرك الرياح، ولو سكنت الريح لبقيت السحب في مكانها بلا حركة، وكذلك الجبال، الله ﷻ يريدنا أن نعرف أن الجبال ليست لها حركة ذاتية، أي أنها لا تنتقل بذاتيتها من مكان إلى آخر، فلا يكون هناك جبل في أوروبا ثم نجده بعد ذلك في أمريكا أو آسيا، ولكن تحركها يتم بقوة خارجة عنها هي التي تحركها، وبما أن الجبال موجودة فوق الأرض، فلا توجد قوة تحرك الجبال إلا إذا كانت الأرض نفسها تتحرك ومعها الجبال التي فوق سطحها، وهكذا تبدو الجبال أمامنا ثابتة لأنها لا تغير مكانها، ولكنها في نفس الوقت تتحرك لأن الأرض تدور حول نفسها والجبال جزء من الأرض فهي تدور معها تماما كما تحرك الريح السحاب، ونحن لا نحسّ بدوران الأرض حول نفسها، ولذلك لا نحس أيضا بحركة الجبال، وقوله تعالى: ﴿وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِۚ﴾ معناها أن هناك فترة زمنية بين كل فترة تمرّ فيها، ذلك لأن السحاب لا يبقى دائما، بل تأتى فترات ممطرة وفترات جافة وفترات تسطع فيها الشمس، وكذلك حركة الجبال تدور وتعود

إلى نفس المكان كل فترة، وإذا أردنا أن نمضي فالأرض مليئة بالآيات، ولكننا نحن الذين لا نتنبه، وإذا تنبه الباحثون الكفار فإنهم يُعرضون عن آيات الله، تماما كما حدث مع رسول الله ﷺ حين قال له الكفار في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ۝٩٠ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ۝٩١ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ۝٩٢﴾[1]. وكان كل هذا معاندة منهم، لأن الآيات التي نزلت في القرآن الكريم فيها من المعجزات الكثيرة التي تجعلهم يؤمنون.

## نظام الجاذبية

من الأمثالُ والدلائلُ على عجائب خلق الله في الأرض؛ نظام الجاذبية الخاص بالأرض، وهو من دواعي الاستقرار لساكنيها؛ حيوانات ونباتات وجمادات، هذا معنى قول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾[2]. ويضرب الشيخ النابلسي أمثالاً للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (٢٩٩): رائد الفضاء في منطقة انعدام الجاذبيَّة يفقد الوزن، فيستيقظ فإذا هو في سقف المَرْكَبَة!! يُمسك الحاجة بيده فإذا هي تتفلَّت منه، أما نحن**

---

(١) [الإسراء: ٩٠-٩١].

(٢) [البقرة: ٢٢].

**فنضع هذا الكأس على الطاولة، فتبقى[١].**

**المثل رقم (٣٠٠): لو كان حجم الأرض عشرة أضعاف لكان وزنك عشرة أضعاف، ولو أن حجمها العُشر لكان وزنك العُشر، لو لم تكن هناك جاذبية لكانت الحياة لا تُطاق[٢].**

## المياه الجوفية

تخزين المياه لاستمرار الحياة على الأرض، يقول ﷻ: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ ۝٤٩﴾[٣]، يقول الشيخ النابلسي: في بعض البلاد أربعة آلاف جزيرة، وفي كل جزيرة نبع يتناسب مع مساحتها وعدد سكانها، هكذا جعل الله الأرض فراشا، تتلاءم مع حاجة الإنسان وفي خدمته[٤]! يقول الله ﷻ: ﴿فَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمْ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ۝٢٢﴾[٥]، أي: أن الإنسان عاجز عن تخزين مياه السماء بطريقته، وإذا كان الله قد هدى بني البشر إلى تخزين المياه فذلك فضل منه، فلا يقولنّ أحد: لقد بنينا السدود؛ بل يقُلْ: هدانا الله لِنبنيها

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٠).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١١).

(٣) [القمر: ٤٩].

(٤) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٠).

(٥) [الحجر: ٢٢].

بعد أن يسقطَ المطر؛ ذلك أن المطر لو لم يسقط لَمَا كانت الحاجة إلى تخزينَ المياه(١).

## هل نحتاج ضعف أبنية العالم؟

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتوضيح من واقع الحياة في سياق هذا المعنى فيقول:

**المثل رقم (٣٠١): لو أن الله كلفنا أن نخزن المياه التي نستعملها طوال العام لاحتاج كل منا إلى مستودع يساوي حجم بيته تماما، ولو افترضنا أن مساحة البيت مئة وخمسين مترا بارتفاع ثلاثة أمتار يساوي أربعمائة وخمسين مترا مكعبا لكل أسرة في السنة إضافة إلى السكن، أي نحتاج ضعف أبنية العالم لسد احتياجاتنا في استعمال الماء(٢)!!!**

فكان البديل الرباني هو الجوف الجيولوجي، الذي هو مستودعٌ عجيبُ التصميم والأداء، وقد يمتد ويصل أسفل عدة دول ولا يعلم حدوده إلا الله، لم يتغير طعمه على مرِّ القرون، فالحق ﷻ لم يفتح أفواه الناس ليشربوا ماء الشتاء في ساعة واحدة وقت نزوله، بل هو مخزون في الأرض، صالح وصحّيّ للشرب لمن أراده على مدار الدهر.

---

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١٢/ ٧٦٧٨).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٩).

## السماء بناء

يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾[١]. فالحديث عن السماء مليء بالعجائب والغرائب، وأقرب نجم ملتهب من الأرض فيبعد عنها أربع سنوات ضوئية، وقد يحتاج الإنسان لاجتياز هذه المسافة إلى خمسين مليون سنة!! باستعمال سيارة تنطلق بسرعة مئة كم/ ساعة[٢]. ويدل قول الله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾[٣]، لو أن كوكبا ما انجذب إلى الأرض واصطدم بها، فقد تتحقق أسوأ كارثة بانتهاء الحياة على الأرض، فالله تعالى بنى هذا النظام الكوني العظيم، وهو ما زال مجهولا أمام المعلومات التي اكتشفها العلماء، يقول الله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ ٱلسَّمَآءَ أَن تَقَعَ عَلَى ٱلْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٥﴾﴾[٤].

## عجائب خلق الله في السماء!

كما هو حال الجاذبية في الأرض، وُجد نظامٌ آخر للجاذبية يختلف عن السابق، وأكثر أهمية وخطورة، وهو متعلق بالسماء وما فيها من مكونات كالنجوم

---

(١) [البقرة: ٢٢].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١١).

(٣) [البقرة: ٢٢].

(٤) [الحج: ٦٥].

والكواكب، فلولا حركة الكواكب في مسارات مغلقة لأصبح الكون كله كتلة واحدة، وهذا ما يُسمى بالتوازن الحركي، فالجسم الأكبر يجذب الجسم الأصغر بفعل هذه الجاذبية، وينشأ عن حركة الكواكب أيضا قوى نابذة تكافئ القوى الجاذبة؛ مما يزيد من دقة الحركة الدائبة في هذا الكون، والدقة في تماسكه وبنائه!

أما عن سعة وعظمة هذا الكون، ونظامه العجيب والمعقد، يضرب الشيخ النابلسي بعض الأمثال القياسية المتقابلة للتوضيح فيقول:

**المثل رقم (٣٠٢): لو أتيت بسطح سويّ مستو تماما، وجئت بكتلتين مغناطيسيتين متساويتين تماماً، وألقيت بكرة ثالثة أخرى بينهما، ما استطعت إلا بجهد خياليّ أن تثبّت هذه الكرة في المتوسط بين الكتلتين، بحيث يتكافأ جذب الكتلتين لهذه الكرة، فتقف في الوسط**[1].

أما لو زاحت هذه الكرة عن مكانها بمقدار ضئيل جدا (عُشر المليمتر) لانجذبت إلى إحدى الكتلتين، وهي تحتاج إلى توازن دقيق ومعقد كي تستقر في الوسط، هذا إذا كانت الكتلتين متساويتين!؟ أما إذا كانتا غير متساويتين، فالمسألة تكون أكثر تعقيدا.

**لهذا يقول الشيخ النابلسي:**

**المثل رقم (٣٠٣): أما لو كانتا غير متساويتين فالأمر أصعب، بل هو غاية في**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١١).

**التعقيد، ويحتاج الأمر إلى حسابات رياضية كثيرة جدا، فإذا كانت المسافة ثلثين وثلثا مثلا، فلا بد أن تختار المسافة التي تتناسب مع قوة جذب الكتلة الكبرى، وكذلك الصغرى، ونجاح هذه العملية يتطلب الحسابات والمعادلات الفيزيائية الصعبة والمعقدة جدا[١].**

## كيف إذا كانت ثلاث كُتل؟

أما إذا كانت ثلاث كتل مختلفة ومتباينة في الوزن والحجم، يقول الشيخ النابلسي للفصل في هذه القضية:

**المثل رقم (٣٠٤): ولكن، كيف إذا كانت ثلاث كتل؟!! وكل كتلة لها حجم؟! ولها قوة جذب؟! وكانت هذه الكتل ضخمة جدا؟!! وليست على سطح مستو؟!! وكانت متحركة؟ وبينهما مسافات مختلفة؟ وسرعات مختلفة؟ وتسبح في الفضاء باستمرار؟!! كيف تتوازن هذه الكتل المتفاوتة في الحجم والسرعة والمسافة وهي في فراغ[٢]؟؟**

يأتي الكلام هنا على أمرين:

**الأول:** كيف يتم ضبط هذه المعادلة المعقدة إذا تبيّن أن حجم الشمس هو مليون وربع مرة ضعف حجم الأرض؟ وأن حجم الأرض هو الرقم عشرة

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١١).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٥٣)

وأمامه اثني عشر صفرا، كيلو مترا مكعبا تقريبا، وأن وزنها (٥٩٧٢) مليار مليار طن، وهو الرقم ٦ × الرقم ١٠ وأمامه أربع وعشرون صفرا، كغم تقريبا، أما وزن الشمس فهو(٣٣٢) ألف مرة ضعف وزن الأرض[١]!! وكيف يتم ضبط المعادلة وهي تزداد صعوبة إذا علمنا بأن وزن الشمس متفاوت، ينقص بحسب تخمينات العلماء، فالشمس تخسر من وزنها حوالي (١٥٠) مليون طن سنويا تقريبا نتيجة الاحتراق الداخلي!!!!

**الثاني:** وكيف يتم ضبط المعادلة إذا علمنا أن أكبر الأجرام السماوية حجما تم اكتشافه حتى الآن هو النجم (VY Canis Majoris)، حيث يبلغ حجمه حوالي (٩) بليون مرة ضعف حجم الشمس، ويبتعد عن الأرض حوالي خمسة آلاف سنة ضوئية[٢]!

## ماذا يحدث لو كان التسارع أكثر؟!

حقيقة أخرى ذكرها العلماء عن حركة الأرض حول الشمس، فالأرض مرتبطة

---

(١) مجاهد،عماد، **الموسوعة الفلكية الحديثة** (ص١٥٣)، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م. أيضا: جراد، مجيد محمود، **المدخل إلى علم الفلك** (ص٨٥-٨٨)، دار دجلة، عمان، ط١، ٢٠٠٨م. أيضا: الزحلف، عواد، **علم الفلك والكون** (ص٦٠-٦٤)، دار المناهج، عمان، ط٢، ٢٠٠٣م.

(٢) انظر: الموسوعة العربية الحرة، [ar.wikipedia.org/wiki/الأرض].

فلكيا برباط قوة الجذب (وتساوي مليونين ضرب مليون مليون طن)، كل هذه القوة من أجل أن تزيح الأرض عن مسار مستقيم (ثلاثة ميليمترات في الثانية) على مدى العام لينشأ مسار إهليجي بيضاوي مغلق حول الشمس له قطران: أكبر وأصغر، تزداد سرعة الأرض أو تتباطأ في كل منهما، فلو زادت السرعة أو أبطأت في غير مكانها لتفلّتنّ الأرضُ من جذب الشمس، فهي إما أن تقترب منها وتحترق، وإما تنطلق بعيدا في الفضاء وتضيع، ولا بد من تفاوت معقول وآمن في سرعة الأرض لضمان نجاح هذه الحركة، لينشأ عن ذلك أيضا الحفاظ على طول وقصر الليل والنهار، وعلى درجة الحرارة وسلامة كوكب الأرض، فلو كان التسارع عاليا لتهدّم كل ما على الأرض!! ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للتقريب فيقول:

**المثل رقم (٣٠٥): فالسيارة مثلا عندما تنطلق في تسارع عال جدا، مثلا من سرعة صفر إلى سرعة مائة وعشرين في ثلاث ثوان فقط، هذه السرعة للسيارة قد تكون مدمّرة، ولن يستطيع شيءٌ أن يوقفها أبدا**[1].

## أما كيف لو خرج أحد هذه الأجرام عن مساره؟

أما كيف يكون حال المليارات الكثيرة من الأجرام السابحة في هذا الكون، والمختلفة في الحجم والوزن والكثافة، والأرض أو الشمس واحدة منها، هذا

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١١).

معنى قوله تعالى: ﴿۞إِنَّ ٱللَّهَ يُمۡسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ أَن تَزُولَاۚ وَلَئِن زَالَتَآ إِنۡ أَمۡسَكَهُمَا مِنۡ أَحَدٍ مِّنۢ بَعۡدِهِۦٓۚ﴾[١]. فالزوال عند أهل التفسير هو الانحراف، ووقت الزوال هو وقت انتقال الشمس عن مسارها العمودي وسط السماء عند الظهيرة، يقول الطبري في تفسيره: أي لئلا تزولا من أماكنهما ولو زالتا ما أمسكهما أحد سواه[٢]. فكيف لو خرج أحد هذه الأجرام عن مساره؟ كيف لو خرجت الأرض عن مسارها، وابتعدت عن مصدر الطاقة والحرارة، وأصبحت كوكبا جليديا تنعدم فيها الحياة!؟

## عظيم خلق اللّه في الإنسان!

قال الله تبارك تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ ۝٦ ٱلَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ۝٧﴾[٣]. إن علم الله تعالى واسع أزلي مطلق، يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، خلق الأشياء كلها فقال عزّ من قائل: ﴿مَّا تَرَىٰ فِي خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾[٤]، وخلق الإنسان فأحسن خلقه وأتقن

---

(١) [فاطر: ٤١].

(٢) تفسير الطبري (٢٠/ ٤٨١).

(٣) [الانفطار: ٦، ٧].

(٤) [الملك: ٣].

صنعه، وهو القائل: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤﴾[١]. فهذه التربة من الأرض معلومة الصفات، وإذا أخذها الناس فإن أقصى ما يصوغونها لبنة أو أداة، ولكن الله تعالى جعل من هذه الذرات حياة نابضة، تنطوي على سر لا يستطيعه البشر[٢]. ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً للدلالة على عظيم صنع الله تعالى فيقول:

**المثل رقم (٣٠٦): انظر إلى مركبة صنعت قبل مائة عام، سيارة بدائية صماء، ليس فيها أجهزة متطورة أو خدمات أو وسائل راحة، ليس فيها إشارة سرعة، انظر إلى سيارة حديثة، كم هو الفرق شاسعٌ بين مركبةٍ قديمة ومركبة حديثة بفارق مائة سنة فقط[٣]؟**

لكن السؤال: هل طرأ على الإنسان منذ أن خلقه الله تعالى قبل آلاف السنين إلى اليوم أي تطوير أو إضافة[٤]؟

هل يحتاج الإنسان إلى تعديل رغم اختلاف المكان والمناخ وتقلب العصور؟

---

(١) [التين: ٤].

(٢) سيد قطب، **في ظلال القرآن** (١/ ٣٨).

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨٤).

(٤) ذكر الطبري في تاريخه (١/ ١٥) عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: (الدنيا جمعة من جمع الآخرة، سبعة آلاف سنة، فقد مضى منها ستة آلاف سنة ومائتا سنة، وليأتينّ عليها مئون من سنين..).

هل طرأ عليه إضافات أو ترقية!!؟ يقول الله ﷻ: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾[1].

## الشواهد المادية كثيرة

فالمتأمل في خلق الإنسان يجد عجبا، ويجد من الأدلة ما يدل على وجود الخالق، ويجد ما يدل على سعة علمه ونعمه التي لا تحصى، فالشواهد المادية كثيرة وجليّة، وكل إنسان يراها بحسب ثقافته وبيئته وعمرة، وعندما يقول الله ﷻ: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمْۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ۝٢١﴾[2]، فإنه تعالى يخاطب كل نفس بحسب ثقافتها، وفى هذا البحث نذكر الأمثلة التي ضربها الشيخ النابلسي للدلالة على بديع صنع الله في الإنسان، فيقول:

**المثل رقم (٣٠٧): لو نصبت ابنتك الجميلة إلى جانب مجسَّم لطفلة جميلة أخرى في محل ألبسة أطفال، هل توازَن هذه مع هذه؟ ابنتك تسلب لبّك، وتلك لا تحرّك فيك إحساسا[3]!!**

## كلُّ حركة من حركات الإنسان ضرورة

فكلُّ حركة من حركات الإنسان نعمة، وهي بمثابة ضرورة هامة لا غنى عنها

---

(١) [لقمان: ١١].

(٢) [الذاريات: ٢١].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (١٦).

في حياته، فالنوم نعمة، والاستيقاظ نعمة، وكل حركة من حركات الأحداث نعمة تستحق الحمد، وكل نعمة من هذه ينطوي تحتها نِعَم كثيرة، ويعرض الشيخ النابلسي بعض النماذج والأمثال للدلالة على عظيم خلق الله تعالى في الإنسان فيقول:

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾

ينمو شعر الإنسان في كل مكان في الجسم ما عدا راحتي اليد وباطن القدمين والشفتين، وفي هذا حكمة وفائدة عظيمة، إذ كيف يستطيع الإنسان العمل وتناول الأشياء وقبضة يده مليئة بالشعر!! أو يمشي على التراب والوحل والشعر يكسوا باطن قدميه!! أو يأكل الطعام ويشرب الماء والشعر يتساقط من شفتيه[1]!! فالشعر من أسرع الأنسجة نموا في جسم الإنسان، ويبلغ متوسط عدد شعر الرأس عند الإنسان العادي مائة ألف شعرة عدا الذقن والشارب، ويفقد الإنسان حوالي مائة شعرة يوميا، ويحمي الرأس من الأشعة فوق البنفسجية الضارة!

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾

يخرج البول من الكليتين ويتجمع في المثانة بمعدل نقطتين في كل ثانية ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾ فالمثانة هي كيس بول داخلي يتحكم فيه الإنسان، ولولا

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢١).

وجود هذا الكيس لسال البول تلقائيا إلى خارج الجسم[١]!! وكيف تكون النتائج الشكلية والنفسية على الإنسان حينما يسيل هذا البول تلقائيا؟ كيف يكون حال هذا الإنسان خلال العمل أو الوظيفة، أو في خلال مناسباته وعبادته وأعياده، هل يستخدم كيس البول الطبّي الخارجي، أو يستعمل (الفوطة)!!!

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾

نعمة الهضم على مدار الساعة، عملية معقدة تتم في ثلاث ساعات خلال الدورة الواحدة، فالإنسان يأكل ويتولى الله عنه عملية الهضم[٢]!! فلو أوكل الله ﷻ عملية الهضم إلى الإنسان نفسه، يأكل في ربع ساعة ثم يتولى عملية الهضم ساعات أخرى طويلة بنفس الطريقة التي أكل فيها الطعام، ثم يتولى بعدها عمل البنكرياس والمرارة، وحركة الأمعاء وامتصاص الطعام الواحدة تلو الأخرى، ثم تحليله إلى مواد سكرية تخزّن في الكبد وفي العضلات، وإلى مواد شحمية تخزن في مكانها، لكانت حياة الإنسان جحيما لا يطاق، لا تكفيه طوال ساعات اليوم لتحليل وجبة طعام واحدة، فهذا كله يتولاه الله عن الإنسان وهو نائم، ساهٍ، لاهٍ، غافلٍ، لا يدري عن ذلك شيئا!

---

(١) فارد، بريان. **موسوعة جسم الإنسان**، صيانة الجسم، (ص٣٤،٣٢).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢١)، انظر: فارد، بريان،، **موسوعة جسم الإنسان**، الجهاز الهضمي(ص١٢) وما بعدها.

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾

صندوق الجمجمة، ذو المفاصل المتحركة، والفراغات لحفظ الدماغ، وسائل يوزع الضربة على كل المساحة المجاورة، فقد يرى الواحد منا رأس طفله حينما يرتطم بالأرض، فيسمع صوتا مدوّيا ولا ينكسر الرأس[1]!! فحينما يقف الإنسان منتصب القامة، يبقى الرأس ومحتوياته بعيدا عن الضربات والصدمات، وفي ذلك حكمة عظيمة، ومع ذلك دعت الحاجة إلى حماية أكثر بفضل العناية الإلهية، فالمفاصل والفراغات التي بينها تمتصّ الضربات الشديدة إذا ما تعرضت لها الجمجمة، كذلك المفاصل وحركاتها؛ فلو فكر الإنسان بجسمه كيف يأكل لو كانت غير موجوده، ينبطح مثل الهرة ويلحس الطعام بلسانه[2]!

## العلاقة العاطفية في الأسرة

فالطفل حديث الولادة يكون عاجزاً ومرتبطاً بوالديه ومتعلقاً بهما، وهما ملزمان بالعناية به وحفظه وتغذيته، وسرعان ما يتعلم السلوكيات حينما يبدأ

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢١)، انظر: فارد، بريان، **موسوعة جسم الإنسان**، المخ والجهاز العصبي، (ص٦).

(٢) النابلسي، تفسير سورة البقرة، الدرس (٢١)، انظر: فارد، بريان، **موسوعة جسم الإنسان**، الهيكل العظمي والحركة (ص ٢٠).

يحبوا ويتحرك ويمشي بعد الشهور التسعة الأولى، ثم يستدل على التصرفات التي تُغضب الكبار فيتجنبها، بينما الإنسان البالغ قد يغضب بشدة أو يحقد إذا سمع كلاما لا يعجبه، وقد يقاطع الآخرين ولا يكلمهم شهورا وسنوات!! أما لو قاطع طفل رضيع أو قاصر أمه أو أباه فقد تحدث مصيبة في حياة الأسرة؟؟ وتصير متباعدة ومقطعة الأوصال!! لذا يقول الشيخ النابلسي: الطفل الصغير بريء لا يحقد أبدا، سريع الرضا، فلو كان الطفل بطيء الرضا لاستحالت تربيته[1].

## حاسة البصر

يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ نَجْعَل لَّهُۥ عَيْنَيْنِ ۝٨﴾[2]. فقد نجد الإنسان يغترّ بقوته، وقد جعل الله له من الحواس ما يهديه في عالم المحسوسات، وجعل له عينين على هذا القدر من الدقة في تركيبهما وفي قدرتهما على الإبصار، والله هو المنعم عليه بهذا القدر من القوة، يقول الشيخ النابلسي: وهذه العين على صغر حجمها فإنها ترى الجبل بحجمه الطبيعي وبألوانه الدقيقة، وهي تفرّق بين درجتين من أصل ثمانمائة ألف درجة في اللون الواحد[3]. والدمع يفيض دائماً على الوجنتين، ومن

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢١).

(٢) [البلد: ٨].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٦، ٨٤).

طبيعة هذا السائل القلوي بأنه يصيب الجلد بالحرقة ويؤثر على الوجنتين بالاحمرار، فيضطر الإنسان لأن يمسحه دائما، ولكن الأعجب أنه لا يلهب العين في الباطن، ولا يؤثر على الجفون نفسها[١].

وكيف سيكون حال هذا الإنسان إذا تألم من وجع، أو أصابته مصيبة فبكى وسالت دموعه، فتصيبه حرقة في الباطن زيادة على حرقة الجلد، بحيث يصيبه زيادة على ألمه ألم آخر!! أليس هذا خلق الله تعالى؟؟! بلى: ﴿هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝١١﴾[٢].

أما لو كانت عين الإنسان في جبينه ما سلم إنسان له بصره؛ لأنه إذا وقع على الأرض فُقِئت عينُه وانتهت، ولا تجد السالمين سوى عشرة بالمائة من الناس فقط[٣].

وفي فنلندا وشيكاغو برد لا يحتمل، يرتدي الإنسان ثياباً كثيرة ولكن لا بُدَّ أن يكشف عينيه، وماء العين على تماس مع حرارة تقل عن سبعين درجة تحت الصفر، ومن المفروض أن يتجمَّد ماء العين ويفقد كل سكان هذه البلاد أبصارهم[٤]!!

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٦٢).

(٢) [لقمان: ١١].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢١).

(٤) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، درس (٤٥).

فقد اتفق علماء الطبيعة على أن كل المياه والسوائل تتجمد عند درجة حرارة معينة، سواء في البحار والمحيطات على سطح الأرض، وحتى الكواكب الأخرى في الفضاء، أما في عدسة العين السائلة فإنها تبقى على حالها تحت جميع الظروف، ولو تجمدت في لحظة ما لتعطلت الرؤية ووقف الإنسان في الطريق أو المركبة حائرا، وما استطاع أن يتقدم خطوة واحدة!!

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾

المعدة، هي جزء من القناة الهضمية التي تلي المريء، وهي أشبه بكيس يستوعب الطعام، يتم فيها عمليتا هضم، هضم ميكانيكي بواسطة انقباض جدران المعدة على الطعام، وهضم كيميائي من خلال إفراز الإنزيمات على الغذاء، يقول الشيخ النابلسي: الأحماض الكثيرة التي تفرزها المعدة ودورها في هضم أنواع الحبوب واللحوم التي تقدّر بالأطنان مما يتناوله الإنسان في عشرات السنين من حياته، إلا أن العجيب هنا هو أن المعدة – وهي من جنس ما يأكله الإنسان- لا تأكل بعضها ولا تهضم نفسها[1]!!

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾

الكليتان، هما أهم الأعضاء للتصفية وتنقية الدم في الجسم، ووظيفتهما إفراز البول من الدم، ولهما دوراً أساسيا في توازن صحة الجسم، ففي الكليتين طريق

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٦).

يزيد عن مئة كيلو مترا يقطعه الدم في اليوم خمس مرات من أجل التصفية[1]، يقول الشيخ النابلسي: فالكلية الطبيعية بحجم البيضة تعمل بصمت في كل الأحوال، تعمل وهو نائم، تعمل وهو يمشي، تعمل وهو يقود مركبته، بينما الكُلية الصناعية كالطاولة، لا بُدَّ أن يستلقي الإنسان على ظهره ثمان ساعات لتصفية دمه، مع تعطيل الوقت وبذل الجهدٍ والألم، والنفقات الباهظة [2].

﴿وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾

القلب، وهو عبارة عن عضلة بحجم قبضة اليد الكبيرة، تعمل مثل مضخة الدم في الشرايين ومنه إلى أنحاء الجسم الأخرى، ثم يستقبله مرة ثانية، يتمركز في الصدر مائلا قليلا نحو اليسار، وينبض من (٦٠-٨٠) نبضة في الدقيقة ليتم ضخ حوالي (٣-٥) لترات من الدم في الدقيقة الواحدة، يقول الشيخ النابلسي: القلب يضخّ في اليوم الواحد ما يملأ مستودعاً حجمه ثمانية أمتار مكعبة[3]!! ويصف الشيخ النابلسي صمام القلب الطبيعي بأنه متميّز، فالإنسان المريض إذا استبدل صمّاما صناعيا فإنه لا ينام الليل بسبب أنه يسمع طرقا، بينما الصمام الطبيعي عند الإنسان السويّ ليس له صوتا[4].

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٤٧).

(٢) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (١٦).

(٣) النابلسي، **تفسير سورة آل عمران**، درس (٤٧).

(٤) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢١).

﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ ٢١﴾

مبيضا المرأة غدتان تناسليتان أنثويتان، مسئولتان عن الصفات الجنسية الأولية لإنتاج البويضات والهرمونات الجنسية الأنثوية عند سنّ البلوغ، ويذكر الشيخ النابلسي ظاهرة تلفت النظر لبيان حقيقة هامة في هذا السياق فيقول: ينتهي مبيض المرأة من إفراز البويضات في سنّ اليأس لضعف جسمها، بينما الرجل يبقى قادرا على إنتاج الحيوانات المنوية حتى في التسعينات[1].

## إنه تصميم إلهي رائع!

فالمرأة على الأغلب تكون عاجزة بعد سنوات الأربعين عن القيام بتبعات الحمل والولادة والرضاع لضعف جسمها عن تحمّل هذه المشاقّ الناجمة عن الحمل والإنجاب وعدم قدرتها على ذلك، بينما الرجل يبقى قادرا على امتلاك أسباب الإنجاب لسنوات طويلة بسبب إعفائه من تحمل هذه المشاقّ والمسؤوليات.

أخيرا، بعد هذا الاستعراض الواضح، وذكر بعض البراهين الدالة على عظيم خلق الله تعالى في جسم الإنسان، يضرب الشيخ النابلسي مثلاً رائعا للتأكيد على حقيقة هذه العظمة فيقول:

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٢١).

**المثل رقم (٣٠٨): إنّك لو اقتنيت جهازًا بالغ التعقيد، ثم رأيت الذي اخترعه، فإنك تقف أمامه بإجلالٍ، لأنك تعلم أنه عالمٌ وعبقريٌّ، فكلما دققت في آيات الله تعالى، وفي خلقه وفي مخلوقاته، لعرفت أن الله عليم عظيم**[١].

## عظيم خلق اللّه في الحيوان

يقول الله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾[٢]. فخلق الله تعالى ليس فيه تفاوت، ولا فرق بين الأجسام العظيمة والصغيرة، أو بين الزاحفة والطائرة من حيث الإبداع والإتقان والعظمة، ففي خلق الله تعالى دقة الصنع وحسن التقويم دوما.

ويضرب الشيخ النابلسي مثلاً لبيان عظمة الله تعالى في خلق الطير فيقول:

**قد يؤخذ الطائر من عشه قبل أن يطير من لندن إلى الصين فيهتدي ويعود من حيث أتى، والطائر الذي غادر عشه في دمشق وانتقل إلى جنوب إفريقيا فإنه يعود إلى هدفه، ولو تغيرت زاوية الطيران في رحلة العودة درجة واحدة إلى اليمين لكان يهبط في بغداد، أو درجة واحدة إلى اليسار يهبط في القاهرة، فما هذه القدرة**[٣]**؟!**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨٤).

(٢) [الملك: ١٩].

(٣) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨٣).

## هذا خلق الله في الأسماك!

ويذكر الشيخ النابلسي دليلا على عظمة الله تعالى في خلق الأسماك فيقول: هناك أسماك تسير في أطول أنهار العالم (نهر النيل)، إلى البحر المتوسط، وتتجه غرباً حيث البحر المتوسط، ثم تخرج من مضيق جبل طارق إلى بحر الشمال، ثم تعود من حيث أتت، فرُبَّانٌ يحمل شهادة الدكتوراه بالملاحة يضيع بدون بوصَلَة!!

## وماذا عن خلق البعوضة؟

يقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسۡتَحۡيِۦٓ أَن يَضۡرِبَ مَثَلٗا مَّا بَعُوضَةٗ فَمَا فَوۡقَهَاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَيَعۡلَمُونَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّهِمۡۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلٗاۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرٗا وَيَهۡدِي بِهِۦ كَثِيرٗاۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلۡفَٰسِقِينَ ٢٦﴾[1]. لقد سخر الكافرون بالقرآن إذ قالوا: إله عظيم يذكر الحشرات الحقيرة كالبعوض والذباب والنمل والعنكبوت[2]، فالبعوضة حشرة حقيرة لا قيمة لها يضربها أو يقتلها الإنسان ولا شيء عليه، ولكن حقيقة خلق هذه الحشرة بالغة التعقيد على صغرها.

---

(١) [البقرة: ٢٦].

(٢) تفسير القرطبي (١/ ٢٤٢)، أيضا: البحر المحيط في التفسير (١/ ١٩٣)، أيضا: تفسير ابن كثير (١/ ٢٠٧).

## البعوضة تستخدم جهاز الرادار!

فالبعوضة حينما تحط على جبين طفل صغير تستخدم جهاز الرادار لتهتدي إلى جبينه مباشرة، ثم تستخدم جهاز التخدير كي لا يصحو، ثم جهاز التمييع ثم جهاز التحليل، ولها ثلاثة قلوب؛ وترفّ أجنحتها أربعة آلاف رفة بالثانية، وتشم رائحة عرق الإنسان من ستين كيلو مترًا، وإنها إذا وقفت على سطح أملس أو خشن استخدمت محاجمها أو مخالبها!!

## كلما صغر حجم الجهاز ازداد تعقيدا

ثم يتابع الشيخ النابلسي في توضيح كلامه؛ للدلالة على عظيم خلق الله، ويضرب مثلاً للتأكيد على هذه العظمة فيقول:

**المثل رقم (٣٠٩): إن الشيء كلما صغر حجمه احتاج إلى صناعة بارعة، فقد تجد مذياعا كبيرا فلا يثير دهشتك، أما إذا رأيت مذياعا صغيرا جدا فإنه يستأثر باهتمامك**[١].

فكلما صغر حجم الجهاز رأيت صنعه غاية في الإتقان، وكلما صغرت الآلة كان دليل ذلك عظمة الصانع، ويظهر أن الشيخ النابلسي اقتبس هذا المثل من خواطر الشيخ الشعراوي حيث يذكر مثالا متطابقا في اللفظ والمعنى في هذا السياق فيقول: **وعندما بدأ اختراع المذياع أو الراديو كان حجمه كبيرا، والآن**

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٤).

**أصبح في غاية الدقة لدرجة أنك تستطيع أن تضعه في جيبك أو أقل من ذلك، وفي كل الصناعات عندما ترتقي يصغر حجمها لأن ذلك محتاج إلى صناعة ماهر وإلى تقدم علمي ودقة خلق أكبر"(١)!!**

فالحشرات الصغيرة والكائنات المجهرية الدقيقة التي لا شأن لها عند الإنسان، هي في حقيقتها مخلوقات عظيمة جدا وليس من حرج أن يضرب الله بها مثلا، وتستحق ذلك عند ربها، فعدم الفهم والوجدان عند الإنسان لا يدل على عدم الوجود.

## عظيم خلق اللّه في النبات

يقول الله ﷻ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ﴾(٢). فقد عدّ علماء الطبيعة أكثر من ثلاثمائة ألف نوع من النباتات(٣)، وكتبوا ثمانية عشر مجلدا تحوي كل صفحة منها نوعا واحدا من النباتات البصلية غير الوردية، هذه كلها للمتعة فقط! فالنبات لإنتاج الأخشاب قد تزيد عن مائة نوع، كخشب الخيزران من أجل أثاث البيت، وأخشاب

---

(١) الشعراوي، **تفسير القرآن** (١/ ٢١١).

(٢) [الأنعام: ٩٩].

(٣) برغوثي، عماد، **الإسلام والعلم** (ص ١٠٨)، ط١ (٢٠٠٥) مكتبة دار الفكر – القدس.

للأغراض الصناعية مرنة ومتينة، وأخشاب تصلح للأبنية الضخمة، هناك خشب يزداد حجمه مع الماء وخشب تصنع منه النوافذ لا يتأثر بالماء والهواء والحرارة والبرودة، هناك أشجار مظلات وأشجار حدودية وأشجار الكاوتشوك والفلّين، ونباتات للأدوية وأخرى للأصبغة، وأخرى للأواني وأخرى لحبّات المسبحة، نباتات لتنظيف الأسنان كعود السواك ونباتات دقيقة لتنظيف ما بين الأسنان، ونبات لتنظيف الجسم (الليفة) ونباتات لصناعة ورق الكتابة كورق البردى، فهذه أنواع لا تعدّ ولا تحصى، كلها مخلوقة من أجل الإنسان تصديقا لقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾[١]، ويذكر الشيخ النابلسي ما يدلّ على هذا المعنى فيقول:

**في الربيع تزهر الأشجار بصمت وتورق وتثمر، ثم تجدها كالحطب...**

**أو تجد وردة حمراء جميلة ذات رائحة عطرة قد نمت على كوم قمامة أو روث حيوان...**

**أو تجد خمس غرامات من بذور البندورة تعطي عشرة أطنان[٢]...**

---

(١) [البقرة: ٢٩].

(٢) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (٨٣).

## كلّ هذا لأجل خدمة الإنسان

فإذا أثمرت هذه الشجرة فهذا لأجل خدمة الإنسان، وإن تحوّلت حطبا فهو لأجل خدمة الإنسان أيضا، وإن نمت وردة برائحة عطرة فهو لأجل خدمة الإنسان، وهذا كله يدلّ على عظمة الخالق وعظيم صنعه. ويضرب الشيخ النابلسي على ذلك أمثالا[1] فيقول:

**المثل رقم (٣١٠): لو أردت أن تسحب عنقود العنب سحباً لَعُصِر في يدك ولا ينسحب معك، أما بحركة معاكسة فإنك تنزعه بسهولة من على الشجرة!!**

**المثل رقم (٣١١): هذا البطيخ.. يجب أن ينضج خلال تسعين يوماً، لو أنه نضج في يومٍ واحد لا تنتفع منه إطلاقاً... كذلك أنواع الخضروات.**

**المثل رقم (٣١٢): أما المحاصيل كالحبوب فهي تنضج في وقتٍ واحد تسهيلاً لجنيها، وتصمد السنين الطوال!**

فالقمح والشعير والذرة والأرز وغيرها من الحبوب، تعتبر الغذاء الرئيسي لكثير من شعوب العالم، بل ويسمونها السلاح الاستراتيجي للدول في المجال الغذائي، لا ينافسها في هذا المجال منافس، حيث تتقاسم هذه الحبوب غذاء البشر على وجه الأرض، تنضج في وقت واحد تسهيلا لجنيها، إذ لا يمكن جنيها حبة حبة كلما نضجت، هذا سيكون عملا شاقا جدا لا يمكن تحمله!

---

(١) النابلسي، **تفسير سورة البقرة**، الدرس (١٠).

**المثل رقم (٣١٣): هذه الفواكه مبرمجة، كل فترة من الصيف تنضج فاكهة، تبدأ بهذه الفاكهة ثم هذه الفاكهة، فهي مبرمجة فيما بينها، ومبرمجة في نضجها في ذاتها، ليستهلكها الإنسان أولا بأول وقت نضوجها، فهي تتلف ولا تحتمل البقاء طويلا...**

**المثل رقم (٣١٤): الثمار الكبيرة الزاحفة على الأرض، لو أنها على الشجر لصار هناك حوادث موت كثيرة، فلو وقعت بطيخة وزنها اثنتي عشر كيلوًا على إنسان فإنها تُميتَه، بينما الفواكه اللطيفة على الشجر، والشجر قريب، هناك تصميم مذهل بالكون!!**

هذه نباتات كثيرة، وأطعمة عديدة وروائح مختلفة، والحديث عنها يطول ولا ينتهي، وكل شيء منها مخصص لخدمة الإنسان، ولأجل أن يتنعّم بها.





# الخاتمة

الحمد لله الذي بذكره تتم الصالحات، أحمده تعالى أن يسّر لي كتابة هذه الدراسة وأعانني عليها، وفي نهاية هذه الدراسة أسجل أهم النتائج التي توصلتُ إليها، وهي:

١. كان أسلوب علماء التفسير المعاصرين، أبرزهم الشيخ محمد متولي الشعراوي ﵀، والشيخ محمد راتب النابلسي حفظه الله، باستخدام ضرب الأمثال من واقع الحياة اليومية، والمعاني المعاصرة في تفسير القرآن، أسلوبا ناجحا ومؤثرا إلى درجة عالية، بدليل اهتمام جيل الأمة المعاصر بهذه الدروس والاستماع إليها بشغف.

٢. امتاز أسلوب الشيخين بالبساطة في انتقاء الألفاظ، وكذلك سهولة تركيب الجُمل والمعاني ووضوحها.

٣. استخدامهما أمثالا قريبة للتوضيح من جميع الأصعدة، كالحياة الأسرية والأكاديمية والطبية والمهنية، والشركات وأصحاب الصناعات، والأسواق والتجارة، والحواسّ والمكنونات، والمركبات ووسائط النقل، والدوائر الرسمية والحكومية، والتجارب السياسية، مما جعلها قريبة من النفوس الأذهان.

٤. كثرة الاعتماد على الأحاديث الضعيفة والموضوعة أحيانا، وقليلا ما أوردا في دروسهما الأحاديث الصحيحة.

٥. الإسهاب في الشرح والتوضيح، والتكرار والإعادة في المثال الواحد في نفس السياق.

٦. الاستعانة باللهجة العامية المصرية والشامية في أمثالهما وشروحاتهما، مما دفع الباحث دائما إلى صياغة هذه الأمثال الواردة بطريقته، والتصرف فيها قبل نقلها والتعليق عليها.

٧. التأثر الواضح والمباشر ببعض الأمثال التي استخدمها الشيخ النابلسي بالشيخ الشعراوي.

٨. تجنب الحديث عن ذكر أسماء الجماعات والتنظيمات، والأحداث المعاصرة، والإعراض عن ذكر الدول والأشخاص، مع التعرض لبعض منها بالرمز والتلميح والإشارة.

**ويوصي الباحث في خاتمة هذه الدراسة بعدة توصيات، أهمها:**

١. ضرورة الإهتمام بأسلوب ضرب المثل لبيان معاني القرآن والحديث، ومراجعة هذه الأمثال والبحث فيها من مصادرها، لما في ذلك من فائدة عظيمة في استخراج المعاني فيهما والكشف عنها بسهولة.

٢. أوصي قادة الإشراف التربوي في العالم الإسلامي بصياغة الأمثال من واقع الحال، باستخدام مصطلحات عصرية، ومفردات بسيطة وسهلة قريبة للأذهان– كما هو الحال عند الشيخ النابلسي – بحيث يجعل الخيال كأنه حقيقة، والغائب كأنه حاضر بسهولة ويُسر.

٣. أوصي الدعاة والوعّاظ بصياغة الأمثال شديدة الاختصار للترغيب بالفضائل واتباعها، والتحذير من الرذائل واجتنابها، واستخلاص العبر منها.

٤. أوصي صُنّاع التوجيه الأكاديمي في البلاد الإسلامية بأن يكون ضرب المثل أسلوبا تربويا دينيا واجتماعيا جديدا، يُضاف إلى أساليب التربية والتعليم الحديثة في المدارس والجامعات، من أجل تغيير السلوك السلبي عند الطالب.




## أولا: قائمة المصادر


١. القرآن الكريم.

٢. ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد المعروف بابن أبي الدنيا، **المرض والكفارات**، تحقيق: عبد الوكيل الندوي، الدار السلفية، بومباي، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ-١٩٩١م.

٣. ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد الرازي، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: أسعد محمد الطيب، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، الطبعة الثالثة - ١٤١٩ هـ.

٤. ابن الجوزي، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي، **صيد الخاطر**، تحقيق: حسن المساحي سويدان، دار القلم، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

٥. ابن العربي، أبو بكر محمد بن العربي، **أحكام القرآن**، تعليق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت.ن).

٦. ابن العماد، عبد الحي بن أحمد العَكري الحنبلي، **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق – بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م.

٧. ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد ابن تيمية، **التحفة العراقية في الأعمال القلبية**، المطبعة السلفية، القاهرة، الطبعة الثانية،١٣٩٩ه.

٨. ابن حبان، محمد بن حبان التميمي، **صحيح ابن حبان بترتيب ابن بلبان**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية ١٤١٤ه– ١٩٩٣م.

٩. ابن حزم، علي بن حزم الظاهري الأندلسي، **الفصل في الملل والأهواء والنحل**، مكتبة الخانجي، القاهرة، (د.ت.ن).

١٠. ابن خزيمة ، أبو بكر محمد بن إسحاق النيسابوري ، **صحيح ابن خزيمة**، تحقيق: د. محمد مصطفى الأعظمي، المكتب الإسلامي، بيروت، (د.ت.ن).

١١. ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد، **وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان**، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر – بيروت، ط١٩٩٤م.

١٢. ابن رجب، زين الدين عبد الرحمن الحنبلي، **رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي**، تحقيق: طلعت بن فؤاد الحلواني، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر (د.م.ن)، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

١٣. ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الهاشمي البغدادي، **الطبقات الكبرى**، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

١٤. ابن سلام، أبو عُبيد القاسم، **الأمثال**، تحقيق عبد المجيد قطامش، دار المأمون للتراث (د.م.ن)، ط١، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

١٥. ابن شاهين، أبو حفص عمر بن أحمد بن أزداذ البغدادي، **شرح مذاهب أهل السنة**، تحقيق: عادل بن محمد، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م.

١٦. ابن عادل، أبو حفص سراج الدين عمر الحنبلي(المتوفى: ٧٧٥هـ)، **اللباب في علوم الكتاب**، تحقيق: عادل عبد الموجود، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، الطبعة الأولى، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م.

١٧. ابن قدامة، عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، **المغني في فقه الإمام أحمد بن حنبل** الشيباني، دار الفكر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٥ه.

١٨. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر الزرعي ، **عدة الصابرين وذخيرة الشاكرين**، تحقيق: أبو أسامة الهلالي، دار ابن الجوزي، السعودية، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.

١٩. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر الزرعي ، **مفتاح دار السعادة**، تحقيق: علي بن حسن الحلبي الأثري، دار ابن عفان، السعودية، ط١، ١٤١٦هـ -١٩٩٦م.

٢٠. ابن قيم الجوزية، محمد بن أبي بكر الزرعي، **إعلام الموقعين عن رب العالمين**، تحقيق: محمد عبد السلام إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٢١. ابن قيّم الجوزية، محمد بن أبي بكر الزرعي، **الأمثال في القرآن**، تحقيق: أبو حذيفة إبراهيم بن محمد، مكتبة الصحابة – مصر، ط١، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.

٢٢. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ، **البداية والنهاية**، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي،(د.م.ن) ط١، ١٤٠هـ - ١٩٨٨ م.

٢٣. ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر ، **تفسير القرآن العظيم**، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م.

٢٤. ابن ماجة، أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، **سنن ابن ماجه**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، (د.ت.ن)، (د.م.ن).

٢٥. الأصبهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، **معرفة الصحابة**، تحقيق عادل العزازي، دار الوطن للنشر، الرياض، ط١، ١٤١٩هـ/ ١٩٩٨م.

٢٦. الأصبهاني، عبد الله بن محمد، **الأمثال في الحديث النبوي**، تحقيق: عبد العلي حامد، الدار السلفية، بومباي - الهند، ط١، (١٤٠٢/ ١٩٨٧).

٢٧. الأصفهاني، أبو القاسم الحسين بن محمد الشهير بالراغب، **المفردات في غريب القرآن**، تحقيق محمد سيد كيلاني، دار المعرفة، لبنان، (د،ت.ن).

٢٨. الأصفهاني، أبو نعيم أحمد بن عبد الله، **حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**، دار السعادة - بجوار محافظة مصر، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

٢٩. الأعرابي، أبو سعيد، **الزهد وصفة الزاهدين**، تحقيق: خديجة كامل، دار الكتابة المصرية، القاهرة، ط١، ١٩٩٨م.

٣٠. الألوسي، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني، **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥ هـ.

٣١. الأندلسي، محمد بن يوسف بن علي الشهير بأبي حيان، **البحر المحيط في التفسير**، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت، الطبعة: ١٤٢٠هـ.

٣٢. البخاري، أبو عبدالله محمد بن إسماعيل، **صحيح البخاري** (الجامع المسند الصحيح المختصر)، تحقيق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة، ط١، ١٤٢٢ه (د.م.ن).

٣٣. البغوي، الحسين بن مسعود بن الفراء ، **معالم التنزيل في تفسير القرآن** (المتوفى : ٥١٠ هـ)، تحقيق : عبد الرزاق المهدي(٣/ ٢٤)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ.

٣٤. البغوي، عبد الله بن محمد أبو القاسم، **معجم الصحابة**، تحقيق محمد الأمين الشنقيطي، مكتبة دار البيان، الكويت، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٣٥. البيهقي، أبو بكر أحمد بن الحسين، **شعب الإيمان**، تحقيق: عبد العلي حامد، ومختار أحمد الندوي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند، ط١، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

٣٦. الترمذي، أبو عيسى محمد بن عيسى، **سنن الترمذي**،تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر، ومحمد فؤاد عبد الباقي، وإبراهيم عطوة، مصر، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الثانية ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م.

٣٧. الثعلبي، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ)، **الكشف والبيان عن تفسير القرآن**، تحقيق: الإمام أبي محمد بن عاشور، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان،ط١، ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢ م.

٣٨. الجرجاني، عبد القاهر، **أسرار البلاغة**، تعليق: محمود محمد شاكر، دار المدني، جدة، (د.ت.ن).

٣٩. حقي، إسماعيل بن مصطفى الإستانبولي، **روح البيان**، دار الفكر بيروت، (د.ت.ن).

٤٠. الحلاج، الحسين بن منصور الحلاج، **ديوان الحلاج**، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٤١. الحنفي، صدر الدين ابن أبي العز، **شرح العقيدة الطحاوية**، تحقيق: أحمد شاكر وزارة الشؤون والأوقاف، السعودية، ط١، ١٤١٨هـ.

٤٢. الخازن، علاء الدين علي بن محمد أبو الحسن (المتوفى: ٧٤١هـ)، **لباب التأويل في معاني التنزيل**، تحقيق: تصحيح محمد علي شاهين، (٤/ ٣١٠)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط١، ١٤١٥هـ.

٤٣. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، تحقيق شعيب الأرناءوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٢م.

٤٤. الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، **كتاب الكبائر**، دار الندوة الجديدة، بيروت، (د.ت.ن).

٤٥. الرازي، محمد بن أبي بكر بن عبدالقادر الرازي، **مختار الصحاح**، تحقيق: محمود خاطر، مكتبة لبنان، بيروت، طبعة جديدة، ١٤١٥ – ١٩٩٥.

٤٦. الرازي، محمد بن عمر الملقب بفخر الدين، **مفاتيح الغيب التفسير الكبير** (تفسير الرازي)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ.

٤٧. الرامهرمزي، الحسن بن عبد الرحمن بن خلاد الفارسي، **أمثال الحديث**، تحقيق عبد العلي الأعظمي، الدار السلفية، الهند، ط١ ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٣م.

٤٨. الزبيدي، محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، **تاج العروس من جواهر القاموس**، تحقيق مر مصطفى حجازي، مطبعة حكومة الكويت، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.

٤٩. الزركلي، خير الدين بن محمود، **الأعلام**، دار العلم للملايين،(د.م.ن) الطبعة (١٥) - أيار / مايو ٢٠٠٢ م.

٥٠. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، **الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل**، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٧ ه.

٥١. الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، **ربيع الأبرار ونصوص الأخبار**، تحقيق: عبد الأمير مهنّا، مؤسسة الأعظمي للمطبوعات، بيروت، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢م.

٥٢. السجستاني، أبو بكر محمد بن عزيز، **غريب القرآن**، تحقيق محمد أديب عبد الواحد جمران، دار قتيبة، ١٤١٦هـ- ١٩٩٥م، (د.م.ن).

٥٣. السجستاني، أبو داود سليمان بن الأشعث، **سنن أبي داود**، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت، المكتبة العصرية (د.ت.ن).

٥٤. السخاوي، شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمن، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع**، منشورات دار مكتبة الحياة – بيروت (د.ت.ن).

٥٥. السلمي ، أبو عبد الرحمن محمد بن الحسين النيسابوري ، **آداب الصحبة**، تحقيق: مجدي فتحي السيد، دار الصحابة للتراث، مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م.

٥٦. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق: أحمد بن علي، دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

٥٧. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، **طبقات المفسرين**، تحقيق: علي محمد عمر، مكتبة وهبة – القاهرة، ط١، ١٣٩٦هـ.

٥٨. الشافعي، **ديوان الإمام الشافعي**، تحقيق عبد الرحمن المصطاوي، دار المعرفة، بيروت، ط٣، ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م.

٥٩. الشوكاني، محمد بن علي اليمني، **فتح القدير الجامع بين فنيّ الرواية والدراية من علم التفسير**، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ.

٦٠. الشيباني، أحمد بن حنبل الشيباني، **مسند الإمام أحمد بن حنبل**، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م.

٦١. الصنعاني، أبو بكر عبد الرزاق الصنعاني، **المصنف**، تحقيق: حبيب الرحمن الأعظمي، المجلس العلمي- الهند، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ.

٦٢. الضبّي، المفضل بن محمد بن يعلى، **أمثال العرب**، تعليق إحسان عباس، دار الرائد العربي، بيروت، ط٢، ١٤٠٣هـ- ١٩٨٣م.

٦٣. الطبراني، سليمان بن أحمد أبو القاسم الطبراني، **المعجم الكبير**، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مكتبة ابن تيمية، القاهرة، ط٢، (د.ت.ن).

٦٤. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ومحمود محمد شاكر، مؤسسة الرسالة (د.م.ن) ط١٤٢٠هـ - ٢٠٠٠ م.

٦٥. الطيالسي، أبو داود سليمان بن داود، **مسند أبي داود الطيالسي**، تحقيق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي، دار هجر، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٩ هـ- ١٩٩٩ م.

٦٦. العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن حجر، **الإصابة في تمييز الصحابة**، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود وعلى محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥ه.

٦٧. العسكري، أبو هلال، **جمهرة الأمثال**، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٦٨. الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد ، **إحياء علوم الدين**، دار المعرفة، بيروت (د.ت.ن).

٦٩. الفيروزآبادي، مجد الدين محمد بن يعقوب، **القاموس المحيط**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٣، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

٧٠. القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد، **الجامع لأحكام القرآن**، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية،القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م.

٧١. الكفوي، أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني، **الكليّات**، معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش، محمد المصري، مؤسسة الرسالة (د.ت.ن).

٧٢. المباركفوري، أبو العلا محمد عبد الرحمن، **تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**، دار الكتب العلمية – بيروت.

٧٣. المقري، أحمد بن محمد التلمساني، **نفخ الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، تحقيق د.إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٣٨٨هـ.

٧٤. منظور ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، (د.ت.ن).

٧٥. الميداني، عبد الرحمن حبنكة ، **أمثال القرآن**، دار القلم، دمشق، ط٣، ١٤١٢هـ/ ١٩٩٢ م.

٧٦. النسفي، أبو البركات حافظ الدين، **مدارك التنزيل وحقائق التأويل**، تحقيق: يوسف علي بديوي، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨ م.

٧٧. نكري، الأحمد، القاضي عبد النبي بن عبد الرسول، **دستور العلماء، جامع العلوم في اصطلاحات الفنون**، تعريب: حسن هاني فحص، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٧٨. النمري، يوسف بن عبد البر، **أدب المجالسة**، تحقيق، سمير حلبي، مصر، دار الصحابة للتراث – طنطا، الطبعة الأولى ١٤٠٩ه– ١٩٨٩م.

٧٩. النووي، أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف، **التبيان في آداب حملة القرآن**، تحقيق: محمد الحجار، دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤م.

٨٠. النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب، **نهاية الأرب في فنون الأدب**، تحقيق: مفيد قمحية، دار الكتب العلمية، بيروت/ لبنان، ط١، ١٤٢٤هـ/ ٢٠٠٤م.

٨١. النيسابوري، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيري ، **المسند الصحيح المختصر**، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، بيروت، دار إحياء التراث العربي، د.ت.ن.

٨٢. النيسابوري، أبو الفضل أحمد بن محمد ، **مجمع الأمثال**، تحقيق: محمد محيى الدين عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، لبنان، (د.ت.ن).

٨٣. النيسابوري، الحاكم محمد بن عبد الله، **المستدرك على الصحيحين**، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى،١٤١١ه– ١٩٩٠م.

٨٤. اليوسي، نور الدين الحسن بن مسعود بن محمد، **زهر الأكم في الأمثال والحكم**، تحقيق: د محمد حجي، ومحمد الأخضر، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

## ثانيا: قائمة المراجع:


٨٥. ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله، **الدعوة إلى الله وأخلاق الدعوة**، الرياض، إدارة البحوث العلمية والافتاء، ط٤، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.

٨٦. ابن عثيمين، محمد بن صالح العثيمين، **القول المفيد على كتاب التوحيد**، مكتبة الإيمان، المنصورة،(د.م.ن)، (د.ت.ن).

٨٧. ابن عثيمين، محمد بن صالح العثيمين، **لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد**، مكتبة أضواء السلف، الطبعة الثالثة، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

٨٨. الأشقر، عمر سليمان، **الجنة والنار**، دار النفائس،عمان، ط(٧)،١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

٨٩. الألباني، محمد ناصر الدين الألباني، **سلسلة الأحاديث الصحيحة**،مكتبة المعارج للنشر والتوزيع،الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

٩٠. الألباني، محمد ناصر الدين الألباني، **ضعيف الترغيب والترهيب**، الرياض ، مكتبة المعارف، ط١، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٩١. جراد، مجيد محمود، **المدخل إلى علم الفلك**، دار دجلة، عمان، ط١، ٢٠٠٨م.

٩٢. الراشد، محمد أحمد، **صناعة الحياة**، ط١، دار الفكر، دمشق، ٢٠٠٤م.

٩٣. رضا، محمد رشيد (المتوفى: ١٣٥٤هـ)، **مجلة المنار**، ومجموعة من المؤلفين.

٩٤. الزحلف، عواد، **علم الفلك والكون** ، دار المناهج، عمان، ط٢، ٢٠٠٣م.

٩٥. الزحيلي، وهبة بن مصطفى ، **التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج**، دار الفكر المعاصر، دمشق، الطبعة الثانية،١٤١٨هـ.

٩٦. الزين، سميح عاطف، **الأمثال**، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.

٩٧. سابق، سيّد، **فقه السنة**، دار الفتح للإعلام العربي، (د.م.ن)، (د. ت. ن).

٩٨. السعدي، عبد الرحمن بن ناصر ، **تيسير الكريم الرحمن في تفسيركلام المنان**، تحقيق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، مجمع الملك فهد للطباعة، مؤسسة الرسالة، (د.م.ن)، ط١، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠ م.

٩٩. سيد قطب، إبراهيم حسين الشاربي، **في ظلال القرآن**، دار الشروق، بيروت، القاهرة، الطبعة ١٧، ١٤١٢ هـ.

١٠٠. الشعراوي، محمد متولي، **تفسير القرآن**،مطابع أخبار اليوم، ١٩٩٧م، (د.م.ن).

١٠١. الشوكاني، محمد بن علي الشوكاني، **تحفة الذاكرين بعدة الحصن الحصين**، دار القلم، بيروت، لبنان، ١٩٨٤م.

١٠٢. الصَّلاَّبي، عَلي محمد محمد، **المغول [التتار] بين الانتشار والانكسار**، الأندلس الجديدة، مصر، ط١، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩م.

١٠٣. الطهطاوي، علي، **عون الحنان في شرح الأمثال في القرآن**، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١ ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

١٠٤. عباسي، عيد الشيخ عيد ، **الدعوة السلفية**، دار الإيمان، الإسكندرية، ٢٠٠٢م.

١٠٥. علماء من نجد، **الدُّرَرُ السَّنِيَّةُ في الأجوبة النجدية**، تحقيق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، ط٦، د.م.ن، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م.

١٠٦. فارد، بريان، **موسوعة جسم الإنسان**، الغذاء وعملية الهضم(د.م.ن) (د.ت.ن).

١٠٧. الفوزان، صالح بن فوزان بن عبد الله،**عقيدة التوحيد** وبيان ما يضادها من الشرك الأكبر والأصغر والتعطيل والبدع، (د.ت.ن)، (د.م.ن).

١٠٨. قطان، مناع ، **مباحث في علوم القرآن**، ط١٣، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

١٠٩. كحالة، عمر بن رضا الدمشقي (المتوفى: ١٤٠٨هـ)، **معجم المؤلفين**، دار إحياء التراث العربي، مكتبة المثنى، بيروت (د.ت.ن).

١١٠. مجاهد، عماد، **الموسوعة الفلكية الحديثة**، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠٢م.

١١١. مجمع اللغة العربية، **المعجم الوجيز**، مصر، وزارة التربية والتعليم، ١٩٩٤م.

١١٢. مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، مكتبة الشروق الدولية،(د.م.ن)، ط٤، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م.

١١٣. مخلوف، حسنين، **كلمات القرآن، تفسير وبيان**، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

١١٤. الميداني، عبد الرحمن، **أجنحة المكر الثلاثة**، دار القلم، دمشق، ط١، ١٣٩٥هـ- ١٩٧٥م.

١١٥. النابلسي: **كلمات مضيئة ولقاءات مثمرة مع الشعراوي**، الموقع الرسمي للشيخ النابلسي.

١١٦. النابلسي، محمد راتب النابلسي، **تفسير القرآن الكريم**، دروس ومحاضرات صوتية منشورة.

١١٧. النابلسي، محمد راتب النابلسي، **خطب الجمعة** ودروس دينية مسموعة.

١١٨. النحلاوي، عبد الرحمن، **التربية بضرب الأمثال**، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط٣، ٢٠١٠م.

١١٩. النورسي، بديع الزمان، **المكتوبات** (مجموعة رسائل غير منشورة)، موقع: دهشة.

١٢٠. النورسي، سعيد، **مرشد أهل القرآن إلى حقائق الإيمان**، ترجمة إحسان الصالحي، القاهرة، سوزلر للنشر، ط٢٠٠١،٣م.



## ثالثاً: المواقع الإلكترونية:

١٢١. ar.wikipedia.org/wiki/
١٢٢. mawhopon.net/ver_ar/news
١٢٣. nabulsi1/13books/kalimamodea/intro.php
١٢٤. nabulsi.com/blue/ar/art.php?art
١٢٥. nabulsi.com/blue/ar/biography.php
١٢٦. www.binsaadi.com
١٢٧. www.dahsha.com




د. أحمد حسين الرفاعي
تَفسِيرُ القُرآنِ العَظِيمِ
٣

